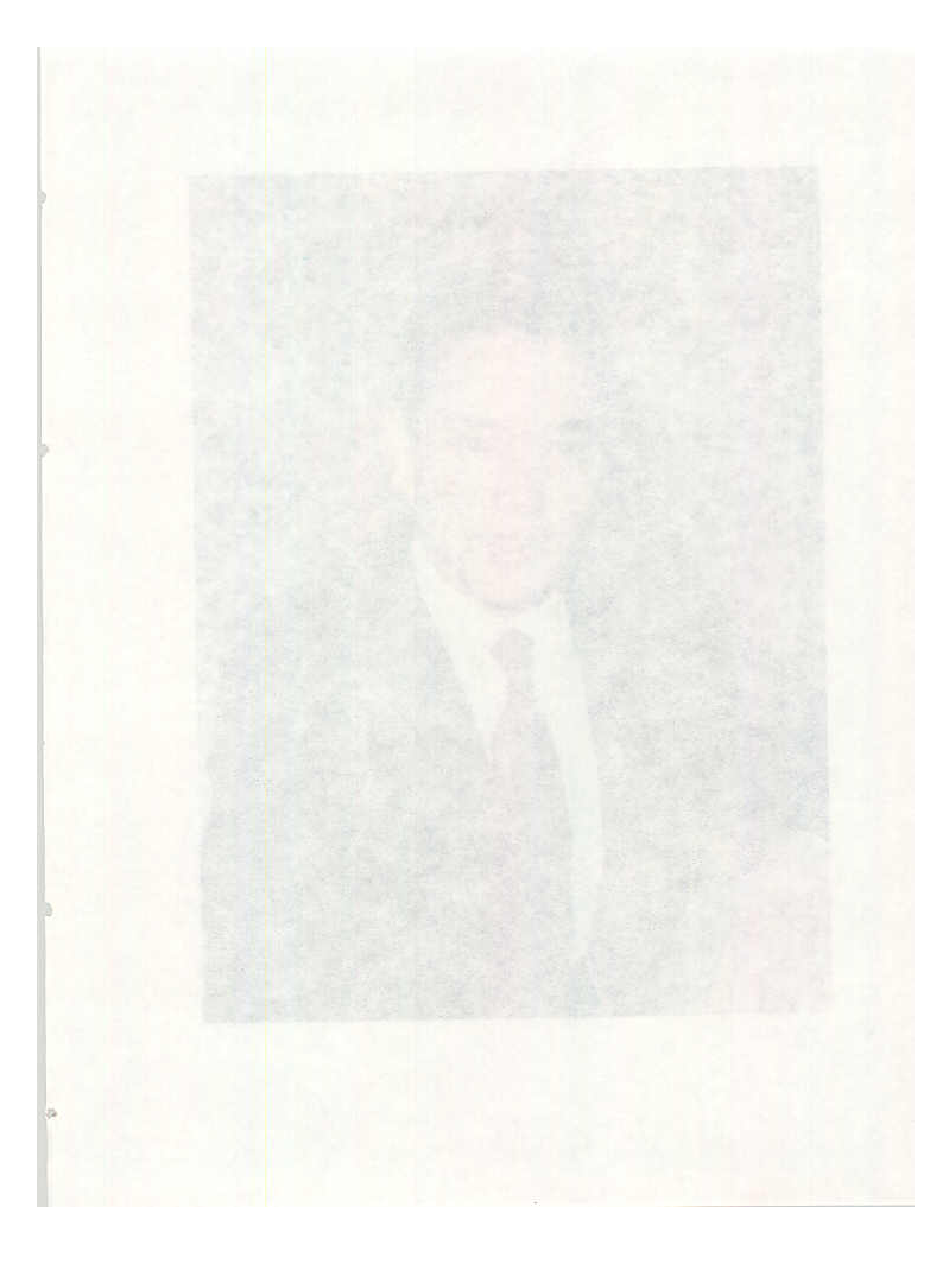
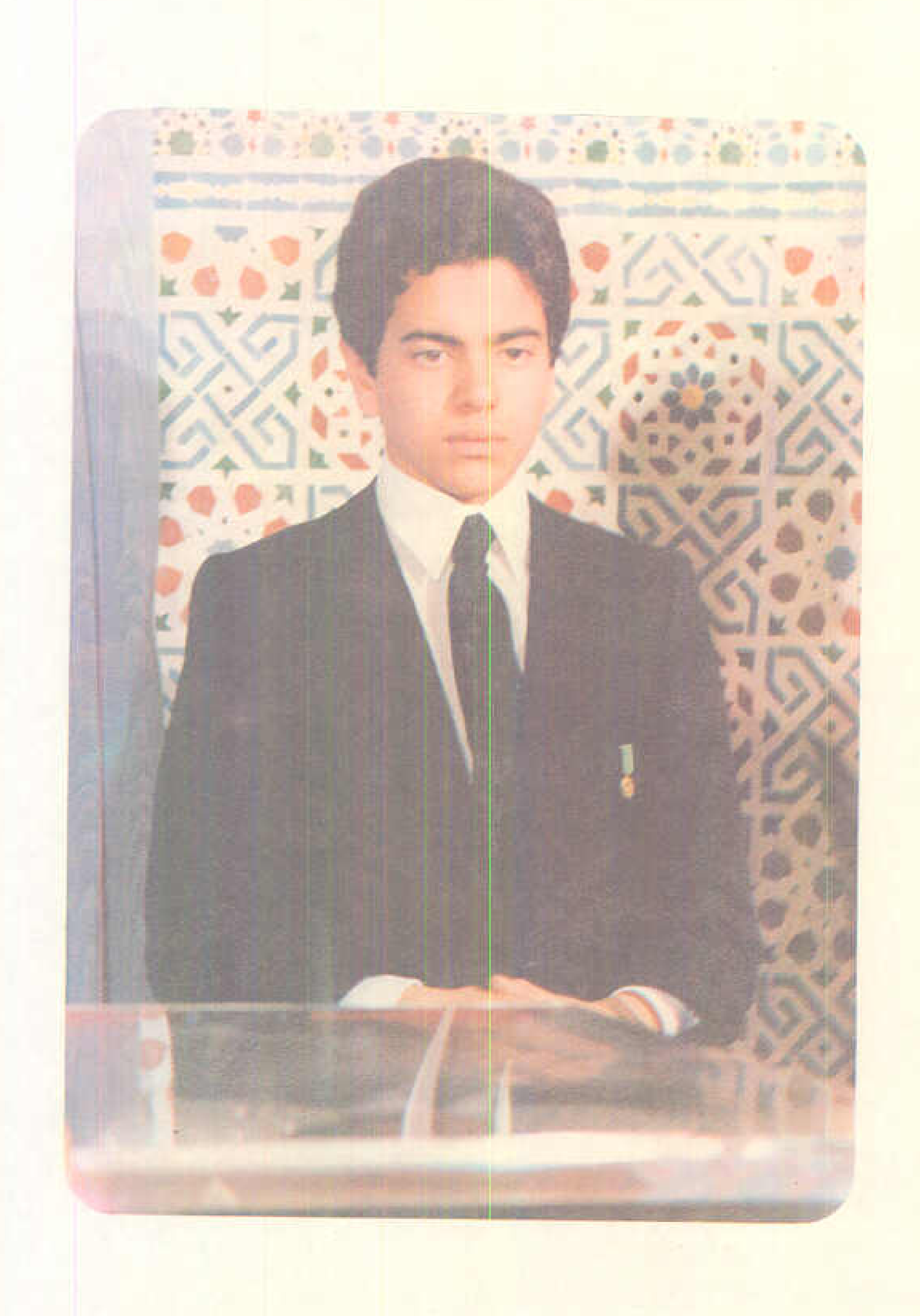

اص بعيد العرش المجيد
دعوة الحق
مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية
العرش المغربي
خلال مائتي وألف عام
من النضال والجهاد
والثبات والاستقرار
والصمود والاستمرار

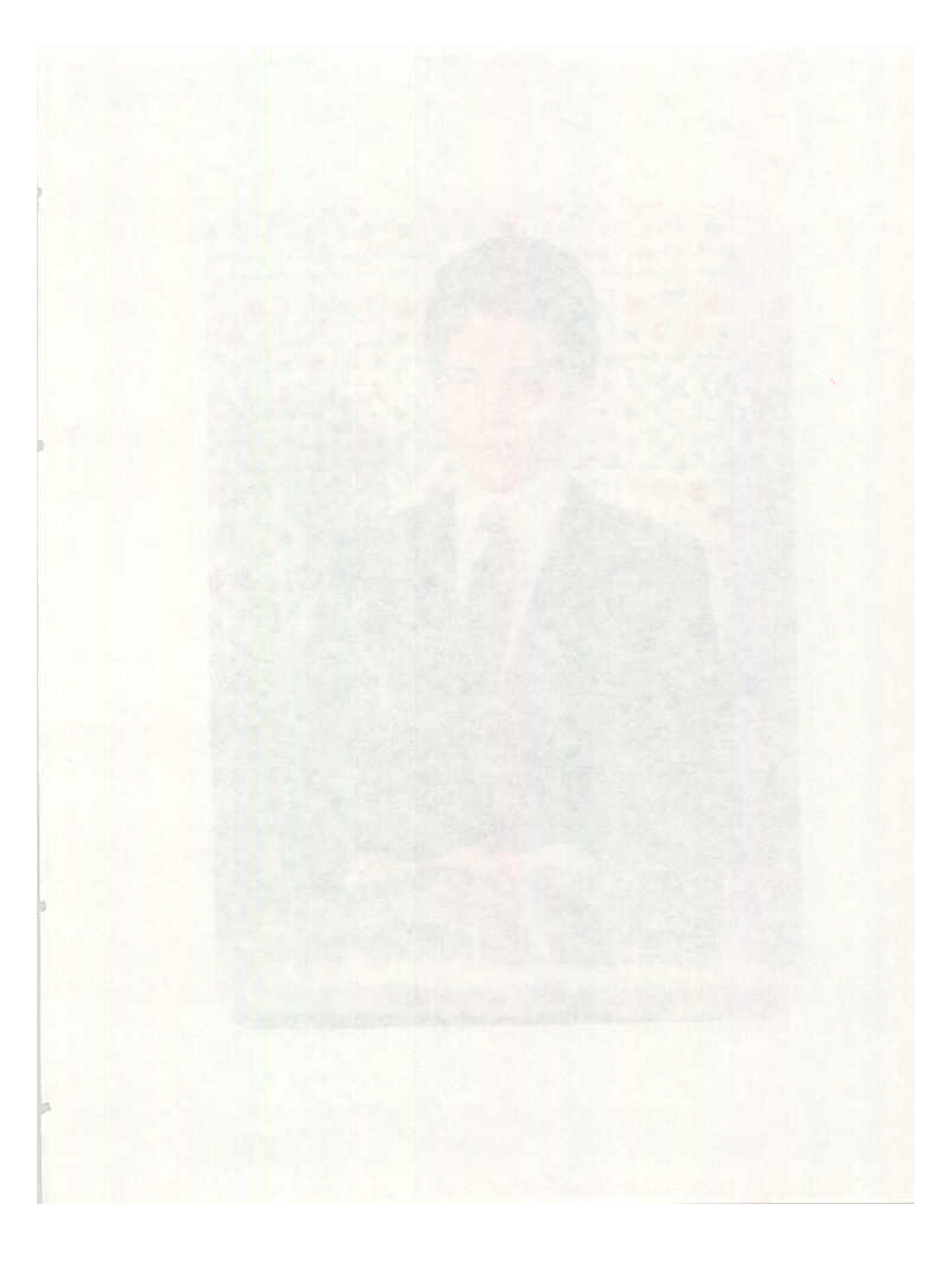












مَولاي صَاحبَ الجَلالة

في هذه المناسبة السّعيدة الغالية، وبقلوب مؤمنة، مُفعَمة بالحبّ والولاء، وعظيم الإخلاص والوفاء، تتقدّم وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، وأسرة "دعوة الحقّ" إلى المقام العالي بالله، أسماه الله وأعز أمره، حضرة صاحب الجلالة والمهابة أمير المومنين وحامي حمى الملّة والدّين مولانا الحسن الثاني، بأزكى التهاني، وأغلى الأماني بمناسبة الذكرى الثامنة والعشرين لتربّع جلالتكم على عرش أسلافكم الغرّ الميامين، وذكرى مرور مائتي وألف عام على تأسيس العرش المغربي والدّولة المغربية.

وإننا لنرجو من الله العلي القدير أن يحفظ مولانا الإمام ويُبقيه ملاذاً للوطن، وذخراً للبلاد، وحصناً منيعاً لحماية المقدّسات، وجامعاً لوحدة الأمة المغربية والإسلامية، ويُديم نصره، ويمدّ في عمره، ويُسدّد خُطاه، ويكلأه في وليّ عهده الأمير المحبوب سيدي محمد وصنوه السعيد المولى الرشيد، وباقي أفراد الأسرة الملكية الكريمة، وشعبه العظيم.

إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

المسيرة الخالدة للعرش

من إدريس الأول الى الحسن الثاني

من بوادر اليمن والإقبال، ودلائل الرضى والتوفيق، ودواعي الفخر والإعتزاز أن يحتفل الشعب المغربي الشكور، كل عام، وفي اليوم الثالث من شهر مارس بعيد العرش المجيد، الذي يخلد ذكرى تربع أمير المومنين وحامي حمى الوطن والدين على عرش أجداده المقدسين، هذا العيد الذي كتب الله له، في الأزل، أن يكون في مستهل فصل الربيع الريان، الذين تعلن فيه الطبيعة عن حبها بالعطر والريحان، ومواكب الزهور والياسمين، والألوان والألحان، حيث تستيقظ تلك الطبيعة الأنيقة الخلابة من فصل متجهم عابس باسر، إلى فصل رائق ناضر، بشوش هشوش، ينعم بالدفء والصفاء والبهاء، ويبعث الحركة والنشاط والحرارة في جميع الأحياء التي تنتشي ابتهاجا وسرورا، وتفيض غبطة وحبورا، وتأخذ الأرض زخرفها، وتزدان الرياض بألوانها، وتنتعش الغياض بعبير خمائلها، وتمرح الطيور بين أفنان الدوح، وناضر الشجر، وتبتهج النفوس بالجمال، ويفتر البشر على الشفاه، وتشرق البيوت بالأنس، لأن الأمة المغربية تستقبل في طلائع هذا الشهر، وفي عصرها الطموح الطائر، وبهذه المناسبة السعيدة عيدها الوطني الخالد الذي تعتبره من أجل أعيادها قدرا، وأرفعها ذكراً، وأبلجها أثرا...

إن عيد العرش السعيد الذي يحل كل عام في اليوم الثالث من شهر مارس، وفي مستهل فصل الربيع الذي جعله الله نشورا للحياة، ومتاعا للحي، ومعادا

للفتوة والشباب، وانتعاشا للأعشاش اللدْنة الناعمة المفردة التي تمتاز بالطهارة والغضارة والنضارة، والبركة والإنتاج، ليشير إلى هذه المعاني كلها....

وما احتفال الشعب المغربي بهذه الذكرى الغالية، ذكرى جلوس سيد البلاد، وتتويج صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله على عرش أسلافه المنعمين، إلا تمجيد للتاريخ الحافل الذي تضافر على تسطيره وتحبيره شعب طموح ناهض، وملوك لهم في سجل التاريخ الخالد أياد، استيقظ في عهدهم المجد، وعقد النصر المؤزر في حياتهم لواء، لأنهم أقاموا قواعد المجتمع على أساس من الخير، وعمموا العدالة والإحسان، وهدوا، بسلوكهم، النفوس الشاردة إلى المقصد النبيل، والهدف الأسمى، والسبيل القويم، والنهج اللاحب.

☆ ☆ ☆

لقد وجد الشعب المغربي - وما يزال في العرش المجيد الذي قوي بقوة الله، وثبت ثبوت الحق، ملاذا لتوثيق العقدة، وجمع الشتات، وتحقيق الوحدة، وتأليف القلوب، كما كان هذا العرش العتيد - وما يزال - رمزا للحيوية الثائرة، والوطنية القويمة، والتضحية المومنة، والإرادة الحكيمة، والاستبسال الشجاع في درء الأخطار المهددة للوطن، ودفع المكاره الكالحة التي ترمي إلى عرقلة سيره، وتعويق حركته، وشل نشاطه مما كان يأخذ بالألباب، ويثير الدهش ويبعث الإعجاب..

إنه الحب المكين المتبادل الذي ربط العرش بالشعب برباط وثيق يعلو على تيارات الأغراض ونزواتها، والأهواء وتقلباتها، والسياسة واهتزازاتها، وكل من اتبع هواه وكان أمره فُرُطا، من أجل ذلك ظفرت الدولة المغربية في مختلف الحقب والأزمان، بجمال الذكر، وحسن الأحدوثة، فقد عرفت بنضالها المستمر، وجهادها وكفاحها المستميت، في سبيل المبدأ والعقيدة، وتميزت، إلى ذلك، بمظاهر علمية، وأثر خالد في تاريخ الفكر العربي والإسلامي في دنيا الحياة، وصوت مرْنان في ربوع العالم، وحضارة يانعة، استقامت معها الموازين، وتعادلت فيها القوى، وتعاونت فيها المواهب والعقول.

☆ ☆ ☆

والمغرب ذو التاريخ الأزلي، والتراث الخالد، والأمجاد العريقة، والبطولات الفائقة الرائعة، والحضارات اليانعة، والدين المتين، والعقيدة السليمة، والخلق الصحيح، كتب تاريخه منذ العهد القديم، ولا سيما منذ تأسيس الدولة المغربية، بدماء شهدائه، وسجل كفاحه بمداد التضحية والفداء، في سبيل نصرة الحق والعدل والكرامة... وقد أملى على التاريخ صفحات مشرقة من ألوان البطولة والفداء، واختار الطرق الواضحة التي لا ينكص عنها ولا يضل، تحفزه عقيدة سليمة، ونفسية كريمة، وانضباط مخلص، وطاعة وقول معروف... لأنه عقد

النية على أن يعيش كريما، أو يموت كريما، ونذر دماءه الزكية للدين والوطن المحبوب، لا يطمع في شيء، ولا يحشر نفسه في شؤون الغير، ولا يُنغِض رأسه ممن غام عليهم الأفق في مهب الرياح الهوج، واستعجم عليهم المسلك في مضطرب الموج، بل ما عرف عنه إلا إنجاد الصريخ، وإغاثة اللهفان، ورفد المحروم، وإغاثة المكروب، ونجدة المغلوب، ثم هو بعد ذلك يخرج من محنه وأزماته، وهو أشد توهجا، وأكثر تألقا، وأعمق إيمانا، وأعلى هامة...

☆ ☆ ☆

لقد جاهد هذا العرش المغربي، منذ تأسيسه، في سبيل حياة الأمة المغربية واستقلالها، وكابد بَرَحَاء المشاكل والصعاب في سبيل وحدتها وسيادتها، وناله ما نالها من الصعاب والمعوقات، وأظهر الشعب معه التحاما والتئاما، وقوة وصمودا حيث أكد في غير ما مناسبة بأن هذا العرش من الشعب وإليه.

☆ ☆ ☆

وان من مشاعر البهجة والسرور، وبواعث الغبطة والحبور أن تقترن هذه الذكرى المجيدة، ذكرى الثامنة والعشرين لجلوس صاحب الجلالة الحسن الثاني، على عرش أسلافه المنعمين بذكرى جليلة خالدة، لها مكانها في التاريخ، وتقديرها في القلوب، وعبرتها في الأجيال الماضية والحاضرة، وما يستقبل منها...

ففي السادس من شهر فبراير الماضي تم استكمال العرش المغربي من حياته الحافلة مرور مائتي وألف عام على تأسيس الدولة المغربية، والعرش المغربي، وتكوين الأمة المغربية على يد المولى ادريس الأول بن عبد الله الكامل بن الحسن بن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المومنين علي بن أبي طالب، والسيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد ﷺ.

☆ ☆ ☆

جاء المولى ادريس مؤسس الدولة المغربية، من الجزيرة العربية، ومهبط الوحي فارا بدينه، وطالبا بحق جده، فوجد شعبا مغربيا أصيلا، بادله العطف، وقاسمه المحنة، فقويت نفسه، وانتعشت آماله، لايحتاج إلا لمن يأخذ بيده، لاسيما إذا كان من النبعة النبوية وعترة الرسول.. ومنذ ذلك الحين، تبلور في المغرب ولأول مرة، في تاريخه، معنى الدولة، واتضح شكلها، وأصبح المغرب يعتبر المجتمع السياسي الأعلى الذي يضم مختلف السلطات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، إدراكا منه رضي الله عنه بأن الدولة هي الوسيلة الوحيدة لجمع هذا الشعب، والتي يتم بواسطتها - دستوريا - جمع شمل المجتمعات البشرية المتقدمة في إطار سياسي سليم...

إن الاحتفال بعيد العرش، في هذه السنة واقترانه باستكمال الدولة المغربية مرور مائتي وألف عام على تأسيسها، وفي حياة مولانا الإمام الحسن الثاني، لمما يؤكد خلود العرش المغربي الذي تحدى القرون، وما يزال قويا ثابتا، وطيد الأركان، مرفوع القواعد، ثابت الأسّ، شامخ الذرى، يحميه شعب بطل، داوم الكفاح والجهاد بهمة الجَلْد الصبور المستميت، وأشعل نار الجهاد المقدس ضد الدخيل الواغل، والحسود الماكر، وأسس عهدا مكينا مدعما بالجد النزيه، والمثابرة العاملة النشيطة، والوحدة التي ينزع إليها المغاربة بطبيعتهم، فهم في العقيدة على مذهب الأشعري، وفي الفقه على مذهب مالك، وفي التلاوة على قراءة نافع، برواية ورش...

☆☆☆

فإذا احتفل الشعب المغربي، بهاتين المناسبتين الوطنيتين الخالدتين في هذا اليوم الأغر الأبلج الذي تومض فيها العيون بالغبطة، وتفيض القلوب بالبشر والسرور، ويعبر فيه الشعب عن شديد التعلق، ومتانة الروابط، وشتى المشاعر والأحاسيس التي يختزنها في نفسه وسره طوال أيام السنة، كما تختزن الشجرة ثمارها إلى أن يحيي الموسم الموعود، لتعلن عن الحضور والوجود، فإنما يحتفل بعرش مجيد طالما أسدى لهذه البلاد، منذ تأسيسه، كل خير، وحقق لها آمالها العذاب، وبوأها مقاما كريما بين الأمم والشعوب، أصبحت معه قريرة العين، حرة الإرادة، مطلقة السيادة، تواصل سعيها - وهي مومنة - لتحقيق حياة باقية صافية تشفي صدور قوم مومنين.

دعوة الحق

الملفّ الكامل
لافتتاح أشغال
مؤتمر القمّة التّأسيسي
لدول المغرب العربي الموحّد
بمدينة مراكش

رجب 1409 - فبراير 1989

إفتتاح أشغال مؤتمر القمة التأسيسي لدول المغرب العربي الموحد بمراكش

عاشت مدينة مراكش أرض التلاقي وقلعة الصمود ورمز الوحدة لحظات تاريخية في نهاية صباح يوم الخميس 16 فبراير عام 1989م وكانت شاهدا أمينا على تأسيس المغرب العربي الموحد وتحقيق الحلم الكبير الذي راود الآباء والأجداد.

وبخطى ثابتة وبالواقعية المطلوبة والإرادة السياسية القوية والمسؤولية التاريخية الجسيمة وضع قادة المغرب العربي أسس البناء المغاربي والتزموا سويا برعاية هذا الإنجاز العظيم الذي قال عنه جلالة الملك الحسن الثاني: «إنه أمانة تجب رعايتها حتى تبقى ترتبط في ظلال ديننا الحنيف وتحت شعار مغربنا العربي الكبير».

لحظات تاريخية عاشتها مدينة مراكش ومعها كافة العواصم والشعوب المغاربية، وقد نابت جماهير المواطنين في هذه المدينة التاريخية العتيقة عن باقي المواطنين من شعوب المنطقة في التعبير عن مباركتها للخطوة التي أقدمت عليها القيادة والتي تستجيب في الواقع لآمال وطموحات شعوب المغرب العربي فقد خرجت الجماهير المراكشية عن بكرة أبيها لتحية القادة المغاربيين ضيوف جلالة الملك الحسن الثاني، وزينت شوارع المدينة بالأعلام الوطنية الخمسة واللافتات التي تعبر عن عظمة الحدث، ومطامح الشعوب المغاربية في الوحدة كطريق للبناء والتشييد، وضمان الرخاء والعزة والازدهار.

وقد قوبلت مواكب زعماء المغرب العربي الكبير بالترحاب والزغاريد والتصفيقات الحارة والهتافات التلقائية التي تعبر عن فرحة التلاقي والتضامن والوحدة.

وكان الزعيم الليبي العقيد معمر القذافي أول من وصل إلى قصر البلدية الذي احتضن اللقاء التأسيسي لدول المغرب العربي الموحد ووصل على التوالي إلى مقر قصر بلدية مراكش كل من فخامة الرئيس الجزائري الشاذلي بنجديد وفخامة الرئيس الموريتاني معاوية ولد سيدي أحمد ولد الطايع، وفخامة الرئيس التونسي زين العابدين بن علي.

وقد رافق القادة المغاربيين كل على حدة صاحب السمو الملكي الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد، إلى مدخل مقر بلدية مراكش، حيث وجدوا في استقبالهم صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، وبعد تناول التمر والحليب عربون كرم الضيافة المغربية التحق رؤساء الدول المغاربية بمقر المؤتمر.

وبعد استراحة قصيرة افتتح مؤتمر القمة التأسيسي لدول المغرب العربي الموحد بقصر بلدية مراكش بآيات بينات من الذكر الحكيم، بعدها ألقى جلالة الملك الحسن الثاني الذي كان محفوفا بولي العهد صاحب السمو الملكي الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد كلمة قيمة أبرز فيها أن اللحظة التاريخية التي تعيشها دول المغرب العربي مبتهلا العلي القدير أن يجعلها معلمة بيضاء غراء مبرزا أن حلم الآباء والأجداد يتحقق اليوم، ودعا جلالته إلى رعاية هذا الميراث وتلقينه للأبناء والأحفاد حتى تبقى ترتبط في ظلال ديننا الحنيف وتحت شعار المغرب العربي الكبير.

وختم جلالة الملك كلمته بتوجيه الشكر للرؤساء المغاربيين على استجابتهم دعوة جلالته، كما عبر جلالته عن فخر واعتزاز المغرب وشعب المغرب بهذا اللقاء الذي قال إنه سيبقى مسطورا في تاريخنا المغربي والمغاربي بحروف الذهب والاعتزاز.

* * *

وبعد ذلك تناول الكلمة الزعيم الليبي العقيد معمر القذافي نيابة عن رؤساء الدول المغاربية الذي أعرب عن اعتزازه بالحفاوة التي خصت بها مدينة مراكش قادة دول المغرب العربي مدينة مراكش التي قال عنها إنها إحدى العواصم التاريخية العربية والإسلامية وإحدى القلاع التي كانت صامدة في وجه المطامح الاستعمارية.

وقال إن استقبال جماهير مدينة مراكش تعتبر تتويجا للحضارة والكرم والروح الأخوية التي غمرنا بها جلالة الملك الحسن الثاني منذ وصولنا إلى بلدنا هذا مراكش.

وأثنى الزعيم الليبي على الكلمة القيمة التي تفضل بها جلالة الملك في افتتاح مؤتمر القمة التأسيسي للمغرب العربي الموحد مشيرا إلى ما جاء في كلمة العاهل الكريم من إشارة إلى التاريخ المشترك والمجد التليد وما يجب أن تتحمله دول المنطقة من مسؤولية تجاه هذا التراث العظيم.

وأضاف الزعيم الليبي بأن المنطقة على عتبة مرحلة جديدة تسمح بالقول ان مرحلة الإقليمية والانعزالية والتشتت والتمزق قد ذهبت إلى غير رجعة وقال العقيد معمر القذافي: إن اجتماعنا هنا يدل على أن الإرادة قد تغلبت على عوامل الشك وعدم الثقة ورواسب الإقليمية لكي يسود الأمن هذه المنطقة لصنع الغد.

واستطرد الزعيم الليبي قائلاً : إن هذا العمل يفتح الطريق أمام عصر جديد لبناء مغرب عربي موحد لصالح كل الشعوب المغاربية وان الذي يهم في عملية بناء المغرب العربي الموحد هو جمع الإمكانيات الاقتصادية المغاربية لصنع التقدم والازدهار ثم إيجاد طريق للأمن والدفاع الجماعي للمغرب العربي وحمايته من أطماع القوى الأجنبية.

وقال العقيد القذافي في نهاية كلمته : إننا مدعوون للقاء مغاربي في ليبيا في الفاتح من شتنبر لمواصلة المشوار.

وقبل رفع الجلسة طلب جلالة الملك الحسن الثاني بأن تقرأ الفاتحة على أرواح الشهداء وأن تكون قسما أمام الله وأمام الشعوب المغاربية كي نبقى أوفياء لما التزمنا به.

* * *

حضر افتتاح الجلسة عن الجانب المغربي صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد والوزير الأول الدكتور عز الدين العراقي ومستشار صاحب الجلالة السيد أحمد رضا كديرة ووزير الشؤون الخارجية والتعاون السيد عبد اللطيف الفيلالي ووزير الداخلية والإعلام السيد ادريس البصري ووزير المالية السيد محمد برادة ووزير الدولة مولاي أحمد العلوي وسفير جلالة الملك بالجزائر السيد عبد القادر بنسليمان.

كما حضر الجلسة الافتتاحية أعضاء الوفود الرسمية المشاركة في أشغال القمة.

وكان قادة رؤساء الدول السادة معمر القذافي والشاذلي بن جديد وزين العابدين بن علي ومعاوية ولد سيدي أحمد الطايع قد غادروا مقر إقامتهم في اتجاه قصر البلدية مارين عبر أهم شوارع مدينة مراكش وخاصة ممر النخيل وعين إيطي و 11 يناير ويعقوب المنصور وبن عائشة ومحمد الخامس خصص سكان إقليم مراكش الذين احتشدوا على جنبات هذه الشوارع وساحات بئر أنزران وعبد المومن بن علي و 16 نونبر والحرية وباب النقب استقبالا حماسيا رائعا لقادة الدول الأربعة عكسوا من خلاله مشاعر المحبة والود التي يكنونها لهم وكرم الضيافة وحسن الاستقبال التي يخصصها الشعب المغربي كعادته لضيوف جلالة الملك الكبار.

وبلغ هذا الاستقبال أوجه بساحة الحرية المفروشة الزرابي المختلفة الأحجام والتي زينت جنباتها بخمسة صور من الحجم الكبير لقادة الدول الخمس والأعلام الوطنية ولافتات كتبت عليها شعارات تؤكد أن قمة مراكش لبنة هامة في تحقيق مصير مشترك وان الوحدة المغاربية مسؤولية قومية وتاريخية.

كما تميز الاستقبال بهذه الساحة بأهازيج ورقصات الفرق الفلكلورية التي جاءت من مختلف أنحاء المملكة وعروض فتيان وفتيات قطاعات التعاون الوطني والشبيبة والرياضة والتربية الوطنية الشيء الذي يبرز بجلاء أن مدينة مراكش تعيش بالفعل لحظات عرس تاريخي طالما انتظرت شعوب المنطقة تحقيقه.

وقد حضر إلى ساحة الحرية ليكونوا في مقدمة المرحبين بضيوف جلالة الملك المنتخبون ونواب الإقليم بالبرلمان ورئيسا المجلسين البلدي والإقليمي وباشا المدينة وأعضاء الهيئة القضائية والمجلس العلمي والأعيان والشرفاء ورجال السلطة المحلية المدنية والعسكرية وعمداء الكليات ورؤساء المصالح الإقليمية.

وعندما كان موكب كل رئيس يمر من الساحة التي تبعد عن مقر البلدية بحوالي مائة متر كانت مجموعة من الفتيات تقوم بنثر الورود في حين ترتفع من هنا وهناك زغاريد النساء والجماهير الغفيرة التي غصت بها جنبات الساحة والتي جاءت لتقول للقادة اننا أبناء أسرة واحدة.

* * *

ولدى وصول قادة الدول المشاركة إلى ساحة قصر البلدية حيث قدم لهم التمر والحليب وجدوا في استقبالهم بمدخل قصر البلدية صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني الذي كان محفوفا بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي مولاي رشيد.

هذا وقد توج مؤتمر القمة التأسيسي لدول المغرب العربي الموحد بالتوقيع على وثيقة عقد التأسيس قبل أن أدى الرؤساء صلاة الجمعة بمسجد الكتبية العتيق.

* * *

وقد عقد جلالة الملك الحسن الثاني كذلك ندوة صحفية سلط فيها الأضواء على لقاء القمة المغاربي.

هذا وكان قادة دول المغرب العربي الخمس قد عقدوا مساء يوم الأربعاء 15 فبراير 1989م اجتماعا دام من الساعة العاشرة مساء إلى الواحدة والنصف صباحا عقب مأدبة العشاء التي أقامها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني على شرف ضيوفه الكبار بجنان الكبير.

وقد تميز اجتماع قادة الدول المغاربية الذي حضره مساعدوهم الأقربون بتطابق وجهات النظر حول أغلب القضايا المطروحة والتي تتعلق بمستقبل التعاون بين الدول المغاربية الخمس وذلك في إطار البحث عن الصيغة المتعلقة ببناء صرح المغرب العربي الكبير التي أعلن عنها في ختام أشغال القمة.

وتجدر الإشارة إلى أن وزراء خارجية دول المغرب العربي عقدوا هم أيضا جلسة عمل بقصر المامونية برئاسة السيد عبد اللطيف الفيلالي وزير الشؤون الخارجية والتعاون وذلك لوضع اللمسات الأخيرة على الوثائق التي عرضت على أنظار قادة الدول.

كما أن قادة دول المغرب العربي أجروا عدة محادثات ثنائية بموازاة اجتماع عقده وزراء الشؤون الخارجية عشية الافتتاح الرسمي لأشغال قمة قادة المغرب العربي.

فقد اجتمع الرئيس الجزائري السيد الشاذلي بنجديد بمقر إقامته بمراكش مع السيد زين العابدين بن علي رئيس الجمهورية التونسية.

وتم خلال الاجتماع حسب نفس المصادر بحث مسلسل بناء صرح المغرب العربي.

ومن جهة أخرى أجرى قائد الثورة الليبية العقيد معمر القذافي بمقر إقامته بمراكش محادثات مع الرئيس التونسي كما أجرى الرئيس الموريتاني العقيد معاوية ولد سيدي أحمد الطايع من جهته مساء أمس محادثات مع الرئيس زين العابدين بن علي.

وكان حفل العشاء الذي أقامه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني على شرف قادة بلدان المغرب العربي مناسبة لإجراء مشاورات معمقة بين القادة المغاربيين بهدف إنجاح قمة مراكش.

وعقد وزراء الشؤون الخارجية بالمغرب والجزائر وليبيا وموريتانيا وتونس من جهة أخرى اجتماعا بفندق المأمونية بمراكش تم خلاله بحث الوثائق التي ستعرض على القمة المغاربية.



قادة المغرب العربي وهم يغادرون القصر الملكي، بعد اجتماع أخوي

نظم المجلس البلدي بمراكش عقب انعقاد المؤتمر التأسيسي لاتحاد المغرب العربي الموحد حفلا كبيرا على شرف القادة الأربعة لبلدان الجزائر وتونس وموريتانيا وليبيا لمنحهم صفة مواطن شرفي وتقديم هدايا رمزية باسم سكان مدينة مراكش. وكان المجلس عقد دورة استثنائية برئاسة الأستاذ محمد الوفا الذي ألقى في البداية كلمة جاء فيها :

إن موضوع هذه الدورة الاستثنائية هو تشريف جديد لمدينة مراكش من طرف جلالة الملك الحسن الثاني وأن المجلس قرر في دورته الاستثنائية بجميع أعضائه منح صفة مواطن شرفي للسادة رؤساء دول الجزائر وليبيا وتونس وموريطانيا، وبهذا التشريف الذي يتم بمناسبة انعقاد المؤتمر الأول لدول المغرب العربي الموحد سيعزز المجلس البلدي لمراكش العمل الوحدوي الذي تعرفه المنطقة بتكريس حقيقة هذه الوحدة.

☆☆☆

وقد اختتمت زوال يوم الجمعة بقصر بلدية مراكش أشغال مؤتمر القمة التأسيسي لاتحاد المغرب العربي تحت رئاسة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني وبحضور رئيس الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية السيد الشاذلي بنجديد ورئيس الجمهورية التونسية السيد زين العابدين بن علي وقائد ثورة الفاتح من سبتمبر للجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى العقيد معمر القذافي ورئيس الجمهورية الإسلامية الموريتانية السيد معاوية ولد سيدي أحمد الطايع.

وفي بداية الجلسة الختامية أعطى صاحب الجلالة الكلمة للسيد أحمد بنسودة مستشار جلالته لتلاوة نص إعلان ميلاد اتحاد المغرب العربي.

وهكذا سيظل يوم الجمعة 10 رجب 1409 هـ موافق 17 فبراير 1989م يوما مسطورا بمداد من ذهب في تاريخ وطننا وتاريخ الشعوب المغاربية التي سجلت باعتزاز وفخر تجسيد حلم رواده أجيالا ماضية، وأجيال الاستقلال والجيل الحالي.

فبفضل إرادة قادتنا، وبفضل عزيمتهم على المضي قدما على طريق الوحدة والاندماج، استطاع زعماء اتحاد المغرب العربي أن يضعوا لبنات هذا البنيان الشامخ الذي يرمز إلى أكثر من طموح، إلى أكثر من هدف إلى ملايين التطلعات لمستقبل أفضل، مزدهر مستقبل تكون فيه منطقتنا بؤرة للإيخاء وبحيرة للعمل من أجل سعادة أبنائها ورفاهيتهم وازدهارهم إن بهذا الاتحاد المبارك سيكون بوسع دولنا، وشعوبنا أن تكون قد أدت الأمانة وسارت على النهج السليم وأوفت المسؤولية حقها وهي «مسؤولية لا يمكن أن يتصورها المتصور كيفما كان إيمانه أو خياله أو طنيته وهذه المسؤولية هي رعاية الأمانة وهي ضرورية لكي تظل شعوبنا ترفل في عزة المجد والإخاء» «فعلينا أن نرعى حتى نبقى نرتع في ظلال ديننا الحنيف وتحت شعار مغربنا العربي الكبير».

وإعلان اتحاد المغرب العربي، من عاصمة الموحدين، مراكش يحمل في طياته أيضا أكثر من رمز وأكثر من دلالة فهو إشارة تاريخية إلى وحدة الماضي التليد ووحدة المصير، إنه تعبير مفعم بالعزة والفخر عن تضامن شعوبنا وتلاحمها عبر مراحل التاريخ وإرادتها المشتركة فى الذهاب يدا في يد تغزو المستقبل وفتح أبوابه بقوة وعزم أمام تطلعات الأجيال الحاضرة والقادمة.

فبوضع لبنات البناء المغاربي الموحد يكون زعماء الاتحاد قد وضعوا عربة السير على خط الاستمرارية والتواصل لربط الماضي بالحاضر وبناء المستقبل على تراث خالد باحثين عن سبل إغنائه وإثرائه بمزيد من العطاء والتسامح والتفاهم والحوار.

ومن أرض الحوار والتلاقي، ومن عاصمة الموحدين ينطلق الاتحاد المغاربي بفضل بناة صمموا العزم على البناء فبنوا وبفضل رجال أرادوا السير معا فساروا بشعوبهم على طريق الوحدة والإخاء.

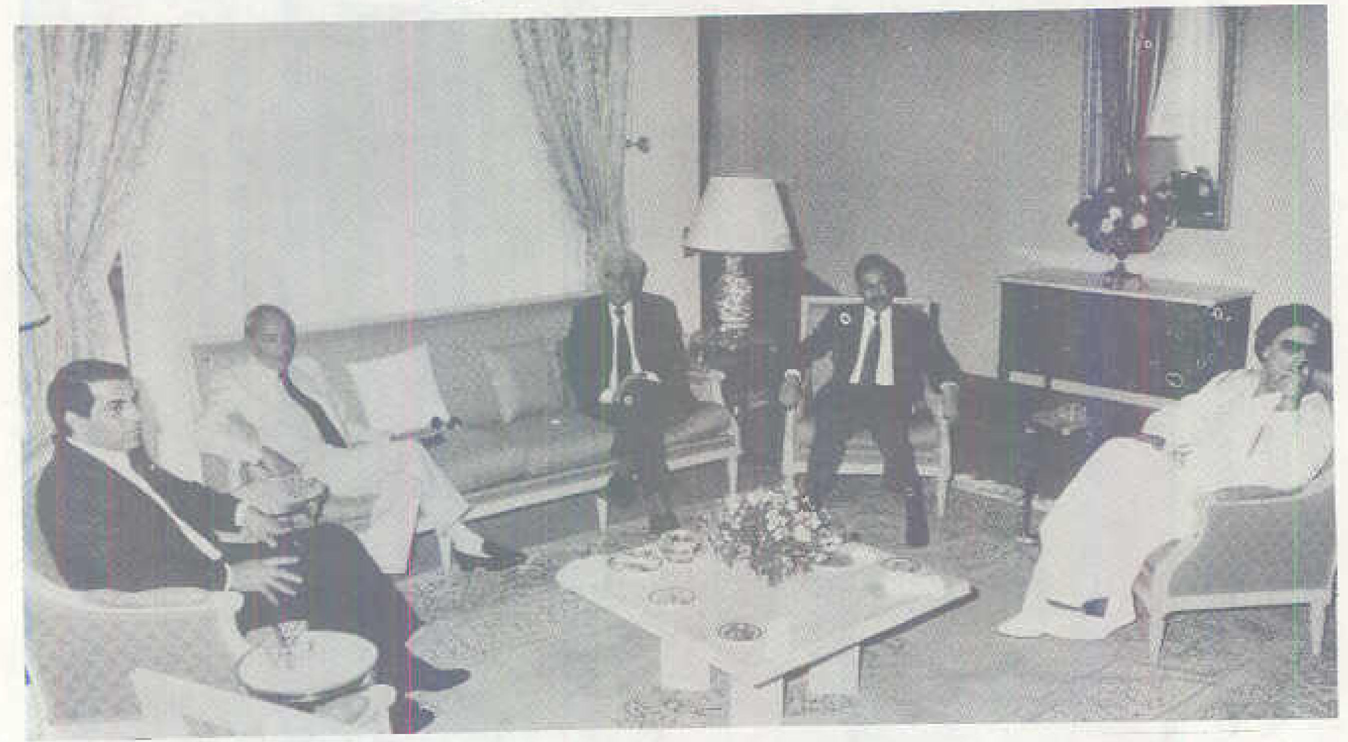
فليشهد التاريخ لجلالة الملك الحسن الثاني، وللرؤساء بنجديد، وبن علي، ومعمر القذافي ومعاوية ولد سيدي أحمد الطايع بهذه المعلمة التي وضعوها لأجيال شعوبنا الحاضرة والقادمة حتى لاتزيغ عن طريق وتظل سائرة على نهج التوحيد والوحدة.

ولقد كان إعلان قيام اتحاد المغرب العربي يوم الجمعة من عاصمة الموحدين يحمل في طياته أيضا نكهة الإيمان والتوحيد. وكانت شعوب منطقتنا كلها تنتظر هذا الإعلان التاريخي لتنطلق الهتافات والزغاريد ولتسقط الحدود وعناصر التفرقة أمام قوم الاندفاع وسفينة المصير المشترك لتحملها على متنها في عباب المستقبل وتحدياته ففي الجلسة الختامية للقمة التأسيسية التي انعقدت بقصر بلدية مراكش يوم الجمعة على الساعة الواحدة والنصف تم الإعلان عن ميلاد اتحاد المغرب العربي وذلك من خلال تلاوة نص العقد التأسيسي من قبل مستشار صاحب الجلالة، السيد أحمد بنسودة، أمام صاحب الجلالة الحسن الثاني، والرئيس الجزائري الشاذلي بنجديد، والرئيس التونسي زين العابدين بن علي، والرئيس الليبي معمر القذافي، والرئيس الموريتاني معاوية ولد سيدي أحمد الطايع ومن خلالهم أمام شعوب المغرب العربي الموحد والقارة الإفريقية والعالمين العربي والإسلامي وأمام المجتمع الدولي إنه ميلاد التطلع المغاربي لشعوبنا، وتكريس لطموحاتها.



لحظة الفرح العارمة كانت تخفي في الواقع جهداً مضنياً من الاتصالات والمناقشات التي لم تنقطع طوال ثلاثة أيام أمضاها قادة دول المغرب العربي في مراكش، المدينة التي انطلق منها المرابطون والموحدون لتوحيد المنطقة.

خطاب جلالة الملك الحسن الثاني في افتتاح اشغال القمة التأسيسي لدول المغرب العربي



رؤساء دول المغرب العربي يتحادثون بإحدى قاعات مصطاف الرئيس الجزائري.

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

أعزائي وأشقائي رؤساء دول المغرب العربي الكبير.

أصحاب المعالي.

حضرات السادة.

إنها لحظة تاريخية هذه التي نعيشها اليوم جعلها الله سبحانه وتعالى معلمة بيضاء غراء في طريقنا للمستقبل تنير لنا الطريق وتهتدي بها الأجيال الصاعدة والمقبلة.

إننا نحقق اليوم حلما خامر أباءنا وأعمامنا وإخواننا ومن سبقونا، لأنهم كانوا دائما يحسون أنه رغم الحواجز ورغم البعد والنوى ورغم الاستعمار كانوا دائما يجدون في أنفسهم لواعج حنين لأيامنا الزاخرة المشرقة تلك الأيام التي كان فيها مغربنا العربي الكبير جناحا للعروبة والإسلام جناحا وأي جناح.

وقد حبانا الله سبحانه وتعالى وحبا مواطنينا بهذه النعمة ولكن في آن واحد قلدنا مسؤولية لايمكن أن يتصورها المتصور كيفما كان إيمانه أو خياله أو وطنيته لأنها مسؤولية ترتبط أولا بواجباتنا نحو شعوبنا ثم نحو أشقائنا العرب ثم نحو إخواننا في القارة الإفريقية وفي العالم الإسلامي وفي النهاية نحو العالم كله.

ولا عذر لنا لأن ماضينا الحضاري والثقافي شاهد علينا وهو ماضي الرجال الأفذاذ المجاهدين الأبرار الذين كانوا دائما يحاربون لنشر كلمة الله والعدل والأمان والطمأنينة بأقطار المعمور التي وصلوا إليها فبنوا صرحا، علينا أن نتعهده، وبنوا لنا سمعة، علينا أن نبقى أوفياء لطهارتها، وتركوا لنا ميراثا، علينا أن نرعاه صباح مساء وأن نلقنه أبناءنا وحفدتنا حتى إذا وقفنا أمام الله وجدنا أنفسنا قد قمنا بالأمانة وقد أدينا الواجب.

يقول النبي ﷺ في حديث رواه الإمامان والكتب الستة : «إذا ضاعت الأمانة فانتظر الساعة» والساعة هنا ليست القيامة بل تدهور الأحوال والخروج من طور الرخاء والهناء إلى طور الفتن والفناء. فعلينا إذن أن نرعى الأمانة حتى نبقى نرتع في ظلال ديننا الحنيف وتحت شعار مغربنا العربي الكبير.

ومرة أخرى أشكركم أشقائي جزيل الشكر على استجابتكم لدعوتي وان بلدي وشعبي لفخوران بهذا اللقاء الذي سيبقى مسطرا في تاريخنا المغربي والمغاربي بحروف من الذهب والاعتزاز.

ولنجعل مسك الختام آية من كتاب الله سبحانه وتعالى إذ يقول : ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم» صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

نصّ الكلمة الملكيّة السّامية

على إثر كلمة الرئيس التونسي في الجلسة الختامية للقمة المغاربية بمراكش بعد ظهر الجمعة ألقى جلالة الملك الكلمة التالية :

أريد أن أذكر فخامة الرئيس زين العابدين أن لفظ الشكر أصبح غير موجود في قاموس دول المغرب العربي.

وباسم الشعب المغربي قاطبة وباسم مدينة مراكش أرجو منكم أن تقبلوا تشكراتنا العاطفية العميقة عن الكلمات الرقيقة التي وجهتموها إلينا أصالة عنكم وعن أشقائنا الموجودين هنا.

وقبل أن نعلن اختتام هذا المؤتمر السعيد لنتبرك بهذه الآية القرآنية الكريمة التي اعتبر أنها جامعة شاملة حيث قال سبحانه وتعالى :

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله.





كان المشهد داخل قصر البلدية في مراكش مؤثراً ـ بعد التوقيع على معاهدة اتحاد المغرب العربي، قال الملك الحسن الثاني : «الآن.. أعتقد أنه لابد من العناق» ونهض من مقعده ليصافح الرّؤساء الأربعة الذين شرعوا في التصفيق في حين بدأ العقيد معمر القذافي يلوح بكلتا يديه.. يردد هتافا يقول «شعب واحد لا شعبين من مراكش للبحرين» وكان مساعدوه الذين أحاطوا به يرددون معه الهتاف نفسه...

اتحاد المغرب العربي

الخطوط العريضة لمعاهدة مراكش

تنص معاهدة إنشاء اتحاد المغرب العربي التي تم توقيعها يوم الجمعة 19 فبراير 1989 بمراكش والتي تضم تسعة عشر مادة على تشكيل بعض الهياكل منها على الخصوص مجلس للرئاسة وهو أعلى جهاز في الاتحاد ومجلس لوزراء الخارجية ومجلس للشورى وهيئة قضائية ولجنة للمتابعة وأمانة عامة.

وتهدف معاهدة مراكش أساسا إلى تمتين أواصر الأخوة التي تربط بين الدول الأعضاء وتحقيق تقدم ورفاهية مجتمعاتها والدفاع عن حقوقها والمساهمة في صيانة السلام القائم على العدل والإنصاف وكذا نهج سياسة مشتركة في مختلف الميادين والعمل تدريجيا على تحقيق حرية تنقل الأشخاص وانتقال الخدمات والسلع ورؤوس الأموال فيما بينها.

وتؤكد المعاهدة أن هذه العناصر تهدف إلى تحقيق الوفاق بين الدول الأعضاء وإقامة تعاون دبلوماسي وثيق بينها على أساس الحوار.

وفي ميدان الدفاع نصت معاهدة مراكش على صيانة استقلال كل دولة من الدول الأعضاء وان كل اعتداء تتعرض له دولة من اتحاد المغرب العربي يعتبر اعتداء على باقي الدول الأعضاء.

ومن جهة أخرى تتعهد الدول الخمس بعدم السماح بأي نشاط أو تنظيم فوق ترابها يمس أمن أو حرية تراب أي منها أو نظامها السياسي.

كما تتعهد بالامتناع عن الانضمام إلى أي حلف أو تكتل عسكري أو سياسي يكون موجها ضد الاستقلال السياسي أو الوحدة الترابية للدول الأعضاء الأخرى.

وتنص المعاهدة على أن لدول المغرب العربي حرية إبرام أية اتفاقات ثنائية فيما بينها أو مع دول أو مجموعات أخرى ما لم تتناقض مع أحكام هذه المعاهدة.

كما أن معاهدة المغرب العربي مفتوحة في وجه الدول الأخرى المنتمية إلى الأمة العربية أو المجموعة الإفريقية للانضمام إلى هذه المعاهدة إذا قبلت الدول الأعضاء ذلك.

وعلى الصعيد الاقتصادي تهدف المعاهدة إلى تحقيق التنمية الصناعية والفلاحية والتجارية والاجتماعية للدول الأعضاء واتخاذ ما يلزم من وسائل لهذه الغاية خصوصا إنشاء مشروعات مشتركة.



وحدة وتضامن في طريق التنمية والبناء

وفي الميدان الثقافي تنص المعاهدة على إقامة تعاون يرمي إلى تنمية التعليم على اختلاف مستوياته وإلى الحفاظ على القيم الروحية والخلقية المستمدة من تعاليم الإسلام السمحة وصيانة الهوية القومية العربية واتخاذ ما يلزم من وسائل لبلوغ ذلك خصوصا تبادل الأساتذة والطلبة وإنشاء مؤسسات جامعية وثقافية ومؤسسات متخصصة في البحث.

وأكدت المعاهدة من جهة أخرى أن أعلى جهاز في الاتحاد هو مجلس الرئاسة الذي يتألف من قادة الدول الأعضاء وأن رئاسة المجلس ستكون لمدة ستة أشهر بالتناوب ويعقد ملجس الرئاسة دوراته العادية كل ستة أشهر بالإضافة إلى عقد دورات استثنائية كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

ولمجلس الرئاسة وحده سلطة اتخاذ القرار والتي تصدر بإجماع أعضائه كما أن للوزراء الأولين أو من يقوم مقامهم أن يجتمعوا كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

ويضم الاتحاد مجلسا لوزراء الخارجية الذي يحضر دورات مجلس الرئاسة وينظر في ما تعرضه عليه لجنة المتابعة واللجان الوزارية المتخصصة.

كما أن على كل دولة عضو بالاتحاد تعيين عضو في حكومتها يختص بشؤون الاتحاد داخل لجنة المتابعة.

وتكون للاتحاد أمانة عامة تتركب من ممثل عن كل دولة عضو وتتولى الأمانة العامة مهامها في دورة مجلس الرئاسة.

كما يضم الاتحاد مجلسا للشورى يتألف من عشرة أعضاء عن كل دولة يتم اختيارهم من الهيئات النيابية للدول الأعضاء.

ويعقد هذا المجلس دورة عادية كل سنة ودورات استثنائية بطلب من مجلس الرئاسة.

ويبدي مجلس الشورى رأيه في ما يحيله عليه مجلس الرئاسة من مشاريع قرارات كما له أن يرفع لمجلس الرئاسة ما يراه من توصيات لتعزيز عمل الاتحاد وتحقيق أهدافه.

كما تكون للاتحاد هيئة قضائية تتألف من قاضيين اثنين عن كل دولة تكون أحكامها ملزمة ونهائية. وتختص بالنظر في النزاعات المتعلقة بتفسير وتطبيق المعاهدة والاتفاقيات المبرمة في إطار الاتحاد.

وتدخل هذه المعاهدة حيز التنفيذ بعد المصادقة عليها من قبل الدول الأعضاء في أجل أقصاه ستة أشهر وفقا للإجراءات المعمول بها في كل دولة عضو.

نص معاهدة اتحاد المغرب العربي

كتلة متراصّة ومتضافرة الإرادات

ننشر فيما يلي النص الكامل لمعاهدة اتحاد المغرب العربي كما تلاها مستشار صاحب الجلالة، السيد أحمد بنسودة، خلال الجلسة الختامية للقمة المغاربية.

«إن صاحب الجلالة الحسن الثاني ملك المملكة المغربية، وفخامة السيد زين العابدين بن علي، رئيس الجمهورية التونسية، وفخامة السيد الشاذلي بنجديد، رئيس الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، وقائد ثورة الفاتح من شتنبر العظيم العقيد معمر القذافي، رئيس الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، وفخامة العقيد معاوية ولد سيدي أحمد الطايع، رئيس اللجنة العسكرية للخلاص الوطني، ورئيس الدولة للجمهورية الإسلامية الموريتانية.

ـ انطلاقا مما يجمع شعوبنا من وحدة الدين واللغة والتاريخ، ووحدة الأماني والتطلعات والمصير.

ـ واستلهام س أمجاد أسلافنا الذين ساهموا في إشعاع الحضارة العربية الإسلامية وإثراء نهضة ثقافية وفكرية كانت خير سند للكفاح المشترك من أجل الحرية والكرامة.

ـ وتجسيدا لإرادتنا المشتركة التي عبرنا عنها في قمة زرالدة بالجزائر والتي كانت انطلاقة جديدة للبحث عن أفضل السبل والوسائل المؤدية إلى بناء صرح المغرب العربي.

ـ ووعيا منا أن تحقيق أماني شعوبنا وتطلعاتها إلى الوحدة يستلزم تضافر الجهود وإقامة تعاون فعال بين دولنا وتكامل مضطرد في مختلف المجالات.

ـ ونظرا لأن ما يحدث من تحولات وما يتم من ترابط وتكامل على الصعيد الدولي بصفة عامة، وما تواجهه

دولنا وشعوبنا من تحديات في الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية بصفة خاصة، يتطلب منا المزيد من التآزر والتضامن وتكثيف الجهود من أجل الوصول إلى الهدف المنشود.

تحقيق الحريات الفردية والجماعية

- ونظرات لما نلمسه من ملح الحاجة إلى تضافر جهود دولنا في جميع المجالات وإلى توفير تنسيق كامل في سياساتنا ومواقفنا واختياراتنا الاقتصادية والاجتماعية.

- ولكون تجمعنا سيجعل من منطقتنا موطن سلام ومرفأ أمن، مما سيمكنها من المزيد من الإسهام في تقوية أواصر التعاون والسلم الدوليين.

- وإذ نعلن عن إرادتنا الراسخة في توطيد أسس العدل والكرامة لشعوبنا وإحقاق الحقوق الفردية والجماعية في أوطاننا، استلهاما من أصالتنا الحضارية وقيمنا الروحية.

- وسيرا على النهج الذي سارت عليه مشاريع الوحدات الجهوية عبر العالم، وما تميزت به من تدرج على خطوات رصينة متأنية وما طبع تخطيطها من عقلانية.

دعامة لكفاح الشعب الفلسطيني

- واعتبارا لأن ما تتوفر عليه بلدان المغرب العربي من إمكانات بشرية وطبيعية واستراتيجية، تؤهلها لمواجهة هذه التحديات ومواكبة التطورات المرتقبة في العقود المقبلة.

- وإيمانا منا بأن مغربا عربيا موحدا يشكل مرحلة أساسية في طريق الوحدة العربية.

- واعتقادا منا بأن قيام اتحاد المغرب العربي سيعزز كفاح الشعب العربي الفلسطيني من أجل التحرير واستعادة كافة حقوقه الوطنية الثابتة.

- واقتناعا منا بأن كيانا مغاربيا متطورا سيمكن دولنا من دعم العمل المشترك مع باقي الدول الإفريقية الشقيقة من أجل تقدم قارتنا الإفريقية وازدهارها.

- واعتبارا لكون اتحاد المغرب العربي هو الإطار الأمثل لتحقيق إرادة شعوبنا في توثيق الروابط مع كافة الشعوب الصديقة ودعم المنظمات والتجمعات الدولية التي تنتمي إليها دولنا.

- ولأن بناء التعاون الدولي ودعم السلام العالمي يفرضان قيام وحدات جهوية يرتكزان عليها لتمتين صرحها وتحصينه.

العمل على إقرار نظام دولي عادل

- واستجابة لتطلعات شعوبنا وإدراكا لدقة المرحلة الحاضرة ووعيا منا بالمسؤولية التاريخية الملقاة على عاتقنا.

- وإذ نؤكد تشبثنا بمقوماتنا الروحية وأصالتنا التاريخية والانفتاح على الغير، وتعلقنا بمبادئ الفضيلة الدولية.

نعلن بمعونة الله :

وباسم شعوبنا عن قيام **«اتحاد المغرب العربي»** مجموعة متكاملة متضافرة للإرادات، متعاونة مع مثيلاتها الجهوية وكتلة متراصة للمساهمة في إثراء الحوار الدولي مصممة على مناصرة المبادئ الخيرة ومعبئة شعوبها بما لها من إمكانات لتعزيز استقلال أقطار اتحاد المغرب العربي، وصيانة مكتسباتها والعمل مع المجموعة الدولية لإقامة نظام عالمي تسود فيه العدالة والكرامة والحرية وحقوق الإنسان، ويطبع التعاون الصادق والاحترام المتبادل علاقاته.

وتحقيقا لهذه الأهداف أبرمنا المعاهدة التي تحدد مبادئ الاتحاد وأهدافه وتضع هياكله وأجهزته.



إخواناً على سُرُرٍ متقابلين

حرر بمدينة مراكش يوم الجمعة الأبرك عاشر رجب الفرد 1409 هجرية الموافق لـ 17 فبراير 1989م.

عن المملكة المغربية

الحسن الثاني

عن الجمهورية التونسية

زين العابدين بن علي

عن الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

الشاذلي بنجديد

عن الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

معمر القذافي

عن الجمهورية الإسلامية الموريتانية

معاوية ولد سيدي أحمد الطايع



الزرالدة ـ الجمعة 10 يونيو 1988 م ـ خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز يتحادث مع صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني وصاحب الفخامة الرئيس الشاذلي ابن جديد.

صلاة الوحدة

يوم الجمعة بمسجد الكتبية

أدى قادة الدول المغاربية صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني والرؤساء الجزائري الشاذلي بنجديد والتونسي زين العابدين بن علي، والليبي معمر القذافي، والموريتاني معاوية ولد سيدي أحمد الطايع، صلاة الجمعة بمسجد الكتبية بمراكش. وذلك يوم الجمعة 15 رجب 1409/ 17 فبراير 1989، وقد ألقى خطبة الجمعة فضيلة الأستاذ الفقيه السيد محمد بنعمرو، ومما جاء في الخطبة الأولى :

الحمد لله الذي عدمت له النظائر والأشباه، وأقرت بربوبيته الضمائر والأفواه، وخرت ساجدة لهيبته الأذقان والجباه، ذلك الله ربكم، لا إلٰه إلا هو، خالق كل شيء، فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل، لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، نحمده تعالى على ما ألهم، ونشكره على ما أنعم، ونشهد أنه الله لا إلٰه إلا هو، وحده لا شريك له، وسع كل شيء رحمة وعلماً، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الأمين، المشرف بقول ربه الكريم وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين، صلى الله عليه وسلم، وشرف وعظم وعلى ءاله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون نجتمع في هذا اليوم الأغر السعيد الذي يعتبر بحق من أيام الله التي سيكتب لها الخلود، والصدور منشرحة، والوجوه مستبشرة، والألسنة تلهج بالحمد والشكر والثناء لقيوم الأرض والسماء، الذي أذهب عنا الحزن، وحقق لنا أغلى رجاء، بهذا اللّقاء التاريخي العظيم الذي يجمع قادة مغربنا العربي الكبير، حماة مقدساتنا، ورموز وحدتنا، ومحطّ آمالنا. فاللهم لك الحمد حتى ترضى على ما وفقت وأسديت، وألهمت وهديت، وسبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر، تقولها خاشعين ضارعين، حامدين لربنا شاكرين، وهو القائل جلت عظمته : ﴿**ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون**﴾، فما كان هذا اللقاء إلا بتوفيق منه سبحانه، وما كان هذا اللقاء إلا بهدايته، فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كان هذا اللقاء إلا استجابة لنداء إلٰهي عظيم توجّه به الحق سبحانه وتعالى إلى بني الإنسان كلهم على تعاقب

أجيالهم، وتتابع عصورهم بأسلوب يفيض عطفاً وحناناً، ومودة ورحمة، يدعوهم فيه إلى التداني والتقارب مهما بعدت ديارهم، وشط مزارهم، وتنوعت ألوانهم، واختلفت ألسنتهم، يدعوهم فيه سبحانه إلى التعارف الذي يقوم على أساس تبادل الاحترام، والعدل والانسجام، يدعوهم فيه إلى التعارف الذي يؤدي إلى التساند والتآلف، والتكامل والتساكن، بين سائر البشر، في الشدة والرخاء، والسراء والضراء، وإلى التعاون البناء في سائر مجالات الخير، والتسابق في ميادين المبرات، وتحقيق المكرمات حتى تصل الإنسانية ـ متى استجابت لهذا النداء الإلهي العظيم ـ إلى أعلى درجات التكريم، والسمو الروحي، والحياة الطيبة التي تنشدها، وتسعى جادة لبلوغها. وما كان هذا النداء الأزلي الخالد الذي لن تبليه السنون ولا القرون إلا قول ربنا العلي القدير : ﴿**يـأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير**﴾.

فإذا اجتمعت كلمة قادتنا الأبرار اليوم على تأسيس وحدة المغرب العربي الكبير، فمن هذا المعين الإلهي اغترفوا ومن هذا المنبع الرباني ارتشفوا، فوضعوا بعملهم الجليل هذا لبنة في بناء صرح عالم نرجو الله صادقين، وندعوه مخلصين، أن يسوده التعارف والصفاء، والمحبة والإخاء، الأكرم فيه والأرفع، الأتقى لربه، والأتقى لظلم عباده، والأنفع لعياله، فالخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، كما صح عن الصادق الأمين سيدنا محمد ﷺ. وسيبارك ربنا الرحيم في وحدتنا لأنها تنفيذ لحكم صدر عن أحكم الحاكمين الذي لا معقب لحكمه، قضى به سبحانه من فوق سبع سماوات وصدّره بأداة حصر نفى بها تصور أي عداوة أو شقاق بين إخوة تجمع بينهم وشائج متينة وروابط شتى هي أقوى وأمتن من رابطة الدم والنسب، عندما قال جل من قائل : ﴿**إنما المومنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون**﴾.

وأخيراً سيبارك ربنا العلي القدير في هذا الهيكل المغاربي لأنه يستجيب لتعاليمه وتعاليم رسوله التي في تطبيقها وجعلها حية بيننا حياة لقلوبنا ولأرواحنا ولمجتمعنا وللإنسانية جمعاء يقول الله تعالى : ﴿**يـأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون**﴾.

فاللهم إنا ندعوك دعاء من يرجوك ويخشاك، ونبتهل إليك ابتهال من لم يخطر بباله عند مسألتك أحدٌ سواك أن تجعل فجر وحدتنا هذه فجراً صادقاً تسطع بعده أنوار الهداية والإيمان، والمحبة والوئام، والازدهار والاطمئنان، على سائر ربوع مغربنا الكبير وأمتنا العربية والإسلامية وعلى العالم أجمع يارب العالمين. اللهم ارع وحدتنا بحسن رعايتك، واحرسها بعين عنايتك واجعلها شجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء، توتي أكلها كل حين بإذن ربها، وارفةً ظلالها، دانيةً قطوفها، بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.



القادة الخمسة في طريقهم إلى مسجد الكتبية في مراكش لأداء الصلاة عقب توقيع اتفاق اتحاد المغرب العربي.

اللهم افتح لنا أبواب فضلك، وانشر علينا من خزائن رحمتك، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد أن هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب، نحمدك اللهم على ما وفقت وهديت، ونشكرك على ما أنعمت وأسديت، ونشهد أنك الله لا إله إلا أنت، وسعت كل شيء رحمة وعلما، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدك ورسولك، وصفيك وخليلك، ورحمتك المهداة إلى الناس أجمعين. فصل اللهم عليه صلاة أبدية خالدة بدوام ملكك، وعلى ءاله وصحابته أجمعين. أما بعد فيا أيها الإخوة المومنون : في هذه اللحظات السعيدة، المشرقة بالأنوار الإلهية، المتضوعة بأريج النفحات القدسية، كأني بروح نبينا الأمين ترفرف علينا تبارك جمعنا هذا، وتخاطبنا بما خاطب به ﷺ أسلافنا الأولين، ممن تربوا بين يديه الكريمتين وتقول لنا جميعا : ألا أخبركم بأحبكم إلي، وأقربكم مني منازل يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقا، الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويولفون.

وإن مما تكرم به علينا ربنا الكريم ـ نحن أبناء هذا المغرب الحبيب ـ وهذا من باب التحدث بالنعمة، ونقوله بكل تواضع ـ انه سبحانه طبعنا على الألفة، وصدق المحبة، وإخلاص المودة، وهذه الأخلاق تجعلنا نشعر بلوعة ووحشة كلما حان وقت توديع إخوتنا وأحبابنا وأصدقائنا، ولا يسلينا ويواسينا، ويخفف عنا من هذه اللوعة، لوعة الفراق إلا ثقتنا في الله العلي القدير، الذي وحدنا بالود والإيمان، وألف بين قلوبنا وأرواحنا، إنه سبحانه سيحقق لنا لقاءات ولقاءات، ونحن أحسن حالا، وأهدأ بالا.

وإن أحب لقاء تحرق شوقا إليه، وننتظره على أحر من الجمر، ونضرع إلى ربنا الكريم أن يحققه لنا في أقرب الآجال لهو لقاؤنا على أرض فلسطين الحبيبة لنصلي جميعا في قدسنا الشريف صلاة الأعزة الكرماء، كما أقسم على ذلك مولانا أمير المومنين الحسن الثاني دام له النصر والتمكين، وإن لله رجالا لو أقسموا على الله لأبرهم.

وإذا كان هناك من يرون هذا اليوم بعيدا، فإننا نراه قريبا، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز.

فاللهم أجمع كلمة المسلمين على القول العادل، وارفع عنهم شر التشاحن والتخاذل.

اللهم اجعلنا من الذين جدوا في قصدك فلم ينكلوا. وسلكوا صراطك المستقيم فلم ينحرفوا عنه ولم يضلوا. واعتمدوا في الوصول عليك حتى وصلوا، فرويت قلوبهم من محبتك، وأنِسَت نفوسك بمعرفتك، فلم يقطعهم عنك قاطع، ولا منعهم عما أملوه لديك مانع، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

اللهم أنصر عبدك الخاضع لجلالك، المتواضع لعزك وسلطانك مولانا أمير المومنين، سبط نبينا الأمين الحسن الثاني، نصرا تجمع به كلمة المسلمين وتعز به الوطن والدين، اللهم كن له ولا تكن عليه، وفجر ينابيع الخير والهداية على يديه، لخير أمتنا، ولخير مغربنا الكبير، ولخير الإنسانية جمعاء يارب العالمين، اللهم أره في فلذات كبده : ولي عهده المحبوب سيدي محمد، وشقيقه السعيد المولى الرشيد، وفي سائر أفراد أسرته وشعبه ما يسره، ويثلج صدره، ويقر عينه يأرحم الراحمين.

اللهم أحفظ ضيوف سيدنا الهمام، قادة مغربنا الكرام. واجعل السلامة ملازمة لهم في حلهم وترحالهم، وظعنهم وإقامتهم، ووفقهم يارب وسائر ملوك أمتنا الإسلامية، وقاتها الأبرار لما تحبه وترضاه.

أيها الإخوة المومنون في ساعة الخير هذه، ونحن نتفيأ ظلال فرع الدوحة المحمدية الشريفة، ونتعرض لنفحات رب كريم، يمن بالخير ويثيب عليه الثواب الجزيل، نستحضر تلك الروح الطيبة الطاهرة التي قضت حياتها في هذه الدنيا مجاهدة مناضلة في سبيل إعلاء كلمة الله، وتحقيق العزة والكرامة لأبناء العروبة والإسلام، وتقويض صرح الاستعمار في كل مكان فاللهم اجعل روحه وأرواح جميع الذين استشهدوا ولا يزالون يستشهدون في سبيل إعلاء كلمتك، ونصرة دينك، في أعلى عليين مع الذين أنعمت عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.



... نزلت عليهم الرحمة، وحفَّتْهُم الملائكة وذَكَرَهُم الله فيمن عنده..

النص الكامل للندوة الصحفية الهامة لجلالة الملك الحسن الثاني

عقد صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ندوة صحفية بمراكش على إثر اختتام أشغال القمة المغاربية تطرق فيها جلالته على الخصوص لاتحاد المغرب العربي الذي أعلن عن قيامه في ختام هذه القمة.

وفي ما يلي النص الكامل لهذه الندوة :

حضرات السادة والسيدات،

إنني متأسف جدا كوني تأخرت عن الموعد ولكن كانت عندي التزامات مع ضيوفي.

جرت العادة عقب كل مؤتمر أن يعقد رئيس الدولة المضيف لقاء مع الصحفيين.

وها نحن الآن موجودون في هذه القاعة احتراما لتلك التقاليد، أرجو منكم أن تضعوا أسئلتكم دون تكرار وأن تضعوها في إطار المغرب العربي بالخصوص.

سؤال جريدة (السياسة) الكويتية : صاحب الجلالة في كافة اللقاءات التي أجراها الصحفيون مع سكان الأقاليم الصحراوية كان جواب هؤلاء المواطنين انهم قد تم استفتاؤهم قبل 13 سنة يوم عانقوا إخوانهم القادمين من ربوع المملكة.

وقد أثبتم جلالتكم نظرتكم البعيدة عندما أعلنتم استعداد المغرب لاستقبال كل أبنائه ممن أخطأوا بدخول صفوف «البوليزاريو».

الآن يا جلالة الملك وعلى ضوء معطيات إعلان الاتحاد المغاربي هل توصلتم مع زعماء الاتحاد على صيغة معينة بخصوص قضية الصحراء.

جواب جلالة الملك :

إنني أعتقد أن قضية المغرب العربي ليست وليدة اليوم فهي قضية الأجيال السابقة والأحلام التي عاش عليها آباؤنا وتربينا فيها. فلهذا يجب أن ينظر الإنسان والمحلل إلى قضية المغرب العربي ككل نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يكتب له الدوام والبقاء بحيث لا يمكن أن ترتبط قضية المغرب العربي بأحداث ليست طارئة يمكن أن تقع اليوم كما يمكن أن تقع غدا أو بعد غد، فهناك المستمر وهناك غير المستمر.

فالقضية التي ذكرتم ليس لها أي تأثير على هذه القضية أي على قضية المغرب العربي لأن آمالنا وأحلامنا في توحيد المغرب العربي الكبير سبقت بأجيال وأجيال هذا الحدث الطارئ المتطفل على التاريخ هذا الحدث الذي أسميه ذبابا تاريخيا هذا الحدث الذي أسميه ذبابا تاريخيا أو ذبابا جاء يتطفل على أسد التاريخ أسد المغرب العربي الكبير.

سؤال : جريدة (أنوال) : جلالة الملك هل تسمح الهياكل والقوانين التنظيمية لاتحاد المغرب العربي - وهي لم تنشر بعد - أم لا لكل دولة عضو في الاتحاد بأن يكون لها انتماء أو عضوية في اتحاد أو تكتل جهوي سياسي أو اقتصادي آخر، وبالنسبة للمغرب هل ستواصل جلالتكم مساعيكم للحصول على عضوية المغرب في السوق الأوروبية المشتركة.

جواب جلالة الملك :

إن هذا السؤال دقيق جدا ومنطقي مع نفسه، هناك بند من البنود ينص على أن للدول غير الأعضاء في اتحاد المغرب العربي أن تصبح يوما ما عضوا فيه، وقد اتفقنا على أن يكون قبول العضوية بالتراضي أو الاجماع لا بالتصويت أو الأغلبية، هل معنى هذا من باب النقيض أنه يمكن لبلد من بلدان المغرب العربي كيفما كان أن يلتحق بمجموعة دون أن يستشير أو دون أن تعطيه الدول الأخرى الضوء الأخضر، إن هناك مجال للمذاكرة حول سلم القيم هل القانون الداخلي يسمو على القانون الجماعي أو أن القانون الجماعي له أفضلية وأسبقية على القانون الداخلي، هذا من جهة، لكن السؤال الأصيل والحقيقي هو هل الانتماء المزعوم أو المفترض ستكون له انعكاسات سلبية أم إيجابية على التجمع المغاربي، فإذا كان انتماء عضو من الأعضاء لا ضرر فيه بل ليس فيه إلا الخير وجلب الخير فأظن شخصيا أنه من باب الأحروية كما يقول الفقهاء أن يعطي له الضوء الأخضر ليفتح ويشق الطريق أمام الآخرين بحيث ان المسألة هي قبل كل شيء مسألة سياسية قبل أن تكون مسألة نصوص أو مسألة شكليات وإذا أردنا أن نتعاطى تفسير الظاهرية كما فسروا القرآن أو الأحاديث فبالطبع سنغرق في الشكليات ولن نرى السواحل الشاسعة التي يجب أن نصل إليها.

وبالنسبة للشطر الثاني من سؤالكم المتعلق بعضوية المغرب في السوق الأوروبية المشتركة اعتقد شخصيا أنه علينا الآن أن نسير بعجلتين، العجلة الأولى وهي طلب المغرب ليكون عضوا في السوق الأوروبية المشتركة وبالعجلة الثانية وهي تمكين المغرب العربي بأجمعه من أن يكون مؤهلا ككل للانتماء للسوق الأوروبية، وفي كلتا الحالتين كما نقول عندنا الناجي يأخذ بيد أخيه أو السابق يأخذ بيد أخيه، فإذا قبلت عضوية المغرب كعضو كامل فمما لا شك فيه أن أعضاء السوق الأوروبية المشتركة قبل أن يعطوا الضوء الأخضر لقبول المغرب عضوا على أساس أنه جزء لا يتجزأ من وحدة ليست عاطفية فقط بل وحدة سياسية واقتصادية ومنظمة سيكونون قد أخذوا بعين الاعتبار هذا وقد قالوا ضمنيا نعم للمجموعة المغاربية كلها، وإذا سرنا على العجلة الأخرى وكانت هذه العجلة أسرع من العجلة المنفردة للمغرب وأصبح المغرب العربي ككل متمتعا بجميع المزايا والكماليات والضروريات فالحمد لله سيدخل المغرب العربي ككل كمخاطب ومخاطب وكعضوا أما كامل أو غير ذلك في السوق الأوروبية المشتركة.

سؤال : جريدة (المدينة) السعودية.

جلالة الملك تردد أن رؤساء دول المغرب العربي سيقومون بإرسال مبعوثين خاصين إلى دول مجلس التعاون الخليجي ومجلس التعاون العربي لشرح أهداف اتحاد المغرب العربي، فهل ستقدمون يا جلالة الملك فعلا على هذه الخطوة وهل يمكن التطلع إلى صيغة تنسيقية بين هذه الاتحادات.

جواب صاحب الجلالة :

لم يرد هذا أبدا، ولكن المغرب العربي ومجلس التعاون لدول الخليج والمجلس الجديد الذي ولد

ولله الحمد والشكر كلها أعضاء في الأسرة الكبيرة للجامعة العربية، وكيفما كان الحال فقد اتفقنا على أنه بعد الموافقة الدستورية إن شاء الله على الاتفاقية سنبعث بهذه الوثيقة إلى كل من هيئة الأمم المتحدة والهيئات الجهوية كحركة عدم الانحياز والجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي وغيرها، ومما لاشك فيه أنه حينما ستصل هذه الوثيقة إلى الجامعة العربية سيتسنى لها ككل ولمجلس التعاون الخليجي ومجلس التعاون العربي أن ينظرا إما على انفراد أو مجتمعين في هذا الاتحاد.

ويمكن عقد مؤتمر قمة لا للنظر في المسائل السياسية المطروحة يوميا على جدول الأعمال ولكن للتفكير في مصير التجمعات الثلاثة والتنسيق بينها من الناحية الاقتصادية السياسية ومن الناحية التجارية وهذا ربما سيعطي قوة جديدة ونفسا جديدا للجامعة العربية وللدول العربية المنخرطة فيها.

سؤال : هيئة الإذاعة البريطانية «القسم العربي» :

صاحب الجلالة : في انتظار أن يكون هناك اندماج بين المغرب ودول المغرب العربي مع السوق الأوروبية المشتركة كما قلتم كيف سيكون موقف اتحاد المغرب العربي تجاه السوق الأوروبية المشتركة مستقبلا على المدى القريب وما هي أهم ملامح هيكلة اتحاد المغرب العربي.

جواب صاحب الجلالة :

إن موقف دول المغرب العربي ككل لا يمكن أن يكون إلا موقفا إيجابيا وموقف الراجي والمؤمل في أن ينظر إلى المغرب العربي بعين الاعتبار وفي أن تؤخذ بعين الاعتبار المجهودات المغاربية، وبالطبع فإن الامال التي لا يغذيها الواقع والإنتاج والنمو هي امال جميلة وحلوة ولكن فارغة، فيجب علينا إذن أن نؤمل في السوق الأوروبية المشتركة ولكن «اعتقلها وتوكل» علينا أن نعمل أملين أن يحظى عملنا بالتقدير والاعتبار اللازم.

وبخصوص هيكلة المغرب العربي فإن الخطوة التي أقدمنا عليها اليوم ليست إلا خطوة ولكن المهم أنها خطوة جماعية لا تردد فيها ولا تحفظ أبدا، من الممكن أن أقول بأن الاجتماعات والمذاكرات مرت كلها في جو من التصارح ليس التصارح البشع المليء بالحزازات أو المؤاخذات بل بالعكس كان ذلك التصارح دائما في جو من البشاشة إن لم أقل في بعض الأحيان في جو من المزاح أو النكت، ولم يبق هناك مشكل تركناه خوفا من أن يكدر الجو بل بالعكس طرحنا جميع المشاكل فمنها ما اتفقنا على أن نجد له حلا الآن ومنها ما اتفقنا على أنه لابد لها من وقت لأنه وكما أقول دائما فإن السياسة مثل الفلاحة يجب للزمن أن يلعب دوره فيها كما تلعب الفصول دورها فيما يخص الفلاحة سواء كانت فواكه أو حوامض أو نباتات أو زرع أو قمح وغير ذلك، واعتقد أن الانطلاقة كانت طيبة ولله الحمد.

وأغتنم هذا السؤال وهذا الجواب لأقول كلمتي الختامية، وهي أن الانطلاقة كانت ولله الحمد انطلاقة أناس جادين مسؤولين يعرفون جيدا أنهم كلهم واقفون على محك المصداقية بالنسبة لشعوبهم لأن الإيمان بالمغرب العربي والتطلع إليه ليس من باب الطموحات العادية بل هو مطمح مقدس بالنسبة للمغرب كله له عمق واحد، فهذا الإحساس لا يوجد في بلد بكيفية أعمق من بلد آخر أو العكس، فالكل كان يشعر بأنه واقف على محك المصداقية أمام الحاضرين الآن وأمام من سيأتي من بعد، وكلنا عملنا والله يشهد على حسب

اجتهادنا وقوتنا مستعينين بالله سبحانه وتعالى وبإيماننا كأشخاص وبالحافز الكبير والعظيم وهو إيمان شعوبنا على أن نضع لعملنا الحالي والمستقبلي إطارا يسمح لنا كيفما كانت الظروف أن نسير به بالسرعة اللائقة دون الخوف من أي عطب ميكانيكي أو عطب قانوني لأن الدافع السياسي ألا وهو الدافع المسؤول دافع المسؤولية سواء الشخصية أو الجماعية كان في الأساس هو الدافع المقدس الذي يمثل أحلام أجدادنا وأبائنا ويشخص طموحاتنا الآن ويضمن مستقبل أجيالنا الصاعدة والمقبلة لعيش أفضل ولدور في المجتمع العالمي في مستوى أعلى أشكركم جميعا والسلام عليكم.

ترجمة الأسئلة والأجوبة التي تمت باللغة الفرنسية :

وكالة الأنباء الافريقية (بانا).

سؤال : صاحب الجلالة تبذل منظمة الوحدة الافريقية منذ 1980 وجامعة الدول العربية التي تنتمي إليها الدول المغاربية الخمس منذ 1964 جهودا من أجل إنشاء تجمعات اقتصادية على نطاق واسع، وأود أن أعرف ما إذا كانت قد جرت اتصالات في الفترة الفاصلة بين قمة زرالدة وقمة مراكش من أجل التنسيق بين المبادرات التي اتخذت في جهات أخرى وبين اتحاد المغرب العربي الذي برز حيز الوجود.

وسؤالي الثاني إذا سمحت جلالتكم هو معرفة موعد ومكان انعقاد القمة المغاربية الثالثة.

جواب جلالة الملك :

إن سؤالكم سؤال وجيه وأنا سعيد بكونه طرح، فقد كان انشغالنا طيلة الثلاثة أيام التي استغرقها اجتماعنا هنا بمراكش ليس فقط إنشاء كيان مغاربي ولكن بالخصوص العمل على ألا يظهر هذا الكيان وكأنه غير مكترث بأصدقائه التقليديين الذين تربطهم به علاقات عريقة سواء كانوا ينتمون إلى العالم العربي أو إلى القارة الافريقية، وقد قررنا جميعا بشكل تلقائي أنه عندما سيكتمل بناء هذا الاتحاد في الستة أشهر المقبلة إن شاء الله أي الوقت اللازم لإقامة المؤسسات أن نولي اهتماما كبيرا بالخصوص للمشاكل الافريقية ولإقامة علاقات جد متميزة مع جيراننا الآفارقة، وبالإضافة إلى ذلك فإن أحد بنود المعاهدة التي ستنشر قريبا ينص على أن هذا الاتحاد المغاربي مفتوح أمام الدول الأخرى التي ترغب في الانضمام إليه، إذا فأنا مسرور بأن أقول عبر الصحافة الحاضرة هنا سواء الوطنية أو الدولية وخاصة الافريقية لإخواني الأفارقة أن هاجسنا الأول نحن في المغرب العربي هو أن نبين أن اتحادنا لن يكون حاجزا بيننا وبين إخواننا الأفارقة بل على العكس من ذلك ستكون لنا في مرحلة أولى علاقات جد متميزة معهم سواء على المستوى الثنائي أو الجماعي، ولتأكيد رغبتنا بشكل جلي نصصنا عليها في صلب المعاهدة، لا أذكر البند بالضبط ولكن اعتقد أنه عندما ستنشر المعاهدة فإن كثيرا من المخاوف ستتبدد.

سؤال هيئة الإذاعة البريطانية :

لقد تم صباح اليوم التوقيع على العقد التأسيسي لاتحاد المغرب العربي فهل بالإمكان أن نعرف المراحل المقبلة وبصفة عامة ما هو تقييم جلالتكم للدينامية الجديدة بمنطقة المغرب العربي وما هي حظوظها وحدودها.

جواب جلالة الملك :

نتمنى قبل كل شيء الا تكون لها حدود وأن يكون الزمن وحده هو الذي يحدها. أما بخصوص حظوظها فأعتقد أننا وفرنا كل الأسباب التي تساهم في نجاح الاتحاد وأن تتم مباركة ميلاده

ومساعدته على النمو في جو تسوده السعادة والحكمة. أما عن السرعة التي سيسير بها اتحاد المغرب العربي فمن الأكيد أنها ستكون هي السرعة التي نريد أن نعطيها له نحن. والمهم هو أن تكون هناك إرادة السير بسرعة ولكن باتزان. وبطبيعة الحال لا يكفي السير بسرعة بل لابد من الاتفاق أولا على كيفية السير وثانيا ينبغي معرفة الوثيرة التي سنسير بها. والمهم كذلك هو أن نواصل السير كما ينبغي وملاءمة المسطرات الإدارية لتكون في نفس المستوى.

فمن المؤكد أن على حكومتنا أن تنشىء جهازا تشريعيا فضلا عن أجهزة التعاون يقوم بدراسة النصوص الجاري بها العمل سواء تعلق الأمر بقوانين أو مراسيم أو قرارات أو دوريات لا تساير الدينامية والغاية المتوخاة. وكل هذا يتطلب بطبيعة الحال وقتا للتأمل والتفكير والعمل. ولكن أعتقد أننا إذا توصلنا إلى إقامة جهازين واحد للتأمل وضبط الأمور والآخر للدفع سيتبين لنا ما هو جاهز وما هو غير جاهز لإنجازه باتقان. وأعتقد شخصيا أنه من الآن وإلى غاية انتهاء فترة رئاستي للاتحاد التي ستدوم ستة أشهر لأننا قررنا أن تكون الرئاسة بالتناوب كل ستة أشهر سيتم القيام بأمور كثيرة وبصفة خاصة على صعيد تنقل الممتلكات والأشخاص وعلى المستوى الجمركي علما بأننا خطونا خطوات هامة في المجال الثقافي والتعليمي الذي وصل إلى مراحل متقدمة جدا وهو مجال هام كذلك.

وكما قلت لكم قبل قليل فقد وفرنا للاتحاد كل فرص النجاح أما الحدود فأمل الا تكون ويبقى علينا الآن أن نواصل العمل بجد.

سؤال صحيفة (ايزفستيا) السوفياتية :

صاحب الجلالة لقد رأى اتحاد المغرب العربي النور في ظل تحولات كبرى يشهدها العالم بأسره وهي تحولات تتميز بروح الحوار وإنهاء النزاعات الجهوية من خلال إعطاء الأولوية للقيم الإنسانية والبحث عن السبل التي يجب على البشرية أن تسلكها. فهل يمكن القول أن ميلاد هذا الاتحاد هو كذلك رد مغاربي على هذه التحولات وكيف ترى جلالتكم دور اتحاد المغرب العربي في هذا المجال.

جواب جلالة الملك :

أعتقد أن هذا الاتحاد المغاربي يشكل بالفعل ردا مشجعا على هذه التحولات الكبرى. وعندما أقول التحولات الكبرى أعني التحولات الكبرى على مستوى القوتين العظميين أي أن هذا يعني أن الانفراج الذي تعرفه القوتان العظميان يجب أن يقوم كذلك بين أصدقائهما. لذلك فكلما قامت الدول الأخرى أي الدول السائرة في طريق النمو أو الدول المتقدمة بإنشاء تكتلات خارج نفوذ القوتين العظميين كلما صعب عليهما أن تحققا الانفراج فيما بينهما وفي آن واحد خلق التوتر في مناطق أخرى.

وعموما فإن التكتلات الجهوية تشكل ضمانة أخرى لفائدة الانفراج فيما بين القوتين العظميين وهو انفراج سيشمل أصدقاءهما التقليديين. وبالتالي لا يمكن لهاتين القوتين أن تحققا الانفراج في الظاهر وتواصلا الصراع في الخفاء.

إن هذا الانفراج ينبغي أن يتحقق من القمة إلى القاعدة وبين الكبار والصغار والمتوسطين. وكل هذا لن يكون سوى في صالح الجميع.

سؤال : إذاعة البحر الأبيض المتوسط الدولية.

صاحب الجلالة غالبا ما ترد كلمتا البراغمانية والواقعية على ألسنة المسؤولين السياسيين المغاربيين وكذا على ألسنة المنعشين الاقتصاديين.



قادة المغرب العربي، وهم في جو من الصفاء والود.. والعمل على بناء المستقبل.

وأود لو سمحت لي بذلك جلالتكم أن أطرح سؤالين حول الروح الجديدة للواقعية والتضامن المغاربيين. وسؤالي الأول يتناول الجانب الاقتصادي. فاعتبارا لتشعب قنوات الاتصال ما هي الامال الحقيقية للتعاون والتنسيق بين الأعمال الاقتصادية في مواجهة التكتلات الاقليمية الكبرى. أما سؤالي الثاني إذا سمحت جلالتكم فيتعلق بالروح الجديدة للواقعية السياسية. فيبدو أن التوقيع على عقد ميلاد المغرب العربي هو إن صح القول بمثابة «إعلان وفاة الجمهورية الصحراوية» أو على الأقل سيضع حركة «البوليساريو» الانفصالية في حجمها الحقيقي. وهل ترك قادة الدول الأربع الأخرى الأعضاء في اتحاد المغرب العربي لديكم الانطباع أنهم يعتبرون من الآن بأن هذه القضية مسألة مغربية محضة. فما هو موقع الانفصاليين في الانشغالات المغاربية الراهنة.

جواب جلالة الملك :

لقد طلبت منكم في البداية أن تقتصر أسئلتكم خلال هذا المؤتمر الصحفي على القضايا المتصلة بموضوع المغرب العربي الكبير والا تتطرق إلى القضايا الثانوية ومع ذلك سأجيب عن سؤالكم.

لقد أدليت بوجهة نظري خلال عدة أحاديث ومؤتمرات صحفية بشأن التكتلات الاقليمية والشروط التي يجب أن تتوفر فيها. وليس من الضروري أن يكون المرء عبقريا ليدرك بغض النظر عن المشاعر والروابط الأخوية ووحدة الدين واللغة أن التكتلات الاقليمية تستلزم حدا أدنى من التطابق أو التشابه على مستوى الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية. لهذا لا يمكن تصور انضمام بلد من «الكومكون» مثلا إلى أوربا الغربية إذا لم يغير قوانينه. كما أنه لا يمكن أن يقبل بلد من السوق الأوربية المشتركة في حظيرة «الكومكون» إذا لم يغير قوانينه الاقتصادية والاجتماعية. وهذا ينطبق على جميع التكتلات الاقليمية. وأعتقد أننا إذا وجدنا في بعض الأحيان مثلا في الجامعة العربية وأسرتها الكبيرة بعض الصعوبات في ان نتفاهم فذلك لا يرجع لأن لنا تحاليل مختلفة للمشاكل السياسية والمشاكل الجيوسياسية بل لأن تصوراتنا الجيوسياسية على الصعيد الاقتصادي وعلى صعيد المبادلات وعلى صعيد حرية تنقل الأشخاص والثروات والممتلكات لا تتضمن الاجماع الضروري والحيوي لإقامة تساكن يطبعه الانسجام.

ويعتبر هذا التفاوت في نظري مضرا كثيرا بالتكتلات الاقليمية ولقد قلت دائما أن النظام الاقتصادي والاجتماعي بالجزائر تفصله هوة عن النظام الاقتصادي والاجتماعي للمغرب وتونس ينبغي ملوءها أما عن طريق الدفع بالمغرب وتونس ولنقل الآن ليبيا وموريتانيا أيضا إلى الاقتراب من الجزائر على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي وأما عن طريق مطالبة الجزائر بأن تصبح أقل راديكالية على هذا الصعيد.

وأعتقد أن هذه المخاوف قد تبددت حاليا لأن رئيس الجزائر وشعبها أدركا تمام الإدراك بأن اندماج المغرب العربي وتحكم الجزائريين في مستقبلهم يتطلبان انفتاحا داخليا وبالتالي تعددية حزبية وجعل كل الأطراف تتحمل مسؤوليتها في تسيير شؤون البلاد سواء على الصعيد المحلي أو الوطني كما يتعين على الجزائر أن تجاري المستجدات على الصعيد الاقتصادي هذا ما جعل الرئيس الجزائري يطرح للاستفتاء - أي على إرادة الشعب الجزائري - تعديلا دستوريا يعتمد نمطا اقتصاديا واجتماعيا مختلفا تماما عن النمط السابق. وهكذا لم يأخذ المسؤولون الجزائريون وعلى رأسهم قائد الدولة بعين الاعتبار المتطلبات

المغاربية فحسب بل أخذوا بعين الاعتبار أيضا التطور الذي اكتسح العالم حاليا فيما يخص مفهوم الاقتصاد الليبرالي أو الاقتصاد الموجه.

وأنه ليسعدنا كثيرا أن نرى بجوارنا هذا البلد الشقيق الذي عاش مائة وثلاثين سنة من الاستعمار وسبع سنوات من الحرب والذي حرم من التمتع بالحريات الفردية والجماعية والاقتصادية والتجارية وهو قد حقق ما كان دائما دافع معركته من أجل التحرر والاستقلال. لذا أعتقد بأن المغرب العربي يتوفر حاليا على مقومات وعناصر كفيلة بتأسيس وإقامة كيان بإمكانه أن يحدث تناسقا بين اقتصادياته الذاتية قادرا على أن يصبح محاورا منطقيا لشركائه أو منافسيه في المستقبل. ونحن جميعنا جد متفائلين بالتطور الحاصل في وتيرة السير الذي نريد مواصلته ذلك أنه تم توقيع ودراسة العديد من الوثائق من قبل ونعتقد أنه بإمكاننا أن ندخلها حيز التطبيق في وقت قريب.

وبخصوص السؤال الثاني يمكنني القول أن هذه المسألة لم تكن قط موضوع جلسة عامة سواء كانت مغلقة أو علنية. فلم نتحدث أبدا نحن الخمسة عن هذا المشكل الذي أثرتموه ولكن لم يكن في مقدورنا أن نتجنب الحديث عنه خارج هذا الإطار ذلك أن هذا المشكل هو على كل حال بمثابة شوكة في أرجلنا جميعا. وعندما تطرقنا إليه كان ذلك بنوع من المرارة حيث كنا نقول إنه كان بوسعنا تجاوز هذا المشكل الذي هو في الحقيقة مشكل مزعج إن لم نقل مشكلا مملا فنحن جميعا مغاربيون وكلنا إخوة ونريد لإخوتنا أن تتقوى وبأقصى سرعة وفي كافة المجالات. إذن وبدون أية قيود معنوية كانت أو مادية تحدثنا عنه ليس من أجل اثارته أو تضخيمه أو إعطائه حجما أكبر مما يستحق ولكن تحدثنا عنه لنقول هلا تخلصنا من هذا الفخ.

وأعتقد أنه عندما يتفق جميع الشركاء بأن هناك شيئا ما يعيق مسيرتنا آنذاك سنعمل كلنا على إزالة هذا العائق في أقرب الاجال. ولكن لا يمكننا القول بأنه يوجد من بيننا من هو أكثر نصرة من غيره لهذا المصير أو ذاك الذي ستكون عليه الصحراء.

سؤال : (لوليبرال) :

يتضح من خلال مجلس التعاون لدول الخليج العربي ومجلس التعاون العربي واتحاد المغرب العربي الذي أعلن عن إنشائه اليوم أن العالم أصبح يتجه شيئا فشيئا نحو تكوين تجمعات كبيرة. ويلاحظ من المحيط إلى الخليج أو من مراكش إلى البحرين أن العالم العربي ينتظم في عدة هياكل. فهل تعتقد جلالتكم أن بالإمكان أن تتوحد هذه الهياكل في يوم ما. وفي رأي جلالتكم كيف ستنظر الدول العظمى إلى ذلك.

جواب جلالة الملك :

من المؤكد أن الاونة الأخيرة التي شهدت ظهور مرض فقدان المناعة المتكسبة السيدا ومختلف أنواع الزكام التي تتغير وتضر بصحة البشرية شهدت كذلك ظهور جرثومة مباركة للسلم والوفاق والتكتل الجهوي والتفاهم. ولا يسعنا إلا أن نعبر عن ارتياحنا لذلك.

فإذا كنت تتحدثين عن اختلافات في الهياكل الداخلية فيما يخص البلدان المنتمية لهذه التجمعات فقد سبق أن قلت رأيي في الموضوع وهو أن التناقضات الاقتصادية والاجتماعية بين شركاء يريدون إنشاء شركة أو جمعية تكون أحيانا تناقضات قاتلة. وإذا ما كانت هذه التباينات في الأنظمة السياسية فقط فإن أوروبا مكونة من ملكيات دستورية كما هي مكونة من جمهوريات.

أما إذا كانت فوارق جغرافية يحكمها المناخ والجوار والمبادلات التجارية وغيرها فأعتقد أنه أصبح بإمكان البشرية بفضل وسائل المواصلات السلكية واللاسلكية ووسائل النقل السريعة وبفضل التقدم الذي حققناه بعون الله تجاوز هذه الفوارق الجغرافية وتحقيق التواصل بيننا. فالدول العظمى هي نفسها ترتبط مصالحها بعدد من التجمعات الدولية ولا تخامرها إلا فكرة واحدة في الظرف الراهن وهي نزع السلاح النووي ومحاولة مواجهة المشاكل الكبرى التي سنعيشها والتي نجهلها ولكنها لا تجهلها وهي مشكل طبقة الأوزون وارتفاع درجة حرارة الأرض ومشكل التلوث الذي تعاني منه الدول العظمى أكثر من غيرها.

وأعتقد أن العشر سنوات المقبلة ان لم تكن العشرين سنة المقبلة ستكون سنوات هدوء وانسجام وسلم وسكينة. ولا يمكننا في الختام إلا أن نعبر عن ارتياحنا لكون جرثومة التجمعات هي جرثومة معدية. ونأمل أن يشهد العالم العربي هو كذلك ميلاد تكتلات جهوية وهو الأمر الذي سيضفي قيمة أكثر أهمية على جامعة الدول العربية وسيدفعنا إن شاء الله إلى إعادة النظر في ميثاق الجامعة العربية. وأعتقد أننا إذا لم نراجع ميثاق جامعة الدول العربية فإنه لن يكون بإمكاننا مواجهة مشاكلنا الذاتية ومشاكل محيطنا.

سؤال : جريدة (المجاهد).

صاحب الجلالة... من بين الأهداف التي يتوخاها اتحاد المغرب العربي تحقيق مبدأ حرية تنقل الأشخاص والممتلكات وحتى رؤوس الأموال. ألا ترون يا جلالة الملك بأن التنمية غير المتوازنة ببلدان المغرب العربي قد تعيق تحقيق هدف الاندماج والتكامل الاقتصادي بالمنطقة وكذا التوازن الاجتماعي الذي توخاه الاتحاد.

سؤال آخر لو سمحت جلالتكم... هل تعني إقامة اتحاد المغرب العربي إعطاء الأسبقية في المستقبل للعلاقات المتعددة الأطراف على حساب العلاقات الثنائية.

جواب جلالة الملك :

ينبغي في رأيي أن نتفق على مبدأ أو مبادئ أساسية سواء في نهاية الفترة الرئاسية الحالية أو في بداية الفترة الرئاسية المقبلة. فأوروبا حرصت في البداية كما تعلمون على القيام بجرد لإمكانيات وخصوصيات كل طرف قبل أن تحدد هدفها في تحقيق السوق الأوروبية الكبرى وذلك بهدف استثمار واستغلال المجالات الأكثر تقدما ببعض البلدان في انتظار أن تتمكن باقي البلدان من الالتحاق بالركب في هذا الميدان أو ذاك مع العمل على ألا هناك تفاوت بل نوع من التساوي بين الأعضاء كل في قطاع معين سواء في مجال الفلاحة أو الصناعة أو النسيج وغيرها. إذن قبل التفكير في أنه باستطاعتنا أن نتوفر على إنتاجات تكون قادرة على المنفسة وليست منافسة داخل السوق بإمكاننا أن نتوفر على تخطيط أفقي وليس عموديا يمتد من نواكشوط إلى طرابلس. يتعين علينا أن نقوم بجرد لممتلكاتنا وثرواتنا وللمسائل التي عرفت تطورا لدى هذا الطرف أو ذاك وللقطاعات التي تتطلب الدعم والتشجيع. وأعتقد إذن أن هذه التفاوتات بدل أن تشكل عرقلة في وجه الجماعي ستكون نبراسا مضيئا هاما جدا لأنه من الأكيد أن هناك صعوبات ينبغي تحديدها للتغلب عليها وهذه مهمة موكولة للخبراء سواء منهم خبراء الدولة أو الخبراء الخواص. ولذلك نشجع اللقاءات بين مجموعات الخواص سواء منها الأبناك أو شركات التأمين أو مقاولات الصناعات الصغرى والمتوسطة والكبرى.

وأعتقد شخصيا أنه ينبغي تلمس التفاوتات وإبرازها وإظهار الاختلالات القائمة في مختلف القطاعات. فبمعرفتنا لنقاط الضعف عند هذه الجهة أو تلك نستطيع أن نخطط بشكل أفضل لتحقيق تساو لا يكون معيقا لتقدم بلداننا بل تساويا طموحا وقادرا على المنافسة.

وفيما يتعلق بسؤالكم الثاني أعتبر كأشقائي قادة الدول المغاربية أن العلاقات الثنائية المتميزة بفعل عامل الجغرافيا أو بفعل عوامل أخرى تعتبر حافزا إضافيا وإيجابيا بالنسبة للاتفاقيات المتعددة الأطراف. فتونس تعقد حاليا اتفاقيات هامة مع ليبيا وكلما اندمج هذان البلدان على الصعيد الفكري وعززا تعاونهما كلما كان ذلك إيجابيا بالنسبة لنا. والمغرب والجزائر بحثا ويبحثان حاليا العديد من المعاهدات ويعملان على حل مشاكلهما وتحديد مجالات التعاون العديدة بينهما. فكلما تدعم هذا التعاون كلما ساهما بطاقات وإمكانيات جديدة كما هو الشأن بالنسبة لموريتانيا والمغرب مثلا ولقد أدرك قادة البلدان المغاربية الذين اجتمعوا هنا بمراكش تمام الإدراك هذا التعاون وشجعوه. إذن فالتعاون الثنائي والتعاون المتعدد الأطراف يكمل أحدهما الآخر.*



المحطة البحرية بمرسى الجزائر - الثلاثاء 7 يونيو 1988 م - صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني وصاحب الفخامة الرئيس الشاذلي ابن جديد في حديث ودي بقاعة الشرف.



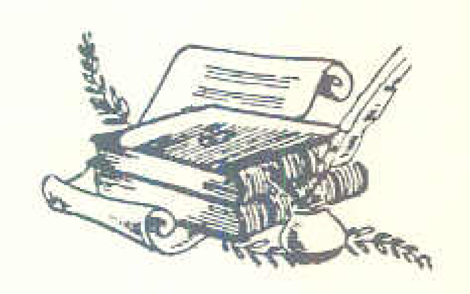
أي حب فجرت شلالَه ... كلماتٌ نبعت من شفتين !
أي عرس طفَحَت أفراحُه ... وعناقٍ بين أغلى أخوين !
أي بشرى جعلت فرحتُها ... يوم عيد الفطر أحلى فرحتين !
حدث أسعد من بعد الأسى ... كل محزون وأجرى كل عين
كان ميلادا وبعثا واعدا ... وامتحانا لرجال الثورتين
من رأى شيخا يواري دمعه ... وصبيا مد للأم اليدين
ونساءً يتعانقن، بكت ... عينه مما رأته مرتين
وتعدى الحب في سَوْرته ... كل حد وتحدى النقطتين
ومشى كل أخ نحو أخ ... طافح الشوق سخي المقلتين
عبر الشوقُ به فاجتازها ... قبل أن تُدمي الحدودُ القدمين !
يتمنى لو طوى الأرض إلى ... غائب عن عينه في خطوتين !
يعلن الشوق إلى محبوبه ... بيد تحمل أندى وردتين

○ ☆ ○

يالحب كدرت ينبوعه ... نوب، لم يصف إلا بعد أين
كيف للثائر أن ينسى أخا ... وهما ما حاربا في خندقين
صرخة الأطلس والأوراس لم ... تك يوما في حمانا صرختين !

بـــارك اللـــه خطـــانـــا ورعى ... زحفنـــا حتى بلغنـــا الحسنيين
لم يـــزغ مركبنـــا عن شطـــه ... مبحرا حتى ركبنـــا مركبين
وتـــدابرنـــا كـــأنـــا لم نكن ... في مـــآسي وطنينـــا أخـــوين
ونسينـــا أهلنـــا في قـــدسنـــا ... مهبـــط الـــوحي وثـــاني الحرمين
يشرب الـــدمـــع وينكي جرحـــه ... وأســـاه خُلْفُ أهـــل القبلتين
ولعـــل الفجر يبـــدو نـــوره ... ســـاطعـــا فـــوق روابي الضفتين
ونرى أمتنـــا ســـاجـــدة ... في مصـــلاه تصلي الركعتين
ونرى المغرب يبني هرمـــا ... شـــامـــخ القمـــة يعلـــو الفرقـــدين
أيهـــا النـــاحت من صخرتنـــا ... لا تحـــاول أن تراهـــا صخرتين !
إننـــا مهمـــا اختلفنـــا أُمـــة ... دينهـــا الحب ولسنـــا امتين !

تطوان : **محمد الحلوي**



بمناسبة الذكرى الثامنة والعشرين لجلوس

صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله

على عرش أسلافه المنعمين

التي تقترن هذه السنة بمرور مائتي وألف عام على

تأسيس العرش المغربي



"صادق الحب يملي صادق الكلم"

جلالة الملك الحسن الثاني الابن البار

يترجم لوالده

ويسجل المواقف النبيلة الثابتة

لبطل التحرير والنضال الملك المنعم

مولانا محمد الخامس

طيب الله ثراه

" لقد قضيتَ صباك تحت تأثير العهد الأول للحماية ، فكنتَ وأنت الطفلُ الصغير تسمع الآهاتِ على الاستقلالِ الضائع والمجدِ الذاهب والحرية السليبة ، وكنتَ تتابع أخبارَ المقاومة المغربية المسلحة في الجبال والصحاري ، وكنتَ تشاهد ما عليه الأمّةُ المغربية من التشبث بالخرافات والتعلّق بالأساطير والخروج عن طريق الجادّة والمحجّة البيضاء فكنتَ تتألمُ وكنتَ تحزن ."

الحسن الثاني
(محمد الخامس - فكرة وعقيدة - ص 245)

" لقد كان أبي مقتنعاً اقتناعاً ينزل من نفسه منزلة الإيمان بأن التعليم له مركزُ الصدارة في قائمة احتياجاتنا ، ولذلك بذل كلَّ جُهدٍ في استطاعته لكي يجعلَ السلطات التي بيدها مقاليدُ الحكم توفِّر التعليمَ الجماهيريَّ الواسع لأمّتنا ."

الحسن الثاني
(التحدي - ص : 29)

"كنتَ تؤمن بأنه لن يستقيم أمر هذه الأمّة إلا بعقيدة مؤمنة سلفية طاهرة نقية ، وأنّه لا تتمّ أيةُ نهضةٍ صحيحةٍ إلا بفكرٍ وطنيٍ متجرّد يعمل للصالح العام لا يفرّق بين أسود وأبيض وعربيٍ وعجميٍ (يا أيُّها الناسُ إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) ."

الحسن الثاني
(محمد الخامس - فكرة وعقيدة ، ص 245)

" إن الله سبحانه وتعالى يخلق لهذه الأمّة المغربية على رأس كلّ عشرين سنة فرصاً لتجدّد أمر وطنيتها ، فإذا نحن انطلقنا من سنة 1912 وسنة 1916 ثم إلى سنة 1950 نجد أن هناك .. على رأس كلّ عشرين سنة أعطانا الله سبحانه وتعالى الفرص ليجدّد لنا أمر وطنيتنا ."

الحسن الثاني
(انبعاث أمة - ج 25 - ص 195)

« لقد آمنتَ يا أبتاه بأنه لا يُمكن أن يصلحَ آخرُ هاته الأمة إلا بما صلح به أولها فأخرجتَ المرأة من عهد الجهل إلى عهدِ النور والعِلم وأعطيتَ بالأميرات فلذاتِ كبدك أروعَ الأمثلة فتسابق المواطنون لتعليم بناتهم ».

الحسن الثاني
(محمد الخامس - فكرة وعقيدة. ص245)

« وشهرتَها حربًا على الخرافات والطُّرق الضالة وقضيتَ على المحاولات العنصرية التي كان يريدُها الاستعمار لتفريق كلمة الأمّة واستغلالها ».

الحسن الثاني
(محمد الخامس - فكرة وعقيدة. ص 245)

« لقد كانت خُطتك في الإصلاح مطبوعةً بالحكمة فقد كنتَ تريد مدنيةً في ظلّ الدّين ودينًا صحيحًا مطهّرًا من دَجل الدجّالين والمُشعوذين فتحمّلتَ في سبيل ذلك المحنَ والمصائبَ ».

الحسن الثاني
(محمد الخامس - فكرة وعقيدة - ص 246)

« لقد آتت أعمالك الطيبة نتائجها فتمّ القضاءُ على الشعوذة والتدجيل واتجهتِ الأفكار للتعليم والإصلاح فنظّمتَ الجامعات العتيقة.. وفتحتَ المدارس وكوّنتَ الكليات والمعاهد ودفعتَ هذا البلد الأمين في طريق الرقي والمدنية ».

الحسن الثاني
(محمد الخامس - فكرة وعقيدة، ص 245)

" إن الأطر اللازمة لقيام حركة تحرير شعبي كبيرة، لم تكن قد توفرت بعد ولذلك كان من الضروري أن تنبثق هذه الأطر تدريجياً من هيكل اجتماعي واقتصادي وثقافي لم يكن يسهل عليه تكوينها ".

الحسن الثاني ملك المغرب:
(التحدي. ص37)

" وكانت التجارب قد أعطته الدليل على أنه من العبث انتزاع إصلاحات حقيقية قاطعة مادام هيكل الحماية قائما ".

الحسن الثاني ملك المغرب:
(التحدي. ص 52)

" إن الذين كانوا يظنون أن من الممكن الوصول إلى الاستقلال عن طريق الإصلاحات أقنعهم والدي بأن يتبنوا استراتيجية وتكتيكاً جديدين وأن يعكسوا المقدمة المنطقية منادين: للوصول إلى الإصلاح لابد من الاستقلال ".

الحسن الثاني ملك المغرب
(التحدي. ص 57)



" لقد عاش محمد الخامس حياته كلها مقاوماً مناضلاً متجاوباً مع أمته التي أخلص لها وخلصت له موفياً بجميع العهود التي عاهد عليها الله والتزم بها نحو شعبه ... إن الكفاح الذي خاضه الشعب المغربي بقيادة محمد الخامس كفاح مستمر دائم لم ينته بعد وإن المكاسب التي حققها العرش والشعب بهذا الكفاح الوطني أمانة مقدسة في عنق كل مغربي ".

الحسن الثاني
(انبعاث أمة . ج 6 . ص 182)

" وإذا كنت وأنا من أقرب الناس إليه أعرف الناس بما يبذ له جلالته من جهود موفقة بإذن الله في سبيل البلاد التي يتربع على عرشها فلعلي أكون من أكثر أفراد هذه الأمة اعترافاً بالجميل وتقديراً للعمل المثمر الذي يتطلب من جلالته تفكيراً الحكيم وبذل الكريم وجهد الصابر وسماحة الحليم في سبيل إسعاد هذه الأمة أفرادا وجماعات ... إنه يفكر في كل فرد من أفراد الشعب بنفس الشعور الذي يفكر به في أبنائه : يفكر لجاهلهم حتى يتعلم ولمريضهم حتى يصح ولفقيرهم حتى يستغني ولمظلومهم حتى ينصف وهو من أجل ذلك في تفكير دائم لمصلحة الأمة جميعها وفي عمل دائب لعز الشعب وسؤدده ".

صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير مولاي الحسن
(رسالة المغرب - العدد 146 ص 2)

" لقد كان احتفال الملك والشعب بعيد العرش قبل الاستقلال في عهد والدنا محمد الخامس رضي الله عنه تعبيراً عن الفرحة باتحاد إرادة الملك وإرادة الشعب وتجسيماً للازدهار بتصميم العزائم على المضاء انتزاعاً للحرية واسترداداً للسيادة ".

الحسن الثاني
(انبعاث أمة . ج 20 . ص 2)

" لقد قضيتَ سبعة عشر عاماً فوق العرش تحاول بكل ما في وسعك أن تأخذ لهذه الأمة ما يمكن أخذه من المستعمر الغاصب وكنت تقلب الرأي وتعد الخطط للتخلص من سيطرته وتهيئ الإطارات بالداخل والخارج في انتظار يوم الخلاص لكي يُحسن المغرب الجديد مواجهة مسؤولياته حتى إذا أشرفت الحرب الأخيرة على نهايتها ووجدتَ الفرصة مواتية للصدع بما قدرتَ أعلنتَها في شجاعة المقاوم الباسل والبطل الصنديد المغوار فحصرتَ مطلبك في الحرية والاستقلال لوطنك ... وهكذا قُدتَ منذ سنة 1944 أمتك في المطالبة بالاستقلال ".

الحسَن الثاني
(محمد الخامس: فكرة وعقيدة. ص 246)

" لقد قدّمتَ عرشك وأسرتك ونفسك للدفاع عن هذا الوطن وكان الشعب يتسابق لفدائك وكنت تسابقه للدفاع عن حوزته وحماية مكاسبه وبهذا التسابق للفداء والتضحية حصل ذلك التجاوبُ العظيم بينك وبين هذا الشعب فحققت المعجزات التي أثارت إعجابَ العالم."

الحسَن الثاني
(محمد الخامس: فكرة وعقيدة. ص 243)

" لماذا نحتفل بهذه الذكرى والحالةَ أنّ تاريخ المغرب منذ أن انقضّ عليه المستعمر مليء بذكريات معارك خلّدت اسمَه وأسماء الأبطال الذين خاضوا تلك المعارك ... فمثل هذه المعارك كانت تقضّ مضجع المستعمر وتهدد أمْنَه ولكنّ معركة يناير 1944 أظهرتْ له أنها تهدّد وجودَه وكيانَه .... إن 11 يناير 1944 كانت ملتقى بين القوات الحيّة في هذه البلاد وبين مَلِكها."

الحسَن الثاني
(انبعاث أمة. ج 17. ص 1)

" لم تكد تصل سنة 1947 حتى ربطت بزيارتك التاريخية بين أجزاء المملكة المغربية فحطمت الحدود المصطنعة وربطت الحاضر بالماضي فأكدت ارتباط هذا الجناح من وطن العروبة بباقي أطرافه ولفت بذلك الخطاب التاريخي أنظار العالم إلى أن المغرب الذي لعب عبر التاريخ أروع الأدوار في بناء صرح المدنية متطلع إلى أن يأخذ من جديد مقامه في المحافل الدولية ويساهم مرة أخرى في عظمة وازدهار عالم ما بعد الحرب ومنذ ذلك العهد والاستعمار يوالي مؤامراته عليك ويجند الصنائع والعملاء للنيل منك ".

الحسن الثاني

(محمد الخامس - فكرة وعقيدة - ص 248)

"إنني لأذكر ونحن في يوم 14 غشت 1953 أنني في حديث مع والدي طيب الله ثراه بعد العشاء وكان في مدة تلك الأزمة يسهر الليل كثيراً حوالي الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة، قال لي رحمة الله عليه: إنني سأخوض معركة وأنا أعزل فلاجيش لي، ولا شرطة ولا مالية ولا وسائل علماً مني أن العدو أقوى وعلما مني بأنني مثقل بأبناء وبنات وسوف أزج بكم ربما أنتم أبنائي وفلذات كبدي سوف أزج بكم في هذه المعركة ولا أدري ما سيكون المصير. ثم زاد وقال: فلا أريد أن تعذلني ولكن أريد أن تفهمني. فأجبته: ياسيدي افعل كأنك أعزب غير متزوج ولا أبناء لك".

الحسن الثاني

(انبعاث أمة. ج 18. ص 289)

" لماذا نحتفل بذكرى عشرين غشت ... لأنها كانت هي الشرارة الأولى التي آذنت بانهيار الاستعمار في جميع أنحاء العالم وبالأخص في قارتنا الافريقية".

الحسن الثاني

(انبعاث أمة. ج 25. ص 120)

" إن ثورة الملك والشعب لم تكن ثورة الملك وحده ولم تكن ثورة الشعب وحده بل كانت ثورتهما معًا ويمكن أن نقول ان المغرب كله كان ثائرًا ".

الحسن الثاني
(انبعاث أمة . ج 31 . ص 378)

" إنّ الاستعمار وأذنابه كانوا يُلقّبون محمّد الخامس (سلطان كريبير سنترال) وكان طيّب الله ثراه يفتخر بهذا اللقب ويقول : الآن أحسست بأن المستعمر أدرك الخطورة حيث أنه جعلني ملكاً على الشعب لا على القشور."

الحسن الثاني
(انبعاث أمة . ج 16 . ص 146)

" إن الظروف التي عرفتها بلادنا قبل الاستقلال وبعده اقتضت منا أن نساهم بحظنا إلى جانب والدنا جلالة الملك محمّد الخامس رضي الله عنه وأرضاه في معركة التحرير ودعم الاستقلال المستعاد فقد كتب الله لنا أن نشارك في عهد الحجر والحماية وعهد الحرية والانطلاق بالرأي الصادق الأمين والمساعدة في كل آونة وحين ... كما كتب لنا من قبل أن نقاسم الملك الألمعي الهمام والبطل المقدام طيب الله ثراه وأحسن مثواه أطوار السراء والضراء والتضحية والفداء "

الحسن الثاني
(انبعاث أمة . ج 16 . ص 15)

" في هذا الموقف الرهيب أتذكر فترة تاريخية عشتها بجانبك حينما تكالب علينا الاستعمار مهدداً الجلالتك متحدياً لمهابتك يساومنا على أن نرضى بالدنية في وطننا ويراودنا على أن نرهن مصير الأمة في عبودية مستمرة مستعملاً لذلك أنواع الوعيد ... ومع ذلك لم يهن لنا عزم ولا ضعفت لنا قناة . . .
إنك لا تزال أمامي يوم أن طوق القصر... ومازلت أتذكر وقد نظرت إليك نظرة إشفاق وأراك تبتسم مردداً : لا تحزن إن الله معنا ".

الحسن الثاني
(محمد الخامس - فكرة وعقيدة . ص 249)

" ركب الاستعماريون رؤوسهم بعد ما يئسوا من استجابة الملك لمطالبهم وتلبية رغائبهم وعلموا علم اليقين أن سياستهم في المغرب لن تنجح وخططهم فيه لن تفلح ماداموا يواجهون ملكاً صلب العود غيوراً على مصالح أمته وحقوق شعبه فحسبوا أنهم بإقصائه عن العرش وإبعاده عن الوطن يخلو لهم الجو وتنفسح أمامهم الآفاق ليستذلوا المغاربة ... ولكن الذي فاتهم أن الملك محمد الخامس كان ملكاً أميناً وقائداً مخلصاً وكان فوق ذلك المعبر عن أماني الأمة المغربية ومرآة مطامحها ...إن رد الفعل العنيف الذي تلا اختطاف الملك المرحوم وأسرته والثورة العامة التي اندلعت تلقائياً إثر نفيه وشملت حواضر المغرب وبواديه لم تكن غير تعبير صادق عما يحس به كل مغربي في قرارة نفسه من كراهية للظلم والاستعباد وتعلق بالعدل والحرية ".

الحسن الثاني
(انبعاث أمة .ج 11 ص 163)

" وهجم الظالمون على القصر وأخرجنا من أهلنا وديارنا لا نعلم أين المصير وحلقت بنا الطائرة ".

الحسن الثاني
(محمد الخامس - فكرة وعقيدة . ص 249)

* إلى أين كنا ذاهبين ؟ لم نكن نعرف أي شئ ... وأبلغنا الكولونيل أن وجهتنا يمكن أن تكون كورسيكا ... وفي أواخر يناير 1954 نُقلنا إلى مدغشقر".

(الحسن الثاني ملك المغرب : التحدي. ص 90)

* لقد حباني الله سبحانه وتعالى شرف الصّحبة فكنت (ثاني اثنين إذ هما في الغار"

الحسن الثاني
انبعاث أمة ج 16. ص 15

"وفي انتسيرابي كان علينا أن نعطي انطباعاً بأننا قبلنا حياة المنفى وألفناها فكنت أتظاهر بمتابعة دراساتي للحقوق بينما كنت في الحقيقة أتولى يومياً بنصح من الملك إعداد الأجوبة عن رسائل كانت تتزايد كل يوم ولم تكن أفئدتنا تفارق وطننا حيث كان العديد من المكافحين المخلصين يتعذبون ويموتون وكما كانت صلابة الملك السجين تغذي المكافحين وتشد من عزائمهم كان الاخلاص الذي يُظهره الشعب بمثابة دليل يُبرهن على اننا سنربح المعركة الأخيرة ".

الحسن الثاني - ملك المغرب :(التحدي . ص 99)

"إن إيمانك بالله لم يضعف قط ولم يُصبك قنوط في المنفى لأنك كنت واثقاً بمن يعلم السر وأخفى لقد كنت تراها أشبه بالهجرة من مكة إلى المدينة وكان لك في رسول الله اسوة الذي هاجر وانتصر اسوة حسنة. لقد كنا ونحن في المنفى السحيق نتابع بطولة الشعب الذي جند نفسه لفدائك وكنت لا تشك لحظة في عودتك إلى أمتك ووطنك ".

الحسن الثاني
(محمد الخامس - فكرة وعقيدة - ص 250)

" بثباتك وصبرك وبتضحياتك بسلطانك وعرشك لقنت للمواطنين دروس التضحية والفداء ورسمت لهم طريق الحرية ... فتسابقوا للمقاومة والتضحية ... وبين عشية وضحاها عدت لهاته الأمة وأنت رمز فداها بل أنت مبتدأ التضحية ومنتهاها حاملا في يمناك اليمن والاستقلال وفي يسراك اليسر والإقبال ".

الحسن الثاني

(محمد الخامس - فكرة وعقيدة. ص 250)

" وكان يوم العودة هو يوم الأربعاء السادس من نونبر 1955 يوم حملتنا الطائرة إلى الوطن وكان أبي يجاهد نفسه ليضبط مشاعره وبعد أن سمعني أقرأ آية من كتاب الله تقول (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور) طفح وجهه بالابتسام ".

الحسن الثاني ملك المغرب :(التحدي ص : 103)

" لم تسترح لحظة بعد تلك العودة وإنما رجعت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وابتدأت الكفاح لتوطيد دعائم الدولة وتشييد صرحها ومواجهة مهام الاستقلال وضبطها فأقمت الأمر على أساس متين وأعليت شأن الدنيا والدين فهيأت للأمة قوانينها وإطاراتها وكونت لها شرطتها وجيشها وأقمت لها معالم الثقافة وأرسيتها وأقمت مؤسساتها التمثيلية وأعليتها وبوأتها المقام الأسمى في المحافل الدولية وأسهمت بجهودك المباركة في حظيرة جامعة الدول العربية ووضعت المغرب في المكان المرموق في الأمم المتحدة وأصبحت رسول الحرية والسلام تدعو لهما في الخافقين وتبشر بهما في المشرقين ولم تمض الأشهور على هذا العمل الدائب حتى أصبحت بلادنا قبلة الوافدين ومحط اهتمام الشرق والغرب تقصدها الوفود من كل جانب ويعترف بفضلها الأقارب والأجانب تعقد فيها المؤتمرات ويسجل لها التاريخ أروع الصفحات .

الحسن الثاني

(محمد الخامس - فكرة وعقيدة. ص 251)

الإمام المولى إدريس

الماهد الفاتح

للأستاذ عبد الله كنون
عضو أكاديمية المملكة المغربية
ورئيس المجلس العلمي لطنجة
ورئيس رابطة علماء المغرب

«... لا يصح، قطعا، أن يميل إدريس عن المغاربة الذين ناصروه، وأيدوه، وهم فوق ذلك أخواله وعشيرته الذين يجري دمهم في عروقه، فهو في الحقيقة أول مغربي تبلورت فيه القومية العربية المغربية من وجهة النظر السلالية لامتزاج العنصرين فيه بالمصاهرة والولاء، وهو لحمة كلحمة النسب، كما في الحديث...

كان العلويون، وهم يحاربون بني أمية، يحتجون بأنهم انتزعوا الخلافة منهم بغير حق، وأن سبيلهم إليها كان هو القوة لاغير، أما الاستحقاق الشرعي بطريق السابقة والأفضلية في الإسلام، فهو لآل النبي من بني هاشم، حتى لو لم نقل بالإرث والوصية. فلما قامت الدولة العباسية اعتبر العلويون أن بني عمهم خانوهم، لأن الدعوة إنما كانت للرضى من آل محمد، وفعلا فقد كان أهل البيت النبوي اجتمعوا بالمدينة عند اختلال أمر مروان بن محمد، آخر خليفة من بني أمية، وبايعوا لمحمد الملقب بالنفس الزكية، وهو ابن عبد الله الكامل بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وحضر البيعة أبو جعفر بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وهو الذي تولى الخلافة بعد ذلك باسم أبي جعفر المنصور.

ولهذا لما خرج محمد النفس الزكية بالحجاز على المنصور، احتج له الإمامان مالك وأبو حنيفة وقالا إن إمامته أصح من إمامة أبي جعفر، حتى انهما أوذيا في ذلك، وكان الإمام مالك يفتي بأن طلاق المكره لايجوز، موريا ببيعة الإكراه، التي يأخذ العباسيون بها الناس، وعلى ذلك تتابع خروج العلويين حتى كانت وقعة فخّ بالقرب من مكة، سنة تسع وستين ومائة في أيام موسى الهادي العباسي،

وكانت الكرة فيها على العلويين، فتفرقوا في الأمصار، ومنهم ادريس بن عبد الله أخو محمد النفس الزكية، الذي لجأ إلى المغرب.

☆ ☆ ☆

وقصة لجوئه هذا طريفة، ولعلها من إيحاء مولاه راشد المغربي الأصل، الذي لم ير لسيده أنجى من أن يبعد في غرب البلاد الإسلامية حيث يأمن على نفسه، ويحتمل أن يجد المنعة والنصرة.

وهكذا نرى ادريس قد لحق بمصر ومعه راشد مولاه، فعلم صاحب البريد بأمره، وهو يومئذ واضح المسكين مولى صالح بن المنصور، ولما لم ير فيه خطرا وأنه إنما يطلب النجاة من الموت، حمله على البريد إلى المغرب الذي هو وجهته، فلم ينته حتى حل بمدينة وليلي سنة 172[1] ونزل على إسحاق بن محمد بن عبد الحميد زعيم أَوْرَبَة من قبائل المغرب التي يقال أنها قبيلة راشد مولى ادريس، فهذه خطة محكمة دبرها المولى المخلص لنجاة سيده والقيام بأمره، ولذلك قلنا إن قصة لجوء ادريس إلى المغرب ربما كانت من إيحاء مولاه.

☆ ☆ ☆

ويروي ابن أبي زرع حكاية أخرى في وصول ادريس إلى مصر وكيفية خروجه منها، وهي حكاية مؤثرة، وإن كان طابع الصنعة يلوح عليها واضحا وخلاصتها أن رجلا من أهل مصر، من أهل اليسار استضاف ادريس بعد أن عرفه، وأقام عنده أياما هو ومولاه راشد، فَنُذِرَ بهما الوالي، فبعث إلى الرجل يحذره مغبة إيواء الخارجين على الدولة ولكنه يؤمنه هو وضيفه، ويؤجل هذا الضيف ثلاثا ليغادر مصر ويتجه حيث شاء. فأعد الرجل راحلتين له ولإدريس وصنع زادا يبلغهما إلى إفريقية، وقال لراشد أخرج أنت مع القافلة، وأخرج أنا وادريس على طريق لا تسلكه الرفاق وموعدنا مدينة بَرقة. وهناك ودعهما المصري، وتوجه ادريس ومولاه إلى القيروان فأقاما بها مدة، ثم قصدا المغرب الأقصى، وعمد راشد إلى ادريس فألبسه مدرعة صوف خشنة وعمامة كذلك وصيره كالخادم له يأمره وينهاه خوفا عليه واحتياطا من عوده، الأمر الذي يدل على تجدد الطلب في أثره، فوصلا إلى مدينة تلمسان، ومنها توجها إلى طنجة وهي يومئذ قاعدة بلاد المغرب وأم مدنه، فأقاما بها أياما ولما لم يجد ادريس بها مراده خرج مع مولاه حتى انتهيا إلى وليلي فنزل على كبيرها ابن عبد الحميد الأوربي كما قلنا، فأقبل عليه وبالغ في إكرامه وبره، وعرفه ادريس بشأنه وأفضى إليه بسره، فوافقه على مراده، وتولى خدمته والقيام بشؤونه.

☆ ☆ ☆

ولم يلبث ابن عبد الحميد أن جمع عشيرته من أوربة وعرفهم بنسب ادريس وقرابته من النبي ﷺ وقرر لهم فضله ودينه وعلمه، واجتماع خصال الخير فيه، ودعاهم إلى بيعته، فبايعوه بمدينة وليلي يوم الجمعة 4 رمضان المعظم سنة 172 وكانت أوربة يومئذ من أعظم قبائل المغرب وأكثرها عددا، فقامت بدعوة ادريس ودعت غيرها من القبائل المغربية إلى نصرته والدخول في طاعته، فاستجاب له أكثر القبائل، وتواردت عليه الوفود معلنة ببيعته مؤيدة له، فقويت جموعه وتمكن سلطانه، فجيش الجيوش وخرج غ في بلاد المغرب طولا وعرضا، ويملك منها ما بقي غير خاضع له. وكانت دعوة الإسلام ما زالت لم تتمكن في كثير من القبائل، وبعض القبائل قد فتنتها دعوات الخوارج وأهل الابتداع، فعمل ادريس على إبلاغ الدعوة الإسلامية خالصة من الزيغ والانحراف إلى الجميع، واستنقذ الذين استهوتهم البدع والأهواء من الضلال، ووحد كلمة المغرب وقلوب أهله من يومئذ على مذهب السنة والجماعة، فلم يمل عنه بعد ذلك حتى يوم الناس هذا.

☆ ☆ ☆

1) هي فلوبيليس Volubilis المدينة الرومانية الأثرية المسماة في لسان العامة قصر فرعون بقرب مدينة زرهون.

ولعلنا في غير حاجة إلى القول بأن ما زعمه بعض المؤرخين من أن ابن عبد الحميد كان معتزليا شيعيا، وأن أوربة قبيلته وجل قبائل المغرب كانت على مذهب الخوارج، وأن ادريس وفق بين نزعات القوم وقوى الشيعية وأقام دولته على أساسها، هو من الكلام الملقى على عواهنه والذي لايثبت عند التحقيق. ونعتقد أن الذي حملهم على ذلك هو ما رأوه من نجاح أمر ادريس وانتشار دعوته وتمهيد سلطانه، فجعلوا كل من مر به أو لقيه ابتداء من دخوله إلى مصر، شيعيا ينتصر لآل البيت، حتى صاحب البريد بها، وهو مولى للعباسيين، وحتى كبير قبيلة أوربة التي قامت بدعوته في المغرب، كأنه لو لم يكن شيعيا لما قامت لإدريس قائمة.

☆ ☆ ☆

والحق أن قضية ادريس، وتعني قضية العلويين، بملابساتها المأسوية وقوة حجتها وأهمية من يناصرونها من رجال العلم والدين كالإمامين أبي حنيفة ومالك بن أنس، هي في غنية عن أن تلتمس لها الأسباب والعلل في شيعية كل من تطوع لخدمتها وتحمس لنصرتها... أما خارجية القبائل المغربية فإنها كانت فتنة كما عبرنا، أكثر منها مذهبا ونزعة سياسية يأخذ بها المغاربة، وإلا لما استطاع ادريس أن يحولهم في مدة قليلة من الخارجية إلى الشيعية كما يزعم أولئك المؤرخون، وهو الأمر الذي لم يحققه جده الأعلى علي بن أبي طالب والزعماء العلويون من بعده.

وإذا ثبت التزيد في هذا القول وعدم صحته نظرا، فإن الزعم بأن ادريس هو الذي تحول إلى مذهب أنصاره المغاربة كما ادعى البكري، هو أكثر بطلانا وأبعد من التحقيق. فإن ادريس كان من أئمة آل البيت وصاحب دعوة، وعلما من أعلام الملة والدين، وقد تحمل في سبيل إيمانه بدعوته ودعوة أسلافه ونجاحها أعظم التضحيات، فكيف يتحول عنها إلى ضدها في المكان الذي يأمل أن يبثها فيه، وتنتشر منه. وكيف يكون تحوله على يد أناس سذج قليلي المعرفة، حديثي العهد بالإسلام، لا جرم أن من زعم ذلك لم يقدر مهمة ادريس، ولم يعرف ما كان عليه القوم من جاهلية جهلاء. وبإجماع المؤرخين وتواتر الرواية على ألسنة الجماهير الشعبية من أهل المغرب يعتبر ادريس أحد الفاتحين الذين نشروا الإسلام في هذه البلاد، ووطدوا سلطانه ورفعوا رايته، كعقبة بن نافع وموسى بن نصير بل انه في الرواية الشعبية يعتبر الفاتح الوحيد، وذلك قطعا لأنه هو الذي تمم عمل سابقيه وأخضع مابقي من قبائل المغرب خارجا على الطاعة وأدخلهم في حظيرة الإسلام وقطع دابر الكفر والضلال، وجمع الشمل ورتق الفتق، ودعم كيان الوطن فلم ينهر بعده أبدا.

☆ ☆ ☆

وبعد أن فرغ ادريس من تمهيد المغرب الأقصى، توجه نحو مدينة تلمسان، وهي باب المغرب الأوسط، فخرج إليه واليها محمد بن خرز المغراوي مستأمنا ومبايعا له، فدخلها ونظر في أحوالها، وبنى بها مسجدا كبيرا، ثم عاد إلى وليلي عاصمة مملكته حيث قدر له أن يموت مسموما بتدبير من هارون الرشيد فيما يقال، لأنه لما بلغه خبره وتمكنه وظهوره وغزوه للمغرب الأوسط، خشي من استفحال أمره وتملكه لإفريقية وتهديده لدولته فلم ير وسيلة للتخلص منه إلا أن يبعث إليه من يحتال في الاتصال به واغتياله، من غير أن يتورط معه في حرب لايدري ما تكون نتيجتها.

وكانت وفاة ادريس بن عبد الله، ويلقب بالأكبر، في مهل ربيع الآخر سنة 177، فمدة إمامته رحمه الله خمس سنوات وستة أشهر.

☆ ☆ ☆

وقد نشأت عن وفاته أزمة حكم حادة، لو لم يدبرها راشد بحكمة وحسن نظر لكانت نهاية الدولة الإدريسية يومئذ، فإن ادريس لم يخلف عقبا غير حمل بجارية مغربية تسمى كنزة، وهي في الشهر السابع من حملها، فجمع راشد رؤساء القبائل ووجوه الناس وقال لهم إنكم قمتم بدعوة آل البيت ونصرتهم فإن رأيتم أن تتربصوا بهذه

الجارية حتى تضع حملها فإن كان ذكرا أحسنا تربيته فإذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه وفاء لوالده وتمسكا بدعوته، وإن كان أنثى نظرتم لأنفسكم، فاقتنعوا بكلامه وقالوا له مالنا محيد عن رأيك وحسن تدبيرك.

وتولى راشد من يومئذ الوصاية على العرش، ولم تلبث كنزة أن وضعت مولودا ذكرا أشبه الناس بأبيه، وذلك في يوم الإثنين 3 رجب 177 أي بعد شهرين من حدوث الأزمة، فأخرجه راشد إلى الناس حتى نظروا إليه فقالوا : «هذا ادريس بعينه لم يمت»، فسماه راشد ادريس وسهر على تربيته وقام بأمره أحسن قيام.

☆ ☆ ☆

وظهرت نجابة ادريس منذ الصغر، فحفظ القرآن وهو ابن ثماني سنوات وتعلم الفقه والعربية، وروى الشعر وأيام العرب وسير الملوك، وتدرب على ركوب الخيل والرمي بالسهام وغير ذلك من مؤهلات الرياسة وخصال الملك، وأدركته نباهة أصله وكرم أبوته، فمرعان ما يفع وترعرع وأصبح مستعدا للاضطلاع بخلافة أبيه وتولى الأمر بنفسه، فاجتمع عليه القوم وبايعوه في مسجد وليلي يوم الجمعة غرة ربيعة الأول عام ثمانية وثمانين ومائة وله من العمر إحدى عشرة سنة.

وقيل إن إبراهيم بن الأغلب والي إفريقية دسّ إلى راشد من قتله فأسرع القوم إلى مبايعة ادريس اتقاء للفتنة، ومعاملة لابن الأغلب بنقيض قصده إذ كان يريد تفريق الكلمة وقطع دعوة الأدارسة.

ولما تمت له البيعة صعد المنبر وخطب في الناس فقال :

«الحمد لله أحمده وأستغفره وأستعين به، وأتوكل عليه، وأعوذ به من شر نفسي ومن شر كل ذي شر. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، المبعوث إلى الثقلين بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، صلى الله عليه وعلى آل بيته الطاهرين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. أيها الناس : إنا قد ولينا هذا الأمر، الذي يضاعف للمحسن فيه الأجر، وللمسيء الوزر، ونحن والحمد لله على قصد جميل، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق، إنما تجدونه عندنا»، فعجب الناس من فصاحته وقوة جأشه وأيقنوا أنه أحق بها وأهلها.

والحقيقة أن هذه الخطبة على قصرها تبين مدى فعالية التربية الحسنة التي قام بها راشد لادريس، إعدادا للمهمة الكبرى التي تنتظره، وتدل على بعد نظر ادريس وإلمامه بالظروف التي بويع فيها وطبيعة الأحداث التي تواجهه، فهو لم يغتر بنصرة القوم له، والحماس الذي أظهروه في بيعته، وإنما اعتمد في ولايته الحسبة وتوخى العدل وطلب الثواب من الله عز وجل، ثم ألمع إلى خصومه وما يدبرونه له من المكائد، فأنذر من يصغي لهم وينخدع بكلامهم أن مرادهم هو التسلط والقهر، وإشاعة الفتنة، وأما الحق والعدل وحكم الشرع فإنهم بمعزل عنه، ولا يقيمه إلا أهل البيت الذين ثاروا من أجله وأراقوا دماءهم الزكية في سبيله.

فما أشبه هذه الخطبة في اختصارها وجمعها بخطبة أبي بكر الصديق التي خطب بها عند مبايعته... وهي إن تكن من كلامه في هذه السن المبكرة فذلك منتهى النبوغ، وإن تكن مما خطب به بعد تقدمه في السن واستتباب الأمر له، وإنما المؤرخون هم الذين جعلوها خطبته الأولى فذلك منتهى التوفيق.

☆ ☆ ☆

وأظهر إدريس على مر الأيام مقدرة تامة على تسيير الأمور والنهوض بأعباء الملك، مستعينا بالرؤساء والأعيان من رجال القبائل وأنصار أبيه، إلا من انحرف عنه ومال إلى دعاة العباسيين وولاتهم بإفريقية فإنه كان يحذره وينزله منزلته، وربما فتك به أخذا بالاحتياط وحسما لمادة الخلاف كما فعل بابن عبد الحميد الأوربي القائم بأمر أبيه لما أحس بانقلابه عليه، وعد ذلك من حزمه وصرامته.

وكان ابراهيم بن الأغلب والي العباسيين على إفريقية لايفتأ يثير الفتن ويدبر المكائد للدولة المغربية الفتية، فبعد قتله لراشد جعل وكده قتل ادريس أو تشتيت شمل القبائل المغربية، المجتمعة عليه وهو القائل في شعر له :

ألم ترني بالكيد أرديت راشدا
وإني بأخرى لابن ادريس راصد

تناوله عزمي - على بعد داره -
بمحتومة يحظى بها من يكابد

وكان بهلول بن عبد الواحد المضغري من الرؤساء الذين استمالهم ابن الأغلب واستهواهم بالمال حتى بايع هارون الرشيد واعتزل ادريس في قومه مضغرة فداره ادريس حتى راجع طاعته وكان مما كتب به إليه هذه الأبيات :

أبهلولُ قد حملت نفسك خطة
تبدلت فيها ضلة برشاد

أضلك ابراهيم عن بعد داره
فأصبحت منقادا بغير قياد

كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب
وقدما رمى بالكيد كل بلاد

ومن دون ما منتك نفسك حاليا
ومناك إبراهيم شوك قتاد

وفي الواقع المصاعب التي كان يخلقها ابن الأغلب لادريس بالتضريب بين رؤساء القبائل المغربية وإثارة الفتن الداخلية، كبدته مشاق عظيمة ومجهودات كبيرة للمحافظة على الاستقرار ودوام الدولة، ودلت من جهة أخرى على حصافته السياسية وقوة عزيمته، على أن التفاف المغاربة حوله وصدق محبتهم له وتفانيهم في نصرته مما كان له أعظم الأثر في إحباط دسائس ابن الأغلب وعدم نجاح مساعيه.

☆ ☆ ☆

وضبط ادريس أمر المغرب وعدل في الرعية وأحسن السياسة، ووصل الوفود وعظم الرؤساء والأشياخ، فأحبه الناس وتعلقت القلوب به، وتوطد ملكه وقوي سلطانه وكثرت جيوشه وأتباعه، وقصد حضرته الأكابر والأعيان من كل قبيل. وكان من جملة من وفد عليه جموع من عرب إفريقية والأندلس نحو خمسمائة فارس من قيس والأزد ومذحج ويحصب والصدف وغيرهم فسر بوفادتهم وأجزل صلتهم وأدنى منزلتهم، فطعم بهم جهاز الدولة الذي كان في حاجة إلى مثل هذه العناصر لتقويته واستكمال تعريبه، فاستوزر منهم عمير بن مصعب الأزدي المعروف بالملجوم لضربة أصيب بها في بعض الحروب على خرطومه، وهو جد بني الملجوم الذين كان لهم بفاس فيما بعد شهرة عظيمة بالعلم والدين، واستقضى منهم عامر بن محمد بن سعيد القيسي، وكان من أهل الورع والفقه والدين، سمع من مالك بن أنس وسفيان الثوري وروى عنهما كثيرا. ومن هنا بدأ مذهب أهل الحجاز ينتشر في المغرب وفقه مالك بالخصوص، لا سيما مع ما علم من انتصاره للعلويين وميل هؤلاء إليه. وكذلك استكتب ادريس من وفود العرب أبا الحسن عبد الله ابن مالك الخزرجي، فتم له بذلك تجهيز الدولة بإطار عربي لايقل كفاية ومقدرة عن الذي يوجد في دولة الأغالبة بإفريقية أو المروانية بالأندلس.

☆ ☆ ☆

وكان نزوع هذه الوفود العربية إلى ادريس عاملا قويا في دعم دولته وترجيح كفته على خصومه، ودليلا قاطعا على استقرار حكم العلويين بالمغرب، واستتباب أمره، فلذلك مال ادريس إليهم وقدمهم لهذه المناصب السامية، والمؤرخون يعدون ذلك منابذة للمغاربة أهل البلاد، وافتياتا عليهم، **والأمر لايعدو أن يكون تدبيرا سياسيا يراد به صرف النظر إلى أول دولة علوية تنشأ في العالم الإسلامي بعد خلافة علي كرم الله وجهه، ويعلو شأنها ويعظم سلطانها، من غير أن ينكر أحد ما كان للمغاربة من فضل في قيام هذه الدولة وحمايتها،**

ولم يثبت عن ادريس أنه أبعد العنصر المغربي عن سياسة الدولة وتولي أعمالها، وتوظيف بضعة أشخاص من العرب الوافدين عليه لايعني أبدا نفض يده من المغاربة الأصليين، وإنما هو في نظرنا استعانة بكفاءتهم على تعريب الجهاز الحكومي وإعلان في الوقت نفسه عن الدولة الفتية التي قامت بدعوة العلويين واستحقت أن تلفت إليها الأنظار، ولهذا لم يحصل أي تمرد من المغاربة على هذه السياسة في أيام ادريس.

ولا يصح قطعا أن يميل ادريس عن المغاربة الذين ناصروه وأيدوه وهم فوق ذلك أخواله وعشيرته الذين يجري دمهم في عروقه، فهو في الحقيقة أول مغربي تبلورت فيه القومية العربية المغربية من وجهة النظر السلالية لامتزاج العنصرين فيه بالمصاهرة والولاء، وهو لحمة كلحمة النسب، كما في الحديث. فمراد ادريس من هذا التطعيم هو أن يلتحم العنصران، ويصيرا أسرة واحدة، وهو ما كان بعد ذلك فلا تجد في المغرب بيتا لا يجري في عروق أبنائه الدم المغربي والعربي معا، ولقد تعرب المغاربة دما وشعورا حتى أن أقوى قبائلهم وأعظم ملوكهم ليضعون لأنفسهم مشجرات تصل نسبهم بالأصول العربية، أو بيت النبوة في بعض الأحيان، وذلك انما هو نتيجة سياسة ادريس هذه.

☆ ☆ ☆

وضاقت بادريس وجيوشه عاصمة أبيه وليلي، ولم تعد ملائمة لتطور الدولة واتساع سلطانها، ففكر في إنشاء مدينة جديدة يجعلها عاصمته وينتقل إليها بديوانه وجيشه ورجال حكومته، فخرج في جماعة من حاشيته يرتاد البقاع ويتخير المواقع، ولم يتوقف إلى المكان الصالح لبناء هذه المدينة إلا بعد عدة تجارب أخفقت كلها. وقيل إن الفضل في اختيار هذا المكان يرجع إلى وزيره عُمَيْر بن مصعب الذي أرسله ادريس بعد ما أعياه الأمر، فذهب يقص الجهات ويرود الأماكن والتراب والمياه، حتى وصل إلى المكان المطلوب وهو غيضة بين جبلين ملتفة الأشجار مطردة العيون في طرف بسيط سايس على مقربة من الوادي الذي سيعرف باسم المدينة فيما بعد.

ورجع عمير إلى ادريس فأعلمه بالمكان الذي وقع عليه اختياره، فرضيه ادريس، وتملكه وما حوله بالشراء من أصحابه، وشرع في بناء مدينته التي أطلق عليها اسم مدينة فاس في غرة ربيع الأول سنة 192 أي في نفس اليوم الذي بويع فيه قبل أربع سنوات. وسميت فاسا بفأس كبيرة وجدت عند حفر أساسها، وكانت بحيث تلفت الأنظار، طولها أربعة أشبار وعرضها شبر، وزنتها ستون رطلا فيما يقال، فكثر التعجب منها، وعرفت بها المدينة من يومئذ، ويقال إنه كانت هناك مدينة قديمة خرجت قبل الإسلام تسمى ساف فسمى ادريس مدينته باسمها هذا بعد قلبه.

☆ ☆ ☆

وكان الذي اختط منها أولا هو عدوة الأندلس الواقعة على الضفة اليمنى لوادي فاس وبنى بها المسجد المعروف بجامع الأشياخ، ثم اختط عدوة القرويين على الضفة اليسرى للوادي، وبنى بها جامع الأشراف وداره التي عرفت بدار القيطون، والسوق وغيرها من المرافق، وسوغ للناس البناء وقال لهم من بنى موضعا أو اغترسه قبل أن تسور المدينة فهو له، فبنى الناس واغترسوا كثيرا.

وهكذا نشأت مدينة فاس التي أصبحت منذ بنائها عاصمة المغرب وأهم مدنه ومن كبريات حواضر العالم الإسلامي ذات التاريخ المجيد في العلم والمدنية.

ولما فرغ ادريس من بنائها وحضرت الجمعة الأولى خطب في الناس ورفع يديه في آخر الخطبة فقال : «اللهم انك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة، ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها ويتلى كتابك، وتقام حدودك وشرائع دينك، وسنة نبيك محمد ﷺ، ما بقيت الدنيا، اللهم وفق سكانها

وقطانها للخير وأعنهم عليه واكفهم مؤونة أعدائهم، وأدر عليهم الأرزاق، وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق إنك على كل شيء قدير».

☆ ☆ ☆

وقد أثبت ادريس بهذا أنه رجل دولة من الطراز الأول، فهو سياسي بارع وإداري محنك، وصاحب سيف وقلم، يحب العمارة ويسعى في أسبابها من إقامة العدل ونشر الأمن وتعميم الرخاء، فلم يزده ذلك إلا شهرة وبعد صيت ورفعة ذكر. وتتابع وصول الوفود إليه من إفريقية والأندلس وغيرهما راغبين في الإقامة عنده والعيش في كنفه. وكان أكبر هذه الوفود هو وفد الأندلس من أهل ربض قرطبة الذين ثاروا على أميرها الحكم بن هشام الأموي فأجلاهم عنها، وكانوا جما غفيرا زهاء أربعة آلاف بيت، فلما وفدوا على ادريس رحب بهم وأنزلهم من مدينة فاس بالعدوة التي حملت اسمهم فعرفت بعدوة الأندلس، كما عرفت العدوة الأخرى بعدوة القرويين لنزول الوفود القادمين عليه من مدينة القيروان بها وكانوا ثلاثمائة بيت.

ومن وفد أهل القيروان كانت السيدة أم البنين الفهرية التي بنت جامع القرويين بمالها الحلال الذي ورثته من أبيها، وذلك في مدة حفيد ادريس يحيى بن محمد سنة 245 فبارك الله في هذا المسجد حتى صار جامعة إسلامية عظيمة تشع بأنوار العلم والعرفان، وهي اليوم أقدم جامعة في العالم كله.

☆ ☆ ☆

ولم تزل مدينة فاس تنمو وتعظم، وكلما تقدم بها الزمن أثبتت أنها مدينة المغرب العربي الأول التي تحتضن حضارة الإسلام وعلمه وأدبه في أقاليم الغرب الإسلامي، فهي إلى كونها مركز اشعاع فكري وثقافي بسبب وجود جامعة القرويين فيها، مدينة الفنون والصنائع وملتقى التجار ومختلف الأجناس من أهل المشرق وأوروبا والسوادين والصحراء، يتبادلون المصالح ويقتنون منها أنفس البضائع والطرف.

وهاك ما يقوله عبد الواحد المراكشي المؤرخ المعروف في وصفها وهو من أهل القرن السابع : «ومدينة فاس هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضع العلم منه، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب فلما اضطرب أمر القيروان بعبث العرب فيها، واضطراب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت ابن أبي عامر وابنه رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا من الفتنة، فنزل أكثرهم مدينة فاس، فهي اليوم على غاية الحضارة. وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف. ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الأقليم. ومازلت أسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب ويحق ما قالوا ذلك، فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب... وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات، وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها وتخلل الأنهار أكثر دورها زائدا على نحو من أربعين عينا ينغلق عليها أبوابها ويحيط بها سورها، وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها إلا ما كان من العطر الهندي[2] سوى مدينة فاس هذه، فإنها لاتحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة، بل هي توسع البلاد مرافق وتملؤها خيرا».

ويقول كاتب أوروبي هو روجي لوتورنو في كتابه (فاس في عصر المرينيين)[3] وهو العصر الذي استكملت فيه نموها وازدهارها :

2) يعني العود الهندي المستعمل في البخور.

3) ترجمة الدكتور نقولا زيادة.

«لم تكن فاس يومها عاصمة مملكة المرينيين المستقرة فحسب، بل كانت مركزا مهما للتجارة تربطها المصالح التجارية بالأقطار الأوروبية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، وبلاد الشرق العربي وبلاد السودان فيما وراء الصحراء الكبرى. وكانت بالإضافة إلى ذلك مدينة علم ودين، حيث كان يتوفر عدد كبير من الطلاب على دراسة اللغة والعلوم الإسلامية، وحيث كان الكتاب يبرزون في نظم الشعر وتدوين التأريخ والتأليف في الدين والشريعة، وحيث كان يقوم المتصوفة إلى جانب علماء السنة، بالحفاظ على شعلة قوية للحياة الروحية. ودليلنا على أن مدينة فاس لم تكن مدينة بازدهارها للمرينيين وحدهم، هو ما كان عليها حالها في فترة الانحطاط الطويلة التي مرت بها دولتهم، وحتى في أيام بني وطاس الضعفاء، الذين خلفوا بني مرين، والذين قدر لهم أن يقتصر سلطانهم على الأجزاء الشمالية من المغرب فقط، فإن مدينة فاس لم تهن، بل انها لم تتوقف عن الازدهار. والوصف الذي خلفه لنا مؤلفو القرن العاشر (السادس عشر) المتفاوتون فيما بينهم مثل ليون الإفريقي (الحسن الوزان) ومارمول والأسقف كليناردوس يقدم لنا على ذلك الدليل الذي لاسبيل إلى إنكاره».

☆ ☆ ☆

هذه فاس التي وضع لبنتها الأولى ادريس الأزهر كما يلقب، فرقا بينه وبين أبيه، ادريس الأكبر. وهذه قصة بنائها بما صاحبها من التفكير والتنفيذ، حسبما رواها المؤرخون في شبه إجماع، وتناقله الخلف عن السلف، وجرى حتى على ألسنة العامة من سكان المدينة وأهل المغرب قاطبة. ولكن المستشرق الفرنسي المعروف ليفي بروفنسال طلع علينا برأي غريب يقول ان مؤسس فاس وباني خطتها الأولى أعني عدوة الأندلس هو ادريس الأكبر، وأن ابنه ادريس الأزهر إنما باني الخطة الثانية وهي عدوة القرويين وكملت المدينة بذلك بعد نحو عشرين سنة من ابتداء بنائها في عهد أبيه، والحجة الوحيدة التي يقدمها على ذلك هي وجود قطعتين من العملة مضروبتين بفاسابقا للتاريخ الذي تقول الرواية إن ادريس الأزهر بنى فيه المدينة.. القطعة الأولى درهم محفوظ بالمكتبة الوطنية في باريس وهو بتاريخ 189 أي قبل التاريخ المتواتر لبناء فاس بثلاث سنوات. والثانية درهم كذلك، محفوظ بمتحف مدينة خاركوف وتاريخه 185 أي في حياة ادريس الأكبر. وهذا الدليل الذي ينوه به ليفي بروفنسال لأنه دليل مادي كما يقول يمكن أن ينظر فيه باحتمال تزييفه أو وقوع الغلط فيه، فإنه إذا كان الغلط في مثل هذه الأشياء يقع في عصرنا هذا ـ وما قضية طابع البريد البريطاني المغلوط ببعيدة عنا ـ فأحرى في ذلك العصر البعيد. لا سيما والمستشرق الكبير نفسه يذكر أن هناك قطعا أخرى من العملة ضربت في وليلي وتدغة باسم ادريس الأزهر وتحمل التواريخ المتتابعة لسنوات 181 و182 و183 أي في غير فاس التي ضربت فيها القطعتان السابقتان زعما. ثم يشير إلى أن ما يوجد من العملة المضروبة باسمه بعد تأسيسه لمدينة فاس هي أربعة دراهم ضربت في مدينة العالية[4] بتاريخ 204 و207 و208 و210 ذكرها لافوا Lavoix في كتابه عن العملة الإسلامية الموجودة بالمكتبة الوطنية في باريس. وزاد قائلا أنه هو شخصيا يملك منها أربعة تحمل تواريخ 198 و206 و209 و214 واشتبه في هذا الأخير لأنه يحمل تاريخا متأخرا عن وفاة صاحبه بسنة، إذ من المعلوم أن ادريس الأزهر توفي سنة 213.

فبهذا الاشتباه ننظر نحن في القطعتين المزعومتين ولا نقبل أن ترد بهما أقوال المؤرخين المضبوطة المبنية على كثير من التحري والمحاولات لبناء مدينة فاس من طرف ادريس الأزهر.

4) يراد بالعالية عدوة الأندلس، فقد كان يطلق على كل عدوة مدينة ولم تعرف كل منها بالأندلس والقرويين إلا بعد استيطان مهاجري الأندلس والقيروان فيها.

وإذن فابتداء ضرب الدراهم بفاس كان في أيام ادريس الأزهر، بعد التاريخ المعروف لبنائها، ثم هذه الدراهم في الأول إنما كانت تحمل اسم العالية، التي يراد بها عدوة الأندلس، أي خطة ادريس الأكبر فيما ادعي أوْفاس الدرهمين اللذين جعلا دليلا ماديا على سبق بناء المدينة عن تاريخها عندنا، فلو كان هذا صحيحا لاستمر ذكر اسم فاس في هذه الدراهم الجديدة.

وأما الدراهم التي ضربت في وليلي وتدغة سنة 181 و182 و183 فهي حجة ناطقة بأن فاس لم يكن لها وجود في هذه التواريخ لا باسمها هذا ولا باسم جزئها الذي هو العالية، وإلا لوقع الضرب فيها.

بقيت بعض النقول التي استظهر بها صاحب هذا الرأي، وهي عبارات وردت في تواريخ لم يكن وكدها ذكر فاس ولا التأريخ لها، وإنما جاءت عرضا في الكلام على دولة الأدارسة أو المغرب وأصحابها ليسوا من المغاربة، وبعضهم كالبكري معروف بعدم تثبته فيما يتحدث به عن الأدارسة[5] فهي بهذه الصفة لا تقاوم النصوص التاريخية المفصلة التي كتبها المؤرخون المختصون من أهل البلاد، وأهل مكة كما يقولون أدرى بشعابها.

☆ ☆ ☆

هذا ولما استقر ادريس بعاصمته الجديدة هو وحاشيته وأرباب دولته أقام بها إلى سنة 197، فخرج غازيا بلاد المصامدة أعني إقليم سوس فانتهى إليها واستولى عليها ودخل مدينة نفيس ومدينة أغمات وعاد إلى فاس فأقام بها إلى سنة 199 فخرج في المحرم منها برسم غزو قبائل نفزة من أهل المغرب الأوسط ومن بقي هناك على مذهب الخوارج فسار حتى غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان فأقام بها يدبر أمرها وأمر ما إليها من الأعمال ثلاث سنوات، ثم رجع إلى فاس فلم يخرج منها حتى توفي. وقد انتظم له ملك المغرب الأقصى والأوسط من وادي سوس إلى وادي شلف، وقطع منه دعوة العباسيين كما فعل عبد الرحمن الداخل في الأندلس، وأهم من ذلك أنه وجد كلمته واستأصل شأفة الكفر والزندقة والخروج من بين المغاربة، فأتم عمل والده في ذلك واستحق مثله الوصف بالإمامة، ثم زاد على ذلك أنه قعد حاضرة فاس ووطد أركان الدولة وأشرك العنصر العربي في تدبير الشؤون وإدارة دفة الحكم، فكان لذلك أحسن الأثر في إكمال تعريب المغرب ولحاقه بالركب الحضاري العربي الإسلامي الذي كان يتعثر في طريق اللحاق به.

وفي ثاني جمادى الآخرة سنة 213 توفي رحمه الله بحبة عنب وعمره نحو ست وثلاثين سنة، ودفن بمسجده بإزاء الحائط الشرقي منه قاله ابن خلدون.

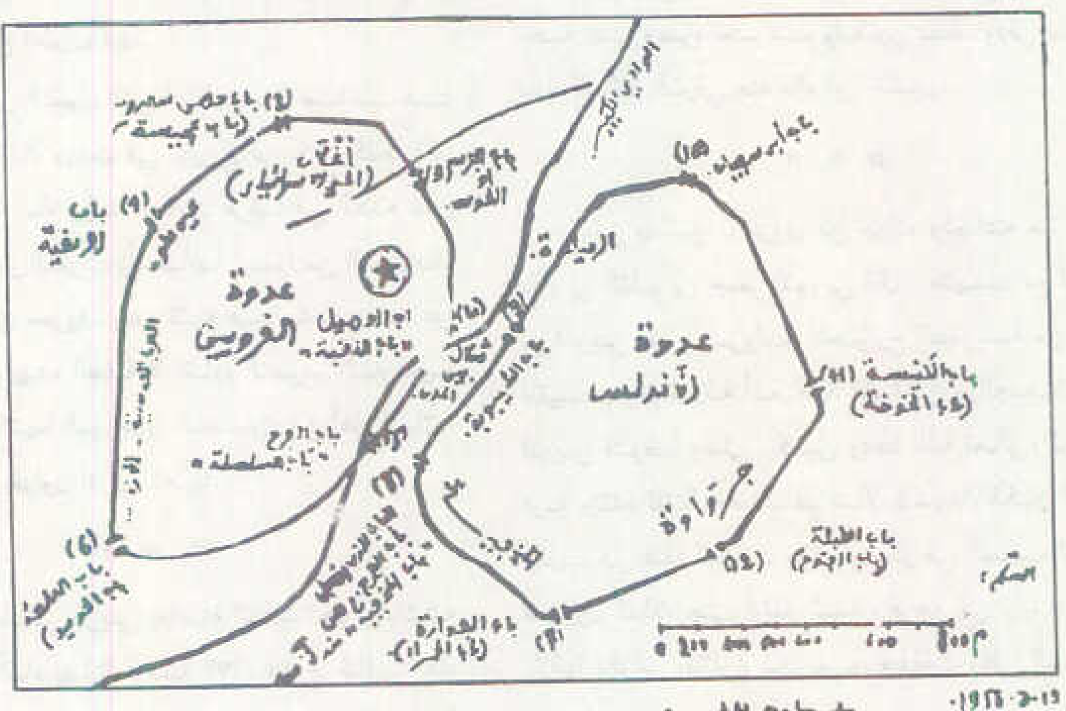
☆ ☆ ☆

ومن محاسن ما يروى من جهاده وشجاعته ما حكاه داود بن القاسم بن جعفر الأوربي قال : «شهدت مع ادريس بن ادريس بعض غزواته للخوارج الصفرية من البربر فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا. فلما تراءى الجمعان نزل ادريس فتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله تعالى، ثم ركب فرسه وتقدم للقتال، فقاتلناهم قتالا شديدا، فكان ادريس يضرب في هذا الجانب مرة، ثم يكر في الجانب الثاني، فلم يزل كذلك حتى ارتفع النهار، فرجع إلى رايته، فوقف بإزائها والناس يقاتلون بين يديه، فطفقت أنظر إليه وأديم الإلتفات نحوه وهو تحت البنود يحرض الناس ويشجعهم، فأعجبني ما رأيته من شجاعته وقوة بأسه. فالتفت نحوي وقال : ياداود مالي أراك تديم النظر إلي. قلت أيها الإمام إنه أعجبني منك خصال لم أراها في غيرك. قال وما هي. قلت أولها ما أراه من حسنك وجمالك وثبات قلبك وطلاقة وجهك، وما خصصت به من البشر عند لقاء عدوك. قال ذلك بركة جدنا ﷺ ودعاؤه لنا وصلاته علينا، وإراثة عن أبينا علي بن أبي طالب.

5) بل بمعاداته لهم حتى أنه يطعن في نسبهم.







عدوة الأندلس وعدوة القيروان بفاس

أقدم عملة إدريسية هي التي ضربت في تدغة عام 172 ـ 789 وقد نقش على وجهها الأول كلمة لا إلاه إلا / الله وحده / لا لا شريك له /.. بتدغة سنة اثنتين وسبعين ومائة.

بينما نقش على وجهها الثاني كلمة : محمد رسول / الله صلى الله / عليه وسلم.

على ما أمر به إدريس بن عبد الله. جاء الحق إلخ...

توجد نسخة واحدة من هذا الدرهم هي التي أثبتناها هنا شاكرين للمتحف العراقي في بغداد تفضله بهذا الرسم...

راجع كتاب الجامع في الدراهم الإدريسية

بقلم دانييل أوسطاش

قلت أيها الإمام : أراك تبصق مجتمعا وأنا أطلب قليل الريق في فمي فلا أجده. قال ياداود : ذلك لاجتماع عقلي ورباطة جأشي عند الحرب، وذهاب عقلك. وعدم الريق من فيك لطيش لبك وافتراق فكرك ولما خامرك من الرعب. قال داود : وأنا أتعجب أيضا من كثرة تقلبك في سرجك وقلة قرارك في موضعك. قال : ذلك مني زعم للقتال وعزم وصرمة، وهو أحس في الحرب. فلا تظنه رعبا».

وأنشد يقول :

أليس أبونا هاشم شد أزره
وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا
ولا نشتكي مما يؤول إلى النصب

طنجة : عبد الله كنون



الحسن الثاني رائد الوحدة

وحدة المغرب العربي بنت الطبيعة والتاريخ والمصير المشترك

للشيخ محمد المكي الناصري
عضو أكاديمية المملكة المغربية
ورئيس المجلس العلمي الاقليمي للعدوتين

وحدة المغرب العربي أمنية غالية تطلع إليها وعمل على تحقيقها أبناء هذا الجزء من العالم منذ أقدم العهود، وكلما انفصمت عرى هذه الوحدة بمرور الأيام عاد الحنين إليها، وتجدد الإيمان بضرورتها، وتأكدت فائدة العمل على تحقيقها وعودتها.

ولتوضيح بعض العناصر الأساسية اللازمة لتحقيقها، والعوامل المساعدة على عودتها بشكل أوفى وأشمل وأدوم أقدم في هذا العرض جملة من الملاحظات والمسلمات، التي أعتقد أنه لا يجادل فيها أحد ممن يعنيهم أمر هذه الوحدة.

أما من «حيث الطبيعة»، فقد جعل الله من هذه البلاد بقعة واحدة متشابهة المناخ، متصلة المسالك، متشابهة الطرق، لا يفصل بينها أي حاجز طبيعي حصين، حتى شبهها الجغرافيون بدرب طويل يخترقه السائر من بدايته إلى نهايته، دون أن يعترض سيره أدنى عارض، كما جعلها الله مقرا دائما ووطنا قوميا لنفس الشعب، الذي عمرها وسكنها وطبعها بطابعه الاجتماعي الخاص منذ أقدم العصور قبل أن يختلط بغيره، وحتى بعد أن اختلط بغيره من الشعوب، إذ لم يزل محافظا على مقوماته الأصلية، وتقاليده الموروثة، ولهجات لسانه «اللوبى» القديم، رغم اقتباسه كل ما هو نافع ومفيد من الحضارات الأخرى لغويا ودينيا وحضاريا.

وكل ما حدث في هذه البلاد من تقسيمات وتكوين وحدات سياسية منفصلة فرضتها بعض الظروف في غير ما فترة من فترات التاريخ، إنما هو إجراء مصطنع وغير طبيعي، إذ لم يكن يعتمد في أساسه لا على اختلاف جغرافي ولا على اختلاف سلالي أو لغوي[1]، فطبيعتها الجغرافية كانت ولا تزال متصلة الحلقات، والشعب الذي نشأ بها كان ولا يزال متشابها في أكثر الخصائص والسمات، والمناخ الذي يميزها عن غيرها متماثل في مجموعه تماثلا

1) Les Races de l'Afrique P. 113 par C.Y. Seligman

بارزا، ولا يوجد في أي واحد منها مناخ مخالف أو معاكس لمناخ الأقسام الأخرى مخالفة تامة، والتفرقة المصطلح عليها في ميدان البحث والتأليف، عند الكتابة عن بلدان المغرب العربي ليست تفرقة جغرافية ولا سلالية، وإنما هي تفرقة اصطلاحية دعا إليها تصنيف البحث وتوزيع الدراسة لا غير[2]، وهكذا نجد بلاد المغرب العربي كتلة متجانسة كل التجانس بفضل وحدة الطبيعة التي جعلها الله قاسما مشتركا بينها، ولاشك أن وجود عنصر أساسي من هذا النوع بين أي مجموعة من المجموعات البشرية يسهل قيام الوحدة بينها إلى أقصى الحدود.

☆ ☆ ☆

وأما من «حيث التاريخ» فقد تلقت معظم البلاد المغربية في وقت واحد أو متقارب عدة إمدادات خارجية منعشة لقحت حضارتها، وطعمت ثقافتها، وطورت أنظمتها، وكان لهذه الإمدادات أعمق الأثر في تكييف عقليتها، وتطعيم وجوه الحياة المادية والفكرية فيها، وبذلك تعرض أبناؤها لمؤثرات حضارية واحدة جعلت حضارتهم تنمو نموا متجانسا، وجعلت مجتمعهم يتطور تطورا متماثلا.

وعلى رأس تلك الإمدادات النافعة المدد الفينيقي، والمدد الإسلامي ومدد الهجرة الأندلسية، ومدد الهجرة العربية، ومدد الخلافة العثمانية، مما كان لبعضه نتائج إيجابية مائة في المائة ولبعضه الآخر نتائج إيجابية وأخرى سلبية، لكن الجانب الإيجابي كان أقوى وأبقى وأجدى وأنفع :

1) ففيما يخص **«المدد الفينيقي»** نجد عطاءه ممتدا ومتواصلا طيلة أحد عشر قرنا، ونلاحظ أن عطاءه كان متعددا ومتنوعا في مختلف الميادين ما بين تجارية وزراعية وصناعية وعمران حضاري واقتصادي، وقد كانت العلاقة القائمة بين الجالية الفينيقية وأبناء هذه البلاد متسمة بتبادل الثقة وتبادل المنافع بين الطرفين، وزاد تلك العلاقة وثوقا ورسوخا ما نشأ بينهما من مصاهرة وصلة رحم ومعرفة باللسان الفينيقي الذي أصبح واسطة للتفاهم المشترك في الحياة اليومية، وبفضل الاحتكاك المتواصل بين قدماء المغاربة وبين الجالية الفينيقية تمكنوا من معرفة فن التجارة وسك العملة وضبط الحساب التجاري، كما تمكنوا من معرفة فن الملاحة وصنع السفن وعدد غير قليل من الصناعات والزراعات الأساسية، مثل طريقة غرس شجرة الزيتون، وطريقة عصر الزيت، وطريقة استخراج المعادن ولاسيما الذهب والنحاس، وأخذوا بحظ وافر من التراث الحضاري الذي عرفه جنوب الجزيرة العربية، وبلاد الرافدين، ومصر القديمة، مما حملته إليهم معها الجالية الفينيقية التي استقرت ببلادهم قرونا طوالا، وقد كان لهذه الجالية أثر خاص في استبحار العمران بالأقطار المغربية، وإقامة المراكز التجارية بسواحلها، ولا سيما بعد تأسيس حاضرة قرطاج أوائل القرن التاسع قبل الميلاد (813 ـ 814 ق م) حيث أصبحت السفن الفينيقية تنطلق منا إلى تلك المراكز بانتظام، حاملة إليها ما يجلبه الفينيقيون منها طرائف الشرق الأدنى وسواحل البحر الأبيض المتوسط وحاملة منها ما تجود به التربة المغربية أو ما يجلبه قدماء المغاربة من طرائف البلاد الإفريقية، ومن التوفيق الذي لَقِيته الجالية الفينيقية بمساعدة أبناء البلاد شَقُّ طرق النقل التجاري الكبرى لفائدة الطرفين، وفي طليعتها الطريق التجاري الذي ربط أقطار المغرب ببلاد السودان، مارا بليبيا والهوكّار وإفريقيا الاستوائية، وهو الطريق الذي استعمله الرومان من بعد، وأطلقوا عليه زورا وافتراء اسم «الطريق الروماني».

ومن آثار التمازج بين الشعبين المغربي والفينيقي ما نص عليه «رينان» من أن السرعة التي انتشرت بها اللغة العربية في أقطار المغرب عند ظهور الإسلام ترجع إلى المركز الوطيد الذي كانت تحتله اللغة الفينيقية في هذه

2) Histoire du Maroc – P. 19 par Goissac de chavrebière

البلاد، منذ عدة قرون حيث إن اللغة الفينيقية - كما يقول - ليست إلا ابنة عم شقيقة للغة الضاد، وبما أن اللغة الفينيقية انتشرت بين المغاربة خلال العهد الفينيقي الطويل، وحتى فيما تلاه من العهود، فقد كانت خير تمهيد لانتشار اللغة العربية في العهد الإسلامي الجديد، ويقول «كَوتيي» : «إن هناك قنطرة بين المدنيتين الفينيقية والإسلامية، وأن الأولى كانت تمهيدا للثانية»، ويقول «كَزيل» مؤكدا نفس المعنى : «إن قرطاج أعدت أهالي الشمال الإفريقي لتلقي القرآن منذ عهد طويل».

2) وفيما يخص **«المدد الإسلامي»** نجده يحمل إلى أبناء هذه البلاد أول دعوة مثالية متكاملة وشاملة، وأول نظام أخلاقي عالمي أكرم الله به الإنسانية، فيزودهم بعقيدة منطقية وكاملة تلائم الفطرة الأصلية، وتطهر الفكر من الجاهلية والوثنية، وبشريعة واقعية عادلة تنظم أحسن تنظيم المجتمعات البشرية، إذ لا تسمح بأي استغلال واستعلاء، وترفض كل ما فيه استلاب واستيلاء، وإنما جاءت إلى هذه البلاد لتنمي الشخصية المغربية، وتبرز كل ما هو كامن فيها من مواهب وعبقرية، ولترفعها من حضيض الخضوع والتبعية إلى أوج الاستقلال والحرية، حتى تحتل مقعد الريادة الفكرية والقيادة السياسية، وبفضل الإسلام، وبتوجيه من مبادئه وتعاليمه ازداد الإنسان المغربي اعتزازا بكرامته، واستماتة في الدفاع عن حريته، وأصبح طموحا إلى احتلال أعلى المنازل والدرجات، لا يرضى أن يقف من الأحداث موقف المتفرج المبهوت، البعيد عن حمل التَّبعات، الأمر الذي مهد لبلاده السبيل إلى أن أصبحت تلعب أدوارا حاسمة وفاصلة في تاريخ العالم، وتبرز على المسرح الدولي بشكل ثابت ومستمر لم يتقدم له مثيل في سابق العهود، منذ ظهرت إلى الوجود، ولا عجب في ذلك، فحملة رسالة الإسلام من صحابة الرسول عليه السلام وتابعيهم بإحسان لم يقتصروا على حمل عقيدته وشريعته إلى هذه البلاد، بل حملوا معهم معطيات حضارية عريقة عرفها العرب في عهودهم القديمة بجنوب الجزيرة العربية، ثم جددها الإسلام ونقحها وقدمها للعالم في صورة أجمل وأكمل، وأشد تألقا ولمعانا، وفتحوا في وجه أبناء المغرب أبواب المشرق على مصاريعها، بل أبواب العالم الإسلامي كله، ذلك العالم الفسيح الأرجاء الذي لا تغيب عنه الشمس والذي تلتقي فيه مختلف الحضارات في ظل الإسلام بعدما صهرها في بوتقته المنعشة، وبذلك دشنت أقطار المغرب عهدا جديدا من التعاون الإنساني المثمر، وأخذت تساهم مساهمة «مباشرة» ودائمة في حضارة الإسلام الكبرى، التي أصبحت تراثا مشتركا ينتجه الجميع ويعتز به الجميع، ولن يقف مدد الإسلام المستمر وعطاؤه الدائم بحول الله وقوته ما دام هو حجر الزاوية في كيان البلاد المغربية، وهو صِمام الأمان ضد كل دعوة جاهلية.

3) وفيما يخص **«مدد الهجرة الأندلسية»** نجده مددا حضاريا خصبا ومتنوعا بحسب تنوع فئات المهاجرين، فقد كان من بينهم علماء مشهورون، وصناع ماهرون، وزراع مجربون، وفنانون مبدعون، وضباط مقتدرون، ودعاة أكفاء بارعون، وعمال ومحترفون، وسرعان ما عززت دول المغرب جيوشها البرية والبحرية بضباط ورؤساء منهم، وعززت أطرها الإدارية بوزراء وسفراء وقضاة وكتاب منهم، وأكثر هؤلاء المهاجرين كان أصلهم من المغرب فرحلوا واستقروا بالأندلس إلى جانب عرب المشرق الذين وفدوا على تلك البلاد وكونوا معهم نسبا وصهرا، وقاسموهم العيش حلوا ومرا، وعندما تدعوهم الظروف إلى مفارقة وطنهم الثاني يعودون إلى وطنهم الأول. وأول هجرة قاموا بها إلى المغرب تمت عندما أصبح للمغرب كيان مستقل بنشأة الدولة الإدريسية، ثم تتابعت هجرتهم على عهد المرابطين والموحدين والحفصيين والمرينيين والوطاسيين والسعديين، وقد اقترنت الهجرة الأندلسية في مختلف مراحلها باستبحار العمران، وتمهيد الطرق وتخطيط الأحياء والقرى والمدن لاستيعاب أولئك المهاجرين، وتسهيل إقامتهم على أكمل وجه، وإنشاء البساتين والمزارع

لضمان عيشهم[3]، وكانت سفن المغرب والجزائر وتونس وليبيا هي التي تتولى نقلهم من ضفاف الأندلس إلى ضفاف المغرب، فيستقرون على الرحب والسعة حيث يشاءون من تلك البلاد، يزودون وطنهم الأول بما عندهم من المعارف والعلوم والصنائع والحرف، ويحذرون إخوانهم من الدسائس والمؤامرات التي تحوكها الصليبية لمحو الإسلام والقضاء على الدولة الإسلامية، وكان الدعاة الاكفاء من مهاجري الأندلس، العارفين بمخططات الصليبية وأهدافها في طليعة الذين أوقدوا شعلة الحماس الديني بالبلاد المغربية، فسادت فيها روح التحفظ والحذر من العالم المسيحي، وتعددت الأربطة لحراسة الثغور من الغزو الصليبي المفاجئ، واعترافا بفضل أولئك المجاهدين المرابطين، وتخليدا لذكراهم حتى يكونوا قدوة لمن بعدهم، بنيت الأضرحة والقباب التي تحمل أسماءهم وتنقل أنباءهم. وفي الوقت الذي أخذ الاسبانيون والبرتغاليون يغزون القارة الأمريكية لنشر المسيحية، كان الجنود والضباط من مهاجري الأندلس يعملون على نشر الإسلام في القارة الافريقية، بقيادة الملوك السعديين[4]، وهكذا كان المدد الأندلسي عنصرا مهما عميق الاثر، دينيا وسياسيا، مدنيا وعسكريا، اجتماعيا وحضاريا، فقد طعم البيئة المغربية والمجتمع المغربي بلقاح جديد لا يزال يعطي ثماره باستمرار، وكيف العقلية المغربية تكييفا خاصا لا يزال سائدا في أقطار المغرب حتى وقتنا الحاضر.

4) وفيما يخص «**الهجرة العربية**» التي قام بها بنو هلال بن عامر وبنو سليم بن منصور ومن تابعهم في أوائل القرن الخامس الهجري من صعيد مصر إلى أقطار المغرب بتحريض من المستنصر العبيدي ضد المعز بن باديس الصنهاجي، فقد أخذت في البداية صفة الغزو لتونس أولا، ثم وقع توزيع الوافدين معها على بقية أقطار المغرب في عهد الموحدين وعهد المرينيين، وكانت هي أول هجرة جماعية عربية من النوع الشعبي العادي إلى هذه البلاد منذ اعتنقت الإسلام، حيث إن العنصر العربي في عهد الإسلام الأول لم يقم بها إقامة استيطان، وبينما كان ظهور العرب بشرق افريقيا معروفا منذ زمن بعيد فإن ظهورهم في غرب افريقيا إنما بدأ عند ظهور الإسلام، لكن بعدد محدود، إلى أن جاءت هذه الهجرة الجماعية التي كان لها طابع سياسي صرف، مما أدى إلى نتائج سلبية، عمرانية واجتماعية وسياسية، لكنها بالرغم من جانبها السلبي كان لها بمرور الوقت جانب إيجابي في غاية الأهمية، فقد وجد ملوك المغرب في تلك القبائل المهاجرة مادة صالحة للتجنيد، ومادة صالحة للزراعة وتربية المواشي، كما كان لها تأثير عميق وحاسم من الناحية اللغوية والناحية الإتنوغرافية، فاستعرب كثير من أبناء المغرب الذين كانوا لا يتكلمون إلا اللهجات الأمازيغية، وتبربر كثير من العرب عن طريق المصاهرة واختلاط الدماء والجوار[5]، ونشأت بفضل عملية التمازج والتقارب التي أدت إليها تلك الهجرة نماذج مغربية جديدة هي مزيج من العنصرين العربي والبربري، الأمر الذي جعل المغاربة يتميزون بسبب ذلك عن إخوانهم المشارقة في كثير من الطباع والخصال، ولو لم تتم هذه الهجرة العربية على الوجه الذي آلت إليه لكانت صورة أقطار المغرب اليوم على غير ما هي عليه.

5) وفيما يخص «**الخلافة العثمانية**»، التي طلع نجمها في سماء الإسلام في الوقت الذي كانت فيه مطارق المسيحية تنزل على رؤوس المسلمين بالأندلس، وهجماتها

---

3) المؤنس في أخبار افريقية وتونس ص 193.
- الخلاصة النقية في أمراء افريقية (مهاجرو الأندلس بنوا نحو العشرين قرية بتونس، واغتبط بهم أهل الحضرة، وتعلموا حرفهم، وقلدوا ترفهم).
- صفوة الاعتبار: (مدن الأندلسيين في تونس مؤسسة بأماكن جديدة على شكل حسن، متقابلة الطرق، واسعتها، مستقيمتها، واختلط نسلهم بالقاطنين).
- نفح الطيب: (حصنوا قلعة سلا - رباط الفتح - وبنوا بها القصور والحمامات والدور، ووصل جماعة منهم إلى القسطنطينية العظمى ومصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام، وهم الآن بهذا الحال (عام 1030 هـ سنة 1620 م).
4) الاستقصاء ج 2 ص 154.
5) التبيان في تخطيط البلدان، ص 279 - 280.

تتوالى على سواحل البلاد المغربية، نجد غرناطة ـ آخر معقل إسلامي بالأندلس ـ تترنح وتتأهب للسقوط في يد إيزابيلا الكاثوليكية وزوجها فيرناندو، ونجد القسطنطينية عاصمة بيزنطة، معقل المسيحية ومركز الامبراطورية الشرقية تتهاوى وتسقط في يد محمد الفاتح، فيكون وقع سقوطها تحت راية الهلال في العالم المسيحي كوقع سقوط غرناطة تحت راية الصليب في العالم الإسلامي، ومنذ ذلك الحين اشرأبت أعناق المسلمين المهددين في المشرق والمغرب إلى الأتراك العثمانيين، ونظرا لأن المغاربة الذين اشتهروا بالدفاع عن الإسلام والمسلمين خارج بلادهم كلما أصاب المسلمين أذى أو تعرضوا للتهديد أصبحوا هم أنفسهم مهددين داخل بلادهم، باحتلال عدة شواطئ منها في الشمال والجنوب، فإنه لم يعد في إمكانهم تقديم أي عون للأسر الحاكمة المجاورة لبلادهم، عندما أصبح نجمها يؤذن بالأفول، وأصبحت مهددة بالسقوط تحت نير الاستعمار منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي ولذلك اتجه التفكير إلى الاستغاثة[6] بالخلافة العثمانية والاستعانة بها على الوقوف في وجه الزحف الاستعماري، فحلت وصايتها على الجزائر محل حكم بني زيان، وحلت وصايتها على تونس محل حكم آخر الأمراء الحفصيين، ومنذ ذلك التاريخ حالت الخلافة العثمانية دون سقوط الجزائر في يد الاحتلال الفرنسي، إلى أن حلت سنة 1830، كما حالت دون سقوط تونس في يد نفس الاحتلال، إلى أن حلت سنة 1881، ونفس الشيء وقع بالنسبة لليبيا، حيث لم تسقط في يد الاحتلال الإيطالي إلا في أوائل القرن العشرين، وبذلك أفلت أهالي هذه البلاد من وطأة الاستعمار الأجنبي، المعادي للعروبة والإسلام، سنين طوالا، وخلال فترة الوصاية العثمانية التي تعاقب فيها «الدايات» بالجزائر و«البايات» بتونس كانت عاصمة الخلافة هي مركز التوجيهات والتوصيات، وكانت الدول المسيحية تعالج ما يهمها من شؤون هذه البلاد مع الخليفة العثماني مباشرة في أغلب الأحيان، ورغما عما عرف به المغرب من حفاظ على شخصيته وكيانه المستقل فقد كان لملوكه علاقات[7] ود وإخاء مع «الباب العالي» تتجلى في تبادل المبعوثين والسفراء، وتقديم الاعانات والمساعدات، والتضامن عند حدوث الأزمات، وإذا كان المغرب لم يتأثر سياسيا بالنفوذ العثماني مباشرة فإنه بالرغم من ذلك قد تأثر به تأثرا لا بأس به في ميادين أخرى، حيث اقتبس من دولة الخلافة بعض أنظمتها العسكرية، البرية والبحرية، وبعض ألقابها الإدارية، ومن ذلك على سبيل المثال لقب «الباشا» الذي يطلق على حكام المدن.

ومن العناصر الإيجابية التي أدى إليها احتكاك أبناء البلاد المغربية بالأتراك العثمانيين تمكينهم من الاطلاع على تطورات السياسة الدولية وانعكاساتها المتنوعة، والتعرف على تيارات الإصلاح وحركات التجديد التي أخذت تعمل عملها في مركز الخلافة، مما كان له أثر كبير في تطوير الحياة السياسية والحياة الاجتماعية ببلاد المغرب في وقت مبكر، ومن ذلك على سبيل المثال القوانين التي صدرت بتونس عندما جلس على كرسي الحكم الباي محمد الصادق (1275 هـ ـ 1859 م)، خصوصا القانون الذي حدد حقوق الراعي وواجباته، وحقوق الرعية وواجباتها، واختصاصات الوزراء، واختصاصات المجلس الكبير، إلى آخر مواد ذلك القانون الذي كان يحتوي على 124 مادة، وهكذا كان احتكاك أبناء المغرب بالعثمانيين الأتراك مفيدا لهم دوليا، حيث وقف سدا منيعا في وجه الزحف الاستعماري، المبني على سياسة القمع والاستغلال والادماج والإدارة المباشرة زمنا طويلا، ومفيدا لهم حضاريا، حيث جعلهم يطعمون الحضارة المغربية بأطايب

6) الأتراك دخلوا مصر سنة 1517 م وطرابلس سنة 1551 وتونس سنة 1574، وقراصنة الجزائر كانوا تابعين لهم.

7) نظرا لأن ولاة الأتراك كانوا يشجعون الاضطرابات في المغرب أحيانا فكر السلطان مولاي اسماعيل في مواجهتهم حتى وصل إلى جبل عمور، وأخيرا أعلن الاتفاق معهم مثل أخيه السلطان المولى الرشيد، على أساس أن يكون الحد بين المغرب والجزائر هو تافنا La Tafna (1979 م) جوليان ـ تاريخ افريقيا الشمالية ص 497.

الحضارة الشرقية، ومفيدا لهم سياسيا، حيث جعلهم ـ عندما انتهى النفوذ العثماني ببلادهم ـ واعين بدسائس المستعمرين، عارفين بألاعيبهم، مستعدين للوقوف في وجوههم، معوقين عمل المحتلين الأوربيين، حتى أصبح غير سهل ولا مريح.

☆ ☆ ☆

وأما من «حيث المصير المشترك» لمجموع البلاد المغربية في السراء والضراء، والشدة والرخاء، فقد أدركه أبناؤها كما أدركه الوافدون عليها من الشرق والغرب، وعلى هذا الأساس تعامل معها الفينيقيون، حيث ربطوا بين أجزائها بشبكة من المراكز التجارية التي أقاموها على ضفاف المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، وتعامل معها الفاتحون المسلمون الذين لم ينم لهم جفن، حتى عم الفتح الإسلامي كافة أجزائها من برقة إلى مياه المحيط، واختفى منها آخر أثر للشرك والوثنية والاستعمار، وتعامل معها الرومان والفاندال والبيزنطيون من قبل على نفس الأساس، إذ اعتبروها وحدة جغرافية واقتصادية وسياسية لا ترسخ أقدامهم في جزء منها إلا إذا تم لهم الاستيلاء على بقية الأجزاء، وذلك خلال أربعة قرون بالنسبة للرومان، وخلال قرن ونيف بالنسبة للفاندال، وحوالي قرن واحد بالنسبة للبزنطيين، ونظر إليها نفس النظرة مخططوا الحملات[8] الصليبية التي توالت عليها بعد الإسلام خلال عدة قرون، لتحطيم سيادتها، وتفتيت وحدتها، وإبقائها في جو من التوتر الدائم حتى لا تقوم لها قائمة، وفي طليعة الدول المسيحية التي ركزت هجماتها على الأقطار المغربية، ولا سيما بعد تمكن المسيحيين من طرد مسلمي الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي : اسبانيا (22 حملة) وفرنسا (13 حملة) والبرتغال (12 حملة) وانجلترا (7 حملات) وإيطاليا (6 حملات) والولايات الأمريكية المتحدة (4 حملات) وهولاندا (3 حملات) والدانمارك (حملة واحدة)، ومن بين المدن المغربية التي تعرضت لتلك الحملات الشرشة طرابلس الغرب ودرنة في ليبيا، وصفاقس وسوسة والمهدية وقابس وجربة وتونس في القطر التونسي، وبجاية وعنابة ووهران والجزائر في القطر الجزائري، ومليلية والحسيمة وباديس وسبتة وتطوان والقصر الصغير وطنجة وأصيلا والعرائش والقصر الكبير والمهدية وسلا والرباط والدار البيضاء وأزمور والجديدة وآسفي وأكادير بالقطر المغربي، وتوجت الدول المسيحية حملاتها ضد أقطار المغرب، عندما اجتمعت كلها سنة 1818 م في مؤتمر «إيكس لاشابيل» للنظر في مصير البحرية المغربية التي كانت لا تزال واقفة بالمرصاد، لصد تلك الحملات والرد عليها، دفاعا عن ثغور المغرب المهددة، فكان من بين قرارات ذلك المؤتمر تعهد الدول المشاركة فيه بالعمل المشترك على تحطيم القوة البحرية المغربية، التي تنطلق من ثغور المغرب والجزائر وتونس وليبيا، ولم تمض على انعقاده والشروع في تنفيذ مقرراته 12 سنة، حتى أقدمت فرنسا على احتلال الجزائر سنة 1830 م، ثم أتبعته باحتلال تونس سنة 1881، ثم ختمت سلسلة اعتداءاتها باحتلال المغرب، ابتداء من سنة 1907، وتبعتها إيطاليا باحتلال ليبيا أواخر سنة 1911، وبحرص فرنسا على احتلال أقطار المغرب الثلاثة أكدت نفس النظرة التي نظر بها من سبقوها إلى وحدة هذه البلاد ومصيرها المشترك، وأدركت أن الاستعمار الفرنسي لا ترسخ قدمه فيها إلا إذا تمكن من احتلالها جميعا، ولا يخفى ما درج عليه هذا الاستعمار من عقد المؤتمرات المتوالية لتنسيق خططه وتوحيد اتجاهاته في أقطار المغرب الثلاثة، من أجل استغلال ثرواتها البشرية والطبيعية على أوسع نطاق في السلم والحرب، وضمان الاستيلاء عليها وإدماجها في الكيان الفرنسي إلى الأبد، أو على الأقل لضمان بقاء ذلك الاستيلاء أطول مدة ممكنة، ومما تبجحت به العبقرية الاستعمارية الفرنسية، وعدته

8) من بينها ثمان حملات على ليبيا ـ 11 حملة على تونس ـ 28 حملة على الجزائر ـ 29 حملة على المغرب.

مكسبا استعماريا فريدا يحمي مخططاتها من كل خطر إحداثها لوزارة خاصة في حكومة شوطان ـ بلوم الاشتراكية، أطلقت عليها اسم «وزارة افريقيا الشمالية» وترشيحها ليكون على رأس تلك الوزارة وزير الدولة ألبيرسارو[9]، وبهذه المناسبة رفعت تلك الحكومة إلى رئيس الجمهورية تقريرا مما جاء فيه «ان المهمة السامية التي وكلتها الحكومة إلى «ألبير سارون» باقتراح من وزيري الخارجية والداخلية هي القيام بمراقبة إدارات افريقيا الشمالية، وتوحيد اتجاهاتها العامة المعبرة عن روح سياسة فرنسا، وإظهار اهتمامها العظيم بسكان تلك الأقطار الثلاثة جميعا، دون أي فارق في السلالة ولا في الدين، والإعلان عن عزمها الصارم على حفظ الأمن العام في جميع تلك الجهات، وعلى احترام السلطة الفرنسية والسلم الفرنسي «وسرعان ما تناقلت الصحف اليومية وأسلاك البرق ذلك التقرير، ونشرته الصحف الفرنسية بالمغرب يوم 20 اكتوبر 1937، أي قبل هجمة الإقامة العامة الفرنسية على المواطنين المغاربة العزل بنحو خمسة أيام، تلك الهجمة التي تلتها بعد قليل محاكمات واعتقالات ونفي وسجن في كل من الجزائر وتونس الشقيقتين، وقبل أن نطلع على ذلك التقرير كتبنا على صفحات جريدتنا (الوحدة المغربية) في عددها الثاني والأربعين مقالا افتتاحيا تحت عنوان : (إفريقيا الشمالية في قبضة م. سارو فماذا هو فاعل ؟)، ولم يبطئ الجواب عن هذا السؤال، حيث بادر ألبير سارو إلى عقد مؤتمر مطول بحضور «الثالوث الاستعماري الافريقي»، ومشاركة نواب وزارات الخارجية والداخلية والحربية والبحرية والمالية والطيران بفرنسا، درس فيه مع هؤلاء وأولئك الحالة الراهنة التي وجد عليها شمال افريقيا، وعندما انتهى المؤتمر أصدر بلاغا رسميا يحمل توقيعه الخاص، ومما تضمنه ذلك البلاغ : اتفاق ممثلي فرنسا في المغرب والجزائر وتونس على صيانة الأمن العام، ومقاومة الدعايات المعادية لفرنسا كيفما كان أصلها، والدفاع عن بيضة الأقطار الثلاثة ضد كل اعتداء خارجي، واتخاذ تدابير اقتصادية واجتماعية وروحية وإدارية لترضية رغبات السكان الأصليين المشروعة، وحماية جميع المصالح التي لأهالي شمال افريقيا وقبول أكبر عدد ممكن من نخبة الأهالي في الوظائف الإدارية، وإدخالهم في المجالس التمثيلية أو الاستشارية، إلى آخر ما جاء في ذلك البلاغ الاستعماري الخطير، وقد علقنا عليه في افتتاحية خاصة ضمن العدد السابع والأربعين من جريدتنا (الوحدة المغربية) تحت عنوان (حول بلاغ خطير لوزير افريقيا الشمالية ـ هل تريد فرنسا ترضية المغاربة أم إنما تحاول تخديرهم ؟

وإذا كانت سنة 1937 بالنسبة للفرنسيين سنة تحقيق أمنية استعمارية قديمة على يد «الجبهة الشعبية» اليسارية نفسها، بإنشاء «وزارة شمال افريقيا» ووضعها في قبضة «البير سارو» ذى النزعة الاستعمارية المتطرفة، لتكون آلة تنكيل بالحركات الوطنية وقمع لها، وحل لمنظماتها، وتصفية لزعمائها، فإن تلك السنة نفسها كانت بالنسبة لأقطار المغرب الثلاثة سنة تصاعد موجة الشعور الوطني، واشتعال لهيب الحماس القومي، وانتشار الاحساس العميق بوحدة المصير المشترك. ولأول مرة في التاريخ الحديث أذاع إخواننا الدستوريون بتونس الشقيقة بلاغا خطيرا على الشعب التونسي شرحوا فيه ما قام به الاستعمار الفرنسي من محاربة لكتلة العمل الوطني في المغرب، واعتداء على حزب الشعب في الجزائر، ودعوا إلى التفاف الحزب الحر الدستوري حولهما، والتضامن معهما، وحثوا الشعب التونسي عامة على القيام بإضراب عام يمتد طيلة يوم السبت

9) Albert Sarraut كان وزيرا لوزارة المستعمرات قبل تكليفه بوزارة شمال افريقيا، ووضع برنامجا لاستغلال المستعمرات الفرنسية سنة 1920 وقدم بذلك مشروع قانون أمام مكتب مجلس النواب الفرنسي بتاريخ 12 أبريل 1921، ونظم في مرسيليا المعرض الوطني الاستعماري الذي ظل مفتوحا في وجه الزوار خلال ستة أشهر كاملة سنة 1922، وقدم برنامجه لمجلس الشيوخ مبينا فوائده لفرنسا، واقترح لتمويله عدة طرق، منها إحداث «قرض وطني» للمستعمرات وثرواتها، وقدر لإنجاز برنامجه ثلاثة ملايير ونصف من الفرنك خلال 10 سنوات أو 15 سنة، ثم نشر كتابا في الموضوع للتعريف بقيمة المستعمرات وثرواتها تحت عنوان.

(La suise en valeur des colonies françaises)

وطبع هذا الكتاب سنة 1923 في 656 صفحة.

20 نونبر من نفس السنة لمدة أربع وعشرين ساعة، وقد نشرت جريدة «الوحدة المغربية» نص ذلك البلاغ بكامله في الملحق الأول للعدد (46)، وما كادت الحركة الوطنية بتونس تنجح في تنظيم ذلك الاضراب العام، وتبرز بشكل قوي تضامنها التام مع المغرب والجزائر، حتى هاج الاستعمار الفرنسي وماج، فأسال الدماء، واعتقل الزعماء، وفتك بالأبرياء، وحل الحزب الحر الدستوري، عقابا له على جريمة التضامن والاضراب، على غرار ما سيفعله سنة 1952 عند ما قرر أعضاء «الجبهة الوطنية» وهم بنيويورك إعلان الإضراب العام بالمغرب، تضامنا مع تونس، واحتجاجا على اغتيال زعيمها النقابي فرحات حشاد، وكان ذلك فصلا آخر من فصول مسرحية وزارة شمال افريقيا التي أسست للتخدير والتضليل، والقمع والتنكيل، ولما بلغت أخبار ذلك إلى المغرب لم يسع «حزب الوحدة المغربية» إلا أن يرد جميل التضامن التونسي مع المغرب بالتضامن المغربي مع تونس، فدعا إلى تنظيم مهرجان شعبي وطني كبير حضرته جماهير غفيرة ووفود من مختلف المدن والقرى بشمال المغرب، وألقيت فيه خطب نارية وقصائد حماسية، ووجهت إثره احتجاجات قوية تندد بمواقف الاستعمار إلى الحكومة الفرنسية، وبالأخص إلى وزير شمال افريقيا، وقد نشرت جريدة (الوحدة المغربية) وصفا شاملا لذلك المهرجان في ملحقها الثاني للعدد (46)، لكن لم تمض بضع سنوات على ظهور هذه المواقف التضامنية التي تبرز بين الفينة والأخرى هنا وهناك تبعا للمناسبات، حتى تحولت إلى تكتلات سياسية منظمة، وهيآت مشتركة، تجمع في صعيد واحد ممثلي الحركات الوطنية القائمة بأقطار المغرب، مثل (جبهة الدفاع عن افريقيا الشمالية) التي تأسست بالقاهرة يوم 27 مارس سنة 1945 و(مكتب المغرب العربي) الذي تأسس بالقاهرة أيضا يوم 15 أبريل 1947، ومكتب شمال افريقيا بواشنطن الذي تأسس في نفس السنة، وقد كانت (لجنة تحرير المغرب العربي) - التي حلت محل مكتب المغرب العربي - تحت رياسة بطل الريف الخالد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي هي أول هيئة جمعت شمل جميع الأحزاب الوطنية القائمة بالأقطار الثلاثة وهي : حزب الوحدة المغربية وحزب الإصلاح الوطني وحزب الاستقلال وحزب الشورى بالمغرب، وحزبا تونس : الدستور القديم والدستور الجديد، وحزب الشعب الجزائري، وكان الإعلان عن إنشاء هذه اللجنة بالقاهرة يوم 9 دجنبر 1947، واجتماع أعضائها الأول يوم 5 يناير 1948، كما انتهز زعماء الحركات الوطنية بأقطار المغرب فرصة وجودهم بفرنسا أثناء انعقاد الدورة السادسة لمنظمة الأمم المتحدة بقصر شايو بباريس، وعقدوا بينهم ميثاقا جديدا أطلقوا عليه اسم «ميثاق وحدة شمال افريقيا» وذلك بمشاركة أحزاب المغرب الأربعة : الوحدة والإصلاح والشورى والاستقلال، ومشاركة حزبي تونس : الدستور القديم والدستور الجديد، ومشاركة حزب الشعب الجزائري، وقد جرى توقيع ذلك الميثاق في باريس بتاريخ 2 فبراير 1952، ثم جدد زعماء الهيآت الوطنية بأقطار المغرب، الموجودون بالقاهرة، ميثاق (لجنة تحرير المغرب العربي) تحت إشراف الجامعة العربية، وذلك بمشاركة الحزب الحر الدستوري الجديد والحزب الحر الدستوري القديم والبعثة السياسية التونسية، ومشاركة حزب الشعب الجزائري وحزب البيان الجزائري، ومشاركة أحزاب المغرب الأربعة : الوحدة والإصلاح والشورى والاستقلال، وقد وقعوا جميعا على نص ذلك الميثاق بحضور الأمينين المساعدين للجامعة العربية، وسجلوه بالأمانة العامة للجامعة بتاريخ 4 أبريل 1954، ومما جاء في ديباجة ذلك الميثاق :

«ممثلو الأحزاب والبعثات السياسية المغربية في الشرق العربي :

تحدوهم الرغبة الصادقة الملحة في جمع شملهم، وتوحيد جهودهم، وتوجيهها إلى ما فيه خير بلادهم قاطبة، وصلاح أحوالها، وتأمين مستقبلها، وإقرارا بضرورة التضامن في الكفاح والمسؤولية المشتركة الواقعة عليهم لإدراك أهدافهم، ولا سيما في هذه الظروف الخطيرة، التي يتحول



وفد الجبهة الوطنية في منظمة الأمم المتحدة بنيويورك خلال الدورة السابعة سنة 1952 عقب الانتهاء من إحدى الجلسات التي نوقشت فيها القضية المغربية بحضور وفد «الجبهة الوطنية» الممثل لأحزاب المغرب الأربعة من اليمين إلى اليسار :
الأستاذ محمد المكي الناصري رئيس حزب الوحدة والاستقلال، الأستاذ محمد علال الفاسي زعيم حزب الاستقلال، الأستاذ جميل مكاوي عضو الوفد اللبناني، الأستاذ أحمد الشقيري الأمين المساعد لجامعة الدول العربية، الأستاذ أحمد بلافريج الأمين العام لحزب الاستقلال، الأستاذ اسكندر عضو الوفد الأندونيسي، السيد محمد الاغزاوي عضو حزب الاستقلال، الأستاذ ليفون كيشيشيان عضو وكالة الأنباء العربية.

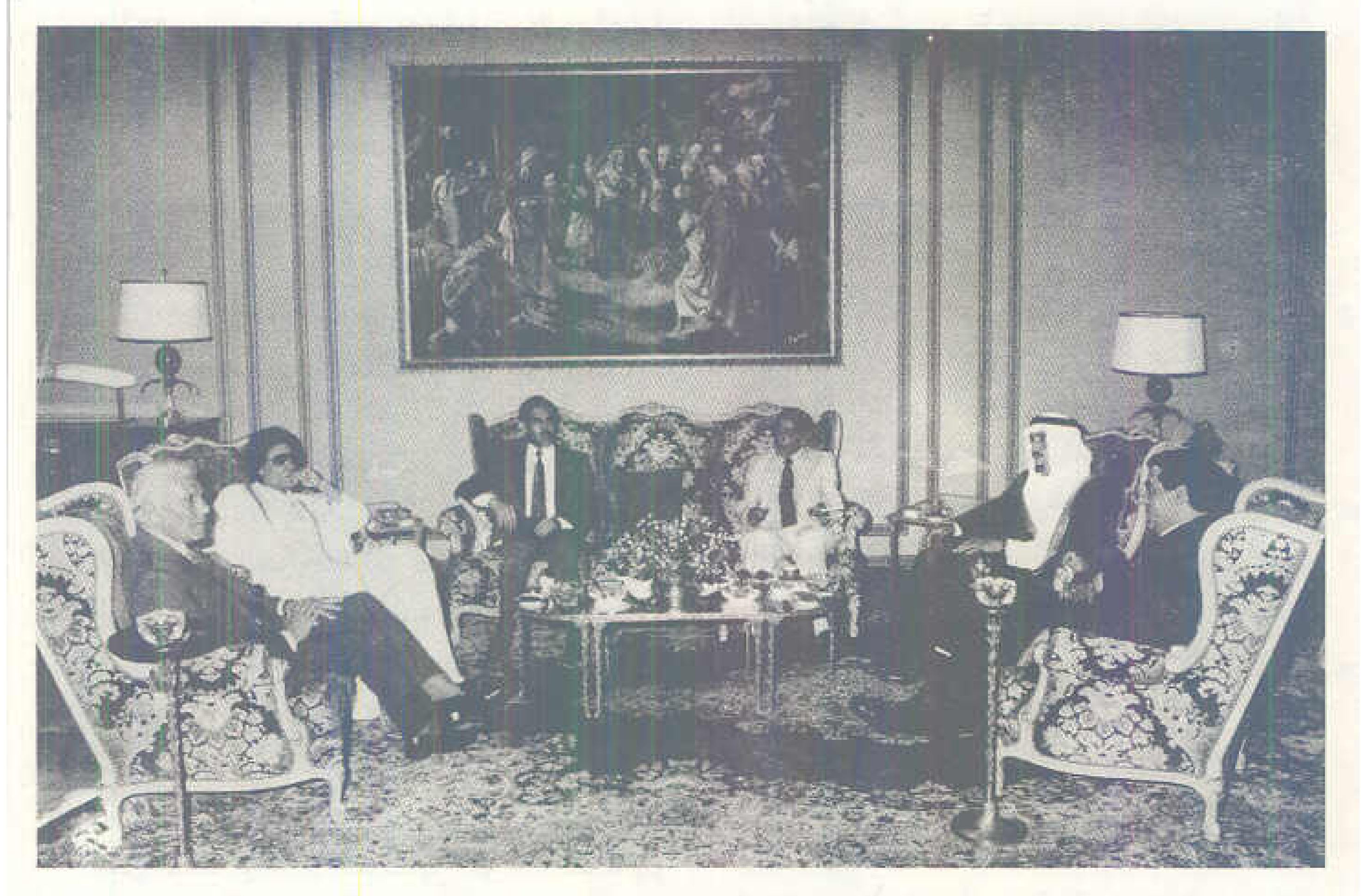
فيها مجرى التاريخ، قد قرروا عقد ميثاق، ولهذه الغاية اجتمع بدار الأمانة العامة لجامعة الدول العربية السادة المذكورون فيما بعد الخ».

وهكذا أصبح التضامن بين زعماء المغرب العربي يشكل عملا يوميا ومنظما يسوده الانسجام والتنسيق، مما سهل عرض قضايا المغرب وتونس والجزائر أمام منظمة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية بتعاون تام وتشاور بين الجميع، وقد بلغ ذلك التعاون ذروته عندما أخذ شكل المقاومة المسلحة في أقطار المغرب الثلاثة، الأمر الذي انتهى بتحرير تلك الأقطار من نير الاستعمار، الواحد تلو الآخر. ويعود الفضل في ذلك كله إلى الإيمان بوحدة المصير المشترك الذي انطلق منه العمل المشترك، وهذه العقيدة الوحدوية هي التي سجلها مؤتمر طنجة سنة 1958 الذي شاركت فيه تونس والثورة الجزائرية وحكومة حزب الاستقلال المنسجمة التي كانت قائمة إذ ذاك، ولذلك لم تحضره بقية الأحزاب المغربية الثلاثة، وإن كانت تعمل لنفس الهدف الوحدوي منذ بداية الحركة الوطنية، ولم تتخل عنه لحظة واحدة، لأنه محل إجماع بين الجميع.

وهنا يجب التنويه بجمعية تاريخية لها أثر كبير في نشر الوعي الوحدوي، ألا وهي (جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين) التي التقى فيها شباب الأقطار المغربية الثلاثة لأول مرة فوق التراب الفرنسي، على تقوى من الله ورضوان، خلال أواخر العشرينات سنة 1928، كما يحسن التنويه (بميثاق الوحدة) الذي يوجد نصه ملحقا بهذا البحث، وقد وضعته حركتنا الوطنية في بداية الثلاثينيات سنة 1934، وأقسم على الوفاء به أولئك الشباب ومن تبعهم بإحسان، وإن هذا القسم لا يزال قائما إلى أن يبر به الجميع، وتتحقق وحدة المغرب الكبير، التي هي الضمانة الوحيدة للحفاظ على حرية هذه البلاد واستقلالها، والوسيلة الوحيدة لرفاهيتها وازدهارها.

وإذا كان قدماء المغاربة قبل الإسلام أدركوا أهمية هذه الوحدة وآمنوا بمصير بلادهم المشترك، فكوّن «ماسينسا» الذي هو من مواليد سنة 238 قبل الميلاد، وحدة تمتد من المغرب إلى ليبيا وكون «يوغورطا»[10] الذي هو من مواليد سنة 154 قبل الميلاد، وحدة تمتد من الجزائر إلى تونس، وإذا كان ملوك المغرب المسلمون تنافسوا في إقامة هذه الوحدة، فكون ادريس الأول والمرابطون من بعد وحدة تضم المغرب والجزائر كما كون الفاطميون (العبيديون) والحفصيون وحدة ابتدت من تونس إلى المغرب، وكون الموحدون والمرينيون بعدهم وحدة امتدت من المغرب إلى حدود مصر، مدمجة في عقدها المنظوم الجزائر وتونس وليبيا، عندما بلغ الشعور الوحدوي منتهاه، وإذا كان المولى اسماعيل العلوي قد وضع خطة مشتركة مع باي تونس لتوحيد الأقطار المغربية، فهل نكون نحن في هذا العصر الذي تضاءلت فيه الفوارق، وقلت فيه الحواجز، وتعددت فيه الأخطار، أقل إدراكا لأهمية تلك الوحدة، وأضعف إيمانا بها، مع أن كل ما نتمتع به اليوم من حرية واستقلال إنما هو ثمرة كفاحنا الوحدوي المشترك من أجل المصير المشترك ؟ أليست التحديات التي تواجهنا كل يوم هي أضعاف أضعاف ما كان عليه الأمر بالأمس القريب والبعيد ؟ أليست الفوائد الأدبية والمادية التي يمكن أن نجنيها من تلك الوحدة إذا تحققت لا يستوفيها الحد ولا يحصرها الإحصاء ؟ ألا وإن وحدة المغرب العربي المنشودة هي وحدها التي تمكنه من احتلال المكانة الرفيعة التي يطمح إليها ثقافيا واجتماعيا، سياسيا واقتصاديا، وهي التي تؤهله للقيام بدوره الطلائعي عربيا وافريقيا، وإسلاميا ودوليا، فبالوحدة لا بالفرقة يفرض المغرب العربي احترامه

10) «يوغورطا» هو الذي قال عند مغادرته لروما : (روما مدينة معروضة للبيع، محكوم عليها بالهلاك، ستتلاشى عما قريب، ياليتها تجد مشتريا) وهذه الكلمة وصف بها الحالة التي وصلت إليها عاصمة الرومان على عهده ـ جوليان ـ تاريخ افريقيا الشمالية ص 126.



الزرالدة ـ الجمعة 10 يونيو 1988 م ـ خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز مع رؤساء دول المغرب العربي الخمس.

على الجميع، وبالوحدة لا بالفرقة ينال المقام الرفيع، والمركز القوي المنيع.

ونحمد الله على أن المغرب ملكا وحكومة وشعبا وأحزابا، كان ولا يزال متشبثا بوحدة المغرب العربي، معتزا بها، مستعدا لبذل كل التضحيات في سبيلها، وكم من مناسبة تاريخية جدد فيها المغرب النداء لكافة الأشقاء، حتى يزيلوا من طريقها جميع العقبات، ويتغلبوا على كل المعوقات، ويكفي دليلا على وفاء المغرب لها، وتعلقه بها الندوة العلمية التي دعا إلى انعقادها مشكورا جلالة ملكنا المفدى الحسن الثاني حفظه الله منذ حوالي سنة في الجامعة الشتوية بمدينة يفرن، إيمانا منه بوحدة المغرب العربي، التي تلتقي عنده وعند شعبه في سياق واحد مع وحدة التراب المغربي.

فما علينا نحن رواد الفكر الوحدوي المغربي إلا أن نجند أنفسنا، ونعبئ طاقاتنا، لتحقيق هذا الهدف القومي الكبير، الذي يعد لبنة أساسية في بناء صرح الوحدة العربية الكبرى، والوحدة الإسلامية التي هي أكبر وأجل، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

محمد المكي الناصري

ميثاق الوحدة المغربية الكبرى
عقيدة التوحيد
لشباب شمال افريقيا

1) آمنت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبالكعبة قبلة، وبالقرآن إماما، وبسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا، وبشمال افريقيا وطنا واحدا لا يتجزأ.

2) أقسم بوحدانية الله أنني أومن بوحدانية شمال افريقيا، واعمل لها ما دام في قلب خافق، ودم دافق، ونفس عالق.

3) الإسلام ديننا ـ شمال افريقيا وطننا ـ العربية لغتنا.

4) لست مسلما ولا مؤمنا ولا عربيا، إذا لم أبذل نفسي ومالي ودمي في سبيل تحرير وطني العزيز (شمال افريقيا) من أغلال العبودية، وإخراجه من ظلمات الجهل والفاقة، إلى نور العلم والرفاهية والعيش السعيد.

5) كل مسلم بشمال افريقيا يؤمن بالله ورسوله ووحدة شماله هو أخي وقسيم روحي، فلا أفرق بين تونسي وجزائري ومغربي، ولا بين مالكي وحنفي وشافعي وإباضي وحنبلي، ولا بين عربي وقبائلي، ولا بين مدني وقروي، ولا بين حضري وآفاقي، بل كلهم إخواني : أحبهم وأحترمهم، وأدافع عنهم ما داموا يعملون لله وللوطن، وإذا خالفت هذا المبدأ فإنني أعتبر نفسي أعظم خائن لدينه ووطنه.

6) كل من عمل للتفرقة بين أجزاء وحدة وطني (شمال افريقيا) أعتبره أكبر عدو لي ولوطني وأحاربه بكل وسيلة ولو كان أبي الذي أنجبني أو أخي من أمي وأبي.

7) وطني شمال افريقيا ـ وطن ماجد له ذاتيته المقدسة، وتاريخه الباذخ، ولغته الكريمة، وجنسيته العربية الشريفة. وكل من سولت له نفسه الانسلاخ عن هذه الجنسية، أو المروق من هذه الذاتية اعتبرته آبقا من وحدة وطني، وخارجا عن جماعة المسلمين، ليدخل لقيطا ملحقا بجنسية غيره، فعليه غضب الرب ! وغضب الشعب !

8) قد تبين الرشد من الغي، فلا سياسة اندماج، ولا سياسة استجداء، نحن طلاب حق مغصوب وتراث مسلوب، فيجب أن تناله وكفى، فلا منزلة بين المنزلتين، إما وطني صميم، وإما خائن أثيم...

9) نحن لا نبغض الأجناس، فالكل عباد الله، والأجانب الذين يعيشون في بلادنا نحترمهم ما داموا يحترموننا، ولا نؤذيهم ما داموا لا يؤذوننا في حرياتنا وكرامتنا وخيرات بلادنا، فإذا راعوا حق صاحب الدار راعينا حق الضيوف، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، بهذا أمر ديننا الحنيف، وبهذا تأمر ضمائرنا الطاهرة.

10) وطننا شمال افريقيا جزء لا يتجزأ من جسم الشرق العربي، نفرح لفرحه، ونتألم لآلامه، ونتحرك لتحركه، ونسكن لسكونه تربطنا به إلى الأبد روابط اللغة والعروبة والإسلام.

أعلن هذا الميثاق خلال انعقاد المؤتمر الرابع لجمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين سنة 1934.

احتفال المغرب

بعيد العرش المجيد

للأستاذ
مولاي
مصطفى
العلوي

نشأ العرش المغربي في الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة وكان منشئوه نابعا من قوة الإيمان، وصدق الجمهور المغربي في اختيارهم عقيدة التوحيد ورسالة محمد ﷺ، وشدة تعلق المسلمين المغاربة بحب رسول الله ﷺ.. هذا الحب الناشئ عن حب الله عملا بقول الله سبحانه ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم، قل أطيعوا الله والرسول**﴾.

والمغاربة عندما بشروا بالإسلام وفهموه اعتنقوه جميعا ولم يبق من بينهم إلا أقلية غير مسلمة كما كان عليه حال شعوب أخرى وهكذا بلغت محبتهم لعقيدة الإسلام ودين التوحيد أن ظلوا يتلهفون لمعرفة من كانت له علاقة برسول الله - علاقة صحبة أو علاقة قرابة - وعندما استفحل الخلاف بين بني علي وبني العباس في جزيرة العرب والشرق الأوسط وبلغ الأمر منتهاه في وقعة فخ على بعد ثلاثة أميال من مكة سنة 169 هـ، وقتل فيها كثير من بني علي وفر إدريس ومعه مولاه راشد إلى مصر ومنها إلى المغرب فماذا وجد المولى إدريس وهو ابن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ؟

إنه وجد حب الرسول وآله وصحبه فما إن عرف المغاربة إدريس بأنه سليل المصطفى حتى أجمع زعماء القبائل وقادتهم على اختياره رئيسا وزعيما وقائدا على شعب مؤمن مخلص، اختار المنهج الإسلامي عقيدة وعبادة ونظاما له إلى أن يشاء الله.

☆ ☆ ☆

وهكذا تأسس العرش المغربي من هذا التاريخ على تقوى من الله ورضوان.. لاجئ غريب ينصب على عرش عظيم تنقاد له قبائل كبيرة وعظيمة عرفت بالبطولة والشجاعة الفريدة، ولا تزال إلى اليوم وبعد اثني عشر قرنا من الزمن لا تزيدها الأيام إلا قوة وتماسكا وعظمة.. نعم تداول هذا العرش من بعد إدريس وبنيه رجال آخرون من غير السلالة المحمدية ولكنهم خلدوا أمجادا ومآثر في الصحراء المغربية على حدود نهر السينغال وبسطوا نفوذهم على شمال إفريقيا، وقاموا برعاية هذا الجزء الكبير من أمة الإسلام وتخطوا مضيق جبل طارق لحماية الأندلس من هجمات الصليبية الحاقدة بقيادة يوسف بن تاشفين العظيم ونجله علي من بعد وأسسوا عاصمة مراكش في منتصف القرن الخامس والتي لا تزال تشهد بعظمة موسسيها وجليل أعمالهم.

وهكذا دولة الموحدين من بعدهم والتي نشأت بين قمم الأطلس الكبير على مقربة من مدينة مراكش ولا تزال مآثرهم بين الجبال تتجلى في المسجد الذي تربى فيه رجالهم بزعامة المهدي بن تومرت ووارث زعامته عبد المومن بن علي الذي بسط سيادة العرش المغربي إلى حدود مصر شرقا وشعوب إفريقيا غربا.. ومن أهم الأحداث التي سجلها التاريخ لعبد المومن غزوة الأرك بالأندلس في شعبان عام 591 هـ.

☆ ☆ ☆

ثم تأتي دولة بني مرين ومن بعدها دولة الأشراف السعديين ثم العلويين، والعرش المغربي بجميع فضائل المتربعين فوقه يحرسون هذا الجزء الغربي من العالم الإسلامي من هجمات الصليبيين المتتالية والمتسلطة على شواطئه في الشمال والغرب في شواطئ البحر الأبيض المتوسط في تونس، بجاية، والجزائر ووهران، وفي مليلية وسبتة، وفي طنجة والعرائش والمهدية والجديدة والصويرة وأكادير، والجزر الخالدات في شواطئ المحيط الأطلسي إلى مصب نهر السينغال.. وقد سجل التاريخ أعمالا مجيدة في مجال الحفاظ على استقلال المغرب وكرامته وحريته للاشراف السعديين، وخصوصا المنصور السعدي، ثم العلويين من إسماعيل العظيم ومحمد بن عبد الله، وسليمان، والحسن الأول الذي سجل له التاريخ أن عرشه كان على صهوة فرسه لكثرة رحلاته وجولاته التي قام بها في أرجاء مملكته إبان جلوسه على هذا العرش المتنقل نظرا لما كان يشعر به من خطورة الأوضاع في الأقطار المجاورة لمملكته في الجنوب والشرق وفي الشمال ففي شرق بلاده كان الاستعمار الغربي قد احتل القطر الجزائري سنة 1930 م وظل يحاول توسيع مستعمرته وهو يظن أنها أصبحت امتدادا لفرنسا في جنوب الأبيض المتوسط، ومعلوم أن قائد الاحتلال يومئذ رفع رايته على صومعة كتشاوة بعاصمة الجزائر، وقال كلمته الصليبية : «الآن انتصر الصليب على الهلال» وقد ظل نفوذه على القطر الشقيق مائة واثنين وثلاثين سنة إلى أن قامت الثورة التي طردته منذ ربع قرن وذلك بتحالف قوة الخير والكفاح والنضال الإسلامي من لدن شباب الشمال الإفريقي الذي عقد عدة تجمعات ومؤتمرات وفي مقدمتها مؤتمر طنجة المعهود سنة 1947.

☆ ☆ ☆

أما المملكة المغربية ففي أوائل القرن 19 الميلادي تم التحالف الصليبي في 1904 ـ 1906 على غزو ترابه من الجنوب والشرق ومن سائر الجهات بعد أن بدأ زحف الجيش الصليبي من غرب الجزائر على قرية عين صالح بإقليم توات المغربي وعليها قائد إسمه المهدي يحمل ظهيرا حسنيا اسندت بموجبه قيادة عين صالح وضاحيتها له، ثم تتابع الزحف على القرى المغربية في الأقاليم حيث كانوا يثيرون الفتنة بين السكان بواسطة بعض عملائهم باسم الجهاد ضد الكفر فينقضون على الحدود خصوصا في عهد السلطان عبد العزيز الذي تولى العرش بعد فواة المجاهد العظيم الحسن الأول، وكان عبد العزيز لا يزال صغيرا فاختل النظام على عهده مما جعل المسؤولين من أهل الحل والعقد والعلماء يعوضونه بأخيه العالم المولى عبد الحفيظ، ولم يمض على بيعته إلا القليل حتى تعاهد الصليبيون الفرنسيون والإنجليز والإسبان على التدخل في شؤون المغرب باسم الحماية وإقرار النظام والأمن، وهكذا اضطر المولى عبد الحفيظ للتوقيع على عقد الحماية، وبعد أن اقتطعت عدة أقاليم من المغرب واحتلتها الدول الاستعمارية.. فالجنوب المغربي اقتطعته فرنسا وأعطته إسما تاريخيا قديما (موريطانيا) وألغي اسمه الحقيقي الذي جرى على الألسن (شنقيط) وفرضت حمايتها على شمال المغرب بإيعاز ووفاق من بريطانيا حرصا منها على أن لا تقابلها في مضيق جبل طارق دولة في مستواها مثل : فرنسا وبذلك أيضا حافظت على وجودها في سبتة ومليلية والجزر المجاورة لها وهي كلها أراضي مغربية، وبسطت نفوذها على الصحراء المغربية بشواطئ الأطلس من الداخلة، سيدي يفني، طنطان.

أما فرنسا فقد بسطت حمايتها على باقي التراب المغربي بعد أن قلصت حدوده الشرقية والجنوبية وحولت أقاليم توات وكرارة وواد الساورة إلى مستعمرتها الجزائر الشقيقة.

أما مدينة البوغاز طنجة فقد جمعت المستفيدين من تجزئة المملكة المغربية ومنحت الصبغة الدولية، ولعل المتنافسين في بسط النفوذ على أطراف المملكة اتّخذوها مكاناً استراتيجياً لمراقبة بعضهم بعضاً.

☆☆☆

وكان أول من اتخذ موقفاً مشرفاً هو المولى عبد الحفيظ الذي عارض بعض السلوك من رجال الحماية الفرنسية مطالباً بتطبيق نظام الحماية القاضي بعدم تدخل الحماة في شؤون الثقافة الإسلامية وما يمس كرامة الأمة المحمية وعندما اشتد النزاع فضل الاعتزال وقدم استقالته وأحال الأمر إلى أخيه المولى يوسف ويجب أن يسجل لمولاي حفيظ هذا الموقف الشريف حيث لم يغره البقاء على عرش يتحكم فيه الصليبيون لأنه ما قبل البيعة إلا على أساس أن يعمل على إنقاذ الموقف من التدخل الأجنبي الصليبي، ولما اضطر إلى قبول الأمر الواقع حاول تقييد هذا التدخل بعقد الحماية، وحينما خان العقد أصحاب القوة فضل العزلة وهكذا ظل رحمه الله يعيش في المنفى عشرات السنين إلى أن وافاه الأجل المحتوم.

والمولى يوسف أيضاً رحمه الله كان له موقف مشرف عندما عرض عليه الحماة توقيع الظهير البربري فلجأ إلى التسويف والمماطلة إلى أن وافاه أجله، ويقال إنه مات شهيد موقفه رحمه الله.

أما ولده محمد الخامس والذي نسب إليه توقيع الظهير البربري في أول عهده.. فإن أول تصريح له بعد بيعته يبعد عنه ذلك تماماً.

☆☆☆

فمنذ اعتلى عرش المغرب وهو يعمل جاهداً لفك هذا العرش من أغلال الحماية التي فرضت على البلاد بقوة الحديد والنار والذي عاش النصف الأول من القرن العشرين على أرض المغرب يعرف ما قاساه المستعمرون تحت غطاء الحماية من مقاومة المغاربة في كل سهل وجبل، فقد تركوا أكثر من مائة نصب تذكاري عن المواقع التي سالت فيها دماؤهم ومزقت أشلاء أعوانهم وعساكرهم.

فالمغاربة لم يستكينوا ولم يرضخوا لمجرد عقد فرض بتآمر عدة دول صليبية كان هدفها تصفية الوجود العربي الإسلامي من أرض المغرب وشمال افريقيا بأجمعه، وإذا كانوا قد بسطوا سلطتهم على تونس باسم الحماية سنة 1880 وعلى الجزائر الشقيقة باسم الاحتلال وإلحاقها بالتراب الفرنسي الصليبي قبل مطلع القرن العشرين فإن بسط نفوذهم على التراب المغربي كان صعباً وكان مراً فقد ظلوا يقاتلون لبسط سلطانهم أزيد من ثلث قرن قبل أن تصبح جميع أجزاء المملكة تحت نفوذهم وحمايتهم، فأول قرية احتلوها من التراب المغربي كانت قرية عين صالح في شرقي إقليم توات وآخر معاركهم مع أبطال المغرب كانت سنة 1934 في جبل بوغافر بالأطلس الصغير جنوب الجزء المحمي بحمايتهم.

☆☆☆

وما أن أتموا احتلال أقاليم المملكة حتى بدأت المقاومة في شكلها السياسي بدءاً من اللطيف 16 مايه سنة 1930 عند صدور الظهير البربري الذي أريد منه تقسيم الأمة المغربية إلى عرب وبربر وإلى المس بكرامة القبائل البربرية والتنقيص من إيمانها وتدينها بإرغامها إلى التحاكم للعرف الذي يعارض في كثير من بنوده شريعة الإسلام.. والله تعالى يقول : ﴿**فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾ وكثير من رجال القبائل الأمازيغية علماء بالشريعة، حافظون لكتاب الله، مقدسون لها، ولا يرضون بحكمها بديلا طاعة لله وتطبيقا لكتاب الله وسنة رسوله، ولذلك قامت المظاهرات انطلاقاً من معقل الإسلام جامعة القرويين، حيث احتشد الناس

يقرؤون اللطيف المعروف (اللهم يـا لطيف نسـألـك اللطف فيما جرت به المقادير لا تفرق بيننـا وبين إخواننـا البرابر) وشاع هذا اللطيف بصيغته فقرأه النـاس في القرى والمدن، واعتقل بسببه كثير من علمـاء الشبـاب والشيوخ في الربـاط وفاس وسلا ومراكش وغيرهـا.. وكـان ذلـك منطلقـاً للعمل السـياسي الـذي تكونت من خلالـه كتلة العمل الوطني ومن غريب ما سجل للتاريخ أن السنة التي أتمت فيهـا حكومـة الحماية بسط نفوذها وظنت أنهـا سترتـاح من هم المقـاومـة العسكرية التي دامت ثلث قرن كامل وذلك سنـة 1934 هو التـاريخ الـذي قـدمت فيـه كتلـة العمل الـوطني المطـالب المستعجلة للملك محمد الخامس والمقيم العـام، ومن يومئـذ والعمل مستمر ومتصل بين الملك الشـاب والعنـاصر المثقفـة إن الملك الشاب كان قبل مبايعته ملكاً للبلاد مكـان والـده كـان الشاب كـان قبل مبـايعتـه ملكـاً للبلاد مكـان والـده كـان يدرس في ثانوية مولاي إدريس بفاس على نخبة من علماء شبـاب أمتـه وفي مقـدمتهم شيخ الإسـلام محمـد بن العربي العلوي المـدغري، وهو من أجل العلمـاء الـذين كونوا جيـلاً من شبـاب جـامعـة القرويين والـذين ظلـوا على صلـة مـع العـاهل الشـاب ينـسقون معـه العمل الـوطني، وقـد تكـونت منهم فرقتـان همـا : الحزب الـوطني بـزعـامـة السيـد عـلال الفـاسي رحمه الله، والحركة القومية بزعامة السـيـد محمـد بن الحسن الوزاني إلى جانب شباب منطقة الشمال الذين أسـسوا حزب الإصلاح وحزب الوحدة.

ولم يمض إلا القليل حتى ترصدت حكومـة الحمـايـة لخصومها فحجزت قادة هاتـه الأحزاب سنـة 1936 ووزعتهم على معتقلات في أطراف البلاد، وأخـذت علال الفـاسي إلى «الجـابون» مستعمرتهـا في جنوب إفريقيـا، حيث ظل فيهـا تسع سنوات، وأخـذت محمـد بن الحسن الـوزاني إلى قريـة «اتزر» بالأطلس المتوسط.. ويومئذ قـامت حركـة احتجـاج وخرج الجمهور في مظـاهرات صـاخبـة في شـوارع فـاس والرباط ومراكش ووجدة وغيرها من المدن، وامتلأت البلاد بـالمعتقلين والمسـاجين.. ففي «كلميمـة» قريبـاً من قصر السوق (الرشيدية) كان نحو 200 من شباب جامعة القرويين من بينهم على مـا أذكر عبـد العـزيـز بن إدريس الهـاشمي الفلالي والشهيـد محمـد القري الـذي مـات بعـذاب أعـوان الحماية، والهـاشمي محمـد بن عبـد اللـه، ومصطفى العلوي، محمــد بن العربي وغيرهم.. كثير ممن لم تحضرني أسماؤهم من طلبة القرويين، وفي قريـة الريش جمـاعـة أخرى ممن اعتقلوا في نـاحيـة الغرب بـالقنيطرة أذكر منهم الأستـاذ أبو الشتاء الجـامعي وكثيرون.. ولقـد كـان لهـذه الإجراءات أثر عظيم في تكتـل الجهود وتنظيم العمـل الـوطني وسريــان فكرة المقاومـة في نفوس الشبـاب والنـاشئـة إلى أن قـامت الحرب العالمية الثانية سنـة 1939 وفي سنـة 1943 تم لقـاء قادة الحلفاء بالدار البيضـاء واستقبلهم جلالـة الملـك محمـد الخامس طيب الله ثراه، وعنـدمـا بـدأ انتصـار الحلفـاء على المحـور في مطلـع سنـة 1944 تقـدمت الحركـة الـوطنيـة بوثيقة أعدهـا رجـالهـا بـاتفـاق مع محمـد الخـامس تطـالب بالاستقلال.. قـدمت لجلالـة محمـد الخامس، والمقيم العـام وقد أزعجت هاته الوثيقـة المقيم العـام ولعلـه علم شيئـا عن أسرارها فمكث يستطلع نتائج هذا العمل نحو ثلاثـة أسـابيع كانت فترة غليان في أوساط الشعب المغربي قدمت أثناءها عرائض التـأييـد تحمل ملايين التوقيعـات من جميع أطراف البلاد من جميع الطبقات بغير استثناء مما كـان لـه رد فعل عنيف من حكومـة الحمـايــة فـاعتقـل آلاف من المثقفين ورجال الأعمال والزعماء والموظفين السـامين وفي مقـدمتهم شيخ الإسـلام محمـد بن العربي العلوي الـذي كـان وزير العدل وقدم استقالته احتجـاجـاً على مـا شـاهـده من تعسف حكومة الحماية فأخذ ونفي إلى مسقط رأسه «مدغرة» حيث عاش هنا في حراسة سرية قرابة سنتين.

ولمـا انتهت الحرب ظل محمـد الخـامس رحمـه اللـه صـامـداً يلح على تلبيـة طلب الاستقلال الـذي قـدم لـه في 11 ينـاير 1944 وزكـاه الشعب المغربي بـأسره وفي أبريل سنة 1947 زار مدينة طنجة وأعلنها صرخة مدويـة قـائلاً إن

المغرب بلد عربي وسيبقى عربياً وعضوا في جامعة الدول العربية، ويجب أن يتمتع بحريته... الأمر الذي زاد في خنق المستعمرين وفي آخر عام 1950 دعي إلى زيارة فرنسا واحتفي هناك به احتفاء منقطع النظير لم تحتفل باريز بمثله لأي رئيس دولة مهما كان، ولعل ذلك كان محاولة منهم ترضية له عساه يلين في موقفه من حرية بلاده ومطالبها، ونحمد الله على أن لم يكن مصيره كوالده المولى يوسف عندما رفض التوقيع على الظهير البربري والأمر لله كيف شاء فعل ليسجل التاريخ.

ومنذ هاته الرحلة بدأت المؤامرة الحاقدة ضد جلالته فبدأت الاعتقالات في صفوف الحركة الوطنية وامتلأت بهم السجون والمنافي على اختلاف وأطراف الصحراء.

وما أن خفت وطأة هاته الحملة الانتقامية حتى جاء العيد الفضي للعرش في نونبر 1952 فكان رد الفعل من جانب الشعب حيث أقيمت احتفالات عيد العرش على شكل لم يسبق له نظير منذ بدأت هاته الاحتفالات سنة 1933 مما كان دليلاً واضحاً على ارتباط الشعب بالعرش مهما كانت الظروف، وإن هذا الارتباط لا تؤثر فيه عوادي الدهر مهما كانت، وإن الشعب لا يتخلى عن رمز سيادته مادام يشعر بالحياة.

وجاء خطاب العرش ملحاً على حق الشعب في الكرامة والحرية الأمر الذي حرك في نفوس الأعداء الحقد والضغينة فعادوا إلى الانتقام من الشعب في مختلف المناطق فنفوا وسجنوا وضايقوا المواطنين بكل أنواع التعسف والظلم.. وهكذا تصاعد الإرهاب وجاء الجنرال «كيوم» بخطته القذرة فبدأت التجمعات التي كان يستجيب لها بعض ضعاف النفوس وبعض الطامعين في الوصول إلى بعض المناصب من الخونة والأذناب، ولم تمض إلا عشرة أشهر حتى تم الحدث الأكبر «تطويق القصر الملكي الشريف يوم 20 غشت 1953».

وأخذ سيد البلاد وأسرته الشريفة في مقدمتهم ولي العهد المحبوب والذي كان مؤازراً لوالده في كل المواقف

وللتاريخ أسجل موقفاً حدثني عنه الفقيه العلامة سيدي أحمد التجاني رحمه الله وكان بالقصر الملكي فرأى رفيقه الأستاذ محمد المعمري وهو يحكي لجلالة الملك حديثاً تلقاه من المقيم العام وهو متأثر مما كان يحكيه ويبكي، فانبرى ولي العهد حفظه الله إلى والده وقال : أتأذن لي سيدي أن أذهب لأحاور هؤلاء أنا الذي لا أبكي ؟ فأذن له وأخذ الهاتف وتحدث مع المعنيين وضرب له موعداً في الحال وذهب.. إنه أحد مواقف ولي العهد يومئذ جلالة الحسن الثاني إلى جانب والده يتجلى فيها الصمود والشجاعة وقد غادر القصر الملك وأسرته إلى «كورسيكا» ثم إلى «مدغشقر» حيث عاشوا هناك سنتان وأشهر، تواجه فيها الشعب الوفي مع رجال الحماية وأذنابهم من الخونة وضعاف النفوس، وقد ظن أعداء الشعب أنهم قضوا على كل من فيه حمية وأنفة وأن كل من يخشى منه يوجد في السجن أو المنفى ولكن الشعب المومن الأبي الحر قام برد الفعل بدأ من موقف رجل الشارع علال بن عبد الله، وفي رحاب القصر وعندما أحضر العميل ليمثل دوره الهزيل أمام المسجد، وفي يوم الجمعة استشهد علال بن عبد الله وخلد ذكره في ضمير الشعب وتاريخه وانطلقت أعمال الفداء ونادى الأطفال في الشارع بالجملة الحلوة «عامين وثلاثة أشهر ابن يوسف راجع بلفور» واستجاب الله نداء الأطفال الأبرياء فرجع محمد الخامس قدس الله روحه موفور الكرامة عزيز الجانب يحمل في يمناه راية المغرب حرة كريمة وعلى لسانه آية الكتاب المنزل **﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾** صدق الله العظيم.

☆☆☆

تلك لمحات من ارتباط شعب المغرب بقادته الأبرار وأبطاله الكبار وعرشه العزيز المبني من حجارة الإيمان بحق الحرية والكرامة ولا غرابة فهو عرش شيد على قواعد الإيمان بالله ورسالة محمد ﷺ وحب الرسول وآله المنبثق من حب الله وطاعته، ولذلك لم يكن إلغاؤه أو المساس

بحقه في الوجود في متناول أحد مهما كانت قوته وجبروته، فهو عرش مبني على حب عقيدة التوحيد وما يواكبها من عدل وإخاء ومساوات وتضامن وتكافل.. وذاك سر وجود هذا العرش وبقائه رغم الحوادث والتغيرات على مدى ألف ومائتي عام منذ أسس ليتربع على أريكته يومئذ سبط الرسول المولى إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة بنت رسول الله.. ويتربع عليه اليوم سبط الرسول بطل العصر أمير المؤمنين الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن.

والأسرة المالكة هي سلالة الحسن بن علي وفاطمة بنت سيدنا محمد عليه السلام.. فالعرش المغربي والحمد لله عرش عقيدة ودين عرش نصر الإسلام ويتربع عليه حفدة نبي الإسلام وقد عرفوا بقوة الإيمان والصبر والشجاعة والتفاني في خدمة المجتمع الذي رفعهم إلى كرسي الملك والرياسة وصدق الله العظيم :

﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مكناس : مصطفى العلوي



في زيارة للمولى إدريس الأزهر بمدينة فاس

مآثر جلالة الملك الحسن الثاني

في إطار البعث الإسلامي

للأستاذ مقدم بوزيان
رئيس المجلس العلمي الاقليمي بالناظور

يعد المغرب وطننا الحبيب من الأوطان النادرة التي حباها الله بعبقريات فذة وشخصيات عظيمة في مواقفها وتحدياتها من أجل غد أفضل ومستقبل أحسن وأسعد.

وبقليل من النظر والتأمل بين دفات تاريخ وطننا العريض نجد أن العبقرية المغربية تستمد جذورها من تلك الينابيع الصافية المتمثلة في السلالة النبوية الشريفة على امتداد زهاء ثلاثة عشر قرناً من الزمن انطلاقاً من إدريس الأزهر أحد أسباط الرسول ﷺ إلى السبط الخامس والثلاثين أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله.

الحسن الثاني الذي يعتبر بحق واسطة العقد بالنسبة لملوك المغرب قاطبة بسبب ما أسدى لهذه الأمة من مفاخر وأعمال ومآثر وآمال.

وبما أننا نعيش مناسبة ذكرى عيد العرش وهي الذكرى الثامنة والعشرون لتربع جلالته على أريكة أجداده المنعمين، وبما أن هذه الذكرى تعتبر عادة فرصة مناسبة لاستعراض ما يمكن استعراضه من أعمال ومنجزات صاحب الذكرى، فإننا سنحاول ذكر شيء من ذلك ولو نبذة يسيرة أو إطلالة قصيرة، لكن من أين نبدأ الحديث عن أعمال ومعالم ومآثر جلالة الملك الحسن الثاني، وهل يستطيع المرء أن يحصي أعماله في كل المجالات.

هذا أمر صعب لدى الكتاب والباحثين عندما يريدون الكتابة عن بعض الشخصيات الفذة التي جمعت العظمة من كل أطرافها كشخصية الحسن الثاني أمير المومنين.

فمجال العمل بالنسبة إليه كثيرة ومتعددة : سياسيا ووطنيا وفكريا وعلميا واقتصاديا واجتماعيا ودينيا، وهو في ذلك كله يجمع بين الأصالة والمعاصرة والقديم والحديث والتليد والطريف والماضي والحاضر والتراث والجديد تمشيا مع سنة التطور وطبيعة النشوء والارتقاء بجانب المحافظة على القيم الروحية والعادات الإنسانية والأصالة المغربية : حضارة وعقيدة وثقافة.

وبما أن هناك الكثير من الأقلام التي تناولت باستمرار أعمال ومآثر الحسن الثاني في كل المجالات

فإنني سأتناول في هذه العجالة جانبا خاصا من أبرز اهتماماته ألا وهو الجانب الديني في إطار البعث الإسلامي الذي يقود لواءه حفظه الله على الصعيدين الوطني والعالمي.

الحسن الثاني والبعث الإسلامي :

فبخصوص اعتزاز جلالته بالقرآن والسنة عقيدة وشريعة وعملا وسلوكا واهتمامه بهذين المصدرين الأساسيين للإسلام والمسلمين، أذكر بعض الجوانب العملية التي أنشأها حفظه الله تدعيما لكتاب الله المبين وسنة جده المصطفى الأمين التي تتجلى في المشاريع التالية :

ـ إنشاء دار الحديث الحسنية ـ إنشاء المجالس العلمية ـ إحياء الكراسي العلمية ـ سنة الدروس الحسنية الرمضانية ـ المسيرة القرآنية ـ شعب الدراسات الإسلامية ـ رسالة القرن الخامس عشر الهجري الموجهة للأمة الإسلامية إحياء نظام الحسبة ـ معلمة القرن مسجد الحسن الثاني ـ الدفاع عن القدس الشريف.

ففي مجال اهتمامات أمير المومنين بالقرآن كتاب الله العزيز أنشأ :

1 ـ دار القرآن : حيث يتخرج منها العديد من حفظة كتاب الله العزيز حتى يبقى هذا الكتاب محفوظا في الصدور بجانب تواجده في السطور (في المصاحف) باعتبار أن القرآن هو المعجزة الخالدة والباقية على الدوام الذي هو سر وحدتنا وتوحيدنا ومنبع إيماننا وعزتنا وجوهر ديننا.

2 ـ الاهتمام بطبع ونشر وتوزيع المصحف الحسني الشريف داخل المغرب وخارجه حتى يبقى كتاب الله في مأمن من كل تحريف أو تزوير أو تشويه.

3 ـ الاهتمام والعناية بالكتاتيب القرآنية في المملكة بطريقة جدية وفعالية.

4 ـ الاهتمام الزائد والمستمر بتطوير التعليم الأصيل الذي يستمد معظم مناهجه من كتاب الله وسنة رسوله فقها واجتهادا وسلوكا ومعاملات.

5 ـ اهتمام جلالته بإحياء ذكرى نزول القرآن خلال شهر رمضان في إطار إحياء ليلة القدر المباركة.

6 ـ اهتمام جلالته بفتح مباريات وطنية للقراء والمجودين بحثاً عن مواهب جديدة في ترتيل كتاب الله وتجويده.

7 ـ اهتمامه حفظه الله بالمحافظة على قراءة الحزب جماعة في كل مساجد المملكة حفاظا على هذا الجوهر الديني الإسلامي العظيم.

8 ـ اهتمام جلالته بالمسيرة القرآنية الرمضانية التي تبث قراءتها الورشية على أمواج الإذاعة والتلفزة في ربوع المملكة بل تجاوزت ذلك حتى أصبحت سنة حميدة يومية في الإذاعة.

هذا ما يتعلق باهتمام جلالته بكتاب الله. أما ما يتعلق باهتمامه بسنة رسول الله ﷺ وإن كانت لاتفترق عن القرآن الكريم فقد أمر حفظه الله بمجالات شتى تعكس العناية الفائقة بها ويمكن إجمالها في الأمور التالية :

1) ـ دار الحديث الحسنية :

هذه الدار التي أنشئت لدراسة الحديث وأصول الشريعة بمستوى يليق بمكانة الدار ومكانة المادة المدروسة.

2) ـ المجالس العلمية :

هذه المجالس التي أسند إليها حفظه الله مهمة القيام بواجبها الديني والروحي المتمثل في الوعظ والإرشاد والفتوي والتوعية الدينية الصحيحة والسليمة، طبقا لمنهجية علمية عصرية متطورة تعتمد أسلوبا فعالا هادفا من أجل ترسيخ العقيدة الأشعرية السنية وتعميم الأخذ بالمذهب المالكي العريق في هذه الديار داخل المغرب وخارجه في إطار البعثات الموجهة إلى الخارج من حين لآخر من طرف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

3) ـ إحياء الكراسي العلمية :

هذه الكراسي التي أمر سيدنا المنصور بالله بإحيائها في جامع القرويين بفاس ومكناس ومراكش وتطوان وتارودانت حتى تعم هذه الكراسي معظم مساجد المملكة لما لها من أهمية بالتراث والأصالة في شتى فنون المعرفة وعلوم الدين للخاصة والعامة.

4) ـ الدروس الحسنية الرمضانية :

لقد سن أمير المومنين سنة حميدة اقتداء بجده المصطفى عليه السلام في مضاعفة الذكر والعبادة وتدارس فنون العلم والمعرفة في رمضان المبارك، حيث يترأس بنفسه وفي قصره العامر تلك الحلقات العلمية العظيمة والمحاضرات القيمة بالتفسير والحديث التي يلقيها بين يدي جلالته نخبة من علماء المغرب ومختلف الأقطار العربية والإسلامية بحضور شخصيات علمية وسياسية وإدارية تعميماً للفائدة المتوخاة منها، علاوة على نقلها على أمواج الإذاعة والتلفزة وطبعها وترجمتها ونشرها في ربوع المملكة وخارجها.

5) ـ معلمة القرن مسجد الحسن الثاني :

في أشهر الحج من هذه السنة المباركة حيث الحجيج يؤدون مناسكهم بالديار المقدسة جاءت نفحة قدسية لأمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله، فأعطى أمره المطاع ببناء معلمة إسلامية جديدة تضاف إلى معالمه ومآثره العظيمة لتصبح مفخرة يندر وجودها في العالم خدمة منه حفظه الله لهذا الدين، ويتعلق الأمر هنا بذلك المسجد الفريد من نوعه الذي أطلق عليه اسم «مسجد الحسن الثاني» والذي أمر بتشييده بالعاصمة الاقتصادية (الدار البيضاء) فوق سطح مياه البحر تحت شعار ﴿**وكان عرشه على الماء**﴾ تيامنا بهذه الآية الكريمة معمما إشراك شعبه في الأجر والثواب.

ويضاف إلى هذه الروافد الآنفة الذكر للبعث الإسلامي علاوة على جامعة القرويين المتفرعة عن الكليات الثلاث : الشريعة وأصول الدين واللغة العربية.

إحياء شعب الدراسات الإسلامية في العديد من الكليات والمعاهد والجامعات للراغبين فيها من عموم الطلبة والطالبات، وبدأت تعطي أكلها والحمد لله وتخرج أفواجاً مهمة من حملة الإجازة في شعب الدراسات الإسلامية.

كما تم إحياء نظام الحسبة الذي كان معمولا به في المغرب طبقا لتعاليم الإسلام.

6) ـ الدفاع عن المقدسات الإسلامية وعلى رأسها القدس الشريف :

والخلاصة أن الذي يتتبع أعمال جلالة الملك واهتماماته المستمرة بخصوص الشؤون الدينية والمقدسات الإسلامية والدفاع عنها في كل الأقطار العربية، ويستعرض العديد من المؤتمرات الإسلامية المنعقدة بالمغرب وخارج المغرب التي دعا إلى عقدها جلالته وترأس معظمها بنفسه لايسعه إلا أن يكن لجلالته كل تقدير وإجلال وتعظيم واحترام لاعتراف بالجميل لما يقدمه للدفاع عن قضايا الإسلام والمسلمين وخاصة قضايا الشرق الأوسط وفلسطين والقدس الشريف.

تلك القضايا والأعمال التي تعد بحق مفخرة من مفاخر جهاد هذا الملك الصالح، وتعتبر بعثاً إسلامياً جديداً يعم المشرق والمغرب يقود لواءه سبط رسول رب العالمين.

فالله أسأل أن يطيل عمر جلالته ويديم عزه ونصره ويقر عينه وعين شعبه بسمو ولي عهده المحبوب الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه السعيد مولاي رشيد وسائر أفراد الأسرة الملكية الكريمة إنه سميع الدعاء.

الناظور　　　مقدم بوزيان

الرؤية الحسنية في الأصولية الإسلامية

للأستاذ
أحمد أفزاز
رئيس
المجلس العلمي
لوجدة

في حديث صحفي.[1] أدلى به أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده، عبر حفظه الله عن رؤيته لمفهوم الأصولية الإسلامية فقال : «**إن المغرب بالتأكيد إحدى الدول الأكثر أصولية لأنه لم يحتفظ إلا بالمذهب المالكي وحده الذي جاء مباشرة من المدينة المنورة، حيث عاش رسول الله ﷺ، فإذا كانت هناك أصولية فإن المغرب إذن هو البلد الأصولي، وهو الأكثر أصولية**».

وفي حديث صحفي آخر منشور قال أمير المومنين أعزه الله : «**أما بالنسبة لنا في المغرب فإننا أصوليون بالنسبة لديننا الإسلامي الحنيف، فنحن السنيون، وخاصة أتباع المذهب المالكي**».[2]

لقد جاءت الفقرات المذكورة في حديث أمير المومنين لتضع مفهوم الأصولية الإسلامية في إطاره الحقيقي.

وفي البداية ينبغي أن نبين مدلول الكلمة، فالأصولي نسبة إلى الأصل.

والأصل في الاستعمال اللغوي له عدة معاني، فهو أسفل كل شيء،[3] وما يبنى عليه غيره بناء حيا أو معنويا، وما يقابل الفرع.

والإسلام بني على أصول معروفة، ونشأت عن تلك الأصول قواعد وأحكام فرعية للتطبيق في الحياة العلمية، ولتكييف السلوك الإنساني في حياة المسلم.

أول تلك الأصول وأكثرها إشعاعا في التشريع الإسلامي هو كتاب الله عز وجل، فالقرآن الكريم الذي أنزله الله على نبيه سيدنا محمد ﷺ هو موضوع الرسالة الإسلامية وقد تناول جميع الأحكام الإسلامية التي يحتاج إليها المسلم في مسيرته الإيمانية.

1) انظر جريدة العلم بتاريخ 88/12/10.
2) جريدة العلم 88/12/14.
3) لسان العرب لأبي منظور مادة «أصل» ج 1 ص 89 طبعة دار المعارف.

والمسلمون في جميع أنحاء العالم لابد أن يكون في عقيدتهم الإيمانية أن كتاب الله عز وجل هو المصدر الأول والأصل الأساسي للتشريع العملي للإنسان المسلم.

وفي هذا التوجيه يقول أمير المومنين أعزه الله : «**إننا بقينا دائما متشبثين بدين الله، سبحانه وتعالى، وهو الإسلام الذي له الكتاب كأساس وكأصل**».[4] فدين الله أولا هو الإسلام، ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾،[5] وأساس هذا الدين وأصله ومنبعه ومصدره هو كتاب الله تعالى الذي يضمه المصحف الشريف.

وقد نظم القرآن الكريم حياة المسلمين بكل أبعادها جماعية كانت أو فردية، دولة كانت أو أسرة.

ففي ضبط رئاسة الدولة يقول الله تعالى : ﴿**يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله**﴾.[6]

وأشار القرآن الكريم إلى بعض سلطات الإمام فقال تعالى : ﴿**الذين إن مكناهم في الأرض، أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر**﴾.[7] يقول ابن جماعة : «ويجب نصب إمام يقوم بحراسة الدين، وسياسة أمور المسلمين، وكف أيدي المعتدين، وإنصاف المظلومين من الظالمين، ويأخذ الحقوق من مواقعها ويضعها جمعا وصرفا في مواضعها، فإن بذلك صلاح البلاد، وأما العباد، وقطع مواد الفساد، لأن الخلق لاتصلح أحوالهم إلا بسلطان يقوم بسياستهم ويتجرد لحراستهم».[8]

والأصول الإسلامية تتحدث عن العلاقة الجماعية للمسلمين في إطار من الود والصفاء يقول تعالى : ﴿**إنما المومنون إخوة**﴾.[9] وتنظم التصرفات الإنسانية التي تدعو إليها الحاجة الاجتماعية من بيع وشراء وقرض ورهن ووكالة ووديعة وغير ذلك من أنواع المعاملات مع تطهيرها من الاستغلال (الغَبْن ـ الربا) وعيوب الرضا، والضعف العمري (الإكراه ـ الحجر).

وتتحدث الأصول الإسلامية عن العلاقة البيتية بهذه القاعدة ﴿**وعاشروهن بالمعروف**﴾.[10] ويقول تعالى في علاقة البنوة بالأبوة : ﴿**وبالوالدين إحساناً، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهم أف ولا تنهرهما، وقل لهما قولا كريماً، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا**﴾.[11]

وفي علاقة الأمة الإسلامية مع غيرها يقول الله تعالى : ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل**﴾،[12] ويقول : ﴿**فإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله**﴾.[13]

هذه الأصول القرآنية لنظام الحياة كانت منظورة في فكر أمير المومنين وهو يتحدث عن الأصولية الحقيقية في القرآن.

ولم يغب عن ذهنه حفظه الله المصدر الثاني للتشريع الإسلامي وهو السنة فقال في ذلك أعزه الله : «**وله السنة كتطبيق وتفسير**».[14]

فالسنة التي هي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته تكون التطبيق العملي للإسلام فالرسول عليه الصلاة والسلام

---

4) خطاب جلالة الملك بمناسبة عيد الشباب 9 يوليوز 1988، انظر «مجلة دعوة الحق» العدد رقم 271.
5) الآية 19 من سورة آل عمران.
6) الآية 26 من سورة ص.
7) الآية 41 من سورة الحج.
8) تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام لابن جماعة تحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد.
9) الآية العاشرة من سورة الحجرات.
10) الآية 19 من سورة النساء.
11) الآيتين 23 و 24 من سورة الإسراء.
12) الآية 60 من سورة الأنفال.
13) الآية 61 من السورة السابعة.
14) خطاب عيد الشباب 88 مجلة دعوة الحق.

كـان النمـوذج الأسمى لـلإسـلام وكـانـت سنتـه ﷺ تفسيرا وبيانا لما جاء به القرآن، وقد أشارت إليه هذه الآية الكريمة : **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾**.[15]

والمصدر الثالث لتقرير الأصول الإسلامية الذي هو الإجماع أشار إليه أمير المومنين بقوله : **«وله الجماعة كحصن وتحصين»**.[16]

فجماعة المسلمين عندما تتفق على أصل أو قاعدة أو حكم أو قرار، تكون وضعت أساسا ثالثا للتشريع في الإسلام، ويتضمن هذا أن القاعدة أو القرار الذي وضعته الجماعة الإسلامية وهو ما يسمى بالإجماع، يصبح جزءا من النظام الإسلامي، ويعتبر الحكم أو القاعدة تحصينا لأحكام القرآن والسنة، لأن الجماعة الإسلامية لا يمكن أن تتفق على ما يخالف الكتاب والسنة، إذ على أساس هديهما تضع الحكم، والتطبيقات العملية لتحصين الإسلام بقرار الجماعة الإسلامية كثيرة ومتعددة، فأسلوب بيعة خليفة رسول الله ﷺ وضع من طرف جماعة الصحابة، وأسلوب ولاية العهد الذي يتم من أبي بكر لعمر بن الخطاب الخليفة الثاني لرسول الله ﷺ كان كذلك بإجماع الصحابة، وجمع القرآن وتوحيد المصحف كل ذلك لي أعمال الجماعة الإسلامية التي حصنت بها الإسلام.

إن التمسك بالأصول الإسلامية كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تكون الطريق الصحيح للإنسان الذي يجعل الشريعة الإسلامية منهجا له في الحياة.

وعلى هذه الأصول تقوم الفروع التي اجتهد الفقهاء لاستنباطها منها، ويسروا للمسلم التعامل مع أحكام الإسلام.

يمكن في حوار مفتوح أن يقال بأنه ما دام الأصلان الكتاب والسنة قائمين فلا حاجة لمذهب أو اتجاه غيرهما.

ولكن الرد على السؤال متوفر وموجود، إن الإحاطة بأحكام القرآن وأقوال السنة ومضمونهما، أمر غير متيسر لكل الناس، بل غير متيسر حتى على الخواص، ففهم نص قرآني أو حديث نبوي، يحتاج إلى التخصص في كثير من العلوم الإسلامية، وقد قام بهذا قادة الفقه الإسلامي ابتداء من النصف الثاني من القرن الهجري الأول، فأخذ هؤلاء القادة عن الصحابة والتابعين بعد تعمقهم في العلوم الإسلامية، أحكام الدين تطبيقا عمليا كما وصل إليهم، ونجد على رأس هؤلاء أصحاب المذاهب الأربعة، وفي مقدمتهم إمام المدينة سيدنا مالك بن أنس رضي الله عنه، وأتباع المغاربة للمذهب المالكي نابع من كون صاحبه عاش في مهبط الوحي الثاني مدينة رسول الله ﷺ، وعاين الإسلام وهو حي يمشي في سلوك التابعين الذين تقلوه قولا وعملا عن صحابة رسول الله ﷺ، وفهما وتفقها في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ولهذا كان التمسك بالمذهب تمسك بأصول الإسلام وبقواعده وأحكامه، وهذا ما أشار إليه أمير المومنين عندما قال أعزه الله : **﴿فنحن السنيون، وخاصة أتباع المذهب المالكي هم الأصوليون في الإسلام»**.

إنها توجيهات صادقة صادرة من قلب مومن عارف بأحكام الإسلام، وبمصادر التشريع في الإسلام، وبأن المسلمين لانصرة لهم إلا بتمسكهم بدينهم كما جاءت به آيات كتاب الله الكريم وأحاديث رسوله ﷺ، وما اتفقت عليه جماعة المسلمين من أحكام أصلية أو فرعية.

ويعتبر التمسك بالمذهب المالكي في المغرب الإسلامي وسيلة للتمسك بالأصولية الإسلامية الصحيحة، وعمل من شأنه وحدة الجماعة الإسلامية، إن الدعوة التي ترمي إلى الخروج على المذاهب الفقهية والتعامل مباشرة مع الكتاب والسنة دعوة مشبوه فيها، وقد تكون خطة

---

15) الآية 44 من سورة النحل.

16) خطاب عيد الشباب المشار إليه سابقا.

مرسومة من طرف أعداء الإسلام، أو أنها كمحل ظاهره شيء، وباطنه الهجمة الشرسة على الإسلام، ولعل هذا هو التطرف الذي أشار إليه جلالة الملك الحسن الثاني في أحاديثه السابقة.

لنسأل هؤلاء، هل مذهب الإمام مالك مثلا، مذهب غير مبني على كتاب الله وسنة رسول ﷺ، أو أنه لم يستمد أحكامه الفرعية منهما مباشرة.

إن موطأ الإمام مالك وهو كتاب حديث بل من أول كتب الحديث التي جمعت منظمة على أبواب الفقه، يعتبر المصدر الأساسي في الفقه المالكي ومنه ومن فتاوي الإمام مالك استمدت المدارس الفقهية المالكية الأحكام الفرعية التي نجدها مفصلة في مختلف كتب الفقه المالكي.

والشيء الوحيد الذي ينقصنا في الوقت الحاضر، وأرى أنه من واجب علماء المغرب بصفة خاصة هو ربط الأحكام الفرعية في الفقه المالكي بأصولها الإسلامية في الكتاب والسنة. وهذا من صميم التفقه في الدين، الذي يقول فيه ﷺ : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين».[17] وهو عمل في عمقه يخدم الفقه المالكي بصفة خاصة، ويخدم الإسلام بصفة عامة، وربما يفهم من ذلك الذين يدعون لترك المذاهب الفقهية أن التمسك بها تمسك بالكتاب والسنة، وهو تمسك بالأصولية من منابعها ومصادرها الصافية النقية.

ولعل هذا ما كان يفكر فيه أمير المومنين وبتصوره وهو يقول : **«إن المغرب بالتأكيد إحدى الدول الأكثر أصولية، لأنه لم يحتفظ إلا بالمذهب المالكي وحده، الذي جاء مباشرة من المدينة المنورة حيث عاش رسول الله ﷺ، فإذا كانت هناك أصولية فإن المغرب إذن هو البلد الأصولي وهو الأكثر أصولية».**

وجدة ـ أحمد أفزاز

17) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المسلم باب يرد الله به خيرا يفقهه في الدين.



للدكتور مولاي إدريس العلوي العبدلاوي
رئيس جامعة القرويين

تتجدد أيامنا وأمانينا وتستعيد شبابها وفتوتها كلما هل علينا عيد العرش المجيد، فيتجدد معها الماضي السعيد بكل مفاخره وأمجاده، وهو يتردد على الشفاه في الملتقيات والمنتديات، وتتجدد معها آمال الحاضر والمستقبل بكل تطلعات أجيالنا ورغباته، تتجدد أصالتنا الخالدة فيما يجد من عمران وثقافة وفن، وفيما يتوطد من علائق وروابط بداخل بلادنا أو بخارجها. بالأفراد أو بالجماعات إنسانية كانت أم اجتماعية أصلها ثابت وفرعها في السماء. كلما هل علينا عيد العرش المجيد تجددت آمال الغد الباسم وارتسمت من جديد خضراء يانعة، تفوح فتوة وأصالة، تعطر الآفاق، وتحمل في ثناياها عطر الخير والماء والعطاء.

في مثل هذا العيد تحققت مشاريع ومشاريع وأصبحت أكاليل يزهو بها مجدنا الشامخ.

في مثل هذا العيد سطرت الأقلام بمداد الفخار والصدق أنبل المواقف وأروع البطولات التي شهدها مغرب الشباب، مغرب الأصالة والتجديد، مغرب الديمقراطية والوطنية الحقة.

في مثل هذا العيد السعيد، وفي مثل هذا اليوم المشهود من تاريخ المغاربة تقف جميعا وقفة وفاء وولاء، وقفة إجلال وإكبار للأدوار والمهام الجسيمة التي اضطلع وما فتئ يضطلع بها جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله على مستويات عديدة تتمثل فيها العبقرية الفذة التي أوتيها جلالته والتي هي في الواقع، نتاج وكفاح متواصل وثقافة عميقة، وذكاء متوقد، وجهاد مستمر، وصبر دؤوب على مواجهة المحن والملمات بإيمان كبير، وثقة في الله، وتمسك عميق بالمسؤولية وواجبات الأمانة وحقوق الرسالة.

ذلك أنه عندما تبدو بشائر طلائع الذكرى تلوح تقتضي بوادرها المشرقة من الفكر الوطني أن يغوص في أعماق التاريخ المغربي سابرا أغواره، مكتشفا أسراره ودرره، وأن يتجول بالخصوص في أطوار تاريخ العرش العلوي المجيد منذ النشأة ومرورا بكل المعارك والمواقف والأحداث والوقائع التي عاشها المغرب في ظلال هذا العرش المكافح الذي ليس كالعروش لأنه ينفرد بالعبقرية المبدعة، وبالنضالية المثالية، وبالاستمرارية في الجهاد المقدس من أجل بناء أمجاد الشخصية المغربية.

ولأنه ميثاق ديني وروحي وعقائدي، ولأنه قائم على رباط البيعة والولاء بين الملك والشعب في علاقة محبة صوفية وروحية، صنعت معارك الاستقلال والتحرر والتشييد والبناء، وصنعت عطاءات الخير والبركات.

ولأنه شعار الاستمرار والقوة والتحدي والصمود، ورمز العمل المتواصل من أجل اقرار العدل والحق وخدمة مصالح الرعية والبلاد.

وإذا ما ذكر الذاكرون اسم هذا العرش العلوي المجيد واسم هذا البلد العريق المتميز بشخصيته الأصيلة، وقيمه المثلى، وحضارته الغنية، وتحدياته الحكيمة، ذكروا مرآة الشخصية المغربية المجسد للفكر والسلوك المغربيين، الحريص على استمرار الأصالة المغربية في شتى المناحي جلالة الحسن الثاني المحفوظ بالسبع المثاني، فلقد عمل حفظه الله منذ تولية قيادة هذه الأمة على خدمة الشعب ورعاية حقوق المواطنين صغيرهم وكبيرهم، محافظا على المكاسب القومية، معاهدا على بذل أقصى جهده لتحقيق تقدم هذه الأمة ورقائها، وما يفتأ جلالته في كل مناسبة، يجدد العهد، ويذكى الطموح، ويوقد العزائم والرغبات، ويحث على ضرورة التماسك والتلاحم من أجل الاستمرار في البناء، بناء المغرب الموحد، وكسب الرهان في كل ميدان، والتزم جلالته بالعهد الذي أعطاه، وافنى الشعب روحه وطاقاته في خدمة المساعي الحميدة التي خطط لها مليكه المفدى، فكان التلاحم بين العرش والشعب صورة من صور الأصالة المغربية، وإذا كان هذا الاحتفال العظيم بالعرش يأتي كل ذكرى عيد العرش قويا جديدا رائعا، فإنما هو في الحقيقة احتفال وتمجيد بصاحب العرش جلالة الملك الحسن الثاني المجدد حفظه الله ونصره الذي أسدى لهذه الأمة كل خير في دينها ودنياها، وبوأها مقاما كريما بين الأمم والشعوب. وتمجيد للتاريخ الحافل بالمفاخر والمكارم تاريخ دولة ملوكنا العلويين الأشاوس الأماجد الذين بذلوا الجهود المضنية في سبيل تحيق وحدة البلاد والحفاظ على سيادتها وتجديد مارث من حبل الدين وحماية الكيان وضمان الاستقرار والأمان.

ولقد كتب الله للعرش العلوي المجيد الرسوخ والتمكين والاستقرار والاستمرار لأنه عرش قائم على أساس البيعة والبيعة ميثاق ديني وروحي وعقائدي.

لذلك كان من مقومات هذا العرش التمسك بالكتاب والسنة، ومن أهداف رسالته الخالدة المحافظة على الشريعة الإسلامية وتثبيت دعائمها، ونشر تعاليمها وقيمها السامية على مر الحقب والعصور.

ويكفي دليلا على ذلك عناية ملوك الدولة العلوية ورجالاتها بالكتاب والسنة تعلما وتعليما وعملا حيث لم يكتب لدولة من دول المغرب غيرها من طول العمر واذعان أهل المغرب وتعلقهم وإخلاصهم مثل ما كتب لها.

وهكذا واحتفاء بهذه الذكرى الوطنية الغالية التي ستصادف هذه السنة مرور مائتي وألف عام على تأسيس الدولة المغربية العظيمة والعرش المغربي العتيد فقد اخترت تناول جانب هام من جوانب نضال هذه الدولة المجيدة من خلال كفاح ملوكها من أجل التمسك بالكتاب والسنة النبوية.

☆ ☆ ☆

لما نضجت البشرية، وحصفت بما مر بها من تجارب طويلة وما أنزل عليها من رسالات هادية، وأنست النماء منها النضج والتوفيق والرشد، بعث الله إليها خاتم النبيئين سيدنا محمد ﷺ وبيده هبة ربانية خالدة، منحها المولى سبحانه لعباده، ووهبها لخلقه لعلهم يرشدون.

فكانت تلك الهبة الخالدة، كتاب الله الذي كان آخر الكتب التي أنزلت على الرسل عليهم السلام، والذي كان حدثا عظيما فذا في تاريخ البشرية والإنسانية، ونقطة تحول وانبعاث إلى حياة جديدة راضية مطمئنة يعتمد فيها الناس على أنفسهم في هدي ما أنزل عليهم من ربهم.

وقد واجه المسلمون الأولون في صدر الإسلام، وفجر حياته، مشاكل متعددة، وأحداثا متنوعة لأنماط الحياة

المتجدد بعد وفاة النبي عليه السلام، الذي كان مرجعهم إذا أعضل بهم أمر، وملاذهم إذا استغلقت عليهم وجوه الرأي والصواب.

ولكن النبي عليه السلام ترك أصحابه على المحجة البيضاء كما خلف لهم تراثا غاليا ثمينا غزيرا فيه المرتع الخصب للعقول النيرة الراجحة والقلوب المومنة الواعية.

شرف علم الحديث :

ومعلوم أن علماء المسلمين أجمعوا على أن الحديث النبوي يأتي في طليعة علوم الشريعة الغراء باعتباره بيانا وتفسيرا للتنزيل الحكيم الذي يعلو ولا يعلى عليه... لذلك حظي الحديث الشريف باعتنائهم الفائق، حفظا ورواية ودراية... ضربوا في ذلك أمثلة رائعة لا نظير لها في تاريخ الأديان، ولا سيما في الصدر الأول يوم كانوا يرون الاشتغال بالحديث أعلى درجات العلم والمشتغلين به أشرف العلماء حيث كانوا يطلقون عليه «العلم» وعلى رجاله «أهل العلم» إطلاقا حقيقيا، لأن المتبحر في علم السنة كفيل بالخوض فيا سواه إذ هو علم النبوة المحيط بالعلوم. لذلك اتجهت همة العلماء وأولي الأمر في مختلف العصور إلى التمسك بأهداب السنة وإحياء مآثر الحديث والمحافظة على تقاليده وأدواته ومدارسة أمهاته، وحفظ متونه وأسانيده حتى لا تذهب الرواية وينقطع السند وينمحي العلم بذهاب أهله. والمملكة المغربية، لا تقل عزما وإرادة في التشبت بعقيدة الإسلام، والأخذ بحزم في تطبيق مبادئه السامية يشهد بذلك تاريخها المجيد، ومعالم حضارتها - قديما وحديثا. وإن الدارس المتعمق للتاريخ المغربي ليجد أنه بفضل ما آتاه الله من قيادة حكيمة رشيدة، في شتى ميادين الحضارة والعمران، وما حباه به من نعمة العلم والعلماء الأفذاذ المبرزين، استطاع أن يحافظ على ثقافة وطنية أصيلة، راسخة الجذور والمقومات. وأمكنه بحكم ماله من حصانة ذاتية مستمدة من هذه الأصالة أن يجابه شتى التحديات الفكرية الأجنبية التي واجهته على مر العصور. وأن يؤكد ذاتيته في معترك الثقافات والحضارات المختلفة. وأن يبرز شخصيته على هذا الصعيد، ناصعة الملامح، غنية بدلالاتها، وما تنم عنه من إيحاءات خلاقة مبدعة وهكذا واستمرارا لتأكيد قيمة الشخصية المغربية وتعميق أصالتها يقف التاريخ المغربي وقفة إكبار وإجلال أمام عظمة الدولة العلوية الشريفة، التي يحمل اليوم مشعلها الساطع، ويجسم مجدها الرائع ويحقق أملها الواسع جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأطال عمره. سليل دوحتها العالية. وأن من جميل مآثرات هذه الدولة العظيمة، وكريم مفاخرها، ما دأب عليه حفظه الله ودأب عليه أجداده، من بذل محمود العناية بالثقافة والعلم، وما سار عليه من نهج رشيد في إذكاء شعلة الفكر، وإغناء رصيده، وما أولاه حفظه الله من موصول الحدب والرعاية لأهل العلم وأعلام المعرفة،شحذا لهممهم على الإسهام في إغناء الثقافة بالجيد المفيد من الأعمال واستنداء لمواهبهم وقرائحهم كي لا تني عن موصول العطاء في هذا المضار.

جيش البخاري :

وفي عهد الملوك العلويين، برزت ظاهرة كان لها أثرها البالغ في المحافظة على علم الحديث في هاته الديار... ذلك أن الدولة العلوية - الرشيدية والاسماعيلية - منذ أن استوت على العرش المغربي احتبلت بالحديث، وتمسكت بأهداب السنة واتخذت لها من صحيح البخاري شعارا ودثارا، معلنة أنها تعمل تحت شعاره، وتلتزم أوامره، وتجتنب نواهيه، كما اتخذته وردا يسرد في كل مناسبة ويدرس بصفة رسمية خلال الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان.

ومبدأ ذلك على ما أثبته المؤرخون هو أن المولى اسماعيل فخر الدولة العلوية، وعيسوبها الأكبر، لما جمع العبيد من أطراف المغرب وكون منهم جيشا نظاميا بجانب جيوشه النظامية الأخرى وقربهم وجعل منهم حراسه الأقربين... جمع قوادهم وأعيانهم وأحضر نسخة من صحيح

البخاري وقال لهم «أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله ﷺ وشرعه المجموع في هذا الكتاب، فكل ما أمر به نفعله، وكل ما نهى عنه نتركه، وعليه نقاتل... فعاهدوه على ذلك، وأمرهم بالاحتفاظ بتلك النسخة وأن يحملوها حال ركوبهم ويقدموها أمام حروبهم كتابوت بني اسرائيل.

فمنذ ذلك اليوم سمي ذلك الجيش بجيش البخاري - أو البواخرة وظل ذلك التابوت المحتوي نسخة البخاري المزين بأجمل الحلل يحمل في صحفة بهية على فرس كامل الأدوات، يسير في الموكب السلطاني في الأسفار والرحلات محوطا بالعلم النبوي الذي يحمله الملوك في أسفارهم وبإعلام جيش البخاري كحراس له تشريفا له وتعظيما... ويأتي ترتيبه ومكانه المرموق خلف السلطان لا يفصله عنه إلا الحاجب... وقد ظلت هذه العادة متبعة في المواكب السلطانية طيلة القرون الماضية إلى قريب من هذا العهد... وكان قد عهد أخيرا بحفظ النسخة في أوعيتها الحريرية المذهبة إلى الفرقة المعروفة «بالفرايكية» - أصحاب الفراش - فهؤلاء هم الذين يسهرون أخيرا عليها حسب الطريقة المذكورة في حالة الركوب... وفي حالة النزول يضعونها خلف فراش السلطان في قبته الملوكية... أي في أعز مكان وأقربه إليه... مما يدل على المكانة السامية التي يحظى بها الحديث الشريف في الدولة العلوية المنيفة.

مجالس الحديث السلطانية

وفي نفس الوقت كان سلاطيننا المبجلون، يحضون العلماء على مدارسة كتب الحديث عامة، والبخاري خاصة طيلة أيام السنة في الدروس الخاصة والعامة في المساجد الهامة... ويخصون رمضان والشهرين قبله، بسرد البخاري وغيره... ويروون أن بعض الملوك كالمولى رشيد والمولى اسماعيل ربما حضروا بعض الدروس العامة التي يلقيها كبار الأساتذة في جامع القرويين...

ثم إنهم سنوا السنة الحميدة التي كادوا أن ينفردوا بها بين ملوك الإسلام، وهي هذه المجالس الحديثية التي يعقدونها في معيتهم ظعنا وإقامة... خلال الأشهر الثلاثة على طريقة خاصة... يدعون إليها كبار العلماء، من عموم المملكة فيفدون عليهم مزودين مكرمين...

وطريقتهم في ذلك أنه إذا أظلتهم الشهور الثلاثة، صدرت المكتوبات السلطانية، إلى قضاة المملكة، وعمال الأقاليم وأمنائها من الحاجب السلطاني، ليختاروا العلماء الأجلاء، ويوجهوهم معززين إلى الحضرة الشريفة محفوفين بكل عناية في الذهاب والأياب... فإذا وصلوا إلى الحضرة عينت لهم الدور التي ينزلون فيها، والمراكب التي يستعملونها، وتجري عليهم النفقة الكافية.

وإذا استهل شهر رجب، افتتحت الدراسة في محفل رهيب وانتظمت في أيام معلومة - مساء غالبا - على نظام معلوم وبرنامج مقرر... وتكون رئاسة الجلسات للسلطان نفسه... إلا أنه يعين لكل دورة العالم المقرر، والعالم السارد - أو جملة سراد يتناوبون - والسارد يقتصر على سرد الحديث بصوت منغم وفي استرسال... والعالم المقرر يتولى التعليق والتفسير لبعض الأحاديث التي يشير جلالة السلطان إلى تناولها بالشرح ومزيد بيان... كما أن لبقية العلماء الحاضرين حق إبداء ما ظهر لهم من الأبحاث والمناقشات...

والعادة المتبعة في ذلك، أن جلالة السلطان يجلس في صدر المجلس، يحف به رجال دولته المقربون، وأمامه يصطف العلماء في ترتيب مخصوص... وتوضع أمام جلالته الساعة المخزنية، وبرنامج الدروس المقررة، ونسخة البخاري الملوكية، وإذا فتح جلالته النسخة شرع السارد في قراءة الباب المعين في البرنامج... ويسترسل ولا يتوقف وربما يتناوبه جملة سراد... حتى إذا أراد جلالته تقرير حديث... فإنه يطوي الكتاب ويرفع رأسه لجهة المقرر آذنا له في تقرير الحديث المراد شرحه... فحينئذ يشرع المقرر في إلقاء ما عنده في الموضوع فإذا أصاب وسلم له العلماء

الحاضرون فتح السلطان نسخته من جديد وتمادى في سرده... وهكذا إلى انتهاء النصاب المعين الذي ربما استغرق ساعتين فأكثر... غير أن المناقشة قد تطول في بعض الأحيان فيشير جلالته إلى تأجيل المسألة إلى جلسة أخرى أو يعهد التحقيق فيها إلى بعض الحاضرين...

والأنصبة التي تقرأ محصورة في البرنامج الموضوع لا يزاد فيها ولا ينقص، وأيام الدراسة كذلك معلومة لا يكون منها الخميس ولا - الجمعة... وأحيانا يقتصر على بعض أيام الأسبوع، من ذلك أن عمل السلطان الحسن الأول استقر على ست وثلاثين درسا خلال الأشهر الثلاثة مدة تنيف على عشر سنين، وكان لا يعطل الدراسة سفرا ولا حضرا على كثرة أسفاره... قال ابن زيدان : وعلى هذا كان العمل جاريا من لدن الدولة الرشيدية إلى أواسط الدولة اليوسفية... ثم قال وقد وقع الاقتصار في الدولة المحمدية (محمد الخامس رضوان الله عليه) على القراءة في خصوص شهر رمضان... عند صلاة الظهر... وتنتهي في ليلة السابع والعشرين. وهو عمل جلالة ملكنا الهمام الحسن الثاني أعز الله أمره الذي يخص رمضان بكامل العناية، ويحافظ على إلقاء الدروس الدينية في لياليه بعد صلاة العشاء... ولا سيما في العشر الأوائل منه الذي تصادف ذكرى الترحم على روح فقيد الأمة جلالة والده المنعم مولانا محمد الخامس رضوان الله عليه...

☆ ☆ ☆

وقد نشأ الإمام المنقذ محرر المغرب محمد الخامس طيب الله ثراه، وجعل الجنة منزله ومثواه على محبة العلم وأهله، وكان فصيح اللسان إذا خطب ذكر السامعين بسحبان، لا يتلعثم ولا يتلجلج، محافظا على الصلوات، كامل الإيمان، ناصرا للكتاب والسنة، محاربا للبدع. وكان عالما فقيها. يتولى صلاة الجمعة إماما وخطيبا في بعض الأحيان، كما فعل في الجامع الكبير بطنجة سنة 1947 م.

☆ ☆ ☆

لقد كان الاختلاف والنزاع بين هذا الملك العظيم قدس الله روحه وبين الاستعمار الفرنسي قد بلغ ذروته. وكان المستعمرون يبذلون كل جهد في الحيلولة بينه وبين الاتصال بالمتلهف إلى رؤيته، وسماع حديثه، والاهتداء بإرشاده، فقصد الإمام محمد الخامس أن يوجه إلى الاستعمار الطعنة الأولى التي تنذره بدنو أجله، فتوجه إلى طنجة، وأمر رجاله أن يهيئوا ما يلزم في الجامع الكبير لقيامه بصلاة الجمعة إماما وخطيبا، دون أن يشعر الفرنسيون بذلك، فتلطف أولئك الرجال الأمناء، حتى هيأوا كل شيء من مكبر الصوت، وجمع الناس سرا فلم يشعروا إلا والملك يرقى المنبر، فكاد الناس يطيرون فرحا وسرورا برؤية محياه الكريم، وشاع الخبر في المدينة وضواحيها فجاء الناس يهرعون، وضاق المسجد مع سعته، فلم يتسع إلا للقليل منهم، فخطب خطبة بليغة، استبشر بها الناس واغتبطوا كل الاغتباط.

وقد كان التفسير في المغرب مهجورا، وكان العامة يزعمون أنه إذا أعلن تفسير القرآن يموت السلطان. فقد أورد شيخ الإسلام العلامة المصلح سيدي محمد بن العربي العلوي رحمه الله أنه كان في مجلس جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله وكان بعض من ينسب إلى العلم حاضرا فتحدثوا في تفسير القرآن فقال بعضهم إذا فسر القرآن مات السلطان، يريد بذلك التأثير على الملك وكان في أوائل شبابه، فقال له رحمه الله : إذا فسر القرآن يحيا السلطان ويموت الشيطان.

☆ ☆ ☆

واستمرارا لهذه المسيرة التاريخية الظافرة يحتل عصرنا الذهبي أعلى درجات الرقي، وأسمى مراتب الكمال، في التقدم الحضاري والازدهار العلمي والفكري، على يد حامل مشعل هذا التقدم، جلالة الملك الحسن الثاني العظيم، وارث سر والده المنعم.

ومن المعلوم أن جلالته كان وزيرا لوالده الكريم، وشريكا له في جهاده، ولا أريد بالوزير هنا، الاصطلاح

السياسي، وإنما أريد به المعنى الذي جاء في كتاب الله حكاية عن موسى عليه السلام في قوله في دعائه «واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي، أشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيرا، ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا بصيرا. قال قد أتيت سؤلك يا موسى».

فقد نشأ جلالة الحسن الثاني نشأة طيبة مباركة، وكان قرة عين لوالده، وكان محل عنايته فأحسن تربيته وتنشئته، وكان يؤهله لحمل أعباء الخلافة بعده، ويتوسم فيه أن يكون خير خلف، ودعاؤه له، وثناؤه عليه في الغيب والشهادة. من الأخبار المتواترة المسجلة في الإذاعات والصحف التي يستوي في العلم بها الخاصة والعامة، وقد استجاب الله دعاءه، وبلغه مناه، فأدرك جلالة الحسن الثاني من العلوم والأعمال الجليلة وحسن السياسة، والتلطف في حل المشاكل، وصدق العزم، وقوة الإرادة، وهو لا يزال في طور الشباب، أطال الله بقاءه، وأدام عزه وارتقاءه، ما بهر العقول، وقرت به عيون الأصدقاء، وشرق به الاعداء.

أما محبته للعلم والأدب، فحدث عن البحر ولا حرج، وحسبك أنه لا يوجد في العصر الحاضر بين ملوك العرب ورؤسائهم من يدانيه في الفصاحة والبلاغة، فله من الخطب الرنانة ما يشنف الاسماع ويبلغ الغاية في الابداع، وعنايته بالدروس والمجالس العلمية، معروفة في المشارق والمغارب، لا يطمع أحد من الملوك والرؤساء أن يجاريه في ذلك.

ولنبدأ معه المسيرة، منذ أن ولاه الله أمر هذه الأمة، واختاره لقيادتها، والسير بها في مدارج الكمال، وقد أحببت في هذه المناسبة أن أتحدث عن بعض جهوده وأعماله في هذا الميدان، تدليلا على ما قلت، وتمثيلا لما رميت. ملخصا ذلك في النقط الآتية :

أولا : الدستور والإسلام :

لم يكد الحسن الثاني يتسلم مقاليد الحكم، حتى بادر باتخاذ دستور للبلاد، ينظم ممارسة السلطة، ويشرك الشعب في الحكم، وكان أول ما افتتح به الدستور، هو النص على أن المملكة المغربية دولة إسلامية، كما نص الدستور، على أن الإسلام دين الدولة، تأكيدا لواقعنا الحي، وإقرارا وتسجيلا للحقيقة الأزلية التي اختارها الله لصلاح خلقه، حينما قرر أن الدين عند الله الإسلام، ولعل البعض قد يعجب من اعتبار، الإسلام دين الدولة في الدستور، ميزة مغربية وريادة إسلامية، ولكن الدارسين للقانون الدستوري في البلاد العربية. والمطلعين على دساتيرها وقوانينها، يجدون أغلب تلك الدساتير تفقد هذه المزية، إذ أن أغلب واضعي دساتيرها لم يجدوا الشجاعة لإقرار هذا الفصل وهذا النص، ذلك أن دساتير بعض الدول لم ينص على دين الدولة لا عتبار أو آخر، وبعضها اكتفى باعتبار الإسلام أحد مصادر التشريع، وهو اجحاف كبير بحق المسلمين، وغمط لحقيقة شعوبنا المسلمة، لا يكاد يغير من الحقيقة القائمة شيئا.

أما عندنا والحمد لله فلم يشذ دستور من دساتيرنا، عن التشبث بهويتنا، والتنصيص على إسلامية الدولة والنظام، وطبعهما بطابعه الخاص، وآية ذلك أننا الدولة الإسلامية الوحيدة التي سمى دستورها ملك البلاد «أمير المؤمنين» وهو لقب إسلامي كان أول من سمي به الخليفة عمر الفاروق وأحياه المغرب وحافظ عليه بكل مظاهره واعتباراته.

ثانيا : المأثرة الخالدة «مصحف الحسن الثاني» :

ونظرا لاهتمام صاحب الجلالة البالغ وعنايته الخاصة بكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتلبية للرغبة الملكية السامية في إصدار مصحف كريم، يحمل اسم الجلالة الشريفة وجهت العناية، لإنجاز هذا المشروع الذي عكفت عليه لجنة من الخبراء والفنيين، حتى برز هذا المصحف في حلة أنيقة تليق بكتاب الله، وحمل هذا المصحف الشريف اسم «مصحف الحسن الثاني»

ليضيف مأثرة جليلة إلى المآثر الخالدة التي لمولانا أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين.

ثالثا : الدروس الحسنية :

تعودنا في شهر رمضان وهو خير الشهور، أن نتعرض لحياة تتماسك وتتجاوب في المبدأ والغاية، وأن نتلقى فيه نسيما كنسيم الصبا، وأن نعيش في جو تتقبله الأمانة، وترقبه السعادة، كان ذلك بحكم طبيعة الزمان وشريعة رمضان، ثم تزايد عندما أحسن عاهل البلاد الاختيار. وآثر إيقاظ سنة من سنن هذه الدار، كانت قد نامت بعد أن نمت على عهد أسلافه المنعمين الأبرار، وضاعت في وضعها وطبعها ما كان يعقد من الحلقات أيام الازدهار. تلك سنة الدروس الحسنية المبعوثة بمالها من منهج سواء متبع، وبما فيها من انتفاع عام مطلق. تعتبر بحق من أغنى الدراسات الإسلامية وأعمقها، ومن أقوى الوسائل وانفعها، لتوجيه الدعوة بمناسبة الوقت الذي ابتدأت فيه هذه الدعوة.

رابعا : دار الحديث الحسنية :

ان جلالة الملك الحسن الثاني مولع بإحياء المآثر الإسلامية وبالحض على التمسك بأهداب الشريعة. ولما رأى حفظه الله، بثاقب بصره البعيد أن همم الطلبة أخذت تتحول عن الثقافة الإسلامية إلى الثقافة العصرية العاتية التي أصبحت تتحكم في توجيه الشباب. التوجيه المدني البحت. وهمم العلماء أخذت تقصر عن بلوغ شأو العلماء الأقدمين في مضمار علوم الحديث وما إليها. أمر جلالته أثناء رمضان عام 1383 موافق سنة 1964 بتأسيس دار الحديث الحسنية. على تقوى من الله ورضوان. وشرفها باسمه الكريم. تحقيقا لأمنية عزيزة عليه. وشعورا منه بالدور العظيم والرائد الذي قامت به جامعة القرويين طوال تاريخ بلادنا. مما جعلها وجه المغرب المشرق وعنوان حضارته ومظهر كماله تتكفل بتخريج محدثين يحافظون على تقاليد هذا الفن الرفيع ويتحلون برونقه وبهائه. ويحفظون متون الأحاديث وأسانيدها رواية ودراية.

خامسا : المسيرة الخضراء :

لقد كانت سنة 1975 فتحا في تاريخ المغرب والمسلمين وذلك عندما دعا الحسن الثاني شعبه إلى مسيرة خضراء لتحرير الصحراء بالطرق السلمية كانت طريق الكرامة والنصر والاعتزاز بمغربيتنا وتحقيق وحدتنا الوطنية.

لقد كانت المسيرة زحفا مقدسا. لم يشهد له التاريخ مثيلا، خلقت مغربا جديدا في حدوده وسياسته وسلوكه الدولي، فقد كان قوامها الإيمان، والتضحية. والجهاد والتطوع والتعبئة والتنظيم.

وعندما قام المغاربة بمسيرتهم الخضراء بقيادة ملكهم رافعين كتاب الله بأيديهم. إنما صدروا عن رأي الإسلام وسنة الإسلام. وتوجيهات الإسلام، الذي عرف طوال تاريخه المجيد بأنه دين سلم ومسالمة. وأن المسلمين لم يلجأوا إلى الحرب إلا اضطرارا. وفي حالة الدفاع عن النفس. وعندما تنعدم الوسائل السلمية. أو لا يبقى لها جدوى وهذا تاريخ انتشار الدعوة الإسلامية شاهد قائم. بأن الحرب في الإسلام طارئة عارفة. وأن السلم قاعدة دائمة.

ولقد جاءت صلاة الشكر التي أدتها جموع المسيرة الزاحفة، بمجرد ما وطئت أقدامهم أرض الصحراء. فتحا كريما وإعلانا مبينا، بأن الشعب المغربي شعب مسلم، يتأسى برسوله وبنبيه. سنته وتعاليمه.

وإذا الحسن بدا فاسجد له
فصلاة الشكر فرض يا أخي

وكانت المسيرة الخضراء مقرونة بالمسيرة القرآنية التي دعا إليها جلالته خلال شهر رمضان والتي تتلقى نفحاتها الطيبة من هذا الشهر المبارك.

سادسا : المجالس العلمية :

من هذه الخطوات الرائعة. والجهود الكريمة. في سبيل إحياء القيم الإسلامية. والعودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ومزيد التعلق بها احتفل الحسن الثاني بمطلع

القرن الجديد واستقبله بإصدار ظهير جديد وتنظيم المجالس العلمية وتحديد اختصاصها.

1 - بإحياء كراسي الوعظ والإرشاد والتثقيف الشعبي بالمساجد والسهر على سيرها.

2 - وتوعية الفئات الشعبية بمقومات الأمة الروحية والأخلاقية والتاريخية. وذلك بتنظيم محاضرات وندوات ولقاءات تربوية.

3 - والاسهام في الابقاء على وحدة البلاد. في العقيدة والمذهب في إطار التمسك بكتاب الله وسنةرسوله.

4 - والعمل على تنفيذ توجيهات المجلس العلمي الأعلى الذي يتولى رئاسته بنفسه.

وعندما قام جلالة الملك بتعيين أعضاء تلك المجالس ورؤسائها وجههم إلى ما ينبغي لهم عمله، ودلهم على الخطة السديدة التي يلتزمونها ويتوخونها، وقد كان في توجيهاته وتنبيهاته مجددا ورائدا، رمى فيها إلى إشعار الرؤساء والأعضاء، إلى أنه ينبغي لهم أن يبادروا إلى القيام بما أسند إليهم من عمل ومهام، ولكن بأسلوب العصر وحركته وتطوره وظروفه، حتى لا تصاب المجالس بالجمود والركود.

لقد أراد جلالة الملك بهذه الخطوة العظيمة، أن يستقبل المغرب القرن الهجري الجديد، بعزيمة قوية، وتوجه متوثب نحو دينه ومقوماته، ليجدد مجتمعه ويعود به إلى أصله كي تعود السيادة الكاملة للإسلام في جميع المجالات المغربية كعهده منذ القديم وطوال مراحل تاريخه الأصيل.

سابعا : الرسالة الحسنية في مطلع القرن الجديد :

من جميل المصادفات وبديع الموافقات، أن يصدر الحسن الأول في مطلع القرن السالف رسالته التوجيهية إلى الأمة وأن يوفق الله الحسن الثاني وينعم عليه، فيصدر في مطلع هذا القرن الخامس عشر الهجري رسالته الملكية إلى الأمة المغربية والإسلامية جمعاء.

ولذلك اعتبر أن من حظ هذا الجيل، ونعم الله عليه أن أتاح له أن يحيا ويطول عمره، ليشهد نهاية قرن مضى بما كان مليئا به من مكائد ومغامرات، ومطلع قرن أقبل بما يحمل من مفاجآت التحديات، وكل هذا يدعونا للتأمل والتدبر في الماضي القريب والبعيد، والنظر بتفاؤل وعمق والتطلع إلى آفاق المستقبل، واستشراف أحداثه، والعمل بما يعود على الإسلام وحياة المسلمين بكل خير.

لقد رسمت هذه الرسالة الملكية، الخطوط العريضة لمستقبل المسلمين وما ينبغي لهم عمله، والخطوات التي ينبغي أن يخطوها والجهود التي ينبغي أن يروموها ويسعوا في سبيلها من أجل بناء مجتمعهم من جديد على هدي قرآنا وسنة متأسين بالرسول، ومستلهمين سيرته الكريمة التي هي السلوك الأقوم الذي ينبغي أن تقوم عليه وأن تسير على هديه، ولذلك نبه جميع المسلمين، من باب النصح الواجب لهم، بأن عليهم أن يقدروا مسؤولياتهم جميعا، كل في حدود اختصاصه وواجبه، ومن أجل هذا وتقديرا لهذه المسؤولية، وجه رسالته إلى أبنائه المغاربة وإلى إخوانه المؤمنين في سائر بلاد الإسلام، باعتباره أميرا للمؤمنين وحامي الملة والدين، وقائدا من قادة المسلمين.

ثامنا : الملك العالم والحاكم العادل :

والملك الحسن الثاني بتواضعه الجميل، تواضع محمدي نبوي خالص، وصفاء سريرة هاشمية طيبة، وذكائه الألمعي، واستعداده الفكري، ومعرفته الواسعة، يتبوأ مقام العالم المتمكن، والمفكر الأمين الرصين الذي يربأ ولا يعبأ بسفاسف المعاني، ويعدل ولا ينزل عن علياء المعالي، وكفى شاهدا على ذلك دروسه الدينية القيمة المحكمة، التي كان لها الصدى الكبير في جميع المحافل والابهاء، سواء في الداخل أو الخارج والتي جمع فيها حفظه الله بين سمو العلم، وجلال العلماء، ونزاهة المصلحين الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب.

وعندما يتناول جلالته بالتفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والاستشهاد بأقوال العلماء وأساطين المفسرين فإنه حفظه الله يبلغ بذلك الشأو البعيد، تعينه على ذلك قريحة سمحة وحافظة قوية وبصيرة نيرة. وذوق سليم، وخصوبة الفكر، وعذوبة المنطق، وحب التجديد والابتكار.

ان المستمع إلى الأحاديث الدينية الجامعة لجلالة الملك وخطبه يوقن أن الله قد أكرمنا بالاستماع إلى ملك عالم والتلمذة على عالم ملك، ونتصور أن ابن رسول الله يشرح حديث جده رسول الله ﷺ ولا نملك إلا أن نقول ﴿**والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾ فنكتسب همة ونزداد يقينا بشرف الدعوة إلى الله عز وجل، والتبليغ عن رسول الله ﷺ، ونلمس بأيدينا مواطن عزتنا وأسباب مجدنا، ونصغي إلى تشخيص الداء ووصف الدواء من عالم ماهر، ونسترشد في فن الدعوة إلى الله، إلى ما ينبغي أن يكون عليه الداعي والأسلوب السهل الممتنع، والحجة الطاهرة، والقلب التقي يملي على اللسان الفصيح والعقل الذكي، ينتظم القضايا بمقدماتها الصحيحة ونتائجها الصادقة.

يأخذ المعاني من نص الألفاظ، ويفيض في شرح المادة اللغوية ويبدع في النطق الصحيح السليم، حتى لا تفوته شاذة ولا فاذة، مما قد يخفي على كثيرين من أهل الفن فإذا جاء بمعنى جديد نسبه إلى نفسه حفظه الله، بتواضع جم وأدب رفيع يسأل نفسه ثم يجيب كأنه يطلع على ما يخطر ببال السامعين من شبهات فيلاحق الشبهة بالجواب السديد ثم يخطو إلى الناحية الإيجابية.

(لا نريد أن نبني عملنا على محاربة البدعة، أريد أن نبني عملنا على توطيد السنة يقول جلالة الملك، ويزيد قائلا مخاطبا العلماء أناشدكم الله دائما أن تحاربوا السلبي بالإيجابي لأن السلبي يأتي وقت ينضب فيه الأنبوب، أما الإيجابي فإن منهله دائما معطاء ودائما موجود).

ألا فليهدأ بال الحيارى ـ فإن الله قد أكرمنا بقائد ملهم ماهر ولتقر عين رسول الله ﷺ في برزخه الشريف، فإن من أولاده ملكا عالما وحاكما عادلا، ووراءه شعب يستجيب ويطيع يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب.

تاسعا : الملك الحسن، رئيس لجنة القدس، ورئيس المؤتمر الإسلامي، ورئيس القمة العربية.

إن القضايا التي التف حول دراستها في كثير من الأحيان قادة العرب والمسلمين وزعمائهم كعقد ثمين كان صاحب الجلالة نصره الله تلك الجوهرة اللامعة التي تتوسطه إذ بفضل حسن تصرفاته في تذليل العقبات وتقريب وجهات النظر، وبفضل حنكته وحيويته ولباقته التي عرفها الجميع في شخص جلالته في العديد من اللقاءات والمؤتمرات التي أدارها ويديرها والتي طالما تولى رئاستها سواء في مؤتمر القمة العربية أو في لجنة القدس أو في المؤتمر الإسلامي.

وبفضل مساعيه الحميدة عمل جلالته على تسهيل المهمات أمام أي حل لمشاكل المسلمين ونصرة قضاياهم العادلة حيال ما يكتنف حقوقهم الإسلامية من انتهاكات وخروق واستفزازات وما يتكالب عليهم من أطماع ومؤامرات تحقيقا للمبدأ الإسلامي الخالد ألا وهو السلم والسلام، والاخوة والتعاطف، والكرامة الإنسانية.

ويعلم الجميع جهوده الطيبة المباركة أعزه الله في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية أنه لم يعمل ويخطط للبعث الإسلامي في وطنه الصغير فحسب بل دعا له وطبقه وحدد معالمه كوسيلة وطريق لإحياء أمته الإسلامية وبعث وجودها وكيانها.

وقد سجل التاريخ بمداد الفخر والاعجاب دعوته الكريمة لعقد أول مؤتمر للقمة الإسلامية بمدينة الرباط اثر العدوان الصهيوني على المسجد الأقصى «هذا المؤتمر الذي كان أول لبنة لقيام صحوة إسلامية تعيد للمسلمين قوة

رباطهم، ويستغلون في إطار التعاون والتنسيق والتشاور، والذي نشأت على إثره المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة لتكون ذلك الجدار الذي طلب جلالة الملك تشييده ليجتمع حوله المسلمون يحتمون به، ويمدون بعده جسور التعاون والتفاهم، وعلاقات المودة والصفاء، يقول جلالته حفظه الله : إنني أرى ولله الحمد أن تلك الشعلة التي شارك في نشرها كل أعضاء المؤتمر ابتداء من سنة 1969، لم تنطفئ بل زادت قوة وانتشارا ولنا اليقين بأن هذه السنة ستكون إن شاء الله سنة فتح وسلام وبركة على الأسرة الإسلامية وعلى الأسرة العربية، ويقينا أن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بما يحتويان عليه من أخلاق للمدنية وأخلاق للدولة وللجماعة البشرية وللمواطنين، وأن السنة المحمدية هي الإصلاح الطبيعي لحياتنا وتعايشنا مع العالم لأن الإسلام دين الجميع وعالمي ولأن الدعوة المحمدية لكل الشعوب في الحياة ولكل الأحيان...».

فبفضل هذه الخصال الحميدة العالية التي مكنت جلالته من تحمل الأمانة بشجاعة واقتدار، وبفضل ما حباه الله به من مزايا خلقية إسلامية يتحلى بها روحيا وعمليا جعلته يحتل من قلوب الجميع تلك المكانة السامية من المحبة والاعجاب والتقدير فاختاره قادة الدول الإسلامية رئيسا للمؤتمر الإسلامي كأبرز رواد التضامن الإسلامي في هذا العصر.

كما أجمعوا على اختيار جلالته رئيسا للجنة القدس اعترافا بما حققه جلالته من مكاسب لصالح القدس الشريف وكذا لصالح الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني البطل بل ولصالح الأمة العربية والإسلامية جمعاء ويكفي دليلا على ذلك رئاسة جلالته في مستهل سنة 1988 للجنة القدس والمكاسب التي ترتبت عنها، ويحق لنا نحن المغاربة أن نعتز بهذه المكاسب الجديدة الهادفة التي تعتبر غيضا من فيض، ولو استرسلنا في ذكرها وذكر مناقب جلالته في هذا الموضوع لما استوعبت عشرات الصفحات جملة وتفصيلا.

أن هذا النجاح الموفق المحقق، ما هو في الحقيقة إلا بفضل الجهود المبذولة المتواصلة لعاهلنا الكريم، وبفضل مساعيه الداعية إلى الوفاق والوئام. وتثبيث دعائم السلام وهذا ما تدل عليه أعماله العظيمة وخطاه السديدة، وخصاله الحميدة، وما يشهد به له القريب والبعيد.

عاشرا : مسجد الحسن الثاني المعلمة الخالدة

مهما قلت وأقول، ومهما كتبت وأكتب فإن اللسان يعجز، والقلم يجف عندما يحاول أن يتجرأ بالحديث عن جلالة الملك البحر الزاخر، والمعين الفائض، والمنهل العذب الصافي الذي لا ينضب، مهما كان الموضوع الذي يريد أن يرسمه منه، وكيف وأن ما أردته وأريده يتعلق بأصالته الإسلامية، وتربيته السامية، ونشأته الدينية وأن الحديث عن الحسن الثاني كرجل ملأ قلبه الإيمان وفتح الله بصيرته لا يمكن أن ينحصر في صفحات أو يحيط بكل الجوانب لأن الله ألهمه التوفيق والرشاد، وأنار سبيله بنور القرآن وأتاه الملك والحكمة وعلمه مما شاء فصدق فيه قوله تعالى : ﴿**يوتي الحكمة من يشاء ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا**﴾.

ويكفي دليلا على ما ذكرت واستقصيت من جوانب حياة جلالته الدينية وجهوده الإسلامية، ومواقفه وجهاده من أجل الدفاع عن حوزة الإسلام، ونشر تعاليمه، ورفع رايته، ومكرماته النبيلة لخير الإسلام وصالح المسلمين إن أقول مضيفا إلى مآثره الإسلامية الخالدة التي يقف التاريخ شاهدا على أصالتها وروعتها وجلالها، المعلمة الحضارية الحديثة التي تضاف إلى أهم الصروح العمرانية التي شيدها العباقرة من قادة البشرية العظام عبر مختلف العصور والاحقاب والأزمان في مناطق الحضارات الكبرى العريقة في العالم، تلكم هي معلمة مسجد الحسن الثاني العظيم الذي ينجز بفضل من الله وتوفيقه، وبتخطيط سديد موفق من جلالته حفظه الله، والذي سيحفظ في سجلات تاريخ هذا البلد الأمين العريق في المجد والعزة والحضارة صفحة

ناصعة مشرقة متألقة سيذكر فضلها أبناء هذا البلد بما أتاهم الله، كما سيذكر فضلها أحفادهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

مسجد الحسن الثاني العظيم تلك الحلقة الموصولة من حلقات الجهاد المستمر للعرش العلوي، وتلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء توتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ومن الفخر والاعتزاز ما يجعل البيان قاصرا عن التعبير عما تكنه الصدور ويختلج في جنباتها من تعظيم وشكر وتقدير لهذا العطاء الرباني وهذا الاكرام الحسني في العهد الحسني الزاهر الذي يتوالى ويتجدد عبر التاريخ رائعا ومدهشا ومثيرا للاعجاب الكبير، والمحبة والتعلق والتقدير، والتطلع للمزيد من العطايا والمكارم والمبرات التي لا تعد ولا تحصى ينعم في بحبوحتها رعايا هذا العرش المجيد الأوفياء لمغربيتهم وإسلامهم وعروبتهم وملكهم الساهر الأمين على شؤونهم الدينية والدنيوية، والحامي لمقدساتهم الإسلامية والوطنية. مصداقا لقول جلالته حفظه الله : «لقد كانت الملكية في الماضي البعيد، والماضي القريب حصن الإسلام ودرعه الواقي ولولا الملكية التي ذادت عن حرمات الإسلام جميع المخاطر وأقرت الالتزام بالمذهب المالكي لتغير مجرى تاريخ هذا الوطن ولأنهكت ساكنيه ومزقتهم التيارات المتضاربة. والنحل والمذاهب المتصارعة، وستظل الملكية المغربية بحول الله وعونه حاملة لواء الدفاع عن الإسلام وزعيمة صيانته وحمايته من جميع الشوائب والعوادي».

هذه لمحات عن نضال ملوك الدولة العلوية من أجل التمسك بالكتاب والسنة. قد لا تكون كافية ولكنها قد تساعد على تكوين فكرة وهذا هو المقصود من هذه العجالة. أما إيفاء موضوع مثل هذا حقه فإنه يحتاج إلى العديد من المحاضرات وإلى كتب مستقلة بذاتها.

ان العرش العلوي المجيد، هو الرباط المقدس بين الحب والقلب والملك والشعب، رباط راسخ مكين، وعهد وثيق متين، لا ينفصم عراه مدى التاريخ وعلى مر الحقب والعصور.

إن هذا العرش يرمز إلى عزة المغرب وأصالته ووحدته وسيادته التي حافظ عليها عبر القرون والأجيال مصانة مهابة، ترمز إلى نضاله المستميت من أجل إعلاء كلمته، وحماية مكاسبه، ترمز إلى الالتحام الدائم المستمر، والحب الخالص الصادق بين قائد محنك حكيم صاحب العرش المكين جلالة الحسن الثاني العظيم وشعب وفي أمين شعب المغرب الطيب العنصر الكريم. هذا الالتحام الصادق والترابط الوثيق بين العرش والشعب الذي يتجلى دائما وأبدا في مختلف المناسبات وفي شتى مواقف الشرف والبطولات. إذ بالعرش نجاهد ونقاتل ونكافح ونناضل، وندافع عن الوحدة الترابية، وبه نعتز ونفتخر، ونسود وننتصر، ونظفر ونتحرر وبه نحقق أحلامنا وأمانينا ونسير في ركب التحرر ظافرين، وبرباط الوحدة متمسكين منتصرين ولكل مظاهر النهضة والعمران بانين محققين.

لقد أنار قائدنا البلاد بمصابيح العلم والمعرفة حين أنشأ المؤسسات العلمية من مدارس وثانويات ومعاهد وكليات وجامعات يتخرج منها كل عام الأفواج تلو الأفواج وبذل من أجلها الغالي والنفيس ليجعل منها أطرا للبلاد ترتكز عليها نهضتها العلمية والعملية.

إن المتتبع لحياة مغربنا السياسية والاجتماعية والملاحظ لنهضتنا المباركة وتقدمنا المستمر متيقن أن حسن قيادة جلالته ورجاحة عقله، ورباطة جأشه، وقوة صموده وصدق طويته هي السر فيما نحققه من معجزات في شتى المناسبات وما نتغلب عليه من صعاب ونتخطاه من عقبات.فقد حول الظلام نورا، والخوف أمنا واطمئنانا واليأس ثقة وأملا.

انه الملك الملهم الذي تربع على عرش القلوب، كما تربع على عرش المغرب بالصدق والإخلاص والتضحية، فاستحق أن ينال رضاء ربه، وحب شعبه واستحق أن يكون الزعيم الظافر والقائد المسلم المنتصر. إذ دعا لبيت دعوته،

وإذا خاطب عانق خطابه القلوب والوجدان قبل أن تتلقاه الآذان.

إن عرش جلالته نجم علوي يرف في سماء بلادنا سنا وسناء، وقلوبنا أبدا به خافقات تراه ذخرا ونورا ورجاء، فله منا ما امتد العمر وطالت السنون أكبر الحب والإخلاص والوفاء فهو من سلالة الدوحة النبوية الشريفة، وقطب من أقطاب الدولة العلوية المنيفة، فهو شعار حياتنا، وعنوان سعادتنا بوجوده نستظل، وبنوره نهتدي وأننا في كل مناسبة سعيدة وذكرى عظيمة مجيدة، وفي كل وقت وحين نضرع إلى الله سبحانه وتعالى، وجل وعلا أن يحفظه لنا، ويديم أفراحه علينا ويمد في عمره لصالح الشعوب العربية والإسلامية والإنسانية جمعاء ولصالح أمتنا وشعبنا حتى نضيف في عهده الزاهر أمجادا إلى أمجاد، ونعيش في ظله الوارف أعيادا في أعياد. ونكون بعون الله دوما في طليعة الشعوب التي لا تعرف سوى المسيرة إلى الأمام بحب فيه وطيد، وعزم بهمته شديد، وليقر الله سبحانه وتعالى عين جلالته وأعيننا بولي عهد مملكتنا السعيدة صاحب السمو الملكي الأمير الأمجد سيدي محمد، وصنوه المحبوب مولاي رشيد الأرشد، وبكافة الانجال والأمراء الكرام دام عزهم وعلاهم. اللهم احفظ العرش العلوي المجيد، هذا العرش الذي جمع به الله شمل شعب، وصان به كيان دولة، وحفظ به دين أمة، هذا العرش الذي إذا ذكر التاريخ في المغرب فهو الذي سطر روائعه وملاحمه بأحرف ذهبية ناصعة، وإذ ذكرت الديمقراطية في المغرب فهو الذي أرسى دعائمها على أسس متينة ثابتة وإذا ذكرت الوطنية في المغرب فهو الذي حمل لواءها ومشعلها.

اللهم احفظ الآصرة الواصلة بين الملك والشعب واجعلها اللهم قوية لا تنحل ولا تنفصل، اللهم اجعل أمتنا متمسكة بكتابك المبين وسنة رسولك ونبيك الأمين، وتبث الإيمان في قلوبنا وقلوب المسلمين، ولا تحرمنا جميعا من فضل الخشية ونعمة التقوى.

اللهم احفظ ديننا الذي هو حصننا الحصين وملاذنا الركين ومكن في قلوبنا الاستمساك بكتاب الله العزيز وسنة نبيه، فما ضل من استمسك بهما ولا تاه من استنار بنورهما وسار على هديهما.

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾.

مراكش : ادريس العلوي العبدلاوي





العرش

للأستاذ أحمد مجيد بنجلون
المستشار القانوني بالديوان الملكي

يحل هذه السنة عيد العرش، فيصادف مرور مائتي وألف عام على تأسيس الدولة المغربية العظيمة التي فرضت وجودها عبر التاريخ، وشاركت في تقدم الإنسانية بعبقرية أبنائها، وإقدام ملوكها، وغرست أشجار المجد، وأنوار العرفان، ونشرت مبادئ الإسلام وأخلاق القرآن. وأعطت بسخاء من مجهودها الفكري، وإمكاناتها المادية، ما أهلها لتتبوأ المكانة المرموقة التي تحتلها بين أقطار العالم.

وإذا كان لخصائص الإنسان المغربي ومؤهلاته وطموحه وإيمانه، الدور الفعال في الملحمة التي خاضها شعبنا بإباء، وأمتنا بعزيمة وثبات، فإن الفضل الحاسم يرجع في ذلك، وقبل كل شيء، إلى النظام الذي ارتضاه المغرب لشعبه والحكم الذي اختاره لتنسيق أوضاعه، وتسيير شؤونه، وهو النظام الملكي الذي قبله عن طواعية، بل رحب به لمجرد وصول سبط النبي الأعظم، إدريس الأول، إلى البقاع المغربية.

لقد بايعه المغاربة كملك، ولكنهم التفوا حوله كذلك كمسلم، أرسى قوائم ملكه على الفضيلة، وبنى المؤسسات التي وحدت البلاد على التقوى، وشرّع في إطار القيم المثلى التي أمر ديننا الحنيف باحترامها، والانقياد إلى الموحي بها، فكانت منذ البداية تلك العروة الوثقى التي لم تعرف انفصاماً، وذلك التلاحم الذي لم يعرف انقطاعاً، والاستمرار الذي لم يزده توالي القرون إلا قوة ومناعة.

فانطلاقاً من ذلك اللقاء المقدس، شرع المغرب في تشييد حقيقته وتحقيق انطلاقته، وفرض وجوده، شعارُه التمسك بما يدفئ معنويته، ويوجه نضاله نحو أقوم السبل، مستنداً في ذلك على الاختيارات التي آثرها ملوكه الميامين الذين لم يألوا جهداً، ولم يبخلوا لابتفكيرهم، ولا بجهودهم، ولا بتوجيهاتهم، هدفهم الوحيد ومرماهم، تحقيق الغد الأفضل لشعب اختارهم بمحض إرادته، وقلدهم مسؤولية مستقبله، ووهبهم ثقة كاملة، منبعها المحبة والتقدير، وأساسها الاعتزاز والتحبيذ....

وهكذا لم يكن العرش مجرد وسيلة للحكم. أو نظاماً سليما تعيش على سننه الدولة المغربية بقدر ما كان - ولا زال - وسيبقى إن شاء الله - مدرسة خالدة، تلقي الأخلاق بالمثال الذي تعطيه، والوطنية بالتضحيات التي تتكبدها، وقواعد العلاقات البشرية بالنظم والقوانين التي تتخذها، والكرامة بالدفاع المستميت الذي تقوم به لصيانة البلاد

وحدودها، والتضامن بين أفراد الأمة بالمساواة التي تجعل منها قاعدة نشاطها ومبادراتها، والإقدام على المشاريع التي تحقق الغد المشرق فتكون في مستوى طموحنا، والتذكير المستمر بوجوب إيثار المصلحة العامة التي يتمتع الفرد بمفعولها ونتائجها...

إن العرش المغربي من الشعب وإلى الشعب، إنه كرس جميع طاقاته ومواهبه المستمدة من الإيمان، والمرتكزة على الأخلاق لخدمة الأمة، لمجرد ممارسته السلطة؛ ولتوحيد الصفوف، لا للهيمنة، ولحماية الفرد، لا لاستعباده، ولتوجيه المجتمع، لا لمراقبته، ولتنوير الرأي العام بالتكوين والمثال : فكانت عاقبة هذا المجهود الجبار، والاختيار المبارك أن عمت، بين القمة والقاعدة، رابطة متينة تحدت القرون والأجيال، وتحبيذا مشتركاً ومتبادلاً، وتكونت في نفوس المغاربة محبة العرش والتعلق بأهدابه إلى أن بلغ هذا التلاحم درجة ما يسميه الفلاسفة **«بنقل أو تحويل العواطف»** فأصبحوا يحبون العرش للعرش.

ولأمتنا المسلمة العريقة خاصيات تمتاز بها، كما أن للمفردات التي تستعملها معاني دقيقة تجد أسبابها في معطيات تاريخنا. فللبيعة معان تختلف باختلاف الأقطار والنظم السياسية، إلا أنها تكتسي بالمغرب مفهوماً خاصاً، ويكون تقديمها لملك المغرب وللجالس على عرشه مناسبة غالية للتعبير عن تحبيذ الأمة والتصريح بتعلقها، والإعلان عن شغفها وولائها. فتكون بذلك هي الطالبة لا المطلوبة، والراغبة في المثول أمام عاهل البلاد لتنعم بشرف مقابلته وتحظى برضاه ودعواته. ونفس المعنى هو الذي تكتسبه حفلات الولاء التي يسعى جميع المواطنين جادين ليكونوا من بين أعضاء الوفود التي تحج إلى عاصمة المملكة، قصد المشاركة فيها.

وهذا المناخ هو الذي هيمن على مسيرتنا عبر القرون، ولا أدل على ذلك من أن جميع الأسر الملكية التي تعاقبت على الحكم بالمغرب كان لها - ودون استثناء - نفس الشعار، ذلك الشعار الذي جاء في دستور المملكة بعبارة مختصرة الألفاظ، شاسعة المعاني : الله، الوطن، الملك. جميع الأسر الملكية، كان همها الأول الدفاع عن الإسلام في هذه البقاع، والاستماتة في سبيل الحفاظ على استقلال البلاد وسيادتها، وصيانة النظام الملكي الذي يعتبره جميع المغاربة رمز الدولة ورايتها الخفاقة ويتشبثون به عن إيمان، ويعتزون بوجوده. وقد أعربوا عن ذلك بصراحة وافتخار عندما أكدوا في دستور البلاد بأنه يمكن تعديل أو تغيير بنود ومبادئ وقواعد هذا الدستور إلا ما تعلق منها **«بالدين الإسلامي والنظام الملكي»**.

لقد أعطى التحام العرش والشعب نتائج في مستوى الأحداث، وجعل من المغرب قلعة منيعة لم تنل المحاولات الخارجية من صلابتها، وتكون الإنسان المغربي التكوين الصحيح الذي جعل منه الجندي الباسل في ساحة الوغى، والعالم المتطلع الذي شارك بتأليفه وبحثه وتأويله في المجهود الجماعي على كل المستويات، والمواطن الصالح الذي حقق الانطلاقة اللازمة لتفادي الضعف أو الركود، والمسلم الغيور على دينه، المعتز بأخلاقه ومبادئه، وكل هذا، بالإضافة إلى تلك المجموعة الغنية من التقاليد والأعراف التي نظمت الحياة، وعززت الاستقرار، ونسجت جو العلاقات بين الأفراد، وساهمت في نبذ الحلول السهلة والمواقف المشبوه فيها.

إن التقاليد المغربية استمدت روحها من الطموح المغربي واستندت على طبيعة أمتنا وارتكزت على أخلاقنا، ما هو قمين بمساعدتنا على تحقيق أمانينا في التعايش السليم، والتقدير المتبادل، والاحترام الذي يفرضه المدلول الصحيح للتضامن، والازدهار الذي يتوق إليه كل مجتمع صادق النوايا، والرقي الخلقي وليد الرفض لكل المساومات المبهمة، وقد تجلت هذه الأعراف كقواعد راسخة كونت دستوراً غير مكتوب يلزم الجميع ويلتزم به الجميع، كما أنها شملت جميع أوجه الحياة الوطنية وخصوصا منها الميدان السياسي.

لقد شاءت إرادة ملكنا الصالح أن توفر لأمتنا الشكورة دستوراً ذكر في مستهله بما سماه **بالمبادئ العامة وكلها مبادئ إسلامية صرف**، ثم نص على المؤسسات الأساسية لممارسة الحكم وكيفية قيامها بمهامها، ففرض على المسؤول واجهات، وضمن للمواطن حقوقاً وإمكانات، ووفر للأمة وسائل المشاركة والمراقبة، وذلك في اختيار وجيه لما يعزز استمرار الدولة واستقرار الأوضاع، في إطار ما يفرضه ديننا الحنيف السموح وما جعلت منه تقاليدنا فرائض وسننا.

فمن المبدأ، مثلا، **ان عرش المغرب وحقوقه الدستورية ينتقل بالوراثة إلى الولد الذكر الأكبر سنا من ذرية جلالة الملك، ثم إلى ابنه الأكبر سناً، وهكذا ما تعاقبوا... إلا أن الدستور أضاف بأنه يمكن لجلالة الملك أن يعين قيد حياته خلفاً له، ولداً آخر من أبنائه غير الولد الأكبر سناً...** هذا مثال حي ومقنع عن الروح الوطنية السامية المخلصة للأمة ومصالحها، تلك الروح المثالية التي أعرب عنها جلالة الملك الحسن الثاني عندما هيأ مشروع الدستور. وهو في الحقيقة مثال من بين عشرات الأمثلة التي يزخر بها دستور البلاد، وإننا لنجد في جميع النصوص القانونية التي تتوفر عليها أمتنا نفس الاهتمام والاتجاه.

فلا غرابة أن يحتفل المغرب - ملكاً وشعباً - بعيد العرش وأن يجعل من حلوله مناسبة للبهجة والشكر والامتنان. أما جيلنا فهو أحق من غيره بأن يعير هذه المناسبة أهمية قصوى لأنه يحتفل طبعاً بعيد العرش ولكنه أيضاً يحتفل بذكرى يوم جلوس جلالة الملك المحبوب الحسن الثاني العظيم، على عرش أسلافه المنعمين. إن جلالته أطال الله عمره، حقق لأمتنا أقصى أحلامها. فعشنا معه تلك الملحمة الخالدة التي رسم معالمها، وحقق أهدافها وقادنا إلى شاطئ العزة والنجاة.

إن العرش والشعب يكونان بالمغرب وحدة لاتقبل التجزئة، لأنه، إذا كان الملك في خدمة الشعب، فالشعب في خدمة ملكه بقلبه وجوارحه، وشغفه وإعجابه، وتعلقه وامتنانه. وتلك حقيقتنا.

الرباط : أحمد مجيد بن جلون



شعر الصحراء

للدكتور
عباس الجراري

هذه دراسة تتناول بالبحث والتحليل بعض الظواهر المميزة للشعر الذي أبدعه أدباء الصحراء المغربية المسترجعة.

فهي مهداة إلى محرر الصحراء وموحدها مع أرض الوطن مولانا أمير المومنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله في الذكرى الثامنة والعشرين لجلوسه ـ أيده الله وأعز أمره ـ على عرش أسلافه الكرام المنعمين.

والأصل فيها محاضرة دعي الكاتب ليفتتح بها الموسم الجامعي لكلية الآداب بأكادير، وكان إلقاؤها مساء الجمعة 16 اكتوبر 1987.

بسعادة غامرة وابتهاج كبير، ألتقي مع حضراتكم في هذه المناسبة التي أتيح لي فيها أن أشارككم افتتاح الموسم الجامعي الجديد، وأن أتشرف بتقديم درس يلقى في هذا الافتتاح.

الموضوع الذي اقترح علي أن أدير المحاضرة عليه هو أدب الصحراء. وهو موضوع متسع وخصب وغني، لماذا ؟ لأن الصحراء كانت وما زالت مركز علم وفكر وثقافة وأدب وشعر[1]. ومن الصعب محاولة استيفاء مختلف هذه الجوانب في عرض محدود كالذي نحن بصدده. لذا سوف أكتفي بالنظر إلى الشعر، علما بأن أمر الشعر بدوره متسع، لأن الصحراء بطبيعتها شعر، وأهل الصحراء يكادون أن يكونوا كلهم شعراء. بل إنهم يقولون الشعر كما يتنفسون الهواء.

من هنا، سوف أقتصر في هذا الشعر على بعض الظواهر، ولا سيما على ظاهرتين اثنتين. ولي إلى ذلك دافعان :

1) سبق للمحاضر أن كتب في الموضوع. انظر (ثقافة الصحراء) المنشور في الدار البيضاء (دار الثقافة 1978).

الأول : أني من خلال هاتين الظاهرتين سأبرز أهمية شعر الصحراء، وبالتالي كل أدب الصحراء.

الثاني : أني انطلاقا من نفس الظاهرتين، سأطرح إشكالا منهجيا، ثم سأعرض حله في نفس الوقت.

وأبادر إلى القول بأن قضية المنهج مهمة وأساسية. ونقطة البدء فيها تحديد مفهوم المنهج. المنهج ليس كما يتصوره كثير من الدارسين مجموعة من الوسائل والأدوات والقواعد والمقاييس، ولكنه منظومة متكاملة تبدأ بالوعي والرؤية والتصور، وتنتهي إلى الهدف والغاية، وبينهما تلكم الطرق الإجرائية التي يتوسل بها في إنجاز البحث أي بحث. ما هو الهدف بالنسبة لدراسة أدبنا، سواءا كان متعلقا بالصحراء أو غيرها ؟ الهدف هو أن نتعرف إلى هذا الأدب، أي إلى حقيقته وقيمته في حد ذاته، ثم حين يقاس بالأدب العربي كله، وحتى بغيره من الآداب.

لأسباب كثيرة لا أريد الدخول فيها، يصعب التحكم في تراث المغرب الأدبي، عن طريق محاولة استعراضه أو تتبعه التاريخي. ومن هنا يكون من الأفيد ـ منهجيا ـ أن يركز في دراسة هذا الأدب، شعرا كان أو غيره ـ على مجموعة من الظواهر والقضايا تكون كالمفتاح للوصول إلى كنه أدبنا، والتغلب على مختلف أنواع الخلل والفراغ التي تشكل ثغرات في مسيرة هذا الأدب.

ويهمنا من أدب الصحراء في هذه المحاضرة ـ كما أسلفت ـ جانب الشعر، بل ظاهرتان منه. ما هما هاتان الظاهرتان ؟

الظاهرة الأولى : أن شعر الصحراء كان ـ ومازال ـ أداة وحدة ووسيلة تواصل، أي أنه لم يكن في يوم ما شعرا منعزلا أو منغلقا يتحرك في بيئته فقط، ولكنه كان دائما يمد يده إلى أطراف الوطن ليندمج فيه وينصهر داخل بوتقته، في عملية أخذ وعطاء مستمرين، توسل فيهما بكل الممكنات المتاحة، لإثبات الوحدة وتأكيد التواصل، على الرغم من الظروف التي كانت في معظمها صعبة، بما تلقي به في الطريق من عوائق وحواجز.

وتتجلى ملامح هذه الظاهرة على مستويين في التعبير : أحدهما خاص والآخر عام.

أما على المستوى الأول ـ وهو الخاص ـ فيمكنني أن أعدد بعض المظاهر التي تبلوره دونما حاجة إلى تتبع لا يسمح به وقت الدرس. وكانت تساعد على تأكيد هذا الجانب الخاص بعض العوامل التي أكتفي منها باثنتين :

1 ـ انتقال بعض أدباء الصحراء وعلمائها إلى أقاليم الشمال، وإقامتهم فيها للدراسة أو التدريس أو هما معا، على حد ما فعل محمد سالم الصحراوي (ت. نحو 1364 هـ). وهو من أبناء الصحراء الذين كانوا في صحبة الشيخ ماء العينين، ثم أقاموا في سوس قال عنه المرحوم المختار السوسي في (المعسول) : «هذا شاعر فطري مفوه عبقري يعرف كيف يسبك وكيف يصوغ»[2]. ومثله محمد محمود البيضاوي الشنجيطي العالم الكبير الذي هاجر إلى مراكش ليدرس، وكان مع الهيبة، وقد توفي في كردوس سنة 1349 هـ[3].

وفي هذا الصدد تذكر كذلك خديجة أخت محمد محمود البيضاوي هذا؛ هاجرت مثله إلى مراكش لتشتغل بالتدريس. كانت عالمة مستحضرة للسيرة والعربية واللغة والنحو[4].

وإلى هؤلاء نضيف اسم محمد بابا الصحراوي (1290 ـ 1342 هـ) «الأديب الكبير المشهور في إلغ حيث استقر سنين عديدة حتى صار كأحدهم... اتخذه الشيخ ماء العينين ناسخا لمؤلفاته ، وهو من المهرة في القرآن العظيم حفظا وربما وحسن أداء... وهو فوق ذلك شاعر مفلق، له شرح حسن على لامية العرب»[5].

2) ج 3 ص 36 (ط الدار البيضاء 1960 ـ 61).
3) انظر (خلال جزولة) ج 4 ص 157 (المطبعة المهدية ـ تطوان).
4) انظر المصدر السابق.
5) المعسول ج 3 ص 29.

2 ـ تبادل الإجازات العلمية بين علماء الصحراء وعلماء المناطق الشمالية، مثلما حدث بين محمد بن محمد بن أبي بكر التواتي (940 ـ 1010 هـ) وأحمد بن القاضي الذي قال عنه : «تدبجت معه، أجازني وأجزت له، وأخذ عني الحساب والفرائض بمراكش»[6]. وابن أبي التواتي هذا كان مبرزا في الفقه والحديث والعلوم الرياضية، وكان يزاول التدريس في مراكش. والأمثلة على هذا التبادل كثيرة لا أطيل بالمزيد من نماذجها.

وقد أفضت هذه العوامل وغيرها إلى تأكيد الصلات بين العلماء والأدباء، مما تبلور في التعبير الشعري من خلال مطارحات ومساجلات تعد روح أدب الإخوانيات المتميز. وقد شاع هذا التطارح بين شعراء الصحراء وشعراء بقية الأقاليم المغربية. ومن نماذجه ما كان لمحمد بابا الصحراوي السالف الذكر من مطارحات ذكر صاحب (المعسول)[7] أنها كانت له مع بعض الأدباء الإلغيين، هم علي بن عبد الله والطاهر الإيفراني وولده محمد، والبشير الناصري وسعيد التناني. ومنها ما سجل للشيخ سيديا ابن الشيخ أحمد والديماني الصحراوي (1295 ـ 1373 هـ) الذي كان في صحبة الشيخ ماء العينين وابنه الهيبة ثم هاجر إلى إقليم سوس. وهو «من رجالات العلوم، فإنه علامة جليل، محصل أديب، مشارك في المعقول والمنقول؛ وله أدبيات وقصائد قالها في بعض الملوك العلويين وفي الشيخ ماء العينين»[8] وله كذلك مساجلات مع بعض علماء وأدباء سوس[9]، كأبي الحسن بن عبد الله والطاهر الإيفراني.

ولعلنا ألا ننسى إخوانيات محمد بن سيدي محمد حفيد العلامة ابن رازكة، ومنها هذه الأبيات التي يتحدث فيها عن ليلة سهرها عند بعض أفاضل مراكش، وفيها يقول :[10]

يا ليلة راح فيها عازب الوطر
بات الصفاء بها يسطو على الكدر
طابت مجالسنا فيها وخامرنا
حسن السرور على موضونه السرر
إذ بات أحمد يسقينا على مهل
أشهى من الراح في أبهى من الدرر
في منزل تتعب الأفكار عبرتها
فيه كما يتعب الأبصار بالنظر
فيه النهار عشاء والمعايش والأ
أنهار تجري وفيه مثمر الشجر

وهنا لابد أن أشير إلى محمد البيضاوي الشنجطي[11]، وهو ولد العالمة خديجة السالفة الذكر. استقر في المغرب بعد جولة في المشرق، وتصدى للتدريس في طنجة وتطوان. وبعد تقلب في مناصب العدالة والترجمة، عين محررا في جريدة (السعادة) بالرباط، ثم عضوا في مجلس الاستيناف، فقاضيا في بني عمير وواد زم؛ وفي النهاية باشا في تارودانت، إلى أن توفي عام 1945 م. وكان مدة إقامته بالرباط يشتغل بالتدريس، بالإضافة إلى نشاطه في مجال الأدب والشعر، بما كان له من مساجلات مع شعراء كأحمد بن المامون البلغيثي وعبد الله القباج ومحمد بوجندار وغيرهم من أدباء العدوتين. منها المساجلة التي التقى فيها مع عبد الله القباج وبوجندار، لتخلفه عن حضور مأدبة الغداء التي أقامها له الشاعر المطبوع (القباج)؛ فأجاب الشنجيطي بالأبيات التي سنذكر بعد. إلا أن أبا جندار رفع القضية إلى البلغيثي ليحكم فيها. يكفي هنا أن

---

6) درة الحجال ق 1 ص 230 (نشر علوش ـ الرباط 1934)، وانظر (الإعلام) لابن ابراهيم ج 4 ص 198 (المطبعة الجديدة ـ فاس 1355 هـ 1936 م).

7) ج 3 ص 29.

8) نفسه ص 26 ـ 27.

9) ورد بعضها في المصدر السالف.

10) الوسيط في تراجم أدباء شنجيط لأحمد بن الأمين ص 55 (ط الثانية ـ القاهرة 1378 هـ 1958 م).

11) انظر فيه : (خلال جزولة) ج 4 ص 157، وحلقة خاصة من حلقات النادي الجنداري للوالد رحمه الله. (جريدة الأنباء 29 نونبر 1968).

أورد أبيات الشنجيطي[12]، وفيها يقول :

تــأمــل في القضيــة خير صــاح
ولا تــمـع شكــايــة كــل لاح

فــإن الشــاعر المطبــوع حقــا
دعـــاني للغـــذاء والانشراح

ولكن دأبـــه في القــول مــزح
معي فحملت ذاك على المـــزاح

وهبـــه دعـــا بجـــد واهتمـــام
وعــزم لا يثبـــط بـــالرمـــاح

ففي الشعراء أنهم حيـــارى
وقـــولهم بمنـــزلـــة الريـــاح

ولست بخـــائض الـــوادي إلى من
يهيم بـــه المســـاء مـــع الصبـــاح

ولا أدع الشراب إلى سراب
فـــأفعـل فعـل أصحـــاب القــداح

ويدخل في التعبير الإخواني بين الشعراء ما كانوا يتبادلونه من ألغاز وحلول لها، على غرار ما وجهه محمد عثمان ابن اغثمت المجلسي لأهل مدارس فاس حين قال :[13]:

إلى مـــدارس فـــاس الغر أسئلـــة
عيـــالم العلم أهـل الحفـــظ والملكـــة

عن حـــاضر قـم متروك لـــوالـــده
صـــار البكـاء لـه حظـــا من التركـــة[14]

ومـــا بـــه مـــانـع في القـم يمنعـــه
وحـــاز الأبعـــد عنـــه كلمـــا تركـــه

وعن طـــــوامث لا يمنعن أو جنب
من مسجـــد وفروع الفقـــه مشتبكـــة[15]

واسم في الافراد والتـــذكير تـــذكره
وفرع ذين بنـــوع واحـــد سلكـــه[16]

أريـــد منكم جـوابـــا رائقـــا حسنـــا
نظمـــا وإلا فمـــا أعطتكم السبكـــة

ومن أمثلة هذه الألغاز كذلك ما فعل عبد الله العلوي (ابن رازكة) حين خاطب علماء فاس - وابن زكري خاصة - ملغزاً بأبيات في قوله تعالى من سورة يوسف[17] متحدثاً عن سرقة السقاية أو صواع الملك، والبحث عن سارقه : «فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه»، لماذا لم يقل : عنه أو منه أو من وعائه ؟ من هذه الأبيات قوله[18] بعد مقدمة :

أســائلكم مـــا سـر إظهـــار ربنـــا
تبـــارك مجـــدا من وعـــاء أخيـــه

فلم يـــأت عنـــه منـــه أو من وعـــائـــه
لأمر دقيـــق جـــل ثم يخيـــه

فـــإن تـــك أسرار المعـــاني خفيـــة
فمرآتهـــا أفكـــار كـــل نبيـــه

وأنت ابن زكري نبيـــــه محقـــق
تفردت في الـــدنيـــا بغير شبيـــه

إذا غصت في بحث حصلت بـــــدره
وخليت عن سفـــنـــائـــه ورديـــه

وقد أجاب عنه محمد بن سعيد اليد الي الديماني بقصيدة[19] منها :

فلـو قـــال فرضـــا ربنـــا من وعـــائـــه
فـــذالكم بعـــد التفكر فيـــه

يعـــود إلى عـــود الضير ليـــوسف
فيفـــد معنـــاه لمختبريـــه

---

12) انظر المساجلة كاملة في الحسنة الخاصة بالشنجيطي من أدباء النادي الجنداري.

13) الوسيط ص 358.

14) في هامش المصدر السابق أن العمري ترجع إلى من عمرها لا على أهل المعمر عليه.

15) في هامش كذلك أنه يعني أن نساء أهل البيت يدخلن المسجد وهن حيض، وكذلك أهل البيت يدخلونه متلبسين بالجنابة ذكورا وإناثا.

16) في هامش أنه يعني أن المصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث. تقول : رجل جنب وامرأة جنب ونساء جنب.

17) الآية 76.

18) الوسيط ص 8.

19) نفس المصدر.

لأن الضمير في الصناعة عائد
لأقرب مذكور هناك يليه
وإن قال منه اختل أيضا لأنه
يؤدي لعود مضمر لأخيه
فتنزع منه الصاع لا من وعائه
وتأنف من ذا نفس كل نزيه
لما في انتزاع من أذى ومهانة
ولم يرد الرحمن ذا بنبيه

هذا على مستوى التعبير الخاص، وأما على مستوى التعبير العام ـ وهو ما يدخل في نطاق الشعر الوطني ـ فأما منا تراث هائل يحتاج إلى أن نعنى به ونهتم. ويتمثل في مدح الملوك والأمراء وما يرتبط به من قضايا وطنية عبر الشعراء عنها في تجاوب معها والتحام نادرين.

والحقيقة أننا لا نستغرب إذا وجدنا شعراء الصحراء يتصلون ببلاطات المغرب في عهود مختلفة، ويقولون قصائد في الملوك والأمراء يعربون بها عن التعلق بالوطن والولاء لقادته وولاة الأمر فيه. ولدينا نموذج يرجع إلى العصر الموحدي، يمثله الشاعر أبو اسحق بن يعقوب الكانمي الذي مدح المنصور؛ ومن قوله فيه :[20]

أزال حجابه عني وعيني
تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكن
بعدت مهابة عند اقترابي

وقد عرف هذا الاتصال في العهد العلوي مجالات لا حدود لها، مما أعطى للتعبير الوطني أبعادا تجسمها القصائد الكثيرة التي أبدعها كبار شعراء الصحراء، من أمثال عبد الله العلوي المعروف بابن رازكة، وكان وصفه الشنجيطي بأنه «المقدم على أهل قطره من غير نكير. كل عن مداه كل

20) انظر (وفيات الأعيان) لابن خلكان ج 7 ص 15 (ط بيروت) و(نفح الطيب) للمقري ج 4 ص 380 (ط بيروت) و(الإعلام) لابن ابراهيم ج 1 ص 169 (ط ملكية).

جواد، يعترف بذلك الحاضر والباد، وانتشر صيته في تلك الصحاري والأقطار حتى صار كالشمس في رابعة النهار... كان متفننا في فنون شتى منها النحو والعربية والبيان والمنطق والفقه والهندسة والرياضة والتربيع وغير ذلك»[21].

كان ابن رازكة متصلا بالمولى اسماعيل، وحظي عنده وأصبح من خاصة ولده الأمير محمد، المعروف بالعالم، الذي قال مرحبا به في مكناس، وهي يومئذ العاصمة :[22]

مكناسة الزيتون فخرا أصبحت
تزهو وترفل في ملاء أخضر
فرحا بعبد الله نجل محمد
قاضي القضاة ومن ذؤابة مغفر

وقد واجه الشاعر هذا الترحيب بالعديد من القصائد التي وجهها له، كقصيدته الحائية التي قال فيها عن المولى اسماعيل :

أبوك لحكم الشرع ولاك عهده
فلم تلق كدا للسؤال ولا كدحا
مهيب مخوف بطشه تحت حلمه
عفو يرى إلا عن الباطل الصفحا
فهل كان معزوا إلى الحلم قبله
نعم أو كريم يدعي غيره السمحا
ولم تذعن الأعداء محض مودة
إليه ولكن إنما كرهوا القرحا
رأوا ضيغما يعطي الحروب حقوقها
وإن تضع الأوزار يبرم لها صلحا
ويستغرق الأوقات في الجد كلها
ولا يهب التلعاب ما يسع اللمحا
مواصلة حبل الجهاد جياده
ووقفا على غزو العدا عدوها ضبحا

21) الوسيط ص 1 ـ 2.
22) نفسه.

ومنها قصيدة[23] مطلعها :

دع العيس والبيداء تذرعها شطحا
وسمها بحور الآل تسبحها سبحا

وفيها يقول عن الأمير :

وأم بساط ابن الشريف محمد
مبيد العدا ذكرى ومبدى الهدى صبحا
فتى يسع الدنيا كما هي صدره
فأصحابه صدر الديانة مندحا
ومن هو غيث أخضل الأرض روضه
فلا يظمأ الآوي إليه ولا يضحى
فتى يتقل البحر جود بنانه
على حالة استكثار حاتم الرشحا
تزيد على الفاقات فيضات كفه
فيغرق في التيار من يأمل النضحا
ومن هديه ساوى النهار وليله
فأمسى ينير الخافقين كما أضحى
أمير ملوك الأرض أضحت بسيفه
كما تبتغي الذبح في عيدها الأضحى
مساعيه في الخطب الجليل يرومه
كآمال من يرجوه تستصحب النجحا
وآيات علم أغمد الجهل نورها
وغايات جد ليس تطلا بها مزحا

ومن قصائده فيه كذلك تلكم التي مدحه فيها بقوله :[24]

هو الوارث الفضل النبيئ خالصا
من المجد والعليا ومن طيب محتد
بمال اليتامى والأيامى موكل
بتفريج غماء الشجي المكمد

وفي هذا الصدد يذكر محمد لمجيدري بن حبيب الله، الشاعر الوشاح[25]، وكانت له حظوة عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله. ويبدو أنه كان يدرس في فاس، حيث تتلمذ عليه الصوفي أحمد بن إدريس الفاسي[26]، وهو «شاعر فصيح، وله شعر مليح»[27]. ذكر له الشنجيطي أرجوزة في مدح مولاي اليزيد ابن سيدي محمد بن عبد الله، وصفها بأنها «طنانة»[28]، مطلعها :

لله كم من هضبة وجبل
من الهوى بها يسير جملي

وفيها يقول عن ممدوحه :

لا واهب أنفس ما ملكه
إلا الأمير ابن الأمير المعتلي
خليفة الله وبابه هم
أهل الخلائف على التلسل

ومن الشعراء الصحراويين الذين أغنوا هذا التعبير المختار بن الهيب الأبييري الذي كان كاتبا للمولى عبد الرحمن. وهو والد العالم الشاعر سيدي بن المختار الذي اشتهر في مراكش باقتنائه للكتب[29].

ومن الذين اتصلوا أيضا بالمولى عبد الرحمن نشير إلى محمد بن سيدي محمد حفيد العلامة ابن رازكة، وفيه يقول من قصيدة :[30]

خليفة مصباح الهدى وحفيده
ومحيي عافي ربعه المتقادم
غيور على بيضاء سنته التي
أبيحت لها لولاه كل محارم
فكم غض عنها طرف من رام طرفها
بغض وكم قد كف من كف ظالم

---

23) المصدر السابق ص 21 و397.
24) نفسه ص 23 و400.
25) انظر (الوسيط) ص 214، و(الاعلام) لابن ابراهيم ج 5 ص 88، و(موشحات مغربية) للجراري ص 181 (ط دار النشر المغربية - الدار البيضاء 1973).
26) انظر (الوسيط) ص 215.
27) نفسه ص 345.
28) ذكر أنها طويلة وأورد منها أبياتا قليلة بقيت في ذاكرته (المصدر السابق).
29) نفس المصدر ص 241.
30) نفسه ص 53.

أنـــام عيـون النـــاس تحت عـــدالـــة

وقت رجـل ســاري الليـل لـدغ الأراقم

ومن مـدائحـه الكثيرة فيـه[31] قصيدة يخاطبـه فيهـا بقوله :

خليفـــــة المصطفى وابن بضعتـــــــه

ثـوبـا من المجـد لم يعلـق بـأد نـاس

اللـــه منـــك حقـوق النـــاس قلـدهـــا

يقظـــان لا غـــافـل عنهـــا ولا نـــاس

عمرت عمرت من عهـد الشريعـــة مـــا

بـــاض النعـــام بـــدور منـــه أدراس

وقد أخـذ هـذا النـوع من التعبير أبعادا جـديـدة في المرحلة الحديثة ظهرت أولى معالمها مع الشاعر محمد البيضاوي الشنجيطي الذي سبقت الإشارة إليه. وفي ظني أنه من أوائل الذين هنأوا المغفور له محمداً الخامس بتولية العرش، إن لم يكن أولهم، فقـد دخـل عليـه في جملـة المهنئين وقال قصيدة هي مـزيج من التهنئة لـه والرثـاء لوالده المولى يوسف رحمه الله. وقد جاءت مليئة بالمعاني التي تدل على الالتحام وعلى الروح الوطني الوحدوي الذي كـان يشـد شعراء الصحراء إلى المغرب وملكـه، في وقت كـان الاستعمـار يشـدد الخنـاق، ليس فقـط في الصحراء، ولكن في كل المنـاطق المغربيـة. فهذه القصيـدة الطويلة التي مدح بها الملك المنعم أو هنـأه بهـا يوم اعتلاء العرش تكتسي في الحقيقة أهمية بالغة، لأننا ألفنـا أن نتحدث عن شعر العرش ابتـداء من سنـة الاحتفـال بعيـده سنـة ثـلاث وثلاثين بشكل خـاص وفي عـام أربعة وثـلاثين وتسعمائـة وألف بصفة رسمية. ولكننا قبل ذلك لا نجد نصوصاً تسعفنـا في التعرف إلى بدايـات هـذا الشعر أو مـا يمكن أن يعتبر بدايـات. من قصيـدة البيضـاوي الشنجيطي نقتبس هـذه الأبيات[32].

ذهب الإمـــام أبـو المحـــاسن سيـــدا

ومحمـــد كفـــؤ الإمــــام السيـــد

التــــاج أقـم لا يفـــارق هـــامكم

يـــا آل حيـــدرة وآل محمـــد

أ محمـــدا يـــابن الحـلاحـل يـوسف

جـــدد عهـود محمـــد ومحمـــد

وارع الإمــــامـــة والرعيــــة مشفقـــا

بسيـــاســـة ورويـــة وتعهـــد

واكشف عن الأبصـــار كـل غشـــاوة

وغبـــاوة فـــالجهـل أعظم مفســـد

واستمر اتصال الشعراء ـ شعراء الصحراء ـ بالمغفور له محمد الخامس دون توقف وفي كل الظروف والمناسبات، وطنية كانت أو دينية. وعن هـذه يكفيني أن أمثل بقصيدة الشاعر مـاء العينين ابن العتيـق[33] المتوفى عـام 1957 م، وهـو حفيد الشيـخ مـاء العينين الكبير، وكـان قـاضيـا في طنطـان وأستـاذا في كليـة ابن يـوسف بمراكش. أمـا قصيدتـه[34] فرفعها إلى الملك المقدس بمنـاسبـة ذكرى المولد النبوي عام 1937، وهذا مطلعها :

بشرى المنى بـــك أشرقت أعـــلامهـــا

يشـــدو على فنن السرور حمـــامهـــا

وفيها يقول مخاطبا ممدوحه :

زانت إمـــامتـــك الـزمـــان وكيف لا

تـــزدان أزمنـــة وأنت إمـــامهـــا

لم تبـق من رتب الكمـــال مـــزيـــة

إلا وأنت مـــلاكهـــا وقـــوامهـــا

للـــه درك يـــابن يـــوسف من فتى

يرعى بهـــا للمكرمـــات ذمـــامهـــا

31) المصـدر المـذكـور ص 52 ـ 53 وإعـلام ابن ابراهيم ج 5 ص 231 ـ 232.

32) توجد عندي كاملة في مجموعة خاصة.

33) انظر (منـاقب الصحراء) للأستـاذ عبـد الوهـاب بنمنصور ص 93 (المطبعة الملكية ـ الرباط 1975).

34) المصدر السابق ص 94 ـ 95.

أنت المليـــك الكـــامــل الكرم الـــذي
نجلتـــك من غر الملـــوك كرامهـــا

وقد عرف هذا التعبير الوطني في عهد جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله مدا لا حدود لـه ولا مجال لحصره، لما يعرفه هذا العهد من أحداث وطنية كبيرة والتحام بها فاق كل ما سبق. وعلى كثرة ما قيل ويقال في هذا الصدد الغني، فسأكتفي بنموذجين لا أتجاوزهما، لأن شعر هذه المرحلة يعيش بيننا ولا يفارق آذاننا، ونكاد نستمع إليه في كل يوم.

النموذج الأول للشاعر شبيهنا حمداتي ماء العينين، وهو من قصيدة[35] له في مدح جلالة الملك الحسن الثاني، يقول فيها :

هــذي صحـــاريـنـــا لعطفـــك ترتجي
مـــا قــــادهـــــا من غير عرشكم بشر

قــد بــايعت نجـل الرسـول محمــد
ليـزول قيـــد الكفر عنهـــا ينكسر

وبعرشـــه صنـــا لــوحـــدة أرضنـــا
مـــا ضرنـــا مين الطغـــاة ومن وزر

يـــا خير من عرف الـزمـــان وأهلــه
أو من على وجـــه البسيطـــة قـــد ظهر

إنـــا مـــدى الأيـــام نحفـظ عهـدنـــا
دون العـــلا مـــا إن لنــــا من مستقر

والنموذج الثاني للشيخ مـاء العينين لارابـاس، من قصيدة[36] وطنية يتوعد فيها الاسبان، ويخاطب جلالة الحسن الثاني، ويبلغه نداء رعاياه الصحراويين بالاستنجاد؛ يقول فيها :

فـإن لم تسر إسبـان م الســاقيـا الحمرا
ترى من دم الأحرار ســـاقيـــة حمرا

فـــإنـــا دعـــاة السلم إن جنحـوا لهـــا
وإلا فنـــــار الحرب نسعرهــــــا سعرا

أيــــا حسن خير الملـــوك ومن بــــه
حبـــانـــا إلاه العرش بـــالنعمـــة الكبرى

فهـــاهم رعـــايـــاكم وخـــدام عرشكم
ينـــــادونكم مهمـــــا ألم بهم قهرا

أنقـــذت م الأعـــدا حـواضر أرضنـــا
فـــأنقـذ من الأعـدا مغـاربـة الصحرا

وللاطلاع على مزيد من القصائد، ألفت نظركم إلى ديوان يحمل عنـوان «باقة شعر من أقاليم الجنـوب»؛ وقد صدر احتفاء بالذكرى الرابعة والعشرين لعيد العرش المجيد (مارس 1985). ويتضن جزءين : الأول خاص بقصائد اللهجة الحسانية، والثاني خاص بالشعر المعرب، ويضم قصائد للشعراء : الشيخ ماء العينين لارابـاس، شبيهنا حمداتي ماء العينين، محمد الكبير العلوي، عبد السلام ابن الشيخ مفتاح، الشيخ ماء العينين محمد سداتي هيبة، ماء العينين بن العتيق، الدرجاوي محمد عبد الرحمن العلوي، الدفاع الرصافي محمد معروف، البد امحمد بن قار، ماء العينين أبو بكر ابن الشيخ مربية ربه، يحجب بن خطري، محمد الأمين بن خطاري، ماء العينين شيبة، الداه سيدي محمد وابشيرن ابن الشيخ محمد الأغظف.

أنتقل بعد هذا إلى **الظاهرة الثانية** التي أريد من خلالها كذلك أن أبرز أهمية شعراء الصحراء، وهي المتعلقة بالبعث والإحياء، أي بعث الشعر القديم وإحياءه مما ارتبطت به النهضة الحديثة في المشرق على يد شعراء كالبارودي وشوقي وحافظ؛ أولئك الذين بعثوا القديم، ولكن أي قديم ؟

---

35) باقة شعر من أقاليم الجنوب ج 2 ص 26 (نشر وزارة الشؤون الثقافية - 1985).

36) من مقال (نماذج من أدب الصحراء) لحمداتي ماء العينين مجلة دعوة الحق عدد 4 سنة 18 جمادى الأولى 1397 هـ ماي 1977 م.

لظروف حضارية وأسباب ثقافية رجع شعراء مدرسة الإحياء المصرية إلى الشعر العباسي واكتفوا به دون الجاهلي والأموي، يستوحون جوه الموسيقي وينفعلون به. في حين بعث شعراء مدرسة الإحياء الصحراويون كل القديم، جاهليه وأمويه وعباسيه، مع تركيز في الغالب على الجاهلي والأموي. ثم إنهم لم يكتفوا بالاستيحاء والانفعال، ولكنهم زادوا أنهم اتخذوا هذا القديم نموذجا يحاكونه، وكانوا - على عكس شعراء مصر - مؤهلين لذلك بحكم البيئة الصحراوية في جوها وأشيائها التي تذكر بالبيئة الجاهلية. فالطبيعة الصحراوية كان لها تأثير على الشعراء وعلى تشكيل عالمهم الشعري وتوضيح فضاء لا حدود لآفاقه وأبعاده، من أطراف مترامية وكثبان رملية وجبال صخرية، مع رؤوس ونتوءات، بما يصاحب ذلك كله من رياح وعواصف وما تخلقه من أصوات وأصداء. ثم إن هذه الطبيعة أفضت إلى صفاء في الذهن وصدق في الوجدان وتلقائية في التعبير وقدرة على التعامل مع المحيط والبيئة.

إلى جانب هذا العنصر المؤثر، كان شعراء الصحراء مؤهلين كذلك بحكم الثقافة التي كانت منتشرة بينهم، والتي كانت تركز على القديم تعنى بدواوينه يحفظها طلاب الأدب ويستظهرونها في المجالس ويرددون أراجيزها وقصائدها بعفوية وسهولة، مما أتاح للشعراء أن يحيوا النماذج الجيدة من هذا التراث ويحاكوه.

وإنه ليخيل إلى من يقرأ قصائد شعراء الصحراء الذين عاشوا في أواخر القرن الماضي وأوائل الحالي أنهم ينتمون إلى تلكم العصور العربية الغابرة، لا يميزهم عنهم إلا بعض الملامح البيئية التي تظهر من خلالها أسماء الأماكن والبقاع الصحراوية، بل إن بعضهم كان ينافس ويفاخر الشعراء الجاهليين على حد ما سترى في بعض النماذج.

ويمكننا أن نحدد - ولو مبدئيا - بعض الملامح التي تسم مدرسة الإحياء الصحراوية، وأقتصر منها على أربع سمات مميزة :

الأولى : تظهر في المفهوم الذي كانت تعطيه للشعر، إذ تربطه بالفحولة والطبع وعدم التكلف، والقدرة على صياغة وحسن سبكه والتعبير به في عذوبة وحلاوة. ويتضح هذا المفهوم من أبيات مأخوذة من قصيدة يهنئ فيها ابن العتيق الشيخ مربيه ربه بالعودة من الحج؛ وفيها يقول :(37)

هو الشعر لا لأكفاء شهدته تحلو
إذا صاغها من كنز باعثه الفحل

فينساق عذبا للفهوم كأنها
بأثنائه تلقي مجاجتها النحل

وأحسنه ما ليس فيه تكلف
على حسن سبك فهو ممتنع سهل

وأبياته يستوعب الطرف نسجها
إذا من شذاها حيك في غزل غزل

الثانية : الميل إلى الغريب، على حد ما تكشف عنه النماذج المقدمة، وذلكم طابع بدوي صحراوي ناتج - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - عن ثقافة الشاعر المعتمدة على القديم وما يتولد عن ذلك من قدرة على الاستحضار الناشئ عن كثرة الحفظ والاختزان، دون أن نغفل ملاءمة البيئة وانعكاسها على حال النفس والوجدان والذوق، وإني أدعوكم إلى تأمل هذه العناصر، إذ قد يتبادر إلى ذهنكم للوهلة الأولى أن الأمر لا يعدو أن يكون إغرابا وتكلفا، وهو في نظري على العكس من ذلك، لأنه يصبح ملمحا من صدق

---

37) انظر رسالة محمد ظريف عن (الحياة الأدبية في الزاوية البعينية) ص 514 (مرقونة).

إحساس الشاعر وصدق تعبيره كذلك، لاندماجه في ذاته وتشكيله معطى من معطيات الجمال.

الثالثة : الوقوف على الأطلال والبكاء عليها، وهو كثير يكفيني أن أمثل له بقصيدة[38] لمحمد مصطفى مربيه ربه (ت 1361 هـ) يمدح بها أباه، وقد استهلها بقوله :

ألا هـل زمـان في الهـوى ومرابـع
يبـاري زمـان العطف أم هـو راجـع
زمـان بـه مغنى الصبـابـة عـامر
وغض أفـانين المسرة يـانـع

سقى اللـه أطـلالا كـأن لم يكن بهـا
خليـط سقتـه الغـاديـات الهـوامـع
هـوامـع تمريهـا اليمين دويهـا
كهـدر فحـول هيجتهـا النـزائـع
خليـط على آثـاره رتـع المهـا
كمـا أنني في مرتـع الحب راتـع
خليلي حـان الـوعـد قـومـا وشمرا
على سـاق جـد والجفـون دوامـع
نعم جردا سيفـا من العـزم واكتمـا
فمـا السر في نهـج المحبين ذائـع
ألم تريـا الأظعـان والركب حـولهـا
ذواهب تحـدو ليتهن رواجـع

إن المتمعن في هذه الأبيات ليشعر بأنها تضفي مسحة جمالية وتمد بشحنات وتبعث في النفس إحساسا بالذات وبماضيها الجميل، بالإضافة إلى رمزيتها عن الزمان وتقلباته.

الرابعة : معارضة الشعر القديم بدافع الاستيحاء الذي مر الحديث عنه، ولكن كذلك بدافع المنافسة بقدرة التعبير والمفاخرة بالتفوق. ومن الشعراء الصحراويين الذين برزوا في هذا المضمار امحمد بن محمد بن المختار بن الفخ موسى اليعقوبي المعروف بـ (امحمد بن الطلب)، لـه جيمية طويلة[39] مطلعها :

تطـاول ليـل النـازع المتهيـج
أمـا لضيـاء الصبـح من متبلـج

قال بعد أن نظمها : «أرجو من الله أن أقعد أنا والشماخ بن ضرار في ناد من أهل الجنة وننشد بين أيديهم قصيدتنا لنعلم أيهما أحسن»[40]. والمقصود بالشماخ الشاعر الصحابي ابن ضرار الغطفاني صاحب الجيمية التي أولها :[41]

ألا نـاديـا أظعـان ليلى تعرج
فقـد هجن شـوقـا ليتـه لم يهيج

كذلك عارض ابن الطلب ميمية الشاعر المخضرم حميد بن ثور، وأولها :[42]

ألا هيمـا ممـا لقيت وهيمـا
وويحـا لمن لم ألـق منهن ويحمـا

بقصيدته الميمية التي استهلها بقوله :[43]

تـأوب بـه طيف الخيـال بمريمـا
فبـات معنى مستجنـا متيمـا

وفيها قال : «أرجو من الله أني أنا وحميد بن ثور ننشد قصيدتينا في ناد من أهل الجنة فيحكمون بيننا»[44].

أما الشعراء الذين احتذوا نماذج عباسية فكثيرون، اذكر منهم مولود ابن أحمد الجواد اليعقوبي، فإن له قصيدة مطلعها :[45]

أمربـع الغصن ذا أم تلـك أعـلامـه
لا هـو هـو ولا الأيـام أيـامـه

---

38) انظرها في (ديوان الأكبر المعينية) مخطوط خزانة الرباط العامة د 1376 الورقة 76 ظ والنسخة المحققة منه (رسالة أحمد مفدي) ص 255 (مرقونة).

39) الوسيط ابتداء من ص 95.

40) نفسه.

41) المصدر المذكور ص 109 فما بعد.

42) نفس المصدر ابتداء من ص 129.

43) نفسه ابتداء من ص 119.

44) نفسه ص 118.

45) نفسه ص 193.

وهو متأثر فيه بأبي تمام في قصيدته التي أولها :[46]

لا أنت أنت ولا الـــــديـــــار ديـــــار
خف الهـــوى وتـــولت الأوطـــــار

وأذكر أيضا الشبيه ابن الشيخ ماء العينين في مطلع قصيدته[47] الميمية إذ يقول :

أبى منـــزل الحسنــــــاء أن يتكلمــــا
ومـــاذا عليــــه لـو أجـــاب متيمـــا

وهو متأثر فيه ببشار في مطلعه :[48]

أبى طلـــل بــــالجــزع أن يتكلمــــا
ومـــاذا عليــــه لـو أجـــاب متيمـــا

تلكم بعض خصائص مدرسة البعث الصحراوية في امتدادها للماضي واستمدادها من القديم وإحيائها له واستيحائها منه، وفي مطابقتها بينه وبين البيئة، واعتبارها إياه مثلا أعلى تحتذيه؛ وهي كلها عناصر قد يعتبرها البعض مجرد تقليد، ولكني لا أراها كذلك، أو على الأقل لا أراها كلها كذلك، ولا سيما عند كبار الشعراء الذين أبدعوا انطلاقا من التراث ومن فهم عميق لدوره في العملية الابداعية التي ينبغي أن تتوافر لها وتتكامل فيها عوامل داخلية وأخرى خارجية كما لا أحتاج أن أوضح.

على أن ارتباط مدرسة الإحياء في كل من مصر والصحراء بالقديم لم يحل دون معايشتها للجديد في مجال المستحدثات الحضارية، مما جعل الشعراء هنا وهناك يصفون مخترعات العصر ومكتشفاته، مسايرة منهم لروح النهضة. وهذه لا شك سمة أخرى من سمات المدرستين. وفي هذا السياق أمثل بقصيدة للشيخ محمد الإمام ابن الشيخ ماء العينين (صاحب الجأش الربيط)، قالها في زيارته للأندلس عام 1360 هـ، أولها :[49]

الـــــدهر ذو عجب وذو ألــــــوان
لا تنقضي بتقلب الأحيـــــــــــان

وفيها يقول عن المذياع والكهرباء :

هـل غـادر المـذيـاع من عجب فقـد
أغنـــاك عن كلف البريـــد الـــواني
يـــاتيـك بـــالأخبـار سـاعتهـــا فـلا
تحتـــاج قصـــد شـواسـع البلـــدان
فـــإذا صغيت فكـــل شيء حـــاضر
وإذا نطقت حللت كـــل مكـــــان
مــــــا شئت من فن بمختلف اللغى
إن شئت تسمـــــــــع محكم القرآن
أو شئت من خطب وشعر رائـــــق
يسبي القلـــوب بمطرب الألحـــــان
وانظر لصنـــع الكهربـــاء فـــإنـــه
من لطف صنـــع اللـــه في الأكـــوان
إذ سهلت كـــل الصعـــاب وأوهمت
أن المجـــال بحيـــز الإمكـــــان
فتريـــك للضـــدين في آن معـــا
بـــالسلب والإيجـــاب ينفعـــلان

وأمثل كذلك بهذين البيتين قالهما الشاعر محمد مصطفى ماء العينين مربيه ربه في وصف الطائرة :[50]

تطـــايرت آلـــة بـــالريــح محكمـــة
كمـــا تطـــاير جنـــد الطير بـــالروح
والكـل من خـــالـق الأشيـــاء حرك من
مجراه بـــالريـــح أو مجراه بـــالروح

إن الحقيقة التي علينا جميعا أن نعيها، والتي أسعى في هذا إلى أن أستفزكم لمزيد من البحث فيها وتمحيصها، هي أن المغرب عرف في صحرائه نهضة شعرية، إلا أنه لم يكتب لهذه النهضة أن تتفتح وتنطلق وتشع، بل طمست معالمها وهمشت آثارها، ولم يتسن لها أن تكتمل في حركة

46) الديوان ص 273.
47) ديوان الأكبر المعينية الورقة 186 و.
48) ديوانه ج 4 ص 184 (ت ابن عاشور).
49) انظرها في (الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنجيط) للشيخ محمد الإمام ابن الشيخ ماء العينين ص 82 فما بعد (مطبوعات دار العلم 1376 هـ - 1957 م).
50) صحراؤنا ع 23 11 غشت 1967 ص 3.

تطورية واسعة. وكان لوضع المغرب في جو الاستعمار الخانق دور سلبي كبير، زاد في فعله عدم وجود ثقافة حية ناهضة، وانعدام منقد أدبي قادر على التنظير، فكان أن رمي هذا الشعر بأسهل الأوصاف وأبسط النعوت القدحية حين وصم بالتقليد والجمود.

مهما يكن، فإننا نجد في الصحراء حركة بعث وإحياء شبيهة بما عرفته بلاد الكنانة. هل كانتا متعاصرتين متزامنتين بحكم ظروف تاريخية معينة وبطريقة اتفاقية ؟ أم كانت إحداهما سابقة على الأخرى وبالتالي مؤثرة فيها ؟

هذه قضية كبرى لا يهم البت فيها بقدر ما يهم طرحها المعرفة واقع النهضة، ليس بالنسبة لمصر وحدها أو للمغرب على حدة، ولكن في نطاق ما تعرف به حقيقة المرحلة الجديدة التي قطعتها مسيرة الشعر العربية.

قد يقال إن الحواجز كانت مضروبة على البلدين، ولا سيما على المغرب حيث شعراؤه الجنوبيون منغلقون على أنفسهم في الصحراء، فأنى للاتصال أن يتم، فكيف التأثر ؟

هنا قد تسعفنا بعض المعطيات التي من شأنها أن تنير الطريق، مثبتة عمق الروابط المتجلية في أوثق أشكال الاتصال. ذلكم أن غير قليل من علماء الصحراء وأدبائه رحلوا في أواخر القرن الماضي إلى القاهرة وأقاموا فيها، مخلفين آثارا لا تنسى في اللغة والنحو والأدب وتحقيق النصوص ومراجعتها، مما سجل لهم حركة إشعاع كان لها لا شك مفعول لا يستبعد أن يكون مس جانب الشعر ونقده.

من هؤلاء محمود محمد بن أحمد التركزي[51] (ت 1322 هـ = 1804 م)، فهو الذي صحح الأخطاء والأوهام الواردة في طبعة بولاق لكتاب (الأغاني). ومن مؤلفاته :

1 - الحماسة السنية الكاملة المزية في الرحلة الشنجيطية التركزية[52].

2 - عذب المنهل (أرجوزة)[53].

3 - رسالة في الانتصار للإمام مالك لقوله في (الموطأ) في كتاب الأيمان والنذور : «وعليه هدي بدنة أو بقرة أو شاة إن لم يجد إلاهي»، وكان بعض العلماء يلحنونه في قوله «إلاهي». وقد اعتبر محمود التركزي أن «يجد» فعل لازم بمعنى : يستغني. واعتبر «إلاهي» مبتدأ حذف خبره، وجواب الشرط محذوف أيضا؛ وتقديره «فهي عليه». وخبر «إلاهي» هو «عليه» المتقدم.

4 - إحقاق الحق (انتقاد لشرح عكاش اليمني على لامية العرب).

5 - رسالة في صرف «عمر»، زاعما أن العرب ونحاتهم غلطوا فيها منذ سيبويه، وحجته أنه وجد مائة بيت للعرب مصروف فيها عمر، وأنه صرف في البخاري ومسلم، وأن العرب لم تمنعه نظما ولا نثرا.

6 - البيان المرصص في أوهام المخصص.

ومنهم كذلك أحمد بن الأمين (ت 1331 هـ - 1913 م)[54]. ونعرف أنه وضع تصحيحا لطبعة ساسي من كتاب (الأغاني)، بالإضافة إلى ما أنجزه من تآليف وشروح وتحقيقات، منها :

1 - درء النبهاني عن حرم الشيخ سيدي أحمد التيجاني[55].

2 - الدرر في منع عمر[56].

3 - الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع[57].

---

51) انظر فيه : أ - الوسيط ص 381. ب - معجم سركيس للمطبوعات ج 2 1149 - 1150. ج - أعلام الزركلي ج 7 ص 311.

52) جزآن ط الموسوعات 1319 هـ.

53) مخطوطة.

54) انظر : أ - مقدمة الوسيط ص 7. ب - معجم سركيس ج 2 ص 1148 - 1149. ج - أعلام الزركلي ج 1 ص 97.

55) ط مصر 1330 هـ.

56) ط الموسوعات 1904 م.

57) جزآن : 1 - ط قازان 1326 هـ.
2 - مط الجمالية 1328 هـ.

4 ـ طهارة العرب[58].

5 ـ المعلقات العشر وأخبار قائليها[59].

6 ـ الوسيط في تراجم أدباء شنجيط[60] وقد أفدت منه كثيرا في نصوص هذا الدرس.

7 ـ شرح ديوان طرفة[61].

8 ـ شرح أمالي الزجاجي[62].

9 ـ شرح صهاريج اللؤلؤ للبكري[63].

10 ـ شرح ديوان الشماخ بن ضرار[64].

11 ـ شرح (ليس في كلام العرب) لابن خالويه[65].

12 ـ شرح الإعلام بمثلث الكلام لابن مالك[66].

13 ـ شرح تحفة المودود في المقصور والممدود لابن مالك[67].

لقد تعمدت في هذه المحاضرة أن أختار الحديث عن ظاهرتين شعريتين، لألفت انتباهكم إلى أهمية دراستهما وما يماثلهما، وإلى فعالية هذه الدراسة بالنسبة لأدبنا المغربي خاصة والعربي عامة، وكذا بالنسبة للقضايا المختلفة التي قد يكون لها ارتباط بالفكر والتعبير.

أما الظاهرة الأولى : فتتعلق بعنصر نلح عليه ونثبته إذا كان النهار يحتاج إلى دليل، ذلكم هو عنصر الوحدة التي تجمع الصحراء إلى أرض الوطن، لأن الفكر واحد والأدب واحد والشعر واحد، والتعبير في عمومه واحد مهما كانت الأداة التي يتوسل بها فيه.

ومن ثم، فالروح الوطنية قائمة، أعني روح الوحدة التي لم تفتر قط، على الرغم من ظروف الاستعمار وما صاحبها من محاولة تمزيق الأرض وتفريق الشعب. فقد ظلت تلكم الروح حية في ذات الأمة ووجدان شعرائها لم يتوقف لها نبض. ولهذه الحقيقة أهميتها، وإن نظر إليها البعض دون أن يعيرها القيمة التي هي بها جديرة. وثقوا بأن العناصر الفكرية والأدبية والثقافية عامة تشكل طليعة مقومات الوحدة في أي بلد وأي مجتمع. ولست في حاجة إلى أن أذكر بأن دليل الإثبات القاطع الذي أقنع محكمة العدل الدولية بمغربية الصحراء كان في صميم المكونات الفكرية؛ وذلكم من خلال السؤال الذي كان طرحه القاضي حول المذهب المنتشر في المغرب والصحراء، وما بينهما من روابط مذهبية. وحين أجيب بأن المذهب المالكي هو وحده الذي يسود في الشمال والجنوب، انتهت القضية بالنسبة إليه ليحسم فيها بما يقنع العدالة الدولية حول مغربية الصحراء.

وما استفدناه من وحدة المذهب يمكن أن نستفيده وغيره من كل تراثنا الفكري والأدبي، سواءا كان هذا التراث مدرسياً أم شعبياً. وأكاد أجزم بأن هذا الأخير غني في مضمار الوحدة والتواصل.

وأما الظاهرة الثانية : فإنها تبرز أهمية الشعر الذي أبدعه أدباؤنا في الصحراء، ليس على المستوى المغربي فحسب، ولكن كذلك على المستوى العربي عامة؛ وقد اتضحت أبعاد معطياتها وآفاق دراستها بهذه الإثارة أو هذا الاستفزاز الذي قصدت منه إلى أن أحتكم على البحث وتعميقه وتجديده.

ولا أخفيكم أن مؤسسة كجامعة القاضي عياض بكليتي آدابها في مراكش وأكادير مؤهلة أكثر من غيرها وقبل سواها للاضطلاع بدور فعال في المجال الذي نحن بصدده، أي بهذا النوع من البحث في هذا النمط من التراث.

على أن الأمر غير مقصور على أدب الصحراء، لأن كثيرا من سماته تطبع أدب جنوب المغرب كله، مما يعطي

58) ط قازان 1326 هـ.

59) طبع مرتين في مصر : (1329 ـ 1331 هـ).

60) طبع مرتين في القاهرة : (1328 هـ = 1911 م و1378 هـ = 1958 م).

61) ط قازان 1904 م.

62) ط مصر 1324 هـ.

63) ط مصر 1324 هـ.

64) ط مصر 1327 هـ.

65) ط مصر 1327 هـ.

66) ط 1327 هـ.

67) ط 1329 هـ.

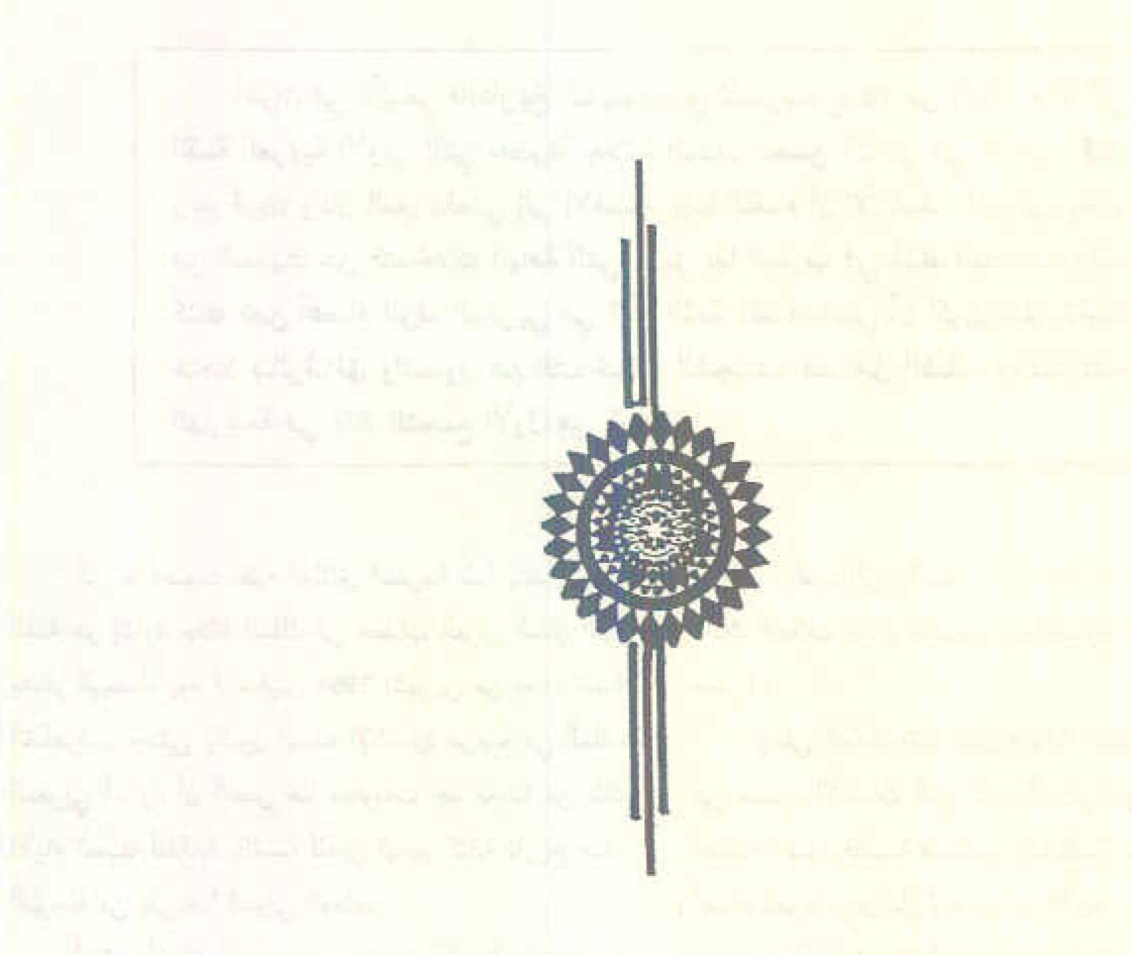
للجامعة في أقاليمه مسؤولية جسيمة تتمثل في إخراج النصوص ودراستها وإعادة النظر في كثير من الأحكام التي صدرت عن أدبنا وفكرنا وجميع مقومات هويتنا الوطنية؛ مع الإلحاح على ربط ذلك كله بالتراث العربي الإسلامي في ماضيه وواقعه وما يرهص به من آفاق المستقبل.

وإني لأنتهز هذه الفرصة لأهنئ عامل صاحب الجلالة على إقليم أكادير وسيادة رئيس الجامعة والسادة العمداء وجميع المسؤولين وكافة الأساتذة الزملاء، على مثل هذه المؤسسة التي هي مفخرة من مفاخر التعليم الجامعي ومعلمة من معالم الفكر المغربي، يحق لنا أن نعتز بها وبمثيلاتها في عموم الوطن.

ولعلنا بما نبذله جميعا في هذا المجال أن نكون عند حسن ظن أمتنا وحسن ظن جلالة الملك الذي عبر ـ نصره الله ـ في الأيام الأخيرة عن الآمال التي يعقدها على الجامعة وعلى البحث العلمي في خدمة التنمية وتقدم الوطن.

ومرة أخرى أجدد لكم عبارات الشكر والتهنئة، وأستسمح إن كنت أطلت بعض الشيء، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الرباط : عباس الجراري



جلالة الملك الحسن الثاني

في مؤتمر القمة العربي الأول بالقاهرة

13 - 17 يناير 1964

وثائق لم تنشر عن الحضور المغربي في هذا الحدث التاريخي الأول من نوعه في حياة الجامعة العربية

للدكتور عبد الهادي التازي

أشرت في تأليفي «التاريخ الدبلوماسي للمغرب» ج 10 ص 372 ـ 373 إلى القمة العربية الأولى التي حضرها جلالة الملك الحسن الثاني في القاهرة قبل ربع قرن، وكان الذي دفعني إلى الاهتمام بهذا اللقاء أن الأرشيف المغربي يخلو من الحديث عن التدخلات الهامة التي تميز بها المغرب في ذلك اللقاء... ولما كنت ضمن أعضاء الوفد المغربي في تلك القمة فقد أمكنني أن أكون ملفا خاصا كاملا بالوثائق والصور عن التدخلات الشجاعة للعاهل الشاب ومشاركته الصريحة في ذلك التجمع الأول من نوعه...

كل ما احتوت عليه الوثائق المغربية مما يتصل بهذه القمة هو إشارة جلالة الملك في خطاب العرش الذي ألقى بالدار البيضاء يوم 3 مارس 1964 (شهرين من بعد) لقمة القاهرة... وحتى يكون لهذه الإشارة مرجع في الملف المغربي أحاول أن ألخص هنا معلومات جد مفيدة عن تلك الأيام تعميما للفائدة بالنسبة للذين تهمهم كتابة تاريخ هذه المرحلة من تاريخنا الدولي المعاصر..

أعتقد أن القراء جميعا يذكرون الظروف الدولية للمغرب على ذلك التاريخ في أعقاب الخلاف المؤسف بين المغرب والجزائر، والذي كان قصيرا ـ لحسن الحظ ـ ذلك الخلاف الذي امتدت مضاعفاته على علاقتنا مع مصر !!

وعلى العادة، فقد كان جلالة الملك الحسن الثاني في مستوى الأحداث التي كان العالم العربي يعيشها على أصداء تطور قضية فلسطين ومشكلة اللاجئين... وعلى أصداء تحويل إسرائيل لمجرى نهر الأردن...

وهكذا استجاب العاهل للدعوة التي وجهت إليه من لدن الرئيس الراحل عبد الناصر، الذي ما أزال أتصوره وهو

بمطار القاهرة يرحب بجلالة الملك الذي أمر إلى الرئيس «أن الضباط المصريين الخمسة المتوقفين بالمغرب سيصلون القاهرة بعد ساعة...».

وهكذا كانت مبادرة جلالته طلعة يمن على العلاقات العربية، وتوجهت الأنظار كلها إلى هذا الملك الجليل...

ويكفي أن يعود المرء إلى عناوين الصحف المصرية على ذلك العهد ليستشف من خلالها مدى ما تركه موقف جلالته وما كان لذلك من أثر على نجاح المؤتمر...

لقد ألقى جلالته خطابين اثنين... علاوة على التدخلات البناءة التي سجلتها له مضابط الجلسات المتوالية.

وكما أسلفت، فإن الهدف من تسجيل هذه اللقطات الحرص على رصد الإسهام المغربي في هذه القمة على نحو ما سجل التاريخ إسهامه الهام في المحافل الدولية قبل هذا التاريخ سيما وقد اكتفت الصحف المغربية الصادرة آنذاك وأذكر منها (العلم) و(الأنباء)... اكتفت بالأخبار المقتضبة... ربما كان كذلك لأن القمة العربية تعقد لأول مرة، وأن ذلك يقتضي الحفاظ على السرية الكاملة لجميع أعمال المؤتمرين !!

لقد كان مما ورد في خطاب جلالته الذي ألقى في الجلسة الأولى :

«...إن العرض الذي استمعت إليه - يقول جلالة الملك - من فخامة الرئيس عبد الناصر قد أدخل علي دهشة كبرى... فعلينا إذن أن نتساءل وأن نكون صريحين مع أنفسنا وأن نضع على أنفسنا بعض الأسئلة :

الأول منها : هل فعلا أتينا كلنا هنا لنتخذ قرارات في الموضوع الذي يهمنا أم جئنا حتى لا يقال فينا أو يقال عنا...

الثاني : هل سنكتفي بالتعاضد والتساند، وهل سنكتفي برواية الشاعر العربي :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد ؟!

أم إننا قررنا أن نواجه المشكلة ونجابهها وأن نحسب لها حسابها ونعد لها عدتها..؟

نعم إن البلد العربي المسلم الذي لي الشرف بتمثيله هنا لأول مرة في اجتماع القمة، ذلك البلد، كله أمل في أعمالنا هذه، وهو مؤمن بأننا سوف نخرج من هذا المؤتمر بحد أدنى من القرارات الإيجابية...

سمعت الكلام عن فلسطين... فمن المتكلم عنها ؟ من سيقيم أساسها ؟ من سيدافع عن حقها ؟ من سيجمع كلمتها ؟

سمعت الكلام عن نهر الأردن ولم أر هنا أية خريطة من أي بلد كان تصور لنا المشكلة وتعرض علينا الحلول اللازمة.

سمعت الكلام عن اللاجئين وللأسف أقول : إننا اعتدنا ألا نسمع عن اللاجئين إلا إذا كان الأمر يتعلق بمساومة.

وبعد إشادة بالجامعة العربية «التي آمنا بها - يقول جلالة الملك - والذي كانت تساند بلاد شمال افريقيا إبان المحنة...» أقترح إنشاء **هيئة عربية** عليا تهتم خاصة بشعب فلسطين، وتتصدى للتعريف بقضيتها والدفاع عنها بكيفية رسمية أمام المحافل الدولية حتى يمكننا أن نضع إسرائيل في الموقع الحرج، كما اقترح جلالته إقامة هيئة تنفيذية عربية عليا كذلك تجتمع على الأقل ثلاث مرات في السنة لتتخذ التدابير الديبلوماسية والإعلامية، والمادية والاقتصادية لتعزيز الهيأة...

إننا بعددنا وثرواتنا... في إمكاننا أن نحرج عددا من الدول التي هي في حاجة إلينا أكثر من الحاجة التي لنا فيها... إن بإمكاننا أن نقف أمام المحافل الرسمية، وفي هيأة الأمم المتحدة لا لنبكي على الأطلال ولا لننعى فلسطين الذبيحة أو السليبة - كما يقول البعض - بل لنعمل على جمع شمل فلسطين ولنضع لها كيانها الحقيقي... وإذا قمنا بذلك العمل فإن الآخرين سيحسبون لنا الحساب ويقدرون ما يترتب على موقفنا...

إن بلادنا تسمى جغرافيا المغرب الأقصى، ولئن بعدت الدار وشط المزار فنحن أقرب إليكم - إخواني في المشرق - من حبل الوريد، أقرب إليكم منذ العصور الأولى من التاريخ، منذ أن دخل الدين الإسلامي في تلك البقاع من المعمور، فقد كنا جنودا وكنا حملة شعلة العرب وحملة رسالتهم، حملناها إلى الأندلس وإلى تخوم أوربا... ومنذ ذلك الحين ونحن نعتز بعروبتنا ونعتز بانتسابنا إليكم، ومن هنا فإننا ننشدكم أن نخرج بنتيجة في هذا اللقاء...

كونوا على يقين من أن اقتراحاتي صادرة من قلب شعب وحكومة وملك يؤمنون بأن الله سبحانه هو الذي اختارنا جميعا لأن نهدي شعوبنا إلى طريق المعروف وليس لأن نأخذها من الناصية أو من القفا...

إن المغرب الذي لي الشرف أن أمثله يؤكد لكم أنه متضامن معكم في أي قرار ستتخذونه...

وبعد أن يدعو بحرارة إلى وحدة الصف العربي يذكر بأن العالم العربي لا تعوزه إلا الإطارات التي من شأنها أن ترفع مستوى حياتنا ومستوى شعبنا حتى لا نبقى عالة على الغير وحتى يمكننا أن ننشىء بنوكا عربية للتنمية، وحتى يمكننا أن ننشئ ولو سوقا مصغرة مشتركة، وحتى يمكننا أن ننشىء كذلك وحدات جمركية.

وأعتقد أن هذا كله في إمكاننا شريطة أن نتجه إلى العمل البناء... وان لا نتنابذ ونتقاذف، **علينا أن نجعل مواطنينا أمام مشاكلهم اليومية وأن نصارحهم...**

إن معنى هذا أنه **علينا أن نكون في مستوى ماضينا** وفي مستوى حاضرنا وفي مستوى ما ينتظره الشعب العربي منا...

لقد عرف العالم الخير الكثير عن طريق العرب، وعن طريق لغتهم وبواسطة علمائهم وأطبائهم ومفكريهم... فعلينا أن نبقى في مستوى ما نطمح إليه...

وفي جلسة لاحقة أخذ جلالة الملك الكلمة ليتحدث عن المشاكل القائمة ويفصل الكلام فيها بين المشاكل التي يوجد حلها بيد العرب، والمشاكل التي ليس للعرب إزاءها حول، وهنا دعا إلى إسراع الدول العربية بإقامة قيادة موحدة بجيش واحد... كما أنه عبر عن اعتقاده بأن المشاكل التي ليس للعرب إزاءها حول... يمكن - بفضل اتحادنا - أن تصبح هي الأخرى بيدنا !

وإذا نحن - معشر الدول العربية - حددنا سياستنا الاقتصادية وحددنا ما يعاني كل واحد منا من عدم التبعية، إذ ذاك يمكننا أن نصبح بالنسبة للغرب من جهة، وبالنسبة للدول الشرقية من جهة أخرى، بالنسبة للكتلتين معا، نصبح قوة لها مدلولها ولها معناها ويحسب لها الحساب، فالذي أقترح أن يسجل بالإجماع في جلستنا هذه الملتمس الآتي : «أن يعقد مثل هذه الدورة وفي شكلها وبمشاركة جميع رؤساء الدول العربية - على الأقل - مرة في السنة، ودوريا في كل بلد من البلاد العربية حتى نتناقش في المشاكل ذات الأهمية الجماعية...

وهناك مقترح ثان لا أريد تسجيله وإنما أريد أن أوضح فكرتي حوله... علينا قبل كل شيء أن نجعل من فلسطين، حقيقة، تجاهد وتدافع عن نفسها... أعتقد شخصيا أن فلسطين تتمثل في التراب المغتصب، وتتمثل في الشعب المشرد... هناك دول عربية تؤوي بكل تضحية وإيثار، عددا كبيرا من اللاجئين فإذا نحن وكلنا بعض رؤساء الدول على أن يجمعوا أمر هؤلاء اللاجئين حتى يكون ضير فلسطيني، وحتى يتكلموا كلاما واحدا وحتى لا يتفرقوا مذاهب في الأحزاب العربية المشاترة حتى يكونوا قوة سياسية منظمة واحدة، تمكنا عندئذ من خلق الكابوس الذي سوف يتحمل حرب العصابات وحرب الدعاية **في قلب فلسطين...**

فإذا نحن مهدنا لعملنا هذا سياسيا بين الدول العربية، سياسيا إزاء الكتل، تمكنا من أن نحرر أنفسنا شيئا ما من المعونة الأجنبية... وإذا نحن تمكنا إذ ذاك من الشروع فورا في العمل، وإذا نحن مهدنا لقيادة عسكرية، جعلنا كل بلد عربي في مأمن من هجوم ضده يتعرض له صباح مساء...

يجب علينا أن لا ننسى أن قضية نهر الأردن هي جزء من كل... وأن المشكل هو مشكل فلسطين... ولكن هنا يمكنني أن أقول : قد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، وقد توجد - بواسطة النهر - تلك المخططات وتلك التدابير التي تمكننا من أن نضع الخطط الناجحة لحل قضية فلسطين...

هذا ما أقترحه بكل تواضع... وهو نظر **شاب عربي** مسلم ساعده الحظ أو شرفه لكي يشارككم لأول مرة في اجتماعكم المبارك هذا...

☆ ☆ ☆

لقد أثار خطاب جلالته في هذه القمة أنظار القادة العرب نظرا لما تضمنه من مصارحات وحقائق وتميز به من وضع النقط على الحروف، كما يقولون، وخاصة حول القضية الفلسطينية التي ظلت مشغلته كملك عربي شهم...

وفي إحدى الجلسات أخذ جلالته الكلمة ليعلق على تقرير الدكتور محمد أحمد سليم الخبير في الري متسائلا عن الأسباب التي منعت من الشروع في العمل إلى يومنا هذا... وهل هناك موانع مالية أم أن الأمر يتعلق بعائق فني ؟

في مثل هذه الأجواء وعلى هذا المستوى كانت تدخلات العاهل الكريم طوال الأيام التي أقام فيها جلالة الملك بالقاهرة... وأقتصر هنا على ذكر بعض العناوين التي وردت في الصحف المصرية بحروف غليظة : الملك الحسن يصل وبعده طائرة تحمل الضباط المصريين الخمسة الذين كانوا محتجزين بالمغرب...

العاهل المغربي يقول للرئيس المصري : نبدأ صفحة جديدة ثم يستدرك على الفور قائلا : «إن طائرة أخرى قادمة وراء طائرته تحمل الضباط الخمسة... العقيدان : عباس شاهين، رضا صابر قدري، المقدم عبد الخالق عطية، النقيبان : أحمد فؤاد هويدي، فاروق عبد الحميد الفقي...

وقد ظهر جليا أن صاحب الجلالة والفخامة الملوك والرؤساء وجدوا في تدخلات الملك الشاب ما كانوا يتوقون إليه من صريح القول وجمال الأحدوثة، ومن هنا وجدنا الرئيس عبد الناصر - وقد علم أن جلالة الملك الحسن يعتزم التعجيل بالعودة إلى المغرب نظرا لقرب حلول شهر رمضان 1383 - وجدنا الرئيس يحرص على إبلاغ القادة العرب ما يلي :

«إن جلالة الملك ملك المغرب سيغادرنا مبكرا ونحن نريد أن ننتهز هذه الفرصة خصوصا وأن قضية فلسطين وقرارات مجلس الدفاع المشترك تهم المغرب... نقترح ألا نتوانى في أن نسهر بعض الشيء بحيث نستطيع أن ننهي المؤتمر في أسرع وقت ممكن وليتنا نستطيع إنهاءه قبل شهر رمضان...».

وبما أن جلالة الملك عاد مع مطلع شهر رمضان، فقد أرسلت له نسخة من قرارات الملوك والرؤساء ليوقعها بنفسه تعبيرا منه عن اهتمامه بالقضايا العربية التي اجتمع من أجلها مؤتمر القمة...

تلكم نظرة عن الملف الخاص بالحضور المغربي في القمة العربية الأولى بالقاهرة... وهي تؤكد جيدا المصداقية التي يتعامل بها المغرب مع قضية فلسطين منذ ربع قرن...

ومن ثمة انطلقت مسيرة المغرب الواعدة مع الجامعة العربية ككل والدول العربية على انفراد ولم يكن يمضي عام أو شهر أو أسبوع أو يوم دون أن تكون القضية العربية في صدر الملف الذي يهتم به العاهل المغربي إلى القمة التي حملت اسم «الانتفاضة» والتي عقدت في عاصمة الجزائر في الأشهر الأخيرة من السنة المنصرمة...

الرباط : عبد الهادي التازي

مفهوم الأمّة والوطنيّة في المغرب والجزائر

من خلال عرض كتابين

للأستاذ قاسم الزهيري

بعد مرور أزيد من ربع قرن على استقلال دول المغرب العربي أخذت تصدر أبحاث تاريخية رصينة بأقلام وطنية وأجنبية تختلف عن مثيلاتها التي كانت تصدر أيام الاحتلال عن مؤرخي ومنظري الاستعمار. لقد كانت هذه الفترة كافية لظهور جماعة من الباحثين من أبناء المغرب العربي الذين أخذوا على عاتقهم تصحيح المفاهيم والكشف عن الحقائق التاريخية، بينما تفرغ كثير من الباحثين الأجانب إلى التنقيب عن دفائن تاريخ هذه المنطقة بكثير من الموضوعية والنزاهة العلمية.

لأن كانت أبحاث المواطنين ساعدت على تجلية بعض ما تحتويه كثير من المخطوطات والمؤلفات القديمة التي يصعب الحصول عليها لنفاذ الكثير منها، فإن دراسات الباحثين الأجانب تعتمد بالإضافة إلى بعض هذه المراجع على مصادر في شتى المكتبات الخارجية الغنية بالتراث العالمي : ولأن كانت دراسات المواطنين - رغم مايبذله أصحابها من جهد موضوعي - تتعاطف مع القضايا التاريخية التي تتعامل معها، فإن الباحثين الأجانب المحدثين كثيراً مايفحصون القضايا بمشاعر مجردة محايدة، ومن هنا تتجلى أهمية مايصدر عن المنصفين منهم.

في هذا السياق يمكن إدراج كتابين صدرا منذ بضعة أسابيع : أحدهما عن المغرب، والآخر عن الجزائر في الوقت الذي تم فيه لقاء قائدي القطرين فحققا خطوات مهمة على طريق التعاون الثنائي من جهة، وهيأ مناخاً طيباً لقيام وحدة المغرب العربي المنشودة.

نبدأ بالكتاب الأول للأستاذ جاك كاني وعنوانه : «الأمة والوطنية في المغرب»، ويقع في 782 صفحة.[1]

الأُستاذ جاك كاني معروف في الأوساط الجامعية بالمغرب، حاصل على دكتورة الدولة في الدراسات العربية والإسلامية، منقطع الآن للبحث في معهد البحث العلمي بالرباط وله عدة مؤلفات عن تاريخ المغرب العربي. ومؤلفه الجديد يدخل في هذا الإطار. وقد قاده البحث إلى الكشف عن جذور الأمة المغربية ورسم معالمها ووصف

---

1) Nation et nationalisme au Maroc : Jacques CAGNE éditeur : Dar Nachr Almaarifa.

حقيقتها منذ العصور الغابرة إلى اليوم استناداً على ثوابتها التاريخية وخصوصياتها الذاتية. يقول المؤلف في مقدمته :

«جرت العادة أن يجعلوا نقطة انطلاق الوطنية المغربية ابتداءً من سنة 1930، وهي السنة التي توجه فيها المؤمنون إلى الله «كي يلطف بهم في ماجرت به المقادر» مثلما يضرعون إليه تعالى في أكبر مساجد المغرب كلما حزبهم أمر أو وقع تهديد للإسلام...».

«لكن سرعان ما خلصنا إلى الملاحظة بأن حركة الاحتجاج والمقاومة التي انطلقت في 1930 لايمكن أن تفسر في الواقع دون أخذ ماسبقها من أحداث بعين الاعتبار، وجوهر هذه الأحداث يشكل في الحقيقة لحمة التاريخ المغربي... يجب الغوص في أعماق الماضي إذا أردنا أن ندرك تمام الإدراك أصول هذه الوطنية وقوتها واستمراريتها».

ويضيف الأستاذ كاني قائلاً :

«أغلب المؤرخين يشددون على أن المغاربة مذ كانوا وهم يعملون ويكافحون للدفاع عن استقلالهم والمحافظة على شخصيتهم. فإذا أردنا ذكر كل فترة من فترات هذا الكفاح، قادنا الأمر في الواقع إلى كتابة تاريخ المغرب بصورة مفصلة. لذا فسنجتزئ بتقديم بعض مظاهر إرادة الاستقلال عند المغاربة مما نعتبره خاصة مميزة من خصائص هذه الإرادة».

ثم أوجز الكاتب الخط الذي اتبعه في كتابه قائلاً :

«سنحرص من خلال نظرة خاطفة على أن نبين في البداية وجود إرادة الاستقلال سواء في الفترة التي سبقت الإسلام أو بعدما اعتنق المغاربة هذه العقيدة، ثم سنوضح بالحجة استمرار هذه الإرادة ونقيم الدليل على قوتها في بداية القرن العشرين أي في الوقت التي أصبح فيه وجود المغرب مهدداً كدولة ذات سيادة».

انطلاقاً من هذا الرأي قسم السيد جاك كاني كتابه إلى ثلاثة فصول جزأ كلاً منها على عدة أبواب :

فالفصل الأول يحمل عنوان : إرادة الاستقلال؛

والفصل الثاني يحمل عنوان : إرادة الإصلاحات؛

أما الفصل الثالث والأخير فيحمل عنوان : الأمة المغربية، وقد أوضح المؤلف بالأدلة الراجحة أن إرادة الاستقلال وإرادة الإصلاح ظلتا متلازمتين عبر تاريخ المغرب منذ العصور الخالية إلى عصرنا هذا؛ وشكلتا القاعدتين الأساسيتين اللتين ترتكز عليهما الوطنية المغربية.

استعرض الكاتب تعامل المغرب مع قرطاج وروما وما بذله قادته الوطنيون إذذاك من مقاومة مسلحة وما جرى من انتفاضات شعبية في عهد الأسر المحلية التي تعاقبت على الحكم : منها أسرة بوكوس وأسرة ماسيل وأسرة باكاط؛ وقد أنجبت حكاماً قاوموا الغزو الأجنبي قبل التاريخ الميلادي بقرنين على الأقل وفي الفترة الفاصلة بينه وبين ظهور الإسلام، إذ برزت منذ ذلك الوقت إرادة الاستقلال في المغرب «بوجود جماعات منظمة ومرتبة اجتماعياً وسياسياً في شكل دولة أو دول على نمط ملكي» على حد تعبير المؤلف، كما تجلت إرادة الإصلاح إذذاك بالاختلاف في النزعة الدينية مع روما.

ثم جاء الفتح الإسلامي، فتجلت إرادة الاستقلال في ردة البربر اثنتي عشرة مرة حسب مقولة ابن خلدون، وفي ظهور الخوارج البرغواطيين، فلما استتب أمر الإسلام، قامت الدولة الإدريسية وأعقبتها الأمبراطوريات المغربية الكبرى بمعزل عن المشرق.

وبعد سقوط الأندلس وتوالي الاعتداءات على المغرب من طرف البلاد الإيبيرية (اسبانيا والبرتغال) جاءت ردود الفعل قوية من لدن الحركات المرابطية والطرق الدينية والأشراف العلويين، فنظم الجهاد ضد العدوان السافر على التراب الوطني بكل الوسائل حتى صد على أعقابه باستثناء بعض الجيوب.

ثم اشتعلت المقاومة المسلحة بعد ذلك من أقصى المغرب إلى أقصاه، سهوله وجباله، وهاده وشواطئه من واحات الصحراء إلى الحدود الجزائرية وناحية وجدة وبني

يزناسن والريف والدار البيضاء والشاوية لما أخذ الاستعمار الأوروبي يشره إلى التوسع في المغرب. «لقد كانت إرادة الاستقلال أحد ثوابت تاريخ المغرب في دائرته الجغرافية المرسومة، وظلت على حالها تقريباً منذ القرن السابع عشر ثم ظهرت بصورة كاملة في غضون العشرين التي سبقت بسط نظام الحماية، وأصبحت أهم الأسس التي ارتكزت عليها حركة مقاومة الشعب المغربي في تلك الفترة المعارضة أطماع الاستعماريين الأوروبيين» على حد تعبير جاك كاني.

وخلص المؤلف بعد ذلك إلى إرادة الإصلاح التي تجلت في المغرب منذ أربعة قرون خلت والتي عقد لها فصلاً مسهباً تعرض خلاله للتيار السلفي ولتأثير رواده الأولين : الأئمة أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن القيم الجوزية مشفعاً إياهم بمحمد عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي، هذا عن أثر المشرق في الحركة الإصلاحية التي نشأت ببلادنا، أما رواد الإصلاح المغاربة، فقد خص بالذكر منهم السلطان محمد بن عبد الله والسلطان مولاي سليمان وأحمد بن خالد الناصري صاحب الاستقصا، وأبا شعيب الدكالي، ثم ان من جملة العوامل التي ساعدت على الإصلاح أفواج حجاج بيت الله الحرام والطرق الدينية والطلبة المغاربة الذين ذهبوا إلى المشرق وخاصة إلى الأزهر للدرس والتحصيل وقد بلغ عددهم في 1905 نحو الثلاثين؛ بالإضافة إلى الحركة التجارية مع الخارج حيث كان التجار يحملون معهم الأفكار الجديدة إلى المغرب، وتأثير الصحافة السلفية التي كانت ترد من الخارج وفي مقدمتها «العروة الوثقى» و«المنار».

ظهر في خضم هذا التفاعل الفكري تيار من التجديد سبقته ومهدت له أحداث خطيرة جرت على ساحة المغرب العربي، ومنها احتلال الجزائر وهزيمة الجيش المغربي في إيسلي 1844 واحتلال تطوان سنة 1860 وغزو تونس بعد ذلك «آنذاك بدأ تيار من التجديد يتأكد في المغرب مستهدفاً في نفس الوقت الانفتاح على الخارج وتطبيق إصلاحات من شأنها أن تصنيف الفجوة الموجودة بين المغرب والأقطار المتوفرة على مؤسسات تتلاءم مع ظروف العالم المعاصر والتي حققت إذذاك نهضة اقتصادية».

على هذا الصعيد يندرج «مجلس الأعيان» الذي عينه المولى عبد العزيز سنة 1905، وهي السنة التي جاء فيها وزير فرنسا المفوض بطنجة سان روني طايانديي إلى فاس حاملاً معه قائمة من «الإصلاحات العسكرية والاقتصادية والنقدية» كانت تريد الحكومة الفرنسية تطبيقها في المغرب؛ فأحاله العاهل المغربي على مجلس الأعيان الذي كان يتألف من سراة وعلماء من مختلف أنحاء البلاد، لكن ممثل فرنسا رفض التحدث إليهم، لقد اعتبر الفقيه محمد الحسن الحجوي مجلس الأعيان بمثابة «أول مؤتمر سياسي من هذا النوع» بينما أكد جاك كاني أن المولى عبد العزيز كان عاهلاً دستورياً وساق كثيراً من الأدلة على ذلك.

كما يدخل في نطاق حركة الإصلاح والتجديد أمر بيعة المولى عبد الحفيظ في بداية 1908، «فلأول مرة بالمغرب اشترط أصحاب البيعة شروطاً مدققة وجعلوا إعلان بيعة العاهل متوقفة على قبوله لهذه الشروط... لقد وقع اختيار المولى عبد الحفيظ من لدن سكان العاصمة الإدريسية : شرفاء ورماة وعلماء وقضاة ونقباء وصلحاء وأعياناً» وبايعه الشعب بعد ذلك على نفس الشروط.

والجدير بالذكر مشروع الإصلاحات الذي تقدم به السيد عبد الله بنسعيد السلاوي إلى المولى عبد العزيز سنة 1901، لقد تقلب هذا الرجل في عدة وظائف سامية، واشتهر «بمشروع الإصلاحات مثلما اشتهر بعدائه للوجود الفرنسي في السنوات الأولى من بسط الحماية» مما سبب له الكثير من المعاناة، هذا، وقد كتب الكثير عن مشروع الإصلاحات الذي تقدم به كذلك السيد علي بن أحمد زنيبر السلاوي إلى المولى عبد العزيز بعد انعقاد مؤتمر الجزيرة سنة 1906، والمعروف عن هذا الرجل أنه كان تاجراً وأقام

بالخارج امدا طويلا خاصة بمصر، وكلا الرجلين يعتبران «من كبار رواد الحركة الدستورية في المغرب».

خصص المؤلف الفصل الثالث والأخير من كتابه لشرح مفهوم الأمة المغربية محللاً الإمامة الشريفة وإمارة المؤمنين ومعنى البيعة وموضحاً السلطة المخزنية وذاكراً أعوان هذه السلطة ووظائفهم عبر التاريخ. وانتهى باستنتاج أكد فيه ثنائية طموح الأمة والوطنية المتمثلة في إرادة الاستقلال وإرادة الإصلاح عبر التاريخ مما «أتاح لنا - يقول جاك كاني - أن ندرك تمام الإدراك الركائز الأساسية التي اعتمدت عليها حركة المقاومة للغزو الأجنبي والتي اتسع نطاقها في بداية هذا القرن حتى شملت الإقليم بأسره، تلك المقاومة المسلحة التي استمرت، ثم تقلصت مع مرور الأيام لتنحصر في الجبال والصحراء وتنتهي سنة 1934 في بوزكارن جنوب غرب جبال الأطلس الصغير في الوقت الذي اتخذت فيه المقاومة شكلاً سياسياً وبرزت بقوة فائقة، ثم توحدت المقاومة العسكرية والمقاومة السياسية في النضال خلال السنوات الأخيرة من الحماية».

لقد أثرى السيد جاك كاني المكتبة المغربية ببحث نفيس وبمرجع من أهم المراجع التي لاغنى للباحثين عنه. إضافة إلى الهوامش القيمة التي تبلغ المئات، والصور والخرائط والرسوم والوثائق التي حصل عليها في المكتبات الخاصة والعامة داخل المغرب وخارجه، والشهادات التي تلقاها من المختصين، أفرد المؤلف نحو مائة صفحة للكتب والمراجع. هذه البيليوغرافية وحدها ثروة لاتقدر بثمن. وخلاصة القول فهذا الكتاب من الكتب التي لايستغنى عنها. ولا محيد لمن يهتم بتاريخ المغرب من الرجوع إليها.

☆ ☆ ☆

الكتاب الثاني الذي نود الحديث عنه بشيء من الإيجاز هو كتاب صدر أخيراً بفرنسا تحت عنوان : «مصادر الوطنية الجزائرية للسيد بنجمان سْطُورَا ويقع في مائتي صفحة.[2]

لقد صدر العديد من الكتب باللغة الفرنسية عن الجزائر والحرب الجزائرية بأقلام أبناء القطر الشقيق وكثير من الأجانب خاصة منهم الباحثين الفرنسيين، ونادراً مايمر حول دون صدور جديد في الموضوع على شكل شهادات أو حكاية وقائع الحرب التحريرية التي استمرت ثماني سنوات أو تحليل دوافع تلك الحرب.

أما الكاتب بنجمان سطورا، فلم يكتف بسرد الوقائع ولم يقتصر على الأحكام العامة التي خلد إليها الكثير من الكتاب، بل اختار طريق التحليل السوسيولوجي المتعمق لفهم الظروف التي أدت إلى ثورة فاتح نونبر 1954. لقد تلقى مجموعة من المعلومات والأخبار عن ستمائة مسؤول جزائري، أخضعها إلى التحليل العلمي الدقيق ثم استنتج منها الخطوط العريضة القوية للوطنية الجزائرية ونشأتها وخاصياتها وخوضها حرب التحرير، والكاتب من المتخصصين في شؤون الجزائر والمطلعين على ما جريات الأحوال بها منذ نشوب هذه الحرب. ولما اشتمل عليه من معلومات ثمينة يعد الكتاب تاريخاً اجتماعياً وسياسياً لفترة معاصرة من الجزائر.

ثم إن الكتاب يحتوي على دراسات حول الوطنية الجزائرية التي تستمد قوتها من التراث الإسلامي من جهة والتيار الاشتراكي من جهة ثانية. وتكتسي هذه الدراسات أهمية خاصة في هذا الوقت الذي يدور فيه الحوار من جديد في القضايا الأساسية على مستوى القيادة والشعب والجزائري.

الرباط : قاسم الزهيري

(2 Les sources du nationalisme algérien : Benjamin STORA éditeux : L'Harmattan

نظرات في

طبيعة الدولة المغربية

للدكتور محمد الكتاني

- 1 -

سنحاول في هذه المقالة أن ننظر نظرة نقدية إلى التقويم التاريخي الذي كاد بعض المؤرخين الغربيين أو المغاربة أن يقطعوا بصحته فيما يتصل بقيام الدول المتعاقبة في المغرب منذ الفتح الإسلامي. وهو اعتبارها دولا قد نشأت تحت تأثير الهاجس الديني وحده وأن حركاتها المتوالية كانت حركات إيديولوجية دينية فقط وأن تاريخ المغرب تبعا لذلك ظل مصيره رهينا بالانشقاقات المتعاقبة على الصعيد المذهبي إن لم يقل «إن كل فعل سياسي جوهري في المغرب كان من جوهر ديني».

«وهناك رأي وسط يرى أن قيام الدول المغربية كان يلبي هدفا مزدوجا دينيا وسياسيا، وكان يجد وعيا متزامنا من الشعور الانقسامي والمغربي فعنصر التوسط هو بالتأكيد جد هام».[1]

وهذا التقويم لايصدر إلا عن فكر يميز بين الدولة القومية، والدولة الدينية حسب التصور الغربي لمفهوم الدولة.

والإشكال المصطنع في هذا التقويم يفصل بين الدين والسياسة، ويتجاهل أو يجهل أن جوهر الفعل الديني في مجال الحياة الإنسانية هو فعل سياسي بالأساس، لأن الإسلام - وهو الدين المقصود في هذا الموضوع أو التحليل - لا يتصور حياة الفرد المسلم خارج إطار سياسي، أي نظام سياسي هو نظام الخلافة أو الإمامة أو الإمارة بالشروط المقررة لهذا النظام، التي تحدد حقوق الحكام والمحكوم وواجباتهما على حد سواء. ولذلك ينبغي توضيح أن السياسة إن كان يعنى بها - هنا - هي الحكم بدافع غير إيديولوجي البتة فلن تتمثل في غير النظرية الخلدونية القائلة «بالعصبية» فابن خلدون يقول : «فصل في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية».[2]

ورأي ابن خلدون يحتاج إلى توضيح في ضوء نظريته العامة من ناحية، وفي ضوء التاريخ المغاربي الذي استمد منه كل الأمثلة التي قادته إلى النتائج التي انتهى إليها. لذلك يبدو لنا أنه لابد من إعادة النظر في طائفة من الأحكام الوثوقية والمتعجلة المتعلقة بتاريخ المغرب في هذا المجال.

1) تاريخ المغرب. عبد الله العروي : (المعرب) 106.
2) المقدمة. تحقيق وافي. ج 521/2.

فعندما أخذ العلامة عبد الرحمن ابن خلدون (808 هـ) يكتب مقدمته المعروفة لتاريخه العام الذي أنجزه كان يشعر بضرورة اكتشاف (القانون) أو مايشبه القانون الفاعل في قيام الدول وانهيارها، نظير ما كان يحاول أن يكتشفه تجاه كل الظواهر الإنسانية والاجتماعية التي عرض لتحليلها في (المقدمة).

وانشغال ابن خلدون بالقانون العام للظواهر هو الذي جعله رائدا من رواد علم الاجتماع، إن لم يكن الرائد الأول من غير منازع. لأنه سبق غيره من كافة المؤرخين والفلاسفة إلى اعتبار الظواهر الاجتماعية أشبه بالظواهر الطبيعية التي تخضع لمبادئ التسلسل والتعاقب العلّي، الذي يمكن معه التنبؤ. وأن تلك الظواهر لاتنشأ بسبب الصدفة أو الاتفاق. كان ابن خلدون منشغلا بهذا الهاجس العلمي سواء عبر عنه أو لم يعبر عنه أو ألمح إليه مجرد إلماح.

إلا أن هذا الفكر العلمي لدى ابن خلدون كان قد اعتمد الاستقراء الناقص في مجال ظاهرة نشوء الدول العامة والعوامل الفعالة في نشوئها وانحلالها[3] فإنه كان ملما بالمحيط المغاربي الذي نشأ فيه وعركته التجارب السياسية التي عرفها ووعى عن كثب ما كان يحرك ذلك المحيط من عصبيات وانقسامات.

ولذلك نزعم أن ابن خلدون كان أصح رأيا فيما يتصل بأحوال الاجتماع المغاربي وما عرض له من أطوار العمران ونشوء الدول وانحلالها. وقد تصور طبيعة ذلك الاجتماع مؤلفة من عناصر متناقضة فاعلة مؤثرة في بعضها على نحو من الجدل (الهيجلي) فثنائية التوحش والتمدن تكون في حالة تمايز وتناقض في طور، ثم تصير في حالة تفاعل (مغالبة) في طور، ثم تصير في حالة انصهار (تحول المتحوش إلى متمدن) في طور أخير. وعندما يصير المتوحش متمدنا مغرقا في الترف عاريا من كل خصائص المقاومة والمطالبة يصبح واقعا على طرف النقيض من حالة توحش أخرى، صاعدة مطالبة بالسلطة، نازعة للتملك. وهذا ما يطبع العلاقة بين البدو والحضر، أي الطرفين المتفاعلين في الاجتماع الإنساني حسب تصور ابن خلدون أو حسب تحليله، وقد حصر نفسه في المجتمع المغاربي الذي كانت تتفاعل فيه قوى (البتر) و(البرانس)، والبدو الرعاة، والمتحضرين من أهل الصنائع والترف، والعصبيات القبلية هنا وهناك. ووراء ذلك تفسير جاهز. فطبيعة الاجتماع البشري تقتضي التعاون على تحصيل المعاش، فإن كان المعاش من استغلال الحيوان أو الأرض الزراعية كان مسرح هذا التعاون أو مجاله الوحيد هو البادية أو مناكب الأرض الصالحة للانتجاع. وإن كان المعاش من استثمار المهارات الصناعية والعقلية والآلية كان مسرح هذا التعاون الوحيد هو المدينة. على أنه لابد للثاني من الأول (ضرورة) لتوفير الغذاء ولابد للأل من الثاني (كمالا) لتوفير الرفاه.

إلا أن كل مجتمع المجتمعين المذكورين، البدوي، والحضري، لابد له من الاستقرار لتحقيق المعاش. والاستقرار لابد له من تحقيق الحماية للمصالح ومدافعة المغيرين والمتطاولين والطامعين. فأما البدو فالمنعة عندهم متأتية من العصبية القبلية، والشعور الغريزي بضرورة التضامن على أساس اعتقادهم بكونهم من أصل واحد، ومن أرومة واحدة. وأن بقاءهم رهين بنصرتهم بعضهم لبعض. وطباعهم أقرب بحكم المجال الطبيعي للعيش إلى الخشونة والتوحش بالاعتماد على القوة والجسارة والإقدام. وأما الحضر فالمنعة عندهم مكفولة بيد غيرهم، وهي السلطة القائمة عليهم، التي يمدونها بالمال والجابية والرضوخ لأمرها ونهيها، شعورا منهم بأنهم بدون تلك السلطة عاجزون عن صيانة أنفسهم وأعراضهم ومكاسبهم تجاه المغير والطامع والمتطاول. وذلك لأنهم باستكانتهم للترف وزوال صفات الجسارة والإقدام

3) وافي : المقدمة ج 229/1.

والتوحش لـديهم بفعل الترف تنزلوا منزلـة النسـاء والولـدان الذين لابد لهم من قوة خارجية لحمايتهم.

وتلعب (العصبيـة) القبلية الـدور الأسـاسي في تحقيق المنعـة للبـدو، وذلـك لأن المجتمع البـدوي يتكـون من وحدات عصبية في مستوى العشائر والبطون والأسر، فتتأتى الريـاسـة لعشيرة يتجلى فيهـا الالتحام بصـورة أقوى «فـإذا وجب ذلـك تعين أن الريـاسـة عليهم لا تـزال في ذلـك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم»[4] ويعلل ابن خلدون ذلك بصورة علمية عندما يقول بأن العصبيـة بمثـابـة المزاج للاجتمـاع، ولا يتحقق المزاج إذا تكـافـأت العنـاصر، وإنمـا يتحقق إذا تفـاوتت، بحيث يكون لبعضهـا تـأثير في البعض الآخر. وهكـذا لابـد لأي حكم سيـاسي من أن يقـوم على تعايش عناصر بعضهـا أقوى من بعض لتحقيق ذلـك المزاج، والتسـاكن. وهـو أمر ظـاهر في قيـام العصبيـة القبليـة ذات الشوكة والرياسة.

«وذلك أن الرياسة على أهل العصبية لاتكون في غير نسبهم، لأن الريـاسـة لاتكون إلا بالغلب، والغلب إنمـا يكون بالصعبيـة كمـا قـدمنـاه، فلابـد في الريـاسـة على القوم أن تكون من عصبية غالبـة لعصبيـاتهم واحـدة واحـدة»[5] ويلح ابن خلدون على تـأكيـد كون العصبيـة للنسب لاتتحقق في الصورة التي تفضي إلى الشوكة والمنعة إلا في البـدو. وكون هذه العصبيـة تتـأسس من **مكونـات اعتبـاريـة** كـالنسب الواحد والأرومة الواحدة. **ومن مكونات مادية ونفسية** هي الفقر والتـوحش والجـسارة واحتمـال المخـاطر. فـإذا تكـامل للعصبيـة القبلية ذلـك تمكنت من تحقيق الشـوكـة والرياسة على ما دونها، ثم تمضي في اتجاه وحيـد لامحيـد لها عنه وهو تعميم الغلبة وفرض الرياسة على مـا يتـاخمهـا ويجاورها، وهكـذا في اتسـاع واستطـالـة حتى يتحقق لهـا الملك الذي هو غاية العصبيات.[6]

ثم يحلل ابن خلدون حصول الغلبة للعصبيـة الواحـدة على سائر العصبيات الأخرى الممكن تواجدهـا في المجتمع البدوي أو حصول الغلبة للعصبيـة على الـدولـة القـائمـة في المجتمع المدني فيقول :[7]

«ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعهـا التغلب على أهـل عصبيـة أخرى بعيـدة عنهـا، فـإن كافأتها أو ما نعتها كانوا أقتالا وأنظارا. ولكل واحدة منهمـا التغلب على حـوزتهـا وقـومهـا شـأن القبـائـل المتفرقـة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضاً، وزادتها قوة في التغلب إلى قـوتهـا وطلبت غـايـة من التغلب والتحكم أعلى من الغايـة الأولى وأبعـد. وهكـذا دائمـاً حتى تكـافئ بقوتها قوة الدولة، فـإن أدركت الـدولـة في هرمهـا ولم يكن لهـا مـانع من أوليـاء الـدولـة أهل العصبيـات استولت عليهـا وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها، وإن انتهت إلى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة، وإنما قارن حـاجتهـا إلى الاسـتظهار بأهل العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها لتستظهر بها على ما يعن من مقاصـدهـا، وذلـك ملـك آخر دون الملـك المستبـد» وهـو كمـا وقـع للترك في دولـة بني العباس، ولصنهاجـة وزنـاتـة مع كتـامـة، ولبني حمـدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية».

ذلـك هـو الشـأن في قيـام الـدول على أسـاس من العصبية، وانتهاء الريـاسـة أو الزعـامـة للعصبيـة إلى تـأسيس ملك يفرض سلطته على سـائر العصبيـات الأخرى أو يزيح من طريقه أي مؤسـسة أخرى للـسلطة، حسب ما يتهيأ للقوى المتصارعة من عوامل الهزيمة والنصر والظهور أو الزوال.

ولا ينسى ابن خلـــدون أن يحلـل أسبـــاب الـزوال والتراجع للدولة أمـام قوة أخرى آخـذة في التقـدم، بعـد أن حلل أسباب ظهور تلك الدولة وقيـامهـا وحيـازتهـا للسلطة على ماعداها. وهو يعزو تلك الأسباب العـاملـة على الزوال

5) المرجع : ص / 489.
6) المقدمة : 499/2.
7) المقدمة : 500/2.

إلى انغماس القائمين بالدولة في النعيم والترف والاستكثار من كل ما أسباب الراحة والرفاه فتستنكف النفوس من الأعمال الضرورية لحماية الحوزة والمنعة، وتكل ذلك إلى غيرها، وتزول الجسارة والبسالة من نفوس المتمتعين بالسلطة، كما تضعف العصبية فيهم، وعلى قدر ترفهم يكون إشرافهم على الفناء.[8]

فابن خلدون يزاوج بين العصبية والتوحش باعتبار أحدهما يكمل الآخر، فإذا تكاملا كانا قوة جديرة بالمدافعة والمقاومة والمطالبة.

كما يلح على صفتي التوحش والاستبداد اللتين يتم بهما الملك ويستتب وتحصل بهما الهيبة والغلبة على من يألفون الترف والرخاء. ويضرب المثل لذلك بدولة المرابطين التي نزعت من أعماق الصحراء وتطلعت للغلبة والزعامة فحصل لها الملك على سائر أرض المغرب والأندلس من غير منازع. لأن المرابطين كانوا بذلك الوصف من العصبية والتوحش والإيغال في البداوة.

ولا معنى في نظر ابن خلدون لوجود عصبية مع انقيادها لعصبية أخرى أو عجزها عن المدافعة، لأن العاجز عن المدافعة حري بأن يكون أعجز عن المطالبة.

وربما كان أقوى مظهر للمذلة والعجز أن تنزل النفوس عند حكم الدولة في فرض الضرائب والجبايات والمغارم، ولا سيما على الزراع والفلاحين. فكأن ابن خلدون يعتبر الاشتغال بالزراعة بابا من أبواب المذلة والخضوع[9] ويغلط ابن خلدون في سياق التأكيد لما يعتقده الذين زعموا أن زناتة بالمغرب كان شارية (أهل رعي للشاء) يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك لأنهم لو كانوا كذلك لما قام لهم ملك ولا عصبية ولا تمت لهم دولة.

8) ويستشهد بحديث نبوي في هذا السياق. المقدمة 503/2.

9) المقدمة 501/2.

- 2 -

بعد عرضنا لآراء ابن خلدون يمكننا التساؤل : لماذا ركز بالذات على البداوة والحضارة بهذا القدر ؟ ألم تغب عن ذهنه بعض العوامل التي كانت أهم من عاملي الحضارة والبداوة ؟؟ ألم يكن واردا بالنسبة لمنهجه الاستقرائي أن يجيل الفكر في الحقل التاريخي العام الذي يستمد منه أحكامه فينظر في قيام الدول بالشرق الإسلامي. بل وقيام الدولة الإسلامية نفسها دولة المدينة المنورة ودولة دمشق وبغداد ؟ من المؤكد أن كلا من هذه الدول له عوامل لم تلعب العصبية الدور الرئيسي فيها.

وحتى مع الأخذ بقانون العصبية فإنه من تجاهل الواقع التاريخي التقليل من شأن العوامل الاعتقادية والاقتصادية.

لننظر فيما تقدمه النظريات السياسية الغربية المفسرة لقيام الدولة، فبعض هذه النظريات يذهب إلى كون القوة التي تتوفر لشخص أو لجماعة تعتبر نواة الحركة السياسية التي تتطور على المدى البعيد نحو استقطاب جماعات ذات شعور قومي أو سلالي واحد، وتخصيص ذلك الشخص أو الجماعة بالولاء والنصرة.[10]

وتنتهي هذه النظرية إلى الإقرار بأن أصل المجتمعات السياسية كان دائما هو (القبيلة) أو العصبية القبلية. وكانت الحروب أهم أداة في استقطاب الجماعات وإحداث التغييرات المتعاقبة على مسرح الحكم السياسي في التاريخ. ومن العصبية القبلية تطورت الحركة السياسية في العصور الحديثة إلى العصبية القومية.

وتعزو بعض النظريات الأوربية ـ وهي تستمد رؤيتها من التاريخ الأوربي القديم والحديث ـ قيام الدولة القبلية أو القومية لأسباب، منها : ـ قيام سلطة عسكرية قوية، بإرغام مجموعة من القبائل على الدخول في اتحاد

10) من التجزئة إلى الوحدة لنديم البيطار، ص 20. نقلا عن روبير هاري لوي في كتابه (أصل السلطة).

عسكري وسياسي يوحد بينها، ويخلق منها دولة أو إمبراطورية عسكرية تعرف كيف تستغل الكفايات العسكرية في الحفاظ على سلطتها.

- وجود عقيدة ذات انتشار قومي أو قبلي يتجاوز مفعول حدود القومية أو القبيلة، وتشكل في نهاية الأمر ثقافة، أي مجموعة من الطقوس والتقاليد والعادات. ترسخها الدولة القائمة كإطار للحفاظ على المؤسسة السياسية.

- وجود لغة وانتشارها على حدودها القومية، وتحولها إلى لغة مكتوبة، ومن ثم تتحول إلى لغة تمارس تأثيرها في الفكر والثقافة ودعم السلطة.

- وجود نظام اقتصادي يدعم التبادل المنظم بين عدة قبائل وعدة منتجين ومستهلكين، يتجاوز نظام المقايضة، بفضل استحداث وسائل النقل والمواصلات، تستفيد منه السلطة وتستغله لدعم نفوذها العسكري والمادي.

هذه النظرية لا تكتفي باعتماد العصبية والشوكة للزعامة القبلية في صورة عسكرية مستبدة. كأساس وحيد لقيام الدولة. وإنما تضيف إلى ذلك عامل العقيدة وعامل اللغة، وعامل الاقتصاد. وما لهذه العوامل من تأثير في استقرار السلطة وانتشارها ودمج التابعين لها في مشاعر مشتركة. أو صهرهم في بوتقة واحدة من المصالح المتبادلة والقيم السائدة. غير أن هناك من النظريات ما يعطي الأهمية القصوى للسلطة العسكرية، فيرى أن الأساس العسكري أو الغلبة لزعيم عسكري أو قائد سياسي هو الذي يقيم السلطة، ثم تأتي العوامل الأخرى لتكمل بنيانها..

ومعنى ذلك أن الدولة جهاز أساسي في خلق الأمة وليس العكس. وبالرجوع بقدر كاف إلى الوراء نجد مصداق ذلك. فالتاريخ القديم والوسيط لايدلنا على ما يكذب هذه النظرية، أعني أسبقية السلطة الحاكمة على وجود الأمة الملتحمة، فالعامل العسكري هو الذي يمهد

11) المرجع : ص / 23.

12) المرجع : ص / 23.

الطريق للطاعة والالتئام والتجانس والتضامن فيما بعد ذلك باسم الأمة أو الشعب.[11]

وهناك من النظريات ما يعطي الأهمية القصوى للعامل (الإيديولوجي) العقدي، ويرى تقدمه على العامل العسكري والعناصر العقلانية والاقتصادية الأخرى.[12]

ولكن هذه النظريات لاتستطيع أن تنكر أنه كان وراء كل قومية أو عصبية جامعة أسرة مالكة تتجسد فيها تلك العصبية كما تتجسد فيها عبقرية تلك الأمة ومطامحها. والتاريخ الغربي الحديث بذاته شاهد على هذه إثبات هذه النظرية. فالأنظمة الملكية كانت وراء خلق كل القوميات الأوربية وتجسيدها،[13] بقصد أو بغير قصد.

وهكذا ينتهي التحليل التاريخي والسياسي الذي تقدمه مختلف النظريات الغربية عن ظهور دولة الأمة أو دولة القومية إلى أنه لكي يتم بناء أمة يجب أن يتم البناء حول محور. وهذا المحور كان يتمثل دوما بالنسبة للغرب في شخص الملك، حتى أواخر القرون الوسطى.[14] وحتى عندما ظهرت الدول القومية الحديثة ابتداء من القرن السادس عشر كانت تعتمد في تطورها ونموها على تركيز السلطة في يد ملك يمارسها.

- 3 -

إن النظرية الخلدونية والنظريات الغربية عن قيام الدولة تختلف فيما بينها لأن كلا منها يستمد أحكامه وتحليلاته من تاريخ معين، ومن تجارب سياسية لها خصوصياتها. ولكن هل يمكن أن تتعارض التحليلات والوقائع والتجارب التاريخية إلى الحد الذي يصبح معه المؤرخ عاجزاً عن اكتشاف قوانينه العامة.

لاشك عندي في أن ابن خلدون فرض فرضيات مستمدة من التجربة المغاربية بالذات، ولا سيما فيما يتصل بتشكيل القوى السياسية من قانون العصبية والتوحش

13) المرجع : ص / 28.

14) المرجع : ص / 43.

البدوي، ولا شك أنه اصطدم بوقائع وحركات لم تنطبق فيها تلك النظرية. فاضطر من أجل ذلك لإضافة عناصر أخرى لنظرية العصبية وقيام الملك.

فمن ذلك كتابته فصلا يقول في مستهله إنه إذا استقرت الدولة قد تستغني عن العصبية.[15]

فالدولة تكون محتاجة إلى العصبية في بسط سلطانها على من لم يألف ملكها ولا اعتاده من عامة الناس. فإذا استقرت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد الآخر تناست الناس أمر الأولية، ورسخت فيهم عقيدة الانقياد والتسليم بهم وقاتلوا تحت لواء الدولة القائمة قتالهم على العقائد الإيمانية. وتستظهر الدولة حينئذ على سلطانها إما بمن تصطنعهم من الموالي وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها.[16]

مثال ذلك دولة صنهاجة (المرابطين) الذين ضعفت عصبيتهم منذ المئة الخامسة أو ما قبلها واستمرت الدولة لهم مع ذلك بالمهدية وبجاية والقلعة وسائر ثغور إفريقية، وربما انتزى بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها والسلطان والملك مع ذلك مسلم لهم...[17]

وكذلك أمر بني أمية في الأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها واقتسموا خطتها وتوزعوا ممالك الدولة... وهم ليسوا بأهل عصبية، لأن الأندلس ليست بدار عصائب ولا قبائل، ولكنهم استظهروا على أمرهم بالموالي والطرآء على الأندلس من أهل العدوة المغربية من قبائل البربر وزناتة وغيرهم.[18]

ومن ذلك نقضه لكلامه بالجملة عندما تحدث عن قيام دول تستغني عن العصبية. وذلك حينما واجه مثال قيام دولة الأدارسة في المغرب، وقيام دولة العبيديين بإفريقية ومصر. فالمولى إدريس الأول جاء من المشرق وأسس دولة بالمغرب في غير عصبية من قومه وأسرته. وإنما من التفاف قبيلة أوربة ومغيلة حوله وقيامها بدعوته ونصرته. وكذلك الشأن في قيام العبيديين بإفريقية بنصرة من كتامة وصنهاجة وهوارة. وتعليل ابن خلدون لهذه الظاهرة هو استغناء الطالبيين من بني هاشم عن العصبية لما وقر في نفوس الناس من توقيرهم والتسليم بشرفهم ورياستهم.

ويضطر ابن خلدون حين يعرض لهذه الظواهر لإضافة العامل الديني أو العقدي في قيام الدولة. فينص بأخرة على أن المُلك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يحصل بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة. وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه. ولذلك فالدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك لابد من أن تنبعث من دعوة دينية مصدرها نبوة أو دعوة إلى حق. لأن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق. وهكذا يقر ابن خلدون بقانون كان من الأهمية بمكان بالنسبة للتاريخ الإسلامي. فالعامل الديني في نشأة الدولة عامل قوي وحاسم. وكان ابن خلدون قد قرر من قبل «أن المغرب لايحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة.[19] ولا ندري لم خص العرب بذلك، والجماعات الإنسانية في المعهود من تاريخها بعامة تنقاد للأفكار والمعتقدات التي تلائم مطامحها وتطلعاتها في إزالة ظلم قائم أو استبداد غاشم أو تغيير أوضاع تتحيف مصالحها وتعوق تقدمها.

ولذلك كانت العقائد والأفكار التقدمية دائما من وراء كل حركة تاريخية غالبة على غيرها، وهنا نقف وقفة قصيرة لتوضيح أن الدعوة الدينية في المجال السياسي لم تكن بالنسبة لتاريخ المغرب سوى دعوة إصلاحية تنشد تغيير أوضاع أو تقويم سلوك أو تحقيق أهداف لها مساس

15) المقدمة : 522/2.
16) المرجع :
17) المقدمة : 523/2.
18) المرجع :
19) المقدمة : ج 512/2.

بمصير الجماعة وحماية مقدساتها. فالدعوة الدينية من منظور إيديولوجي كانت دعوة سياسية، إلا إن أردنا أن نأخذ بمنطق المؤرخ الأوربي الذي كان يتصور الدين بمفهومه الكنسي، ويؤثر أن يميز بين القومي والديني ما داما متعارضين في الحقل السياسي الأوربي.

نعم إن العامل الديني لايمكنه أن يستغني في تأسيس الدولة عن العصبية. وفي الحديث الصحيح «مابعث الله نبيا إلا في منعة من قومه» فإذا كان الأنبياء الذين يخرق لهم العوائد غير مستغنين عن قوة كقوة العصبية فما بالك بمن سواهم.

ويعزو ابن خلدون سبب فشل كثير من الحركات الإصلاحية التي كان بالإمكان أن تؤسس دولا إلى افتقار القائمين بها إلى العصبية في كل من المشرق والمغرب، ولا ندري كيف يعلل انتصار حركة مهدي الموحدين، وقد كان قال من قبل إنه لم يظهر في عصبية من قومه. صحيح أن كثيرا من الدعوات والحركات ذات الصبغة الدينية أو الإصلاحية منيت بالفشل، ولكن البعض منها حقق أهدافه، وانتهى إلى إقامة دولة إما بفضل توافر العصبية وإما بغيرها.

ضرورة العصبية في قيام الدول كضرورة المبدأ الديني أو الإصلاحي أو الإيديولوجي الذي يؤلف النفوس، ويجعلها تسخو بالتضحيات الجسيمة في سبيل نصرة ذلك المبدأ وفرضه في المجتمع. وقد تتكامل العوامل العصبية والفكرية أو الاعتقادية وقد يستقل بعضها عن بعض.

- 4 -

يمكن إذن تأكيد فاعلية عاملي العصبية والإيديولوجيا متكاملين أو مستقلين في إنشاء الدولة. وبذلك تلتقي مع النظرية الغربية التي أشرنا إليها من قبل. ويمكن المضي مع ذلك في تبين أسباب قيام الدول وزوالها بأرض المغارب خارج العاملين الآنفي الذكر. لا لكوننا نشك في أهمية العاملين السابقين، ولكن لنستظهر ما أمكن ذلك بالظروف المادية المساعدة أو غير المساعدة التي يمكن تحديدها بالعوامل أو الدوافع الاجتماعية والاقتصادية والتي يعطيها البعض الأولوية على ما عداها. وتجاهلها ابن خلدون بالمرة. فهل يمكن عزو هذا التجاهل إلى أنه كان يؤرخ لممالك العرب والبربر الذين حركتهم عوامل مشتركة لم يكن للعوامل الاقتصادية حضور هام من بينها في تشكيل حياتهم السياسية ؟ ذلك مالا يقبله البعض. لاسيما وأن ابن خلدون كان يلح خلال تاريخه ومقدمته على إبراز عامل السلب والنهب والسطو على الحواضر من قبل الأعراب والبدو الرحل، الأمر الذي يجعل الصراع بين الذين يملكون وسائل العيش والذين لايملكون صراعا دائرا وفاعلا في قيام الدول وزوالها. وكان يلح أيضا على كون الترف مفسدا للملك ومؤديا بالمترفين إلى الضعف والزوال. وكان يلح أيضا على كون الترف ويعني به الاتساع في توفير أسباب العيش واستكثار الأسباب المادية المساعدة على الأمن والاستقرار والحماية للثغور بوفرة الأموال وكثرة الجبايات كل ذلك يزيد الدولة قوة إلى قوتها. وكل ذلك يؤول إلى العوامل الاقتصادية التي لم يفرد لها ابن خلدون بابا، ولكنه ذكرها تفاريق في فصوله هنا وهناك.

- 5 -

نحن مهتمون حتى الآن بالدولة المغربية من حيث قيامها منذ بداية الدولة الإدريسية على أسس نريد تمحيصها، وهي نفس الأسس التي يبدو لنا أنها ظلت حاضرة في تشكيل الدول المتعاقبة انتهاء بالدول العلوية التي دخلت بالمغرب الأزمنة الحديثة. ومعنى ذلك أن تلك الدول المتعاقبة كانت من حيث المبرر السياسي حلقات متصلة تشكل وجودا سياسيا ثابتاً، إلى الحد الذي يمكن القول معه بأنها كانت أشبه بالشجرة الراسخة التي تغير أوراقها حسب دواعي التطور والفصول، ولكنها لاتغير جذورها ولا جذعها ولا منبتها.

وليس إثبات هذه الحقيقة تاريخيا بالأمر الصعب. لأنه كان وراء قيام جميع الدول المغربية في الغالب دافع

ديني أو عقدي أو وطني يبلور الفكرة أو المبدأ الذي جاءت الدولة لتحقيقه بصورة أكثر وضوحا أو جاءت لدعم استمراره إن كان قد تعرض لعوامل الزوال. نقول ذلك انطلاقا من اعتبار يجب تحكيمه في الاجتماع المغاربي في موضوع قيام الدول وزوالها وهو اعتبار التأثير الإسلامي أو الديني في نفوس المغاربة. فمنذ دخل الإسلام المغرب ونفذ إلى قلوب المغاربة أصبح فاعلا في توجيه الحياة السياسية حسب ما يراد من توظيفه من جانب الذين يخوضون غمار السياسة، لكنه كان منطقا ضروريا في جميع الأحوال. بل كان المذهب الديني فاعلا في توجيه تلك الحياة السياسية، لأنه لم يسع أحدا تجاهل المذهبية من الذين أسسوا الدول أو خاضوا غمار معارضتها على السواء.

فمنذ قيام الدولة الإدريسية بالمغرب قامت دولة المغرب الإسلامية التي استمرت حتى اليوم. وكان تداول الكتل القبلية أو الأسر الكبرى للحكم في المغرب يخضع لعوامل العصبية التي فسرها ابن خلدون باعتبارها أداة ضرورية لتحقيق السلطة واستتبابها، ولكن هذه الأداة لم تكن غاية في حد ذاتها، وكأنها كلما توفرت لقبيل من الناس تمكنوا من الاستيلاء على الحكم. كما يفهم من ظاهر كلام ابن خلدون.

فالدول المتعاقبة في المغرب كانت من ورائها دوافع دينية ووطنية تتفاوت ظهورا وقوة بين دولة وأخرى.

- 6 -

ماذا نعني بالدافع الوطني أو بالدوافع الوطنية ؟

نعني بذلك ما يعني به في العادة من شعور لدى شعب من الشعوب بوحدة المصير والغيرة على الأرض التي ينتسب إليها ذلك الشعب، والوقوف بصمود في وجه ما يتهددها من غزو أو اكتساح أجنبي.

وبرغم انعدام مفاهيم الوطن والوطنية لدى القدماء من المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ أوطانهم، ومن بين هؤلاء المغاربة، فإن الإحساس بالانتماء للأرض وللإطار الجغرافي الذي يحدد هوية المغاربة كان إحساسا حاضرا وعميقا، وإن لم يتخذ لنفسه مفهوما متداولا. وقد وجد من المؤرخين الغربيين المحدثين من نفى هذا الشعور عن المغاربة بحجة عدم وجود حدود قارة عبر العصور لما سمي المغرب باستثناء ما عرف من تقسيم للشمال الإفريقي على المغرب الأدنى والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى. وبحجة أن التاريخ كان يتحرك بدوافع العصبية القبلية والمذهبية الدينية. وأنه لا أثر للإحساس القومي الشامل في تحريك المغاربة. ولكن تصفح المصادر المتعددة التي تؤرخ للمغرب منذ أقدم العصور تقفنا على ما يغاير هذا التصور الفج أو المغرض. حسبنا أن نعلم أن هذا الإحساس الوطني كان يقوى خلال ظروف الدفاع عن الشواطئ المغربية تجاه حملات الغزو الأجنبي أو تجاه الغزو من أي ناحية أتى. وخلال ظروف التعبئة العامة لمواجهة مخاطر أو مؤامرات يدبرها خصوم المغرب، أو خلال فترات إقامة علاقات دبلوماسية مع الدول الصديقة أو المجاورة.

إن تاريخ المغرب القديم ليس مكتوبا إلا بأقلام يونانية ولا تينية كتبها جغرافيون أو كتبها حكام عسكريون أو رحالة. ولكن صراع البربر وثوراتهم ضد الرومان والوندال والبزنطيين جعل المؤرخ الغربي يحتد غضبا على رفض المغاربة للنموذج الروماني في الحضارة والعقيدة.

ونفس الصمود نجده لدى المغاربة تجاه الفتح الإسلامي الذي دام قرابة الستين عاما. في حين لم تمض أكثر من عشرين سنة على فتح المسلمين لبلاد شاسعة في آسيا ابتداء من بلاد الشام والعراق وإيران وبلاد الهند.[20]

وعندما اعتنق المغاربة الإسلام قاموا بثورات ضد الفاتحين العرب الذي لم يسلكوا السلوك الذي تقتضيه

20) المغرب الكبير. السيد عبد العزيز سالم 132/2.

الأخوة الإسلامية أو العدالة الإسلامية في التسوية بين المسلمين من غير اعتبار عنصري أو سلالي.[21]

وعندما وجد المغاربة ضالتهم في الإسلام أخذوا على عاتقهم نصرة الإسلام في بلادهم ونشره بين قبائلهم من ناحية، كما أخذوا على عاتقهم نصرة الإسلام في الأندلس، من ناحية أخرى وتحقيق الدولة المغربية القوية من ناحية ثانية. لكن الصراع المذهبي بين الفاطميين في المشرق وبين الأمويين في الأندلس جعل المغاربة ينقسمون إلى تيارات لكل منها نظرة وقتية محدودة إلى أن ظهر المرابطون.

ونقف عند المؤرخ الأندلسي أبي مروان ابن حيان (377 ـ 469)ا. فمن خلال كتابه (المقتبس) نستشف تلك النزعة القومية الأندلسية التي تقف في مواجهة النزعة القومية المغربية. كما نجد تلك النزعة (المغربية) واضحة النبرة عند مؤرخ مغربي هو ابن صاحب الصلاة في كتابه (المن بالإمامة).

والعبارة الشائعة يومئذ، على ألسنة الأندلسيين أو المغاربة هي (العدوة) أو أهل العدوة، إذ كان كل فريق يسمي جاره بأهل العدوة. ونجد الاعتزاز واضحا لدى العلماء المغاربة بمغربيتهم في كتاب منها (مفاخر البربر) الذي جمع مؤلفه مادته من نقول مختلفة، من بينها ما كان الأندلسيون قد كتبوه عن المغرب أو أهل العدوة خلال مقاومتهم للنفوذ الأموي أو النفوذ الفاطمي. وهو نفس ما فعله ابن عذاري في (البيان المُغرب).[22]

ونجد الإحساس بالمغربية قويا لدى المرابطين من خلال السفارات التي بعثوا بها إلى الخليفة العباسي ببغداد عقب معركة الزلاقة، لإطلاع الخليفة على مشروع توحيد الدولة الإسلامية في الغرب الإسلامي على أساس الاعتراف بشرعية الخلافة العباسية.

ونجد الاعتزاز بأهل المغرب والغيرة على تاريخهم لدى طائفة من المؤلفين المغاربة حين ردوا أو حين انتقدوا أو حين صححوا ما ورد لدى المصنفين الأندلسيين من تجاوزات وأخطاء كإدراجهم لأعلام مغاربة ضمن الأعلام الأندلسيين لاعتبار من الاعتبارات العرضية. ومن هؤلاء ابن عبد الملك في الذيل والتكملة.[23]

إلا أن هذا الحس الوطني كان يظهر ويستكن حسب الظروف، وربما كانت العصبية والمغامرات في سبيل السلطة والمساومات على الحكم والانشقاقات التي تطفح في ظروف ضعف السلطة المركزية من عوامل تغييب ذلك الحس الوطني. كما أن إحداق الأقطار الخارجية والغزو الأجنبي من عوامل بعث ذلك الحس من جديد. ولذلك عندما اختل ميزان القوى لصالح الغرب، وأصبح المغرب يواجه أطماع الغزو الإيبيري باستمرار تغيرت مشاعر المغاربة، فقد تحولت أهداف الحروب الصليبية نحو الغرب الإسلامي، ونحو المغرب بالذات. وبدأت سلسلة من الهجمات على الموانئ المغربية، كما شرع الأوربيون في تحويل طرق التجارة وصار المغرب بصفة عامة هدفا لسياسة معينة تحالف فيها الإيبيريون والصليبيون وإمارات المدن المتوسطية في إيطاليا. وفي هذا المناخ ازداد المغاربة تحسسا بالأخطار التي تتهددهم كما ازدادوا تحسسا للمشاعر الوطنية والدينية التي تجعل منهم أمة واحدة. ومن غير شك فإن الوازع الديني أو المشاعر الدينية كانت تستجيب بسرعة لتلك التحديات. فظهرت زوايا صوفية متعددة قام بعضها بدور أساسي في التثقيف والتعبئة للجهاد في نفس الوقت. وبقدر ما كانت المخاطر الأجنبية تزداد دنوا بقدر ما كانت تلك الزوايا تخامرها طموحات سياسية لملء الفراغ أو لغياب السلطة المركزية. وفي هذا المناخ أيضا قامت الدولة السعدية وجاءت معركة وادي المخازن لتؤكد

21) تقصد ثورة المدغري.

22) انظر فصله عن فضل المغرب وما ورد فيه من الأخبار والآثار، ج 6/1.

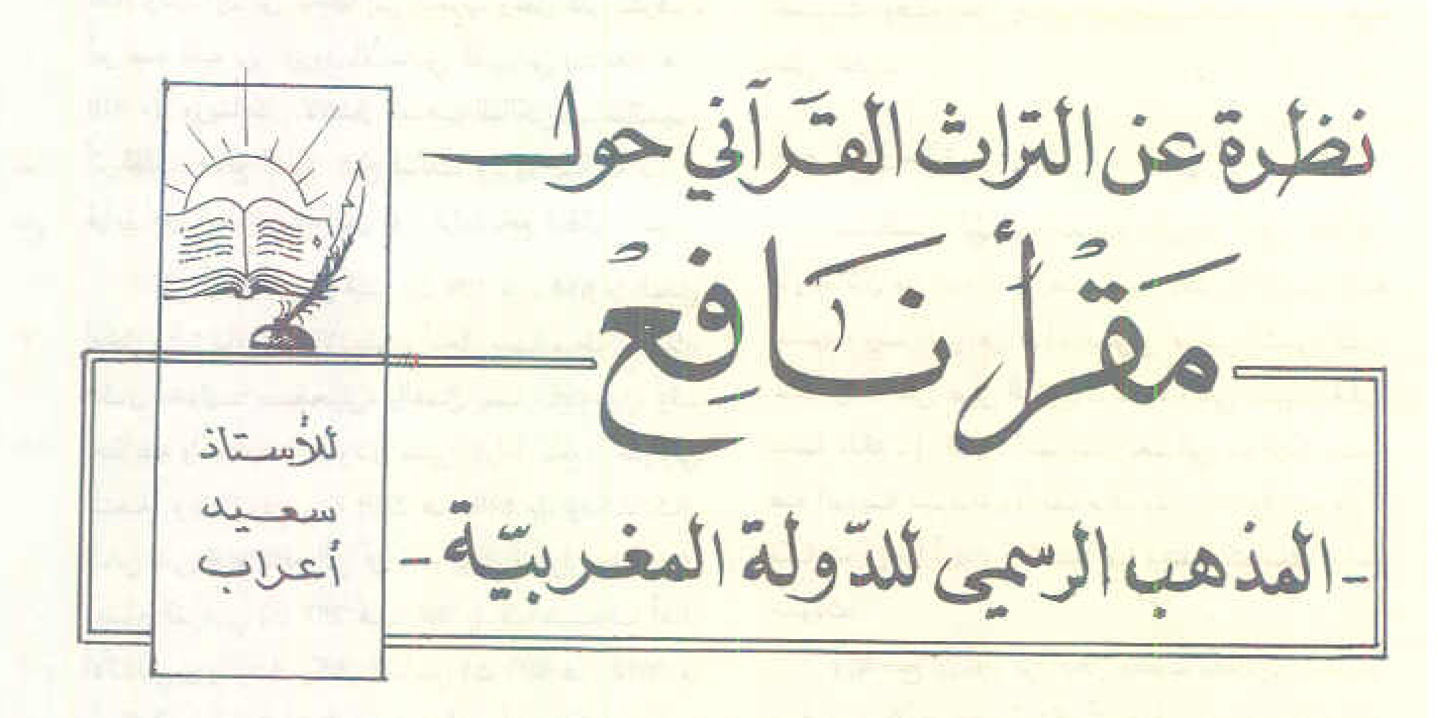
23) انظر (الذيل والتكملة) السفر الأول / 11. والثاني / 88.

الكثير من حقائق التاريخ المغربي ولتضفي على المغرب هيبة دولة كبيرة ولكنها بذرت بذور القومية المغربية، تلك البذور التي أعطت أكلها في عصور لاحقة. أما فترة التجزئة والانقسامات التي ظهرت عقب ضعف الدولة السعدية فلم تكن إلا مرحلة عابرة كانت كل أسرة أو زاوية أو إمارة مستقلة هنا وهناك تريد أن تستغلها لإعادة بناء وحدة مغربية لحسابها. ولم يقدر لواحد منها النجاح في تحقيق تلك الوحدة بقدر ما تحقق للأشراف العلويين. فماذا دفع العلويين إلى النهوض بالأمر وتأسيس دولتهم ؟

نورد أولا النص الآتي للمؤرخ عبد الرحمان ابن زيدان حين تحدث عن المولى محمد بن علي الشريف مؤسس الدولة العلوية، وذلك بعد حديثه عن الخلافة وعن كونها إحدى الواجبات التي تتقلدها الأمة وتنهض بها. قال : «إذا تمهد ذلك فاعلم أن صاحب الترجمة لما رأى ظهور العجز والهرم في الدولة السعدية وعدم انتظام الأمور وكثرة وقوع الخلل في أحوال الرعية والترامي على الخلافة ممن ليس من أهل منصبها ولا ينتظم به أمرها وقويت أطماع المجاورين للإيالة المغربية من الأوربيين وكثر الهرج والمرج وفسدت السابلة وعدم الأمن فيها، وتعذر على السعديين رتق ما انفتق بقيام عبد الكريم بن أبي بكر الشباني المعروف بكروم الحاج وأبي عبد الله محمد ابن أحمد المالكي الزياتي الشهير بالعياشي صاحب المواقف الشهيرة في الإسلام المتوفى شهيدا بعين القصب من بلاد الخلط تاسع عشر المحرم عام إحدى وخمسين وألف والدلائيين برابرة مجاط وبودميعة المذكور آنفا وصنوه أبي حسون كما ذلك مبسوط في غير ماديوان مطبوع. وقد أومأنا فيما مر لشذرات من ذلك على سبيل الإيجاز. وكان من قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتل فقتلة جاهلية كما ورد عن المعصوم عليه صوات الله وسلامه فيما أخرجه مسلم والنسائي عن أبي هريرة. وأنس المترجم من نفسه الكفاية للقيام بأعباء الخلافة وحسم مادة الشقاق وتنازع المسلمين بقمع البغاة المعتدين كما أنسه الناس فيه لما تقدم، ومن وصفهم له مع ماجمعه الله فيه من شرف المحتد وأصالة الرأي وكرم النفس زيادة على ما سبق لسلفه من الجلوس على عرش الملك كما أحكمه التاريخ من أن جده الأعلى الأخص بفرعه النفس الزكية كان ممن تربع ذلك العرش بالاستحقاق، ثم عرضت الخلافة على جده الأوسط المولى علي الشريف من أهل الحل والعقد فامتنع من قبولها. وبهذه الصفة الشرعية انتصب المترجم لإحياء ذلك الموات، وطالب ملك أبيه. لايرمي بالافتيات، ولا سيما بعد تحققه وتحقق أهل بلاده السابقين لمبايعته أنه الكفء الفذ لذلك المنصب السامي. غير أنه حيث كان الموجب الأولي لانتصابه هو ظهور الاختلال وانتشار الغاصبين للمنصب في أركان الإيالة وزواياها لم يجد بدا من تقديم الأهم الذي هو جمع الكلمة والسعي حول محو التشويش والإفساد فلذلك انصرفت أيام ولايته وإن طالت كلها في تمهيد هذا المقصد. فأنفق فيه مبلغ جهده، وإن عاقته الأقدار عن الوصول فيه لحده. ولعله لذلك لما رأى معززه في مقصده أخوه المولى الرشيد أن أخاه لم يبلغ من هذا المقصد النفيس الذي انتصب ونصب له ما يريد ويراد منه تصدى أواخر دولة أخيه في أطراف البلاد لجمع الكلمة. فكان من سعادته فاتقدم تمهيده في ولاية أخيه. والمولى الرشيد وإن قصرت مدته لم ينتقل لدار الكرامة حتى جمع الكلمة في جميع أقطار المغرب فكان أخوه المترجم هو المؤسس والمقتحم لتسوية عقبات الانتظام وصنوه الرشيد هو الذي أكمل الله على يده للأمة أمر تسوية مصالح دينها ودنياها بعد أن فاز أولهما وهو المترجم برتبة الشهادة حيث قتل في حالة الدفاع عن الإمامة المنعقدة له»[24]

أظن أن هذا النص يحدد الظروف العامة التي نهضت فيها الدولة العلوية ودعت إمامها الأول إلى تأسيس دولته بدوافع دينية ووطنية. وإن ما أشرنا إليه في البداية من

24) إتحاف أعلام الناس بجمال. أخبار حاضرة مكناس. ج 139/138/3.



بمناسبة مرور ألف ومائتي عام على تأسيس الدولة المغربية، ارتأيت أن أتحدث عما أسهمت به أقلام مغربية من الدراسات القرآنية حول مقرأ نافع - المذهب الرسمي للدولة المغربية خلال هذه العهود، وهي دراسات تناولت عدة جوانب، ويمكن إجمالها في الموضوعات التالية :

أ - جمع القرآن وتدوينه.

ب - سور القرآن : المكي والمدني.

جـ - الرسم القرآني : الخط الذي كتب به المصحف العثماني.

د - الضبط : النقط والشكل.

هـ - كيفية تحمل القرآن وأدائه.

و - آداب التلاوة وأحكام التجويد.

ز - الوقف والابتداء.

حـ - نظم القرآن : فواصل الآي الممالة.

ط - مناسبات الآي والسور.

ي - نظائر القرآن.

ك - عدد حروف القرآن وكلماته.

وآثرت أن يكون حديثي عنها حسب عصور التاريخ - وهي تختلف مع بعضها البعض في اهتماماتها واتجاهاتها، وأبادر إلى القول بأن نشاطات العصور الأولى - في هذا الميدان - جد محدودة.

قراءة أهل المغرب :

كان الغالب على أهل المغرب - قراءة حمزة، ولم يكن يقرأ بحرف نافع إلا الخواص، ثم اشتهرت لديهم قراءة نافع برواية ورش، واستمر الحال على ذلك إلى يوم الناس

هذا، وكان أول من أدخلها إلى المغرب وعمل على نشرها ـ أبو عبد الله بن خيرون الأندلسي القيرواني (ت 306 هـ ـ 918 م)، وربما كان لانتشار المذهب المالكي بهذه الديار أثر لذلك؛ فنافع القارئ شيخ لمالك، ويروى عنه أنه قال : قراءة أهل المدينة سنة، قيل له : قراءة نافع ؟ قال : نعم.

على أن غازي بن قيس (ت 199 هـ ـ 814 م) الذي أدخل قراءة نافع إلى الأندلس، أدخل معها موطأ مالك، فكان دخولهما مصطحبين، والعمل بهما مزدوجين، وقد أخذ عنه ولده عبد الله، وكان بصيرا بقراءة نافع، رحل إلى طنجة، وبها توفي سنة (230 هـ ـ 840 م)، وهكذا كان الناس على قراءة نافع إلى أن قدم برواية ورش محمد بن وضاح القرطبي (ت 287 هـ ـ 900 م)، فاعتمدها أهل الأندلس ودونوها، وكان القابسي (ت 403 هـ ـ 1012 م) ينصح المعلمين بقراءة نافع، وربما اشترط ذلك عليهم عند مشارطاتهم.

وفي هذا الصدد يقول أبو الفضل الخزاعي (ت 408 هـ ـ 1017 م) : أدركت أهل مصر والمغرب على رواية أبي يعقوب الأزرق عن ورش، لا يعرفون سواها.

ـ ويعني بالمغرب ما يشمل الأندلس، فقد قال أبو حيان الغرناطي (ت 745 هـ ـ 1344 م) في مقدمة تفسيره (البحر) : قراءة ورش هي القراءة التي ننشأ عليها ببلادنا، ونتعلمها أولا في الكتاب.

عناية المغاربة بحفظ القرآن :

امتاز المغاربة ـ منذ القدم ـ بحفظ القرآن واتقان رسمه وضبطه وتجويده، وسيطروا على ذلك سيطرة تامة؛ ولا توجد أمة خدمت القرآن وتفانت في حبه، والاهتمام بشأنه ـ مثل المغرب، وقد أسست لذلك مدارس في الحواضر والبوادي، كانت منار إشعاع لعلوم القرآن، وبرز أئمة مقرئون أثروا المكتبة الإسلامية بمؤلفاتهم وإنتاجهم الخصب، وبوجه خاص مقرأ نافع الذي نسوق إليه هذا الحديث، وهذه بعض إنتاجاتهم حسب العصور المتعاقبة على المغرب.

عصر الأدارسة :

لما تأسست أول دولة مغربية على يد المولى ادريس الأول، كان من بنود دستورها : العمل بكتاب الله، وإقامة حدوده، وقد أعلن عن ذلك المولى ادريس الثاني الذي خلف والده على عرش المغرب ـ عندما بنى مدينة فاس عاصمة ملكه ـ إذ قال : اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة، ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها ويتلى كتابك، وتقام حدودك.

وإذا صح أن أول من أدخل مذهب مالك إلى المغرب هو ادريس الأول، فمن المؤكد أنه عمل على نشر قراءة نافع بهذه الديار، ونجد أن أول مدرسة للقراءات، أسست بسبتة على عهد البرغواطيين موالي الأدارسة الحموديين.

1 ـ وكان أول من دشنها ـ الأديب المقرئ أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري القيرواني المغربي، رحل إلى المغرب عندما وقعت نكبة القيروان عام (449 هـ ـ 1057 م)، وكان ضريرا، سكن سبتة وتولى تدريس القراءات بها، وتخرج على يديه كثيرون، ونرجح أن نظمه للقصيدة الرائية في مقرأ نافع كان بسبتة، وهي تشتمل على نيف ومائتي بيت، يقول في مطلعها :

إذا قلت أبياتا حسانا من الشعر
فلا قلتها في وصف وصل ولا هجر
ولكنني في ذم نفسي أقولها
كما فرطت فيما تقدم من عمري
ولا بد من نظمي قوافي تحتوي
فوائد تغني المقرئين عن المقري

ولعلها أول مؤلف مغربي في مقرأ نافع، وكانت وفاة أبي الحسن الحصري بطنجة، انتقل إليها في أخريات حياته، (ت 488 هـ ـ 1095 م).

2 - ومن الرواد الأوائل في هذا الميدان - أبو عمران الفاسي، له رحلة إلى المشرق، وتردد هناك على مشايخ العلم والقراءات، فكانت له رواية واسعة، وكان مجودا للقرآن بالروايات السبع، عارفا بالرجال المعدلين والمجرحين؛ (ت 430 هـ - 1038 م)، له رسالة ينتقد فيها قراءة أهل سجلماسة.

عصر المرابطين :

عندما قدر لدولة المرابطين أن ترى النور، كانت انطلاقتها الأولى من مدرسة قرآنية أسسها عبد الله ابن ياسين بالصحراء المغربية، وكان من نتائجها : أن اقتلعت جذور الجهل ورواسب التقاليد والعادات، فغرست في نفوس تلاميذها حب المعرفة والعقيدة الصحيحة، وعلمتهم أخلاق القرآن وآداب الإسلام، ومعرفة الحلال والحرام، فأخرجت لنا أمثال أبي بكر اللمتوني الذي رفع راية الجهاد في بلاد السودان ينشر مبادئ الإسلام إلى أن سقط شهيدا في ساحة الشرف، ويوسف بن تاشفين الذي وحد المغرب، ودعا إلى الانضواء في الجامعة الإسلامية.

ولا ننسى ما قامت به مدرسة وجاج بن زلو (ت 445 هـ - 1053 م) من إشعاع، فكانت النواة الأولى للدراسة القرآنية بجنوب المغرب.

3 - ومن الشيوخ الذين كانت لهم إسهامات في هذا الميدان - لهذا العهد - أبو الحسن علي بن محمد بن دري الأنصاري، أصله من طليطلة؛ استوطن سبتة، وخلف الحصري على كرسي الإقراء، (ت 520 هـ - 1126 م)، له كتاب في مخارج الحروف، سمعه منه عياض وغيره.

العصر الموحدي :

كان للموحدين عناية خاصة بعلوم القرآن، مما دفعهم إلى حمل الناس على الكتاب والسنة ونبذ كتب الفروع - إلى درجة إحراقها، وهم الذين أنشأوا قراءة الحزب بين العشائين وبعد صلاة الصبح - حفظا على كتاب الله، وكان يوسف بن عبد المومن من أحسن الناس ألفاظا بالقرآن، وكان ولده يعقوب من المتشددين في العمل بكتاب الله، ويدلنا على ذلك حواره مع أبي بكر بن الجد الذي انتهى به إلى القول : يا أبا بكر، ليس إلا هذا - وأشار إلى المصحف، أو هذا - وأشار إلى سنن أبي داود - وكان عن يمينه، أو السيف !

وكان عمر المرتضى - آخر ملوكهم - يحفظ القرآن برواياته السبع، وقد أدرك المقرئ أبو الحسن الفهمي القرطبي دنيا عريضة لدى يعقوب المنصور وكان مؤدبا لأولاده، يصلي به التراويح في رمضان - بحرف عاصم، ورغم أن يعقوب هذا كان ميالا إلى قراءة عاصم أراد أن يباعد بين الناس وبين مقرأ نافع، كما حاول محو مذهب مالك، فقد ظل يشجع القراء المنتجين، ويغدق عليهم بالهبات والعطايا.

4 - فهذا أبو بكر يحيى بن محمد بن خلف الهوزني الاشبيلي - نزيل سبتة، (ت 602 هـ - 1205 م).

لما رفع إليه أراجيز الحسان في القراءات والتجويد، أجازه عليها وبالغ في إكرامه.

5 - وممن أسهموا في هذا الميدان - لهذا العهد -، أبو الحسن علي بن محمد المرادي البلنسي، دخل مراكش وأخذ عنه طلبتها، وباقتراحهم نظم في الرسم - رجزا سماه (المنصف)، دعا في طليعته لعبد المومن وأولاده، وقد نظمه سنة (563 هـ - 1167 م).

6 - أبو محمد عبيد الله بن عمرو بن هشام الحضرمي الإشبيلي، رحل إلى المغرب، وتصدر للاقراء بمراكش ومكناس، (ت بعد 550 هـ - 1155 م)، له كتاب في قراءة نافع.

7 - أبو الحسين محمد بن عبد الرحمان الإشبيلي المعروف بابن عظيمة، من أئمة القراءات، دخل مراكش، وأخذ عنه كثيرون، (ت 503 هـ - 1148 م). له أرجوزة في مخارج الحروف، وشرح على الحصرية أسماه : «الفريدة الحمصية، في شرح القصيدة الحصرية».

8 ـ أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن كبير الإشبيلي، استوطن مدينة فاس، وكان مقرئا مجودا، تصدر للاقراء بها، وتلا عليه غير واحد من أهلها.

له : «الاتقان، لمخارج حروف القرآن».

9 ـ أبو عمرو مرجى بن يونس الغافقي، من أهل الأندلس، استوطن طنجة وأقرأ بها وبسبتة، وكان من أهل المعرفة بالقراءات، عمر طويلا، وتتلمذ له كثيرون؛ (ت 656 هـ ـ 1258 م).

له شرح على قصيدة الحصري.

العصر المريني :

مما سبق ندرك أنه في حدود أوائل القرن السابع الهجري ـ الثالث عشر الميلادي، بدأت الشخصية المغربية تبرز في عالم التأليف في علوم القرآن، وبالرغم من أن المغرب تأخر في هذا الميدان عن الأندلس والقيروان ـ بمدة تقدر بنحو قرنين من الزمن قضاها في الفتوح والجهاد، فقد استطاع أن يطوي المراحل، ويقطع أشواطا بعيدة المدى، ولم يكد ينتهي عمر هذا القرن، حتى رأينا المغرب يحتل المكان المرموق في هذا المجال، وكان للملوك المرينيين اهتمام زائد بهذه الفنون، فقد بنوا المدارس، وحشدوا لها طلاب العلم، وأسسوا الداخليات، وأوقفوا لها الأوقاف الوفيرة مما يضمن بقاءها وحياتها وكان لعلوم القرآن حظ الأسد في برامج التعليم لهذا العهد، حتى لقد كان لقب الأستاذ لا يطلق إلا على العالم المتبحر في فنون القراءات، وكان من بين الملوك من يحفظ الروايات، ويتلو القرآن بالسبع، وكان تأديب أولاد الملوك والرؤساء مقصورا على هذه الطبقة.

ولقد اتجهت أكثر الدراسات القرآنية في هذا العصر ـ إلى المذهب الرسمي للدولة ـ وهو مقرأ نافع إمام القراء بدار الهجرة، فتأسست مدرسة قراءة نافع، وتحددت معالمها، فدونت في ذلك دواوين، وألفت مؤلفات ـ سواء منها المنظوم أو المنثور، وكان لها جانبان، أو شعبتان :

أ ـ جانب أصول حرف نافع.

ب ـ جانب الرسم والضبط.

10 ـ ومن الشيوخ الذين اهتموا بالجانب الأول (أصول حرف نافع)، وأوفوا على من قبلهم ومن بعدهم : أبو الحسن علي بن بري التازي. (ت 731 هـ ـ 1330 م).

ومن أهم مؤلفاته : أرجوزته «الدرر اللوامع، في مقرأ نافع»، التي طارت شهرتها في الآفاق، وغطت على كل ما ألف في هذا الفن ـ كما يقول ابن خلدون في المقدمة.

وقد ضمنها أصول حرف نافع الذي اختاره المغاربة قراءة لهم، لأنها سنة أهل المدينة ـ كما أسلفنا.

فمن هو نافع ؟

هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمان بن أبي نعيم المدني، أحد القراء السبعة المشهورين، أخذ القراءة عن نحو سبعين من تابعي أهل المدينة، أقرأ الناس دهرا طويلا، وكان إماما عارفا بوجوه القراءات، متبعا لآثار الماضين من شيوخ مالك، ومربنا أن مالكا قال : قراءة أهل المدينة سنة، قيل له : قراءة نافع ؟ قال : نعم. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : سألت أبي : أي القراءة أحب إليك ؟ قال : قراءة أهل المدينة، قلت : فإن لم تكن ؟ قال : قراءة عاصم، وكانت وفاة نافع بدار الهجرة سنة (169 هـ 785 م).

ومن أشهر تلاميذه ورش وقالون :

ورش :

هو أبو سعيد عثمان بن سعيد المصري الملقب بورش، شيخ المحققين، وإمام المقرئين، انتهت إليه رئاسة الإقراء في زمانه، رحل إلى نافع فعرض عليه عدة ختمات، له اختيارات خالف فيها نافعا، وكان ثقة، حجة في القراءات، حسن الصوت، إذا قرأ يهمز ويشدد، ويبين الإعراب، لا يمله سامعه.

(ت 179 هـ ـ 795 م).

قالون :

أما قالون، فهو أبو موسى عيسى بن ميناء بن وردان بن عيسى المدني، أحد القراء المشهورين بالمدينة، إمام في علوم العربية والقراءة، أصم يقرأ عليه القرآن ـ وهو ينظر إلى شفتي القارئ، فيرد عليه اللحن والخطأ، كان ربيب نافع، اختص به كثيرا، وهو الذي سماه قالون لجودة قراءته.

(ت 220 هـ ـ 835 م).

وقد اشتهرت بالمغرب رواية ورش من طريق الأزرق، كما اعتمد الناس كثيرا رواية قالون من طريق أبي نشيط، واصطلح الناس أن يسموا القراءة للإمام، والرواية للآخذ عنه، والطريق للآخذ عن الراوي.

الأزرق :

والأزرق الذي اشتهرت روايته عند المغاربة واعتمدوها إلى اليوم، هو أبو يعقوب يوسف بن عمرو بن يسار المدني ثم المصري ـ ويعرف بالأزرق، أخذ القراءة عن ورش، وهو الذي خلفه في القراءة والإقراء بمصر، كان محققا ثقة، ذا ضبط واتقان، (ت 240 هـ ـ 854 م).

والطرق المشهورة في مقرأ نافع عند المتأخرين ثلاث :

ـ طريق الداني (ت 444 هـ ـ 1052 م).

ـ طريق أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، (ت 437 هـ ـ 1045 م).

ـ طريق ابن شريح، (ت 476 هـ ـ 1083 م).

قال بعضهم ـ : والاختلاف بينها يسير، وقد اختار ابن بري طريق الداني، لأنه الإمام المعتمد في هذا الفن :

سلكت في ذاك طريق الداني
إذ كان ذا حفظ وذا إتقان

الداني :

والداني هو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي القرطبي الشهير بالداني ـ نسبة إلى دانية حيث سلخ فيها شطرا كبيرا من حياته، وبها ألف أكثر كتبه.

بدأ دراسته العلمية في حدود الخامسة عشرة من عمره، ثم انقطع لدراسة القرآن وعلومه نحوا من خمسين سنة، وجاب أقطار الإسلام في المشرق والمغرب ـ طلبا للعلم وشيوخه، حتى حصل في هذا الباب ذخيرة من العلم، جعلته إمام القراء في عصره، ألف في هذا الفن ما يربو على مائة وثلاثين مؤلفا، أشهرها كتاب : «التيسير»، وأوسعها «جامع البيان».

وكتب أبو عمرو : مثال ناطق بإقامته وزعامته في هذا الفن، لما اتسمت به من تحقيق، وعمق وإتقان.

وأرجوزة ابن بري تقع في مائتين وثلاثة وسبعين بيتا، وتحتوي على مقدمة وأربعة عشر بابا وتذييل. أما المقدمة فقد بين فيها الموضوع الذي تناوله، والدوافع التي دفعته إليه، ثم الخطة التي رسمها لنفسه في معالجة مسائل هذا الفن ـ على عادة المؤلفين في إعطاء البيانات الكاشفة عن مناهجهم وطرقهم.

حروف نافع المختلف فيها :

اختلف ورش وقالون عن نافع في أكثر من ثلاثة آلاف حرف : من تحقيق الهمز وتخفيفه، وإظهار وادغام، ومد وقصر، وفصل ووصل، وتفخيم وترقيق، ـ إلى غير ذلك مما ضمنه ابن بري أبواب الكتاب : التعوذ، البسملة، ميم الجمع، هاء ضمير الواحد، المقصور والممدود والمتوسط، الهمز وأنواعه ـ وهو أوسع باب وأكثرها تشعبا، الاظهار والادغام، الامالة، الوقف، ترقيق الراء وتفخيمها، تغليظ اللامات وترقيقها، ياء الإضافة : (ياء المتكلم)، الياء الزائدة.

ـ فرش الحروف المفردة ـ (وهو باب جامع في مسائل متفرقة).

ثم ذيل المؤلف هذه المنظومة ـ بالكلام عن مخارج الحروف وصفاتها، لشدة حاجة القارئ إليها، وهو ألصق بفن التجويد منها ـ بعلم القراءات، وقد تداولها الناس في حياته، وأخذوها عنه، ويحدثنا أبو الحجاج يوسف بن علي

بن عبد الواحد السدوري المكناسي ثم الغرناطي ـ أنه كان يحضر مجالس إقراء ابن بري بجامع القرويين بفاس سنة (723 هـ ـ 1323 م)، وهناك أخذ عنه منظومته، وأقرأها هو بدوره بالمدرسة اليوسفية بغرناطة سنة (774 هـ ـ 1372 م).

وهكذا انتشرت هذه المنظومة بالأندلس والمغرب، فرأينا أبا محمد القيجاطي يقرئها بغرناطة ـ خلفا عن أستاذه المكناسي السالف الذكر، وقد وقع إقبال الناس عليها، وتناولوها بالشرح والتعليق، وقد أحصيت الذين كتبوا عنها، فألفيتهم ينيفون على الثلاثين.

ولعل أول شارح لها ـ أبو عبد الله الخراز الذي سنتحدث عنه كصاحب مدرسة بعد، وعنوان شرحه «المقصد النافع، لبغية الناشئ والبارع، في شرح الدرر اللوامع».

11 ـ ثم شرح أبي عبد الله محمد بن شعيب المجاصي ـ وهو من تلاميذ ابن بري، وقد درسها عليه مرات ـ كما يقول، وفرغ منه عام (727 هـ ـ 1326 م).

12 ـ ثم قاضي سبتة أبو محمد بن مسلم القصري، من شراح الدرر اللوامع، وهو العمدة في نقد رواياتها، وتحقيق نصها، وقد أخذها عن مؤلفها، (ت بعد 768 هـ ـ 1366 م).

13 ـ وأبو عثمان بن آجنا، له شرح على الدرر اللوامع ينقل عنه ابن المجراد وغيره.

14 ـ ومن الذين تولوا شرحها : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمران النفزاري السلوي، المعروف بابن المجراد، (ت 778 هـ ـ 1376 م)، ويحمل شرحه عنوان : «إيضاح الأسرار والبدائع، وتهذيب الغرر والمنافع، في شرح الدرر اللوامع، في أصل مقرأ نافع». ـ ومما يمتاز به : أنه لا يورد الحقائق مجردة، بل يصدر الأحكام ويعللها، ويذكر القاعدة أو المسألة ـ وبجانبها الحجة التي تدعمها، وهي ميزة قلما شاركه فيها غيره.

15 ـ أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن عطية المديوني الشهير بالجاديري، (ت 818 هـ ـ 1415 م) له شرح على الدرر اللوامع.

16 ـ أما من حيث الرواية، وإرجاع كل مسألة إلى أصولها، فيأتي في الطليعة : شرح أبي عبد الله محمد بن عبد الملك المنتوري، (ت 831 هـ ـ 1427 م). ويذكر في المقدمة : أنه استخلص شرحه هذا من مائة وتسعة وسبعين ديوانا، منها مائة وسبعة وعشرون في القراءات، والباقي في التفسير والحديث والعربية واللغة والشعر.

وجمع زبدة هذه الشروح كلها أبو زيد بن القاضي في شرحه الموسوم بـ «الفجر الساطع، على الدرر اللوامع»، الذي سنتحدث عنه بعد.

وهناك شروح أخرى سنعرض لها عند حديثنا عن العصور اللاحقة.

ومن الذين ألفوا في موضوع مقرأ نافع من شيوخ هذا العصر :

17 ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الحق الأنصاري، ويعرف بابن القصاب، من أئمة القراءات بفاس، (ت 690 هـ ـ 1291 م)، من مؤلفاته : «تقريب المنافع، في أصل مقرأ نافع».

18 ـ أبو إسحاق ابراهيم بن أحمد الغافقي الاشبيلي السبتي، (ت 716 هـ ـ 1316 م). له تأليف في قراءة نافع.

19 ـ أبو عبد الله بن محمد بن داود الصنهاجي، المعروف بابن آجروم؛ (ت 723 هـ ـ 1323 م). من آثاره : «البارع في مقرأ نافع».

20 ـ أبو الحسن علي بن سليمان القرطبي، مقرئ فاس وشيخ الجماعة بها، (ت 730 هـ ـ 1329 م). من مؤلفاته : «تهذيب المنافع، في قراءة نافع».

21 ـ أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الصفار المراكشي، إمام القراء في وقته، استدعاه أبو عنان لحضرته، وكان يعارضه القرآن برواياته السبع، (ت 731 هـ ـ 1330 م)، له كتاب : «الزهر اليانع، في أصل مقرأ نافع».

22 ـ أبو وكيل ميمون بن مساعد المصمودي مولى أبي عبد الله الفخار، ولذا ينسب إليه فيقال : ميمون ابن

الفخار، لـه الصيت الـذائع في علم القراءات، نظم قصائـد خاطب بها علماء الأندلس، (ت 816 هـ ـ 1413 م).

من مؤلفـاتـه في مقرأ نـافع : «تحفـة المنـافع» ـ وهي أوسع منظومة في هذا الباب.

ـ أبو زيد عبد الرحمان الجاديري، مر الحديث عنه ضمن الذين شرحوا درر ابن بري، ومن مؤلفاته : «النافع، في أصل حرف نافع»، واختصار شرح الداني على الخاقانية.

ـ ومن قراء هذا العصر : أبو الحسن علي بن سبع، لـه قصيدة مطولة يشنع فيها على بعض المجودين بفاس يقول فيها :

تبرز لـلأقراء فيهـا جمـاعـة
ولا خبرة تبـدو لـديهم ولا نقـد

أمـا المؤلفـون في الجـانب الآخر ـ وهـو فن الرسم والضبط ـ فيأتي في المقدمة :

23 ـ أبو عبد الله محمد بن محمد بن ابراهيم الخراز الشريـشي الفاسي، (ت 718 هـ ـ 1318 م). ومر بنـا أنـه أول شارح لدرر ابن بري، وله شرح على «الحصريـة»، وآخر على «عقيلة الأتراب» للشـاطبي، ونسب لـه بعضهم اختلاف القراء في الوقف.

وقد اختص في الرسم والضبط ـ وهمـا فنـان من فنون القرآن، ويرى ابن خلدون أنه ربمـا كـان آخر مـدرسـة بالمغرب في هذا الميدان، وقد هجر النـاس كتب الأقـدمين واقتصروا عليه، وذاعت شهرته في الآفاق، ومن أهم مؤلفـاتـه ـ في هذا الباب ـ : «مورد الظمآن، في رسم أحرف القرآن»، ـ وهو أرجوزة تقع في أربعمـائـة وأربعـة وخمسين بيتـا، ثم ألحق بها رجزا لـه في الضبـط، وهـو في مـائـة وأربعـة وخمسين بيتا، ومجموع أبيات المورد والذيل : (608) بيت، وقد ضمنـه مقـدمـة وعشرة أبواب، تحـدث في المقـدمـة عن مبادئ هذا الفن، فذكر أن واضع الرسم القرآني ـ هم الصحابة الكرام، وأن اتباعه أمر محتم :

وبعـد فـاعلم أن أصـل الرسم
ثبت عن ذوي النهى والعلم

جمعـه في الصحف الصـديـق
كمـا أشـار عمر الفـاروق

وبعـده جرده الإمـام
في مصحف ليقتـدي الأنـام

ما هو الرسم ؟

الرسم قسمان : قياسي، وتوقيفي، فـالقيـاسي هو تصوير الكلمـة بحروف هجـائهـا على تقـدير الابتـداء بهـا والـوقف عليها، ويرادفه الخط والكتابة.

أما الرسم التوقيفي، فهو علم تعرف به مخالفات خط المصاحف العثمانية لأصول الرسم القياسي، وأنواع المخالفة ستة : حذف، زيادة، بدل، فصل، وصل، هاء التأنيث.

هـنـا ويجب أن ننبـه ـ هنـا ـ إلى أن أكثر رسم المصاحف جاء موافقا لقواعد الرسم القيـاسي، وإنما خرجت عنه أشياء، منها : ما عرف حكمه، ومنها ما غاب عنا علمـه، ـ وهو مـوضـوع مـا كتب القراء من أبحـاث ودراسـات، ومـا جلوه من أسرار وحكم... وهي ـ في جملتهـا ـ ترجع إلى إشارات إلى أوجه القراءات، وأنماط اللغات.

وخص الأبواب الثلاثـة لحذف حروف العلـة : الألف، والواو، والياء، والحذف أنواع : إشارة، واختصـار، واقتصـار ـ وهو أوسع باب استغرق نحو ثلثي الكتاب.

وتحـدث في البـاب الرابع عن حـذف إحـدى الـلامين المتصلتين، نحو الليل، والذي، والتي، وما إلى ذلـك. وتكلم في البـاب الخـامس عن الهمـز وكيفيـة تصـويره، وأقسـامـه وأنواعه ـ وضمنه أربعة فصول.

وتنـاول في البـاب السـادس الأحرف الـزوائـد في المصحف من واو، أو ياء، أو ألف.

وبين في الباب السابع أحكام الإبدال، وهو إما إبـدال واو من ألف، أو ياء منها ـ كذلك.

وتحدث في الباب الثامن عن الفصل ـ وذكر الحروف المقطوعة ـ وهي أحد عشر حرفا، ضمنها ستة فصول.

وأوضح في البـاب التـاسع أحكـام الـوصـل، وبين الكلمات الموصولة ـ وهو يحتوي على أربعة فصول.

وتكلم في البـاب العـاشر ـ وهو آخر أبواب الكتـاب ـ عن رسم هـاء التأنيث تـاء إذا أضيفت إلى ظـاهر، وجعل الكلام فيها ينحصر في أربعة فصول، ويمكن القول بأن المصاحف العثمانية التي رسمت هاء التأنيث تاء تارة، وهاء أخرى، أرادت أن تجمع بين لغتين مشهـورتين عند العرب، استعملتهما في كلامها، ونطقت بهما في أشعارها.

وأشرنـا ـ سـابقـا ـ إلى أن المؤلف ألحق برجزه «مورد الظمـآن» ـ رجزا آخر لـه في الضبـط، ليكون ـ كمـا قـال ـ جامعا مفيدا :

هــــذا تمـــــام نظم رسم الخـــــط
وهـــأنـــا أتبعـــه بـــالضبـــط

ما هو الضبط ؟

الضبط : علم يعرف به ما يدل على عوارض الحرف : من فتح، وضم، وكسر، وسكون، وشـد، ومـد... ويرادفـه الشكل، ويدخل فيه النقط.

وضمنه ثمانية أبواب :

1 ـ في الأشكال الثلاثة ومواضعها.

2 ـ في السكون والتشديد والمط (المد).

3 ـ في المدغم والمظهر.

4 ـ في الهمزة ـ وقد عـالجهـا من جـانب آخر ـ وهو ـ : هل صورة الهمزة نقطة أو عين ؟ وهل لونها حسب الخط المرسوم بالصفراء أو الحمراء ؟ ومـا موضعهـا ؟ وكيف يمتحن، إن لم تكن لـــه صـورة في المصحف ؟ ولـوازم تغييرها من مد ونحوه ـ إلى غير ذلك.

وكـان للكتـابين : الـدرر اللوامع لابن بري، ومـورد الظمآن للخراز ـ الصيت الذائع، والشهرة الفائقة، ذلـك في مقرأ نافع، وهذا في رسمه وضبطه.

ولم يكـد ينتصف القرن الثـامن الهجري ـ الرابـع عشر الميـلادي، حتى رأينـا إقبـال النـاس عظيمـا على هـذين الموردين، وقرئ الكتابان ـ في مـدارس المغرب والأنـدلس، بل وفي سـائر أقطار افريقية.

ويـذكر الشيخ ابراهيم عطوة عوض ـ وهو يتحدث عما ألف في رسم القرآن وضبطـه ـ أن كتـاب مـورد الظمـآن ـ بشروحـه ـ لا يـزال يـدرس ـ بـالأزهر الشريف ـ إلى يـوم الناس هذا.

وأشرت سـابقـا ـ إلى الـذين شرحوا أرجوزة ابن بري، فلنـذكر الآن بعض الـذين كتبوا عن مـورد الظمـآن، أو اختصوا رجزه في الضبط بالشرح والتعليق.

ويأتي في مقدمة هؤلاء وأولئك :

24 ـ أبـو محمـد عبـد اللـه بن عمر الصنهـاجي، المعروف بابن آجطا ـ ولعله من صنهـاجـة عمل صفرو، تعلم بفاس، وبها توفي سنـة (750 هـ ـ 1349 م)، ويحمل شرحـه عنـوان : «التبيـان، في شرح مـورد الظمـآن» ـ وهـو شرح مطول يقع في نحو (200) صفحة من القطع الكبير، وهنـاك نسخ مختصرة من هـذا الكتـاب تحمل نفس العنـوان، ولعـل ذلك مما قيده بعض تلاميذه أيام إقرائه لهم.

25 ـ أبو عبد الله محمد بن خليفة الصنْهاجي، لـه : «الدرر الحسان، في اختصار التبيان»، كتب جله في رحلاته إلى افريقية سنة (836 هـ ـ 1432 م).

26 ـ أبو الحسن التروالي المعروف بـالزرهـوني، لـه طرر على مورد الظمآن، جمعها بعض تلاميذتـه وزاد عليهـا زيادات، أسماها : «مجموع البيان، في شرح مورد الظمـآن»، وهي مهمة جدا وتأتي بقية الشروح في العصور اللاحقة.

27 ـ ومن الـذين اختصـوا ذيـل مـورد الظمـآن (الضبط) بالشرح : ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن عبد الجليـل التنسي، (ت 899 هـ ـ 1493 م)، وقـد أسمى شرحـه هذا بـ «الطراز، في شرح الخراز». ـ وهو من أحسن شروحـه وأتمهـا تحريرا، وأكملها ضبطـا، ولأهميتـه وضعت عليـه تعاليق وحواش سنعرض لها بعد.

وثمة شروح مختصرة على ضبط الخراز، نذكر منها :

ـ شرح أبي عبد الله المجاصي الـسالف الذكر، وتـذكر

له بعض المصادر «تكميل ضبط الخراز» ـ ولعله مؤلف آخر.

ومن الذين ألفوا في موضوع الرسم والضبط من قراء هذا العصر :

28 ـ أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المعروف بابن البناء ـ (ت 654 هـ ـ 1256 م)، له : «عنوان الدليل، في مرسوم التنزيل»، قال فيه : هو لأولي الألباب، مفتاح تدبر الكتاب، وذكر أن للرسم القرآني أسرارا وحكما تشهد بأن العرب كانوا الغاية القصوى من الذكاء، ولطافة الهجاء.

وينوه ابن هيدور بمؤلف ابن البناء، فيقول : جزء نبيل، في تعليل رسم المصحف الإمام.

29 ـ أبو القاسم المزياتي ـ وهو من شيوخ القراءات بالمغرب، أخذ عنه أبو حيان عند قدومه على فاس، وللمزياتي هذا مؤلف في الرسم ينقل عنه ابن آجطا في شرحه، وقد ذكر أن في (السموات) ثلاث ألفات.

وكتب في موضوع الضبط أبو عبد الله القيسي السالف الذكر، له أرجوزة في الضبط، وتعرف بالميمونة، شرحها أبو زيد الجاديري الذي مر الحديث عنه.

ـ وأبو وكيل ميمون الفخار (ت 816 هـ ـ 1413 م)، له مؤلفات في الرسم والضبط، منها : «الدرة» في الرسم، و«المورد الروي، في نقط المصحف العلي»، ومر الحديث عنه فيمن كتبوا عن حرف نافع.

30 ـ أبو العباس أحمد بن العياشي الصنهاجي اليحمدي الوطيلي، له تأليف في الرسم.

31 ـ أبو عبد الله محمد بن جابر الغساني المكناسي، (ت 827 هـ ـ 1423 م)، له أرجوزة حاذى بها مورد الظمآن.

32 ـ أبو محمد عبد الجبار الصحيني، له نظم في «تأمننا».

33 ـ ومن شيوخ هذا العصر الذين اختصوا في التجويد بالتأليف : أبو عبد الله محمد بن يوسف الجناتي، ولي قضاء سبتة والتدريس بها، (ت 778 هـ ـ 1376 م)، له كتاب «البستان، في تجويد القرآن»، وهو مختصر ضمنه ثمانية عشر بابا، عالج فيها الموضوعات التالية :

ـ أصل الألفات، ـ الهمزات، ـ المد وأقسامه، ـ حروف اللين، ـ الإظهار والاخفاء، ـ الفك والادغام، ـ التفخيم والترقيق، ـ الامالة، ـ حروف القلقلة.

ومن طريف أبوابه : باب أنفاس الحروف وأرواحها وأجسادها ـ وقد ذكر أن أنفاسها نقاطها، وأرواحها حركاتها، أما أجسادها، فهي صور الحروف بمعانيها.

ـ وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم الصفار، سبق الحديث عنه في جملة من كتبوا عن أصول حرف نافع، وله كتاب : «الجمان النضيد، في كيفية الأداء والتجويد».

ومن الموضوعات التي كتب عنها قراء هذا العصر :

فواصل الآي : فقد نظم أبو عبد الله بن المجراد قصيدة لامية في فواصل الآي الممالة، وهناك قصيدة أخرى في نفس الموضوع لأبي عبد الله القيسي، ـ أشار إليهما ابن غازي في أرجوزته التي سنتحدث عنها وشيكا.

العصر الوطاسي :

وإذا تجاوزنا عتبة العصر المريني، نجد أن علوم القرآن في العصر الوطاسي قد اتسع نطاقها، وتعددت مدارسها، وقلما تجد عالما لا يحسن علم القراءات، بل صار مادة أساسية في المدرسة المغربية، فكان هناك كرسي للتيسير والشاطبية، وأوقاف ومرتبات للسبع والعشر لا ينالها إلا العالمون البارزون، وقد لقيت علوم القرآن تشجيعا كبيرا من ملوك العصر، فكان أبو العباس الوطاسي محبا للعلم، مؤثرا لأهله، واقفا عند إشاراتهم، وقد أجازه أبو الحسن علي بن هارون المطغري بحرف نافع ـ نظما، وبلغ بإسناده إلى الداني.

34 ـ ومن شيوخ العصر الوطاسي وأئمته البارزين : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي، (ت 919 هـ ـ 1513 م).

من أهم مؤلفاته : «تفصيل عقد الدرر، في الطرق العشر»، يقول فيها :

دونـــــك عشر طرق لنـــــــافـــع
تنشر طي درر اللــــــــوامــــــع

والطرق إلى نافع كثيرة أنهاها بعضهم إلى مائتين وخمسين طريقا (250)، منها ثمان وستون لورش، وست وسبعون لقالون، والمشهور منها هذه العشر التي اقتصر عليها ابن غازي في أرجوزته، وألف في الطرق العشر كثيرون - سواء منها القدامى أو المحدثون، ولعل أهم ما كتب في هذا الباب : «التعريف لأبي عمرو الداني»، وقد لخصه وأخذ زبدته - ابن غازي في هذه الأرجوزة، وأضاف إلى ذلك إضافات ذات أهمية، مما جعل الفرع يفوق أصله، وينال الشهرة الفائقة، وقد شرحها جماعة سنعرض لهم في المكان المناسب.

ومن مؤلفات ابن غازي في مقرأ نافع : «فواصل الممال» - وهو رجز في فواصل الآي الممالة، وله عليه شرح، كما شرحه آخرون، والفواصل جمع فاصلة : كلمة آخر الآية كقافية الشعر، وقرينة السجع، وفرق الداني بين الفواصل ورؤوس الآي، فكل رؤوس الآي عنده فواصل - ولا عكس.

49 - ومن شيوخ هذا العصر : أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي - واضع وقف القرآن بالمغرب وقد تلقاه الناس بالقبول ولا يزال العمل به إلى اليوم.

ينتمي أبو عبد الله الهبطي إلى جبال الهبط بشمال المغرب، وبها تعلم على عادة أبناء البادية، ثم رحل إلى فاس حيث أنهى دراسته، وكان عالما عاملا، خيرا تقيا، فقيها فرضيا، متبحرا في علوم العربية، عارفا بالقراءات ووجوهها، (ت 930 هـ - 1523 م).

ولم يصلنا من آثاره إلا هذا الوقف الموجود بين أيدي الناس، وهو العنوان البارز للمصحف المغربي، والطابع الشخصي لمدرسة مقرأ نافع - المذهب الرسمي للدولة المغربية.

مذاهب في الوقف :

وفي الوقف مذاهب، لكل مذهب مغزاه ومبناه، فنافع كان يراعي حسن الوقف والابتداء - بحسب المعنى، وكذلك الشامي، والمكي يراعي الوقف على رؤوس الآي، ولا يعتمد وقفا على أواسط الآي - إلا في ثلاثة مواضع : «وما يعلم تأويلها إلا الله» - آل عمران، «وما يشعركم» - الأنعام، «إنما يعلمه بشر» - النحل.

والبصري اختلفت الرواية عنه، وكذلك اختلفت الرواية عن عاصم والكسائي، واتفق الرواة عن حمزة أنه كان يقف عند انقطاع النفس، فالقرآن عنده - كسورة واحدة، ولذا لم يعتمد وقفا معينا، وآثر وصل السورة بالسورة.

مذهب الهبطي في الوقف :

ويرجع هذا الاختلاف إلى مذهبين اثنين، أحدهما : اعتماد كلمات رؤوس الآي، والثاني : مراعاة كلمات يتم المعنى والاعراب عندها، أو الاعراب دون المعنى، أو المعنى دون الاعراب، وعلى هذا المذهب بنى الهبطي وقفه، فهو يراعي الإعراب والمعنى في الوقف والابتداء.

وهناك سؤال يفرض نفسه علينا - وهو : ما هي الدواعي التي دفعت الهبطي لوضع هذا الوقف ؟ وربما كانت هناك دواع متعددة، منها - ما كان عليه الناس من انحراف في القراءة، وخطأ في التلاوة : يقفون على غير ما ينبغي الوقف عليه، ويصلون ما لا يجوز وصله، وربما وصلوا آية الرحمة بآية العذاب وبالعكس، فيفسد المعنى وتضيع الحكمة التي من أجلها أنزل هذا الكتاب الأقدس، وقد يضطر أحدهم إلى الوقف فلا يدري كيف يقف ؟ ولا أين ؟ سيما - وقد اشتهر بين الناس في هذا العصر وقبله بأزمان - صناعة الإرداف في القراءات، فيقفون وقوف اختلاس، ويجرون الوصل مجرى الوقف، حتى إن أحدهم ليسقط سقوط المصروع بالجان ! فرأى أبو عبد الله الهبطي أن يضع لهم هذا الوقف كمراحل ينزل المسافر بها، ويتجدد نشاطه من أجلها، فحدد الوقوف التي يقف فيها

القارئ ـ يدفع النفس الحار، ويجلب النفس البارد، وبذلك يندفع عنه التعب والحرج، وتقع له الاستراحة للوقف، ثم يستأنف القراءة من بعد الكلمة الموقوف عليها إلى الموضع الذي يقف عليه ثانية، وهكذا إلى أن يقف وقوف انقطاع، وينتهي من القراءة.

وهناك سؤال آخر يلح علينا كذلك ـ وهو ما هي العوامل التي جعلت مذهب الهبطي في الوقف ينتشر بهذه السرعة داخل المغرب وخارجه ـ وقد كانت قبله مذاهب، وألفت في الوقف مؤلفات لم يلتزم الناس العمل بها لا قديما ولا حديثا ؟ وعندما نرجع إلى المصاحف القديمة في المشرق والمغرب لا نجد أي علامة على الوقف، وإنما الموجود بها علامات رؤوس الآي.

قد نزعم بأن الروح المعنوية التي كان يتحلى بها الإمام الهبطي، والانتصارات التي سجلها على خصومه المناهضين له، هي التي جعلت مذهبه ينتشر ويحمل طابع الخلود.

على أن المغاربة نزاعون إلى الوحدة بطبيعتهم، فهم في الفقه على مذهب مالك، وفي العقيدة على مذهب الأشعري، وفي التلاوة على قراءة نافع ـ برواية ورش، فغير بعيد أن يختاروا مذهب الهبطي في الوقف، وهو في الحقيقة مذهب إمامهم نافع.

تقييد وقف الهبطي :

تكاد تتفق نسخ وقف الهبطي على هذا العنوان : «تقييد وقف القرآن»، للشيخ أبي عبد الله الهبطي، قيده بعض طلبته.

إذن هذا التقييد الموجود بأيدي الناس، ليس من صنع الهبطي، وإنما هو من عمل بعض تلاميذه، ولذا اختلفت نسخة ما بين زيادة ونقصان، فمنها : ما فيه زيادة على الكلمات الموقوفة ـ أسماء السور، وكونها مكية أو مدنية، والتنصيص على مواضع الأحزاب والأنصاف والأثمان، ومنها : ما هو مجرد من كل ذلك، بل اقتصر فقط على الكلمات الموقوفة، وكأن الشيخ كان يملي على طلبته هذه الوقوف، ويبين لهم وجه الوقف عليها، وربما ذكر الحجة في ذلك ـ وهم يدونون في مذكراتهم أو ألواحهم، كل حسب قدرته واستعداده.

ولم يكد ينتهي القرن الحادي عشر الهجري ـ السابع عشر الميلادي، حتى كانت مدرسة الهبطي سيطرت تماما ـ على جل أنحاء المغرب، ولم يبق أمامها إلا ذلك القسم النائي الموالي للصحراء المغربية بالجنوب : درعة وما حولها، وقد كانت هناك مدرسة أخرى تنازعها السيطرة، وتنافسها الزعامة، وقد اختارت لنفسها الوقف السني ـ وهو الوقف على رؤوس الآي، وكان لها أنصار ومؤيدون، وقد تزعم هذه الحركة العالم العامل أبو عبد الله محمد بن ناصر الجعفري الزينبي، (ت 1085 هـ ـ 1674 م).

وقد وجهت إلى وقف الهبطي انتقادات، وكتبت في ذلك رسائل ومؤلفات، سنعرض لها بعد.

35 ـ ومن شيوخ هذا العصر : أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة المغراوي المعروف بشقرون، أصله من تلمسان، رحل إلى المغرب، وتلمذ لكثير من شيوخه ـ كابن غازي وغيره، (ت 929 هـ ـ 1522 م). من آثاره : «جامع جوامع الاختصار والتبيان، فيما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان»، ـ وهو أقرب إلى التربية والتعليم منه إلى علوم القرآن، وينسب له تقييد على مورد الظمآن، ورد ذكره في فهرسة الخزانة التيمورية، وله قصيدة لامية في مقرأ نافع، ينقل عنها ابن القاضي في شرحه على الدرر اللوامع.

36 ـ أبو عثمان سعيد بن سعيد الكرامي السوسي، من أهل القرن التاسع الهجري، له «معونة الصبيان على الدرر اللوامع».

37 ـ نجله يحيى الكرامي، له : «تحصيل المنافع، من كتاب الدرر اللوامع»، فرغ منه سنة (893 هـ ـ 1487 م).

38 ـ أبـو علي الحسين بن علي الركراكي الشوشـاوي، (ت 900 هـ ـ 1494 م). لـه مؤلفـات، منهـا : «تنبيه العطشان، على مورد الظمآن»، و«حلية الأعيان، على عمدة البيان»، و«الفوائد الجميلة، في الآيات الجليلة»، عـالج فيـه أبحـاثـا شتى في علوم القرآن ـ على غرار «البرهـان» للزركشي، ومن أهم موضـوعـاتـه : كتـابـة القرآن، قراءاتـه، مشكلاته، أحوال حامل القرآن، مكي القرآن ومدنيه، فضائل القرآن.

39 ـ أبـو زيـد عبـد الرحمـان بن محمـد القصري، ويعرف بـالخبـاز، (ت 964 هـ ـ 1556 م)، لـه : «شرح على تفصيـل عقـد الـدرر، في الطرق العشر» ـ لابن غـازي، أسماه «بذل العلم والود، في شرح تفصيل العقد».

40 ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان الزروالي، لـــه : «تقريب النشر، في الطرق العشر»، فرغ منـــه عـــام (978 هـ ـ 1570 م).

41 ـ أبو القاسم أحمد التازي، له أرجوزة في ترجيح مـا ذكره ابن بري في الـدرر ـ من الخـلاف، أسماهـا «الـدرة السنية، في ترجيح خلاف البرية».

42 ـ أبـو سعيـد عثمـان بن عبـد الـواحـد اللمطي المكناسي الميموني، (ت 954 هـ ـ 1547 م). له تـأليف في قراءة نافع وتلاميذه المشهورين.

العصر السعدي :

لم تكن علوم القرآن في العصر السعدي أقل شأنا منهـا في العصر الوطـاسي، بـل كـانت أكثر اهتمـامـا لملوك هـذا العصر، فهذا محمد الشيخ مؤسـس الدولة السعديـة ـ كـان من قراء القرآن، ومن أهـل العلم والـدين، عـارفـا بـالتفسير، لـه كتابات في ذلك، ومن أشياخه : أبو الحسن علي بن عثمان التاملي، وأبو محمد المضغري، وأبو عبد الله اليستثني، أخذ عنه علوما، منها : التفسير، قال المنجور : وكنت أنا قـارئـه بين يدي أمير المومنين.

وكان لولده أبي العباس المنصور إلمام بعلم القراءات، وتفنن بالتفسير، لـه هوامش على الزمخشري، ومن شيوخـه : أبو عمران موسى بن أحمد التدماوي، وعنه أخذ في صغره ـ مبـادئ القراءات، ولمـا وفـد عليـه بمراكش، أجلسـه إلى جانبه، وأجرى عليه جراية طول حيـاتـه، ممـا جعله يتفرغ للتعليم، وتدريس علوم القرآن ـ بوجه خاص.

43 ـ ومن كبار مشيخة هـذا العصر : أبو عبـد اللـه محمد بن يوسف الترغي ـ نسبة إلى ترغة إحدى قرى قبيلـة بني زيـات بجبـال غمـارة، ولـد بفـاس ـ ولعـل والـده أبـا يعقوب هو الذي انتقل إليها ـ وهو عالم مقرئ (ت 1000 هـ ـ 1591 م).

كان أبو عبـد اللـه الترغي من أئمـة هـذا الشـأن، وهو مؤدب أولاد الملـوك، شـدت الرحـال للأخـذ عنـه، وعنـه انتشرت القراءة بـالمغرب بســائر طرقهـــا، (ت 1009 هـ ـ 1600 م).

لم يشتغـل أبو عبـد اللـه الترغي بـالتـأليف، وإنمـا تلاميذه كتبه، وقفت له على أجوبة في مسائل مختلفـة من علم القراءات، كتب إليـه في ذلـك تلميـذه أبـو عبـد اللـه المرابط، وتتلخص الأسئلة فيما يلي :

ـ الـوقف على «عظيم» من قـولـه ـ تعـالى في قصـة بلقيس : «ولها عرش عظيم».

ـ هل تفخم الراء في قوله تعالى : «يستـأخرون» ؟ ـ وكان جوابه : الثابت عن ورش : الترقيق.

ـ هـل ترقـق الراء في «قـل إن افتريتـه، فـأغرينـا، وجرين، لبشرين، البحرين» ؟ فأجاب بأنها كلها مفخمة.

ـ هل ألف (أنا) من قوله تعالى : «إن أنـا إلا نـذير» ـ تثبت في النطـق أم لا ؟ ـ وذكر في جـوابـــه ـ أن القراء اختلفوا في ذلك.

ـ وكان السؤال الأخير عن مخرج الضاد والظاء...

43 ـ ومن أشهر تلاميذه : أبـو عبـد اللـه محمـد بن يوسف التاملي، (ت 1048 هـ ـ 1638 م). من مؤلفاته :

قصيدة لامية في قراءة نافع. - ورسائل في الثبت والحذف. - ومختصر في فواصل الآي، وأبيات في رؤوس الآي التي تمال والسور التي وردت فيها.

- واستدراك على تفصيل عقد الدرر.

44 - أبو الحسن الدرعي، (ت 1006 هـ - 1597 م) له شرح على الدرر اللوامع. ومن شيوخ هذا العصر :

45 - أبو الطيب الحسن بن يوسف بن مهدي الزياتي - نسبة إلى بني زيات - إحدى قبائل غمارة، من أسرة عريقة في العلم والفضل، (ت 1032 هـ - 1638 م). له حاشية على شرح الضبط للتنسي.

46 - أبو راشد يعقوب الحلفاوي، له شرح على الدرر اللوامع، فرغ منه عام (1001 هـ - 1592 م).

47 - أبو محمد عبد الواحد بن عاشر، هاجر أسلافه من عدوة الأندلس إلى المغرب، واستوطنوا مدينة فاس، وكان عالما متبحرا في مختلف العلوم، (ت 1040 هـ - 1630 م). من آثاره في مقرأ نافع :

«فتح المنان، المروي بمورد الظمآن»، دل على تبحر مؤلفه في علوم القرآن، وتضلع شامل في فنون اللسان.

ولأبي زيد المنجرة حواش عليه.

48 - أبو محمد عبد الله بن طاهر الشريف (ت 1040 هـ - 1630 م)، له : «الدر الأزهر، في مناسبات الآي والسور».

49 - أبو الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي، (ت 1052 هـ - 1642 م). ألف كثيرا في مختلف العلوم والفنون، له شرح على الدرر اللوامع.

50 - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي القاسم الجزولي الحامدي، له : كتاب «أنوار التعريف، لذوي التفصيل والتصريف». - وهو مختصر في الطرق العشرية، فرغ منه عام (1026 هـ - 1617 م) - بالمدرسة العنانية بفاس.

51 - عبد الكريم، له أرجوزة في حكم الهمز في الإبدال، وشرح ما فيه الاشكال - في (102) بيت، وقد لخص فيها تأليفا لأبي عمرو الداني في الموضوع.

52 - أبو الحسن علي بن محمد، له منظومة في مخارج الحروف، جاء فيها قوله :

فالقصد من هذا النظام المحكم
حصر مخارج الحروف المعجم

53 - أبو عبد الله محمد بن عيسى الوارثيني، له شرح على الدرر اللوامع.

العصر العلوي :

وللكثرة الكاثرة من قراء هذا العصر، قسمناه إلى ثلاثة عصور - ولكل عصر مشيخته :

العصر الأول :

53 - ويأتي في الطليعة : أبو زيد عبد الرحمان بن أبي القاسم المعروف بابن القاضي، إمام القراء في وقته (ت 1082 هـ - 1671 م) خلف تراثا قيما في فنون القراءات، ومن مؤلفاته في مقرأ نافع : شرحه على درر ابن بري، أسماه : «الفجر الساطع، والضياء اللامع، في شرح الدرر اللوامع»، وهو أكبر موسوعة في قراءة نافع، وما أجدره بالنشر والتحقيق !

- «وبيان الخلاف والتشهير والاستحسان، وما أغفله مورد الظمآن، وما سكت عنه التنزيل ذو البرهان، وما جرى به العمل من خلافيات الرسم في القرآن» - هذا عنوان طويل لمؤلف صغير لا يتعدى حجمه ثلاث عشرة صفحة من القطع الوسط، ولكنه فريد في بابه.

- كتاب «الجامع المفيد، لأحكام الرسم والقراءة والتجويد» - وهو مختصر مفيد جدا، جمع فيه خلاصة - مسائل الرسم والقراءة والتجويد، فما أحوج الطلاب إليه !

- «إزالة الشك والالتباس، في نقل «ألم أحسب الناس»».

- «بغية المراد، في بيان مخرج الضاد».

ولنذكر بعض تلاميذه، والمشاهير من معاصريه ممن لهم إنتاج في هذا الباب :

54 - أبو عبد الله محمد بن محمد الأفراني السوسي، رحل إلى المشرق ونزل مصر، وبها توفي شهيد الطاعون عام(1081 هـ - 1670 م).

له منظومة في «الآن» سماها : «غاية البيان، لخفي لفظتي الآن» ينقل عنها تلميذه السفاقسي في كتابه : «غيث النفع، في القراءات السبع».

55 - أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الرحماني المراكشي، من قبيلة ارحامنة، نزل مراكش، وبها توفي ؛ كان حيا سنة (1070 هـ - 1659 م).

من مؤلفاته : «تكميل المنافع، في قراءة الطرق العشرية المروية عن نافع، وتآليق في محذوفات القرآن.

56 - أبو إسحاق إبراهيم السريفي ثم القصري، (ت 1070 هـ - 1659 م).

- له تقاييد في العشر الصغير.

57 - أبو عبد الله المهدي الفاسي (ت 1109 هـ - 1697 م)، له :

كتاب «الدرة الغراء، في وقف القراء»، انتقد فيه وقف الهبطي السالف الذكر.

58 - أبو الفضل محمد بن مسعود بن جموع، (ت 1119 هـ - 1707 م). له : شرح على درر ابن بري، وآخر على مورد الخراز.

59 - أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان بن عبد الملك الفلالي الأنصاري، له : «سمط الجمان، في رسم القرآن» - منظومة.

60 - أبو إسحاق إبراهيم بن علي الدرعي، له تذييل على مورد الظمآن.

61 - أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد توزنت العبادي التلمساني، له تقييد في كيفية جمع الطرق وتحديد نسبتها على قراءة نافع.

62 - أبو العباس أحمد بن إدريس الفاسي، له شرح على «تفصيل عقد الدرر».

63 - أبو محمد عبد الهادي الشريف الحسني، له أجوبة في التجويد.

العصر الثاني :

64 - ومن كبار مشيخه هذا العصر : - أبو العلاء ادريس بن محمد بن أحمد المنجرة، وقد أسس مدرسته على أنقاض مدرسة ابن القاضي، وحاول أن يضيف إليها مواد جديدة أتى بها من المشرق، وقد اتسع نطاق المدرسة - المنجرية فتعدت حدود المغرب، حتى قال بعضهم : (لا ترى من سوس الأقصى إلى طرابلس ونواحيها - إلا من قرأ عليه أو على أحد تلامذته) (ت 1137 هـ - 1724 م).

له مؤلفات في علم القراءات، منها في مقرأ نافع :

- قصيدة لامية في أحكام الادغام والاظهار، وله عليها شرح.

- قصيدة ضمنها السور المكية والمدنية، وأخرى في الوقف والوصل، وحواش على الطراز شرح التنسي على الخراز.

65 - ومن أبرز تلاميذه : نجله أبو زيد عبد الرحمان المنجرة، خلف والده على كرسي الإقراء بجامع القرويين، (ت 1153 هـ - 1740 م)، من مؤلفاته :

حواش على الطراز شرح التنسي على ضبط الخراز، وحاشية أخرى على «فتح المنان» لابن عاشر، ورسالة في الوقف.

66 - أبو القاسم بن علي الشاوي المعروف بابن دري، من موالي السلطان المولى اسماعيل، قال فيه صاحب الإتحاف : إنه آخر الأساتذة المحققين بالعاصمة المكناسية. (ت 1153 هـ - 1740 م). له مؤلفات في علم القراءات، منها في مقرأ نافع : تقييد على الدرر اللوامع لابن بري.

67 - أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن عاشر، من تلاميذ أبي زيد المنجرة - كما يذكر في بعض كتبه، من

آثاره : الجوهر المنير في العشر الصغير، فرغ منه عام (1118 هـ ـ 1706 م) ومن قراء هذا العصر :

68 ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد المسناوي، إمام مبرز في سائر علوم القرآن، (ت 1136 هـ ـ 1723 م) من مؤلفاته : رسالة في الوقف، وفق فيها بين المذهبين : النظري، والتوقيفي.

69 ـ أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي، كان إماما متبحرا في العلوم كلها ؟ (ت 1165 هـ ـ 1751 م). من مؤلفاته :

ـ «عرف الند، في حكم حذف حرف المد، أو الزهر الربيعي، في حكم المد الطبيعي».

ـ إجراء الوصل مجرى الوقف، إلى غير ذلك.

70 ـ أبو العباس أحمد بن عمرو الجاكني السوسي، ويلقب بطير الجنة، له منظومة في حذف القرآن، أسماها : «السراج»، تقع في نحو سبعمائة بيت، نظمها عام (1120 هـ ـ 1708 م).

71 ـ أبو إسحاق ابراهيم بن محمد الخلوفي الشريف الحسني، له شرح على ضبط الخراز، وهو الذي جمع تعاليق ادريس المنجرة وولده أبي زيد على شرح التنسي للخراز.

72 ـ أبو الحسن علي بن علي بن عمران الحساني، له نظم في الرسم، وله عليه شرح.

73 ـ أبو عبد الله محمد بن الحاج التلمساني نزيل تازا، له شرح على الدرر اللوامع.

74 ـ الهشتوكي من أهل القرن (12 هـ)، له : «هز السيف، على من أنكر الوقف» ـ رد فيه على منتقدي الهبطي.

العصر الثالث :

أما العصر الثالث، فيأتي في مقدمة شيوخه : أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الفاسي إمام المقرئين، وشيخ المحققين، (ت 1214 هـ ـ 1799 م) له إنتاج خصب في علم القراءات، ومن مؤلفاته في مقرأ نافع :

ـ تأليف في الوقف والابتداء، ولعله الذي يحمل عنوان : «الاقراط والشنوف، في معرفة الابتداء والوقوف».

ـ «تسهيل المعارج، إلى تحقيق المخارج». ـ رسالة في المد الطبيعي.

ـ رسالة فيما خالف فيه معلمو الصبيان قواعد الأداء وشروط التجويد.

ـ «القول الوجيز، في قمع الزاري على حملة كتاب الله العزيز».

ومن أشهر تلاميذه.

75 ـ أبو علي الحسن بن محمد بوزيد الخمسي ـ من قبيلة الأخماس على مراحل من شفشاون، أخذ عن شيوخ عدة بقبائل الجبل، وانتهى به المطاف إلى شيخ القراء ابن عبد السلام الفاسي، ويذكر أنه ما حدث بالبدور العشرة حتى ختم القرآن بجميعها نحوا من ستين ختمة وافية كاملة ـ عرضا ودرسا. من آثاره.

تأليف في التجويد، أسماه : «تحفة ذوي الألباب، من القراء والكتاب».

76 ـ أبو العباس أحمد بن الطالب محمود بن عمر أدوعيشا، له شرح على الدرر اللوامع، أسماه «إرشاد القارئ والسامع، لكتاب الدرر اللوامع»، فرغ منه عام (1230 هـ ـ 1814 م).

77 ـ وممن تتلمذ على ابن عبد السلام الفاسي ـ السلطان الجليل، العالم المقرئ المولى سليمان العلوي، (ت 1238 هـ ـ 1822 م)، أخذ عن والده السلطان المولى محمد بن عبد الله، وحفظ القرآن على الشيخ المقرئ عبد الوهاب أجانا، وأتقن رسمه وضبطه، وكان السلطان المولى سليمان يجله ويقدره، ومن تقديره لشيوخ العلم واكرامه لهم : أن أبا العلاء البكراوي نظم ثلاثة أبيات في علم القراءات، فأجازه عليها بثلاثمائة مثقال، وهو الذي أمره بتأليف كتاب : «التوضيح والبيان» على ما سنذكره بعد.

ومن آثاره :

- رسائل انتقد فيها مواضع من وقف الهبطي السالف الذكر، ومن نظمه - يذكر أسانيده في علوم القرآن :

أول من علمني القرآن

والرسم عبد الوهاب أجانا

وسندي في الضبط والروايات

عن الفاسي عن شيخه بحر الفرات

عابد الرحمان الشريف المنجرة

عن والد ادريس - رسم العشرة

77 مكرر - أبو عبد الله محمد التهامي الحمري الأويبري، من بيت علم وقراءة، حفظ القرآن بالسبع على ابن عبد السلام الجبلي، وكان حسن الصوت، إذا تلا فكأنما أتي مزامير داود، رحل إلى المشرق وصحب شيخه ابن عبد السلام الناصري عام (1211 هـ - 1796 م) فأدى فريضة الحج، ولقي جماعة من شيوخ العلم والقراءات فأخذ عنهم.

له قصيدة لامية في تصوير الهمز.

78 - أبو عبد الله محمد بن علي البجائي، له تأليف في الطرق العشرية.

79 - أبو عبد الله الحنناوي، وضع شرحا موسعا على باب تصوير الهمز - للخراز، فرغ منه عام (1272 هـ - 1855 م).

80 - أبو محمد عبد السلام المضغري، له قصيدة لامية في أحكام الوقف والوصل، أسماها : «نهج الهداية»، أبياتها (54) بيتا.

81 - محمد القلالي، له أبيات في الروم والاشمام.

82 - عبد السلام بن الحسين العلمي، له أرجوزة في الرسم والضبط.

83 - يحيى بن موسى الحلواني، له منظومة في حروف الحمل، أبياتها (136) بيتا.

84 - محمد بن قاسم العيدوني الخمسي، له نظم في مراتب المد.

85 - أبو العلاء ادريس بن عبد الله بن عبد القادر الودغيري الملقب بالبكراوي، حامل راية القراءات في وقته، وهو آخر أئمة هذا الشأن بفاس، (ت 1257 هـ - 1841 م).

خلف مؤلفات في علم القراءات، أنهاها بعضهم إلى ثمانية عشر مؤلفا، منها :

«التوضيح والبيان، في مقرأ نافع المدني بن عبد الرحمان». - جعله - كما يقول - سلما لتعليم الصبيان، وتذكرة للشيوخ الماهرين في القرآن، وقد أمره بتأليفه السلطان المولى سليمان، واقترح عليه أن يرتبه على حروف المعجم، مهد له بعشرة أبواب :

- في فضائل القرآن، - في فضل حامله، - فيما يجب من اجلال حامل كتاب الله، - في صفات الشيخ المقرئ، - في حقيقة التجويد، - في الحث على الترتيل، - في الإسناد ومزاياه، وقد أورد في هذا الباب سنده المتصل إلى النبي ﷺ.

ولعله أول معجم قرآني بالمغرب، جمع فيه مؤلفه أحكام القراءة ومسائل التجويد - حسب حروف المعجم في القرآن الكريم.

ومن مؤلفاته في الموضوع :

- «عمدة البيان، في حكم المحذوف في القرآن» - أرجوزة في (387) بيتا، رتبها على حروف المعجم، ووضع عليها شرحا جاء فيه قوله : إنه أهمل الوجوه التي لا عمل عليها، ولذلك كمل حسنها، لأنها صارت من العمليات في الرسم.

- «أزهار الحدائق، في علم مخارج الحروف والصفات والبوائق» - منظومة في نحو مائة بيت.

- نظم في الفرق بين السكت والوقف.

- منظومة في التوسط.

- قصيدة في أحكام الراء.

- رجز في همزة الوصل.

ومن القراء الذين أسهموا في المكتبة القرآنية لهذا العهد :

86 ـ أبو زيد عبد الرحمان التنهلي القصري، المعروف بالفرمي، له شرح على ضبط الخراز.

87 ـ أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري، (ت 1239 هـ ـ 1823 م). له : «الدر النفيس، في ذم التنكيس» ـ يعني تنكيس آي القرآن وسوره.

88 ـ أبو عبد الله محمد بن عبد المجيد أقصبي» (ت 1364 هـ ـ 1944 م). له : حاشية على التوضيح والبيان للبكراوي، أسماها «نفحة المنان، على التوضيح والبيان».

89 ـ الطيب بن أحمد العلوي، له : «المنهج الحميد، إلى قواعد القرآن المجيد».

90 ـ أبو علي الحسن بن محمد اللجائي الملقب بـ (كنبور)، (ت 1283 هـ ـ 1966 م).

له حواش على «فتح المنان» ـ لابن عاشر، وشرح على باب الهمز من «مورد الظمآن».

91 ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد حجاج اليحمدي، له رسالة في : هل الحركات هي الأمهات ـ والحروف تولدت عنها ؟ أو العكس ؟ أو ليس أحدهما أما للآخر ؟

ورجح القول بأن الحروف هي الأصل ـ والحركات متولدة عنها ـ كما هو مذهب ابن بري.

92 ـ أبو علي الحسن بن علي بن أبي بكر المنبهي الشهير بالشباني، له : «كشف الغمام عن ضبط مرسوم الإمام».

93 ـ أبو عبد الله محمد بن العربي السباعي، من آثاره : «المصباح» ـ في الرسم القرآني : أجوزة في (129) بيتا.

94 ـ أبو عبد الله محمد التهامي بن الطيب الغربي السيفي، له أرجوزة في رسم ورش عن شيخه نافع، أسماها : «نصرة الكتاب» ـ تقع في (367) بيتا، نظمها سنة (1247 هـ ـ 1831 م).

95 ـ أبو محمد عبد السلام الشريف الزروالي، له منظومة في مراتب المد الطبيعي.

96 ـ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري صاحب الاستقصاء، كان عالما مقرئا حفظ القرآن بالسبع، أخذ عن شيوخ عدة من أصحاب هذا الفن، (ت 1315 هـ ـ 1897 م).

من آثاره : «الفوائد المحققة، في أبطال دعوى أن التاء طاء مرققة».

97 ـ أبو العباس أحمد بن العياش الصنهاجي اليحميدي الوظيلي، له تأليف في الرسم.

98 ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الورياغلي، من تلاميذ الفقيه كنون صاحب الاختصار، له : «شفاء الصدور، في تحريم لحن الفجور» ـ قصيدة دالية، نظمها كما يقول في اللحن العجمي ـ وهو قراءة القرآن بالصيغة، يقول فيها :

إذا اجتمع القرآن في محفل الغدا
لدى البعض يقرءون باللحن والددا
يسمون اللحن القبيح بصيغة
به استوجب التقطيع والذبح بالمدى

ـ وله عليها شرح.

99 ـ أبو محمد عبد السلام بن الحسين العلمي، له أجوبة في الرسم والضبط.

100 ـ المحجوب الصحراوي، له قصيدة لامية في الثبت والحذف، أسماها : «كشف الرموز والاشارات» وضع عليها شرحا.

101 ـ أبو العباس أحمد الربيعي السوسي، له قصيدة لامية في الثبت والحذف تعرف ب (الكناوية ـ رتبها على حروف المعجم، تقع في نحو (800) بيت ـ وهو ضعيف النظم.

102 ـ أبو العباس أحمد بن الخياط الزكاري شيخ الجماعة بفاس، (1343 هـ ـ 1924 م)، له :

ـ تلخيص «القول الوجيز» ـ لابن عبد السلام الفاسي.

ـ حاشية على توضيح البيان للبكراوي.

تقييد في مخارج الحروف، نبه فيه على أخطاء يقع فيها كثير من القراء، مثل إخراج بعض الحروف من غير مخارجها، كالجيم والتاء والقاف والضاد.

رسالة في وقف الاستراحة.

103 ـ أبو عبد الله محمد بن حمان أشاخ الحزمري، له قصيدة لامية في الثبت والحذف، ضمنها قصيدة للربيعي السالف، أسماها «النجمة المضيئة»، تقع في (931) بيتا، وقد نظمها سنة (1323 هـ ـ 1905 م).

104 ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الله السوسي الولتيني، له رسالة في نظائر القرآن.

105 ـ أبو عبد الله محمد بن الأعمش ـ دفين تندف، (ت 1288 هـ ـ 1871 م) ـ له مؤلف في رسم المصحف.

106 ـ يحيى بن موسى الحلواني، له منظومة في حروف الحمل، تقع في (136) بيتا ـ وهو ضعيف النظم.

107 ـ أبو عبد الله محمد بن ابراهيم أعجلي الباعقيلي السوسي، (ت 1271 هـ ـ 1854 م).

من آثاره :

ـ كتاب «الهداية لمن أراد الكفاية، على ضبط أواخر الكلمة بما صح بالرواية»، ضمنه وقف القرآن على ما عند الهبطي، ورتبه على حروف المعجم، وقد أحصى وقوف كل حرف، فالهمز ـ مثلا ـ : (237) وقفة، والباء (329) وقفة، وهكذا فمجموع وقوف القرآن ـ على اختلاف في ذلك : (8877). وقفة، ويسميها بعضهم بـ (الوقفيات).

ـ ميم الجمع رتبه على الحروف الهجائية، قال فيه : إنه كتاب عظيم جمع فيه ميم الجمع كله الموجود بعد الحروف الأربعة : الهمزة، التاء، الكاف، الهاء.

ـ رسالة في هاء الضمير، مرتبة على حروف المعجم.

ـ تقييد التنوين الذي جاء في آخر الكلمة من القرآن العظيم.

ـ الاتصال الكبير ـ وهو مجموع متداول بين الناس، أضيفت إليه إضافات، وزيدت عليه زيادات، مما جعل نسخه تختلف اختلافا بينا، وتتفق ـ في مجموعها ـ على الموضوعات التالية :

الاتصال، ـ الانفصال، ـ الوزن، ـ وهي مرتبة حسب سور القرآن.

108 ـ أبو العباس أحمد الميزوري المساري، ولد أوائل النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري بقرية ما زورة من قبيلة بني مسارة ـ إحدى قبائل الجبل بشمال المغرب.

أخذ القراءات عن شيوخ هذا الفن، وكان آية في الذكاء والحفظ، جمع بين المدرستين : العددية والحطية، سهل عليه النظم حتى استوى عنده مع النثر، وهو من الشيوخ الذين ذاع صيتهم بهذه الجبال، ودخلت أنظامه كل مدرسة وكتاب، وقصائده في الثبت والحذف أشهر من (قفانبك)، وكان الطلبة يحجون إليه من كل جهة ومكان، وكانت له مهارة عجيبة في (فن الحطيات) ـ وهو عد حروف القرآن وكلماته، تسأله عن كلمة فيذكر لك عددها ونظائرها، وما جاء منها بالثبت والحذف، والوقف وغير الوقف إلى غير ذلك، فيملي عليك من حفظه ما يصح أن يكون كتابا، وينظم ذلك في الحين، خلف تلاميذ كثيرين، أذاعوا في الناس قصائده ودواوينه، توفي في حدود (1320 هـ ـ 1902 م).

له عدة منظومات في الثبت والحذف، منها أرجوزته في الحذف التي افتتحها بقوله :

وقال أحمد عبد الله
المرتجي مغفرة الإله

وهي مرتبة على حروف المعجم، يقول في باب الهمز :

سوءته قرءنا بدء يوسف
وبدء زخرف وجاءنا أحذف

وقال في الباء :

تبشروهن — وبشروهن
غضبن بخع ـ بالنون ـ برزون

وجاء في خاتمتها :

يــــا رب وارحم نــــاظم الأبيــــات

الميــزري الــذليــل للســادات

- وإلى جانب ذلك، فقد كانت له أنصاص خاصة طارت شهرتها بين طلاب البادية، وهي نصوص تساعد على حفظ القرآن واتقان رسمه وضبطه، ويبدو أن هذه الأنصاص ظهرت - أول ما ظهرت - بالأندلس في حدود أوائل المائة السادسة للهجرة، ونجد طائفة منها في برنامج الرعيني (ت 666 هـ - 1267 م)، ذكر أنه أخذها عن بعض شيوخه كأبي علي المعروف بالزبار، قال : وأنشدني - رحمه الله - لغيره :

حكيم عليم في التــلاوة خمســـة

فـلا تسمعن لقـول من قــال ســادس

ففي ســورة الأنعــام منهــا ثـلاثــة

وفي الحجر حرف ثم في النحـل خـامس

ويحفظه طلاب البادية - بأسلوبهم الملحون - هكذا :

ومن زاد سادس كلامه ناقص.

قال الرعيني : وأنشدني أيضا :

ســألت إذا أتى لعب ولهـــو

وكم من مــوضـــع هــو في القرآن

فحرف في الحــديــد وفي القتـــال

وفي الأنعـــام أيضـــا مـوقعـــان

وقد اقتفى المغاربة أثرهم في ذلك، لكن الطابع الخاص الذي يميز أنصاص الأندلسيين : هو الفصحى، والتعبير بالسور، بينما المغاربة - في الغالب الأعم - يعبرون بالأحزاب والأرباع والأثمان، وذلك نحو قول بعضهم في عدد (ومن يكفر) أو (فمن يكفر) - بالواو أو الفاء :

مــا تنسـخ ننبئكم تفرقـــا حرمت

دابــة (ومن يكفر) بـــالـواو فخمســة

وعكسهم قال بالفاء حرفان في الذكر

تلـــك الرسـل أحس فخـــذهم مكمـلا

- وربما اكتفوا عن ذلك بالكلمة الواردة قبل محل الشاهد. ومن أخص هذه الأنصاص وأخفها : نصوص بعيد، ويقال إن الميزوري هو أول ناظم لها، ويكتفي فيها بكلمة بعد أو بعيد، نحو قوله :

صـدقين قـل بـالـيـاء (أل) عـددهم

بعيـد كـانـوا كنتم ومـا كنـا مكمـلا

والشأن : أن تكتب هذه الأنصاص أسفل الألواح، فيحفظها الطلاب كما تحفظ المتون الأولية (الكراريس). وهذه الصناعة التي غايتها : إحصاء حروف القرآن وكلماته، وما لها من نظائر، وتعرف - عند المغاربة - بـ (الحطيبات)؛ ربما قلل من شأنها بعض العلماء القدامى أمثال السخاري، والسيوطي، وسواهما، لكن بعض المتأخرين اعتبرها عملا أقل ما يقال فيه : أنه خدمة للقرآن الكريم، وتمكين لطلابه من حفظه، واستيعاب كلمه (والأعمال بالنيات).

هذه نظرة عجلى عما أنتجه القراء المغربية - فقط - حول مقرأ نافع : المذهب الرسمي للدولة المغربية - منذ تأسيها، وهناك جوانب أخرى من علوم القرآن - كالتفسير، وعلم القراءات، وغريب القرآن، والناسخ والمنسوخ، وما إلى ذلك، وهو تراث ضخم في حاجة إلى من ينفض الغبار عنه ويتناوله بالدرس والتحليل، والله الموفق، والهادي إلى أقوم طريق.

تطوان — سعيد أعراب

مصادر البحث :

- إتحاف أعلام الناس، بجمال أخبار حاضرة مكناس ـ لعبد الرحمان بن زيدان، الطبعة الأولى ـ الرباط (1931).
- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ـ الطبعة الثالثة (1951).
- الأزهار العاطرة الأنفاس، بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس ـ لمحمد بن جعفر الكتاني ط حجرية (1306 هـ).
- الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى ـ لأحمد بن خالد الناصري ط دار الكتاب ـ البيضاء ـ المغرب (1954).
- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ـ لعباس بن ابراهيم ـ الطبعة الثانية (1974 ـ 1983).
- البحر المحيط ـ تفسير لأبي حيان الغرناطي ـ الطبعة الأولى (1328 هـ).
- برنامج التجيبي (مصورة خاصة).
- برنامج الرعيني ـ المطبعة الهاشمية بدمشق (1962).
- البرهان في علوم القرآن للزركشي ـ الطبعة الأولى (1957).
- التكملة لابن الأبار طبع مصر (1956).
- التكملة لابن الأبار طبع مجريط (1887).
- جذوة الاقتباس، فيمن حل من الأعلام مدينة فاس لابن القاضي ـ ط حجرية.
- جنى زهر الآس، في بناء مدينة فاس للجزنائي ـ المطبعة الملكية بالرباط (1967).
- سلوة الأنفاس، لمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، لمحمد بن جعفر الكتاني ط حجرية (1306 هـ).
- سوس العالمة لمحمد المختار السوسي ط فضالة ـ المحمدية ـ (المغرب الأقصى) (1960).
- صحيفة الميثاق ـ لسان حال رابطة علماء المغرب 18 غشت 1970 ـ 9 فبراير 1972.
- الصلة لابن بشكوال نشر العطار (1955).
- غاية النهاية لابن الجزري ـ مكتبة الخانجي بمصر (1932).
- الغنية (فهرسة) عياض ط الدار العربية للكتاب (1978).
- فهرس مخطوطات الخزانة الحسنية ج 6 ـ الطبعة الأولى (1987).
- فهرس مخطوطات المكتبة العامة بتطوان ج 1 ط ديسبريس (1981).
- مجلة بدعوة الحق س 11 ع 4 و 8، س 17 ع 6 و 9، س 21 ع 1.
- مخطوطات مكتبة ابن عرضون (ع).
- المعجب للمراكشي مطبعة الاستقامة بالقاهرة (1949).
- نيل الابتهاج لأحمد بابا ـ هامش الديباج لابن فرحون ـ الطبعة الأولى (1351 هـ).



في السادس من فبراير المنصرم استكمل العرش المغربي من حياته الحافلة اثنى عشر قرنا من الزمان. وفي رابع رمضان المقبل يحل عيده السابع والثلاثون بعد المائتين والألف... عمر طويل مديد مبارك لعرش وطني مجيد، شبّ ونما وترعرع وازدهر في فترات من الزمن ضاحكة ناضرة مستبشرة، وكافح وناضل وحارب في فترات أخرى عابسة كالحة باسرة، ولكنه كان دوما يخرج من العراك عالي الرأس موفور الكرامة.

موضوع عيد العرش ـ عرش الصمود والتحدّي ـ حافل شائق، لكن، لا يسمح الوقت أو المجال بالتحدث عنه في إسهاب، وبكيفية تطمئنّ لها النفس تمام الاطمئنان، لذلك أكتفي هنا بالحديث عن العرش المغربي البكر، العرش الإدريسي الأول الذي نشأ شجى في حلق الخصوم المناوئين، وقذى في عين الأعداء الألدّاء، خرج العرش المغربي إلى حيز الوجود مكتمل الخلق غير خدوج، مستقلا تمام الاستقلال عن ولاية الوالي العباسي القابع في القيروان، ليستقر في (وليلي) قاعدة قبيلة أوْرَبة البربرية العتيدة، ريثما يتمكن أمير المومنين إدريس الثاني من تأسيس عاصمته الجديدة (فاس)، أسس العرش المغربي على تقوى من الله ورضوان، فما أحرى أربابه أن يجعلوا العدل والحق ديدنهم وهجيراهم ! أن يتخذوا مبدأ لهم قول أبيهم مؤسس العرش المغربي حين خاطب مبايعيه لأول مرة قائلا : «لاتمدن الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا، لاتجدونه عند غيرنا».

لكن، كيف تمكن الأمير مولاي ادريس بن عبد الله من تأسيس عرشه البكر ؟ تمكن من ذلك بعد نجاحه في الفرار من أتون المعركة الرهيبة التي شارك بالقتال فيها مع إخوته وبني عمه، وبعد نجاته من التنكيل والتقتيل الذي راح ضحيته كثير من الشرفاء آل البيت، فقتلوا وقتلوا في اليوم الحرام يوم التروية، والشهر الحرام ذي الحجة 169،

1) الحسين بن علي بن الحسن المثنى وهو الزعيم المطالب بالخلافة، أما الحسن فهو ابن محمد بن الحسن المثنى.

2) المراد به عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن المثنى.

والبلد الحرام (فخّ القريب من مكة المكرمة» فاحتزت رؤوس القتلى ليطلع عليها خليفة بغداد موسى الهادي، وتركت الجثث مطروحة في أرض المعركة لتلتهمها الطيور والوحوش وتتفجر عاطفة شاعر معاصر ليبكي قتلى (فخّ) بكاء مرا ويقول :

فلأبكين على الحسين بعَوْلَة وعلى الحسن[1]

وعلى ابن[2] عاتكة الذي

أثووه ليس له كفن

تُركوا بفخّ غُدْوَة

في غير منزلة الوطن

كانوا كراماً قُتِّلوا

لا طائشين ولا جُبُن

غَسَلوا المذلّة عنهموا

غَسْلَ الثياب من الدرن

هُدي العباد بجدّهم

فلهم على الناس المنن

فرّ إدريس متستّراً متنكراً مع خادمه المطيع راشد[3]، فمرّا بالأسكندرية، وتعرّفا بالمسؤول عن البريد (واضح) الذي كان متشيعا لآل البيت، وآلى على نفسه أن يعمل على خلاص إدريس، فلعل الله يحسب عمله هذا ضمن حسناته ! وقد وفّى بالعهد، فكان في ذلك حتْفُه على يد الرشيد وتعرّفا كذلك على رجل مصري كريم متشيّع لآل البيت كذلك، فأكرمهما غايةً، واشترى لهما راحلتين، واشترى لنفسه أُخرى، وزوّدهما بما يحتاجون إليه هم ثلاثتُهم لأنه رافقهما حتّى (برقة) ثم زوّدهما أيضا وودعهما وانصرف كل إلى حال سبيله : عاد هو إلى داره بالأسكندرية، وغادر إدريس ومولاه راشد إلى (القيروان) ثم (تلمسان) ثم (طنجة) حيث أقاما فيها أياماً. ولمّا لم يجد بها إدريس ما يرغّبه في الاستقرار بها، ويبلّغه مؤمّله ومتمنّاه، غادراها إلى (وليلي) قاعدة جبل زرهون، فوصلاها في غرة ربيع النبوي لعام 172 هـ. واتّصلا بأميرها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي، فأكرمهما غاية الإكرام، ومنح إدريس ما يعرف الآن في الاصطلاح الديبلوماسي بحق اللجوء السياسي، بل تنازل له عن كل سلطة كان يتمتع بها كزعيم؛ وعرّف قومه وعشيرته بنَسب إدريس وقرابته من رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأطنب في التنويه بفضائله وخصاله الحميدة، فرحّبوا به غاية الترحيب، وتساءلوا عما يريده منهم زعيمهم، فأجابهم : تبايعونه. قالوا : سمعاً وطاعة، وعلى الرحب والسّعة، فبايعتْه أَوْرَبَة في رابع رمضان 172 (789/2/6)، وبايعته سائر القبائل والمدن المغربية.

وبتقبّل مولاي إدريس بن عبد الله البيعة من الشّعب، تمّ تأسيس العرش المغربي، وبتأسيسه شرع مولاي إدريس الأكبر يباشر واجباته الدينية والسياسية والوطنية على خير وجه، وابتسم له الحظ، وصادف القبول الحسن، والنصر المبين في حركاته وسكناته، مما أقضّ مضجع هارون الرشيد، وأقلق راحة باله، ففكّر في تدبير حيلته الدنيئة للتخلّص من هذا المنافس المغربي الخطير، وقد تم له ذلك للأسف الشديد !

ولكن التحدي مبدأ ثابت، والقافلة سائرة، ومواصلة سيرها الحثيث رغم التآمر والمناورات، خلف الإمام إدريس الثاني والده الشهيد، ونهج نهجه القويم في الحفاظ على عرشه ومقوّماته، وعلى مكتسبات بلاده، وعلى النهوض

3) يشكك البروفيسور خوان فرنيت في كتابه القيم : La Islamiza-ción, P. 62 في شخصية راشد إذ يقول : «لاحظوا أن راشدا كان بالنسبة لإدريس، كما كان بدر بالنسبة لعبد الرحمن الداخل، الأمر الذي يجعلنا نشك في أن شخصية أحد هذين العبدين المعتقين قد التبست في ذهن الأخباريين بـCronistas شخصية الأخرى. في الحقيقة لا ندري ماذا كان على الأخباريين أن يقولوا حتى يرضوا فرنيت أو يصدق هو قولهم ؟ أم لعله كان يرضي لو سجل أحدهم أن الإمام إدريس تجشم الصعاب الجمة وقطع آلاف الكيلومترات دون رفيق أو دليل أو صديق ؟ ربما !

بوطنه مادّياً وأدبياً، فصارت عاصمته الجديدة (فاس) كعبة يحج إليها القاصي والداني. وحارب الخوارج الصّفرية، وقاتلهم قتال الأبطال، وأبدى من ضروب الشجاعة ورباطة الجأش ما أدهش الجميع، وجعله يباهي وهو الشاعر المجيد ـ قائلا :

أليس أبونا هاشم شدّ أزره
وأوصى بنيه بالطّعان وبالضرب
ولسنا نمل الحرب حتى تملنا
ولا نشتكي مما يؤول إلى النّصب

☆ ☆ ☆

إن الخصال الحميدة التي كان يتّسم بها الإمام إدريس الأزهر، والشعبية التي كان يتمتّع بها، والتألق السياسي البراق، وازدهار البلاد في عهدها الجديد، كل ذلك أيقظ مرّة أخرى روح التآمر الدنيء في المناوئين وأذنابهم. فهاهو ذا والي إفريقية (تونس) إبراهيم بن الأغلب يتآمر على قتل راشد فيقتله، ويوعد الإمام إدريس قائلا :

ألم ترني بالكيد أرديت راشداً
وإني بأخرى لابن إدريس راصد
تناوله عزمي ـ على بعد داره ـ
بمحتومة يحظى بها من يكابد

وانغمس ابن الأغلب في الرذيلة والتآمر ضد العرش الإدريسي، فأخذ يستهوي بعض المغاربة كي يقلبوا لإدريس ظهر المجنّ، فها هو ذا يغري بهلول بن عبد الواحد المدغري بالمال والوعود المعسولة، فيستجيب به وينحرف فيبايع هارون الرشيد رغم بعد الشقة. ولكن الإمام إدريس لم يستسلم للأمر الواقع، بل كتب لبهلول يحذّره وينهاه :

أبهلول قد حمّلت نفسك خطّة
تبدلت منها ضلّة برشاد
أضلك إبراهيم مع بعد داره
فأصبحت منقاداً بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب
وقدما رقى بالكيد كل بلاد
ومن دون ما منّتك نفسك خاليا
ومنّاك إبراهيم شوك قتاد

وارعوى بهلول، وربما انصاع لصوت الضمير، فعاد ـ والعود أحمد ـ للتخلّي عن المؤامرة، وللتحلّي بالإخلاص والولاء للعرش كسابق عهده، واستتب الأمن، واستقامت أمور الحكم على العموم، وتعاقبَ على العرش الأمراء : محمد بن إدريس، وعليّ بن محمد، وأخوه يحيى بن محمد، ثم ابنه يحيى بن يحيى وهو الأمير الظليم المفترى عليه، لا لشيء إلا لإرضاء المتآمرين، وإشباع شهواتهم الجشعة الشّريرة.

حيكت المؤامرة، وحُبكت بكيفية لم يسبق لها مثيل، وحسبها المتآمرون أليق وأسرع تأثيراً في الغوغاء. ورموا الإمام يحيى الثاني بمراودة يهودية في الحمّام[4]، وزعموا أنها كانت جميلة. وليت شعري ! هل كان هذا معقولاً ؟ وهل كان الحمام خاصّاً بالأمير أو عامّاً ؟ فإذا كان خاصاً، فكيف يتأتّى ليهودية أن ترفض لسيدها رغبة والمعروف عن اليهود أنهم دائماً مع الأقوى ؟ وإذا كان الحمام عامّاً لا خاصّاً بالنّساء أفكان مختلطاً ترتاده النّساء والرّجال معاً ؟! إن هذا غير معقول حدوثه في شعب محافظ مثل المغرب المشبّع بروح البداوة والبراءة، وبمبادئ الدين الحنيف. وليس معقولاً أن يصدر هذا من أمير للبلاد هو ابن إمام

4) لم يكتف البروفسور قرنيت بالمراودة، بل نص على أن الأمير افتض اليهودية واغتصبها... وكأن الجميع كان يشهد الحادثة المزعومة فاجتهد في التعبير عنها بأسلوبهم الخاص. لم ينتبه للخديعة من المعاصرين إلا صاحب (الأزهار العاطرة الأنفاس) الذي عاب بعض الناس الذين نسبوا لسيدي يحيى بن يحيى ما لا يليق بجنابه، وينزه مطلق الناس عنه فضلا عن جانب النبوة، وأردف قائلا : «وتبعهم على ذلك بعض المؤرخين فذكروا في جانبه ما لا يحل ولا يصح فعلا، وينبُو عنه مقامه العظيم نبلا، والأمر لله من قبل ومن بعد.

حكَم البلاد سنوات طويلة، وبني في عهده جامع القرويين وهو المعلمة الدينية - العلمية التاريخية التي كان وسيكون لها الأثر البالغ في حياة الشعب المغربي، وليس معقولاً أن يخون يحيى الأول الله والرّسول، ويخون الأمانة الملقاة على كاهله فيولّي ابناً له طالحاً لا أخلاقياً، فيؤذى به دينه وشعبه المؤمن المسلم المتشبث بحبل الخلق المتين. إن أثر المؤامرة المكشوفة، انعكس حتى على الحياة الفكرية، فكُتُب التاريخ المعاصر للحادثة لا وجود لها. وكأن المتآمرين هيّأوا للمؤامرة مسبّقاً أولم يبقوا من الكتب إلا ما يرضيهم، أو عمدوا إلى التعتيم قصداً كيْلا تُكتشف الحقيقة النّاصعة. إن هذه الفترة تكاد تكون مجهولة تماماً، ولا نكاد نعرف شيئاً محقّقاً عن ملوكها : سيرتهم، سنوات حكمهم، بداية توليتهم ونهايتها، أعمالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، علاقاتهم بغيرهم من الدول والشعوب.

ومما يدل على أن المؤامرة حدثت ضمن مخطّط مدروس أن الغوغاء كانوا مهيئين مستعدّين للتشويش والقيام بالفوضى، وأن رأس الفتنة عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي كان مستعداً لتولّي السلطة واغتصاب العرش من سيد العرش الذين زعموا أنه فرّ من عُدوة القرويين إلى عدوة الأندلس، وأنه مات من ليلته ندماً وكَمَداً، ولولا أن الشريفة البطلة زوجة المرحوم وابنة عمّه عاتكة بنت علي بن إدريس الأزهر، فوّتت على المتآمرين غرضهم الدنيء، فاتّصلت بوالدها الذي كان حاكماً بالرّيف والسواحل الشمالية وأعلمته بالحادثة، واستدعاه مع ذلك أهل الحل والعقد من عرب وبربر وَمَوَالٍ. لبّى الوالد الدعوة وجمع جموعه رجاء ليستولي على فاس ويستوي على عرش آبائه وأجداده.. ولولا هذا التّصرّف الحكيم لبقي الوضع الشّاذ على ما هو عليه.

هنا نتساءل عن الدواعي الخفية لهذه المؤامرة، وتواطؤ الإخباريين على ذكر مثل هذه الترهات المغرضة.

الدواعي في نظرنا أمران :

أولهما : الحاجة إلى التكوين الفنّي السليم الذي يجمع إتقان المادة التاريخية إلى تحكيم العقل والمنطق. ويرحم الله فيلسوف التاريخ العلاّمة ابن خلدون الذي تنبّه لهذا الأمر في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حيث نص على أن «فنّ التاريخ محتاج إلى مآخذ متعدّدة ومعارف متنوعة، وحسن نظرٍ وتثبتٍ يفْضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلاّت والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قِيسَ الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزَلّة القدم، والحيْد عن جادّة الصواب. وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأسبابها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط».

وثاني الأمرين : الأديولوجيات والمذاهب الهدامة التي لا يراعي أصحابها إلا ولا ذمة، بل كل ما يهمهم مهاجمة خصومهم إن بالحق أو بالباطل، وإلصاق التهم المغرضة بهم أملا في الوصول إلى تحقيق أغراضهم الدنيئة.

إن اصطلاح الإديولوجية أطلقه لأول مرة الفيلسوف الفرنسي Destutt Tracy في أوائل القرن الماضي. وحدد Karl Mannheim معنى الإديولوجية بأنها «الأفكار المشوهة التي تطلقها الطبقة الحاكمة لتحافظ على النظام الاجتماعي الحالي أو النظام الاجتماعي السابق. أو هي التعبير الفكري لجماعة من الجماعات كي يساعدها على تحقيق أهدافها. فالإديولوجية في نظر (منهايم) هي كلمة معاكسة للطوبائية التي يعنى بها المثالية أو العمل من أجل المجموع».

الإديولوجيون هم أصحاب الإفك الذين أطلقوا هذه الفرية على الخليفة يحيى الثاني فنقلها الإخباريون وكأنها حقيقة تاريخية ثابتة، وقبل يحيى الثاني قذفوا جده

إدريس الثاني وزعموا أنه ثمرة محرمة لراشد يعقب ابن خلدون على هذا الإفك فيقول :

«...قبحهم الله وأبعدهم ما أجهلهم ! أما يعلمون أن إدريس الأكبر كان أصهاره في البربر، وأنه منذ دخل المغرب إلى أن توفاه الله - عز وجل - عريق في البدو، وأن حال البادية في مثل ذلك غير خافية، إذ لا مكامن لهم يتأتى فيها الريب. وأحوال حرمهم أجمعين بمرأى من جاراتهن ومسمع من جيرانهن لتلاصق الجدران وتطامن البنيان، وعدم الفواصل بين المساكن ؟ وقد كان راشد يتولى خدمة الحرم أجمع من بعد مولاه بمشهد من أوليائهم وشيعتهم، ومراقبة من كافتهم، وقد اتفق برابرة المغرب الأقصى على بيعة ادريس الأصغر من بعد أبيه، وأتوه طاعتهم عن رضى واصفاق، وبايعوه على الموت الأحمر، وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه وغزواته، ولو حدثوا أنفسهم بمثل هذه الريبة، أو قرعت أسماعهم ولو من عدو كاشح، أو منافق مرتاب، لتخلف عن ذلك ولو بعضهم.

«كلا والله ! إنما صدرت هذه الكلمات من بني العباس أقتالهم (أعدائهم)، ومن بني الأغلب عمالهم بافريقية (تونس) وولاتهم».

رحم الله ابن خلدون ورضي عنه وأرضاه. لقد دافع دفاع الأبطال، وألقم الأفاكين الحجر، ورد كيدهم في نحرهم.

كان بودى الاسترسال في موضوع «عرش الصمود والتحدي» فهو موضوع خصب كما لا يخفى، ولكن الوقت والمجال لا يسمحان بالإسهاب والاسترسال كما أشرت من قبل. وكل ما أريده هنا التنصيص على أن العرش المغربي المصون، واصل صموده وتحدياته عبر الاثنى عشر قرنا المتتالية، انتقل تملكه بين الأسر المغربية المتعددة فصانته وحافظت عليه عبر الأجيال والقرون : انتقل تملكه من السلالة الادريسية العلوية القرشية الشريفة إلى أسر مغربية غير قرشية (الزناتيون من مغراوة وبني يفرن، ثم المرابطون والموحدون، ثم المرينيون والوطاسيون) ثم امتلكته بعد ذلك أسرة دولة الأشراف السعديين، ثم أسرة الشرفاء العلويين أدام الله ملكها، وبرز في هذه الحقبة الطويلة من الزمن ملوك عظام، دوخ بعضهم العالم، ودون التاريخ سيرهم بمداد الفخر والقداسة والتمجيد، وناهيكم بهذه الأسماء اللامعة الخالدة : يوسف بن تاشفين، وعبد المومن بن علي، وأبو الحسن المريني وابنه أبو عنان، وعبد الملك السعدي وأخوه المنصور الذهبي، ومولاي اسماعيل بن الشريف العلوي وحفيده سيدي محمد بن عبد الله، والمغفور له محمد الخامس محرر المغرب من ربقة الحماية البغيضة، ونجله البطل أمير المومنين الحالي باعث النهضة ومحرر الصحراء، وغيرهم... وغيرهم... وبالمثال يتضح المقال.

تطوان د. عبد الله العمراني



للدكتور محمد الغربي

كان للإسلام الفضل الأكبر في نقل اللغة العربية ومختلف علوم الدين إلى أماكن كثيرة من السودان الغربي، ولم يكن لجهود الدعاة والوعاظ ولا لحلقات العلم في الجوامع من هدف سوى تعريف السودانيين بالآداب الإسلامية وقواعد الدين وتنظيم المجتمع على أسس جديدة، ولم تعرف الشعوب التي أسلمت عنف الصراعات المذهبية التي عرفتها الأندلس والمغرب لأن المذهب المالكي كان منذ عهد المرابطين هو المعتمد بكيفية تكاد تكون شمولية، أما الطابع الثقافي، فلم يخرج عن النطاق الديني أيضاً وربما لم تلعب اللغة العربية أي دور في مدى سبعة قرون منذ دخول الإسلام إلى السودان، فالقول بأن الفكرة الإسلامية التي تحالفت مع التجارة، كانت العامل الأساسي في بناء الممالك السوداء لايعني بالضرورة قيام مجتمع يعتمد في تجانسه الفكري على الثقافة العربية الإسلامية.

إن كل ما وصلنا من معلومات عن التفاعل الديني، والتفاعل الديني القائم على الثقافة العربية، مع الأسس الفكرية التي كانت موجودة بالسودان يقودنا إلى تصور ثلاث مراحل عبرت خلالها الثقافة الإسلامية العربية ألى المجتمعات السودانية.

المرحلة الأولى نهض بها الدعاة وسط القبائل والمساجد في المدن واستمرت حتى أواسط القرن الرابع عشر، وكان مما نتج عن تلك المرحلة تعليم سواد الناس العبادات والمعاملات والسلوك الديني.

والمرحلة الثانية امتازت بتوثيق العلائق المغربية والمشرقية مع السودان وانتقل خلالها علماء الفقه والحديث، وجماعة من المهندسين المعماريين إلى مناطق متباعدة في السودان، وأدت جهودها إلى إدخال الثقافة العربية والفنون العربية وخلق مدرسة إسلامية سودانية وبصفة خاصة في مجال علوم الدين من فقه وحديث ومسائل ونوازل.

والمرحلة الثالثة تبتدئ من أواخر القرن السادس عشر وقد وسعت المجالات السابقة وصقلتها وأضافت إلى أغراضها الفكرية مجالات وآفاقا تمثلت في فنون أدبية أكثر عمقاً

وإشراقاً وإبداعاً كالفلسفة والمنطق والتاريخ وآداب الرحلات والإنشاء والشعر.

وإذا كان الهدف من دراسة الحياة الفكرية هو تلمس الأسس والدوافع والمؤثرات ثم المردود والنتاج فيجب أن نبدأ من حيث بدأت المراكز العلمية في أكثر من مدينة سودانية تعلن عن نفسها وعن المستقبل الذي ينتظر الثقافة العربية، ونحن لانعلم يقينا شأو النهضة العلمية، ولا أهمية المراكز الدينية التي قامت حتى منتصف القرن الرابع عشر، فالمؤرخون القدماء وحتى الرحالة لم يسعفونا إلا بأسماء علماء أو فقهاء أو أصحاب كرامات كانوا يعيشون بتلك البلاد وكانت لهم حظوة عند الحكام والشعوب. ولكننا لانجادل في بروز سلطة دينية حازت التقدير والتقديس وأدت بجمهرة رجال الدين المسلمين إلى أن يحشروا سلطتهم تلك في خضم المعتركات السياسية بصفة مباشرة أو غير مباشرة، ويجتهدوا في التأثير على الجوانب الاقتصادية كذلك.

وكانت هنالك فترات مد وجزر في ذلك التدخل أو هذا التأثير، فقد رأينا بعض ملوك السودان كسني علي ينكل بعلماء الدين ويطاردهم في الصحاري ويقتلهم، كما رأينا البعض الآخر منهم كالأسكيا الحاج محمد يتشبه بالحكام المسلمين في عصره ويمحض أولئك العلماء العناية والتكريم والتقديس، وبصفة عامة فقد كانت الحركة العلمية تندفع إلى أهدافها في نقل المعرفة وتكريس الثقافة العربية، وكان يبرز من بين رجالها الفقهاء والأدباء والشعراء وحتى المشعوذون والمتنبؤون.

ولكن لا ينبغي تسمية الأشياء بغير أسمائها، فإذا كانت طبقة إفريقية مختلطة مثقفة بالثقافة الإسلامية العربية قد ترعرعت وأخذت مكانتها في المجتمع الإفريقي، فإن رجالها لم يصلوا قبل القرن الرابع عشر إلى ما كان يمكن أن يشكلوا معه الحركة الفكرية الناضجة.

ويمكن القول بكل اطمئنان بأن المراكز الثقافية الإسلامية في ذلك الوقت كانت قد حققت نجاحا مهما في ربط الفكر الديني العربي بالحضارات إفريقية،[1] وسار ذلك الربط في نطاق من التأثير المتبادل دون حدوث نكسات أو أي مظهر للرفض من طرف الأفارقة الذين أصبح ما تعلموه وخبروه جزءا من كيانهم الخاص، وهذا ما أطلقنا عليه المدرسة الإفريقية.

غير أنه ينبغي التساؤل : هل كان هناك امتداد كبير للثقافة العربية الإسلامية، وهل شملت تلك الثقافة غالبية سكان الغرب الإفريقي المسلمين، أم أن الطبقة المثقفة ظلت تدور حول نفسها أو لا يستفيد منها إلا العدد القليل من الراغبين في العلم، ثم هل كانت طبقة المثقفين تشكل طبقة منعزلة وغير فاعلة أو متحركة وأخيراً هل وقع التخاطب بالعربية أم ظلت تلك اللغة سجينة المساجد لايفقهها إلا العديد من المقبلين على حلقات الدروس.

الواقع أن الإسلام وإن كان قد طبع التاريخ الإفريقي والحضارة الإفريقية بطابعه المميز، فإنه كان مع ذلك نموذجا إفريقيا، فسكان القرى والبوادي لم يكونوا يعرفون إلا النطق بآيات القرآن دون فقه لمعنى ما يحركون به ألسنتهم، وكانوا يمسكون في رمضان من الفجر إلى غروب الشمس ويتقربون بالذبائح بالقرابين والنذر ولكنهم إلى جانب ذلك كانوا يعبدون قوى الطبيعة ويقدسون الأصنام والأيقونات، ويؤمنون بأقوال الكهان والسحرة[2] وقد مر وقت طويل قبل أن تتغلب المدارك الإسلامية على السحر.[3]

لقد بقيت الشعوب الإفريقية الموزعة إلى أجناس متعددة تتحدث مئات اللغات المختلفة واستمرت على تقاليدها وعاداتها القديمة رغم دخولها الإسلام واتحادها ظاهرياً تحت مظلته، ولكن قد تأكد أن تلك الشعوب لم يوحدها شيء حتى الآن كما وحدها الفن، فالدين بالنسبة

1) حسن أحمد محمود ـ «الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا» القاهرة 1963 ص 10 ـ 11.

2) زيادية ـ مالك، ص 135.

3) V. Ostcil «Le Monce Musulman» Geneve 1963 P : 67.

إليها كان رابطة ولم يكن عنصر تحويل جذري، ونستطيع القول إنه في هذا المحيط البشرى المتلاطم لم تستطع قلة من المثقفين بالعربية أن تفعل أكثر من لفت النظر إليها، وبالرغم من أن تذوق الثقافة العربية كان يتزايد مع ازدياد قوة الرفد من الشمال، فإنه لم يكن هناك من مفر لتغليب الصبغة الإسلامية على تلك الثقافة، حيث ظلت الفنون تجذب السواد الأعظم نحو الماضي وتمتنع عن فك الارتباط به، وهكذا فإن حكايات البطولة وقصص المعارك وأهوال الطبيعة الغير المكتوبة بقيت تستهوي الإفريقي أكثر مما تشده قصيدة شعرية أو عمل أدبي رفيع، لقد ظل العمل الفكري الفني يعطي باستمرار أفكاراً عن المعتقدات الإفريقية القديمة وعلى هذا المقياس لم يكن من السهولة أن تكسب اللغة العربية مواقع جديدة في البداية بل تطلب ذلك جهدا ووقتا كبيرين.(4)

ومما لاريب فيه أن النصف الثاني من القرن الرابع عشر شهد بعض الأحداث التي أثرت على تطور الحياة الفكرية في المراكز الثقافية التي ذكرنا، فقد زار المغرب وفد من مالي في عام 1341 واتصل بالسلطان أبي الحسن المريني وحمل رسالة وهدايا إليه وطلب منه توجيه مجموعة من الفقهاء والعلماء والمعماريين، ولم يتأخر السلطان عن التلبية، وأدى الأمر بعد أعوام قليلة إلى ظهور نهضة علمية حقيقية في المدن تقوم على الثقافة العربية، واتضاح معالم فن مغربي أندلسي أصيل في القصور والمساجد التي بناها مهندس أندلسي شهير هو أبو إسحاق الطويجن،(5) ويظهر أن التعاون الثقافي والفني بين مالي والمرينيين كان مرغوبا فيه، فقد توجهت بعثة من الطلبة إلى فاس، وندب المرينيون والوطاسيون مجموعة من العلماء للعمل في مدارس السودان وسمحوا لبعض الرحالة بالتوجه إلى أصقاع السودان للاطلاع على أحواله، واشتهر من بين أولئك السفراء الحسن الوزان ووالده.

4) H. Deschamps L'Afrique Precoloniale Paris 1962 P : 11.

5) Niam, Djibril « L'Empire de Mali » Conakry 1948 P : 60.

ولقد كان من أثر ذلك بروز الحضارة السودانية الفكرية والعمرانية على النسق الأندلسي المغربي(6) ولكنها لم تتجاوز نطاق المدن الكبرى الواقعة على نهر النيجر.

ولم تتأثر قضية التبادل الثقافي عبر الصحراء بما كان يجري من تحولات سياسية في السودان والمغرب، فقد انتهت مالي كأمبراطورية، واستلم قادة وزعماء من السونغاي مقاليد السلطة ثم حول أحد أولئك القواد البلاد إلى مملكة ونصب نفسه اسكيا عليها وهو الحاج محمد، أما في المغرب فقد برز شرفاء مجاهدون في جنوب المغرب وأقاموا دولة لهم هي دولة السعديين وأخذت العلاقات السودانية المغربية في العهدين الجديدين أشكالا إيجابية تمخضت عن ارتباط عضوي سياسي واقتصادي وحضاري.

ولقد توارد على بلاد السودان عشرات العلماء من المغرب، واستقبلت جامعة القرويين العشرات أيضاً ممن لمع اسمهم في تاريخ البلدين معاً، وازدهرت تجارة الكتب وحفلت خزائن مدن السودان بكل ما كان معروفا من كتب في مختلف الفنون، وبارك الأساكي الحركة العلمية والثقافة العربية وشجعوها واحترموا العلماء والفقهاء، وأسقطوا عنهم وظائف للسلطنة وغراماتها ومنعوا عنهم ظلم الحكام بحيث كان للاسكيا وحده حق النظر في أية شكوى ضد عالم أو فقيه.(7) واعتقد أهل السودان الولاية في العلماء ونسبوا لهم الكرامات وكانوا يقيمون الأضرحة لمن مات منهم ويتقدمون بالذبائح إلى تلك المقامات.

وسنورد نبذا عن أهم رجالات العلم في هذه الفترة مستهدفين إبراز الأهمية التي أصبحت للثقافة العربية ولرجالها.

محمد بن عبد الكريم المغيلي : ولد بمدينة توات في حي كان يسكنه اليهود وانتقل إلى فاس برسم

6) السعدي ص 21 و 51 و 57.

7) كتعويش 73.

الدراسة العليا، وكان سنيا لايقول بالاجتهاد ولذلك كانت له مع علماء فاس مساجلات أخذت شكل الخلاف، واشتهرت تلك الخلافات ثم اتسعت بعد ارتحاله إلى تونس، وفضل المغيلي أن يهاجر إلى السودان حيث أصبح أكبر أستاذ في تكدة وغاو وكانو، واتصل في غاو بالأسكيا الحاج محمد وتذاكر معه في جملة من المسائل الفقهية وأقنعه بضرورة قتل اليهود السودانيين،[8] وألف في السودان عشرات الكتب والشروح وحشى بعض المؤلفات الأخرى ذكر صاحب الديباج واحدا وعشرين منها، وأهم تلك المؤلفات : «مغنى اللبيب في شرح مختصر خليل» وإكليل مغنى اللبيب والمنسيات وأسئلة الأسكيا الحاج محمد وأجوبة المغيلي عليها.[9]

كان الإمام المغيلي يميل إلى الدراسة المنهجية التي أبانت عن قدر كبير من سعة الاطلاع، وكما اشتهر بتعدد المدارك، فقد عرف بتعصبه للسنة وعدائه لغير المسلمين، وكان يجمع الناس في المساجد ويحرضهم على الفتك باليهود وتهديم كنسهم،[10] واعترض عليه قاضي توات عبد الله الأسنوني وعد أعماله من قبيل التعصب الذي لايقره الدين، وطير القاضي رسائل في هذا المعنى إلى علماء فاس وتونس وتلمسان، فانتصر البعض للمغيلي وأنكر عليه البعض أفعاله.

وإذا كان هناك من فضل الإمام المغيلي فهو أنه أول من أخضع المعارف الإسلامية في السودان لمحك النقاش وللأخذ والرد، ودفع العلماء والحكام إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة[11] ووسع دائرة النقاش العلمي بحيث أصبح يشمل مناطق لم تكن العلوم الدينية قد وصلتها على الشكل المنهجي.[12]

صالح بن محمد أندى عمر المعروف بالشيخ العمري : كان من أهل الفضل والعلم «مستحرم عند السلاطين يشفع للمساكين عندهم فلا يردون شفاعته على كل حال، ألف شرحا على مختصر الشيخ خليل».[13]

عبد الله بن أحمد بن سعيد : تلقى العلم في ولاتة وعاش حتى سنة 1483، وكان أديبا فيلسوفا ألف كتابا في شرح الشفا للقاضي عياض دفين مراكش.

محمد بن عيسى بن علي التلمساني : اشتهر بوضع كتاب حلل فيه شرب الخمر باعتبار أنها تتخلل بالخل وهو حلال ويقول أحمد بابا التنبكتي بأنه عرض كتابه ذاك على بعض شيوخه فأعجب بطريقة عرضه وتحليله.[14]

أبو القاسم التواتي : جاء مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلالت، وابتنى دارا بالقرب من المسجد الأعظم كان يستقبل فيها طلبة العلم، وقد كان الأسكيا الحاج محمد يصلي وراءه ويطلب دعاءه، وأنشأ مقبرة تنبوكتو الكبرى التي حبس عليها الأسكيا صندوقا يحتوي على ستين جزء من القرآن، وعندما توفي بتنبوكتو عام 1516 كان يوجد بتلك المدينة خمسون عالما من توات.[15]

عبد الرحمان بن علي بن أحمد القصري ثم الفاسي : ولد بمدينة القصر الصغير على البحر المتوسط، هو شيخ الإمام المنجور أشهر علماء المغرب في بداية عهد المنصور الذهبي، قال عنه المنجور : هو الفقيه الأستاذ

---

8) كان اليهود بتوات قد قتلوا إبنا له تركه في مسقط رأسه.

9) مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر رقم ع (37) ج.

10) بوفيل ص 142.

11) مما يدل على نفوذ الفكر والثقافة الإسلاميين إلى شعوب السودان ما جاء في السؤال الثاني الذي وجهه الأسكيا الحاج محمد إلى الإمام المغيلي «إن أهل بلادي يزعمون أنهم مسلمون... بالجامع والجمعة والأذان للصلوات الخمس وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر وأهلها عبدة أصنام فقام عليهم بعض أجداد هؤلاء السلاطين مع أتباعهم فقاتلوا أولئك الكفار وملكوا بلادهم وسكنوها بالإسلام أكثر من ثلاثين سلطانا قبل سني علي... ومن صفات سني علي أنه ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ المسلمين، ولكن لا يعرف لذلك حقيقة إنما يقول ذلك بلسانه ويصوم رمضان ويتصدق كثيرا بالذبائح عند المساجد ونحوها ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدق على الكهان ويستعين بالسحرة ونحوهم (مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر).

12) بوفيل المكان السابق، ومن بين القضايا التي أثارت الخلاف بين علماء السودان تحليل أو تحريم بعض الذميين، والصلاة في الأضرحة، ودفن الأموات في المساجد.

13) السعدي ص 36.

14) أحمد بابا.

15) السعدي ص 60.

المحدث المسند المحقق الرحالة أخذ عن شيخ الجماعة ابن غازي والشيخ زروق بفاس وأخذ علم الحديث بمصر ثم ذهب لبلاد السودان ودخل كانو وغيرها فعظموه ثم عاد إلى فاس سنة 1518[16] حيث أصبح من علماء جامع الأندلس يدرس الموطأ والكتب الستة المعتمدة في العلوم الدينية (البخاري - مسلم - النسائي - الترمذي ابن ماجة أبو داود) له عدة تآليف وتوفي عام 1549.

محمود بن عمر بن محمد آقيت : من مواليد تنبوكتو عام 1463، عين قاضيا وهو ابن خمس وثلاثين سنة، وكان يدرس مدونة الإمام سحنون ورسالة أبي زيد وألفية ابن مالك، وكان أول من بدأ بتدريس مختصر خليل وألف في ذلك كتابا من جزئين، وجادل علماء مصر وناقشهم عندما كان في طريقه للحج عام 1509 ومن بينهم إبراهيم المقدسي والقلقشندي، وعاد إلى بلاده ليزاول التدريس.[17]

عبد الله بن عمر بن محمد آقيت : كان أستاذا في ولاتة ثم في تنبوكتو، متضلعا في العلوم الشرعية وكان مهيب الجانب لورعه وزهده، وقوى الحافظة.[18]

محمد بن أحمد التكراتي : ولد في نواحي توات ودرس على الشيخ المغيلي ثم انتقل إلى مصر للدراسة ودخل السودان حيث رسمه الأسكيا في القضاء، وكان مدرسا في بعض مساجد تنبوكتو مات عام 1529 وعمره دون الستين.

مخلوف بن علي البلبالي : درس في ولاتة مبادئ العلوم ورسالة أبي زيد في الفقه، وارتحل للمغرب وحضر بفاس دروس علي ابن الرازي ثم عاد إلى السودان للتدريس بكانو وكاشينا، وحن إلى المغرب فشد الرحال إلى مراكش، ومات مسموما عام 1533 بعد عودته الثالثة للسودان، وقد كتب مؤلفا في النوازل.[19]

الحاج أحمد بن عمر بن محمد آقيت : كان أكبر الإخوة الذين عرفوا بالعلم في تنبوكتو وصفه أحمد بابا بأنه كان فقيها نحويا لغويا عروضيا محصلا بارعا حافظا معتنيا بتحصيل العلم ونسخ كتبه، كتب عدة دواوين وجمع كثيرا من الفوائد والتعاليق،[20] عمل في القضاء بولاتة وتنبوكتو، ثم ارتحل للشرح برسم الدراسة والحج، وجلس للتدريس بعد عودته، ومات سنة 1536.

العاقب بن عبد الله الأنساموني : ولد بتوات ودرس على المغيلي في مسقط رأسه وعلى الإمام السيوطي في مصر، ألف أربعة كتب في الفقه، مات عام 1543.

محمد بن محمود بن عمر آقيت : وصفه أحمد بابا بأنه كان ثاقب الذهن صافي الفهم ومن دهاة العلماء «تولى القضاء بعد أبيه فساعدته السعادة فنال ما شاء الله من دولة ورئاسة تفيأ منها ظلا ظليلا واكتسب من الدنيا عريضا وطويلا»،[21] وكان أستاذا للمنطق والبيان وله تآليف على رجز الإمام المغيلي في المنطق، توفي عام 1565 عن سن تناهز السبعين عاما.

أحمد بن محمد بن سعيد : ولد في تنبوكتو عام 1521 ودرس على جده محمود بن عمر آقيت مختصر خليل ورسالة أبي زيد، وأصبح مدرسا عام 1553، ألف دراسة على مختصر خليل وتوفي سنة 1528 م.

أحمد بن أحمد بن عمر آقيت : ولد في بلاد السونغاي، وأخذ العلم عن والده وجده وبرع في الحديث والفلك والهندسة، مر مرة في غاو فكان الأسكيا وجده داود

16) أحمد بابا - نيل - ص 176.

17) المصدر السابق ص 343 - 344، وقد ذكر السعد أن الأسكيا الحاج محمد هو الذي وجهه للحج وعند عودته ركب سفينة وذهب لاستقباله (السعدي ص 76).

18) المصدر السابق ص 161.

19) السعدي ص 39.

20) أحمد بابا - نيل ص 89.

21) المصدر السابق ص 340.

يعوده كل يوم حتى شفي كان جماعا للكتب وأتى بقدر منها من مصر عام 1549، وترك سبعة تآليف بعضها في الأدب والحديث، كان يدرس في المسجد عندما ثقل لسانه فحمل لبيته ومات بعد يومين (1983).

العاقب بن محمود بن عمر آقيت : أخذ عن أبيه وعمه، تلقى العلم في مصر في مجالس الإمام أبي الحسن البكري، تصدر للقضاء والتدريس في تنبوكتو وتوفي عام 1583.

محمد بن محمد الزغراني التنبكي : تلقى العلم في مدارس تنبوكتو، عن الفقيه محمد بن أحمد بن سعيد ومهر في النحو واللغة وأصبح مدرسا لهما، توفي عام 1602.

سلا : محمد الغربي

شكر واعتذار

وصلتنا، والمجلة ماثلة للطبع، وفي لمساتها الأخيرة، عدة مقالات ودراسات وقصائد، بمناسبة عيد العرش المجيد، قصد إدراجها في هذا العدد الخاص.

ونظراً لوصول الدراسات والأبحاث متأخرة، ونظراً لحرصنا الشديد في أن يصدر العدد في وقته المناسب، فإننا نعتذر لحضرات الأساتيذ المحترمين لعدم إدراج أبحاثهم في هذا العدد، آملين، إن شاء الله، أن ندرج ما وصلنا في الأعداد المقبلة بإذن الله.

ومرة أخرى، معذرة، وشكراً..

22) المصدر السابق ص 215.



«.... إلى أن قامت دولة الأدارسة، فاتجهوا إلى المذهب المالكي، وذلك بأمر من المولى إدريس، الذي دعا للأخذ به، واتباع منهجه، بعد أن جعله مذهبا رسميا للدولة، وأصدر أمره لولاته وقضاته بذلك...»

بدأت المذاهب الإسلامية تعرف طريقها إلى المغرب أواسط القرن الثاني الهجري، وازداد انتشارها في النصف الأخير منه، والمعروف تاريخيا أن المذهبين : الأوزاعي والحنفي كانا أسبق المذاهب دخولا إلى افريقية (تونس) والأندلس، وظل المذهبان معمولا بهما في بلاد المغرب مدة من الزمان، إلى أن بدأ طلاب هذه البلدان يرحلون نحو المشرق، بقصد أخذ العلم وطلب الرواية عن فقهائه وعلمائه، وبما أن رحلتهم في بدايتها كانت - كما يؤكد ابن خلدون - مقصورة على الحجاز[1] وإمامها يومئذ هو الإمام مالك؛ كان من الطبيعي أن يتأثروا بهذا المذهب وبصاحبه، وهذا ما حصل فعلا...

لقد تحدثت كتب التاريخ والطبقات عن مجموعة من طلبة هذه البلاد، رحلت في منتصف القرن الثاني الهجري، فيها من أهل الأندلس : زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون، المتوفى عام 204 هـ على أشهر الأقوال، والذي يذكر الحميدي أنه أول من أدخل مذهب مالك إلى الأندلس[2]، وقرعوس بن العباس، والغازي بن قيس المتوفى عام 199 هـ، وأبو عبد الله محمد بن سعيد ابن بشير بن شرحيل المتوفى عام 198 هـ، ويحيى بن يحيى الليثي المتوفى عام 234هـ، وأبو محمد عيسى بن دينار القرطبي المتوفى عام 212 هـ وسعيد بن أبي هند في آخرين... وفيها من تونس : علي بن زياد صاحب الرواية المشهورة

1) المقدمة ص 245 ط : الخيرية.

للموطأ، وأول مؤلف مغربي في المذهب المتوفى عام 183 هـ، وابن أشرس الأنصاري، والبهلول بن راشد المتوفى عام 183 هـ، وأبو علي شقران بن علي القيرواني المتوفى عام 186 هـ، وأبو محمد عبد الله فروخ الفارسي القيرواني المتوفى عام 176 هـ، وأبو محمد عبد الله بن عمر بن غانم الرعيني المتوفى عام 191 هـ، وأسد بن الفرات المتوفى عام 213 هـ وعباس بن أبي الوليد، وأبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي المتوفى عام 220 هـ، وأبو محمد عبد الله بن أبي حسان اليحصبي المتوفى عام 229 هـ، وأبو عبد الرحمن بن ثوبان الرعيني المتوفى عام 190 هـ، وصقلاب بن زياد الهمذاني المتوفى عام 193 هـ، وأبو عون معاوية بن الفضل الصمادحي المتوفى عام 199 هـ، وأبو عثمان المعافري، وزيد بن محمد الجمحي، وعمر بن الحكم اللخمي، وأبو القاسم الزواوي، وأبو الخطاب محمد بن عبد الأعلى الكندي، وعمر بن سمك ابن حميد، وأبو طالب الأبزاري، وأبو عبد الله بن زرارة، وأبو الحجاج الأزدي والحارث بن أسد القفصي، وعبد المومن بن المستنير الجزري، وعلي بن يونس الليثي، وغيرهم... وهؤلاء كلهم تتلمذوا لمالك وأخذوا عنه مباشرة، فلما عادوا إلى بلدانهم أخذوا ينشرون علمه وفقهه بين الناس، وذلك للتدريس والفتيا والقضاء والشورى وغيرها من وظائف الدولة، فالتزموا مذهبه في الفروع والأصول والعقيدة والسلوك، وترسموا مذهبه في التأليف، وطريقته في الاستنباط والبحث، ولم ينتقل الإمام مالك إلى جوار ربه، حتى كانت مدرسة في الأندلس وافريقية من أقوى المدارس في المملكة الإسلامية وأشدها استمساكا بآرائه، وتعصبا لها، فازدهرت مدرسة قرطبة والقيروان، وصار لهما من الذيوع والشهرة ما فاق سائر المراكز العلمية في العالم الإسلامي أو كاد. وكان من الطبيعي أن تتزايد الرحلة إلى مالك، ويكثر عليه الإقبال، لأن من كان يجتمع بمالك، ويأخذ عنه، يرتفع في نظر الناس ويشرف فيهم، فتدفع هذه الرحلة من لم يرحل، إلى الاغتراب، ليحظى بشرف الأخذ عن عالم المدينة. ولم يكن هؤلاء الراحلون يهتمون فقط بنشر علم مالك وفقهه، وإنما كانوا حريصين على أن يصفوا من يصغوا وجلالة قدره، واقتداء الأمة به في سلوكه وأخلاقه، ما عظم به صيته بهذه الربوع[3] ودفع بعض الخلفاء إلى أن يأخذوا بمذهبه، ويأمروا الناس باتباعه، ويُمَيِّزوا القضاء والفتيا عليه، كما كان الشأن بالنسبة للخليفة الأموي، هشام بن عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس[4] وإدريس بن إدريس في المغرب الأقصى[5] والمعز بن باديس في تونس[6].

وفي هذا الظرف بالذات (أي أواخر القرن الثاني الهجري) كان مذهب الإمام الأوزاعي في الأندلس، قد أخذ يتخلى عن مواقفه، فاسحا المجال للمدرسة المالكية، إذ لم يبق له من يناصره ويدافع عنه، إلا أفراد قليلون يأتي في مقدمتهم : الفقيه المحدث الراوية صعصعة بن سلام الدمشقي رائد المدرسة الحديثية في الأندلس، وشيخ المفتين بقرطبة[7]، مع جماعة كانت تحذو حذوه، وتنهج نهجه، وفي هذا السياق يذكر المقري في النفح ما نصه : «إن أهل الأندلس كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي وأهل الشام منذ الفتح، ففي دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن وهو ثالث الولاة بالأندلس من الأمويين انتقلت الفتوى إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعا وذلك برأي الحكم واختياره...»[8].

2) جذوة المقتبس ص 218.
3) النفح 46/2.
4) المدارك 27/1.
5) الأزهار العاطرة ص 130.
6) شجرة النور ص 129 التتمة وطبقات الأعيان 233/5.
7) جذوة المقتبس 58 وتاريخ علماء الأندلس 337 وقضاة الأندلس 78.
8) نفح الطيب 230/3 وكان على المقري أن يقول في عهد هشام لا الحكم.

وقد اختلف المؤرخون في أول من أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس، ذهب ابن القوطية وتبعه السيوطي في البغية إلى أنه الغازي بن قيس، وذلك في خلافة عبد الرحمن الداخل[9] بينما يرى الجمهور أن أول من أدخله هو زياد ابن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون[10].

والجمع بين الرأيين ممكن، باعتبار أن الغازي بن قيس أول من أدخله، إلا أنه لم يشتهر ويذاع بين الناس على نطاق واسع، إلا بعد ما جاء زياد الذي تصدى لإقرائه وإسماعه الناس[11]...

أما في تونس فقد كان الغالب على أهلها في القديم مذهب الأحناف، إلى أن عاد طلبتها من رحلتهم العلمية، فأخذوا ينشرون مذهب مالك وفي مقدمتهم علي بن زياد التونسي، الذي كان أسبقهم، وأكثر تأثيرا من غيره في نشر هذا المذهب، حتى ليقال : إن الفضل في نشر المذهب المالكي في تونس يعود إليه بالدرجة الأولى، وفي هذا يقول الشيخ محمد النيفر «وهذه المدرسة التي وضع لبنتها علي بن زياد وهي مدرسة مالك بن أنس، فهو الذي أدخل مذهبه هذه الديار المغربية وعرف به وشرحه للناس، وبين قواعده حتى اقتنعت به الأفكار، ولم يجتذبها إليه بسلطان ولا نفوذ»[12] ورأي النيفر هذا يؤيد ما ذهب إليه عياض في المدارك، فقد قال في حق علي بن زياد هذا إنه «أول من فسر لأهل المغرب قول مالك ولم يكونوا يعرفونه، وقد كان دخل الحجاز والعراق في طلب العلم، وهو معلم سحنون الفقه»[13]... غير أن زيادا هذا لم يكن له من الطلاب من يحمل علمه، كما كان الشأن بالنسبة لغيره، لذلك ضاع علمه وانقطع أثره مباشرة بعد موته، فلم يهتم به الباحثون وينشروا خبره ويشيعوا سيرته بين الناس، رغم ما كان له من سبق في نشر المذهب المالكي، والدفاع عنه، وتبيين مزاياه لهم، يدل لذلك ما ذكره تلميذه سحنون عندما قال : «لو كان لعلي بن زياد من الطلب ما للمصريين ما فاقه منهم أحد، وما عاشره منهم أحد»[14].

وكان بالقيروان قوم قلة في القديم أخذوا بمذهب الشافعي كما دخلها شيء من مذهب داود الظاهري على غرار ما كان في الأندلس والمغرب، ولكن كان الغالب عليها مذهب مالك وأبي حنيفة، إلى أن جاءت دولة الأغالبة الذين مالوا إلى الأخذ بمذهب الأحناف، وآثروهم بالقضاء والرياسة، ثم العبيديون من بعدهم، حتى جاء المعز بن باديس عام 407 هـ فحمل الناس من جديد على المذهب المالكي، قاضيا على الخلاف الذي كان محتدما بين المذهبين، ومن المؤكد أنه ما اختاره إلا لأنه كان أكثر انتشارا بين أهل تلك البلاد، وأهله إليه أميل[15] يقول مخلوف «وكانت بافريقية مذاهب الشيعة والصفرية والإباضية والنكارية والمعتزلة، وكانت بها من مذاهب أهل السنة مذهب أبي حنيفة النعمان ومذهب مالك فظهر له (أي المعز بن باديس) حمل الناس على التمسك بمذهب مالك وقطع ما عداه، حسما لمادة الخلاف بالمذاهب، واستمر بذلك الحال إلى احتلال العساكر العثمانية بافريقية»[16].

وإذا كانت بداية دخول المذهب المالكي إلى تونس والأندلس معروفة - كما رأينا - فإن الأمر بالنسبة إلى المغرب الأقصى على عكس ذلك، فالروايات في هذا الشأن متضاربة، ويحيط بها

9) تاريخ افتتاح الأندلس ص 58.
10) انظر المدارك 117/3 ونفح الطيب 46/2 وجذوة المقتبس 46/2.
11) ولعل هذا يفهم من قول المقري «وهو أي زياد أول من أدخله إلى الأندلس مكملا متقنا» انظر النفح 46/2.
12) مقدمة كتاب موطا زياد ص 36.

13) المدارك 80/3.
14) المدارك 82/3.
15) البيان المغرب 268/1 وشجرة النور الزكية ص 129 التتمة.
16) شجرة النور ص 129 التتمة.

الكثير من الغموض، فهناك رواية تذهب إلى أنه دخل إلى المغرب أواخر القرن الثاني الهجري، بينما تذهب رواية أخرى إلى أن دخوله تأخر إلى أواسط القرن الرابع الهجري... ويقال إن أهل المغرب الأقصى قبل اعتناقهم للمذهب المالكي كانوا يتمذهبون بمذاهب مختلفة، من خارجية ومعتزلية وحنفية وأوزاعية وبعض النحل الجاهلية[17] إلى أن قامت دولة الأدارسة، فاتجهوا إلى المذهب المالكي وذلك بأمر من المولى إدريس، الذي دعا الناس للأخذ به؛ واتباع منهجه، بعد أن جعله مذهبا رسميا للدولة، وأصدر أمره لولاته وقضاته بذلك، وقد جزم صاحب كتاب الأزهار العاطرة أن إدريس كان هو أيضا على مذهب مالك وفي ذلك يقول : «وعلى مذهبه كان إدريس وجميع العلماء من أهل المغرب الأقصى بسبب تقليد إدريس لمالك وتحصيل كتابه الموطأ وحفظه له»[18].

وكان كتاب الموطأ أول كتاب حديثي دخل إلى المغرب الأقصى، أدخله عامر بن محمد ابن سعيد القيسي قاضي إدريس بن إدريس الذي سمع من مالك والثوري وروى عنهما مؤلفاتهما وقدم إلى الأندلس برسم الجهاد، ثم جاز العدوة فاستقضاه المولى إدريس[19].

والقول بأن إدريس كان على مذهب الإمام مالك أمر غير ثابت، إذ لم يصرح أحد من الأقدمين الذين اهتموا بتدوين ترجمة إدريس بذلك، ولقد توقف في ذلك الحلبي عندما قال : «فإن قيل على أي مذهب كان الإمام إدريس بن إدريس من مذاهب أئمة الهدى كالإمام الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وسفيان بن عينية والأوزاعي واسحاق بن راهوية وداود الظاهري، فمنهم المعاصر للإمام إدريس ومنهم من هو قريب العهد منه، قلت لم أر من تعرض لذلك ولا من ذكره من أهل التاريخ لقلة اعتنائهم بذلك، ولو كان على مذهب أحد منهم لذكر ذلك، ويحتمل أنهم لم يعتنوا به كما تقدم، ويحتمل أنه كان إماما مستقلا مجتهدا لم يتقيد بمذهب أحد ممن ذكر ككثير من الأكابر في ذلك الأوان من العلماء والمحدثين... إلى أن قال : والأقرب أنه كان على مذهب الإمام مالك أو سفيان الثوري بواسطة قاضيه المذكور (يعني عامر القيسي) ولأنه قرأ عليهما وروى عنهما»[20]... ويروى أن سبب انتصار إدريس بن إدريس لمذهب مالك، واقتصاره عليه دون غيره، وأمره لولاته وقضاته باتباعه، هو رواية مالك في الموطأ عن جده عبد الله الكامل وفتياه بخلع أبي جعفر المنصور العباسي، وبيعته لمحمد النفس الزكية، وعهده لأخيه إدريس الأكبر بالخلافة بعده، فكان مالك هو السبب في ولايتهم الملك، فقال إدريس نحن أحق باتباع مذهبه، وقراءة كتابه الموطأ، وأمر بذلك في جميع عمالته، هكذا يرى الشيخ عبد الحي الكتاني[21].

وإذا كان المولى إدريس قد استطاع فعلا أن يوحد الناس على مذهب واحد، ويقضي على التفرقة المذهبية التي كانت سائدة فإن عمله هذا يبقى محدودا إذا عرفنا أن المنطقة التي كانت خاضعة للنفوذ الإدريسي هي منطقة محدودة، والجزء الأكبر من المغرب ظل في منأى عن السيطرة الإدريسية، على أننا إذا تخطينا الجهد الذي قام به إدريس في نشر المذهب المالكي والدور الذي كان لقاضيه القيسي في ذلك واتجهنا إلى مركز الإشعاع الثقافي المتمثل في جامع القرويين، أمكننا أن نجزم بأن الفضل في انتشار

17) الأزهار العاطرة ص 130 والاستقصى 138/1 والدر النفيس ص 248 والأنيس المطرب 34/1 والنبوغ المغربي ص 48.
18) الأزهار العاطرة ص 130.
19) الدر النفيس ص 248.
20) الدر النفيس ص 248.
21) التراتيب الإدارية 8/1.

المذهب المالكي يرجع إلى هذا الجامع، لأنه منذ تأسيسه سنة 245 هـ وهو يقوم بخدمة هذا المذهب، وذلك بما خرجه من علماء كان لهم الأثر الحاسم في نشر مبادئه بين المغاربة، ثم تعزز بوفود نخبة من العلماء الذين وصلوا إلى المشرق وعادوا يعلمون، أمثال : أبي هارون البصري الذي كان أول من أدخل كتاب ابن المواز، وأحمد بن فتح المليلي، ودراس بن اسماعيل المتوفى عام 357 هـ، الذي يذكر الرواة أنه أول من أدخل مدونة سحنون إلى المغرب وبواسطته انتشر المذهب المالكي في المغرب وذاع[22]

وللحديث بقية...

الرباط : عمر الجيدي

22) انظر شجرة النور الزكية ص 103 والنبوغ المغربي 48/1 والفكر السامي 111/2.



للأستاذ محمد بنعبد الله

«... تعلم شعبي العزيز، أن أرض المغرب أرض غنية بمواردها ورجالها، وهي أرض الحوار والتسامح وحرية المبادرة...
وهذه العناصر المجتمعة المتضافرة تجعل من بلدنا بلد الفرص الطيبة...»

ـ الحسن الثاني ـ

كثير هي الأحداث التاريخية، قديماً وحديثاً، التي تحدّد المواقف الغربية تجاه الإسلام، وبالتالي المفاهيم المختلفة للتاريخ... وهي مفاهيم تختلف، عامة، مع مفهوم التاريخ عند المسلمين...

وإلى عهد غير بعيد، عمدت القناة الثالثة في فرنسا، المعروفة بأنها مخصصة للثقافة والفكر، إلى بث برنامج عن حقيقة «معركة بلاط الشهداء». أسندت مسؤليتها إلى كبار العلماء والمفكرين والمؤرخين، وذلك بسبب التطرف الديني الذي عم بعض الجهات في فرنسا، وغيرها من الأقطار والديار...

ولعل السبب في ذلك أيضا، يعود إلى الحقد الصليبي الحاد المتفجر، لانتشار الإسلام في أوربا عامة، وفرنسا بصفة خاصة، وبسرعة مذهلة، وتغلغله في سائر أنحائها، بلا قتال ولا حروب، وإنما في شكل دفق من الهدي والإيمان، لم يجد الحاقدون تجاهه سوى أساليب حاقدة ماكرة...

فلقد ظهرت، قبل اليوم، في فرنسا جمعية إرهابية أطلقت على نفسها اسم «شارل مارتيل»،[1] وهو اسم قائد الفرنجة، الذي أوقف المسلمين في «پواتيه»[2] Poitiers، على ضفاف نهر «اللوار» La Loire قرب مدينة «تور»[3] Tours، الفرنسية، والذي اتخذ هؤلاء الحاقدون رمزاً لهم وشعاراً في حربهم الصليبية الجديدة ضد الإسلام والمسلمين في فرنسا...

ويتخذ اليوم الفاشيون الجدد في فرنسا وغيرها، من هذه المعركة مثلاً، حتى إن إحدى عصاباتهم التي تتعرض للعرب بالقتل والغدر، قد أسمت نفسها كما قلنا باسم «شارل مارتيل»، ويقال إن عصابة مضادة من الشباب العرب في «مرسيليا»، تألفت تحت اسم «عبد الرحمن الغافقي»[4] الذي كان بسببه للعرب في فرنسا جولة، بل كانت لهم في جنوبيها دولة وصولة، والذي كان من العباقرة الذين ساروا في موكب النبوغ العسكري العربي إلى سوح الخلود...

☆ ☆ ☆

فمنذ أكثر من ألف ومائتي عام على انهزام المسلمين في مدينة «پواتيه» الفرنسية في موقعة «بلاط الشهداء» الشهيرة[5] التي قتل فيها البطل العربي المسلم عبد الرحمن الغافقي، ما زال ذلك الانتصار يسكر بعض الرجعيين الغربيين...

ومما لاجدال فيه أن تذكار الغزوات العربية في هذه الديار لم يكن بدون تأثير في الحملات الصليبية... وفي هذه المعركة العامة التي اندرأت بها أروبة على آسيا وإفريقية، ووضعت أصحاب الإنجيل في وجه أصحاب القرآن مدة قرون مستطيلة.

وقد تعمد بعض القصاص والزجالين أن ينحلوا أجداد ممدوحيهم فضل تحرير البلاد، وطرد الأعداء، وذلك مثل قصيدة غيليوم ذي الأنف الأصلم الذي ينسب إليه الشاعر إجلاء العرب عن «طلوشة»[6] Toulouse ونيم[7] Nimes «وأورانج» Orange وغيرها من مدن فرنسة...

☆ ☆ ☆

وفي السنين الأخيرة انبرت مجموعة من الصحف والمجلات الفرنسية التي اشتهرت بمعاداتها للإسلام والمسلمين بشن حملة شعواء على الدين الإسلامي الحنيف، وعلى العرب عموماً، مستعملة سيلا من الافتراآت الكاذبة على الرسول وعلى الإسلام، وعلى المسلمين بلغة بذيئة تقطر حقداً وكراهية، وحزازات وسخائم وضغائن دفينة، مع أن المسلمين وغيرهم من المنصفين كثيرا ما يشيرون إلى هذه المرحلة التاريخية ببالغ من الاعتزاز والخوف معاً، وذلك ما صوره الأستاذ المفكر الإسلامي الهندي أمير علي

---

1) مارتيل كلمة لاتينية، تعني : المطرقة، وشارل هو الاسم الأول لشارلمان ابن شارل الكبير، جد مارتيل، والعرب تسميه : قارْله.

2) في إحدى قاعات القصر الكبير بقصر فرساي الفاخر الذي بناه الملك لويس الرابع عشر مجموعة ضخمة من اللوحات التي تسرد أهم المعارك الحربية التي قامت بها فرنسا.. ففي إحداها يُرى «شارل مارتيل» في اللوحة، وهو يوجّه ضربة رهيبة إلى قائد العرب عبد الرحمن الغافقي الذي ينظر إليه بهلع شديد..

3) من مدن فرنسا المشهورة، واقعة على نهر «اللوار»، وكان العرب قد وضعوا نصب أعينهم هذه المدينة التي كان فيها دير : سان مارتين Saint-Martin المشهور بنفائسه...

4) في عام 730 م تولى إمارة الأندلس عبد الرحمن الغافقي الذي خلف السمح بن مالك الخولاني في قيادة الجيش المحاصر «لطلوزة» Toulouse. عند مصرع السمح في المعركة، وكان عبد الرحمن هذا رجلاً صارماً عادلاً، محبباً في جنده لنزاهته وعدم رغبته في حطام الدنيا لنفسه، وكان محل احترام صلحاء المسلمين لمعرفته بالحديث النبوي، ومصاحبته لأحد أولاد عمر بن الخطاب.. وذكر ابن بشكوال أنه من التابعين، وأنه يروي عن عبد الله بن عمر (نفح الطيب ص، 3/15).

5) يقولون : إنه لا يزال يسمع هناك دوي خفي هو ضجيج الملائكة الذين ينزلون من السماء للصلاة في ذلك المكان المقدس على الشهداء الذين لقوا فيه ربهم.. (ص، 102، تاريخ غزوات العرب، شكيب أرسلان..)، الواقعة وقعت في شهر رمضان عام 114 هـ أي وفق 732 م (نفح الطيب ص، 1/236 و3/16)، على أن المؤرخين الأجانب لم يتفقوا على تاريخ هذه الواقعة، ولا على محل نشوبها فبعضهم أنها في 732/10/7، والآخر : 733 م والعرب يقولون بأنها وقعت عام 115 هـ.

6) كانت غارة العرب على «تولوز» في أيام إمارة القائد الباسل، والسائس الحازم السمح بن مالك الخولاني على الأندلس، وكان العرب يطلقون عليها «طلوزة» Toulouse.

7) «لقد هدم العرب، كما جاء في تاريخ الرهبان الذين شهدوا تلك الحروب والوقائع دير بوزيل Saint Bausil، قرب نيم Nimes.

في كتابه [8] عندما اعتبر نتيجة «معركة پواتيه» عام 732م بمثابة نكسة ذات نتائج مضاعفة بالنسبة للعرب، وبالتالي بمثابة كارثة لكل من أوروبا والمسلمين معاً...

لقد كان تأثير هذه الهزيمة مختلفاً، جداً، بين المسلمين والمسيحيين، فالمسيحيون استجدوا عزائمهم، واستأنفوا صرائمهم، وهبوا، في جبال «البيرنه»، للأخذ بالثأر، واعتقدوا أن الله عاد معهم، يؤيدهم على أعدائهم، والمسلمون استولى عليهم الوهل، ونزل الوهن بعزائمهم، وأخذ الأتقياء منهم يقولون : إن ما حلّ بهم من الإدبار بعد الإقبال، إنما كان جزاء وفاقاً من الله تعالى على استرسالهم في معاصيهم، وإمعانهم في ركوب أهوائهم...

☆ ☆ ☆

ومن المفيد أن نقدم بعض الحقائق التاريخية التي تظهر بأتم الوضوح، ولا سيما في هذه الظروف بالذات، أن العرب والمسلمين ظلوا في بعض أنحاء فرنسا فترات طويلة ومتفاوتة، وخلفوا فيها آثارهم، واستقبلهم السكان الفرنجة ذاتهم استقبال المنقذين من طغيان إقطاعييهم وقساوتهم ومن سوء الحال الذي كانوا تردوا فيه، وانحدروا إليه، وكانت طريقتهم في الفتح، أنه إذا خضع لهم بلد بدون قتال، لم يعتدوا على سكانه، في مالهم، ولا في دينهم، وإنما كانوا يحولون جانبا من الكنائس إلى جوامع، ويغنمون ما فيها من النفائس والأعلاق، ويضعون أيديهم على الأرض التي نزح أهلها، وعلى الخيل والأعتدة التي كانت ضرورية لهم في تلك الفتوحات المتواصلة...

☆ ☆ ☆

إن سياسة المسلمين الدينية في فرنسا كانت طيبة، وكل ما نعلم أن المسلمين تركوا للنصارى حريتهم الدينية، وإن السواد الأعظم من أهل «أربونة»، مثلاً، بقوا مسيحيين، وكان عددهم كبيراً. وقد ترك لهم المسلمون كنائسهم، وبيعهم مع الوقهة والقسيسين الذين يخدمونها؛[9] وذلك اقتداء بالنبي عليه السلام الذي عامل النصارى واليهود باحترام شديد في علاقاته واتصالاته بهم، والدليل على ذلك، مثلاً، كتابه عليه السلام إلى رهبان دير «سانت كترين» في جبل سيناء : «من محمد بن عبد الله : عهداً للنصارى القريب منهم والبعيد، نحن منهم حقاً، سأدافع عنهم أنا، ومن معي من العباد والأنصار، لايكرهون على شيء، ولا يعزل قضاتهم ولا رهبانهم، ولا يخربن أحد كنائسهم، ولا ينقل شيئاً فيها إلى بيوت المسلمين، ومن يفعل ذلك يكون ناقضاً لعهد الله، وعاصيا لنبيه، نعم، هم حلفائي، ولهم عهدي ضد ما يكرهون، لايرغمنهم أحد على السفر والقتال، بل يقاتل المسلمون عنهم... وإذا تزوج رجل مسلم من فتاة نصرانية، فليكن ذلك وفقاً لرضاها، ولا يجوز له أن يمنعها من العبادة في كنيستها، وينبغي احترام كنائسهم، فلا يصدون عن إصلاحها، أو الحفاظ على قداستها، ولا يخالف أحد هذا العهد إلى يوم القيامة..»[10]

ولقد كان الخلفاء العباسيون يعاملون الدولة الفرنسية أحسن معاملة، ويتبادلون وإياها التحف والألطاف، وإن كان قد وجد من عمالهم في إفريقية من يشن الغارات على السواحل، في الأحايين، فما ذاك إلا لتباعد المسافات بين أولئك العمال، وبين مركز الخلافة العباسية..

☆ ☆ ☆

ومنذ عام 714م بدأت طلائع الجيوش العربية تعبر جبال «البرانس» ووصلت هذه الفتوحات حتى مدينة «أبينيون» Avignon،[11] و«ليون»[12] Lyon وبعد ذلك فتحو

8) «روح الإسلام» ص. 398. أمير علي (1849 ـ 1923).

9) «تاريخ غزوات العرب» ص. 230.

10) «الشريعة الإسلامية، والقانون الدولي العام» للمستشار علي منصور ص. 215 ـ 216، انظر سيرة ابن هشام، ج. 158/4، تحقيق، طه عبد الرؤوف سعد.

11) «إبينيون»، دوّخت بُعُوث طارق وسراياه بلد فرنسا، فتملكت صخرة «أبينيون»، ومدينتي أربونة، وبرشلونة...؛ وصخرة «أبينيون» هي المكان الذي بني عليه قصر البابوات الذين جعلوا إقامتهم بـ«أبينيون» من عام 1309، إلى عام 1377 م (نفح الطيب ص. 1/272).

12) «ليون» : ثالث مدينة في فرنسا في عدد السكان، يمر بها نهر الرون، وهي من أعظم المدن الصناعية في أوروبا، فيها مصانع الأقمشة الحريرية والآلات المعدنية والمواد الكيميائية.

«ناربونة»،[13] وظلت كتائب الإيمان هذه سائدة منتصرة في جنوب فرنسا حوالي الأربعين عاماً... وفي عام 725م، احتل الفاتحون مدينتي «قرقشونة»[14] Carcassonne، و«نيم»[15] Nimes. واتبعوا نهري «الرون»، و«الصون» سيراً نحو الشمال حتى بلغوا إقليم «بورغونيا»[16] Bourgogne، حتى «أوتان»، ثم جاء عبد الرحمن الغافقي من الأندلس، فهزم جيوش الفرنجة شر هزيمة قرب مدينة «بوردو»[17] Bordeaux، ثم أمعن شمالاً حتى وصل مدينة «تور» حيث انهزم في «بواتييه» في أكتوبر 732م...

يقول المؤرخ الإيطالي المعاصر الكبير «فرانشيسكو غابريالي» في كتابه القيم، «محمد، والفتوحات العربية الكبرى» : «...حتى على الصعيد العسكري نجد أن الفرنجة هولوا كثيراً أهمية هذا اللقاء، فهي بالنسبة للعرب مجرد معركة، كسائر المعارك التي خاضوها... ويبدو أن هذا الزحف توقف من تلقاء نفسه عند ذلك الحد، نظراً لإمكانياته العددية، وانتشار العرب، وهم قلة، في رقعة جغرافية مترامية الأطراف، ولكننا نجد العرب بعد «بواتييه» يواصلون زحوفهم في أماكن كثيرة أخرى، مثل مقاطعتي «البروڤانس» و«الدوفيني»[18] حتى أواسط القرن العاشر الميلادي...

ولما تكونت للعرب قوة بحرية أخذوا يوسعون سلطانهم على البحر الأبيض المتوسط في حدود عام 890م، وأقاموا مراكز لهم، ومخابئ على سواحل «بروڤانس»، و«سان تروبيز» Saint-Tropez،[19] حيث تمركزوا حوالي القرن، مشعين بهيمنتهم، «إيكس» و«مارسليا» من ناحية إلى جبال «الألب» و«الدوفيني»؛ في بلاد «سافوا» بسويسرة، وحتى شمال إيطاليا، حيث نزلوا على مدينة «جنوة»، وظلوا في جهاد مستمر حسب ما يمليه عليهم قرآنهم.

وتحدثت الكاتبة «زيغرد هو نكه» الألمانية في كتابها : «شمس الله تسطع على الغرب» في نفس الموضوع، فقالت : «هل فكر شارل مارتل» حين هاجم المسلمين بجنوده أن يكون كما يدعي بعضهم منقذاً للغرب ؟! الحقيقة، أن «شارل» لم يخطر بباله شيء من هذا، بل ذهل لما أخبر في الصبح بعد معركة غير فاصلة، أن المسلمين قد انسحبوا، ولم يحتفل شعب «شارل» به قط، كمنتصر على العرب، وإنما احتفلوا به بوصفه قد أحرز النصر على القبائل الألمانية، وسموه بذلك بـ«شارل ذي المطرقة...» إن مؤرخاً بلجيكياً يرى أن ما حدث في «بواتييه» لم يكن له من نتيجة سوى منع اتساع رقعة دولة العرب في الأندلس، وإن أحداً في عام 732م لم يكن يفرق بين سيادة المسلمين والمسيحيين أكثر من تفريقه بين سيادة روما وسيادة القصر... إن العرب قد احتلوا فعلاً جزءاً من أوروبا، هو الأندلس، فلم يقضوا على المسيحية التي يزعمون أن «شارل مارتل» قد حماها، ولم يقضوا على المدنية الغربية التي لم

13) «ناربونه» مدينة في فرنسا توجهت إليها همة العرب أكثر من الجميع من أرض فرنسة، لكونها على كثب البحر، ولسهولة التوصل إليها من الأندلس على الماء، ولكونها أهم حاضرة فرنسية في جوار اسبانيا، بقي فيها العرب أكثر من أربعين عاما، وفي أربونة اليوم شارع باسم السمح Rue de Zamu.

14) مدينة على نهر الأود Aude، وقناة الجنوب، وتاريخ العرب فيها مشهور، إنهم افتتحوها في عام 713 م، وأنها بقيت في أيديهم إلى عام 759 م.

15) مدينة على القناة المسماة بقناة الجنوب ذات آثار قديمة، وقبل رحيل «شارل مارتل» عن «أربونة» خرب القلاع التي كانت في «بيزييه» Béziers ودمر أبواب مدينة «نيم» الشهيرة، وقسماً من الملهى الروماني الذي كان فيها خوفا من أن يتحصن به العرب.

16) برغونيا : مقاطعة ذات شأن في شرقي فرنسة، قاعدة «ديجون» كانت مملكة مستقلة، ثم صارت دوقية كبيرة، وكانت تجاذب ملك بفرنسة الحبل، ولم تخضع تماماً للتاج إلا عام 1477.

17) «بوردو» مدينة عظيمة في غرب فرنسا على مسافة 378 ميل، إلى الجنوب الغربي من باريس، قاعدة مقاطعة «الجيروند» التي كان العرب يقولون لها «جيرندة» وكانوا يقولون لها : «بورديل»، وقد احتلها العرب وملأوا أيديهم بالغنائم، وأخذوا البلاد عنوة ووضعوا السيف فيها، وقتل أميرها في المعركة، (برذيل : مدينة في بلاد جليقة، وتقع على نهر جرونة (نفح الطيب ص. 202 ـ 1/128).
جرونة (الروض المعطار ص. 41) وبرذيل : آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والشرق.

18) كانت قاعدتها : «كرونوبل» تتألف منها ولايات : «الإيزير» و«الدروم» و«الألب العليا»، وقد كانت غارات العرب قد وقعت عليها مع مدينة «ليون»، وعلى بلاد «برغونيا».

19) سان تروبيز : مكان فيه معبر بين فرنسا وإيطاليا، وبقربه جبل يقال له جبل «المورو».

يكن لها وجود.. لقد حوّلوا الأندلس، في مائتي عام حكموها، من بلد جدب فقير مستعبد، إلى بلد عظيم مثقف مهذب، يحترم العلم والفن والأدب، قدم لأروبا سبل الحضارة، وقادها في طريق النور... وكل موجة علم أو معرفة قدمت لأروبا في ذلك العصر، كان مصدرها البلدان الإسلامية».

ويقول العلامة «غوستاف لوبون» الفرنسي بهذا الصدد في كتابه : «حضارة العرب» لو تم النصر للعرب في «بواتييه»، ووجدوا أن جو شمال فرنسا غير بارد ولا ماطر كجو إسبانيا، فماذا كان يصيب أروبا..؟ كان يصيب أروبا النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لايحدث في أروبا التي تكون قد هذبت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة «سان بارتملي»، ومظالم محاكم التفتيش، وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع التي خرجت أروبا بالدماء عدة قرون» ثم يضيف قائلاً بعد ذلك.. ومع أن إقامة العرب بفرنسا نشأت عن بعض السرايا نراهم قد تركوا أثراً عميقاً في اللغة، وفي الدم، وذلك أنه استقر أناس كثيرون منهم بالأراضي القريبة من المدن التي استولوا عليها، وتعاطوا فيها أمور الزراعة والصناعة، وهم الذين أدخلوا صناعة البسط إلى أبو سون، وأدخلوا كثيراً من أساليب الفلاحة وقد وجد أحفاد لأولئك العرب في أماكن كثيرة من بلاد فرنسا».

ولا يمكن أن يقال إن جميع أهالي جنوبي فرنسا كانوا يحبون «شارل مارتيل»، ولو كان قد دفع عن النصرانية غارات المسلمين، لأن هؤلاء الأهالي كانوا ينظرون إلى هذا الرجل وقومه كبرابرة من أهل الشمال، بينما هم يرون أنفسهم أمة ذات مدنية قديمة من زمان الرومانيين، بل إن «شارل مارتيل» لما دفع عادية المسلمين عن تلك البلاد الفرنسية، لم يرد العقارات على الرهبان والأساقفة، بل وزعها على رجال الحرب من أنصاره، فبقيت الكراسي الأسقفية خالية.[20]

☆ ☆ ☆

إن توقف الفتح الإسلامي في معركة «بلاط الشهداء»، باستشهاد البطل العظيم عبد الرحمن الغافقي، كان عبارة عن إشارة الضوء الأحمر بتوقف العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، وأدى هذا التوقف بخروج المسلمين من إسبانيا الإسلامية عام 1492م، وذابت هذه العلاقات على أرض أروبا، ولوقت طويل، بعد إخراج من تبقى من المسلمين الذين أطلق عليهم الإسبان اسم المورسكيين...

☆ ☆ ☆

وقد تناولت حضور العرب في فرنسا عدة كتب كثيرة ومتعددة قديماً وحديثاً، نكتفي بالإشارة إلى بعضها، منها : «**خلاصة تاريخية لحروب المسلمين في بلاد الغال**» للسيد M.B...N.C.F.Pari «**والتاريخ العام للقرون الوسطى**» للسيد ديميشيل Desmichels باريس 1831، جزء الثاني، وذكر المسعودي أنه في نواحي عام 939م توجه إلى قرطبة مطران جيرون من «كتالونية» وكان اسمه «غودمار» Godmar، وذلك في أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر، وألف لولده الحكم المشهور بحبه، للعلم، تاريخاً لبلاد فرنسا من زمن «كلوفيس» إلى ذلك العهد...

وقد ألف «جوزيف رينو» Reinaud (ت 1867م) المستشرق الفرنسي الشهير كتاباً، أسماه : «غارات العرب على فرنسا، ومن فرنسا على «سافواي» و«بيمونت» وسويسرة في القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحي بحسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين، ولا تقدر أن نحصي ما جاء في كتب الأروبيين من فرنسيين وألمان وطليان وأسبان في هذا الموضوع، والسيد «رينو» من أشهر المحققين في المسائل التاريخية والمطلعين حق الاطلاع على اللغة العربية بحيث يمكنه عند كل رواية أن يقابل ما

20) «تاريخ غزوات العرب» لأمير البيات شكيب أرسلان ص. 107.

جاء عنها في الكتب اللاتينية القديمة بما جاء في الكتب العربية؛ ولأمير البيان الأمير شكيب أرسلان كتاب في الموضوع بعنوان : «الخبيئة المنسية، في مقام العرب بجبال الألب والبلاد الافرنسية»... إلى آخر القائمة...

☆ ☆ ☆

منذ واقعة «بلاط الشهداء» في فرنسا، والحملات المسعورة قائمة يسدد أسهمها الجارحة في الصميم بعض الحانقين من المسيحيين، كما قام رجال الدين، وغيرهم، بحملة عالمية محمومة ضد الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم الغربي إلى اليوم، وهناك بعض الجزئيات والعناوين المثيرة والمريبة، اليوم، التي غطت الصحافة في الشرق والغرب، بالإضافة إلى عشرات الأحاديث والبرامج التي رددتها إذاعات مختلفة كإذاعة «مونتي كارلو»، و«صوت أمريكا»، و«موسكو»، وأمام ذلك تتضح ملامح الصورة، ويفهم المراد من وراء تلك الحملات المسعورة المحمومة ضد الإسلام والمسلمين...

وقبل اليوم أذاعت وكالات الأنباء العالمية أن «الكونجرس الأمريكي» يطلب من المخابرات المركزية الأمريكية دراسة عاجلة حول الحركات الإسلامية في العالم...

وصرح «بريجنسكي» مستشار الرئيس الأمريكي للأمن القومي السابق بقوله بأنه «لن يسمح للإسلام بأن يلعب دوراً مؤثراً في السياسة العالمية» ثم زاد في تصريحه بأنه «مصمم على أن لا يفاجأ الأمريكيون، مرة أخرى، بالدور الإسلامي في المناطق الحساسة في «هلال الأزمات» مثل باكستان ومصر وأفغانستان والفلبين وغيرها.

وكانت صحيفة «الواشنطون بوسط» قد وجهت تحذيراً لحكام العالم الإسلامي في الحركات المتطرفة، كما نادت «الكارديان» البريطانية بالويل والثبور، وعظائم الأمور «بالتطرف الديني الذي يهدد المنطقة» وترد عليها صحيفة : «النيويورك تايمز» بأن البركان ينفجر في الشرق الإسلامي.. السعودية مهددة.. مصر مهددة.. الخليج مهدد..»

أما «دايان» اليهودي فقد صرح بأنه «لابد من مراجعة كافة الحسابات بعد تصاعد الحركات الإسلامية المتطرفة في المنطقة»، بل إن مجلة «باري ماتش» كتبت تحت عنوان : «البابا في مجابهة الإسلام الأسود» تقول فيه : قام البابا «جان بول الثاني» بجولة في ست دول إفريقية هي زائير - الكونغو - كينيا - غانا - فولتا العليا، ساحل العاج، واستغرقت هذه الجولة عشرة أيام في القارة، قطع خلالها 20.000 كيل، الدول الإفريقية التي زارها البابا اختلفت في مواقعها الجغرافية وأوضاعها الاجتماعية لكن ربط بينها، أنها جميعاً دول تحررت منذ ربع قرن أو يزيد تقريباً من سيطرة الاستعمار... وتحدثت المجلة «باري ماتش» الفرنسية عن التحديات التي تواجه البابا «جان پول الثاني» في ست دول إفريقية في سياق تعليقها خلال جولته الإفريقية من مشاكل سياسية وطائفية.. وأكدت المجلة في مقالها، على «أن المد الإسلامي هو أخطر عقبة أمام التبشير المسيحي في القارة، لأنه دين أصبح جزءاً من الأصالة الإفريقية التي تناضل من أجلها الشعوب والحكام في القارة...

وفي 23 ماي 1977 قالت مجلة : توزي فوتيت أنتر ناسيونال البلجيكية في مقالها الافتتاحي : «سوف تكون سنة 2000 هي سنة الفخر للقارة الإفريقية دون بقية القارات الأخرى... إذ يصبح أكثر سكانها من النصارى بعد أن ارتفعت نسبة حالات الارتداد إلى المسيحية مليون نسمة سنوياً، ومن بين 300 أسقف كاثوليكي في القارة الآن (1977) يوجد 195 أسقفاً إفريقياً يخدمون في شرق وغرب وسط إفريقيا...

وقد بلغ التعصب مبلغه ومنتهاه لضرب المسلمين، وتخضيد شوكتهم وتسليط اليهود عليهم أن الكردينال بيَا، عَمِلَ على تبرئة اليهود من دم المسيح مخالفاً بذلك عقيدة جميع النصارى، وتقرباً لليهود الذين باتوا عقبة كؤوداً في طريق تطور الإسلام والمسلمين...

☆ ☆ ☆



صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني والبابا يوحنا بولس الثاني بالقصر الملكي بالدار البيضاء يوم الإثنين 19 غشت 1985 م، ووراءهما صاحبا السمو الملكي الأميران سيدي محمد ومولاي رشيد.

وقد حاولت آني كرينكي Annie Krieger Krunic الأستاذة الجامعية بباريس، في كتابها الجديد **«المسلمون في فرنسا»** تجنب السقوط في مهاوي أحكام تقويمية تعودنا عليها تطلق جزافاً واعتباطاً.

تقول الكاتبة في الصفحة الأولى، وكأنما لتجيب عن السؤال : «لماذا كتاب : «المسلمون في فرنسا ؟» إن هذا الكتاب أعد بالأساس لتجاوز وردم الهوة، هوة اللاتفاهم والارتياب المتولدين عن ثلاثة عشر قرناً من الصراع الديني المسيحي - الإسلامي، لكن الغرب مصاب بداء النسيان، نسيان ماقدمته الحضارة العربية من خدمات جلى إليه... أو لم يكتشف أرسطو وأفلاطون بفضل هذه الحضارة التي غذت الفكر الغربي وأخصبته لقرون عديدة...

مهما تكن المواقف متعاطفة أو معادية، فإن الإسلام يظل مرتبطاً في ذهن الأوروبي بمجموعة صور : صورة العربي المهاجر... صورة المستعمر... صورة قرون وقرون من الصراع المسيحي الإسلامي.. وأخيراً صورة هذا العالم العربي المشبع اختلافاً وخلافاً... وينتج عن كل هذه الصور، نظرة، غالبا، سلبية للإسلام والمسلمين، ومن تم أحكام تقويمية نابعة من نظرة ذاتية مما يعطي سوء تفاهم حضاري هائل تجتهد بعض الأصوات في تعميقه نحو نقطة اللاعودة، بينما تجتهد أصوات أخرى في اتجاه هادف لخرق حجب اللاتفاهم من أجل حوار مثمر وبناء..».

وقد انعقدت يوم 1989/2/14 بمعهد العالم العربي، بباريس، ندوة حول موضوع : **«الإسلام في فرنسا»** بحضور شخصيات فرنسية وعربية منها بصفة خاصة مدير مركز الأبحاث حول العالم العربي والمتوسط - «إكس آن بروفانس» - برونو اتيان ومدير المعهد الإسلامي التابع لمسجد باريس الشيخ عباس.. وقد أشرف على تنظيم هذه الندوة السيد إيف غيتا رئيس جمعية فرنسا - البلدان العربية، والوزير الديغولي السابق.. وذلك باعتبار أن الإسلام يعتبر الدين الثاني في فرنسا التي يوجد فيها أربعة ملايين من المسلمين..

ويمكن القول، أن الإسلام، في الحقيقة، ليس بجديد على الغرب، وليست القضية أننا بصدد اكتشاف الغرب للإسلام، فالغرب اكتشف الإسلام في الفترات الخالدة. وفي الفترات المشعة الكبرى حينما كان الإسلام يجسد حضارة إنسانية على مستوى كوْني، تكاد تكون أطول حضارة من حيث المجال الزمني في تاريخ البشرية...

☆ ☆ ☆

لقد عاودت العالم العربي والإسلامي ظاهرة الهجوم على الإسلام لتوهين العقيدة الإسلامية، يقوم مواطنون من هذه الدول ينادون بدعاوى نقلا عن بعض المستشرقين الحاقدين على الإسلام، ورسوله الأعظم...

إن الإسلام يتعرض هذه الأيام لحملات تضليل وتشويه شرسة، منبعثة من داخل البلاد الإسلامية، ويجب وقف هذه الحملات، لأنها تخالف نصوص الدساتير العربية والإسلامية التي تنص على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام، ويستتبع هذا، النص، أن يقوم كيان الدولة على أساس الدين الإسلامي، وأن تكون الشريعة الإسلامية هي الحكم بين الناس في تعاملهم، وفي كل ما يخصهم من أمور الدين والدنيا... وأيّ مساس أو خروج عن تعاليم الإسلام يعد مساساً بالدولة نفسها وعدواناً عليها، ولقد أكد مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ورئيس رابطة الجامعات الإسلامية، المفكر الإسلامي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي في حديثه لأعضاء المؤتمر العام الثالث للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية الذي انعقد، حديثاً، بالعاصمة العراقية بغداد تحت رعاية الرئيس العراقي، وبمشاركة ممثلين لاثنين وأربعين دولة عربية وإسلامية : أكد أن السلام الحق ينبغي ألا يتعارض مع ثوابت الإسلام في عقيدة وشريعة ودعوة وعبادة وخلق، وكذلك لايتعارض مع حقوق المسلمين ومصالحهم وحقهم في الوجود والبقاء...

إن عمليات الهجوم التي مني بها الإسلام منذ نشأته، وحتى الآن، لم يكن الباعث عليها حرية الفكر أو الاعتقاد،

بل المقصود من ذلك هو تقويض كيان الدولة كالقضاء على دينها أو لغتها، إذا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً...

إن أعداءنا المتربصين بنا يعلمون قبل الكثير منا : أن طبيعة الدين الإسلامي هي الشمول والكمال، فهو دين ودولة وعقيدة، وشريعة وأخلاق ومعاملات وتضحية وجهاد... وهذه الحقيقة هي التي حفظت هذا الدين في وجه الأعاصير والمؤامرات أربعة عشر قرناً من الزمان، وحفظت هذه الأمة في وجه أعدائها بعد أن امتزج إسلامها بدماء ولحم شيوخها وشبابها وأطفالها، وباتت محاولات طمس معالم الإسلام أو تشريد المسلمين ضرباً في الوهم والخيال والمحال...

☆ ☆ ☆

لقد اسودت صفحة العلاقات الإسلامية المسيحية، وتجددت مؤتمرات عالمية لمناهضة الإسلام، حيث كان المؤتمرون المسيحيون يطلبون من حكوماتهم زيادة المراقبة والملاحقة والإشراف على تطور الإسلام وارتقائه، وصحوة المسلمين وتقدمهم، حتى لايتهدد نمو مستعمرات الدول العظمى، ثم العمل والجد للدعوة إلى المسيحية العالمية بالاهتمام وباتخاذ التدابير السريعة في المناطق التي لم يصل إليها الإسلام، ثم توسيع شقه الخلاف بين الأديان والمذاهب والطوائف وإثارة النزاع، وتأجيج بواعث الخلاف باستمرار، وتشويه الإسلام والثقافة الإسلامية، والتشكيك في الأديان بصفة عامة، وإيجاد تخاذل روحي وشعوري بالنقص مما يؤدي إلى التبعية والخضوع للثقافة الغربية، والمدنية النصرانية...

وهكذا ظهرت تكتلات مغرضة ومناوئة للإسلام والمسلمين ظهرت في عدة لقاءات، وشتى المؤتمرات العالمية كمؤتمر القاهرة المنعقد عام 1906، ومؤتمر «أدنبره» 1910، وهو أخطرها، والذي تحدث فيه المبشر الصيني الدكتور «شانغ» ناقداً، والذي كان نقطة الانطلاق التي أثارت الوعي تجاه واقع الانقسام المسيحي؛ ومؤتمر «ملبورن» بأستراليا في عام 1980، «ومؤتمر التلفزيون الكاثوليكي في باريس» و«مجلس الكنائس العالمي» في «أمستردام» ومؤتمر «لكنؤ» بالهند عام 1911، ومؤتمر القدس الأول والثاني 1924 ـ و 1935 ومؤتمر «بالتمور» بالولايات المتحدة الأمريكية 1942 ـ 1961، كما عقد مؤتمر عالمي للكنائس في «جاكارتا» بأندونيسيا عام 1975 حضره 3000 مبشر بنوايا خطيرة على المسلمين.

وقد عقد ما بين الفترة 1963 حتى 1976، 26 مؤتمراً دولياً ضم الواحد منها مآت المستشرقين وتلاميذهم من الغرب، بالإضافة إلى بعض الشرقيين، كان المؤتمرون يتخذون العديد من القرارات والتوصيات، لم تكن لتخدم إطلاقاً تحسين خط العلاقات المسيحية الإسلامية، وإنما لخلق فرص جديدة لتسويد وتشويه العلاقة والسيطرة على العالم الإسلامي، انتهت بالتسلط والاستبداد الاستعماريين على العالم الإسلامي... إن اتخاذ توصيات وقرارات خطيرة النتائج والآثار على المسلمين والعمل على تنفيذها كانت هدف هذه المؤتمرات العالمية... ولقد كانت المقالات العديدة، تنشر في الصحف والمجلات أسبوعية أو شهرية أو سنوية كانت، أما الكتب المتضمنة لعبارات الحقد الدفين على المسلمين، وتفتيت وحدة الشعوب الإسلامية، فكانت مادة نفيسة في سوق الكتب الأروبية، ومكتبات أروبا خاصة، والعالم الفرنسي عامة...

☆ ☆ ☆

لقد أصبح عالمنا الواسع، اليوم، كتلة واحدة من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب فأيّ حدث يقع في «موسكو»، أو «كاراكاس»، إلا ويتردد صداه، حالاً، في الرباط أو باريس... فليس لأية دولة حدود أمام سلطان الإذاعات وبرامج الرائي، وسريان الأفكار، أصبح الإنسان يتنفس بالأفكار الواردة عليه من كل صوب، كما يستنشق الهواء، وبلغ متاهات الفضاء الواسع البعيد، الرحب الحدود، وتعاون العلماء من مختلف الأجناس والبقاع والرقاع، للوصول إلى ذروة الرقي العلمي، فليس عجيباً، أمام هذا التعاون المذهل في ميدان العلوم بين مختلف الأديان

والأجناس أن يجرى بين المسيحية والإسلام تقارب وحوار، وتفاهم وتعارف، وأن يعود عباد الله جميعاً إلى الحق وإلى ما أمرهم به الله...

☆ ☆ ☆

لقد عاد الحديث عن الحوار والتقرب بين الإسلام والمسيحية مؤخرا بعد الزيارة التي قام بها البابا «يوحنا بولس الثاني» إلى بلادنا في المغرب، تلبية لدعوة من جلالة الملك الحسن الثاني، وردا للزيارة التي كان العاهل المغربي قد قام بها للفاتيكان عام 1980 بصفته رئيس لجنة تحرير القدس... وقد اهتمت الصحافة الفرنسية بأخبارها، وصدر عنها مقالات كثيرة، وقد جعلت جريدة «الفيكَارو» عنواناً لمقالة كتبها مراسلها «جوزيف فندريس» : «يوحنا بولس الثاني»، عند الحسن الثاني **«يد ممدودة إلى الإسلام...»**.

لقد ذكروا أن الزيارة كانت حدثاً وحيداً في تاريخ المغرب الحديث، وأن البابا حين وطئ أرض المغرب سجد وقبلها، وأنه افتتح خطابه بقوله : «السلام عليكم» كما نوهت الصحف كثيراً باللقاء الذي تم في القصر الملكي بالدار البيضاء بين البابا وبين فريق من العلماء المغاربة، وأن البابا أشار في خطابه إلى : «أن الحوار الإسلامي المسيحي أصبح اليوم ضرورة ملحة...».

☆ ☆ ☆

لقد أدرك بعض رجال الدين المسيحيين الكبار من ذوي العقول النيرة الراجحة، والرؤية الحكيمة، مدى الأثر السلبي والبعيد للحروب الصليبية على العلاقات المسيحية الإسلامية، فنادى القديس «سان فرانسوا Saint François» من مدينة «أسيز» Assise.[21] بإيطاليا، مثلاً، إلى السلم وإيقاف الحروب الصليبية على المشرق العربي، ولم يمنعه طول المسافة أو وعثاء السفر من التوجه بنفسه عام 1219 إلى السلطان مالك الكامل الابن الأصغر لصلاح الدين ليعرض عليه دعوته للسلم، ومشروعه لتحسين العلاقات الإسلامية المسيحية...

وفي انجلترا، نجد المفكر الإنجليزي «توماس كارليل» يساهم في هذا المضمار برسالته المؤرخة عام (1840م) حول الرسول محمد ﷺ كبطل ورسول يفتح آفاقاً جديدة...

ان البابا «جان پول الثاني» كمسؤول أعلى في الكنيسة المسيحية الكاثوليكية. وكرجل يآزر السلم ويدعو إليه، ويؤيد جاهداً سبل تحسين العلاقات بين المسلمين والمسيحيين أراد أن يبعث من جديد سنة «سان فرانسوا» بالدعوة إلى السلم، وإقامة صلاة من أجله في نفس المدينة التي انطلق منها الداعي «سان فرانسوا» بغرض تحقيق نفس الغاية...

وتختلف دعوة القديس «سان فرانسوا» عن خلفه «جان بول الثاني» في أن «بابا روما» الحالي وسع نطاق دعوته إلى أكثر من طرفين، وأنه وجه دعوته إلى ممثلي غير الديانات السماوية الثلاثة الكبرى أيضاً...

ولقد تم بالفعل أداء «صلاة السلم» المنادى بها في مدينة «أسيز» الإيطالية يوم الجمعة 27 اكتوبر عام 1986 حضرها أكثر من مائة وخمسين شخصاً مثلوا اثنا عشر ديانة، وكان المغرب ممثلا في هذا اللقاء، وبدعوة من منظمي «يوم الدعاء»، وبأمر من صاحب الجلالة بوفد ضم الشيخ محمد المكي الناصري رئيس المجلس العلمي لولاية الرباط وسلا، والسيد محمد الحجوي الكاتب العام للمجلس العلمي بالمغرب وفي هذا اللقاء مثل العالم الإسلامي الشيخ محمد الناصري الذي تحدث باسم المسلمين المشاركين جميعاً، حيث دعا بهذه المناسبة بآيات قرآنية وبما يقتضيه المقام...

كما أنه في عامي 87 ـ 1988، وفي الملتقى الثاني والثالث لهذا اللقاء في مدينة «أسيز» حضر ممثلا للمغرب

---

(21) أسيز Assise مدينة إيطالية في إقليم پروز Pérouse، عدد سكانها 24.000 نسمة، وهي موطن «سان فرانسوا داسيز» Saint François d'Assise الذي أسس رتبة الرهبان الفرنسيين، كما هي موطن سانت كلير Sainte Claire، توجد بأسيز «بازليك» سان فرانسيسكو San Francesco، المتكونة من كنيستين متطابقتين منذ القرن 13، وبها عدة لوحات جدرانية.



قداسة البابا يلقي خطاب الترحيب بجلالة الملك الحسن الثاني، وقد وقف عن يمينه من المغاربة في سطر حسب الترتيب السادة : الجنرال عبد الحفيظ العلوي، فعبد الوهاب ابن منصور، فالشيخ المكي الناصري، فعبد الواحد ابن القزيز، فالأمير مولاي الحسن بن إدريس العلوي.

الدكتور مولاي ادريس العلوي العبدلاوي رئيس جامعة القرويين، والأستاذ السيد محمد الحجوي.. كما حضر مفتي القدس، ومندوب رابطة العالم الإسلامي، وشيوخ من جامعة الأزهر، والجامعة الأردنية...

☆ ☆ ☆

إن كنيسة روما كانت صائبة في تصريحها الرسمي الصادر عن المجلس العالمي الثاني للفاتيكان عام 1963 حيث أوردت فيه ما فحواه : «إن الكنيسة تنظر إلى المسلمين نظرة احترام وإجلال»، وأضاف التصريح الطويل موضحاً : «ورغم الأعمال العدائية، والنزاعات التي نشأت عبر القرون بين المسيحيين والمسلمين، فإن هذا المجمع الديني الموقر يلزمنا بإلحاح أن ننسى الماضي، ونجتهد بإخلاص قصد الوصول إلى تفاهم مشترك، وذلك لمصلحة البشرية جمعاء، كي تكون قضيتهم العليا في المحافظة على الأمن وإنشاء العدالة الاجتماعية والقيم الخلقية والسلم والحرية..»[22].

☆ ☆ ☆

«إن الحوار بين المسيحيين والمسلمين ضروري اليوم أكثر منه في أي وقت سواه، فهو ينتج عن أمانتنا لله بواسطة الإيمان، وكيف نشهد له بالقول والفعل في عالم بات أكثر دنيوية، وفي عالم ملحد في بعض الأحيان، يمكن للشباب، أن يبنوا مستقبلاً أفضل إذا ما آمنوا بالله، وإذا ما تعهدوا ببناء هذا العالم الجديد بحكمة وثقة وفقا لمشيئة الله..»[23].

☆ ☆ ☆

إن المسلمين على اختلاف مذاهبهم رحبوا بالبيان الصادر عن المجلس العالمي الثاني للفاتكان 1963 الذي جاء فيه : «إن الكنيسة تنظر إلى المسلمين نظرة احترام وإجلال. فهم يعبدون إلهاً واحداً، وهو الحي الباقي، الرؤوف الرحيم، القوي الجبار، خالق السماء والأرض. ومخاطب البشر والمسلمين، إذ يجاهدون أنفسهم بإخلاص ليخضعوها لأوامر الله وأحكامه وإن كانت مبهمة أو لاتدرك العقول حكمتها، تماما كما فعل إبراهيم عليه السلام، ذاك النبي الذي يسر العقيدة الإسلامية أن تتشبه به. ورغم أنهم لايعتبرون المسيح إلهاً ؟؟ فهم يبجلونه كنبي ورسول ويوقرونه. وهم يحترمون كذلك مريم الأم البتول، ويبجلونها وأحياناً يزورونها بكل تفان وإخلاص. وبالإضافة إلى هذه، فهم يؤمنون بيوم الحساب ويترقبون اليوم الذي سيوفي فيه الله كل إنسان حسابه وجزاءه بشكل وافر. وهم بالتالي يناضلون من أجل حياة فاضلة، ويعبدون الله، خاصة من خلال الصلاة والصيام والزكاة والإنفاق في سبيل الله.

ورغم الأعمال العدائية والنزاعات التي نشأت عبر القرون بين المسيحيين والمسلمين. فإن هذا المجمع الديني الموقر يلزمنا بإلحاح أن ننسى الماضي ونجتهد بإخلاص قصد الوصول إلى تفاهم مشترك، وذلك لمصلحة البشرية جمعاء، كي تكون قضيتهم العليا هي المحافظة على الأمن وإنشاء العدالة الاجتماعية والقيم الخلقية والسلم والحرية».

وقد دعم هذا التصريح في الملتقى الثالث للمجلس الإيكوميني الأوربي بمدينة Riva Del Garda بإيطاليا اكتوبر 1984 ومما ورد فيه :

«إن الكنائس الأوروبية تولي للإسلام اهتماماً بالغاً، والدليل على ذلك كثرة المراكز والأمانات العامة واللجان الخاصة بالشؤون الإسلامية المقامة من طرف الكنائس المختلفة».

إن اتجاه الكنيسة الكاثوليكية حالياً، يختلف عن نهجها السابق في حدود المائتي سنة الماضية.

---

22) Jeune Afrique N° 1348 Novembre 1986.
والدكتور يان سلوب Jan Slomp «دعوة الحق» ص. 43 ع. 271.

23) «انبعاث أمة» ع. 30 ـ من خطاب البابا يوحنا بولس الثاني بالدار البيضاء.

إن هذا الفكر الجديد يعتبر كتحدٍّ من طرف المجلس العالمي للكنائس، فبالتعاون مع بعض المفكرين المسلمين، انعقدت ندوة بالتراب السويسري عام 1976 حول الرسالة التبشيرية المسيحية والدعوة الإسلامية، فالإسلام والمسيحية، كلاهما ديانة ذات رسالة تبشيرية، ولا سيما أن حضارة الغرب تدين في أصولها وارهاصاتها للعطاء الإسلامي فلولا حضارة الإسلام، لما كانت المحاولات المدنية للتجريب العلمي التي انطلقت منها الحضارة الغربية...

ولقد نص البيان المشترك في آخر هذه الندوة على أن الحرية الدينية وهي الحرية المطلقة للإقناع والاقتناع المتبادل، كما رفع بعض التوصيات فيما يخص العمل الموضوعي للبعثة المسيحية، والعمل على تأكيد نفس المبدأ بالنسبة لتطبيق الشريعة الإسلامية، كما نص على ذلك تدخل وزير العدل الباكستاني السابق السيد مجيب الرحمان (S.A.Rahman) المولود سنة 1903م، في كتابه «معاقبة الردة في الإسلام» الصادر عام 1972.

☆ ☆ ☆

وقد سبق أن اهتم الفاتيكان كثيراً بأمر هذا الحوار منذ أواخر الستينات نظراً للعدد الكبير من النصارى الذين يعيشون مع المسلمين في البلاد العربية والإسلامية، كما أدرك أن الحوار الإسلامي المسيحي الذي أشار إليه البابا هو أعظم شأناً على المدى البعيد لتحقيق تقارب مسيحي إسلامي صادق ومخلص...

إن هذه المواقف الجديدة الصادرة في عام 1960، وضعت في محك الاختبار والنقد أمام الأحداث الأخيرة التي شهدها العالم... ولابد من الاعتراف بأن بعض الأوروبيين بما فيهم بعض المسيحيين، أحسوا بأنهم مهددون من جراء الأحداث في مختلف بقاع العالم الإسلامي، وكذلك من جراء التزايد المفاجئ في عدد المسلمين الأوروبيين الذي ارتفع من ثمانية عشر إلى أربعة وعشرين مليون نسمة، فلا غرو، أمام هذه التيارات، أن نرى غير المسلمين في أوروبا يرجعون إلى الوراء، وينزلقون من جديد نحو مواقف القرون الوسطى تجاه الإسلام...

☆ ☆ ☆

لقد أنشأ الفاتيكان دائرة خاصة فيه، أسماها : «أمانة شؤون غير المسيحيين»، كان من أهدافها، العمل على تحقيق التقارب الإسلامي المسيحي بواسطة الحوار للوصول إلى قيام مجتمع يسود أفراده المحبة والتآخي والسلام...

وهذه الأمانة أصدرت كتاباً ذا شأن اسمه : «توجيهات لإقامة حوار بين النصارى والمسلمين» صدرت الطبعة الثالثة منه عام 1970 باللغة الفرنسية، وأوضحت فيه الغاية من الحوار، وكيف ينبغي أن يجري، وقدمت للمحاورين من المسيحيين عرضا موضوعيا لمبادئ الإسلام وعقائده ودفاعا عنها، وأوضحت نظرة الإسلام لعيسى ابن مريم، وللإنجيل على ضوء ما ورد في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف ليفهمها المسيحي ويعرف مكانة المسيح وقدسيته كنبي عظيم عند المسلمين، وطهارة أمه العذراء مما نسبه إليها أعداء المسيح...

كان صدور هذا الكتاب، عن أعلى سلطة روحية مسيحية، انقلابا كبيرا في تقاليد الكنيسة المتوارثة سابقا نحو الإسلام، ودعوة صريحة لوقف عداء الغرب المسيحي للإسلام الذي ابتدأ منذ الحروب الصليبية....

ومما يلفت النظر في هذا الكتاب أنه دعا إلى الاعتراف بالأخطاء التي ارتكبتها الكنيسة والغرب بحق الإسلام، وقد سماها مظالم «Injustices» وما ألصقاه بالإسلام والمسلمين من أباطيل سببت مرارة عميقة في نفس كل مسلم، وعداء شديداً للنصارى وللغرب.

والواقع أن كثيرا من عامة المسيحيين ورهبانهم يجهلون حقيقة تعاليم الإسلام، وما يعرفونه لم يأخذوه من



صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني يستقبل بمطار محمد الخامس بالدار البيضاء يوم الإثنين 19 غشت 1985 البابا يوحنا بولس الثاني.

دراسة القرآن وفهمه، بل مما يتلقونه منذ الحروب الصليبية من معلومات باطلة تورث العداوة والبغضاء... فصدور كتاب عن «الفاتيكان» يستنكر هذه الأفكار العدوانية ضد المسلمين، ويدعو إلى فهم الإسلام فهما صحيحاً، هو ثورة على الماضي ويستحق التقدير...

بعد صدور هذا الكتاب ظهرت من «الفاتيكان» مبادرة هامة جدا كان ذلك عام 1974، في أيام «البابا بولس السادس»، فقد وجه إلى المملكة العربية السعودية الدعوة إلى إرسال وفد علمي إسلامي لزيارة الفاتيكان، والبدء بحوار إسلامي مسيحي حول الصفات المشتركة بين الدينين، في كرامة الإنسان عند الله، وفي العمل لحريته وسلامه، فوافق المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز على تلبية الدعوة باعتبار أن الإسلام هو أول من بدأ بدعوة أهل الكتاب للحوار، كما بين القرآن، أيضاً آداب الحوار... فأمر الملك فيصل بتأليف وفد كبير لهذا الغرض يذهب للحوار «باسم المملكة» لا باسم «رابطة العالم الإسلامي»، وجعل رئيسا له وزير العدل يومئذ الشيخ محمد الحركان رحمه الله عضو هيئة كبار العلماء ضم إليه علماء المملكة راشد بن خنين وكيل وزارة العدل. ومحمد بن جبير رئيس مصلحة القضاء الأعلى، ومن أهل القانون والعلم والفقه والاقتصاد والسياسة الأساتذة : محمد المبارك، ومعروف الدواليبي، ومنير العجلاني، وأسعد المحاسني، وأنور حاتم...

سافر الوفد إلى الفاتيكان، وخصص له فيه مكان للاجتماع، وأعد مكان آخر محترم لإقامة الصلوات، تأسيا بما فعل رسول الله ﷺ حين زاره في المدينة وفد من أساقفة نصارى نجران، في ستين راكباً، فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلاً، دخلوا على رسول الله ﷺ إثر صلاة العصر عليهم ثياب الحِبَرات[24] جُبَبٌ وأَرْدِيَة، فقال أصحاب النبي ﷺ : «ما رأينا وفداً مثلهم جمالاً وجلالة..» فأنزلهم ضيوفاً عليه في المسجد النبوي نفسه، وأذن بإقامة صلواتهم فيه مدة ضيافتهم، كما كانت صلواتهم يومئذ..[25]

ثم أقاموا بها أياماً يناظرون رسول الله ﷺ في عيسى، ويزعمون أنه ابنُ الله، إلى غير ذلك من أقوال شنيعة مضطربة، ورسول الله ﷺ يرد عليهم بالبراهين الساطعة، وهم لا يبصرون.[26]

واستقبل البابا نفسه الوفد الإسلامي بجميع المراسم المخصصة لرؤساء الدول المعتمدة لديه، ثم افتتحت ندوة الحوار بين الوفد الإسلامي والوفد الفاتيكاني الذي كان يضم كبار الكرادلة والأساقفة، ودارت الأبحاث حول حقوق الإنسان في الإسلام عامة من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وخاصة الثقافية منها...

ولوحظ يومئذ الترحيب البالغ الذي أظهره البابا «بول السادس» بالوفد السعودي الإسلامي حتى إنه طلب منه أن يصلوا صلاة الجمعة في كنيسة «سان بول»، فاعتذر الوفد، لأن المركز الإسلامي في روما كان سبق أن أعلن عن صلاة الوفد في المركز...

دامت الزيارة خمسة أيام، ونتج عنها نتائج هامة كان منها أن أحد أعضاء الوفد السعودي الدكتور معروف الدواليبي أثار مع الكردينال «بينو دولي» مشكلة كانت لا تزال قائمة يومئذ، وهي حرص الكنيسة على التبشير بين الجزائريين المهاجرين إلى فرنسا لتنصيرهم، وكان عددهم كبيراً، وقد بني لهم في أماكن وجودهم في ضواحي باريس ثلاث كنائس لهذا الغرض، وكان «الكردينال» المذكور أقوى رجل بعد البابا في الفاتيكان، وكان مرشحا أن يكون خليفة للبابا، فاهتم بالأمر، وكان جواب الفاتيكان على ما

24) الحِبَرات (بكسر الحاء، وفتح الباء، جمع حبرة) ضرب من الثياب اليمانية.

25) ذكر ابن اسحاق في السيرة : أن وفد نجران، وهم من النصارى، لما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة، ودخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فكانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ : «دعوهم» فاستقبلوا المشرق، فصلوا صلاتهم» (سيرة ابن هشام، «العدل والتسامح الإسلامي» ص. 56، للسيد أحمد المخزنجي، وانظر : «أسباب النزول» تأليف أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت : 468 هـ) ص. 61).

26) تفسير القرطبي ج : 4/ص : 4. ـ

الكاثوليكي في العالم، ونحن نرجو أن تأتوا أنتم يوماً ما، وتحملوا إلينا البشارة»[27] ولم تلبث هذه الكنائس الثلاثة أن سلمت للمسلمين الجزائريين على أن تتحول إلى مساجد إسلامية، وكذلك كان، وهي اليوم مساجد تحت تصرف المسلمين...

☆ ☆ ☆

وهكذا كان الحوار الإسلامي المسيحي بين علماء الإسلام والمسيحيين في روما... على أن ثوابت الإسلام قائمة، ونحن وإياهم كما قال قيس ابن الخطيم أحد فحول الشعراء في الجاهلية :

نحن بما عندنا، وأنتَ بما
عندك راضٍ... والرأي مختلفُ

والرأي هنا معناه الاعتقاد...

☆ ☆ ☆

كما تحركت الدعوة للتقريب بين الديانات، والملل والنحل، في أقصى الشرق، فقد دعت هيئة المؤتمر الدولي للأديان إلى عقد مؤتمر لممثلي الأديان العالمية في «طوكيو» بإشراف هذه الهيئة فيما بين 23 ـ 26 ـ من يونيو 1981م وذلك لمدارسة موضوعين هامين هما :

1 ـ الصلة بين الدين والثقافة بالنسبة للتقاليد الدينية في العالم..

أديان، الأديان الكتابية الثلاثة، ونحلة البوذية والهندوسية والشنتوية،[28] كما اشترك ممثلون عن نحلة يابانية جديدة تسمى نحلة «أومُوتُو»، وقد أرسل جامع الأزهر ممثلين عنه إلى هذا المؤتمر...

وعلى الرغم مما يبدو في عنوان المؤتمر العام من نظرة إلى الطبيعة الإنسانية والأخلاق، إلا أنه كان يمس مسا مباشراً صميم المشاكل التي تعاني البشرية من جرائها القهر واليأس والإحباط والتوتر والقلق سواء في ذلك ما اصطلح على تسميته بشعوب البلاد المتقدمة، وشعوب البلاد المتخلفة... وقد اعترف جميع المتحدثين من ممثلي هذه الأديان، بأن القيم الإنسانية الرفيعة التي تعكس ثقافة الإنسان وأخلاقه وصلته بالعالم من حوله، مهددة تهديداً خطيراً بعوامل داخلية وخارجية، مما يشكل خطراً مباشراً على سلام الجنس البشري وسعادته...

وقد أصدر المؤتمر في نهاية اجتماعاته نداء عاماً أظهر فيه واقع العالم وما فيه من عدم التوازن بين الأمم الغنية، والأمم الفقيرة، والحاجة الماسة إلى عدالة التوزيع بالنسبة للمصادر الدولية، وكيف أن عوامل الشك وعدم الثقة بين المعسكرات الدولية الكبرى تثير المخاوف المتبادلة، كما تثير سباقاً رهيبا في ميدان التسلح، وهذا بدوره يؤدي إلى اضطراب النظام العالمي، ويبتلع كثيراً من جهود البشرية واقتصادياتها...

27) كلمة «البشارة» التي وردت في خطاب «الكاردينال بينيو أولي» قصد بها ما جاء في العهد القديم، وفي العهد الجديد من التبشير بمجيء نبي بعد ظهور المسيح، وأنه سيكون من مجموعة بني إسرائيل، وخاصة ما ورد في سفر «أشعياء» (الأصحاح 21، الآية : 13 ـ 15) من قوله : «إنه وحي من جهة بلاد العرب» وقوله في صفة الذي سيوحى إليه، وفي الدعوة إلى الترحيب به : «وافوا الهارب من السيف المسلول»، وقد جزم كثير من أساقفة النصارى إنه هو النبي العربي محمد، نبي الإسلام «الهارب» من مكة، ومن «السيف المسلول» في تلك الليلة التي أحيط فيها ببيت رسول الله ﷺ لذبحه بسيوف المشركين من قريش، (كذا أفاده به الدكتور معروف الدواليبي للدكتور صلاح الدين المنجد).

28) ديانة اليابان المسماة «الشنتو» مقصورة على التوجه إلى الأسلاف، والأمبراطور الماضي بالعبادة والتقديس، وماعدا هذا التوجه، فهي خلو من الفرائض والطقوس وآداب السلوك والشريعة، وليس بها عالم الغيب، ولهذا كله خلت من الكهنة ورجال الدين، وهذه الديانة غير صالحة للبشرية عقيدة وشريعة.. لأنها قائمة على الأساطير والأوهام.. (دعوة الحق) «أصلح الأديان للإنسانية، عقيدة وشريعة»، تأليف الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، ص. 53.

وكي يمكن التغلب على هذه الصعاب، لابد من أن توجه العناية الكافية لسد الفجوة الكبيرة بين النمو المادي السريع، والانكماش والضمور والفراغ الروحي الواقع في القيم الروحية والأخلاقية، حتى لايفسد طغيان المادة حياتنا، ويحبط مساعينا، وقد عرفنا بالخبرة والتجربة أنه على الرغم من كثرة الرفاهية والمتع التي تتمتع بها بعض أجزاء من العالم، فإن السعادة الإنسانية تظل خيالاً لا يمكن تحقيقه إذا لم نلب تلك الحاجات الروحية...

ولتحقيق ذلك لابد في المقام الأول من أن نوائم بين قيم العلم والتكنولوجيا، وبين قيم الروح والضمير الإنساني...

وانه لينبغي أن نعترف بأن عالم اليوم لاتنقصه القوة، ولا المصادر الطبيعية. وإنما تنقصه العقيدة الروحية، والاقتناع العميق، وهذا هو سبب الفشل في علاقة الإنسان بالطبيعة والثقافة، وما يترتب عليه من سوء استعمالها، وفوضى توجيهها...

ومن هنا كان على «رجال الدين» وعلمائه أن يعترفوا بأن عوامل العداوة وعدم التسامح قد أفسدت في الماضي العلاقة بين مختلف الأديان، وأن عليهم إذا أرادوا السلام والانسجام أن يستقر، أن يتبادلوا مشاعر الود والاحترام بعضهم تجاه البعض، وأن يراعى كل منهم عند القيام بالدعوة لدينه الاختلافات الحقيقية القائمة بين الأديان، دون إكراه أو قسر.

لهذا لم يكن من الغريب أن يهتم بعض المفكرين في اليابان بالنظر بعين التدقيق والفحص في مثل هذه المشاكل المستعصية، وأن يجدوا أن الطريق كلها غير معبد ولا مسلوك... وأن طريق المؤتمرات الاقتصادية، أو المشاورات السياسية، أو الاقتراحات الاجتماعية وحدها غير كاف، وأن طريق المسكنات الوقتية، والمعالجات الموضعية لايفيد، وأنه لابد أن نتعمق في صميم الإنسان، وأن نلمس أعماق الوجدان، حتى يستطيع صاحب القوة والثراء أن يكبح من جماحه، ويكفكف من غلوائه... ويستطيع المتخلفون والمقهورون والمضغوطون والمكظومون والمكروبون أن يرتفعوا فوق آلامهم، ويتعلوا على جراحهم، ويئدوا مشاعر الحقد والضغينة في نفوسهم...

ولم يكن غريباً أيضاً أن يجد هؤلاء المفكرون ضالتهم هذه في الأديان التي يدين بها بنو الإنسان لأنها هي التي تنبع من قلوبهم، وتسيطر على تفكيرهم، وهي وحدها القادرة على أن تحتفظ للقيم الكريمة بمكانتها والأخلاق الرفيعة بمنزلتها.

☆ ☆ ☆

هذه المعاني والأفكار، وهذا الفراغ الروحي الذي يعيشه العالم اليوم، وهذه الاضطرابات التي يغذيها العنصريون الحاقدون ضد الديانات السماوية هي التي دفعت جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله بأن يوجه رسالة إلى أعضاء الندوة التي أقامها «مؤتمر العالم الإسلامي» المنظمة الدولية، والذي يتمتع بمكانة استشارية لدى منظمة الأمم المتحدة، والذي يوجد مركزه الرئيسي بكراتشي، فلقد تقرر في شهر مارس عام 1982، إقامة ندوة كبرى بمدينة «كولومبو» «عاصمة سريلانكا» تحت عنوان : «عالمية الإسلام» وذلك بعد الندوة التي أقيمت بجزيرة «قبرص» عام 1980؛ وقد حيا رائد الحوار الإسلامي - المسيحي جلالة الملك الحسن الثاني هذا اللقاء الذي فتح حواراً إسلامياً مسيحياً بين هذه الندوة ومجمع الأساقفة الكنسي، والذي اختير له شعار : «أيها المسلمون، أيها المسيحيون... **﴿تعالوا إلى كلمة سواء، بيننا وبينكم﴾**».

ولقد تلا هذه الرسالة الملكية السامية، وتشرف بإلقائها الأستاذ السيد أبو بكر القادري بتكليف من جلالة الملك، ومما جاء في الرسالة الملكية السامية :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه.

من الحسن الثاني ملك المملكة المغربية.

إلـــى

السادة أعضاء ندوة عالمية الإسلام.

بكولومبو - سري لانكا.

صاحب الفخامة رئيس جمهورية سري لانكا،

أصحاب المعالي والفضيلة،

والسادة الأعزاء،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فيطيب لنا أن نبعث إليكم، بمناسبة انعقاد هذه الندوة الإسلامية المباركة، بأزكى التحيات وأطيبها، وأحر الدعوات إلى الله تبارك وتعالى أن يلهمكم السداد والتوفيق، ويضئ لكم معالم الطريق، وينور قلوبكم بإيمانه، ويبارك أعمالكم بهدى قرآنه، حتى تتحقق للأمة الإسلامية من هذه الندوة ما تؤمله وترجوه.

ولا يسعنا إلا أن ننوه بالشعار المميز الذي اخترتموه لهذه الندوة، الذي هو «عالمية الإسلام». ذلك لأن ديننا الحنيف، بحكم أنه خاتم الرسالات السماوية، فهو أكملها، وأشملها، وأصفاها نبعاً، وأكثرها استجابة لفطرة الإنسان، ورغائبه الروحية، ومطالبه المادية الدنيوية، فلو أن البشرية بأسرها اختارت شعاراً لها في جميع العصور والأمصار، لما جاءت بأفضل من قوله تعالى : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وإن من دواعي ارتياحنا ما قر رأيكم عليه من فتح حوار إسلامي مسيحي بين هذه الندوة و(مجمع الأساقفة الكنسي)، والذي اخترتم له شعار «أيها المسلمون، أيها المسيحيون، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم»، فالمسلمون والمسيحيون محكوم عليهم بالتفاهم والتعاون، والتعاطف والتآزر، بحكم التجاور الجغرافي، ووحدة المنبع والأرضية الروحية، وبحكم التعايش التاريخي الطويل الحافل بالتبادل والتعامل. وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى. ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون﴾. **صدق الله العظيم. فكما سلم المسلمون للمسيحيين شعلة الحضارة في نهاية القرون الوسطى، وأقبل المسيحيون على تعلم الفلسفة والعلوم في المدارس والمعاهد الإسلامية من قرطبة إلى فاس، ودمشق، وبغداد، وأتقنوا اللغة العربية، وكتبوا بها، كذلك لايجد المسلمون اليوم حرجاً ولا غضاضة في الاقتباس منهم والتلمذة على علمائهم فيما أضافوه لما أخذوه عنا من علوم تقنية مفيدة.**

ونحن على يقين من أن هذا الحوار لن يجد إلا كل تأييد وتحبيذ من ذوي العقول المستنيرة الحريصين على سعادة البشرية من أهل الملتين. وسوف تجدون أن نقط الالتقاء والتقارب بين الديانتين أكثر بكثير من نقط التباعد والافتراق.

وقد أوجز رسول الله ﷺ، مهمة جميع الأنبياء والمرسلين في ثلاث كلمات هي : «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

كما أوجز الحق سبحانه مهمة رسوله ﷺ، في قوله تعالى : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

وان نوصيكم بشيء، فإننا نوصيكم بتأكيد كل ما هو إيجابي وبناء في هذه العلاقات، وكل ما يخدم المصالح المشتركة للأديان السماوية، ويؤكد سموها، ويضمن بقاءها وانتشارها. وأهم هذه المصالح الإبقاء على جذوة الإيمان متوقدة في قلوب المومنين، وبحث أنجع الوسائل للحيلولة دون انحراف الشباب عن مبادئ الدين، وخصوصاً بعد أن ظهرت مذاهب وتيارات يوظف دعاتها أحدث الوسائل المادية والمعنوية لنشرها، ويسخرون لها جهازاً إعلامياً مبنياً على أمتن الأسس العلمية، والنظريات النفسانية الحديثة، لتعود بالبشرية إلى عصور الظلمات التي بعث الله رسوله وأنبياءه لإخراج الإنسانية من جهالتها إلى نور الإيمان.

ولو استطاع هذا الحوار الذي أزمعتم تنظيمه بين الديانتين العظميين، أن يبدد ما تراكم عبر القرون الماضية من شكوك، ويصحح ما ارتكب من أخطاء، ويزيل ما علق بالأفهام من أوهام، لكان أنجح حوار، وأعظمه نفعاً للبشرية جمعاء.

وقد كنا أول من نادى بهذا الحوار في رسالة القرن التي وجهناها إلى العالم الإسلامي، والتي ستوزع عليكم أثناء هذه الندوة. كما أكدنا ذلك عند زيارتنا، كرئيس للجنة القدس، للفاتيكان، ولقائنا مع قداسة البابا يوحنا بولس الثاني، رئيس الكنيسة الكاثوليكية، وقد لمسنا في قداسته نفس الرغبة الصادقة في التفاهم والحوار، ونفس الإيمان بضرورة تضافر الجهود لإنقاذ البشرية من الانحدار إلى حضيض اللا أخلاقية الذي هو نتيجة حتمية للإلحاد، وإنكار وجوه الله، وبالتالي غياب رقابة الضمير المؤمن.

ونغتنم هذه الفرصة لنسأل الله تبارك وتعالى أن يكلل ندوتكم هذه بالنجاح الشامل، والتوفيق الكامل، حتى يتحقق لكم منها كل ما تتوخونه من سامي الأهداف، ونبيل الغايات إنه سميع مجيب.

وحرر بالقصر الملكي بالدار البيضاء في يوم الجمعة 15 جمادى الأولى عام 1402 هـ موافق 12 مارس سنة 1982م.

والسلام عليكم ورحمته تعالى وبركاته.

مع تحيات أخيكم في الإسلام.

الحسن بن محمد

☆ ☆ ☆

لقد حرص صاحب الجلالة حفظه الله على أن تظل الصلات الطيبة مع المسيحية، كما عرفها المغرب عبر التاريخ الحافل الذي كان يربط المغرب بزعماء العالم المسيحي، من أجل ذلك وجه، أيضاً، جلالته إلى أعضاء «ندوة روما» الخاصة بالقدس الشريف المنعقدة بتاريخ 15 دجنبر 1981، رسالة تتعلق بقضية القدس، تلاها في روما الدكتور عبد الهادي التازي، ومما جاء في تلك الرسالة الملكية السامية، وهي غنية عن كل تعليق :

«... ويتمثل العنصر الثالث الذي له وزنه على صلاتنا بالقدس الشريف، ويتمثل هذا العنصر، خاصة في حرصنا المستمر على أن تظل بالقدس الشريف، ويتمثل هذا العنصر خاصةً في حرصنا المستمر على أن تظلّ صلاتنا طيبةً بل وممتازة مع المسيحية عبر التاريخ، وهكذا كان المغاربة والمسيحيون يجدون في القدس مُلتقىً لهم يتأملون ويتنسكون ويعبدون ويذكرون، إضافةً إلى مايربط بين المغرب وبين قادة المسيحية من وشائج نقرأها في الرسائل والخطابات المتبادلة بين أسلافنا الميامين رحمهم الله، وبين أصحاب القداسة رؤساء الملّة المسيحية كما تسمّيهم تلك الوثائق.

ومن أجل كل هذا، فإننا ـ ونحن نحيّي هذا اللقاء العظيم اليوم ـ لانملك إلاّ أن نبارك دعم تلك الجسور التي لاتخفى أهمّيتها بالنسبة للسلام والطمانينة، لا نملك إلاّ أن نبارك هذا اللقاء الرفيع الذي يقام في الواقع تكريماً لمكانٍ نُجلّه جميعاً ونكرّمه جميعاً ونقدّسه جميعاً.

أيها السادة،

منذ بضعة شهور فقط، خصّصت أكاديمية المملكة المغربية دورتها للحديث عن القدس، وكم كنّا مُرتاحين أن تصبح رحاب المغرب منبراً تحدّث من أعلاه عدد من رجال الدين سواء منهم المسيحيون أو المسلمون، تحدثوا بكامل الحرية، وفي إطار حوار شريف متفتّح عن هذا القدس الشريف الذي نعيش فيه ومعه كلّ لحظة من لحظات حياتنا... لقد كنا سُعداء أن نسمع إلى وجهات نظر رجال العلم ورجال القانون ورجال الدّين ورُوّاد القمر ورجال السياسة ورجال التاريخ، كلهم التقوا على مائدة القدس يُبجّلون ويعظّمون ويُذكرون لهم مكاناً ما كان أعظمه على مصير الإنسانية وعلى مصير القيم الروحية، ولا شك أنّ ندوة مثل تلك الندوات وعلى ذلك المستوى، من شأنها أن تسهم في إثراء الحديث حول القدس الشريف.

29) انظر البحث القيم في : «مناقشة أصول الديانات في المغرب الوسيط» للأستاذ محمد المنوني : البحث العلمي عدد 13.

30) الرسالة محفوظة بمكتبة الفاتيكان تحت رقم 1802 ـ A.A.I.VIII، مع جلالة الملك الحسن الثاني في حاضرة الفاتيكان...

31) نشرها للمرة الأولى : «أنطوان رباث» في مجلة المشرق عام 1903، انظر نصها الكامل في : «الحسن الثاني في حاضرة الفاتيكان» لمؤرخ المملكة الأستاذ السيد عبد الوهاب بنمصور ص : 98 ـ 101. ـ

الأديان، أو تهتم بدحض مطاعن خصوم الرسالة المحمدية...[29] ولعل أقدم وثيقة في ملف العلاقات بين المملكة المغربية، والكرسي البابوي «بروما» هي رسالة من الخليفة الموحدي عمر المرتضى إلى البابا «إينوسان» الرابع، جواباً عن رسالة كان هذا البابا وجهها إلى الخليفة المذكور،[30] وهي مؤرخة في 20 يونيو 1250م[31] ولقد كان السلطان أبو الفدا المولى اسماعيل بن الشريف العلوي يدعو الرهبان الموجودين بإيالته لحضرته، ويناظرهم في الدين، ويأمرهم بإحضار ما لديهم من المستندات على معتقداتهم، ويتناول ذلك بالنقد والبحث معتمداً على التآليف الإسلامية التي كان يحضرها في مجلسه،[32] وفي نطاق سياسته الخارجية، كان يحاجج في الديانة النصرانية، ويدعو المسيحيين للدخول في دين الإسلام، صدرت عنه مكاتب بذلك لجل دول أوروبا، والمعروف الآن في هذا الصدد، رسالتان، كتب إحداهما إلى جيمس الثاني ملك أنجلترا بعد خلعه، والتجائه إلى فرنسا،[33] وتحمل تاريخ النصف من شعبان عام 1109 هـ ثم بعث بالثانية إلى لويس 14 ملك فرنسا..[34]

كما كانت العلاقة طيبة بين المولى الحسن الأول، والبابا «ليون الثالث عشر» الذي هنأه بمناسبة اليوبيل الكهنوتي لتوليته كرسي البابوية، وبلوغه سِنّ الخمسين، وقد رأس هذه السفارة القائد عبد الصادق بن أحمد الريفي،

32) هنا وصف كتبه مؤرخ فرنسا «سان ألون» سفير لويز الرابع عشر، في وصف المولى اسماعيل...

33) انظر نص الرسالة في الإتحاف ص. 2/56.

34) انظر نص الرسالة في الأتحاف ص. 2/54. وقد ورد النص العربي لهذه الرسالة في : «الدر المنتخب المستحسن» لابن الحاج القاسي في الجزء السابع عند حوادث 1114 هـ حسب كتاب التراتيب الإدارية للشيخ عبد الحي الكتاني ص. 164 ـ 1/165 (انظر كتاب التراتيب الإدارية من ص. 1/156 إلى 68.

وفي معيته العلامة أبو العباس أحمد الكردودي أحد كتاب الحضرة الشريفة،[35] وذلك في عام 1305 هـ ـ 1887م.[36]

وقد وجّه جلالة الملك الحسن الثاني رسالة إلى قداسة البابا بولس السادس في شأن الاحتلال الإسرائي لفلسطين في عام 1967، لما ألحقوا المدينة المقدسة، وبيت المقدس، بالمناطق التي سيطروا عليها من أرض فلسطين، وقد أوفد حفظه الله لهذه السفارة وزير العدل السيد علي بن جلون.

☆ ☆ ☆

لقد احتل موضوع العلاقات الإسلامية المسيحية في أروبا اليوم مكان الصدارة في مجال البحوث ذات الصلة باللقاآت الإسلامية المسيحية التي تطورت في شق إيجابي بشكل حثيث بعد الحرب الثانية... إذ أن موضوع العلاقات الإسلامية المسيحية موضوع دقيق وحساس، ولا سيما على الساحة المهجرية بأروبا... ولا شك أنه موضوع الساعة والمستقبل؛ والخطوط العريضة لتميز علاقة جيل الآباء عن الجيل الثاني بدأت تشق طريقها نحو التكوين، وأبناء المهاجرين المسلمين هم المركز المحرك لهذه العلاقة التي سيكشف عنها العقد القادم، وتحدد مضمون دائرتها العشرون سنة المقبلة، بقدر الدور الذي ستلعبه الحكومات العربية والإسلامية في المجالين الإسلامي والتربوي لصالح أبناء المهاجرين المسلمين على أرض أروبا الغربية...

إن المسلمين يكونون جزءا لايتجزأ من التاريخ الأروبي... إنهم ينسبون لحاضره، وسيقررون مستقبله... وان هذا الوجود الإسلامي، عبر القرون، إذ يشكل في حد ذاته موضوعاً للتفكر والاهتمام، سواء داخل الكنيسة أو داخل المجتمعات التي تواجد فيها، فإنه أصبح حقيقة إنسانية لا للشرق فحسب، ولكن، أيضاً، ومنذ عقود مضت، بالنسبة لدول غرب أروبا...

إن موضوع الجيل الثاني التائه من أبناء المهاجرين، هو موضوع الساعة والمستقبل، فهم الذين سوف يحددون اتجاه العلاقة الإسلامية المسيحية للاحق الوقت على أرض أروبا سواء في منحاها الإيجابي، أو السلبي، وهم الذين سيلعبون دوراً طلائعياً فريداً لصالح أوطانهم، وللأمة الإسلامية جمعاء، كلما أحسن وأتقن استغلال تربيتهم وتوجيههم.

☆ ☆ ☆

وفي الحديث الذي أدلى به صاحب الجلالة الحسن الثاني حفظه الله لمدير المجلة الفرنسية «أوبسرفاتور» السيد جان دانييل حول مشاكل المهاجرين المسلمين الذين يعيشون في أروبا والمعضلات التي يتخبط فيها شبابهم وجيلهم تدرك مدى اهتمام العاهل المغربي، بما يعانيه الجيل الثاني في بلاد المهجر.. من عناء وبلاء.!!

ولقد أجاب حفظه الله عن سؤال.. هل تومنون بأن للتسامح حدوداً ولا سيما في الميدان العملي فكان جواب جلالته :

□ أومن بذلك بقوة وأرى من جهة أخرى أنه ليس من المعقول مكافحة العنصرية دون الاهتمام بالظروف التي تولدها وتنميها. فمفهوم حدود التسامح مفهوم سيء ولا يمكن تفاديه في كل المجتمعات فلو لم يكن هناك إلا بلدان أو ثلاثة بلدان ترغب في تشغيل يدها العاملة في فرنسا لكان بالإمكان عقد بعض الآمال فيها يخص المستفيدين من التسامح، غير أن الواقع هو أن هناك حوالي عشرة بلدان متنافسة وهو ما يجعل أن هناك كثيراً من الراغبين في الحصول على الامتياز مما يؤدي إلى الرفض إني أفضل بكل صراحة أن تكون لنا اتفاقيات جد واضحة وجد

35) «إتحاف أعلام الناس» ص : 2/366. وقد اعتذر السيد عبد الصادق لمرض ألمّ به عن القيام، بهذه المأمورية، فقام السيد الحاج محمد بن العربي الطريس سفيراً لحاضرة الفاتيكان.

36) انظر وثائق تتعلق بالسفارة المغربية إلى البابا : ليون الثالث للأستاذ خوسي أغيليرا بليغيثويلو، مجلة : «تطوان» ص : 155 ـ 161، ج : 2، عام 1957.

محددة فيما يخص يدنا العاملة والقواعد التي يجب أن تحترمها والحقوق التي يجب أن تضمن لها وأؤكد هنا الإرادة القوية للمواطنين المغاربة في عدم التدخل في الشؤون الداخلية الفرنسية وعدم إقحام أنفسهم في الخلافات الفرنسية.

● سؤال... لنتطرق إلى موضوع آخر.. كيف تلقيتم تصريحات الرئيس ميتران خلال كلمة التهنئة التي وجهها بمناسبة حلول السنة الجديدة بخصوص مراجعة قانون باسكو حول وضعية المهاجرين.

□ جواب جلالة الملك.. بصفة عامة وهذا شيء يجب أن يكون واضحاً فإن كل ما يمكن أن يرضي المواطنين المغاربة في الخارج لايمكن إلا أن ينال رضاي كما أنه لايمكنني إلا أن أتأثر للدوافع الكامنة وراء تصريحات الرئيس فرانسوا ميتران لاسيما وأن هذه التصريحات جاءت كجواب على الإرهاب الذي يستهدف العرب أو المهاجرين.

ومن جهة أخرى لا أريد أن أتدخل في الخلافات التي تقع بين الفرنسيين لأنني قد أبدو ناكراً للجميل إزاء البعض أو غير عادل تجاه البعض الآخر.

وإني أود فقط التعبير عن انشغالاتي التي تتعلق بالحساسية التي قد يثيرها بصفة عامة لدى الفرنسيين هذا الإجراء أو ذاك الذي يمسهم في حسهم الجماعي.

وما أخشاه أكثر بالنسبة لرعاياي هو أنه بعد حوالي عشر سنوات قد نخطو بعد وقت قصير أو طويل عدة خطوات إلى الوراء بقيامنا بخطوة إلى الأمام في ظرف غير ملائم، إن الرئيس ميتران بفضل حكمته الكبيرة اعترف بأن بلده ليس ناضجاً لاتخاذ بعض الإجراءات ويجب علينا أن نستخلص العبرة من ذلك.

● سؤال.. انكم لستم على أي حال ضد منح المهاجرين حق التصويت.

□ جواب جلالة الملك.. بالعكس إني ضد منح المهاجرين هذا الحق.

● سؤال... ولو على المستوى المحلي.

□ جواب جلالة الملك... نعم، ولو على المستوى المحلي لأن التصويت مرتبط بمسقط الرأس وليس مرتبطاً بالبلد الذي لايوجد به المرء إلا عابراً وفي منفى إضطراري ومؤقت حيث يلازمه التفكير في العودة إنها مسألة جذور وإذا ما تم اتخاذ قرار بالاستقرار بصفة نهائية في مكان ما فذلك شيء آخر. إن حق التصويت حق مقدس يتيح المشاركة في ممارسة جماعة ما لسيادتها. ولا يجب إزالة طابع القداسة عنه لأن ذلك سيزيد من طمس هوية المهاجرين وهذا الأمر هو الذي يشكل مأساتهم الحقيقية على كل حال لايمكنني أن أقبل ذلك بالنسبة للمغاربة.

● جان دانييل... لا يمكنني سوى أن أعبر لكم عن دهشتي.

□ جلالة الملك... وأنا أيضاً فوجئت بكونكم اندهشتم لهذا الأمر.

● جان دانييل... إنها مسألة تعايش فعندما تعمل مجموعة من الناس إلى جانب مجموعة أخرى لمدة طويلة كما هو الشأن بالنسبة لعدد من رعاياكم فإن المجموعتين تصلان في نهاية المطاف إلى تعايش حقيقي ويتم تقاسم جميع الأشياء باستثناء التصويت مما يؤدي إلى الشعور بالحرمان إن لم نقل بالتهميش.

□ جلالة الملك.. إنه شعوركم وهل هذا هو شعور المغاربة. فهل طالبوا بحق التصويت إنهم لم يطالبوا بذلك أبداً. فإذا ظل مواطن مغربي مغربياً في تقاليده وسلوكه فإن هناك بعض الأشياء التي تفصله عن القاطنين معه في نفس المدينة وتبين

له أنه لايمكنه أن يكون غريباً عن مجموعة ما ويقتسم معها في نفس الوقت حق السيادة ان ذلك بمعنى آخر طريقة للتنكر للأصول.

● جان دانييل... هذا قد يبرر معاملتهم خارج إطار القوانين..

□ **جلالة الملك.. أبداً إنها مسألة مختلفة تماماً. فيجب أن تكون هناك اتفاقيات دقيقة بين البلدين تفرض احترام شخصية الإنسان. فإذا كانت إقامة المهاجرين تطابق مقتضيات الاتفاقيات فإنه لايمكن في يوم من الأيام طردهم دون دراسة وضعيتهم. أما إذا تم بعد بحث دقيق اكتشاف كون وضعيتهم غير قانونية حسب هذه الاتفاقيات فعندئذ يكون طردهم قانونياً.**

إنني أريد أن أقنعكم بأنني الآن بصدد الدفاع عن كرامة وهوية رعاياي وفي نفس الوقت أعمل على ألا تكون هناك صدمة عند العودة الناتجة عن نزعة إنسانية يطبعها التسامح وهو ما سيكون بمثابة مأساة بالنسبة لبلدينا.

☆ ☆ ☆

كلام واضح، وتصريحات صريحة تنم عن إدراك واع عما يكابده المسلمون في بلاد المهجر، وما ينتاب أبناءهم وبناتهم من عناء واستيلاب.

☆ ☆ ☆

ومنذ ثلاث سنوات، كنت في فرنسا، في نطاق جولة تفتيشية تعليمية للأساتذة الذين انتدبتهم وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لتعليم أبناء الجالية المغربية المقيمة هناك، راعني ما وجدته في هذه المناطق الفرنسية، التي توجد شرق وغربي فرنسا، وهي تكتظ بالعمال المغاربة المسلمين وهم في حاجة ملحة إلى من يأخذ بأيديهم، ويسير بهم إلى طريق الخير والهدى سيراً وئيداً أو سريعاً على حسب ما يرى في استعدادهم...

إنهم شباب ضائع يمكن اعتبارهم جيلا بدون هوية، فهل نعتبرهم فرنسيين، وهم متيقنون من ازدواجيتهم ؟

وهل هم مغاربة، والحال أن العديد منهم يجهل كل شيء عن موطن أبويه وأجداده ؟

من هم إذن، وكيف يعيشون في هذا الوسط الذي لايملكونه، والذي يرفض الهامشيين ؟

هل يعملون ؟ وفي أي ظرف ؟ ماذا عن علاقاتهم فيما بينهم ؟

ماذا عن ارتباطهم بعائلاتهم ؟

ثم ماذا عن الصورة التي علقت في أذهان الفرنسيين في شأنهم...

ما هي أعدادهم ؟ بل ان السلطات الفرنسية لا تقدم إحصاء بشأنهم، لأن «اللجنة الإعلامية للحريات» تمنع فصل الفرنسيين المتجنسين عن بقية الأهالي، كما لايمكن حصر عددهم في المدارس لنفس السبب...

ويحدثنا عالم الاجتماع السيد «عادل جازولي» الذي ألف كتاب : **«العمل الجماعي عند الشبان المغاربة في فرنسا»** فقد قدم إحصاء تقريبياً، ويرتفع عدد شبان الجيل الثاني من المهاجرين المغاربة إلى 9.000 ألف شاب، تجمعوا بنسبة مرتفعة في المدن الشرقية، وفي بعض مدن الشمال الشرقي بفرنسا، على أن المغاربة متواجدون بنسب مرتفعة بين باريس وضواحيها كما نجدهم، أيضاً، بأعداد وافرة في المناطق الريفية الفرنسية...

وقد ذكروا بأن عدد شباب الجيل الثاني من المهاجرين التونسيين الجزائريين والمغاربة في تزايد مستمر...

إن مسألة الجيل الثاني، من سمات مهاجري المغرب العربي (المغرب ـ الجزائر ـ تونس) لأن فرنسا استقبلت خلال هذا القرن مهاجرين من إيطاليا وبولونيا واسبانيا والبرتغال، لكن هذه الهجرات لم تولد ظاهرة اسمها الجيل الثاني.

وذلك مرده، وجود أربعة عوامل تخدم هذه الظاهرة :

ـ العامل الأول : وزن هؤلاء الشبان بالنسبة لمجموع المهاجرين من المغرب العربي إذ أن هناك 43 ٪ شبان مغاربة، و 40 ٪ شبان تونسيون و 41 ٪ شبان جزائريون ضمن المجموعة المهاجرة من هذه البلدان الثلاثة...

ـ أما العامل الثاني : فهو تجمعها بأعداد كبيرة في المدن الكبرى كـ : ليل ـ وباريس ـ وليون ـ ومرسيليا .... ثم تشكل إرادة التخلص من الرابطة العائلية العامل الثالث لتفسير الظاهرة، ويأتي رفض الشبان الذكور العمل بالمعامل كسبب أخير أدى إلى ظهور ما يسمى بجيل البور Les Beurs أو الجيل الثاني..؟

وفي الحقيقة، ليست هذه تسمية عنصرية، لأن شباب الجيل الثاني من المهاجرين هو الذي اختار لنفسه أسماء يعبر بها عن هويته المختلفة، وهي متعددة في الواقع، في «ليون» اختار الشبان اسم «الخوخو» وفي «ليل» أطلقوا على مجموعتهم اسم «الكالو» أما شباب باريس، فاختار اسم «البور» «والبورات» بالنسبة للإناث...

وتطرح مسألة التسميات المميزة هذه، مشكل الوضعية القانونية لهؤلاء الشبان، بالنسبة لشبان وفتيات الجزائر المقيمين في فرنسا فهم يعتبرون أجانب، لهم الحق إذا شاؤوا في المطالبة بالجنسية الفرنسية إذا ما كانوا دخلوا فرنسا في فترة ما بعد استقلال الجزائر، أما إذا ولدوا في فرنسا فلهم حق المواطنة الفرنسية، مثل أبناء المغاربة والتونسيين الذين ولدوا في فرنسا...

في هذا المعنى كشفت الإحصائيات التي سجلت بخصوص طلبات التجنس والإدماج في الجنسية الفرنسية أن عدد الذين يرغبون في ذلك ضمن مجموعة المغاربة (المغرب ـ الجزائر ـ تونس) في تزايد بمعدل 13000 طلب سنوياً كدليل على النسبة المرتفعة...

كما أن عدد التسجيلات للقوائم الانتخابية التي تقدم سياسية ترغب في إدماج «بور» ضمن قوائمها وقد تقدم مرشحات عربي من أصل عربي للترشيح في الانتخابات البلدية التي ستجري بفرنسا في منتصف شهر مارس الحالي 1989. ويقول السيد الدحماني رئيس الرابطة المعنية بشؤون المهاجرين من أصل عربي في فرنسا ومقرها باريس : إن من بين هؤلاء المرشحين الذين ينتمون إلى كافة الأحزاب السياسية الفرنسية ستة عشر سيدة..

كما أوضح السيد الدحماني في تصريحات صحفية أن خمسين بالمائة (50 ٪) من هؤلاء المرشحين ينتمون إلى الحزب الاشتراكي الحاكم، وثلاثين في المائة (30 ٪) ينتمون إلى مختلف أحزاب اليمين الليبرالي، فيما تتوزع نسبة العشرين بالمائة (20 ٪) المتبقية بين حزبي التجمع من أجل الجمهورية الديغولي والحزب الشيوعي الفرنسي.

ويتعرض هؤلاء الشبان في دراستهم إلى صعوبات جمّة، مع العلم أن نسب المرسمين من بينهم ترتفع إلى 44 ٪ من جملة الشباب الأجنبي في فرنسا...

وجل شبابنا يسقط في دنيا الانحراف والبطالة وقد تأثر أحد الشبان المثقفين كثيراً، لما علم عند زيارته لسجن «سان بول» بمدينة ليون أن 450 من جملة المساجين المعتقلين به (1000) من بلاد المغرب العربي...

وقد أفاد المعهد القومي الفرنسي للدراسات الديمغرافية أن أجنبياً من اثنين يفشل في دراسته، وبما أن 44 ٪ منهم مغاربة فنسبة البور تكون هامة جداً...

كما أن الدراسات كشفت أن 3 ٪ من «البور» يواصلون تعليمهم العالي بينما تعيش الأغلبية الساحقة منهم في حالة بطالة...

ويقول الشاب «عادل الجزولي في هذا المعنى : إن مصير (البور) يبدأ عند بلوغه 18 سنة، فإن تجاوز عقبات الانتقاء، فإنه يدخل عالم المخدرات والانحراف والضياع...

وقد ذكر بعض الصحفيين ان «الفتيات البورات» يتعرضن إلى صعوبات كبيرة في التحرر في السلطة التي

تفرضها عليهم عائلاتهن، وقد أدت بهن هذه الأوضاع، في بعض الحالات إلى الانتحار، وقد رأيت أنا، شخصياً منذ ثلاث سنوات بأحد الشوارع الكبرى بأمستردام هولاندة، أباً يذبح بنته في قارعة الطريق أمام مشهد من الناس، لأنها رفضت الخضوع والطاعة وأغرتها الحكومة الهولاندية بالنشوز ومغادرة البيت والاستقرار في الأندية التي تخصصها الحكومة الهولاندية لمثل هؤلاء النساء والفتيات، ولقد صلى على الجنازة، وأنا حاضر إمام مسجد (لوتريخت السيد أحمد التوزاني الذي جهزها وكفنها وأشرف على نقلها إلى مدينتها بالناضور.

ولقد أذاعت «هندروسن» التي تذاع بأمستردام خبرا مفاده أن 2400 فتاة مسلمة تزوجن بالهولانديين الأجانب، وهذا في مدينة واحدة هي أمستردام فكيف الحال في بقية المدن، بل كيف الحال في بقية الأقطار الأوربية ؟

هذه بعض الحقائق عن أبنائنا المهاجرين في فرنسا والذين تقول الإحصائيات في شأنهم أن نسبة البطالة بينهم تصل إلى 85 ٪ بينما لايتعدى النسبة القومية بالنسبة لفرنسا 26 ٪.

وعلينا أيضاً، أن نعلم أن قرابة 500 ألف شاب من المهاجرين الذين تتراوح أعمارهم ما بين 15 و 30 عاماً مهددين اليوم نتيجة لما يسمى بالأزمة العالمية بالطرد من البلاد الفرنسية.

فماذا أعددنا لاستقبالهم ؟ وماذا هيأنا لهم من وسائل الاتصال الذي يمكنهم من موجة أوطانهم ودياناتهم.. لقد لمست وأنا في المنطقة الشرقية بفرنسا عدة مآسي وكوارث يقع ضحيتها شبابنا.

فلا غرابة إذا وجدنا الآباء والأولياء يفزعون إلى القنصليات والسفارة بفرنسا وغيرها يشتكون من الحالة المفزعة المدمرة التي طوحت بأولادهم في ظلام التيه والضياع، ويطلبون من حكوماتهم الإسلامية بإلحاح أن توجه إليهم فقهاء وعلماء لتنوير أفكارهم وتوجيههم.

☆ ☆ ☆

مشكلة الجيل الثاني، مشكل عويص، يدركه كل مسؤول، ويعيه كل مسلم راع... وقد نادى كثير من المفكرين إلى تلافي عواقبه الوخيمة، ولا سيما في العقد القادم ولا يمكن حله إلا عن طريق الحوار، ولقد أدرك هذا المشكل كثير من المحللين الصحفيين والكتاب، وحبروا مجموعة من التوقعات من بينها فصل عن «ظهور مجتمعات إسلامية جديدة...» فلقد أصدرت مؤسسة «الإيكونوميست» في المجلة، وفي كتاب خاص عن التسعينيات المقبلة مجموعة من التخمينات سوف تتحقق في العقد القادم يقول هذا التوقع :

إن الهجرات إلى أمريكا وأوروبا تزيد فيها الآن نسبة المسلمين بين المهاجرين زيادة كبيرة، فهناك الآن ملايين من المسلمين في أوروبا وملايين في أمريكا، وبالطبع من شتى بلاد العالم الإسلامي، من شمال إفريقيا إلى فرنسا وإسبانيا والأتراك في الألمانيا، والأفارقة والآسيويون في أنجلترا، والمصريون والإيرانيون والآسيويون في أمريكا، وبزيادة أعدادهم بدأوا يزدادون اهتماماً بهويتهم، وعلى اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم يجمعهم الإسلام، فلهم تقاليد متشابهة وعقائد واحدة وثياب متقاربة وعادات وتقاليد تميزهم، فهم لايذوبون في شعوب البلاد التي يهاجرون إليها ويضربون مثلا بمن يزور ألمانيا فإنه سوف يدرك فورا وإذا دخل منطقة ما أنه صار في منطقة للأتراك، كل شيء فيها من المباني إلى الطعام يشعرك كأنك في تركيا. وإقامة المساجد والمدارس الإسلامية والجمعيات الإسلامية تنتشر في أوروبا وأمريكا. وهم يغيرون من بعض عادات دول المهجر كالعمل وفتح الدكاكين يوم الأحد في أنجلترا وانتشار طعام كـ «الكباب» والأطعمة اللبنانية في أوروبا وأمريكا، كما غزت «البيتزا» و «الاسباجيتي» الإيطاليتان العالم من قبل !

وإذا كان شتى أنواع المسلمين في تلك المجتمعات الجديدة، قد ذهبوا إليها بكل خلافاتهم الموروثة وأحيانا عداواتهم، فإن وجودهم في «غربة» وعزلة سوف يضعهم في

بوتقة جديدة تجعلهم يحاولون حل خلافاتهم والنظر إلى العالم من زوايا أخرى جديدة والاجتهاد لمحاولة الحياة والنمو في مجتمعات غير مجتمعاتهم، وقد تصدر عنهم تيارات ثقافية جديدة تعود إلى مواطنهم الأصلية وتؤثر فيها كما حدث مراراً خلال الهجرات المختلفة على مدى عصور التاريخ.

وقد يكون هذا التوقع موضوعاً يهتم به قومنا في بلادنا ويهتمون بمتابعته ودراسته وفي ذلك فليجتهد المجتهدون.[37]

ذلك هو التوقع، ولعل ممن أدركوه قداسة البابا «بول يوحنا الثاني» وهو يوجه خطاباً إلى الشباب بمدينة الدار البيضاء حيث قال :

يستطيع كل إنسان أن يجد في عالم أكثر إنسانية وأكثر عدالة وأكثر إخاء، مكانته في الحرية والكرامة، هو عالم القرن الحادي والعشرون، ينبغي بناؤه بأيديكم، وكما بنيتموه، سيكون...

يتعلق عالم الغد، بشبان جميع بلدان العالم، إن عالمنا منقسم، لا، بل إنه ممزق، وانه يشهد صراعات عديدة، ومظالم خطيرة، فليس فيه تضامن بين الشمال والجنوب، وليس فيه تعاون متبادل كاف بين أمم الجنوب، وتوجد في العالم ثقافات وأعراق لاتتمتع بالاحترام الواجب، لم هذا كله ؟ ذلك لأن الناس لايقبلون تباينهم، فهم لايتعارفون تعارفاً وافياً، وهم ينبذون من ليس له نفس الحضارة، وهم يرفضون أن يتعاونوا، وهم لايعرفون أن يتحرروا من الأنانية والادعاء الذاتي، أما الله فبالعكس، فقد خلق جميع الناس متساوين في الكرامة ومتباينين في المواهب والعطايا، وان البشرية أسرة واحدة لكل جماعة فيها دور تلعبه، فيجب الاعتراف بقيم مختلف الشعوب ومختلف الثقافات، فالعالم شبيه بجسد حي لكل إنسان فيه شيء يتلقاه من الآخرين، وشيء يعطيهم إياه، **يسعدني أن ألتقي بكم هنا في المغرب، فالمغرب عريق في انفتاحه، لقد سافر علماؤكم ورحبتم بعلماء من بلدان أخرى، ولقد كان المغرب ملتقى للحضارات، ففي هذا البلد الإسلامي عاش بعض اليهود منذ زمن بعيد، وعاش بعض المسيحيين طوال عصور عديدة، وقد تم عيش ذلك في الاحترام وبطريقة إيجابية، لقد كنتم وستبقون بلداً مضيافاً، فإنكم إذاً أيها الشباب والشابات المغاربة معدون لأن تكونوا مواطني عالم الغد،** هذا العالم المتآخي الذي تتوقون إليه مع شباب وشابات العالم بأسره.

وإنني على يقين من كونكم قادرين جميعاً على الحوار، فأنتم لاتريدون أن تقيدكم الأحكام المسبقة، وأنتم مستعدون لبناء حضارة تقوم على المحبة، وبإمكانكم أن تعملوا على إسقاط الحواجز الناتجة من كبرياء الناس أحياناً، وعن ضعفهم وخوفهم غالب الأحيان، وانكم تريدون أن تحبوا الآخرين دون أية حدود أمة أو عرق أو دين.[38]

☆ ☆ ☆

لقد تمت زيارة قداسة الباب لبلدنا بالطابع الذي يتلاءم وما يحمله هذا الحدث من معاني الوفاق، وما يرمز إليه من حرص متبادل بين الإسلام والمسيحية على الحوار الذي يستهدف خدمة القضايا الإنسانية الكبرى...

وإن من بين هذه القضايا، قضية القدس الشريف، التي يوليها صاحب الجلالة، أيده الله، اهتمامه البالغ العظيم، ويسعى سعيه المتواصل الدؤوب قصد تسويتها بما يكفل لمدينة السلام التخلص من براثين القهر والاحتلال.

☆ ☆ ☆

وخليق بالمغرب أرض الديانة الإسلامية السمحة والجهاد المديد المستنير في سبيل إعلاء كلمة الحق والانتصار المتواصل للمبادئ المثلى والقيم الإنسانية السامية أن يتم في رحابه هذا الحدث الفريد برعاية الملك الهمام

---

37) جريدة الشرق الأوسط ع. 3708 ـ 22 ـ 1989.
38) انبعاث أمة ص. 30/379.

سبط النبي الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أزكى الصلاة وأفضل التسليم.

وحري من جهة أخرى بالمغرب الذي يأتمر بأوامر الدين الحنيف، وينتهي بنواهيه ويلتزم بتعاليم الرسالة الإسلامية الغراء، أن تحتضن أرضه هذا اللقاء الجليل، وهي أرض كانت ولا تزال رمز التساكن والتعايش والوئام في ظلال الأمن والسلام بين مختلف الأفراد والجماعات والعقائد السماوية والرسالات التي بعث الله بها رسله إلى العالمين...

وان ما يجمع بين الإسلام والمسيحية من قيم سامية مشتركة ومقاصد نبيلة متشابهة لخليق بأن يسهم الإسهام الفعال في إحباط المناورات العسكرية المرذولة البغيضة، وفي إنقاذ أولى القبلتين وإرجاع زهرة المدائن إلى سالف عهدها يوم كانت أرضاً للعبادة والصفاء والوئام.

☆ ☆ ☆

لقد زار الملك الحسن الثاني حاضرة الفاتيكان في عام 1980م موفدا من لدن رؤساء دول «منظمة المؤتمر الإسلامي»، فكانت زيارة قداسة البابا للمملكة المغربية ردا وتلبية للدعوة الكريمة التي أعرب عنها لقداسته مولانا أمير المومنين الحسن الثاني رئيس لجنة القدس.

ولقد أعرب الشعب المغربي المجبول على أجمل العادات والتقاليد، وأعرق الصفات والسجايا حيث خص ضيف صاحب الجلالة الكبير بالترحيب الحار الدال على الفرح والابتهاج، والحفاوة الواسعة العظيمة النابعة من كريم الشيم والأخلاق الإسلامية.

ولا أدل على ذلك من اللقاء الهام الذي تم بين «البابا يوحنا الثاني» ورؤساء المجالس العلمية بالمملكة حيث تقدموا للسلام على البابا، وألقى الكاتب العام للمجالس العلمية الأستاذ السيد محمد الحجوي الثعالبي كلمة رحب فيها بالضيف الكريم، باسم المجلس العلمي الأعلى، وباسم المجالس العلمية الإقليمية، وباسم سائر علماء المملكة، ورفع لسماحته عبارات الترحيب فوق أرض السلام والحوار أرض المملكة المغربية التي تفتح ذراعيها لاستقبال قداسته، معربة له عن استعدادها الكامل للتعاون على كل ما من شأنه أن يقرب بين الشعوب، ويقوي أواصر المحبة والإخاء بينها.. ورجا من الله العلي القدير أن يجعل هذه الزيارة فاتحة عهد جديد بين المسلمين والمسيحيين، وأن يبارك الجهود المحمودة التي يبذلها كل من أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، وسماحة «البابا يوحنا بولس الثاني» لفائدة الشعوب ولخير البشرية جمعاء...»[39]

وما الزيارة التي قام بها جلالة الملك الحسن الثاني لمحاضرة الفاتيكان كناطق باسم لجنة القدس، وباسم منظمة المؤتمر الإسلامي، وكذلك الزيارة التي قام بها سماحة البابا للمغرب إلا خطوتان مباركتان خطاهما كل من المسلمين والمسيحيين نحو بعضهم البعض، من أجل التقارب والتفاهم والتعاون على البر وعلى خدمة الصالح العام...

وأمام عدد غفير من الجمهور، وفي «مركب محمد الخامس» العظيم، وبحضور الوزراء والسفراء وممثلي الجاليات الأجنبية للاستماع إلى الخطابين اللذين ألقاهما رئيسا الدولتين تقدم جلالة الملك أمام الميكروفون وألقى الكلمة التالية :

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول وآله وصحبه.

شعبي العزيز،

ها هو صديقنا الكبير قداسة البابا بول يوحنا الثاني يحل بيننا وعلى أرضنا وبين ظهرانينا، ومن كان يظن أن هذا اللقاء سيتم في أرض المغرب في هذا الظرف الوجيز الذي يفرق بين زيارتنا للفاتيكان وزيارته للدار البيضاء ؟ إلا أن إرادته وإرادتنا التقت على صعيد واحد وأمام هدف واحد، ألا وهو نسج وتقوية خيوط المحبة والصداقة والوئام بين الأمم والديانات.

39) انبعاث أمة ص. 30/371.

وإني لأتذكر حينما زرت قداسته في الفاتيكان وحينما استدعيته لزيارة المغرب أنه قال لي بابتسامته العذبة : وماذا سأفعل إذا جئت للمغرب، لايمكنني أن أصلي بالناس في مهرجان لأن دولتكم دولة مسلمة صرفة، فإذن ماذا سوف يكون هدفي ؟ فأجبته قائلاً : إن عليك مسؤوليات ليست دينية فحسب، ولكن عليك مسؤوليات تربوية وأخلاقية، وزدت قائلاً : ولي اليقين أن آلاف وآلاف وعشرات الآلاف من المغاربة وبالخصوص من شباب المغرب سوف يكونون ممتعين فيما إذا ألقيت فيهم كلمة تخص الأخلاق والسيرة بين الأفراد والجماعات والشعوب والديانات.

وهكذا تحقق ما كنا نعتبره هو وأنا حلماً، ولكن بإرادة الله حققنا هذا المطمح لنظهر للعالم أجمع أنه إذا اجتمع حسن النية واجتمع حسن الإرادة فإنه لاشيء يمكن أن يفرق بين الأجناس وبين الديانات السماوية.

وإنني إذ أدعو الله سبحانه وتعالى أن يمده بالصحة والعافية والتوفيق، أرحب به مرة أخرى باسمكم جميعاً وباسمي لكونه لبى الدعوة ووطأ أرضاً مسلمة صديقة.[40]

والسلام عليكم ورحمة الله.

☆ ☆ ☆

ذلك ضرب من الحوار البناء الذي نادى به صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني في جل خطبه، والذي طبقه في سياسته الرشيدة المتفتحة، وهو حفظه الله، يوجه شعبه إليه ويقول : **«...إن أرض المغرب أرض غنية بمواردها ورجالها، وهي أرض الحوار والتسامح وحرية المبادرة، وهذه العناصر المجتمعة المتضافرة تجعل من بلدنا بلد الفرص الطيبة».**[41]

☆ ☆ ☆

ولابد من الإشارة، أخيراً، إلى مقال كان قد نشر في حينه في مجلة «لوبوان» الفرنسية للكاتبة «ميريل دوتيل» حول زيارة البابا إلى المغرب قالت فيه : «إن زيارة بابا الفاتيكان أزعجت بعض البلاد العربية» وقد رد عليها العالم المحقق الكبير الدكتور صلاح الدين المنجد بكلام طويل، ومما جاء فيه : «إن الكاتبة «ميريل دوتيل» غير مطلعة على حقائق الأمور، إن لم تكن سيئة النية، فلماذا ينزعج البعض إذا دعا الملك الحسن الثاني رئيس الكنيسة إلى المغرب...».

ولماذا ينزعجون إذا رد البابا الزيارة لهذا الملك المسلم العربي، ودعا أثناء الزيارة إلى حوار إسلامي مسيحي، وقد كانت السعودية أول دولة عربية إسلامية لبت دعوة الفاتيكان إلى الحوار في أيام بولس السادس ؟

هذه الأمور واضحة جدا، لاتقبل أي تفسير أو تأويل أو ظن...

وما دام البابا قد مد يده للحوار، وصدر عن الفاتيكان ماصدر لتصحيح أفكار المسيحيين المتوارثة عن الإسلام، فإن الحوار الإسلامي المسيحي. أصبح واجباً لزيادة توضيح مفاهيم الإسلام. والوصول إلى مجتمع إسلامي مسيحي يسوده السلام والوئام».

الرباط : محمد بنعبد الله

---

40) انبعاث أمة ص. 30/372.

41) من خطاب العرش لعام 1988.

بمناسبة الذكرى الثامنة والعشرين لتربع جلالة الملك الحسن الثاني على عرش أسلافه المنعمين

حسن.. أنت في المحامد فرد

للشاعر الأستاذ عبد الكريم التواتي

هام في عرشكم فؤادي صبابه وتغنى بمجدكم شبَّابه
عرش، مجد، المجتبى الحسن الثا ني ضياه وروحه الوثابه
عرش، مجد، إلى النبوة ينمى وعلى هديها يُؤسُّ رحابه
إنه عرش أمة، ما لها ند إباءً وعزةً ومهابه
شاده الصِّيدُ، آل طه، واعلوا في شموخ صروحه وقبابه
فمضى ينشر السماحة والعدل ويعلي بالصالحات ركابه
تتملى الأكوان أمجاده الغرا، ويرنو لها الزمان صبابه

إيه ياعرش أمة المغرب الأقصى قريضي في العرش نجوى إنابه
أتغنى مدى الزمان بعرش المعالي يحتل منها الذؤابه
به أكرم، فقد خلعنا نشاوى في هواه العذار دون معابه
الحنايا، شغافها تتمنى في هيام، لو تستظل جنابه
فإذا أشدو، واليها في هواه فاشهدوا أني عاشق أعتابه
واشهدوا أني في هواه تصابيت وأحببت أهله وصحَابه

حسن : يا سليل طه، شدا شعري بعرش بُوِّئْتُمُوه نَجابه
شاقه المجد وارف الظل، فاستعذب نشوان ظله وسحابه
وسبت لبه الفتوة فاهتزت شموخا أعطافه لهَابه

فتغنى، وأسكر الكـــون ألحـــــا نـا، ونـاجى من الجمـال رضـابـه
حسن : عيـــد عرشكم رونـق الــدنيـــا وجلى أفراحهـــا الخـلابـــه
شـــــاق (آذار) حسنكم فتمــــلا كم، وأهــداكم حسنــه وشبـابــه
والربيـع الضحـوك روق، فـأهتـا ج، فحـابـاكم في صفـا أطيـابـه
صـاغ أزهـاره أكـاليـل حمــد رتـل الكـون والـزمـان كتـابـه
وشـــداه النهير لحنـــا سبى الطير فنـــاجى أوتــــاره وربــابـــه
لقفتـــه الحيـــاة عيـــدا، بـــه الأعيـــاد سكرى مـزهـوة جــذابـــه
إنـــه عيـــد أمـــة المغرب الأقصى، وأعيـــاد عرشهـــا المجتـــابـــه
يـالهـا فرحـة بهـا الكـون بـاهي وبهـا الـدنيـا قـد غـدت شَبَّـابـه
تتهــــادى هيـــــام شعب بعرش بـــادل الشعب حبـــه وطِلابـــه

☆ ☆ ☆

حسن : أنت في المحــــامـــد فرد ولهـــا فيكم إســوة وقرابـــــه
بحمـاكم ألقت عصـاهـا احتمـاء واستقرت بهـا النـوى مُحْتَـابـه
وبنـو طـــه انجم تـزهر الكـــون وتحيي مـــواتـــــه وَيَبَـــابَــــه
أينمـا حلـوا، قـال ربـك : مرحى حلت البشرى روقتهـا الإجـــابـــه
واستتب السـلام والرغـــد والحـق أقـــامـوا رشـــاده وصــوابـــه
يـــــابني طـــــه إنمــــا أنتم الغيث، وللخير عشتمــو أقطـــابـــه
حسن : عهـــدكم مطـــالـــع يمن وُهِبَ اليمنَ واقتضى أسبـــابــــه
شـــاد للـــدين والعروبـــة صرحـــا كـــان للتقـوى والصـلاح شهـابـه
وحملت اللـواء، للـــه تـــدعـــو وبـــدين الهــدى أمتَّ الحِرابـــه
وجمعت القلـوب حـولــــك لا تر جـو سـوى اللـه، تتقي إغضـابـه
الأمـــــازيـغ والأعــــاريب شعب وحـد اللـه بـالهـدى أحسـابـه
لا ممـــــــــاراة، لا تشتت رأي إنمـــا وحــدة حمتهـــا القرابـــه
وبــك اللـــه قـــد هـــدى أمـــة المغرب فـــانقـــادت للهـــدى أوّابـــه
ومضيتم : (واللــــه أكبر) رمــــز وشعـــــار : تـوحـــدون تُرابــــه
بمسيرات أذهبت ضلــــة الرجس، وكــــانت على الضــلال خرابـــه
واسـألوا الدنيا عنهـا كيف تهـاوى دونهـا الكفر تـاركـا أسلابـه
يـــارعى اللـــه أمـــة أنجبت مثلـــك : عـزمـــا وقـوة وصــلابـــة

يـــا مثنـــاي، والمحـــامـــد إرث في مغـــانيكم اثلتهـــا النجـــابـــه
قـــد حفظتم تراثهـــا في امتـــداد وظللتم على المـــدى حجـــابـــه
فلنحيي «النفس الـزكيـــة»، والخـــا مس من شـــاد للحمى أطنـــابـــه
أسرة أثلت مكـــارمهـــا الحمـــد ومـــا ترتجى ســـواه إنـــابـــه
وترى المجـد مغنمـا، والمعـــالي تفتـد بهـا سبـاقـة غـلابـه
أنجم، في سماء مغربنـــا الأقصى تســـامـــوا عراقـــة ومهـــابـــه
عطروهـــا فضـلا ونبـلا وأرســوا في شموخ صروحـه وقبـــابـــه
فـــإذا النبتـــة الأصيلـــة أغراس، تنـــاهت أغراسهـــا معشـــابـــه
وتتـــالت أزهـــارهـــا ثمرا غضـــا، وكرمـــا، أعنـــابهـــا عنـــابـــه
مـــا أحَيْلى هـــورهـــا، مـــا أحيلى مجتنـــاهـــا، ومـــا احيلى شرابـــه

فلنحيي عرش المثنى، سليـل الشم، من عـــاشـوا للفخـــار الـــذُؤابـــه
من فـــدى العرش في إبـــاء، وصـــان الـوطن الغـــالي واسترد ترابـــه
يـــا مليكي : حققت ـ واللـه ـ مـا تـزهـو بـه الـدنيـا : رفعـة ومهـابـه
ولقـــد عشت للعظـــائم بشرى وأمـــارات دعـوة مستجـــابـــه
نحن فيهـــا من الهنـــاء نشـــاوى نتســـاقى من الهنـــا أكـوابـــه

☆ ☆ ☆

يـــا مليكي : كـل البشـــائر حفتكم، وحفت عرشـــا أزنتم ركـــابـــه
فبكم تحتفي، وتشـــدو، وتختـــال المغـــاني ممراعـــة مخصـــابـــه
العـــذارى مـزغردات، وأجـواق التهـــاني، أنغـــامهـــا منـــاسبـــه
والنهير الـوسنـــان روقـــه الشـوق، فغنـــاك بـــالخرير انجـــذابـــه
ودُنَـــانـــا : برا، وبحرا، وصحراء، ريـــاض مُخضلـــه خـــلابـــه
يتمـلاك زهرهـــا، وأقـــاحيهـــا، ويهـــديـــك طيرهـــا إطرابـــه
فرح طـــاغ، فليـــدمـــه اللـــه إنعـــامـــا وليـــدم أسبـــابـــه

يـــارعى اللـــه ملكنـــا تـــاج شعب جمـع الشمـل وارتـدى جلبـــابـــه
وليحطـــه بـــاللطف والنصر دومـــا وليكن حصنـــه الحصين حجـــابـــه
وليحـــط عرشـــه العظيم وشبليـــه بسر المعقـــدات المجـــابـــه

فاس : عبد الكريم التواتي



لك الحمد، يا خالقي والثناء
على ما بذلت لنا من عطاء
على بلد طيب ما له
مثيل يدانيه تحت السماء

وشعب أصيل، عريق الجذور
وما زال في عنفوان الشباب
على الأرض أقدامه ثابتات
ولكن هامته في السحاب

على ملك لا ككل الملوك
تقمص أمته منذ كان
فكان لها الروح، والعقل وال
فؤاد، ومقلتها، واللسان

لشعبك عش، يا أعز حبيب
ودم في مقامك ذاك الرفيع

فمجـــدك مجـــد لـــه خـــالـــد
وفي حبـــه لـــك حصن منيـــع

جعلت بـــلادك نـــافـــذة
يرى مـــا بـــداخلهـــا من يشـــاء

وليس يرى غير مـــا يشتهيـــه
الحبيب، ويكرهـــه ذو العـــداء

ســـلام، وأمن، وحريـــة
يـــؤازرهـــا عمـــل وبنـــاء

وحب يـــوحـــدنـــا حـــول عرش
نريـــد الخلـــود لـــه والبقـــاء

إذا هـــاب يقظـــة شعب زعيم
وأسلمـــه لسبـــات عميـــق

فـــأنت تنـــاديـــه، والليـــل داج،
وتـــذكي حمـــاستـــه ليفيـــق

قـــد اقترن اســـك في ذاكرات
الشعـــوب بفعـــل عظيم جليـــل

بـــأسطـــورة حيـــة لم يروا
مثيـــلاتهـــا منـــذ عهـــد طـــويـــل

وترنـــو إليـــك الملـــوك العظـــام
وتحســـدنـــا بـــك كـــل الشعـــوب

يريـــدون إدراك سر عـــلاك
وكيف ملكت جميـــع القلـــوب

أحمد عبد السلام البقالي

العرش المغربي المجيد يتحدث

أصدق المشاعر في أروع ذكرى

تخليداً لمرور ألف ومائتي عام على تأسيس العرش المغربي

للشاعر محمد بن محمد العلمي

دولة المغرب الأبي الموحد، ... دولة ذكرها المجيد مخلد :
منذ فجر التاريخ كان وما زا ... ل صداها في نخوة يتردد.
ولـ(ـإدريس) طابع في رباها، ... ليس يبلى، إشعاعه يتجدد[1]
فبـ(ـزرهون) (فاس) طبعا تباهت : ... ذلك الصرح بالرعاية ما انهد !
إنه العرش ها هنا قد تحدى ... كل صعب، وفي القلوب توطد،
وحضور الإسلام فيه، ومنه، ... وإليه، سر عظيم تأكد.
منذ ألف من السنين، وقرنيـ ... ـن، تجلى صبح الضياء المؤبد[2]
فمعاني التوحيد في العرش والشعـ ... ـب، بها جوهر الضمير تشهد !
وحمانا ببيعة وولاء، ... فيه تسمو عقيدة تتخلد
إنه الإرث من مُلوك عظام، ... منهمو ذلك البقاء تولد
والعريق الأصيل موصول عهد. ... فهو في الصون والعناية مهتد،
وهو يبني صروح مجد جديد، ... فوق مجد، منذ القديم، مشيد !

---

1) المقصود المولى إدريس الفاتح الأكبر، دفين مدينة زرهون. أما ولده المولى ادريس الأزهر، فهو مؤسس مدينة فاس الفيحاء، وفيها يوجد ضريحه. وكل الصالحات في هذا البلد الأمين، مرقومة في صحيفتيهما ـ رضي الله عنهما وأرضاهما.

2) إشارة إلى مضي اثني عشر قرنا على ميلاد الدولة الإسلامية بالمغرب.

حبـــــذا السير للرعيـــــــة والرا عي على ذلـــك الطريـــق المعبـــد !

هـــا هـــو العيـــد، عيـــد عرش كريم فيـــه للفن رايـــة المجـــد تعقـــد،

أين مني (الغريض)، بـل أين (زريـــا ب) المجلّي و(الموصلي) و(معبد) ؟![3]

كلهم يعجــــزون عمـــــا بقلبي من غنــــاء، مثيلـــه مـــا تردد !

يتمنى الميت انبعـــاثـــا ليحيـــا فرحـة العيـد في البلاد، ويشهـد !

برحيـــق لقـــد روى العرش قلبي، فـانتشى في الـذكرى حبورا، وعربـد،

ولســـان الشعـور من أعمـق الأعـ ـمـاق غنى، وبـالمحبـة زغرد !

ليس أشهى إلى النفـوس من الصـد ق، وأسمى المـآثر اليـوم تسرد !

فعلى قمـة المعـــالي سمعنـــا (الـ ـحسن) الفـذ بـالقريحـة أنشـد :

☆ ☆ ☆

إنني في طليعـــة الشعب احيـــا مسلمـا، مـؤمنـا بـدين (محمـد) !

ولخير البـــلاد، قـــولا وفعــلا، مستمر الإقـدام، دومـا مجنـد !

مسلم، مخلص، صريـــح، غيـــور، برسـول السلام جـدي، أسعـد

والحـوار البنـــاء، أهفـو إليـــه، فـالحـوار الحكيم أجـدى وأفيـد

والملـوك العظــام منهم جـذوري : رمـزهم في الأوطـان مجـد وسؤدد

تلكم الــدوحـة الجليلـة تعلـو، ولنـا في ظـلالهـا خير مرقـد

كـل حين تـؤتي الثمــار، ويـزدا د على النـاس خيرهـا، ليس يرتـد

إنني في حقيقتي (الحسن الثــا ني)، سليـل الأبطـال، وابن (محمـد) :

(خـامس) أول الأبـــاة اقتـــدارا، فهـو في جـوهر الإمـامـة أوحـد !

في الظـلام الكثيف، والمحنـة الكبـ ـرى، لقـد كـان مشعـلا يتـوقـد

جعـل اللـه وحـده الحصن لمـا أزبـد المعتـدي عليـه وأرعـد !

شرف الحر فـوق كـل المـزايـا، ليس للبـذل في الكرامـة من حـد !

لم يخن عهـده، فحـاشـا وكـلا ! إذ بـه الغـدر والضـلال تبـدد !

ولقـــد عـــاد للبـلاد عـزيـزا، بعـــد مـــا ذاق محنـــة، وتشرد

3) الغريض، وزرياب، والموصلي، ومعبد، كلهم في أشهر مشاهير المطربين العرب، المبرزين في الغناء والإيقاع والترنيم.

وهب الكل للبلاد فداء، ... فأتاه التوفيق لما تجرد !
فلقد كان للمحبة رمزا : ... فرقدا ضمه من العشق فرقد،
فالحبيب المحبوب في القمر العا ... لي لقد كان رسمه يتأكد !
لم يغب، فهو في الضمير مقيم، ... بل له في الفردوس أروع مشهد !
فبه يهتف الجنان ويشدو، ... وبه منطق المكارم غرد
والدي في بطولة وجهاد، ... وثبات على المبادئ، مفرد
ولقد أصبح الطبيب المداوي، ... فلكم عالج الجراح، وضمد !
من أتى باستقلالنا، وهدانا، ... وأنار البلاد حقا، ووحد ؟!
فالأصيل العريق أجدر من قد ... حفظ الأصل، واستفاد، وجدد،
وعلى نهجه أسير مطيعا : ... حبذا من بنى، وقاد، وشيد !
في سحيق المنفى حفظت عهودي، ... فسمت قيمتي، ومجدي تأكد.
إنني الحر، وابن حر كريم، ... فالأبي الشجاع غير مقيد.
لم يخب في الطلاب صاحب حق، ... فالإله العظيم للحق أيد،
ماجد وابن ماجد، لا يحابي، ... فهو بالصدق دائما يتزود،
وإلى تلكم الأمانة نفسي، ... في وفاء، إيمانها قد توطد.
وعلى تلكم الطريق أوالي ... خطواتي بهمة لا تحدد !
فيك يا شعب جوهري، ورصيدي، ... وثرياي... كم أنا بك أسعد !
منك روحي تلامس النور لما ... قمت بالأمر في الطريق الممهد.
قدوتي في الكفاح أعظم شيخ، ... ذي النضال الصعب الطويل المسدد،
وورثت المجد العريق من النبـ ... ـع، فمنه كواثري ليس تنفد !
أشكر الله إذ حباني انتماء ... لأب مؤمن، زعيم، ممجد،
فأنا في البلاد أحرس عزا ... هو حقا مدى الزمان مؤبد !
مغربي أنا، أصول بأصلي، ... أرفع الصرح فوق مجد مشيد
ونظامي دستوري ملكي، ... يتوخى إدراك ما هو أجود
فالمسيرات تلك حسا ومعنى، ... هي عندي مشهودة تتعدد
مالكي في مذهبي، وسلوكي ... دحض الملحدين طرا وفند

وإلى التضحيـــات أمضي سريعـــا، مستميتـــا في الجهـــد، لا أتردد
دائم الغـوص، شـاسـع الأفـق عنـدي من يقيني بضـاعــة ليس تكسـد
إنمـــا العرش رحمـــة، وامتنـــان، وضمان، فـــلا أحن وأجـــود !
وبـــوعي، بصيرتي في انتبـــاه، كلمـــا أوعـــد العـــدو، وهـــدد
أتحـــدى، والنضـج رمـز التحـــدي، وإلى الحـــق دائمـــا أتجنـــد
لا أمــل المسعى، فـــأشفــع ليلي بنهـــاري، لغـــايتي أتجلـــد
وإلى طفرة النمـــــــاء مسيري في انطـلاق، لـــدولتي أتفقـــد
أرفـــع المستـــوى لشعبي، وأهقـــو لمـزيـــد من الرصيـــد المؤكـــد
لست أنسى فـــلاحتي،، فهي كنـــزي، إن ذاك المردود عنـــدي أزيـــد
كـــل عـــام، بهمتي، ونضـــالي في ربـوع الأوطـان يشمـخ لي سـد !
تلـك (عين العـاطي) عطـاء جزيـل من إلـــه أجرى الميـــاه، وأورد
ومحـــال التعليم يسقي غراســـا، دانيـــات القطـوف، والخير سرمـد
وفنـــون اللقـــاح في كـــل صـوب تحسم الـــداء من كيـــان مهـــدد
إن قلبي غنى لشعبي نشيــــــدا، فلكم أيقـظ الشعـور، وهـــدهـــد !

☆ ☆ ☆

وفـؤاد (البيضـاء) بـــالمسجـــد الأبـــهى، ثنـــاء لمن بنـــاه وشيـــد
مـا عـدا (المسجـد الحرام)، وفي (طيـــبـة)... أمسى مثيلـه ليس يـوجـد !
تلـــك أعجـوبـــة الحضـــارة والمعـــمـــار، فيهـــا ذكر البلاد تخلـــد
نتبـــاهى بـــالاكتتـــاب سراعـــا، إذ بنـــا نخـوة الأكـــارم تعتـــد
هكـــذا نحن دائمـــا في عطـــاء، ولكـــل من دهره مـــا تعـــود !
منـــذ (إدريس)، والمكـــارم تترى، فـــاقرأوهـــا في ألف ألف مجلـــد !!!
ويعيـد التـاريـخ من روحـه العمـــق... إلينـا تلـك الحقيقـة تسنـد !
(تلـــك آثـــارنـــا تـــدل علينـــا)، عـاد منها التجديـد، والعود أحمـد !
بلـــدي، المغرب العظيم المفـــدى، بـــالمـزايـــا من عرشـــه قـــد تفرد !

☆ ☆ ☆

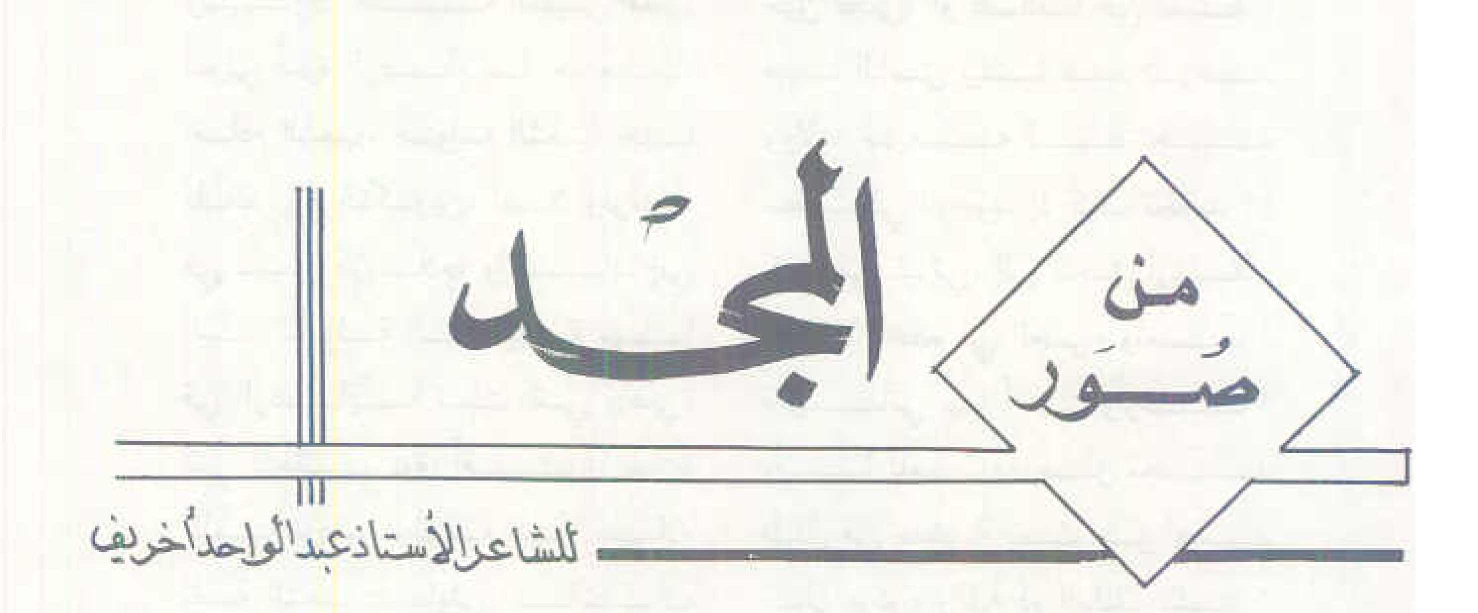
(لجنة القدس) تفتدي (المسجد الأقـ ـصى)، وتبكي نزيفه كلما اشتد !
و(فلسطين) دولـة، دينها الإسـ ـلام طبعا، فلا، ولن تتهود !
ويمينا بالله، إنا نصلي به حتما... ما للكرامات من عد !

☆☆☆

أحمد الله، إذ أنا مغربي، في بلاد التمكين والعز أولد.
عشت في حرمة العرين سعيدا، أبذل الجهد، في الطريق المعبد.
أنا من أسرتي الكبيرة فرد، ذو طموح إلى العلا يتجدد.
مع شعبي أعيش، أحنو عليه، إذ له في الفؤاد أحسن مقعد.
ذاك ديني، ومذهبي، وشعوري : إن حبي للشعب رمز مخلد !
فأنا في المنفى بكيت عليه، ولدى عودتي، عملت ليسعد !
فبلادي همي، وتوأم روحي، أنا في صونها الحسام المهند !
وملوكي همو رعاياي حقا، بهمو للفخار أسمو وأصعد !
وعليهم لراية العز ظل وارف، في الأمان والأمن يمتد :
فوق هام الجوزاء يخفق دوما علم (المغرب) المجيد المؤيد !
أنا عبد لأمتي، أحمد اللـ ـه عليها، ومالك الملك يحمد !
وطني فضله علي عظيم : ذلك الفضل في الصميم يؤيد !
وطني، شعبي الكريم، شعاري في دعائي للرب من هو يعبد،
في قلوب من الرعية قلبي، دائم الوصل، حاضر، يتوحد !
وطني، همي الكبير، عليه أملي كله، مدى الدهر يعقد !
فأنا منه، في الوفاء إليه، ذو أياد، كما يروم ويعهد !
قمة، إثر قمة، إثر أخرى، لبلادي، فيها العلا يتشيد،
تبعث الدفء والرجاء كثيرا، فلكم حلت العسير المعقد !
ولكم ردت الصواب لمن زا غ، وأبدى عصيانه، وتمرد !
هذه أمة لقد سدد اللـ ـه إماما لأمرها يتقلد،
فاسمه رصعته نورا وعطرا، واسمها فيه من لجين وعسجد !
في صميم الأعماق تلك المعاني، صادت الغائص الذي يتصيد !

وسيوف اللـه المهيمن أمضى،   حين تجلى، أو عندما هي تغمد !
أسرتي أسرة الرعايا جميعا،   فبها الشمل بيننا قد توحد
خادم الشعب، حوله الشعب، حبا   وولاء، جميعه قد تجند
تلك روح التكوين، أصلا وفرعا،   سطعت في الوجود، إذ كيف تجحد ؟!
في سبيل الإسلام، والضاد، إني   كنت في غيرتي، إلى الحق أرشد :
أنبذ اللوثة الدخيلة مهما   بثها الخصم في الحمى، وتعمد !
في الرعايا نسيت نفسي وأهلي،   فحياتي بهم، أعز وأرغد !
إنني للحقوق أقوى ضمان،   وأنا للعهود رمز مجسد
كلما أوصد الدخيل سبيلا،   ظل في محنة بما هو أوصد
ثقة الشعب غايتي، بالتفاف   حول عرشي، والله ذو الملك يشهد !
وعلى هذه المحبة إني   في ثراء من الفضائل، أحسد !
لكن اللـه في الحياة ملاذي،   وهو حسبي من كل من جار، أو، صد
إن بابي المفتوح كان وما زا   ل لنيل الرغاب يرجى ويقصد
وإلى دولتي الوجود جميعا   في وثوق، فؤاده يتودد
ويدي في يد الرعايا جميعا،   ويد اللـه دائما نعمت اليد !
في اتحاد على المصالح نمضي   للمزايا طبعا، وما هو أرشد.
مع شعبي أنا سعيد دواما،   والأصيل الوفي للشعب، يسعد !
فدمي، صحتي، وروحي، وعمري   لبلادي أزكى وأقدس معبد !
فبلادي في قمة المجد كانت   خير ما أبدع الإلـه وأوجد :
عرشها وحد التراب، وأرسى   أسس المجد، نعم ما قد تعهد !
فهي تاجي، وحجتي، ويقيني،   وهي عقد من اللالي، منضد !
منطقي أنا مع النفس، أرعى   حرمة للحمى، بجفن مسهد،
وسفير لأمتي، في بروري   بيميني، والعهد عهد تجدد !
إذ أروم المزيد من فضل ربي،   فطموحي فوق الثريا وأبعد !

محمد بن محمد العلمي



العيدُ أقبل .والأفراح تزدحم … تتلو محاسنها الأشعار والكلم
وجوهها ضاحكات بالمنى جذلا … يرف فوق سناها النبل والكرم
والشعب يلهج بالذكرى ويحضنها … بالود يخفق إخلاصا ويبتسم
والعرش في مجده يختال مكتسيا … من المفاخر ما تعنو له القمم
والجو طلق ووجه الشمس ألبسه … نورا محال ترى في رسمه ظلم
نشوان يرفل في لألائه ويري … وجه البسيطة حبا ظل يرتسم
والأرض في حلل مخضرة كشفت … مفاتنا حار فيها العقل والحلم
يد الربيع عليها أغدقت نعما … جناتها بجمال الخلد تتسم
والناس بين نعيم الأرض مبتهجا … وصنوه من سماء حسنها عمم
وبهجة العرش في ذكراه مادحة … لم يشهدوا فرحا مثل الذي غَنِمُوا
في طلعة العيد لم تغمر مشاعرهم … إلا وضاءتَهُ والمجد والشيم
قد ترجموا الحب آيات معبرة … هيهات يسمعها من في الدنا حكموا
شتان مابين حكم قد تعشقه … شعب وحكم سداه الظلم والنقم
إذا الشعوب أحبّت حكم قادتها … فذاك عنوان توفيقِ لمن فَهِموا

☆ ☆ ☆

أهـل عيـدك فـاهتـاجت عـواطفنـا يـزفهـا بـالـولاء النـاس كلهم
سكنت قلبهم إذ لا يـدق سـوى بـاسم عـلاه البهـا، بـل أنت قلبهم
مـولاي يـاحسن الـدنيـا وسيـدهـا وعصمـة الـدين لم تهتـك لـه حرم
مـاذا أقـول وقـد أثنى الـزمـان على فعـالـك الغر ممـا ليس ينكتم ؟!
وكيف أمـدحهـا وهي شمس ضحى تثنى عليهـا النهى والعرب والعجم ؟!
بـالعلم تبني العـلا للشعب في وطن وأمـة تتمنى حظهـا الأُمم
شيـدت من أجلـه في كـل نـاحيـة صرحـا مهـابتُـه في النفس تحتـدم
والقـاصـدون حمـاه في ضمائرهم حشـد من العـزم، لا يـأس ولا سـأم
سيصبـح الـوطن الغـالي بهم علمـا على مراقي العـلا يجري لـه الـديم
ومغرب (الحسن الثـاني) ربيب عـلا أنى التفت ففيمـا تبصر العظم
هـاذي الفـلاحـة في ضـاحي مزارعهـا أعطـافهـا من حيـاض الخصب تغتنم
رفعت من أجلهـا في غير مـاجهـة سـدا على سقيـه الأرزاق تنقسم
والـزارعـون غـدوا في خير عـافيـة لمـا ضمنت مـدى الأيـام عيشهم
والشعب وهـو أمـام الخير منهمراً لا يشتكي مثـل من للخير قـد عـدمـوا
أمـا الصنـاعـة وهي اليـوم منطلـق إلى السمو لـدى من في الـدنـا عظمـوا
صروحهـا شـامخـات بيننـا ومتى ترد إضـافـة صرح يسرع الخـدم
العـاملـون بهـا تهمي سـواعـدهم لا يعتري عـزمهم هم ولا سقم
حقـوقهم صـانهـا حـامي مكـاسبهم والحـق - إن صِينَ - لا ينتـابـه ألم
كـل بحمـدك لم يفتـأ يردده وردا تعشقـه قلب لـه وفم
إذا الفـلاحـة سـادت والصنـاعـة قـا مت في نهـوض رست لـلأُمـة الـدعم
ركنـان لم تـدرك الـدنيـا سعـادتهـا إلا إذا اجتمعـا فـالتفت النعم

☆ ☆ ☆

ضمت جـزءا بكى من بعـده أسفـا وعـاث فيـه دخيـل الـدار يقتحم
«صحراؤنـا» مـذ رنت عين الغزال بهـا شـدا بتـوحيـدهـا الأبطـال والبُهَمَ
وكيف يفصـل عضـو ظـل ملتحمـا بجسمه مذ سرى في الجسم منـه دم ؟!
هيهـات فـالـوحـدة الكبرى محصنـة العرش يحضنهـا والشعب والهمم
وكـل أهـل الصحـاري مـومنـون بهـا سقوا عقيـدتهـا من قبـل مـا فطمـوا
وإن دعـاهم لـلاستفتـاء داعيهم هـداهم دونمـا شـك ضير هم

وهـل تحن لغير الأم فلـذتهـا ... وقلبهـا بهـوى الإخـلاص مضطرم ؟
فـلا جـواب سـوى أنـا مغـاربـة ... في سلـك «مغربنـا» نحيـا وننتظم
والعـاهـل «الحسن الثـاني» لنـا ملـك ... والخـافـق الأحمر الـزاهي لنـا علم
وإنمـا ذاك تـأكيـد وبرهنـة ... لبعض من أخطـأوا التقـدير أو وهمـوا

☆ ☆ ☆

بنيت للـه بيتـا شـامخـا رسخت ... أسـاسـه وهـوى عن سمكـه الرخم
سما بهمتـك القعسـاء سـامقـه ... وامتـد كـالآمـل المنشـود يعتـزم
يكـاد يلمس في بـاب السمـا ملكـا ... يرنـو إليـه وفي تسبيحـه نغم
يرى منـارتـه الشمـاء لامعـة ... وفـوقهـا من جـلال اللـه منتظم
تشع هـديـا ونـورا من وضـاءتها ... ومن مشـارقهـا التـأذين ينسجم
«اللـه أكبر» صـوت الحـق منطلـق ... في البر والبحر لاتبقى بـه ظلم
فسـاكن البر في «البيضـاء» مبتهـج ... وراكب البحر في «البيضـاء» معتصم
كـلاهمـا في أمـان لايـزيـغ بـه ... هـداهمـا ودليـل الرشـد مبتسم
ومـا بنى ملـك بيتـا كسيـدهم ... وشعبـه حيث نـادى فهـو ملتحم
ولم يفـق مسجـد «البيضـاء» منـزلـة ... سوى «الشريفين» حيث الوحي والحرم

☆ ☆ ☆

يـاصـانع الـوحـدة الصغرى بمغربنـا ... وبـاني الـوحـدة الكبرى لهـا شمم
«المغرب العربي» اليـوم محتفـل ... بـوحـدة أنت فيهـا الركن والـدِّعم
كم قمت ترفعهـا والغير ينسفهـا ... حتى دعـاه ـ ولـو بعـد السنين ـ دم
والفضـل فضلـك في لم الشتـات ففي ... رؤاك مـا هـو حـق ليس ينقسم
فسر بنـا نحـو غـالي المجـد يرفعنـا ... يحفـك النصر والتـوفيـق والعظم
فـأنت قرة عين الشعب أجمعـه ... والشعب أوفى بمـا تقضي بـه الـذمم
وعـاش شبلـك في عـز وتكرمـة ... وصنـوه، وزهـا في أفقنـا العلم

تطوان : عبد الواحد أخريف

في مهرجان المغرب العربي:

وحدوا الصف في سبيل سلام

للشاعر الأستاذ عثمان جوريو

صوت المغرب، في القطر التونسي الشقيق، وفي رحاب الجامعة التونسية، يربط الماضي بالحاضر، ويهتف بوحدة أقطار المغرب العربي تحت ظل «حسن» المكرمات، وصانع الأمجاد، وسليل الأكارم العظماء، في دولة العز والنصر... يوم تكريم النبوغ المغربي في شخص إحدى الطالبات التي تابعت دراستها العليا في تونس، ونالت الدكتورة بميزة الشرف من كلية الصيدلة، وطب الأسنان في «موناستير»، وترشحت لجائزة رئيس الدولة.

لقد ألقيت هذه القصيدة، خلال الشهر الماضي، وبعد انتهاء مناقشة الأطروحة، وفي مهرجان ضخم ضم صفوة مختارة من كبار علماء تونس والمغرب وموظفي سفارتنا في تونس كان لها وقعها الحميد، وأثرها في نفوس إخواننا التونسيين.

حي شعب الجهاد دار «وفاء» وعهودا بتونس الخضراء
وأسود الشرى دعاة نهوض وحماة الحما وجند الفداء
وشيوخا قد بلغوا أمر رب وأعدوا طلائع الحنفاء
ورجالا قد أخلصوا واستماتوا وأمدوا بلادهم بعطاء

وشبـــابـــا تشبعـوا بمـــزايــــا ... وبهـــــــدي القران والأنبيـــــاء
أنجبت «ثـــامرا» وبرا «حبيبـــا» ... و«الرويسي» و«منجي» الرفقــــاء
وهـــدت «زين العـابـــدين» وشهمـــا ... لا ستـــلام الـــزمــــام والإرضــــاء
وهـــــداة تـــألقـــوا في الأعــــالي ... وبـــــدورا في الليلـــــة الظلمـــــاء
خططـــوا بـــالقنـــا مـــلاحم نصر ... خلــــدوهــــا بـــــأحرف حمراء

☆ ☆ ☆

«عقبـــة الفـــاتـــح» العظيم أتـــاهـــا ... وافـــــداً من مشـــــارف الصحراء
يحمـــل الحـــق مـــؤمنـــا بـــانتصـــار ... و«كتـــاب الهـــدى» ووحي السمـــاء
ينشر الـــدين بـــاقتنــــاع ورفـــق ... وبيـــــان الصحـــابـــة الصلحـــاء
ويبث الســـلام في كـــل صقـــع ... وتعــــــاليم سنــــــــة غراء

☆ ☆ ☆

ســـل ربى «القيروان» عن معلمـــات ... قـــد بنـــاهـــا مصممـــا في البنـــاء
وحصـــون قـــد خططت لجهـــاد ... وثغـــــور تحصنت لبقـــــاء
و«بيـــوت للـــدين» تـــزخر علمـــا ... و«منـــار» وجـــامـع الهيجـــاء
و«محـــــاريب» طهرت لصـــلاة ... ولنشر «الشريعـــــة السمحــــاء»
وأمـــدت «إفريقيـــا» بسنـــاهـــا ... وأفـــاضت منـــاهـلا بسخـــاء

☆ ☆ ☆

واقتفى إثره سليـــــل أبـــــاة ... و«زيـــــاد الأغـــــالب» البســـلاء
جهـــز الجيش في سبيـــل انعتـــاق ... وأســـــاطيـــل نصرة وافتـــــداء
تمخراليم في امتـــــداد وجـــزر ... تمحـــق الكفر في الـــوغى والعراء
وعلى متنهـــا جنـــود وأســـد ... وصقـــــور تحـــوم في الأجـــواء
وأهـــازيجهـــا انتصـــار وفتح ... وبنـــود مخضـــوبـــة بـــدمـــاء

☆ ☆ ☆

وازدهى «بـــالعبيــــديين» مـــزار ... وقرار ومـــوكب الخلفـــــاء
أسســـوا ملكهم بفضـــل دعـــاة ... أخلصـــوا للســـلالــــة «الـــزهراء»
وأحلـــوا رعيـــة نـــاصرتهم ... في مقـــــام التقـــــدير والإطراء

جهـزوا «جـوهرا» فمهـــد «مصرا» لمعـــز وفـــــاطمي الشرفـــــاء
واعتلى عرشهـــا بـــدعم وعهـــد وبتــــأييـــد إخــوة نبــلاء
وانبرى «عبــد المـؤمن بن علي» رجـل الـدين والحجـا والـذكـاء
وبنى و«حـــــدة» البـلاد بعـزم وبحــزم وقـــدرة ودهـــاء
وغـــدا ينشر المبـــادئ حقـــا وأصــول العقيـــدة البيضـــاء
ورأى الشعب مـــا ارتضى من نظـام وأمـــــان ووفرة النعمـــــاء
وستبقى «مهـــديـــة» رمـز عـز وفخـــار «ووحـــدة» وانتمـــاء

☆ ☆ ☆

وتـولى الملـوك «أبنـــاء حفص» وولاة ومنجبـــــــوا الأمراء
وأبـــانـوا كفـــايـــة واقتـــدارا ولقـــوا في التسيير كـــل عنـــاء
وسعـوا في تقـــدم وازدهـــــار وافتخـــار بمحتـــد وازدهـــاء
واستجـــدوا مـــآثرا وأقـــامـوا منشـــآت حـــديثـــة الإنشـــاء

☆ ☆ ☆

وبـدا «جـامع الزيتـونة» صرحـا أبـــديـــا بقمـــة العليـــاء
يبعث النـور في ربـوع تنـــاءت ويـذيـع التـوحيـد في الأرجـاء
أمـه الـوافـدون من كـل صـوب لارتشـــاف من فيضـــه وارتـواء
كم إمـــام مبرز حـــل فيـــه وشيـــوخ وخيرة العلمـــــاء
وزعيم ومصلـــــــــح سلفي وغيـــور وأشجـــع الفقهـــاء
حرروا الفكر من ضـلال وزيـــغ وشكـــوك ونـــزعـــة الأهـــواء
بلغـــوا العلم وهـــو أفضـــل ذخر جردوا السيف في سبيـــل العـــلاء
ولهم في الجهـــاد غر المـزايـــا وصمـــود ونجـــدة الحلفـــاء
وأفـــادوا معـــارفـــا وفنـونـــا أججت ثـورة على الـــدخـــلاء
وأعـــادوا للضـــاد كـل اعتبـــار وأحلـوا مكـــانهـــا في سنـــاء
تحرس النبـع طـــافحـــا بكنـوز وتراث الأعـــــارب العربـــــاء
وتنـــاجي مـــداركـــا وفهـو مـــا وتغـــــذي قرائــــح الشعراء
وتمـــد اللغى بمصطلحــــات يقتضيهـــا تقـــدم الأشيـــاء

وتوالى تواطؤ وائتمار ... واحتلال مقنع باحتماء
واضطهاد الأحرار في كل منحى ... وانتهاك السيادة القعساء
وعثا الخصم في البلاد فسادا ... وأباح الحما وأرض الإباء
وأتت نهضة وهب شباب ... لانتزاع الحقوق والإبلاء
وتوالت حوادث وضحايا ... برصاص وغارة الأعداء
واغتيال مبيت لرجال ... و«لحشاد» ثورة النقباء
وتجلى تضامن واحتجاج ... وانطلاق چلمغارب القرباء»
وتفانت قيادة وتحدت ... واستقلت بوحدة الآراء
وتولى التدبير حير «مليك» ... وهمام وأصدق النصحاء
و«حبيب» البلاد حامي حماها ... وفتاها وحامل الأعباء
وحذاهم «عباس» قطر «شقيق» ... في انضمام لقادة عمداء
وانتحى الشعب للخلاص سبيلا ... وأذاق الطغاة شر بلاء
وانثنى ظافرا وحرا طليقا ... بنضال الأبطال والشهداء
ومضى ينشد الخلود ويبني ... بتدابير ساسة خبراء
في مجال التعليم حقق فوزا ... وبلوغ الأهداف في الإحصاء
وأعد الشباب عدة جيل ... وأساس انبعاثه وارتقاء
واعتنى في تخطيطه بانتعاش ... واقتصاد وثروة ونماء
ومغاني سياحة طبعته ... ومرامي مركب الإثراء
وبغرس مبارك وبري ... وبزرع ومورد الإغناء
وسدود تنساب عبر حقول ... وزياتين واحة غناء
وأحالت «مفاعلا نوويا» ... وأثارت «مولد الكهرباء»
وبمد الجسور فوق هضاب ... وبمسح مركز وبناء
وبتصنيع آلة وبخار ... وبتفجير طاقة معطاء

☆ ☆ ☆

وازدهت في أرجائه «جامعات» ... حفلت بالتبليغ والإلقاء
وبحذق اللغات قصد انفتاح ... وبتخريج نخبة الأدباء
وأساة تخصصوا وأفادوا ... وأساتيذ ذرة أكفاء

و«بجبر» يروض الـــذهن دومـــا و«نظـــام الأفـــلاك» «والأنـــواء»
و«بحـــاسـوب» ومضـــة «وبعقـل» «إلكتروني» السنـــا والسنـــاء
وببحث معمــــــق وبفكر وبطب جراحي ودواء
وحقـــوق تفرعت وفنـــون وتجـــاريب مخبر كيميـــاء
و«علـوم في الكـون» هـزت عقـولا «لاختراق العـلا» وكشف «الفضـــاء»

☆ ☆ ☆

و«منـــاستير» أسهمت وهي ثغر لجهـــاد ومعقـل الـــزعمـــاء
وتعـــالت بهـــا معـــاهـــد علم وينـــابيـع حكمـــة واهتـــداء
فجرت للعفـــاة وردا معينـــا وأتـــاحت مراتـــع الإيـــواء
كرعت من زلالـــه ملهمـــات ووفـــاء كريمـــة الأوفيـــاء
بـذلت في التحصيـل أقصى جهـود واستعـــدت بعـزمـــة ومضـــاء
وانتقت من حـــلاه أوفى نصيب غمر القلب مشرقـــا بضيـــاء
شحـــذت فكرهـــا ببحث ودرس وبفصحى اللغـــات والإيحـــاء
وبمـــا أنتـج الرواد بنـوهـــا من بيـــان وعمـــدة البلغـــاء
وروت شعر عنتر وزهير وجميـل والظبيـــة الخنســـاء

☆ ☆ ☆

معهـــد الخـــامس المحرر شعبـــا قـــد هـــداهـــا إلى الصراط السواء
وتحلت بحشمـــة وبـــدين وبـــأخـلاق فضليـــات النســـاء
وبحرص ورحلـــة واغتراب ونـــزوح عن مـــوطن وانتحـــاء
وأعـــدت إجـــازة أهلتهـــا لمقـــام التبريـــز والإعـــلاء
وأبـــانت تفـوقـــا واقتـــدارا ونجـــاحـــا وميـــزة النبغـــاء
واستحقت تهـــانئـــا غمرتهـــا وثنـــاء الـــدكـــاتر الحكمـــاء
وستبقى وفيـــة لبـــلاد عـــززتهـــا وأمعنت في الثـــواء
ولأعـــلام أمـــة أنجبـــوهـــا وأشـــادت بهم صبـــاح مســـاء
و«بنـات الرضـا» وإخـوان صـدق ولأهـــل وجيـــزة كرمـــاء
تجعـل الحب والـوفـــاء شعـــارا لرفـــاق وإخـــوة أصفيـــاء



الخميس 9 يونيو 1988 م - صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني يستقبل فخامة الرئيس زين العابدين بن علي رئيس الجمهورية التونسية.

بين أقطـــــار مغرب عربي — وربـــاط وتـــونس الفيحـــاء
و«ملوك» قـد أخلصـوا في «اتحـاد» — وائتـلاف و«ســادة رؤســاء»
تحت ظـل الإمـام قـائـد شعب — للمعـــالي ومرتقى الجـــوزاء
«حسن» المكرمـــات رب الأيـــادي — وسليـــل الأكـــارم العظمـــاء
وحمى «زين العـــابـــدين علي» — و«رئيس» ورائـــــد «النصراء»
واهتمامـات الشاذلي ابن جـديـد — رائب الصـــدع كـــاشف البلـــواء
ورجـــال بنـوا كيـــان شعـوب — وصـــدور أمـــاجـــد وزراء
وحـــدوا الصف في سبيـل سـلام — ووئـــام ونصرة وإخـــاء
خـــدمـــوا الشعب واثقين بنصر — حققـــوا المبتغى وكـــل رجـــاء
وفر اللـــه جمعهم في سمـــو — وتـــوالت أمجـــادهم في هنـــاء

الرباط : عثمان جوريو

رموز عيد العرش

للشاعر المدني الحمراوي

أمير المـــومنين لـــك الـــولاء — كما ترضى بـــه، ولـــك الـــوفـــاء
وعرشـــك في سعـــود من صعـــود — تحف بـــه المهـــابـــة والبهـــاء
لـــك البشرى تحيي بـــالتهـــاني — وتحمـــد مـــا حبتـــك بـــه السماء
إذا الأعيـــاد عـــادت بـــالأمـــاني — فـــأنت السر فيهـــا والرُّواء
فعش مـــولاي في عـــز منيـــع — ومتـــع نـــاظريـــك كما تشـــاء
تعـــاين مـــا غرستـــه قـــد تسـامى — وفـــاض على جـــوانبـــه النماء
وطـــاب العيش، وابتهجت نفـــوس — بعهـــدك حين عم بـــه الرخـــاء
ومـــد الأمن ظلـــه، واستقرت — لـــوحـــدتنـــا الـــدعـــائم والبنـــاء
وردد مـــدحـــك الأحلى قريض — ووقعـــه على الـــوتر الغنـــاء
مـــزايـــا مشرقـــات قـــد أتـــاحت — لعرشـــك مـــا بـــه جـــل الثنـــاء
وقـــدرك سيـــدي أعلى وأغلى — فمن رب الأنـــام لـــك الحبـــاء
بـــه قـــد صرت فردا بـــل صفيـــا — تصـــاحبـــك العنـــايـــة والرضـــاء
وتـــزدهر المعـــاهـــد والنـــوادي — بفضـــل منـــك ليس لـــه كفـــاء
لقـــد أتقنت حين صنعت مجـــدا — تحـــدى من تملكـــه الجفـــاء

وعيـــد العرش أنغـــام حِســـان وآمـــال محببـــة وضـــاء
لـــه في كل جـانحـــة خبـايـــا وفيض ليس يحجبـــه غطـــاء
وشـائجـــه بعرشـــك عـالقـــات ومنـــه لشعبـــك الحر انتشـــاء
إذا بـــزغت بشـــائره قرأنـــا كتـــاب الحب يجلـــوه الصفـــاء
ورن هـــزاز مجـــدك في سرور يمـــازج يـومنـــا فيـــه المســـاء
تطـالعنـــا مـلاحم شـاخصـــات وحلم لا يكفكفـــه انتهـــاء
فيـــاعيـــد المـــآثر والأمـــاني ويـــابشرى بهـــا صـح الرجـــاء
لـــك الإجـــلال من شعب وفي لـــه في ظـل رايتـــك انضـواء
ورمـزك في حنـــايـــاه انطبـــاع بفخر ليس يعروه انطـــــــواء
تهنـــأ يـــاحبيب الشعب واسلم فـــأنت الحـــظ كلـــه والعطـــاء
وراقت في بنيـــك لـــك الأمـــاني وحـــالف مـــا تـــدبره القضـــاء
لـــك النصر المـــؤزر والتهـــاني معطرة يمـــازجهـــا ولاء

☆ ☆ ☆

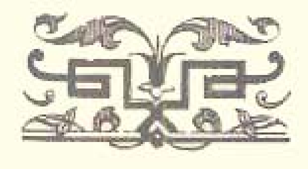
أمير المـــومنين بـــذلت سعيـــا كما نرضى وقـــد برح الخفـــاء
نصحت العرب تبغيهم وفـــاقـــا فبـــان الحـــق، وارتفـــع المراء
ولكن القلـــوب بهـــا شجـــون وفيـــك ومنـــك للـــداء الـــدواء
وحسبـــك مـــا بـــذلتـــه من جهـود بهـــا تـــاريخـــك الأسمى يضـــاء
سلكت بيعرب نهجـــا قـــويـــا وقـــد أودى بـــوحـــدتهم عـــداء
وصهيـــون البغيض يجر ذيـــلا وتقتلهم يـــداه، ولا يُســـاء
وفي القـــدس الشريف لـــه مخـــاز كأنَّ وبـــالهـــا الأعمى وبـــاء
إذا الإخـــوان فرقهم شقـــاق فـــلا تعجب إذا انتكس اللـــواء
وبـــات عـــدوهم ذئبـــا وصـــاروا كان جمـــوعهم نعم وشـــاء
ولكن العـــزيمـــة في بنيهم هتفت بهـــا؛ فجـــد لهـــا مضـــاء

☆ ☆ ☆

سلمت ودام عرشـــك في شمـــوخ ولطف اللـــه حصنـــك والـوقـــاء
وعـــاشت أسرة العرش المفـــدّى تحف بهـــا السعـــادة والعـــلاء
بكم تـــزهى الخـلافـــة في ديـــار بمغربنـــا، وينتشر الضيـــاء
فيـــا آل النبي لكم ولاء نـــدين بعهـــده، ولكم وفـــاء

فـــأنتم في مرابعنـــا أمـــان وأنتم في جـــوانحنـــا شفـــاء
بني الـــزهراء طـــاب بكم مـــديحي ورقّ قريض وزنـــــه والحـــداء
وللحسن المفـــــدَّى كل فضـــل وأنفـــاسي لمهجتـــــه فـــداء
إذا الأمـــــــــلاك ميزهم خبير فهم فـــوق الثرى، ولـــــه السماء
لقـــد كملت خصـــال المجـــد فيـــه فكيف يقـــاس بـــالـــدر الهبـــاء

الرباط المدني الحمراوي





أسس البقاء...

للشاعر الأستاذ عبد اللطيف أحمد خالص

نص القصيدة التي ألقاها الشاعر في الحفل الذي أقامه المجلس العلمي لولاية الرباط سلا بمناسبة عيد العرش المجيد عشية يوم الإثنين 8 رجب 1407 الموافق لـ 9 مارس 1987 بقاعة الحفلات بمقر ولاية الرباط سلا.

أسس البقــــاء وقــوة الأوطــــان
قيم تعــد صيــاصي الأركـــان
والمغرب الأقصى تــوطـــد أمره
بثـلاثـــة هي أكمــل البنيــــان
اللــه والـوطن الــذي ضم شملنـــا
وعنـايــة الملــك العظيم الشـــان
والعرش وحــد صفنــا ومضى بنـــا
نحـو العـلا والمجـد والعـمران
ومحبـــة الأوطــــان أعظم واجب
يقضي ببـــذل الروح والأبـــدان
وتعـــامـــل بين الأهــــالي زاخر
بمكــــارم الأخـلاق والإحســـان

والعلم أضمن للخلـــود لأُمـــــة
تسعى لنيــل المجــد بــالإيمـــان
وأصــالــة الأوطــان في أعيــادهــا
تسمــو بهـــا عن ســـائر البلـــدان

☆ ☆ ☆

للــه عيــد العـرش جــاء مبشــراً
ومعبرا عن فرحـــــة السكـــــان
هـاذي «ربـاط الفـتـح» تـبـدي بهجـة
فرحـــا بعيــــد العرش والسلطـــان
فتـزينت أرجـــاؤهـــــا وتبرجت
وتعطرت كـــالــزهر في البستـــان
وتراقصت طربـــا بعيـــد مليكهـــا
تختـــــــــال في نغم وفي أوزان
فتعـــــالت الأصـــوات بين ملحن
ومردد بـــــــالطر والعيـــــدان
تـشـدو بـمـن غـمـر القـلـوب بحبـه
وتردد الأنغـــــام في الأكـــوان
بـــالأمس كــــانت سهرة فنيــــة
ضمت عيــون الشعر والألحـــــان
واليـوم حفـل بـــالمعــــارف زاهر
يحييــــه أهــل العلم والعرفـــان
فـــالمجلس العلمي هب مخلـــدا
«ذكرى تـدوم على مـدى الأزمـان»
والعـــاملـون بـــه وشيـخ مرتضى
جلـوا بصـــدق مشــاعر ومعـــان
أخــذوا من التعبير أجمـل حلـــة
وتفــوقــوا في الشعر والتبيـــان

فلســانهم شــدو بصـــدق ولائنـــا
لمليكنــا الحسن الهمـــام الثـــاني
هـاذي وفـود الشعب جـاءت خشعـا
لسمـــاع قــول صـــادق رنـــان

☆ ☆ ☆

يـــاخيرة العلمـــــاء إن عهــودكم
مـــأخــوذة من بيعـــة الرضــوان
فـــالمجلس العلمي للعرش حـــارس
كجنــودنـــا في حلبـــة الميـــدان
لا تعجبــوا إن قيــل حقـــا إنكم
حرس الإمـــام وقــوة الأوطـــــان

☆ ☆ ☆

مــولاي هــذا العيــد أضفى بهجــة
للعرش من حب ومن وجــــــدان
فـــانعم، أمير المــومنين، بـــأمـــة
هي في الــوداد مصبـــا متفـــاني
واقبــل رجــاء رعيــة شغفــوا هــوى
وتعلقــوا كـــالعـــاشــق الــولهـــان
واسلم لشعبــك رائـــداً ومــوجهـــا
ومـــلاذه في ســـائر الأحيـــــان
وولي عهــدك للوشــائــج حــافــظ
ومـــوفـــق في السر والإعـــلان
مــولاي هـــاذي بــاقــة من خــالص
زفت إليـــك وســـائر الــولـــدان

الرباط:عبد اللطيف أحمد خالص



من روابي الأطلس الباهي الجمال
من صفاء الجو والماء الزلال
من غناء الطير والسحر الحلال
من ظلال الأرز مياس الدلال
نجمع الألحان للغالي الحسن

من ضفاف النهر من شمس البحور
من رياض الزهر من أغلى العطور
من حمام الدوح يشدو للغدير
من وفاء الشعب والحب الكبير
تنشد الأرواح للشهم الحسن

من مغاني المجد من خضر الهضاب
من مبانينا سمت عند السحاب
ومن الفرحة دقت كل باب
ومن العرفان يهدى للسباب
نرفع الشكران للمولى الحسن

من جهـود الملـــك البـــاني المجيـــد...
وانتعــــاش الأرض مــــابين الســـدود
وسيـــول المــــاء تسقي مـــا نريـــد
وابتســـام الرمـل للفتـح الجـــديـــد
نقطف النغمـــــة للملـــــك الحسن

هـــذه الكثبـــان تـــزهـــو بـــالحسن
بحبيب الشعب نبراس الـــــــوطن
مسهـــــا التعمير فـــاخضرّ الفنن
ومضت تختـــــال في زاهي المنن
تنظم الشعر رقيـــــا متـــــزن

شـــاهـــدت أمتنـــا أغلى لقـــاء
وحـــد الصف ونـــادى بـــالإخـــاء
في فلسطين بـــه فـــاض الرُّجـــاء
فـــارتـــدى أطفـــالهـــا زي الفـــداء
يبـــذلـــون الروح لـــلأقصى ثمن

قمـــة الأقطـــاب في أرض الجـــزائر
حملت للعرب آلاف البشـــــائر
نسمـــات الصلح فـــاحت بـــالعـــواطر
فـــالتقى الأحبـــاب مـع صفـو المشـــاعر
وازدهى الحفـــل بـــأنـــوار الحسن

نحن في ركب مليـــك مـــاجـــد
نقتفي خطـــو الإمـــام الرائـــد
من شيـــوخ وشبـــاب، صـــاعـــد
شيـــدوا أركـــان مجـــد خـــالـــد
فشـــــدا للمغرب الحر الـــزمن

في ربـــوع القــــــدس في مسرى النبي
أهلـــــــه حيـــوا مليـــــــك المغرب
داعمـــــــا أحجـــــــار طفـــــل عربي
لانتـــــــــزاع الحـــــــــق من مغتصب
كلهم يشـــــــدون حبــــــــا للحسن

نرجـــع القـــــدس وفي الأقصى نصلي
بين أحبـــــــاب وخـــــلان وأهــــــــل
ونــــــــذيـــــــق الخصم ذلا أي ذل
وبنـــــود العرب في عــــــز التجلي
رفرفت نشـــوى تنـــــادي بــــــالحسن

يــــاحبيب القـــدس يـــاسبـــط الرسول
يـــــا منـــــارا بيننـــــا يهـــدي العقــول
دم لهــــــذا الشعب جيــــلا بعـــــد جيـــل
تلهم الحيران في كــــــــل جليـــــــل
لتعـــــز الــــــدار في ظـــــل الحسن

شعر : وجيه فهمي صلاح

نظام الحكم الإسلامي المغربي

أساس استقرارنا واستمرارنا

للدكتور يوسف الكتاني

لعل المغرب من بين الدول الإسلامية المتفردة التي استقر نظام الحكم فيها واستمر منذ الفتح الإدريسي الإسلامي من القرن الثاني الهجري إلى اليوم، أي منذ أكثر من اثني عشر قرنا، وهذه مزية خاصة تذكر فتشكر في تاريخنا الحافل المتصل، الذي لم يعرف تحويلا لمنهج الحكم الإسلامي، ولا تغييرا في مساره وسلوكه مما يعتبر مفخرة مغربية وخاصية متفردة.

ويرجع سبب هذا الاستمرار والاستقرار في نظام الحكم المغربي الإسلامي إلى أمرين التزمت بهما القاعدة والقمة وهما :

1) قيام الحكم المغربي على أساس الإسلام.

2) اتخاذ البيعة الإسلامية وسيلة له.

فمنذ أصبح المغرب دولة بما تحمل هذه الكلمة من معنى أي منذ وصول الإمام ادريس بن عبد الله إلى المغرب عبر مصر بعد فراره من حكم العباسيين إثر وقعة «فخ» وتوجهه إلى مدينة «وليلي» مركز قبيلة أوربة أعظم القبائل المغربية وأقواها، ومبادرة زعيمها وأميرها إسحاق الأوربي بالترحيب به وضيافته والتعريف به، وتقديمه لعشيرته وشيعته، ومطالبتهم بالدخول في طاعته وبيعته، منذ هذا التاريخ بالذات عرف المغرب طريقه، واختار مساره الإسلامي الذي ظل عليه وسيبقى فيه بإذن الله ومشيئته.

ذلك أنه من الطبيعي أن يكون تاريخ المغرب امتدادا وجزءا من تاريخ العالم الإسلامي في نظمه وقوانينه وأحكامه، ذلك أن قيام الدولة الإدريسية التي تأسست بربوعه على يد إدريس بن عبد الله سنة 172 هـ، كان امتدادا للحكم الإسلامي والدولة الإسلامية، وكان أساس هذا النظام، نظام البيعة الإسلامية التي تعتبر وسيلة اختيار الخلفاء، وأساس العلاقة بين الحاكم والمحكومين في الدولة الإسلامية، وهو ما بادرت إليه بلادنا عندما أقام بها المولى إدريس دولته، وأرسى قواعدها على الإسلام، حيث اختاره المغاربة أول إمام لدولتهم الجديدة برضى وطواعية واختيار، عن طريق البيعة، هذا النظام الذي داوم المغرب عليه، وجعله أساس حكمه، وقاعدة استمراره، وانفرد من بين الدول الإسلامية بالمحافظة عليه والتشبث به، إذا استمرت البيعة أساس اختيار الملوك المغاربة وخلفائهم وأمرائهم، منذ الدولة الإدريسية إلى اليوم، عبر تاريخنا الطويل، وظل

نظامنا السياسي في الحكم قائما عليها، على مر العصور وتعاقب الدول، الأمر الذي بقي علامة بارزة ومظهرا متميزا.[1]

لقد انعقدت الإمامة في المغرب للمولى إدريس بن عبد الله ببيعة أهل الحل والعقد له، من وجوه الناس وزعمائهم عند دخوله إلى المغرب، ونزوله على إسحاق بن عبد الحميد الأوربي بوليلي واستقراره بها، إذ جمع الأمير الأوربي عشيرته، وعرفهم نسب إدريس وقرابته من رسول الله ﷺ، وقرر لهم فضله ودينه وعلمه، واجتماع خصال الخير فيه.[2]

وقد جرت بينه وبين قبيلته، هذه المحاورة التاريخية التي فضلت إيرادها، فقد قالوا لعبد الحميد جوابا على تعريفه بالمولى إدريس وتقديمه لهم :

الحمد لله الذي أكرمنا وشرفنا بجواره، وهو سيدنا، ونحن العبيد فما تريد منا ؟

قال : تبايعونه.

قالوا : ما منا من يتوقف عن بيعته.

وهكذا بويع للمولى إدريس بن عبد الله إماما ومؤسسا للدولة المغربية الإسلامية، بمدينة وليلي، بتاريخ 4 رمضان سنة 172 هـ، الموافق 789/2/6م، من لدن قبيلة أوربة، على السمع والطاعة، والقيام بأمره، والاقتداء به، في صلواتهم، وغزواتهم، وسائر أحكامهم.[3]

وقد كان جواب المولى ادريس على التزام الأوربيين بيعته وطاعة أمره، قولته المشهورة المتضمنة التزامه سلوك الحق معهم :

«أيها الناس لاتمدن الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا، لاتجدونه عند غيرنا»،[4] ثم توافدت بعد ذلك القبائل المغربية مبايعة طائعة، مثل زناتة والبربر وغيرهما إلى أن استقر له الأمر واستتب سلطانه، وانتشرت رايته في سائر بلاد المغرب الأقصى، التي فتحها، ونشر بها الإسلام، وقضى على اليهودية والنصرانية التي كانت فاشية بها، وظل يجاهد وينظم الدولة ويقيم أسسها، إلى أن استشهد رحمه الله، فبايع المغاربة ولده إدريس وهو ما يزال حملا.[5]

فلما شب بايعوه فسار فيهم بسيرة والده المؤسس - بالرغم من صغر سنه - وأكد في أول خطبة له نفس التزام أبيه متشبثا بخطه وسياسته قائلا :

«أيها الناس إنا وقد ولينا هذا الأمر الذي يضاعف فيه للمحسن الأجر، وعلى المسيء الوزر، ونحن والحمد لله على قصد فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا».[6]

وهكذا استقر نظام الحكم في المغرب منذ عهد الأدارسة على ما خططه إدريس الفاتح، من التمسك بالإسلام الذي هو الحق، واتخاذ البيعة وسيلة اختيار الأئمة والملوك، مما أصبح سمة الحكم في بلادنا إذ قامت البيعة وانحصرت في ثلاثة شروط :

1) البيعة للاضطلاع بأعباء الرعية.

2) الحرص على صيانة الشريعة الإسلامية.

3) الإخلاص لله سرا وعلانية.

أي البيعة على السمع والطاعة والانتظام في سلك الجماعة، وعلى الأمن والأمانة، والعفاف والديانة والعدل، كما جاء في بيعة أهل السودان للمنصور الذهبي.[7]

وعلى ما بايع الرسول عليه السلام، وما بويع عليه، من لدن الصحب والآل، وكذا ما بويع عليه خلفاؤه الراشدون على السمع والطاعة، وملازمة السنة والجماعة، كما جاء في بيعة المولى يزيد بن محمد.[8]

---

1) أنظر في تفصيل الموضوع بحثنا المفصل عن البيعة أساس نظامنا المغربية - ندوة البيعة والخلافة 669/2 - 719.

2) البيان المغرب لابن عذاري المراكشي 210/1 وما بعدها. طبعة دار الثقافة.

3) الاستقصا 140/1.

4) الاستقصا 140/1.

5) المصدر السابق 146/1.

6) أنظر نص الخطاب بكامله في تاريخ البكري.

7) مناهل الصفا للفشتالي 6 - 72 - تحقيق الدكتور كريم.

8) الاستقصا 76/8 - 80.

إن أهمية نظام الحكم الإسلامي، وصلاحيته لكل زمان ومكان تتمثل في البيعة الشرعية، التي تعتبر المثال الأرفع للعلاقة بين الحاكم والمحكومين، والنموذج الصالح لأسلوب اختيار الخليفة والارتباط به، باعتبار أن المبايع والمبايع له، يستمدان صلتهما من الدين والإيمان، ويجعل الملك دوما مراقبا لربه، محافظا على التزامه، في سياسة الرعية، والعمل في سبيل خيرها وصلاحها، ويجعل الرعية في طاعة دائمة للمبايع، تنفيذا لعهدها ووفاء ببيعتها، مادام قائما بأمرها، محافظا عليه إلى اليوم.

وقد أكد هذا الاتجاه الصريح وأصله إدريس بن إدريس في الخطبة التي ألقاها في تدشين مدينة فاس التي أسسها واتخذها عاصمة لحكمه قائلاً :

«اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة، ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها، ويتلى بها كتابك، وتقام بها حدودك، وشرائع دينك، وسنة نبيك محمد ﷺ مابقيت الدنيا»[9] لقد تضمن هذا الخطاب التاريخي خصائص الحكم الإسلامي بالمغرب، من الالتزام بالحق الذي هو الإسلام، القائم على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله، وإقامة الحدود وشرائع الدين، ودعوة الحق والخير، والالتفاف حول الإمام ونصرته، والجهاد في سبيل الله ضد الباطل والفتنة والشقاق والطغيان.

وهكذا استمر النظام المغربي مؤسسا على الإسلام، قائما على البيعة على اختلاف العهود وتوالي الدول، ففي عهد المرابطين الذين بدأوا دعوتهم بتعليم القرآن وإقامة رسوم الدين، ورسموا سياستهم على آداب الشرع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، كما أكد ذلك عبد الله بن ياسين في أول خطبة له قائلاً :

«معشر المرابطين إنكم اليوم جمع كثير ولن يغلب ألف من قلة، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته وعليكم بأن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في الله حق جهاده».[10] وقد رسم خطوط الحكم ومبادئه في آخر خطبة له إلى قومه بقوله :

«إياكم أن تجبنوا أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وكونوا أعوانا على الحق وإخوانا في ذات الله، وإياكم والتحاسد على الرياسة فإن الله يؤتي ملكه من يشاء من خلقه، ويستخلف في أرضه من أراد من عباده».[11]

وعلى هذه السياسة سار خلفاء المرابطين وأمراؤهم وفي مقدمتهم يوسف بن تاشفين الذي جاهد وناضل في سبيل الله حتى ضرب السكة وكتب على الدينار «لا إله إلا الله محمد رسول الله، وعلى الدائرة الثانية منه «ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه».[12]

☆ ☆ ☆

وكذلك كان أمر الموحدين الذين وصف ابن خلدون مؤسسهم المهدي بن تومرت بأنه «كان بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا من الدين، آخذا نفسه بتدريس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع».[13]

وخلفه في الحكم أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي فسار بسيرته فبنى المساجد، وأصلح شؤون الرعية، وغير المنكرات، وحرق كتب الفروع التي كانت طاغية، ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث واستنباط الأحكام منها، ونقل المصحف العثماني من قرطبة إلى مراكش التي بنى فيها جامع الكتبيين اعتزازا وتكريماً، وعلى هذا المنهاج سار جميع خلفاء وأمراء الموحدين من نصب ميزان العدل،

9) راجع الخطاب بكامله في تاريخ ابن الأغلب والاستقصا 152/1.
10) الاستقصا 8/2.
11) المصدر السابق 17/2.
12) المصدر السابق 54/2.
13) أنظر ابن أبي زرع والاستقصا 73/2.

وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، والنظر في أمور الدين والورع، وإقامة الحدود حتى في الأهل والعشيرة الأقربين».[14]

☆☆☆

ولما جاءت الدولة المرينية إلى الحكم التزمت بنفس الالتزام، واستمرت في نفس الاتجاه، وكان ملوكها وأمراؤها متمسكين بالدين، قائمين على تطبيقه والذب عنه، موسومين بالصلاح وصحة اليقين، وفي مقدمتهم عبد الحق المريني الذي اشتهر بالورع والعفاف، موسوما في سيرته بالعدل والإنصاف، مؤثرا للمساكين، حانيا على المستضعفين، مما حمل المغاربة على الوقوف عند أمره والصدور عن رأيه.[15]

وتميز عهد يوسف بن يعقوب بأمره بعمل المولد النبوي وتعظيمه والاحتفال به، وجعله عيدا في أنحاء البلاد، كما كتب أبو الحسن بيده نسخة كريمة من المصحف وجمع لها الوراقين لتنميقها وتذهيبها، والقراء لضبطها وتصحيحها، وأمر بصنع وعاء مذهب مرصع لحفظها وصيانتها، وأوقفها على الحرم المكي الشريف بعد ما خصص لها أموالا ضخمة وقفا على القراء فيها.[16]

وزاد «المقري» في نفح الطيب بأن أبا الحسن كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه، وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، وأوقف عليها أوقافا جليلة[17].

☆☆☆

وكان ظهور الأشراف السعديين عن طريق الجهاد في الحرب التي قامت بين النصارى وأهل السوس، فأقبلت عليهم القبائل واجتمعت عليهم الجموع وفي مقدمتهم الأمير أبو عبد الله القائم.

واشتهر ملوكهم وأمراؤهم بالعفاف والصيانة لحقوق الأمة، والرسوخ في العلم حتى كان أبو عبد الله الشيخ المهدي يرد على القضاة فتاويهم فيجدون الصواب معه،[18] وكذلك كان أبو محمد الغالب بالله صالحا عادلا حتى صلحت الرعية بصلاحه وازدانت الدنيا بوجوده، مما دفع أبا العباس السملالي إلى القول فيه : «مولاي عبد الله ياقوتة الأشراف هو صالح لا سلطان» كما أكد ذلك اليفرني وناهيك بواسطة عقد الأشراف السعديين المنصور الذهبي مفخرة تاريخنا وشامة ملوكنا، الذي كان يعتز ويحرص على تسميته بالمجاهد في مكاتباته ورسائله، وأن يجعله الله دوما حربا على أعدائه، مجددا لرسوم الدين محييا لسننه ومعالمه، كما صرح بذلك في رسالته إلى أبي المحاسن بركات سلطان مكة والمدينة والحجاز :

«...التماس الدعاء مع الأحيان تجاه البيت الحرام وعند الملتزم والمقام أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله وينجز لنا وعده الصادق في إظهار دينه على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الأندلس وتجديد رسوم الإيمان بها وإحياء أطلاله الدرس حتى ينطق لسان الدين فيها بكلمات الله...».[19]

وقد أعز الله به الدين في معارك كثيرة وفي مقدمتها «وادي المخازن» التي هزمت الشرك وأهله، وأعزت الدين وحزبه، كما كانت له عناية خاصة بالاحتفال بالمولد النبوي منذ طلائع ربيع الأول فيعبىء له الدولة برجالها وطوائفها وإمكاناتها إعزازا للدين وإظهارا لشعائره.[20]

ويجعل من رمضان شهر الحديث والسنة فيحييه يوميا بقراءة صحيح البخاري إلى أن يختم في سابع العيد بتهيؤ كبير واحتفال عظيم، كما يحيى لياليه وسط مشيخة القراء

---

14) أنظر تفصيل ذلك في ابن خلكان وابن الأثير في تاريخه 117/11.
15) الاستقصا 8/3.
16) انظر الموضوع مفصلا في المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبي الحسن لابن مرزوق.
17) الاستقصا 131/3.
18) راجع المنتقى المقصور.
19) أنظر نص الخطاب كاملا في الاستقصا 150/5 ـ 151.
20) مناهل الصفا للفشتالي.

والأسانيد المبرزين في السبع وحسن الأداء والتلاوة[21] حتى عده مؤرخو زمانه مجدد عصره وشامة عهده لكثرة فتوحه وانتصاراته على الأعداء كما قال عنه أبو القاسم الشاطبي :

قل للملوك هبوا لمالككم فدى
وخذوا لأنفسكم لديه ذماما
هذا الذي يحيي البلاد بعدله
ويعيدها تثرا وكن رماما
هذا الذي وعد الإله بأنه
يطوي البلاد ويفتح الأهراما

وكما قال عنه أبو مالك الفيلالي :

ففيك أقول والنصوص شواهد
أحاديث صحب ليس فيها منازع
بكم رأس هذا القرن جدد ديننا
وفاضت بحور للعلوم هوامع[22]

ثم أهل الأشراف العلويون السجلماسيون بما ظهر من المناقب والديانة على المولى على الشريف رائدهم وما اتصف به من الإجلال والاعتبار في عصره، ومبادرة السجلماسيين إلى مبايعة على الشريف لجهاده واستماتته في الحق، فاستحكمت بيعته، وفتح من ملك المغرب بابه، الذي توالى عليه ملوك الدولة العلوية وفي مقدمتهم واسطة عقدهم إسماعيل بن الشريف الذي استمر ملكه أكثر من نصف قرن، أرسى فيه قواعد الملك على أساس الدين، وأصلح شؤون الرعية كأحسن مايكون بما فتح من الفتوح، وما أقام من المنشآت حتى حصر الشيخ أبو علي اليوسي الأسس التي قام عليها عهده في :

- جمع المال من حق وتفريقه في حق.
- إقامة الجهاد لإعلاء كلمة الله.
- الانتصاف من الظالم للمظلوم.[23]

وناهيك بعمله العظيم في جمع الارقاء وتحريرهم بتأسيس «جيش البخاري» بما لم يسبق إليه ولم يلحق فيه، مما عمله وخلده من العمل على نشر الدين وعلو كلمته حتى كان يدعو ملوك أوروبا إلى الدخول في الإسلام.[24]

ثم جاء بعده الملك العظيم محمد بن عبد الله الذي بدأ عهده، بالتعرف على العلماء وترتيب القراء، فكملت به منة الله على العباد، وأحيا به الله الدين في كل الأرض والبلاد، حتى لقب «بمجدد القرن والإمام الموهوب لهذه الأمة»[25] وسلطان العلماء وعالم السلاطين، وذلك بما أقام من التراتيب الإدارية، وما أنشأ من النظامات لصالح الأمة وما ربط من المعاهدات والمواثيق الدولية بشأن تصريفه صادرات المغرب، وتحرير أسرى المسلمين لدى الدول الأوربية، وما بذل في ذلك من الأموال مما يجعله رائد حقوق الإنسان في عصره.[26]

ثم زين الله عصرنا بجوهرة ملوك الدولة العلوية وتاجهم، الملك العالم المصلح، القائد الرائد، المحرر الموحد، صاحب الدستور، ومبدع المسيرة الخضراء، والمعقود عليه الأمل في استكمال تحرير بقية أراضينا المغتصبة، باني المؤسسات والجامعات، ومحيي ومجدد القرويين الخالدة الحسن الثاني الذي يسمو بأمته وشعبه إلى العلياء، ولا يرضى لهما إلا بمكانة الثرياء راجين الله ونحن نحتفل بذكرى جلوسه الثامنة والعشرين، أن يسدد خطاه، وينجح مسعاه، ويرفع لواءه، وينصر جنده، ويحيي به الدين، ويجمع به كلمة المسلمين، حتى يكون القرن الجديد حلقة ذهبية في تاريخ الإسلام والمسلمين.

الرباط : يوسف الكتاني

---

21) راجع تفصيل الموضوع في مدرسة الإمام البخاري في المغرب للكاتب 368/1 ـ 372.
22) أنظر نص القصيدتين في الاستقصا 154/5 ـ 156.
23) الاستقصا 82/7 ـ 86.
24) الإتحاف 51/2.
25) الإتحاف 149/3.
26) أنظر تفصيل الموضوع في كتابنا : معالم إسلامية ص 45 ـ 47.

ملامح الحركة الفكرية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله

للأستاذ
عبد القادر العافية

من خلال المراجع والمصادر عن هذا الموضوع يتبين أن العهد الذي تحمل فيه سيدي محمد ابن عبد الله العلوي (1121 ـ 1757/1204 ـ 1789) مسؤولية تسيير دفة الحكم بالمغرب بالرغم من كونه جاء بعد فترة حالكة من الناحية السياسية فإن هذا العهد عرف حركة فكرية ذات بال، ونشاطا ثقافيا ملحوظا تمثل في وفرة العلماء، وكثرة المؤلفات، وتمثل كذلك في وجود تيارات فكرية معينة أهمها :

2 ـ التيار الصوفي الذي استقطب مجموعة من العلماء، والفقهاء وعامة الناس، وكثر حوله الكلام.[1]

2 ـ التيار الفقهي : وأقصد به مجموعة الفقهاء الذين يهمهم بالدرجة الأولى الحفاظ على التراث الفقهي المالكي المتوارث ولا يبغون به بديلا.

- وإلى جانب التيارين السالفين ظهر تيار ثالث يقول باعتبار أحكام القرآن، وكتب الحديث، وبوجوب جعلها هي الأصل في الدراسات الإسلامية، وبواسطتها ينبغي أن يعرف الناس دين ربهم.

وأنه لابد من العودة إلى دراسة أمهات كتب الحديث، وفي مقدمتها صحيحا البخاري ومسلم، وموطأ مالك، وسنن أبي دواد، والترمذي والنسائي، وابن ماجة والمسانيد...

وهذا التيار ظهر في بداية العصر العلوي، وهو لا يعد شبيها بما دعا إليه الموحدون في عهد عبد المومن، ويوسف، ويعقوب، من نبذ كتب الفروع ووجوب إبادتها والقضاء عليها... بل هذا التيار يتعايش مع كتب الفروع وبخاصة مع الأمهات منها. ومثّل هذا التيار في الفترة الأولى من العصر العلوي : الشيخ محمد بن عبد الله معن الأندلسي (ت : 1062 هـ)، وتبعه في ذلك تلميذه أبو سالم العياشي (1037 ـ 1090 هـ) وتزعمه عن جدارة أبو عبد الله محمد بن سليمان الروداني (ت : 1037 ـ 1094 هـ).

وسنرى أن هذا التيار الفكري سينجذب إليه سيدي محمد بن عبد الله فهو رحمه الله بعدما درس مختلف العلوم المتداولة في عصره، وتضلع بصفة خاصة في علوم اللغة

1) انظر نوازل محمد المسناوي وانتقاده للمدعين من المتصوفة، وأبي علي اليوسي في رسائله وانتقاده لمنتحلي التصوف بالشعوذة.

والأدب عكف على دراسة كتب الحديث النبوي، يتتبع تصانيفها ويوليها مزيدا من العناية، إلى درجة أنه يصرح بأسفه على ما ضاع من عمره في غير هذا المجال.

وأسمي هذا الاتجاه (بالتيار الحديثي) ولا أسميه (بالتيار السلفي) لأن السلفية بمفهومها المتعارف لا تنطبق على جميع الذين اهتموا بدراسة الحديث في هذا العصر. وسنرى أن الداعين إلى العناية بدراسة الحديث والاهتمام به، لم يقصروا اهتمامهم عليه، فأغلبهم له مؤلفات في الفقه والتصوف والأدب، وربما في الفلك أو الطب أو غيرهما من فنون المعرفة...

لكن أصحاب هذا الاتجاه يتميزون بمؤلفاتهم في الحديث ورجاله، مع العناية بشرح مصنفاته...

وبالإضافة إلى الشيخ محمد معن الأندلسي، وأبي سالم العياشي، ومحمد بن سليمان الروداني، نجد أن بعض العلماء كانت لهم اهتمامات بدراسة الحديث النبوي، منهم : جدة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، العالمة السيدة الجليلة خناثة بنت بكار بن علي بن عبد الله المغافري (ت : 1159 هـ 1746 م) زوجة السلطان المولى إسماعيل، وهي من أشهر نساء عصرها علما، وأدبا، ونبلا، وكرما، وحبا للعلم وأهله... هذه السيدة الجليلة كان لها اهتمام كبير بالحديث النبوي وبمؤلفاته ورجاله، ومن مؤلفاتها : «سرح الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر العسقلاني، ولها عناية بالقرآن وعلومه.

وبطبيعة الحال أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله تربى في أحضان هذه السيدة وتلقى عنها العلم والأدب وحب المعرفة... ولا يبعد أن يكون لاتجاهها الحديثي أثر على تفكيره وميوله، وسنرى أنه سيتبنى هذا الاتجاه ويدافع عنه بجرارة، ومنهم أبو عبد الله محمد بن الطيب الشركي (1110 ـ 1170) وهو أحد كبار اللغويين والمحدثين، لا في المغرب فحسب بل على صعيد العالم الاسلامي. ولد هذا العالم الجليل بفاس، ومات بالمدينة المنورة، وبلغ عدد شيوخه مائة وثمانين شيخا ذكرهم في الإجازة التي كتبها للشيخ محمد بن عبد السلام بناني (ت : 1193 هـ) وهم أعلام ذلك العصر في المغرب والمشرق.

وكان هذا المحدث الكبير كثير الترحال أقام بمكة سنتين ختم أثناءهما الكتب الستة وغيرهما من أمهات كتب الحديث...

وله تآليف مهمة منها : حاشيته على شرح القسطلاني على صحيح البخاري، وحاشية على شمائل الترمذي، وشرح سيرة ابن الجزري، وشرح سيرة ابن فارس، وغيرها...

ومن الشيوخ الذين أخذ عنهم الحديث سيدي محمد بن عبد الله : الشيخ مولاي عبد الله بن إدريس المنجرة، والشيخ المحدث الحافظ أبو العلاء إدريس العراقي، والشيخ أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي الذي درس عليه الموطأ وجزء من صحيحي البخاري ومسلم، وغيرهما.

هذا مع العلم أن الاتجاه الحديثي لم يكن هو الاتجاه الأكثر انتشارا، لأنه من خلال مراجعة قائمة عناوين المؤلفات التي ألفت في هذه الفترة نجد أن التأليف في الحديث وعلومه لم يأخذ إلا جزء يسيرا من اهتمامات العلماء، في حين نجد أن الاهتمام ينصب على التأليف في الفقه والتصوف وعلوم القرآن والمنطق والعقائد والأدب وتراجم العلماء وسير الصالحين والتاريخ وحتى كبار العلماء في عصر مولاي إسماعيل مثل الحسن اليوسي والشيخ محمد الناصري، وعبد القادر الفاسي، وولده عبد الرحمن الفاسي، والمسناوي والمرابط الدلائي...

لا نجد عند هؤلاء مؤلفات في الحديث وشرحه واستنباط الأحكام منه، وإنما نجد عندهم مؤلفات فقهية وأدبية وصوفية، وفي القواعد النحوية والبلاغية، وأجوبة فقهية عن النوازل...

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الاتجاه الفقهي والصوفي كان هو الاتجاه السائد، أو بعبارة أخرى نقول إنه كان الاتجاه الذي يطبع الحياة الفكرية بعامة.

وسنرى أن سيدي محمد بن عبد الله الذي يمثل الاتجاه الحديثي بوعي وجدارة، سيعمل بمختلف الوسائل على تقوية هذا الاتجاه بين علماء عصره.

وينبغي أن نذكر هنا أن الجو الفكري الذي كان سائدا في عهد سيدي محمد بن عبد الله، كان يتسم ببعض المميزات الإيجابية منها :

1 - الرغبة في تحرير البلاد من الاحتلال الأجنبي، وهذه الرغبة تجلت منذ بداية سقوط المدن والحصون الأندلسية، واشتدت منذ احتلال السواحل المغربية على عهد الوطاسيين. حيث قام العلماء بالدعوة إلى الجهاد نظما ونثرا، وبتأليف كتب علمية في الموضوع، ونظم بعضهم القصائد المنددة بالاحتلال، والواصفة لأضراره وخطورته.. كما نجد ذلك عند بن يَجْبُش التازي وغيره وفي عهد المنصور السعدي كان العلماء في طليعة المُلحِّين على وجوب تحرير السواحل المغربية بل ينادون بوجوب استعادة الأندلس.

والمولى إسماعيل الذي حرر مجموعة من المدن الساحلية : أصيلا، والمهدية، وطنجة والعرائش[2] كانت ترفع إليه قصائد تهنئه بالفتح، ويتوسل فيها أصحابها بضرورة تحرير ما بقي محتلا من الثغور.

ولما تربع سيدي محمد بن عبد الله على عرش المغرب،واستطاع أن يخمد الفتن الداخلية، كانت قضية تحرير السواحل ما تزال تشغل بال الناس بعامة، والعلماء منهم بخاصة.

فالجو الفكري العام كان مهتما بهذه القضية وظهر ذلك بوضوح في ابتهالات الصوفية، ومنظوماتهم.. كما نلاحظ ذلك عند الشيخ محمد بن ناصر الدرعي في مجموعة من منظوماته، منها المنظومة المشهورة :

يـــــا من إلى رحمتـــــــه المفر
ومن إليــــــه يلجــــــأ المضطر

إلى أن يقول :

وأبـــــــدل اللهم حـــــــال العسر
بـــــاليسر وامـــــددنـــــا بريـــح النصر

واجعـل لنـــا على البغـــاة الغلبـــة
واقصر أذى الشر على من طلبـــــــه
وأقهر عـــدانـــا يـــا عـــزيـــز قهرا
يقصم حبلهم ويقصى الظهرا
واعكس مرادهم وخيب سعيهم
واهـــزم جيـــوشهم وافســـد رأيهم[3]

كما نجد ذلك عند غيره من رجال التصوف، وتجلى ذلك أيضا في دراسة ما يتعلق بالجهاد في الكتاب والسنة، وفي دراسة السيرة النبوية وما فيها من انتصارات باهرة، وفتوحات واسعة...

فالحديث عن الجهاد ووجوب إنقاذ البلاد، مما اهتم به العلماء في هذه الفترة كما نلاحظ ذلك عند اليوسي وغيره :

وكانت هناك دعوة إلى وجوب الروابط بين المسلمين تمثلت في المراسلات بين العلماء، وفي الرغبة الملحة في أداة فريضة الحج، ولقاء الشيوخ والعلماء، والاتصال بالقادة والأمراء، فكثرت الرحلة إلى بلاد المسلمين : مصر، والشام وتركيا، والحجاز..

كما نلاحظ ذلك عند ابن الطيب التركي، والروداني، وأبي سالم العياشي، والزياني وغيرهم...

ونلاحظ أن سيدي محمد بن عبد الله كان متشبعا بالفكرتين معا : فكرة تحرير السواحل، وفكرة تمتين الروابط بين البلاد الإسلامية.

2) ومن إيجابيات الحياة الفكرية في هذا العهد موسوعية المعرفة، ابتداء من حفظ كتاب الله عز وجل وإتقان رسمه وضبطه وقراءة العلوم المتعلقة به، إلى أنواع أخرى من ضروب المعرفة، كدراسة الحديث ومصطلحه، والسيرة النبوية وتاريخ العرب في الجاهلية والإسلام، ومعرفة الأحكام الشرعية بدراسة فقه العبادات، وفقه المعاملات، ثم التعمق في دراسة اللغة والنحو، وعلوم البلاغة، والأصول

---

2) احتلال المهدية سنة 1091 هـ وطنجة 1095 هـ والعرائش ١١١١ هـ وأصيلا 1102 هـ انظر الاستقصا، 7، 63 وما بعدها.

3) طلعة المشتري في النسب الجعفري، لأحمد بن خالد الناصري ج. 1 ص. 324.

والمنطـق، والصرف، والعروض، والتنجيم، والفرائض، والتصوف...

وبهذا كانت ثقافة العالم في هذا العصر ثقافة موسوعية كما نلاحظ عند اليوسي، وعبد القادر الفاسي، وعبد الرحمن الفاسي، والمسناوي، وابن زاكور، ومحمد بن عبد السلام بناني، والتاودي بن سودة وغيرهم...

فالشاعر مثلا لا يمكنه أن يتفرغ لقول الشعر دون أن يكون قد أخذ بحظ وافر من العلوم السالف ذكرها.

ويصدق هـذا القول على الأديب والمؤرخ والصوفي، والفلكي والفقيه والطبيب...

فبالرغم من اختلاف الاتجاهات والميول هناك قاسم مشترك بين الجميع، وهذا من مميزات ثقافة هذا العصر، وتطالع الدارس هذه الميزة، وهو يقرأ مؤلفات هذه الفترة وما أنجز من أعمال فكرية.

وهذه الظاهرة كانت معروفة من قبل. لكنها تأكدت في هذه الفترة عند كبار العلماء وغيرهم.

فلا يمكن للمثقف في هذا العصر أن يكون أديبا دون أن يكون فقيها، ولا أن يكون فقيها دون أن يكون متمكنا من اللغة وقواعد النحو والبلاغة... ولا أن يكون عالما يشار إليه بالبنان دون أن يجمع في دراسته بين مواد مختلفة ومتعددة. ومع ذلك ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن الازدهار الفكري والثقافي أمر نسبي، فإذا قارنا هذه الفترة بعهود الازدهار الكبير بالمشرق، أو بالمغرب، أو الأندلس في بعض الفترات فقد نجد أنه لا مجال للمقارنة لكن إذا قارنا هذه الفترة بفترات أخرى جمدت فيها القرائح واضطربت فيها الأوضاع السياسية والاجتماعية... فإننا نجد الحركة الفكرية ابتداء من عهد المولى رشيد عرفت نشاطا وازدهاراً. إذ كان هذا العاهل العظيم من العلماء، وكان من عاداته أن يعقد مجالس للعلم والبحث، وعمل على تشجيع النشاط الفكري، وساهم في بناء مؤسساته كمدرسة الشراطين، والصفارين، ومكتبة القرويين... وجلب إلى فاس علماء الزاوية الدلائية فأصبحت القرويين في هذه الفترة تعج بالعلماء والمدرسين، ونشطت حلقات العلم...

وهذا ما أشار إليه اليفراني (ت : 1154 هـ) في كتابه الظل الوريف حيث قال : «حدثنا غير واحد من أشياخنا قال كنا في زمن الشبيبة نطلب العلم ونسأل عن مسائله على صورتها ولا نلفي من تضلع به، بل كانت الأرجوزة المسماة «بالسلم» لا يعرفها غير رجل أو رجلين، فلما مد الله لهذه الدولة الأكتاف، وأسمى قدرها وأناف، تدفقت على الناس العلوم ودانت صعاب الفنون، حتى عاد صغار الطلبة يعرفون فنوناً عديدة، ويكون لهم فيها عارضة مديدة، وقد تخرج في هذه الدولة السعيدة جماعة من الأعلام، لهم القدم الراسخة في العلم، واليد الطولى في الإتقان، وألفوا تآليف حسنة»(4).

وهذا ما أكده أبو علي اليوسي في إحدى رسائله الموجهة إلى المولى اسماعيل إذ يقول : «... ثم جاء المولى رشيد الشريف وأعلى مناره ـ وهو يتحدث عن العلم ـ وأوضح نهاره، وأكرم العلماء إكراما لم يعهد، وأعطاهم ما لا يعد، ولاسيما بمدينة فاس، فضح من قبله، وأتعب من بعده، ولو طالت مدته لجاءته علماء كل بلدة»(5).

وعرف العصر الإسماعيلي مجموعة من كبار العلماء بالمغرب مثلوا أهم عوامل نشاط الحركة الفكرية بالمدن والبوادي، مثل أبي علي اليوسي (ت : 1102 هـ) صاحب المؤلفات العديدة كالمحاضرات، والقانون، والديوان والفهرست...

وعبد الرحمن الفاسي (ت : 1096 هـ) سيوطي زمانه، صاحب الأقنوم في مبادئ العلوم الذي هو بمثابة دائرة معارف، وخلف هذا العالم أكثر من مائة وسبعين مؤلفا في مختلف العلوم من طب وتاريخ وفلك وتراجم وفقه... وهو صاحب «نظم العمل الفاسي» الذي ظل محط عناية الدارسين

---

4) عبد الرحمن بن زيدان، مجلة المغرب، السنة 5، نونبر ودجنبر 1936.

5) بواسطة كتاب الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية : د. محمد الأخضر، ص. 68.

لفترة طويلة من الزمن، ومحمد العربي القادري (ت : 1113 هـ) الذي ألف في التاريخ والتراجم وغيرهما.

وأخوه عبد السلام القادري (ت : 1110 هـ) الذي ترك عدة مؤلفات، وهو صاحب «الدر السني، في بعض ما بفاس من أهل النسب الحسني».

وابن عيشون الشراط (ت : 1113 هـ) ومحمد الوزير الغساني (ت : 1119 هـ) صاحب رحلة الوزير في افتكاك الأسير، وأعاد التاريخ نفسه مع ابن عثمان المكناسي مؤلف : الإكسير في افتكاك الأسير، وكلاهما عن أمر سلطاني، الأول عن مولاي اسماعيل، والثاني عن أمر حفيده سيدي محمد بن عبد الله.

ومن علماء هذا العصر الشيخ أحمد بن ناصر (ت : 1129 هـ) صاحب الرحلة العلمية والذي اشتهر بعلومه ومعارفه... ورحلته أشبه ما تكون بالرحلة العياشية الذائعة الصيت.

وأبو عثمان سعيد بن قاسم العميري تلميذ اليوسي المفتي والقاضي والمدرس بمكناس، وصاحب الفهرست العلمية المفيدة.

وأبو العباس أحمد القادري (ت : 1133 هـ) والشيخ محمد بن الطيب العلمي، أحد كبار الأدباء في عهد المولى اسماعيل، ومؤلف الأنيس المطرب الذائع الصيت، والكاتب بالقصر السلطاني بمكناس، توفي بالقاهرة 1134 هـ وكتابه يؤرخ للنهضة الأدبية بالمغرب في هذا العهد.

وأسرة الدلائيين، وأسرة المنجرة، والقائمة طويلة...

☆ ☆ ☆

وبهذا نرى أن بداية العصر العلوي عرفت نهضة فكرية، ازدهرت في عهد المولى رشيد ثم في عهد المولى اسماعيل وبلغت أوجها على يد سيدي محمد بن عبد الله (1171 هـ - 1204 هـ / 1757 - 1790 م) الذي يعد من الشخصيات البارزة في تاريخ المغرب، ومن الملوك الذين قاموا بأدوار مهمة في مختلف مجالات الحياة : سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفكريا وعمرانيا... وتجمع المصادر التي تحدثت عن فترة حكمه أنه كان من السلاطين الذين عرف المغرب في عهدهم استقرارا سياسيا، ونشاطا فكريا، وازدهارا في مجال العلاقات الدولية والاتصالات الخارجية حيث أصبح المغرب في عهده دولة مرموقة عزيزة الجانب تحترمها دول الشرق الإسلامي، والغرب المسيحي. وفي المجال الفكري يعتبر بحق أحد علماء عصره المبرزين، ومن الشخصيات التي لها شأن ملحوظ في ميدان العلم والمعرفة.

وهو منذ نشأته الأولى أعد إعدادا جيدا، وربي تربية متميزة بحيث نستطيع أن نقول إن الجو الفكري الذي عاشه سيدي محمد بن عبد الله له تأثير على مجرى حياته العلمية بالإضافة إلى مواهبه الفطرية التي حباه الله بها : من ذكاء حاد، وذاكرة قوية، وجرأة نادرة، وأخلاق عالية، وهمة طموحة... وظهر نبوغه قبل مبايعته بالملك، حيث استطاع أن يوطد الأمن بآسفي ومراكش وجنوب المغرب، وأقر السلام بسهول سوس وجبالها، ولما اعتلى عرش المغرب واظب على مخططه في إخماد الفتن، ونشر الأمن... وعمل على تحرير الثغور المحتلة فطرد البرتغاليين من مدينة الجديدة سنة 1182 هـ 1769/2/28. وحصن بعض المراسي، وأسس بعض المدن كالصويرة وفضالة. وجدد ميناء أنفى، وكان مولعاً بالبناء والتشييد فخلف آثارا عمرانية هامة من مساجد ومدارس وحصون، وكون الجيش المغربي تكويناً جديداً، ونظم مداخل بيت المال وضرب السكة.

أما في الميدان الفكري، فبادراته وتوجيهاته استطاعت أن تبعث في نفوس علماء عصره روحا جديدة من النشاط، والعمل الثقافي حيث أنشأ مجالس علمية غذاها بتوجيهاته، وإرشاداته، ورسم للعلماء خطة العمل في ميدان البحث والدراسة.

والحركة الفكرية في عهد سيدي محمد بن عبد الله امتداد طبيعي للحياة الفكرية في عهد المولى اسماعيل، ولم تتأثر بسوء الأوضاع السياسية التي أعقبت موت هذا العاهل العظيم إلا تأثرا محدوداً.

ويبدو هذا جليا في وفرة العلماء وكثرة المؤلفات، وكثرة المجالس العلمية، وفي طرح قضايا فقهية وحديثية وأدبية

واجتماعية لتحلل تـدرس... ويتجلى ذلـك أيضـا في حث السلطـان العلمـاء على التـأليف، وعلى المـزيـد من الاطـلاع، وحثهم على خلق روح التنافس بينهم، وفي إسناده لهم القيام بأعمال فكرية قصد إنجازهـا، وإبداء الرأي فيهـا، مع الاهتمام ببعض العلوم التي كانت تنوسيت وأهملت...

ويبـدو من خلال دراسـة هـذه الفترة أنـه لا تنـافي بين ازدهار الحياة العلمية وبين عقم المنهاج التعليمي، والباحث عن الحياة الفكرية في هذه الفترة يجد نفسـه أمام هذا الواقع.

ولعل سبب ذلك هو أن ازدهار الحيـاة الثقـافيـة ينشـأ عن عدة عوامل منها : الرغبـة في تحصيل العلم، والتضحيـة في سبيل الحصول عليه، وهـذا نـابع من روح التعـاليم الإسلاميـة التي تحث المسلم على التزود بالمعرفـة، وتشجعـه على طلبهـا من المهد إلى اللّحد.

في حين أن أساليب التدريس تتحكم في جودهـا عوامل أخرى : عادات، تقـاليـد... مع عـدم الاهتمام بتطوير البحث والتلقين.

وبهـذا يتضـح وجـود حركـة فكريــة، وحب للعلم والمعرفة.. إلى جانب أسلوب تعليمي عقيم.

فعصر سيدي محمد بن عبـد اللـه يتميز بـاتســاع مجـالات الـدراسـات العلميـة، وبظهـور شخصيـات علمية ذات مكـانـة مرموقـة مثـل : أبي العبـاس أحمـد الهلالي السجلمـاسي (ت : 1175 هـ) ومحمد الفاسي (ت : 1179 هـ) وعبد الرحمن المنجرة (ت : 1179 هـ) والصوفي اللامـع المعطي بن الصـالـح الشرقي (ت : 1180 هـ) وأبي مـدين الفــاسي (ت : 1181 هـ) وأبي العـلاء إدريس العراقي المحـدث الشهير (ت : 1183 هـ) وأبي العبـاس أحمد بن الـونـان (ت : 1187 هـ) ومحمد بن الطيب القادري (ت : 1187 هـ) وأبي حفص عمر الفـاسي العـالم الفـذ (ت : 1188 هـ) وأحمـد الغزال (ت : 1191 هـ)، وابن عـزوز المراكشي (ت : 1204 هـ)، وشيخ الجماعة سيدي محمد التـاودي بن ســودة (ت : 1209 هـ) ومحمـد بن عثمان المكنـاسي (ت : 1213 هـ) وغيرهم...

وكل هـؤلاء لهم تـآليف متعـددة في الفقـه والتصـوف والنحو والمنطق والعقائد والتراجم والأصول والبلاغة والأدب، والفلك والسـيرة، وعلوم القرآن، والتاريخ...

لكننـا إذا ألقينـا نظرة فاحصة على مـا ألف في هـذا العصر من رسائل وكتب ومؤلفات نجد أن معظم هذه الكتب شروح وحواشي وتعـاليق، وردود ومنـاقشـات حول جزئيـات ومسائل فقهية فرعية أو عقائدية فلسفية...

وهي في جملتهـا لا تخرج عن اختصـار المطـول، وشرح المعقد، ومعظمها في الفقه والتصوف والنحو والمنطق، مع كثرة الاهتمام بوضع الشروح على (سلم الأخضري) إلى درجة تسترعي الانتباه[6].

أما التفسير والحديث فكان حظهما ضئيلا جدا.

ومعنى هذا، أن هذا العصر عرف نشاطا تعليميـا، وتفرغ فيه كثير من الناس لدراسة العلم وتتبع مسـائلـه، والرحلـة في طلبه، والجلوس لتلقيه من شيوخه بالمدن والبوادي.

ويجب أن لا ننسى أنـه كان لشخصيـة سيـدي محمد بن عبد الله دور كبير في تنشيط الحركة العلمية، وتنشيطـه لهذه الحركة ينطلق من منطلقين رئيسيين :

أولاهما : أن سيدي محمد بن عبـد اللـه هو شخصيـا من أبرز علماء هـذا العصر، فهو قـد درس مختلف العلوم التي كانت سـائـدة في عصره، وبرز فيهـا، وكان شغـوفـاً بـالعلم إلى درجـة أن مسـؤوليـاتـه العـديـدة كملك للبـلاد، لم تصرفـه في يـوم من الأيـام عن الـدرس والبحث، وهـذا ممـا جعلـه يشجـع الحركـة العلميـة ويبذل في سبيل تشجيعها الوقت والمال...

وثـانيهـا : مـا جبـل عليـه هـذا العـاهـل الكريم من روح إصلاحيـة وتوقـان نحـو الأسمى والأفضـل في كل شيء.

وهـذه الروح الإصلاحيــة لم تقتصر على تشجيـع العلم وأهلـه فحسب، بل تجاوزت ذلك للتفكير بجديـة وعمق في

---

6) انظر النبوغ، للأستاذ عبد الله كنون، المؤلفات في هذا العهد.

إصلاح مناهج التعليم، وفي انتقاء الكتب الدراسية المفيدة، وفي بث روح الطموح العلمي دون الاقتصار على مجرد تحصيل القواعد وفهم المسائل وحل المشاكل.

ومن هذين المنطلقين عمل سيدي محمد بن عبد الله على تنشيط الحركة الفكرية، وعلى دعم التيار الإصلاحي.

ولاشك أن مجموعة من العلماء أدركت مقاصده وأهدافه وعملت على تنفيذ خططه ومناهجه. وتجاوبت مع العاهل الكريم وامتثلت لأوامره وتوجيهاته وإرشاداته... وكل ذلك جعل الحياة الفكرية في عهد سيدي محمد بن عبد الله تتسم بتنوع في النشاط الفكري بكيفية تسترعي الانتباه، وفي هذه الفترة أصبح عدد من الفقهاء يهتمون بالحديث، ويؤلفون فيه ويشرحون نصوصه ويتتبعون رجاله... ويتعاملون مع مصادر وأصول ما كانوا ليتعاملوا معها لولا توجيهات سيدي محمد بن عبد الله.

الأسلوب التعليمي :

ومما يرتبط بالحياة الفكرية، الأسلوب التعليمي الذي تدرس به المواد.

ويلاحظ في هذا المجال أن الأسلوب التعليمي بالمغرب ظل منذ العهد المريني وهو يسير تقريباً في اتجاه واحد تمثل في الاهتمام بعلوم الفروع، والاعتماد في الدراسة على المختصرات، والمنظومات المعقدة قصد تجميع المعاني الكثيرة، في ألفاظ يسيرة وبغية التغلب على الحفظ والاستظهار. وبذلك كثرت المنظومات التعليمية، والشروح، والحواشي، والتعاليق... وبالرغم من الانتقادات الذي تعرض لها هذا الأسلوب من قبل بعض كبار العلماء : كالأبي، والمقري، وابن خلدون، والقباب، وغيرهم[7] فإن هذا الأسلوب التعليمي استمر، وأصبح معتمدا في الدراسة بالمعاهد والمساجد والزوايا. وكان عليه الاعتماد في تدريس فروع الفقه، وعلوم الآلة : النحو، واللغة، والبلاغة، واقتصر هذا الأسلوب على التعامل مع كتب معينة، كثرت فيها المسائل والتفريعات. أي مع كتب لا تهتم باستنباط الأحكام من مصادرها الأصلية، واهتم بتدريس الكتب المعتمدة على فهم المسائل المعقدة، وإدراك صور المسائل المتخيلة، والمفترضة، والهامشية... وبقي الأمر على هذا الحال مدة طويلة من الزمن، وبمرور الأيام ازداد الأمر سوء، وكثر الاهتمام بكتب المتأخرين الذين يزيدون المادة تعقيدا، وبعدا عن مصادرها الأصلية وبهذا الأسلوب التعليمي ابتعد الناس عن الوضوح، وعن المصادر ذات الأسلوب المبسط الواضح، وبذلك فقدت الدراسة قيمتها الحقيقية، وابتعدت عن أهدافها السامية وتحدث سليمان الحوات (ت : 1231 هـ) المعاصر لهذه الفترة عن المواد الدراسية التي كانت تدرس بهذا العهد، والتي كانت محط اهتمام الدارسين، وذكر الكتب التي كانت تدرس بها هذه المواد، ويأسف لعدم اعتماد الدراسة على كتب أمهات ومؤلفات أصيلة ـ «فالتفسير مثلا أصبحت دراسته مهجورة، وشاعت حول تدريسه الشائعات المنفرة من تعاطي تدريسه». ومما يحكى في هذا الصدد تدخل سيدي محمد ابن عبد الله بإيعاز من جدته العالمة السيدة خناثة بنت بكار المغافري لإنقاذ الفقيه عمر لوقش الذي كان يدرس التفسير بمكناس، فقام الفقهاء ضده وألبوا عليه السلطان مولاي عبد الله.

«أما علم الحديث فاقتصر الناس فيه على الصحيحين البخاري ومسلم، وعلى مصطلح الحديث بألفية العراقي، وفي السيرة على (الاكتفاء للكلاعي، وتركوا ما عدا ذلك)».

ومن الملاحظ أن دراسة «الحديث» كانت لمجرد التبرك به، لا قصد تدبره وفهم معانيه واستنباط الأحكام منه...

«أما الفقه فانحصر اهتمام الناس في هذه الفترة على (مختصر خليل) وتصدوا لحل مقفل ألغازه، وكثرت الشروح والتعاليق والحواشي على المختصر، وتعصب له الفقهاء...»

ويذكر الحوات أن تدريس الفرائض كان يعتمد على فرائض مختصر خليل، وعلى مختصر الحوفي وشرحه، ونظم التلمساني وشرحه، وترك الناس دراسة مدونة سحنون،

7) انظر كتاب ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين للأستاذ محمد المنوني 216، والملك المصلح للأستاذ حسن العبادي.

ومختصرها لابن أبي زيد القيرواني، والنوادر له، والرسالة، وكتاب التذيب للبرادعي وشروح هذه الأمهات.

أما النحو واللغة فالاعتاد في تدريسها على كتب المتأخرين : لابن أجروم، وابن مالك، وابن هشام، وشروحها. وفي اللغة يدرسون : العين للخليل ابن أحمد، وجمهرة ابن دريد والقاموس، وأساس البلاغة...

وفي علم البيان «التلخيص» و«الإيضاح» وشروحهما. ويقتصرون في علم العروض على منظومة الخزرجي وشروحها، وما عداها صار نسيا منسيا.

أما الحساب فيعلم التلميذ المبتدئ بكتاب القلصادي، والمنتهي «بمنية الحساب وشروحها».

أما عن الأدب، فيقول : «من جملة الكتب المتداولة في هذا العهد كتاب الأغاني للاصفهاني.

وعن التصوف يذكر : أن همم أهل المغرب في هذا العهد تقاعست عن الاهتمام، بموضوعات التصوف، سوى ما كان من مسائل التقطها ابن عطاء الله من الكتاب والسنة وكلام القوم على شكل حكم، وعدت من التصوف، واعتنى الناس بها ووضعت عليها شروح كثيرة، وترددها ألسنة المدرسين والطلبة وأما الكتب المتضمنة لموضوع الفن على سنن أهله، ووفق مصطلحهم فقد تضاءل العمل بها.

وعن علم الكلام والمنطق يذكر أن الدراسات اقتصرت على كتب الشيخ السنوسي التي اعتنى بها الناس شرحاً وتعليقا وتلخيصا..»[8].

ومعلوم أن المسلمين اهتموا بعلم الكلام والمنطق منذ عهد الصراع بين الفرق الكلامية وبخاصة منها المعتزلة والأشاعرة، وتدرجت دراسة هذا العلم عبر كتب معينة، إلى أن وصل بها المطاف بالمغرب على عهد سيدي محمد بن عبد الله إلى الاقتصار على كتب الشيخ محمد بن يوسف السنوسي (ت : 894 هـ) وكتبه في العقائد هي : المقدمة، والصغرى، وصغرى الصغرى، والوسطى، والكبرى، وهي كتب معقدة تستعمل أقيسة واستنتاجات المنطق الأرسطي في لف ودوران، وينتهي الدارس لها بعد وقت طويل إلى نتائج تافهة.

فعرض الحوات على قصره يعطي صورة واضحة المعالم عن المواد التي كانت محط اهتمام المدرسين والطلاب، ويصور جانباً هاما من جوانب الاهتمامات الفكرية لهذا العصر. ويبدو من خلاله أن الحوات نفسه لم يكن مقتنعاً بفعالية وجدوى هذا الاتجاه في التدريس.

والمواد التي ذكرها كموضوعات للدراسة تظهر بجلاء أن الهمم قد تقاعست عن طلب المفيد، وعما فيه من طموح وتوقان نحو الأفضل بالرغم من كثرة الدارسين، وكثرة المؤلفات والمؤلفين.

وسبقت الإشارة إلى أن سيدي محمد بن عبد الله في بداية طلبه للعلم درس هذه المواد بنفس الأسلوب الذي كانت تدرس به واهتم بالأدب والتاريخ واللغة والشعر.. ثم بالحديث وعلومه.

لكن سيدي محمد بن عبد الله بما حباه الله به من فكر وقاد، ومعرفة واسعة، وبصيرة نافذة، وحب للعلم، ومواهب إصلاحية خلاقة... كان لابد وأن يفكر في إصلاح أوضاع مجتمعه في الميادين المختلفة، اقتصادية وفكرية، وقضائية... وأن يهتم بصفة خاصة بمواد الدراسة وأسلوب التدريس.

لقد سبق الوصف الذي قدمه الحوات عن كتب الدراسة بالقرويين والذي اتضح من خلاله أن الطابع التقليدي في التفكير كان هو السمة السائدة بين العلماء والفقهاء والأدباء... وبهذا يتأكد مقدار ما كانت تدعو إليه الضرورة من وجوب الإصلاح، وحتمية تغيير الأوضاع نحو الأفضل والأحسن...

وبطبيعة الحال أن تغييراً جذرياً هادفاً يحتاج إلى شخصية قوية وإلى عزيمة لا تلين، وإرادة مؤمنة، وصبر كبير.. وسيدي محمد الثالث كانت تتوفر فيه هذه الصفات، للقيام بالإصلاح في مختلف الميادين، لكنه آثر التدرج في عمله

8) الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله، للأستاذ حسن العبادي : 100 - 104. عن الروضة لسليمان الحوات نقلت ذلك بتصرف.

الإصلاحي، وبأن يكون على مراحل، وهذ ما يفسر صدور المراسيم الإصلاحية في آخر عهده، ويبدو أن الأعباء الكثيرة، والأحداث والطوارئ المستجدة اقتضت أن يكون الإصلاح بخطوات وئيدة متبصرة...

وتمثلت الخطوة الأولى في عقد مجالس علمية يطرح فيها العاهل الكريم موضوعات للمناقشة، ومشاكل للحل، في مجلس سلطاني يضم كبار العلماء، يستمع فيه العاهل إلى آراء جلسائه، وربما احتاجت بعض الموضوعات المطروحة إلى عدة جلسات، وإلى مناقشات طويلة.

أما الخطوة الثانية فتجلت في إسناد مهام علمية إلى العلماء ليقوموا بإنجازها : كشرح كتب الحديث، والإجابة عن بعض القضايا كتابة وإعطاء وجهة النظر فيها، وفي الأمر بتأليف كتب عن الرحلات التي يأمر بها السلطان، ليعرف ما عليه البلاد الأخرى سواء كانت إسلامية أو مسيحية...

وعمل تنفيذ الخطوتين السالفتين على تحريك الهمم وإيقاظ العزائم، وتشجيع النشاط الفكري... وليعطي السلطان المصلح مثالا من نفسه، كان يأخذ قدراً من وقته للتأليف وقراءة دواوين السنة، والبحث عن المفقود منها، والبعث في طلبه، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الحصول عليه...

مما أتاح له عقد المقارنات بين مناهج السلف الصالح في بث المعرفة ونشر العلم، وبين ما أصبح عليه الحال في المعاهد والمساجد والمدارس... وكل ذلك كان يزيد العاهل الكريم إصراراً على وجوب الإصلاح، وبطبيعة الحال إن فكرة الإصلاح كانت تصطدم بمعوقات وعقبات، لأن تغيير ما اعتاد عليه الناس، وما توارثوه أبا عن جد، وخلفا عن سلف يعد من الصعوبة بمكان.

فالخطوتان السالفتان كانتا تمهيداً للخطوة الثالثة التي هي صدور الأمر الملكي بوجوب تنفيذ الإصلاح دون هوادة.

وكانت مجموعة من العلماء قد أدركت أهداف السلطان ومراميه، وأظهرت التفهم والقبول، سواء عن اقتناع كامل، أو عن شبه اقتناع.

وبهذا لم تكن الصرامة في تنفيذ عملية الإصلاح أمرا مفاجئا، وهذا مما جعل كبار العلماء في هذا العصر يتحولون من تدريس مختصر خليل، إلى تدريس الموطأ والصحيحين وأمهات كتب الفقه المالكي.

وذكر سليمان الحوات وهو يتحدث عن شيخه أبي عبد الله سيدي محمد التاودي بن سودة في كتابه الروضة المقصودة : «لم ينقطع شيخنا عن قراءة المختصر إلا ما كان آخر أيام أمير المؤمنين سلطان السلاطين مولانا أبي عبد الله محمد بن أمير المؤمنين الحسني، فإنه صدر عنه الأمر إذاك بتأكيد قراءة التهذيب، والرسالة والاقتصار عليها دونه - أي دون مختصر خليل - فامتثل رضي الله عنه، ثم عاد إليه بعد ذلك..»[9] أي في عهد السلطان المولى سليمان.

ومعنى هذا الكلام أن سيدي محمد بن عبد الله كان يدعو العلماء إلى تغيير مناهج دراستهم، وإلى استعمال كتب أمهات...

ويبدو أن كثيرا منهم لم ينقطع عن عاداته في التدريس بما فيهم الشيخ محمد بن سودة، وهو من العلماء الذين يحضرون مجالس السلطان، وممن أسند إليهم سيدي محمد بن عبد الله إنجاز بعض الأعمال العلمية.

ويذكر النص أنه في آخر أيام السلطان تأكد الأمر بما كان يدعو إليه، «فإنه صدر الأمر عنه إذاك بتأكيد قراءة التهذيب، والرسالة...» وأمام الأمر الصادر من السلطان لم يسع المدرسين إلا الامتثال، ومعنى ذلك أن الأمر الواجب الامتثال لم يصدر إلا في آخر أيام السلطان، وهذا مما يؤكد أن سيدي محمد بن عبد الله اتبع في إصلاح أوضاع التعليم المراحل المشار إليها سابقا.

9) الروضة المقصودة في مآثر بني سودة، مخطوط، خ.ح (مصور) 1023، ورقة 307.

ويذكر سليمان الحوات أن شيخه بن سودة كان يدرس الكتب الستة، ومعناه أنه كان يدرسها إلى جانب المختصر، تلبية لرغبة السلطان في الإقبال على تدريس كتب الحديث، وتعميم الانتفاع بها، لكن بعد صدور الأمر بالتخلي عن تدريس «المختصر» انقطع عن تدريسه، وأخذ يدرس التهذيب والرسالة...

يقول الحوات : «إن سيدي محمد بن سودة كان يدرس الكتب الستة، وممن أخذها عنه (بجبل العلم) الشيخ محمد بن الحسن بناني محشي الزرقاني...»[10]. وختم كتب الحديث (بجبل العلم) أو بغيره من أضرحة الأولياء كان مما دأب عليه بعض علماء هذه الفترة، فالشيخ بن سودة المذكور سالفا زار ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش سبعين مرة[11] حسبما ذكره الحوات في الروضة المقصودة. ويستفاد من سياق كلامه أنه في كل زيارة من هذه الزيارات كان الشيخ يختم فنا من الفنون، وبخاصة ما له قداسة كالقرآن والحديث.

ومن خلال ما سلف يتضح جليا أن الحياة الفكرية في عهد سيدي محمد بن عبد الله عرفت نشاطا ملحوظا حيث عمل السلطان العالم بفكر وقاد على إذكاء هذا النشاط وعلى جعله نشاطا مثمراً يستفيد منه العلماء والطلاب...

وذلك بسبب ما دعا إليه من تطوير الأفكار، والابتعاد عن المناهج الجامدة والأساليب العقيمة... وبفتح مجالات جديدة للدراسة والتأليف، وإشاعة المعرفة وتيسير سبلها أمام طلاب العلم والباحثين والدارسين.

عبد القادر العافية

---

10) نفس المصدر السالف.

11) الروضة المقصودة مخ. خ. ع. بالرباط، 2351 ك، ورقة 251.



للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

النشاط الفكري هو الصورة الحقيقية التي تساعد على تحديد ملامح بعض الحضارات، فليس هناك وجود حقيقي لأية حضارة إذا ما أزلت منها عنصر الفكر، وما يتبعه من إبداع واختراع وتطلع، إلى ما هو أحسن، فالإنسان يرتبط كيانه بما يعانيه في الحياة، وبما يقاوم به أثناء هذه المعاناة. ولذلك نرى أن الحركات الفكرية ودراستها، لمما يدل على أن الإنسان ما زال راغبا في بناء المصير المشترك، وما زال يعمل من أجل المستقبل المطمئن للجنس كله، فليست الحياة الإنسانية ملكا لفرد أو مجموعة معينة، وإنما هي ملك للإنسان كله، وما أحداث التاريخ بجميع أنواعها إلا مساهمة فعالة في صقل ملكات الإنسان المعاصر، تهديه للتي هي أقوم، وترشده للبناء المتين، وتفتح عينيه على ما هو صالح ليحاول اتباعه، وعلى ما هو سيء، وأن أي إنسان لا يستفيد من أحداث التاريخ لفاقد لوعيه السليم، لا ينتفع بعقله، ولا يستمتع بمواهبه، يقضي حياته كالحيوان الأبكم لا يستطيع تفسيرا ولا تعليلا، ولا يحسن مقاومة ولا صراعا ولا تصبح الدنيا أمامه إلا ملهى عابرا ليس فيها ما يعينه على تحمل المسؤولية، ولا ما يغريه على الإصلاح والابداع، ولا ما يدفعه على الافادة والاجادة.

ولعل هذا الاعبار الحقيقي هو الذي دفع كثيرا من رجال الإصلاح إلى محاولة إحياء الآثار والرجوع بالإنسان إلى معرفة أسباب التطور ليعيش من جديد لحظات من ماضيه البشري، وليقتبس من أجداده روح العمل البناء، ولينتشي معهم في أفراحهم إذا فرحوا كما يتألم معهم في أحزانهم إذا حزنوا، وليستفيد من تجاربهم العامة ومن مواقفهم ومعاناياتهم فما أقسى الحياة إذا فقد فيها الفرد الذي يعانيها تجارب الآخرين.

وإننا نحن الذين نعيش في القرن العشرين قد نلاحظ تقدم الإنسان المعاصر، ونرى بأعيننا ما استطاع أن يصل إليه في ميدان المعرفة والتقنية، وما استطاع أن يحققه في الميادين الفكرية والاقتصادية، ولكن هذه الرؤية لا تحول بيننا وبين التفكير في بعض الجوانب القاسية التي تسيطر على بعض جوانب العيش في هذا العصر بسبب ما نلاحظه من اضطراب أخلاقي عند بعض الأفراد أو الجماعات، ولولا ما يهيمن على العالم من آمال بعض رجال الفكر الذين

يحرصون على نشر السلام، وإشاعة الفضيلة، وربط أسباب التواصل البشري عن طريق إحياء معالم الحضارات الإنسانية البناءة، لكانت الحياة قاتمة، ولكان الإنسان فيها عديم الكرامة، لا يحن إلى ماض مجيد، ولا يتطلع إلى مستقبل مشرق.

ومن أهم خصائص هؤلاء المفكرين المتفائلين أنهم يبحثون عن مراكز الحضارة الإنسانية ليبعثوا آثارها، ولينشروا ذكرها، وليذيعوا فضائلها. وليبينوا للعالم كله مدى ما حققته هذه المراكز من فضل على الإنسانية كلها. ولقد تعددت أبحاثهم وكثر نشاطهم وساهموا مساهمة فعالة في الإشادة بهذه المراكز التي أثرت على المسيرة الحضارية عبر التاريخ، سواء في المشرق أو المغرب. ووجدوا من أشدها تأثيرا وأقواها فعالية مدينة فاس. وذلك لما تمتاز به من تاريخ مجيد. ولما لها من الاشعاع الحضاري المنبثق من تفاعلات فكرية وثقافية استمدتها من حضارة القيروان والأندلس من جهة، ومن التأثير العالمي من جهة أخرى.

☆ ☆ ☆

ومن المعلوم أن هاته المدينة تعد من أعظم المدن الإسلامية التي مثلث هاته الحضارة في مختلف اتجاهاتها. وكانت مستقرا لكثير من الوافدين عليها فتكونت منهم ومن سكانها الأصليين مصاهرات وأصبحت تمثل ذلك الالتحام السكاني المكون من البربر والعرب وغيرهم من بعض الجنسيات الأخرى.

ونحن إذا ما تتبعنا أسباب بناء هذه المدينة فإننا نلاحظ أن الظروف التي بنيت فيها أعانتها على أن تكون لها هذه الميزة في تاريخ المغرب، لأنها كانت حين بنائها ملتجأ لعدد من المثقفين والعمال والصناع الماهرين الذين فروا من الأندلس أو فروا من القيروان بسبب الأحداث السياسية التي كانت في بلادهم فاستقبلهم المولى ادريس استقبالا حارا ويسر لهم أسباب المقام وساعدهم من بعده خلفاؤه من الأدارسة واستمرت هذه المساعدة إلى ما بعد وظلت لهذه المدينة هيبتها وقيمتها العلمية في الإطار العالمي ولم تخمد إلا في بعض الفترات حينما أصبحت المدينة غير قادرة على مسايرة التطور الشيء الذي دفع المعاصرين ليبحثوا عن أسباب ركودها، وليعملوا على إنقاذها من جديد مع المحافظة على صيغتها الحضارية التي اكتسبتها منذ زمن طويل.

☆ ☆ ☆

والحديث عن مدينة فاس كان موضوع اهتمام رجال التاريخ سواء من حيث مركزها السياسي أو مركزها الاقتصادي أو مركزها العلمي. وكان الذين يتحدثون عنها يربطونها بغيرها ويجعلونها ضمن تصميماتهم ومخططاتهم التي يبنون عليها كتبهم العامة في التاريخ. ولكن لم يطل القرن السادس الهجري حتى أصبحت الكتب تؤلف أحيانا في تاريخها وتنطق في الحديث عنها دو غيرها. وسيجد المهتمون بتاريخها في كتاب دليل مؤرخ المغرب الأقصى الذي ألفه الفقيه المرحوم المؤرخ السيد عبد السلام ابن سودة عددا وافرا من أسماء الكتب التي اعتنت بهذه المدينة مع تحديد زمن تأليفها وذكر وفيات مؤلفيها في غالب الأحيان.

هذا وقد لاحظ الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور في مقدمة تحقيقه لكتاب زهرة الآس للجزنائي أن القرن السادس كان هو المنطلق لتخصيص مدينة فاس بالتآليف التي أصبحت فيما بعد المراجع الأساسية لكل من كان يتحدث عنها قال في هاته المقدمة :

«ويمكن اعتبار القرن السادس الهجري عصر انطلاق العلماء والأدباء إلى تخصيص فاس بالتأليف فبعدما كانت أخبارها تورد بعناية وتدرج بإسهاب ضمن كتب التاريخ والأدب صارت هذه الأخبار الموضوع الأساسي الذي يؤلف فيه المؤلفون ويكتب الكاتبون.

ومن بين المؤلفات في هذا القرن عن فاس.

- تاريخ فاس لأبي القاسم بن جنون.

- والمقباس في أخبار المغرب وفاس لعبد الملك الوراق.

- والمقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس لمحمد بن حمادو البرنسي السبتي.

- والمستفاد لمناقب الصالحين والعباد من أهل فاس وما والاها من البلاد لمحمد بن عبد الكريم الفندلاوي المعروف بالكتاني».

ومن المعلوم أن هاته الكتب التي ذكرها الأستاذ ابن منصور مؤرخ المملكة والتي قلنا إنها موجودة مع غيرها في كتاب دليل مؤرخ المغرب الأقصى لابن سودة إذا تحدثت عن مدينة فاس وعن تأسيسها فإنها تذكر أن بناء هذه المدينة مر على مرحلتين : المرحلة الأولى كانت سنة 192 هجرية حينما بنيت عدوة الأندلس والمرحلة الثانية كانت سنة 193 هجرية حين بناء عدوة القرويين. وفي كلتا المرحلتين كان المولى ادريس يمنح الأرض مجانا لمن أراد البناء فكان ذلك من أسباب الازدهار والتعمير.

والمستفاد من هذه الأخبار أن العدوتين معا بنيتا، في عهد المولى ادريس الثاني وظل الحال على نقل ذلك إلى أن ورد رأي جديد أبداه البحاثة الفرنسي الشهير لفي بروفنصال فذكر أن العدوة الأولى بنيت في عهد المولى ادريس الأول سنة 174 هجرية وأما المولى ادريس الثاني فإنه لم يبن إلا العدوة الثانية نظرا لإقبال الناس عليه ولاحتياجهم إلى ضرورة توسيع المدينة واستدل على ذلك بوجود نقود مضروبة بفاس في عهد المولى ادريس الأول. ولقد اعتمد رأيه هذا أحد المؤلفين الفرنسيين الذين لهم اهتمام كبير بتاريخ فاس في العصر الحديث وأقصد به المؤلف الفرنسي روجيه لوتورنو في كتابه الذي خصصه لهاته المدينة في عصر المرينيين.

وعلى كل حال فإن الخلاف في تحديد زمن تأسيس هاته المدينة وفي الشخص القائم بذلك لا ينفي أنها بنيت في أواخر القرن الثاني الهجري وأنها كانت مركزا لاستقبال الوافدين عليها من الأندلس والقيروان ولا يقف حاجزا بين الحديث عن هذه المدينة في القرن الثالث خصوصا حينما تطوعت كل من الأختين فاطمة الفهرية ومريم فبنت الأولى جامع القرويين وبنت الثانية جامع الأندلس. وإن لبناء هذين المسجدين لدورا كبيرا في نشر الثقافة وتعميم التعليم سواء على الصعيد المحلي أو على الصعيد المغربي عامة.

☆ ☆ ☆

وكان بناؤهما في دولة الأمير يحيى بن محمد بن ادريس فهو الذي يقول ابن أبي زرع في حقه (ج 1 ص 75) وفي أيامه كثرت العمارة بفاس، وقصد إليه الناس من الأندلس وافريقية وجميع بلاد المغرب فضاقت بسكانها، فبنى الناس الأرباض بخارجها، وبنى الأمير يحيى الحمامات والفنادق للتجار وغيرهم».

☆ ☆ ☆

ويذكر المؤرخون أن بناء جامع القرويين كان سنة 245 هجرية، وظل القول على ذلك أيضا إلى أن وقعت بعض الاستفسارات عن هذه السنة نظرا للعثور على خشبة منقوشة داخل القرويين، كتب فيها أن هذا المسجد بني سنة 263 هجرية على يد داود بن ادريس. ويوجد هذا النقش الآن معروضا بمتحف البطحاء بفاس. وقد تحدث الدكتور عبد الهادي التازي في المهرجان الذي أقيم سنة 1960 هجرية حول جامعة القرويين بفاس عن إمكانية هذا التاريخ وعن مدى قبوله في الإطار العلمي. ونشر بحثه هذا أيضا بمجلة دعوة الحق العدد الأول من السنة السادسة عام 1962.

☆ ☆ ☆

ورغم كون هذا المسجد ومسجد الأندلس بنيا في القرن الثالث الهجري. فإن الخطبة لم تنتقل إليهما إلا في القرن الرابع فصارا حينئذ مركزين للتعبد والتعلم، ومقرين للخطابة الفكرية والدينية والسياسية، وأدى الأمر في القرن الرابع إلى وجود فتن كبرى في مدينة فاس بسبب تنافس العبيدين والأمويين. الشيء الذي أدى أحيانا إلى أن تنقسم المدينة على نفسها فيحكم عدوة الأندلس حاكم يسانده

الأمويون بالأندلس، ويحكم عدوة القرويين حاكم آخر يسانده العبيديون بالقيروان.

☆ ☆ ☆

ورغم وجود هذا الاضطراب فقد كانت الحركات العلمية تستهوي الوافدين على هذه المدينة سواء في الإطار الديني أو في الإطار الأدبي أو ما يتبعهما من بعض الاهتمامات بالإطار الرياضي أو الإطار الطبي. ولكن العطاء الإيجابي لم يظهر نظرا لوجود الفتن التي ذكرنا، ونظرا لعدم الاستقرار العام، ولهذا لم تصبح مدينة فاس ميدانا للعلم ومنطلقا للإفادة إلا في عهد المرابطين فما بعد.

☆ ☆ ☆

وهذا لا يمنعنا أن نتحدث عن بعض العناصر الثقافية التي كانت تتجلى في القرن الرابع فقد ذكر الكانوني في كتابه شهيرات النساء أن الأمويين حينما كانوا يتحكمون في مدينة فاس أثناء هذا القرن كانت لهم عناية بالطب. حتى إنهم قد أسسوا مدرسة طبية فيها، وحيث إننا لم نطلع على أصل هذا الكتاب فقد نقلنا هذا النص من كتاب الطب والأطباء في المغرب للدكتور عبد العزيز بنعبد الله الذي أشار إليه مرة أخرى في بعض أبحاثه المتعلقة بمدينة فاس في العدد الأول من السنة السادسة من مجلة دعوة الحق الغراء. وهو عدد خاص بمساجد المغرب.

☆ ☆ ☆

أما من الناحية الأدبية والفقهية فمن المعلوم أن التنافس في الحكم كان يقتضي أن يكون في البلد خطباء أقوياء، وأن تكون لهم القدرة على الاقناع والافادة، وأن تكون لهم خبرة بالدراسات الفقهية، ولهذا لا يمكننا أن نمر في هذه الحقبة دون أن نتحدث عن بعض رجال هذا العصر من الذين كان لهم وزن ثقافي كبير، ونذكر من بينهم الفقيه دراس بن اسماعيل، ذلك الفقيه الأديب الذي حرص كل الحرص على أن ينشر مذهب الإمام مالك بالمغرب، وأن يعلمه للناس على أساس من الأصول الفقهية المتبعة في هذا المذهب.

ولقد كانت دراسته العامة في المغرب أولا، ثم انتقل إلى الشرق أثناء ذهابه للحج، فاستفاد من عدد من العلماء، وتلقى منهم الحديث والفقه، وهو الذي يقول عنه الجزنائي في كتابه جنى زهرة الآس (ص 21 تحقيق ابن منصور) «وسمي دراسا لكثرة درسه العلم. وأصله من مدينة فاس، سمع من شيوخها. وله رحلة حج فيها. وسمع من علي بن أبي مطر بالاسكندرية كتاب ابن المواز، وحدث به بالقيروان. سمع منه أبو محمد ابن أبي زيد، وأبو الحسن ابن القابسي، وغيرهما. ودخل أيضا الأندلس مجاهدا وطالبا، فتردد بها في الثغر، فسمع منه أبو الفرج عبدوس بن خلف، وخلف بن أبي جعفر، وغير واحد. وكان أبو ميمونة (أي دراس بن اسماعيل) من الحفاظ المعدودين، والأئمة المبرزين، من أهل الفضل والدين، ممن له الامامة بمذهب مالك رضي الله عنه. توفي بفاس سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. وقبره بخارج باب الجيزيين منها معروف، والدعاء عليه مجاب.

☆ ☆ ☆

وإذا تحدثنا عن هذا الرجل بالذات، فلأننا نلاحظ من سيرته ما يدفعنا إلى أخذ صورة تكاد تكون عامة لجل المثقفين في عصره. فهم يأخذون عن شيوخ بلدهم، ثم ينتقلون إلى القيروان، وإلى مصر، وإلى الحجاز، ويستفيدون من جل الوافدين عليهم، ثم حين رجوعهم يصبحون مدرسين ومحدثين بما سمعوا. وقد يدخلون إلى الأندلس فيستفيدون من شيوخها ويفيدون. وهكذا يحصل تواصل علمي وتلاقح فكري، وامتزاج ثقافي قد يؤدي إلى ازدهار الفكر ونشر العلم.

☆ ☆ ☆

ولقد كانت مدينة فاس من بين المدن التي كان في إمكانها أن تستفيد في القرن الرابع أكثر مما استفادت لو لم تكن الفتن بها قد كثرت واحتدمت ولو لم يكن الاضطراب بها قد عم وانتشر.

هذا ولم يكن العلماء يكسبون قيمتهم الاجتماعية بعلمهم فقط، ولكنهم كانوا يكسبونها بالتزامهم وتفانيهم في

خدمة المجتمع وحرصهم على النفع العام. ولقد كان عدد منهم رغم تفانيهم في الطاعة ومداومتهم على العبادة يظنون أنهم مقصرون فيستغفرون الله كثيرا بكرة وأصيلا ويتقربون إليه بالدعوات ويلتمسون منه المغفرة وقد يصل بهم التضرع إلى درجة صوفية تجعلهم يجأرون بالشكوى ويجهرون بها.

ومن هؤلاء دراس بن اسماعيل الذي نتحدث عنه في هذه الحقبة فهو القائل (زهرة الآس ص 22).

غفلت وحادي الموت في أثري يحدو
وإن لم أرح ميتا فلا بد أن أغدو
أرى العمر قد ولى ولم أبلغ المنى
وليس معي زاد وفي سفري بعد
أنعم جسمي باللباس ولينه
وليس لجسمي من قميص البلى بد
كأني به قد مد في برزخ البلى
ومن فوقه ردم ومن تحته لحد
وقد ذهبت مني المحاسن وامحت
ولم يبق فوق العظم لحم ولا جلد
فكيف إذا بالنار يا رب قربت
ونارك لا يقوى لها الحجر الصلد
عسى غافر الزلات يغفر زلتي
فقد يغفر المولى إذا أذنب العبد

☆ ☆ ☆

وعلى كل حال فإن القرن الرابع الهجري بالمغرب لم يكن عصر استقرار ففيه زوحم الأدارسة بعدد من الثائرين الذين أفسدوا عليهم الحكم وتعددت أبعاد هؤلاء الثائرين فمنهم من كان مدفوعا من قبل العبيديين ومنهم من كان مدفوعا من قبل الأمويين ومنهم من كان يريد أن يتخلص منهم ومن أولئك الذين يثورون بتوجيه من حكام القيروان أو الأندلس ولهذا سنجد في هذا العصر أعلاما دخلوا تاريخ المغرب كمصالة بن حبوس المكناسي وموسى بن أبي العافية ومن أتى بعدهم من الحكام المغراويين واليفرانيين كزيري بن عطية المغراوي وكالمعز بن زيري اليفرني.

ولم ترجع الاحوال إلى طبيعتها إلا باستيلاء المرابطين على الحكم فلقد عمل هؤلاء على توحيد البلاد واستطاعوا أن يخلقوا التواصل بين المغرب والاندلس، خصوصا بعد تغلب يوسف بن يوسف تاشفين على ملوك الطوائف. وحينئذ ازدهرت مدينة فاس من جديد، وانتشر في أرجائها رجال العلم والتصوف، وأصبح الاهتمام بالعلم صورة عادية، سواء فيما يتعلق بالعلم الديني، أو العلم الدنيوي، وأصبح الفقه من جديد ذا شأن كبير عند الناس، وامتزجت النظرة الفقهية بالدراسات اللغوية، فكان الفقهاء غير جافي الأساليب، ورأينا منهم آمذاك تصاهرا فكرياً أدى إلى ازهار الرحلات، وامتزاج النظريات، ولم يكتب لهذه العناية المرابطية أن توتي أكلها في عصرهم. فقد أبعدت هذه الدولة عن الحكم في أوائل القرن السادس الهجري، واستولى الموحدون عليه، فكان عصرهم عصر ازدهار. وفيه أينعت البذور التي غرسها المرابطون في الحضارة المغربية.

☆ ☆ ☆

ونحن لو أردنا أن نرى أثر المرابطين والموحدين في الازدهار الثقافي بمدينة فاس، فنلاحظ أنه كان قويا رغم أن المركز السياسي كان مستقره آنذاك بمدينة مراكش فهي العاصمة السياسية للموحدين وهي ملتقى العام للوافدين على المغرب، ومع ذلك فإن الازدهار الفكري كان يسود مدينة فاس أكثر من غيرها حسب ما يذكره عدد من المؤرخين. ويكفينا دليلا على ذلك أننا لو أخذنا بعض الأدباء المغاربة في هذه الحقبة فنجد عددا منهم لا يستهان به ينتمي إلى مدينة فاس كأبي العباس الجراوي وابن حبوس ففي إنتاج كل منهما ما يدل على أن النشاط الفكري في مدينة فاس لم يكن ضعيفا.

☆ ☆ ☆

إن مدينة فاس في هاته الحقبة كانت ذات شهرة في الآفاق. وإن عدم كونها عاصمة للمرابطين والموحدين لم يحل بينها وبين النشاط الثقافي ومما يدل على ذلك أننا حينما نقرأ بعض الكتب التاريخية أو الأدبية نرى أنهم إذا

ذكروها أعجبوا بها وأبرزوا قيمتها في تاريخ الفكر والثقافة فقد تحدث عنها عبد الواحد المراكشي في كتاب المعجب (ص 22) فقال :

«ومدينة فاس هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب فلما اضطرب أمر القيروان كما ذكرنا بعيث العرب فيها واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت محمد بن أبي عامر وابنه. رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس فهي اليوم على غاية الحضارة وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف. ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا من ذلك فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللياقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ عنها لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ولم يتخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطنا ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة فلهذا السبب كانت مراكش كرسي المملكة وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها».

ونحن لم نستدل بهذا النص لنستصغر من شأن مراكش أو لندعي بأنها لم تكن هي الأخرى ذات اعتبار فكري في عهد المرابطين والموحدين وإنما استدللنا به فقط لنبرز أن الجانب الثقافي في هذا العهد كان في فاس أقوى من مراكش على خلاف ما ذكره الكاتب الفرنسي روجيه لوتورنو السابق الذكر حين بخس قدر فاس في هذه المدة فذكر أن المجال الفكري كان في مراكش أقوى من مدينة فاس واستدل على ذلك بأن ابن رشد وابن طفيل لم يأتيا إلى فاس وإنما أتيا إلى مراكش. وهذه حجة ليست ذات شأن يذكر لأن الدافع إلى ذلك مرجعه إلى كون مراكش كانت مقر الحكم ولا رابط بين عدم دخول هؤلاء لمدينةفاس وبين خلو هاته المدينة من رجال الفكر والأدب.

☆ ☆ ☆

ومن دلائل على اهتمام أهل فاس في هاته الحقبة بالعلم ما ورد عن بعض العلماء من أنهم كانوا مولعين بالكتب ودراستها وجمعها فقد ذكروا أن الفقيه عبد الرحمن بن ملجوم المتوفى سنة 605 هـ بيعت أوراق كتبه التي هي غير مجلدة بستة آلاف دينار.

وهذا الثمن العالي يدل على أمرين :

أولا ـ على مدى اعتناء بعض علماء فاس بجمع الكتب والاهتمام بالخزانات.

ثانيا ـ على اعتناء المواطنين بما تتضمنه هاته الخزانات وعلى حرصهم على الاستفادة من مخلفاتها ولو أدى الأمر إلى البحث عن الفائدة في الأوراق المبعثرة التي هي ليست كتبا تامة وإنما هي خروم فقط فإن انكباب المشترين على هذه الأوراق لدليل عملي على مدى اهتمام الناس بالفكر والثقافة آنذاك.

☆ ☆ ☆

ومن أسباب الازدهار الثقافي في هذه المدينة منذ نشأتها حرص المثقفين على استغلال المساجد للتثقيف العام بحيث نلاحظ أن المهتمين بالإطار الفكري والديني والأدبي لم يكونوا يقتصرون في تقديم دروسهم للعامة والخاصة على المساجد الكبرى فهم كانوا يستعملون مساجد الأحياء لذلك.

ولعل هذه الظاهرة التعليمية هي التي جعلت المرابطين يكثرون من بناء المساجد داخل هاته المدينة حتى إننا نرى في الحي الواحد مساجد مختلفة فقد نجد المسجد مثلا في أول الدرب وفي آخره وبجواره. وهذه المساجد لم تكن تستعمل للعبادة فقط بل كانت تساعد على نشر الثقافة العامة وكانت تعتبر ملتقى أولياء لبعض سكان الحي وأما المجمع العام فكان يخصص للمسجد الجامع الذي كان يعتبر مظهرا للوحدة والاتصال وللتواصل الفكري والخطابي وكانت هذه المساجد الجامعة تتعدد

أحيانا إذا ضاق المسجد الأصلي وكانت تنوع أوقات الصلوات فيها حتى يتسنى للمصلين على اختلافهم أن يقوموا بشعائر الله.

ونحن إذا ما أخذنا بعض ما يتعلق بتاريخ هذه المساجد فسنسمع كثيرا أن المسجد الفلاني كان مقرا للعالم الفلاني وأن المسجد الآخر كان مركز تثقيف وتوجيه من لدن فلان أو فلان.

وفي هذا الإطار ذكروا أن المهدي ابن تومرت كان يلقي دروسا بمسجد طريانة وأن أبا الحسن بن حنين كان يدرس بالمسجد الذي بناه بعدوة الأندلس وهكذا تتعدد الإشارات وتبقى خالدة في تاريخ مدينة فاس التي لم يكن أهلها فقط هم الذين يقدمون هذه الدروس بالمساجد فهم كانوا أحيانا يتطلعون إلى معرفة ما عند الوافدين فتتلاقح الأفكار وتعم الفائدة.

☆ ☆ ☆

إن مدينة فاس في إطار التخطيطات الفكرية تعد من المدن التي كانت تستقبل بعض الوافدين الذين كانوا يهدفون إلى شرح بعض النظريات وإلى الدعوة إلى بعض الاتجاهات العقائدية أو السياسية وكانت هذه المدينة قد اشتهرت بسعة الخاطر وتوفير المجال لمن يريد أن يشرح فكرة أو يدعو إلى نظرية وكانت تيسر للدعاة المقام المحمود ولكنها لم تكن تترك لهم مجال التعصب الأعمى ولهذا ظلت محافظة على طابعها التحريري الذي يمتاز بالاعتدال وبعدم الخروج عن الجادة وهذا هو الدافع الذي جعل لوتورنو ينص في كتابه عن مدينة فاس على هاته الظاهرة بالذات ويقول في بعض ما قال عنها بأنها كانت تنظر بتسامح لا إلى اتباع الأديان الأخرى فحسب بل إن النزعات المختلفة التي تسربت إلى الإسلام في المغرب بكامله (من كتابه فاس في عصر بني مرين ترجمة الدكتور نقولا زيادة صفحة 206).

☆ ☆ ☆

ولقد كنت أشرت في بعض ما كتبته عن مدينة فاس إلى المسجد الذي بناه أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي بكر الكناني المشهور بأبي الحسن بن حنين نسبة إلى المسجد الذي جدد بناءه في هاته المدينة فقد دخل هذا الفقيه إلى مدينة فاس من بلاد الأندلس عام 503 هجرية بعد رجوعه من رحلته إلى المشرق وبعد استمتاعه بأداء فريضة الحج وتنقله في كثير من البلاد الإسلامية وبعد اتصاله بالغزالي اتصالا جعله يومن بأخلاقه وسلوكه وبطريقته في التفكير فجاء حينئذ إلى مدينة فاس وجعلها مركزا من مراكز نشر هاته الآراء ومقرا للدعوة إليها وظل يعلم في هذا المسجد أكثر من ستين سنة واستمر به إلى أن توفي سنة 569 هجرية.

إن هذا الأندلسي غير مجهول في كتب التاريخ وكتب الطبقات توجد ترجمته بكتاب سلوة الانفاس لمحمد بن جعفر الكتاني رحمه الله كما يوجد وصف دقيق لأخلاقه وعلمه واهتماماته في كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة تأليف ابن عبد الملك المراكشي.

وقد نقل عنه كل الذين أشاروا إلى ترجمته هذين البيتين اللذين تحدث فيهما عن الغزالي وهما قوله :

خير العلم إمام أحسن الله خلاصه
بسيط ووسيط ووجيز وخلاصه

☆ ☆ ☆

ولعل مدرسة ابن حنين هاته قد استطاعت أن توجد في مدينة فاس أنصارا للغزالي يعتدون بآرائه الفقهية والأخلاقية والصوفية وأن تجعل منهم مؤازرين له في السراء والضراء ولذلك سنجد عددا من العلماء في مدينة فاس لم يتنكروا لكتب الغزالي رغم ما لاقاه كتاب الإحياء من المعارضة من لدن بعض الفقهاء في عصر المرابطين فلقد ورد في كتاب الاستقصا للناصري (ج 2 ص 48) على لسان علي بن حرزهم أنه قال «لما وصل إلى فاس كتاب أمير

المسلمين علي بن يوسف بالتحريج على كتاب الإحياء وأن يحلف الناس بالأيمان المغلظة أن كتاب الإحياء ليس عندهم ذهبت إلى أبي الفضل أستفتيه في تلك الإيمان فأفتى بأنها لا تلزم وكانت إلى جنبه أسفار فقال : هذه الأسفار من كتاب الإحياء وددت أني لم أنظر في عمري سواها. وكان أبو الفضل قد استنسخ كتاب الإحياء في ثلاثين جزءا فإذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم جزءا.

وقضية إحراق كتاب الإحياء أخذت من تاريخ المغرب اتجاهات مختلفة فهناك من عدها جريمة ضد حرية الفكر. وهناك من رأى أن ظروف الحياة في ذلك العصر اقتضت ذلك الاحراق.

ولعل الدافع الأول الذي جعل الدولة تنساق مع الفقهاء في نفس الاتجاه المؤدي إلى إحراق الكتاب مرجعه إلى أنه يتضمن بعض الآراء التي لم تفهم على حقيقتها فأدت إلى خلق نوع من التواكل لم تكن السياسة آنئاك تقتضيه فالحزم والعمل المتواصل والجدية كانت هي العناصر الإيجابية التي بنيت على أساسها دولة المرابطين زيادة على أن مقدمة الاحياء كانت تصف الفقهاء وصفا سيئا لا يتلاءم مع وضعية الفقهاء المغاربة ومع أخلاقهم ومسؤولياتهم حيث إذا شاعت تلك الأوصاف بين الناس أثارت الاضطراب وأدت إلى الفوضى وفتت الوحدة العامة التي سعت الدولة المرابطية إلى خلقها وإيجادها بين المواطنين.

☆ ☆ ☆

ولما قضي على الدولة المرابطية واستتب الأمر للموحدين عمت حركة علمية أدت إلى استخدام العنصر العقلي في التأويل والتفسير ولم يكتب لهذه الحركة انتصار في العهد المرابطي وخصوصا بالنسبة إلى الدراسات الفلسفية المتعلقة بالعقيدة لأن ذلك العصر لم يطل أما في عصر الموحدين فقد ازدهرت الدراسات العقلية والفلسفية بسبب انتشار آراء ابن رشد الذي حاول أن يرجع للفلسفة الإغريقية وزنها وأن يشرح آراء أرسطو شرحا وافيا وأن يربط في دراسته بين العقائد الشرعية وبين الدراسات المنطقية وانطلقت هاته الاتجاهات الجديدة في الدراسة العامة بمدينة فاس وبقي التوازن السكاني عاديا في هاته المدينة طوال عهد الموحدين إلا أنه لوحظ في عهد المرينيين تضخم سكاني ناتج عن الوضعية الجديدة لهاته المدينة التي أصبحت العاصمة الرسمية لبني مرين كما أصبحت الموئل الرئيسي لاستقبال عدد كبير من المهاجرين الأندلسيين الفارين من ضغط الإسبان آنذاك.

☆ ☆ ☆

إن المسلمين في تلك الحقبة أصبحوا يحسون بأن أرض الأندلس مقبلة على الفناء وأن المدينة الصالحة لاستقبالهم والمنسجمة مع عوائدهم هي المدينة ذات الأصالة والحضارة مدينة فاس العريقة في المجد موئل العلماء ومركز الصناعات المختلفة الرائعة وملجأ الأجداد الذين وفدوا عليها من الأندلس من قبل ومن القيروان.

لذلك عمل المرينيون على توسعتها وإعدادها إعدادا صالحا لاستقبال الواقدين عليها من جديد وأقاموا بها حركة علمية ما زالت آثارها بادية للعيان إلى الآن.

إن المرينيين عملوا على خلق حركة علمية في هاته المدينة فزادوا في بنائها ودشنوا مدينة جديدة بجوار العدوتين القديمتين ولهذا سنجد أن أكثر المدارس العلمية التي اشتهرت في المغرب كانت على عهد المرينيين وما زلنا إلى الآن نرى في مدينة فاس من هاته المدارس مدرسة الصفارين ومدرسة فاس الجديد ومدرسة الصهريج ومدرسة الوادي والمدرسة المصباحية المتهدمة والمدرسة العنانية التي اشتهرت في جميع الآفاق.

ولم تكن هذه المدرسة بسيطة البناء فهي كانت تعتمد على أساس هندسي يضمن جمال الأداء ويحافظ على رونق المنظر ويمتع بالنقش الجميل والخط الرائع والتلوين في الصنعة المغربية المتجلية في الخشب والزليج والجبص والرخام وكان الطالب الذي يسكنها يعيش مطمئن النفس بعيدا عن هموم الحياة يقدم له الطعام والكسوة ويتفرغ

للدراسات العلمية المفيدة ويقضي فيها سنوات دراسية لا يتمها إلا وهو بارع في علم من العلوم أو في فن من الفنون وكان يجد أمامه الخزانات العامة التي تساعده على الدراسة والاستفادة.

☆ ☆ ☆

ومما يجب التنبيه إليه أن شكل مدينة فاس الحالي ما زال يحافظ في غالبه على الهندسة المرينية التي خططت لهذه المدينة تخطيطا رائعا يستغل الطاقة المائية استغلالا كفيلا بالحفظ على مقومات الحياة بها وينشر عليها حلة من العلم ويدفعها إلى استغلال المعطيات الحضارية آنذاك فبنوا المدينة الجديدة المشتملة على ما يعرف حاليا بفاس الجديد والملاح وعلى جزء من دار الدبيبغ.

☆ ☆ ☆

ولهذا نرى المؤرخين الذين تحدثوا عن مدينة فاس بعد عصر المرينيين أو في عصرهم يقسمونها إلى مدينتين. المدينة القديمة ويعنون بها المدينة التي أسسها المولى إدريس بعدوتيها. والمدينة الجديدة ويقصدون بها المدينة التي بناها المرينيون وهي المعروفة بالمدينة البيضاء.

ويمكننا أن نأخذ صورة من أوصافهم من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي فقد أشار فيه المؤلف إلى المدينة الأولى ثم أشار بعد ذلك إلى المدينة الثانية فقال :

والثانية فاس الجديدة وهي ثلاث مدن على ضفة النهر الغربية أولها المدينة البيضاء وتعرف بالجديدة بناها أبو يوسف يعقوب ابن عبد الحق أول من استقل بالملك بعد الموحدين.

الثانية مدينة حمص ويعرف موضعها بالملاح بناها أبو السعيد عثمان بن أبي يوسف إلى جانب البيضاء المتقدم ذكرها.

الثالثة ربض النصارى وهي المتخذة لسكنى النصارى من الفرنج المتخذين لخدمة السلطان.

وهذه المستجدات الثلاث على ضفة النهر الغربية.

إن هذا التفصيل الذي ذكره القلقشندي ما زالت آثاره واضحة إلى الآن ولكن هذا لا يمنعنا من أن نتحدث عن تاريخ تأسيس المدينة البيضاء المعروفة حاليا على لسان الناس بفاس الجديد.

☆ ☆ ☆

إن المدينة البيضاء أسست في الثالث من شهر شوال سنة 675 هـ وعمل المنصور على تخطيطها تخطيطا يتلاءم مع هيبة ملكه خصوصا بعد أن استقل بالحكم وبعد أن انتهت المعارضة من الدولة السابقة التي كانت تحكم المغرب واعتمد على المهندسين البارعين وعلى هيئة التعديل التي كان مفعولها قويا في بناء المدن نظرا للاحتياج إليهم في توجيه القبلة وفي اختيار الجهات الصالحة لاستقبال الشمس وتكييف الهواء ومن الذين اعتمد عليهم في ذلك حسب ما في كتاب الاستقصا (الجزء الثالث صفحة 44) أبو الحسن بن القطان وأبو عبد الله ابن الحباك نظرا لدقة صناعتهما ومهارتهما في الخبرة الفلكية والهندسية.

☆ ☆ ☆

واستحسن أبناء يعقوب ما قام به والدهم فطفقوا يعملون على إنعاش المدينة الجديدة وتزويدها بما يحتاج إليه من مساجد ومدارس ولهذا نرى أبا سعيد عثمان بن يعقوب قد بنى سنة 720 هجرية المدرسة التي بفاس الجديد وأنفق عليها ووضع لها جرايات تعين الطلبة على التلقي والأساتذة على التلقين (الاستقصا ج 3 ص 111).

ورغم العناية التي كانت توليها الدولة لهاته المدينة ولمؤسساتها فإن نجاح ذلك كان مرهونا بالأعمال الموازية التي حققتها الأحباس آنذاك. فعن طريق الأوقاف العامة كان الطلبة يتقاضون منحهم وكانوا يجدون في كثير من المساجد من يعلمهم أو في الخزانات العامة ما يطالعونه ويقرؤونه أو في المستشفيات من يعالجهم ويعنى بصحتهم.

☆ ☆ ☆

ولهذا لا يمكننا أبدا ونحن نتحدث عن مدينة فاس أن ننسى ما كان للأوقاف من رعاية اجتماعية تشمل مختلف الاتجاهات سواء كانت اجتماعية أو تربوية. فالمطلع على نوعية الأوقاف التي كانت بمدينة فاس يستطيع أن يحكم على الدور الحضاري الفعال الذي كان لهذه المدينة.

فمن جملة ما كانت تتمتع به من أنواع الأوقاف تخصيص ريع يقدم لمحاربة الأمية ولتعليم الكبار وتخصيص نوع آخر للعلاج المجاني وتخصيص نوع لمساعدة الحيوانات وتيسير الاطمئنان لها وتخصيص نوع للثقافة الشعبية ونشر أسباب الثقافة بين المواطنين وتخصيص نوع لمساعدة الغرباء وإعانة الطلبة الآفاقيين الذين يدخلون إلى مدينة فاس رغبة في العلم هذا زيادة على نوع آخر كان مخصصا لمساعدة الفتيات المتزوجات الفقيرات بشراء ما يحتجن إليه وبإقامة حفلة الزفاف لهن.

☆ ☆ ☆

هذا وإن النهضة العلمية قد استمرت في عهد المرينيين سنوات متعددة ولكن وقع فيها شبه فتور تحدث عنه الوزان الفاسي في كتابه وصف افريقيا فقد وصف هذا المؤلف مدينة فاس وصفا حضاريا أحصى ما فيها من معالم للفكر والصناعة والتجارة فكان وصفه إلى الآن مصدرا للباحثين والدارسين.

وكانت بمدينة فاس إشعاعات علمية ساعدت هذا المؤلف على اكتساب شخصيته وعلى غزارة علمه سواء في العلوم اللغوية والإحصائية أو في علوم الطب التي كانت منتشرة في عهده فهو قد كان موظفا بمستشفى سيدي فرج الذي كان مخصصا لعلاج المرضى بالجنون وكانت هناك أوقاف لعلاج المرضى بالموسيقى استمرت إلى عهد قريب وقد كانت لهاته الظاهرة تأثيرات عملية اهتم بها علماء النفس الاجتماعي وجعلوها من مميزات الحضارة الإنسانية ومن بين الذين أشاروا إليها وأعجبوا بموقف المغرب منها الدكتور معن خليل عمر الذي كان أستاذا منتدبا من العراق للتدريس بجامعة سيدي محمد بن عبد الله فقد كتب مقالا في الموضوع نشره في العدد الأول من مجلة آفاق عربية بتاريخ مارس 1980 م واعتمد فيه على مصادر متعددة لها قيمتها في الموضوع.

☆ ☆ ☆

وكم يؤسفني وأنا أتحدث عن هاته الظاهرة القيمة التي كان يقوم بها هذا المستشفى في علاج الأمراض أن أجد من بعض الأوربيين وصفا مشوها للحديث عن مستشفى سيدي فرج فهم قد جعلوه سجنا يعذب فيه المرضى ويعاملون فيه بقسوة لا نظير لها وإن هذا الوصف ربما كان ينطبق في مرحلة من مراحله إذا كان هناك موظف منحرف ولكن لا يمكن أن يكون صورة عامة له في جميع الأحوال لأن العناية الطبية في حضارتنا العامة كانت مرتبطة بالإطار الديني وبالإطار السياسي فلم يكن الاهمال يوما من الأيام صورة سائدة يمكننا أن نجعلها الطابع الأصيل الذي تقوم عليه الرعاية الطبية خصوصا وأن الأمر كان يتعلق بمظهر ديني وأخلاقي في آن واحد ولهذا نجد شبه تناقض في وصف هذا المستشفى من قبل لوتورنو الذي ذكرناه مرارا في هذه المحاضرة فهو إذا ذكر هذا المستشفى استطرادا أثناء الحديث عن السجون بمدينة فاس وجعله صورة مخزية فهو في مكان آخر يقول (ص 43) «وما، يجب ذكره وجود مستشفى على مقربة من القيسارية وقد جدده السلطان أبو الحسن وكان في الواقع مخصصا للعناية بالمعتوهين وقد كانت لهاته البناية كما كان للمدارس والمساجد صبغة دينية وإذن يمكن أن نجزم بأن المباني العامة في فاس كانت كلها تخدم أغراضا دينية».

ففي هذا النص إشعار بأن هذا المستشفى جعل لرعاية المعتوهين وللعناية بهم وأنه يدخل في إطار الأعمال المتعلقة بالخدمة الدينية التي يرجو الإنسان من رواء عملها الأجر والثواب فكيف يتحقق الأجر مع الوصف السيء الذي وصفه به حين اعتبره سجنا مرهقا وعذابا أليما لمن يؤمه من المرضى والمصابين.

☆ ☆ ☆

ولم تكن العناية في عهد المرينيين مقصورة على الجانب الأدبي أو الفقهي بل وقع الاهتمام بالعلوم الهندسية والفلكية وكانت عنايتهم بهذه العلوم لأمرين.

الأمر الأول لما لها من الفعالية في تعمير مدنهم وفي بناء قصورهم وفي رعاية المخططات المعمارية التي أقاموها سواء في المغرب أو في الأندلس أو في الجزائر وإن مدارسهم العامة لتدل على ذلك خصوصا حينما كانوا يربطون هاته البنايات ببعض المراصد الفلكية أو الساعات الهامة التي لا يحكم صنعتها إلا بالعلم الصناعي وما زالت إلى الآن بعض آثارهم متجلية في مدينة فاس حينما نزور المدرسة العنانية ونراقب الساعة المجاورة لها.

الأمر الثاني لترويض العقل وتعويده على حل المعضلات ولقد تنبه ابن خلدون إلى ذلك في مقدمته فهو قد تحدث عن مختلف العلوم وعن فوائدها وعن أهم الكتب فيها. ومن يدرس مقدمته فسيلاحظ وهو يقرأ الفصل المتعلق بعلوم الهندسة أن ابن خلدون يقول : «أعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله واستقامة في فكره لابن براهينها كلها بينة الانتظام جليلة الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بممارستها عن الخطإ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع وقد زعموا أنه كان مكتوبا على باب أفلاطون من لم يكن مهندسا فلا يدخلن منزلنا وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغل منه الاقذار وينقيه من الأوطار والادران وإنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه».

☆ ☆ ☆

ومرت على المغرب بعد عصر ابن خلدون فترات ضعف فيها هذا العلم وقلت العناية به ولم يشعر المغرب بضرورته إلا في عهد العلويين خصوصا بعد الهزيمة التي لاقاها المغاربة في وقعة إيسلي ضد الفرنسيين حينما أراد المغرب مؤازرة الأمير عبد القادر فقد أحس المغاربة بتفوق الجيش الفرنسي ولاحظوا أن مرجع ذلك إلى بعض الآلات الحربية التي لا يمكن البلوغ إليها إلا عن طريق الاهتمام الهندسي والعلمي لهذا عمد السلطان المولى عبد الرحمن إلى إشاعة هذه العلوم ويسر لولده المولى محمد أساتذة يعلمونه كتب الهندسة وأطلعه على لغة أجنبية تساعده على شرح بعض النصوص العلمية وتيسر له غزو أولئك الذين قهرونا بسلاحهم عن طريق الاطلاع على ما يعرفون.

ومن أغرب ما يمكننا أن نراه في هذه الحقبة أن المولى محمد بن عبد الرحمن حينما ختم كتاب اقليدس أقيمت حفلة خاصة للاحتفاء بختم هذا الكتاب على غرار ما كان المغاربة يفعلونه حين ختم بعض الكتب الدينية وأنشدت في هذا الحفل قصائد تمدح العلم وتعزز موقف الدولة في حماية هذا العلم الذي هو منا وإلينا ومما ورد في هذا الحفل قصيدة نجدها في كتاب الأعلام لابن ابراهيم المراكشي وهي من نظم الشاعر المغربي المشهور سيدي التهامي المدغري الذي يعرفه المغاربة شاعرا زجالا ويستمعون إلى قصائده الرائعة في أجواق الملحون يقول في هذه القصيدة :

فانظر لهندسة تلاشى حصنها
لولا الخليفة ما بدت اطلالها
لولا الخليفة بثها في أرضنا
غربت حقيقة شمسها وحيالها
لولا الخليفة مغرقا في فنها
محيت معالمها وقد شكالها

وقد بلغ اعتزاز السلطان المولى عبد الرحمن بهذا العلم درجة كبرى جعلته يؤسس من أجل ذلك مدرسة للهندسة بمدينة فاس كان من أساتذتها ابنه الأمير محمد الرابع السابق الذكر وقد ذكر الأستاذ محمد المنوني في الجزء الأول من كتابه يقظة المغرب الحديث صفحة 103 نقلا عن المجلة الأسيوية أن الدراسة ابتدأت بهذه المدرسة من سنة 1844 م (1259 ـ 1260 هـ) ثم كانت ما تزال قائمة في عام (1296 هـ 1879 م).

☆ ☆ ☆

هذا وأن النشاط العلمي قد استمر بعد ذلك في نفس الاتجاه وازدهر بالخصوص في عهد الحسن الأول تغمده الله برحمته فشجع مختلف العلوم وأرسل البعثات إلى أوربا وأعان على نشر الكتب في مختلف المواد وساعد المطبعة الحجرية بفاس مساعدات شتى وأمر بطبع كتاب خواجة الطوسي في تحرير أصول الهندسة لا قليدس عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف (انظر الدرر الفاخرة لابن زيدان صفحة 105).

وكانت الفكرة السائدة في التعليم تقتضي الحرص على التفتح على الثقافات العصرية مع الحرص على تنظيم التعليم الديني وقد حاول المولى يوسف فيما بعد أن ينظم التعليم بجامعة القرويين وسار على نهجه السلطان المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه.

☆ ☆ ☆

وعلى سنن هؤلاء الملوك بنيت فلسفة التعليم في عهد أمير المومنين الحسن الثاني نصره الله فكان في كل مناسبة يذكر أن الأمة لا تنمو إلا عن طريق الفكر السليم والتربية الصالحة والتعليم المنتج ويبرز ذلك لشعبه الكريم في مخططات واضحة تدعو المسؤولين عن التوجيه التربوي والتوجيه العلمي إلى تحمل مسؤولياتهم بإخلاص ويبين لهم أن مشكلة التعليم يجب الا تنفصل عن الشعور الديني الموروث فإذا كان الشعب في حاجة إلى الحصانة العلمية المعاصرة لتحميه من الانقياد المادي فهو في حاجة أيضا إلى التعليم الديني ليحميه من الانزلاق في مهاوي الضلال.

☆ ☆ ☆

ورأى وفقه الله أن جامع القرويين بفاس يمكنه أن يحمل على عاتقه مسؤولية التكوين المتعلق بالثقافة الإسلامية الأصيلة لذلك أعطى أوامره ببعث الكراسي العلمية من جهة وبإعادة التنظيم التعليمي داخل المسجد ليعود له دوره الفعال في حماية الثقافة الإسلامية.

ومن المعلوم أن هذا الإحياء سيكون بعثا معنويا لمدينة فاس تستعيد به كيانها العلمي وسيكون في الوقت ذاته تحقيقا استمراريا لما رجاه المولى ادريس أثناء بناء هذه المدينة فهو القائل حينئذ «اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى فيها كتابك وتقام فيها حدودك ما أبقيتها».

ولعلنا سنرى قريبا ثمرة هذا الإحياء الذي سيكون موازيا للازدهار العلمي في سائر المجالات الضرورية التي يعمل المغرب بتوجيه من صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله على تحقيقها وتيسيرها في سائر الأقاليم لا فرق بين الشرق والغرب والشمال والجنوب فالعلم نور والله يهدي لنوره من يشاء وهو العليم الحكيم.

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ



البيعة من المولى إدريس الأول الى جلالة الملك الحسن الثاني

استمرار للبيعة الإسلامية العظمى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

للأستاذ السعيد بوركبة

عيد العرش العلوي المجيد لهذه السنة، تجسيد للذكرى الثامنة والعشرين لتربع صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني على عرش أسلافه الأماجد المنعمين.

مصادفة هذا العيد، مرور 1200 سنة على تأسيس الدولة المغربية بالمغرب الأقصى.

البيعة الإسلامية الكبرى، دعامة متينة في نظام الحكم الإسلامي، تمّ على هديها : تأسيس الدولة المغربية العتيدة منذ يوم الجمعة 4 رمضان عام 172 هـ (789/2/6م).

إنه في كل عام من شهر مارس !، يحتفل المغرب من أقصاه بإشراقة طلعة عيد العرش العلوي المجيد، هذا العيد الذي يجسد في هذه السنة الميمونة : الذكرى الثامنة والعشرين لتربع مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني على عرش أسلافه الأماجد المنعمين..

هذا العيد الذي يؤكد فيه المغاربة ولاءهم وإخلاصهم لرائدهم العظيم، ويجددون فيه تأسيلا لجلالته بيعتهم، معربين له عن تمسكهم بها، واستمراريتهم على صيانتها، وتطبيق كافة بنودها..

وإن الاحتفال بهذه الذكرى المشرقة، ليصادف في هذه السنة : مرور : 1200 سنة على تأسيس الدولة المغربية العتيدة، هذه الدولة التي استمدت تعاليمها، وتشريعها من الإسلام الذي كرّم الانسان، وحقق له عدالة اجتماعية، ألقت ظلالها على جميع أصقاع المعمور، حيث أوضحت لبنيه : معالم الطريق السوي، فقومت اعوجاجهم، وهذبت سلوكهم، وحسّنت أخلاقهم، وأرهفت مشاعرهم..

وإن المغاربة منذ أن حل بربوعهم المولى إدريس الأول، عرفوا منعطفا كبيرا في طريق الخير والهدي

والاستقرار، وذلك بعد بيعتهم إياه، وافتدائهم لشخصه الكريم بالأنفس والأبناء والأهل والأموال...

فقد بايعته قبائل بربرية عريقة في مجدها برئاسة وإشراف إسحاق بن عبد الحميد الأوربي في مدينة وليلي في يوم الجمعة رابع رمضان الأبرك عام 172 هـ (6 يبراير 789 م).

ومنذ هذا التاريخ، وتعاليم الحنيفية السمحة، قد امتدت في آفاق المغرب، امتدادا عظيما، حيث استجابت لها الأنفس، وهشت لها القلوب، وانشرحت لها الصدور، وانسابت معها ولأجلها الضمائر...

علما أن ما جاءت به، هو السبيل الوحيد لسعادتها، والمخلص لها من وطأة الحياة وبؤسها وشقائها، والقائد لها نحو الثبات والاستقرار، ونحو التقدم والازدهار.

وما أن التحق المولى إدريس الأول بالرفيق الأعلى، حتى تعاقب على قيادة المغرب بنوه وأحفاده، فساروا على هديه وسياسته ما شاء الله لهم ذلك.

كما تعاقبت على قيادة المغرب بعد ذلك : عدة أسر عريقة في مجدها ومن أهمها :

أسرة المرابطين (صفر 434 هـ)، والموحدين ؛ 15 رمضان 515 هـ)، والمرينيين (613 هـ) والوطاسيين (رمضان 876 هـ)، والسعديين (915 هـ)، ثم أسرة الأشراف العلويين (1050 هـ).

ومن المعلوم، أن كل أسرة من هاته الأسر، قد انتظم في عقد جوهرها عدة ملوك كرام، لم يتصدَّوا للقيادة، ولم يتربعوا على عرش الريادة الا بعد مبايعتهم من طرف : أهل الحل والعقد من وجهاء الأمة، وعلمائها، وقادتها السياسيين والعسكريين..

ويجب لفت النظر : إلى أن البيعة الشرعية، تعتبر الرباط المتين، والعروة الوثقى التي تربط بين الراعي والرعية، وتفرض عليهما التزامات وحقوقا، على أن هذه الالتزامات وهذه الحقوق إذا ما أخذت بعين الاعتبار وطُبقت، فإن مؤشرات الحياة المجتمعية للدولة، تأخذ طريقها نحو غد أفضل، ومستقبل واعد بالآمال..

وبما أن البيعة لها دورها الأكبر في تمتين الروابط بين المبايع والمبايع، وتشكل ـ بالتالي ـ التحاما بين الراعي والرعية، وتجعل هذه تتشبث بأذيال قيادته، وتهفو إلى طاعته والامتثال له، فإن هذا يدعونا إلى إلقاء أضواء على مفهوم البيعة وكيفيتها وأركانها، والأصل في **مشروعيتها من الكتاب، والسنة، كما يدعونا إلى ذكر أهم أنواعها في عهد الرسالة العظمى، وتجلية بنودها مع الإشارة إلى أثرها في تقوية المجتمع الإسلامي وتماسكه... وهذا هو ما يلي تباعا :**

- **مفهوم البيعة لغة وفقها :**

1) مفهوم البيعة لغة :

إن البيعة مأخوذة من باع فلان الشيء يبيعه بيعا : إذا أخرجه عن ملكه بعوض ما، والمرة منه بيعة.. والبيعة : الصفقة على إيجاب البيع[1].

2) مفهوم البيعة فقها :

إن مفهوم البيعة من الوجهة الفقهية يدل على المبايعة والطاعة للخليفة أو للأمير...

وتتجسم هذه البيعة في اليمين التي يقسم بها المبايع بين يدي المبايع عند ولايته شؤون المسلمين...

وكيفية المبايعة، هي أن يضع المبايع يده في يد الخليفة المبايع، دلالة على الالتزام بالطاعة والسمع والخضوع له في كل ما يأمره به، لمصلحة دينية، أو دنيوية...

وقد تناول ابن خلدون الكلام على البيعة، فقال :

«اعلم أن البيعة هي : العهد على الطاعة، كأن المبايع، يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه،

1) انظر مفهوم البيعة عند كل من ابن منظور في كتابه : «لسان العرب»، والفيروزبادي في كتابه، «القاموس المحيط»، والقلقشندي في كتابه : «صبح الأعشى»، وغيرهم من المتخصصين في الموضوع.

وأمور المسلمين، لاينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره..

وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد...[2]

● **أركان البيعة**

يمكن حصر أركان البيعة في أربعة أشياء :

- الخليفة أو الأمير أو الإمام المبايع (فتحا).
- الجمهور المبايع (كسرا).
- موضوع البيعة.
- صيغة البيعة.

الركن الأول : الخليفة، أو الأمير، أو الإمام المبايع :

ورد في كتاب نصوص الفكر السياسي الاسلامي، عند السنة : أن الإمام الذي يراد بيعته، يجب أن تتوفر فيه سبعة شروط :

1) العدالة على شروطها الجامعة.

2) العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.

3) سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان، ليصح معها مباشرة ما يدرك بها....

4) سلامة الاعضاء من نقص، يمنع من استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

5) الرأي المفضي إلى سياسة الرعية، وتدبير المصالح..

6) الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة، وجهاد العدو..

7) النسب، وهو أن يكون **من قريش**، لورود النص فيه، وانعقاد الاجماع عليه..[3]

2) مقدمة ابن خلدون ص : 157 مطبعة محمد عاطف.

3) يوسف يبش، ص : 149، نقلا عن «الأحكام السلطانية» للماوردي ص : 3 ـ 29.

4) انظر كتاب : الأحكام السلطانية من ص : 3 إلى 22 طبع القاهرة 1938.

وتجدر الملاحظة : إلى أن أبا يعلى الحنبلي، قد أجمل مختلف الشروط التي تشترط في أهل الإمامة، فيما يلي :

1) أن يكون قرشيا من الصميم، وهو من كان من ولد قريش بن بدر بن النضر دليل بني كنانة..

2) أن يكون على صفة من يصلح أن يكون قاضيا : من الحرية والبلوغ والعقل والعلم والعدالة..

3) أن يكون قيّما بأمر الحرب والسياسة وإقامة الحدود، لاتلحقه رأفة في ذلك، والذبّ عن الأمة..

4) أن يكون من أفضلهم في العلم والدين...[4]

وقد اتفق كل من أبي الحسن الماردي، والقاضي أبي يعلى الحنبلى فيما يجب على من تولى أمر المسلمين القيام به في عشرة أشياء[5].

1) حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع، أو زاغ ذو شبهة عنه، أوضح له الحجة، وبيّن له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسا من خلل، والأمة ممنوعة من زلل..

2) تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالم، ولا يضعف مظلوم..

3) حماية البيضة، والذّب على الحريم، ليتصرف الناس في المعايش وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس، أو مال..

4) إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

5) انظر نصوص الفكر السياسي الإسلامي... لصاحبه يبش يوسف، ص : 160 ـ 161.

5) تحصين الثغور بالعدة المانعة، والقوة الدافعة، حتى لا تظهر الاعداء بغرة ينتهكون فيها محرما، أو يسفكون فيها لمسلم، أو معاهد : دما..

6) جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم، أو يدخل في الذمة ليقام حق الله تعالى في إظهاره على الدين كله..

7) جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه نصا، واجتهادا من غير خوف ولا عسف..

8) تقدير العطايا، وما يستحق في بيت المال من غير سرف، ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه، ولا تأخير..

9) استكفاء الأمناء، وتقليد النصحاء فيما يفوضه إليهم من الأعمال، ويكله إليهم من الأموال، لتكون الاعمال بالكفاية مضبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة..

10) أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور، وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض، تشاغلا بلذة، أو عبادة، فقد يخون الأمين ويغش الناصح، وقد قال الله تعالى : «يا داود، إنا جعلناك خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى، فيضلك عن سبيل الله».

فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة، ولا عذره في اتباع الهوى حتى وصفه بالضلال.

تلكم كانت أهم الشروط التي تشترط في الخليفة.. المبايع.

- **الركن الثاني : الجمهور المبايع :**

أما الجمهور، أو الأشخاص المبايعون، فيجب أن يكونوا من أهل الحل والعقد، ويتمثلون في العلماء والرؤساء والأعيان وسائر وجوه الناس..

ولا يشترط في عقد البيعة للخليفة، أو الأمير أن يقع به إجماع من الأمة، لأن هذا يتعذر حصوله، بل يكفي أن يتولى عقد البيعة في البداية بضعة أفراد ثم تتابع بقية الأمة فيما بعد..[6].

وقد أوضح الماوردى في كتابه : الأحكام السلطانية، أن الامامة تنعقد من وجهين :

1) **باختيار أهل العقد والحل.**

2) **بعهد الإمام من قبل.**

أما انعقادها عن طريق أهل العقد والحل، فقد أوضح : أن العلماء قد اختلفوا في عدد من تنعقد به الامامة على مذاهب شتى..

فطائفة قالت : لا تنعقد الا بجمهور أهل العقد والحل من كل بلد ليكون الرضاء به عاما، والتسليم لامامته إجماعا، وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبي بكر - رضي الله عنه - على الخلافة باختيار من حضرها، ولم ينتظر ببيعته قدوم غائب عنها.

وطائفة أخرى قالت : أقل ما تنعقد به الامامة : خمسة يجتمعون على عقدها، أو يعقدها أحدهم برضى الأربعة، استدلالا بأمرين :

أحدهما : أن بيعة أبي بكر - رضي الله عنه - انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها، ثم تابعهم الناس فيها، وهم : **عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح وأسيد بن حضير، وبشر بن سعد، وسالم مولى حذيفة - رضي الله عنهم -.**

ثانيهما : أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - جعل الشورى في ستة، ليعقد لأحدهم برضا الخمسة، وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة.

6) انظر ما قاله الأستاذ علي أيت علي في رسالته : نظام الحكم في الإسلام ومدى اعتماده على مبدأ الشورى، ص : 162، طبع استانسيل، بدار الحديث الحسنية.

وطائفة ثالثة من علماء الكوفة قالت : تنعقد بثلاثة، يتولاها أحدهم برضا الاثنين، ليكونوا حاكما وشاهدين.

وطائفة رابعة قالت : تنعقد بواحد، لأن العباس قال لعلي ـ رضوان الله عليهما ـ **أمدد يدك أبايعك، فيقول الناس : عم رسول الله ﷺ بايع ابن أخيه، ولا يختلف عليه اثنان.**[7]

الركن الثالث : موضوع البيعة :

وموضوع البيعة، يتجلى في الخلافة، أو الامامة التي تترتب عن عقد البيعة، ذلكم العقد الذي يلتزم فيه طرفاه بما التزما به، فطرف يلتزم بتقديم الطاعة والولاء والامتثال في المنشط والمكره، وفي العسر واليسر، وطرف يلتزم بالعمل على تطبيق شريعة الله، وسنة رسوله ﷺ.

وهكذا تكون البيعة مدعاة للتعاون على البر والتقوى، لان الحياة الانسانية لا تقوم، ولا تستقيم الا بهذا.

الركن الرابع : صيغة البيعة :

وصيغة البيعة، تتجلى في قول المبايع للخليفة، بايعتك على بيعة رضا على إقامة العدل والانصاف، والقيام بفروض الامامة، ولا يحتاج مع ذلك إلى صفقة اليد.[8]

الأصل في مشروعية البيعة :

والأصل في مشروعية البيعة : عدة نصوص من القرآن الكريم، ومن الحديث النبوي الشريف.

أولا : من حيث القرآن الكريم :

1) قول الله تعالى :

﴿إن الذين يبايعونك، إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث، فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله، فسنوتيه أجرا عظيما﴾.[9]

2) قول الله تعالى أيضا :

﴿يا أيها النبيء إذا جاءك المومنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن، ولا يزنين،ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينك في معروف، فبايعهن واستغفر لهن الله، إن الله غفور رحيم﴾.[10]

3) قول الله تعالى أيضا :

«لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحا قريبا..».[11]

ثانيا : من حيث الحديث الشريف :

1) ما روى عن سلمة بن الأكوع، قال : «بينا نحن قائلون، إذ نادى منادي ورول الله ﷺ، أيها الناس، البيعة، البيعة، نزل روح القدس، فثرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرة سمرة، فبايعناه، فذلك قوله تعالى : ﴿لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة.....الآية.. فبايع لعثمان باحدى يديه على الأخرى، فقال الناس : هنيئا لابن عفان يطوف بالبيت، ونحن هنا، فقال رسول الله ﷺ : لو مكث كذا وكذا سنة، ما طاف حتى أطوف﴾، أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردوية.

2) ما أخرجه البخاري عن سلمة أيضا، قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قيل : على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال :على الموت !

7) نصوص الفكر السياسي الإسلامي لصاحبه يوسف يبش ص : 150، نقلا عن الأحكام السلطانية للماوردي.

8) انظر كتاب : نظام الحكم في الإسلام، ومدى اعتماده على مبدأ الشورى، للأستاذ علي آيت علي، ص : 159، نقلا عن الأحكام السلطانية للماوردي ص : 25.

9) سورة الفتح، الآية : 10.

10) سورة الممتحنة، الآية : 12.

11) سورة الفتح، الآية : 18.

3) **ماروى عن جابر،** أن النبي ﷺ، قال : «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة» أخرجه أحمد، ومسلم وأبو داود، والترمذي.[12]

4) **ماروي عن عروة،** أن السيدة عائشة رضي الله عنها، أخبرته عن بيعة رسول ﷺ، النساء قالت : «مامسّ رسول الله يد امرأة قط، إلا أن يأخذ عليها، فإذا أخذ عليها، فأعطته، قال : اذهبي، فقد بايعتك».[13]

5) **ماروي عن عبادة بن الصامت،** قال : دعانا رسول الله ﷺ، فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا : أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لاننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحاً، عندكم فيه من الله برهان».[14]

تلكم كانت بعض النصوص الدالة على مشروعية البيعة في الإسلام... ومن هنا كانت أهمّ قاعدة أساسية، يرتكز عليها نظام الحكم في الإسلام، بعد هذا نخلص إلى ذكر أشهر أنواع البيعات في عهده ﷺ.

أشهر أنواع البيعات في عهد الرسول ﷺ :

لقد بويع رسول الله ﷺ عدة بيعات، سواء قبل الهجرة أو بعدها... وإن أشهر بيعاته ﷺ قبل الهجرة هي بيعة العقبة الأولى، وبيعة العقبة الثانية...أما أشهر بيعاته بعد الهجرة فهي بيعة الرضوان التي تحدث عنها القرآن...

ويجدر بي قبل الكلام عنها، أن أوطئ لها بتمهيد يكون له بها صلة :

تمهيد :

ليس من شك، في أن النبي ﷺ كان مجدا في إبلاغ الدعوة الإسلامية إلى الناس، مثلما أمره ربه بذلك، غير أنه كان يلاقي في سبيل ذلك ألوانا من الإيذاء والإعراض من كفار قريش وغيرهم...

وكان في هذا لا يستقر في مكان خاص، بل يتنقل بين المكان والمكان، داعياً إلى ربه، محتسبا صابراً على ما يلاقيه من عنت المتعنتين، وطغيان المتجبرين، عارضا نفسه على مختلف القبائل العربية، تاليا عليها بعض ما نزل عليه من القرآن، عسى أن تدخل في دين الله، فيكثر بها سواد الإسلام، وتنطلق الدعوة في المسار الذي أراده الله، وقد كان يتحين الفرص المواتية للاتصال بهم في مواسم تجمعاتهم، سواء كانت تلك المواسم تجارية، أو دينية، يدعوهم فيها إلى منعه ونصرته حتى يبلغ رسالة ربه.. يدل على ذلك : ماساقه ابن سعد في طبقاته[15] حيث قال :

«كان رسول الله ﷺ، يوافي الموسم كل عام، يتبع الحجاج في منازلهم في المواسم بعكاظ، ومجنة، وذى المجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتي يبلغ رسالات ربه، ولهم الجنة، فلا يجد أحدا ينصره، ويقول : ياأيها الناس، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذل لكم العجم وإذا آمنتم، كنتم ملوكا في الجنة، وأبو لهب وراءه يقول : «لاتطيعوه، فإنه صابئ كاذب».

فيردون على رسول الله أقبح الردّ ويؤذونه

وساق صاحب[16] فقه السيرة ما ياتي :

«وفي السنة الحادية عشرة من البعثة، عرض نفسه على القبائل، شأنه في كل عام، فبينما هو عند العقبة (موضع بين منى ومكة منها ترمى جمرة العقبة) لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم الخير، فسألهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج، قال : أمن موالي يهود ؟ قالوا : نعم، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى ! فجلسوا معه،

---

12) انظر تفسير الشيخ مصطفى المراغي، ج : 26، ص : 101 في سورة الفتح.

13) تاريخ الطبري 174/3، الموطأ شرح الزرقاني، 398/4 ـ 399، تحفة العقول لابن شعبة، ص : 337.

14) صحيح البخاري 156/4، صحيح مسلم بشرح الأبيّ، 179/5.

15) ج : 1، ص : 200 و 201.

16) هو الدكتور سعيد رمضان البوطي، ج : 1، ص : 125.

فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

وكان مما مهد أفئدتهم لقبول الإسلام : أن اليهود كانوا معهم في بلادهم. ومعلوم : أنهم أهل كتاب وعلم، فكان إذا وقع بينهم وبين اليهود نفرة أو قتال، قال لهم اليهود : إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه، سنتبعه، ونقتلكم معه قتل عادو إرم...

فلما كلم الرسول هؤلاء النفر، ودعاهم إلى الإسلام، نظر بعضهم لبعض وقالوا :

تعالوا والله، إنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه إلى مادعاهم إليه من الإسلام، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر، ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك، فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل....

وكان هؤلاء النفر، هم :

1) أسعد بن زرارة (من بني النجار).

2) عوف بن الحارث بن رفاعة بن عفراء (من بني النجار).

3) رافع بن مالك العجلان (من بني زريق).

4) قطبة بن عامر بن حديدة (من بني سلمة).

5) عقبة بن عامر بن نابي (من بني حرام بن كعب).

6) جابر بن عبد الله بن رئاب (من بني عبيد بن غنم).

تلكم كانت هي الطليعة الأولى التي استجابت لرسول الله ﷺ، والتي كانت السبب في مجيء المجموعة الأولى التي بايعت رسول الله ﷺ في جمرة العقبة.

بعد هذا التمهيد، نوالي الكلام على أهم البيعات في عهد الرسول ﷺ.

بيعة العقبة الأولى :

من المعلوم، أن أول وفد من الأنصار، يتركب من 6 أفراد، آمن برسول الله ﷺ، وذلك بعد أن وضعت الحرب أوزارها بين الأوس والخزرج في حرب بعاث... وقد وعدوا رسول الله ﷺ، على أن يذكروا ذلك لقومهم بيثرب...

ولما وصلوا إليها، ذكروا لقومهم إسلامهم، فوجدوا قلوبهم منشرحة، ونفوسهم متلهفة لدين يجعلهم موحدين كاليهود، بل يأملون أن يكونوا خيرا منهم، فلم تبق دار من دور الأوس والخزرج إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ.

ولما استدار العام، وعادت الأشهر الحرم، وعاد موعد الحج، أتى الموسم إثنا عشر رجلا من أهل يثرب، فالتقوا هم، والنبي ﷺ، بالعقبة، فبايعوه بيعة العقبة الأولى.[17]

وهؤلاء المبايعون فيها، هم :

1) أسعد بن زرارة (من بني النجار).

2) عوف بن الحارث بن رفاعة بن عفراء (من بني النجار).

3) رافع بن مالك العجلان (من بني زريق).

4) قطبة بن عامر بن حديدة (من بني سلمة).

5) عقبة بن نابي (من بني حرام بن كعب).

6) معاذ بن الحارث بن عفراء (من بني النجار، من الخزرج).

7) ذكوان بن عبد القيس (من بني زريق، من الخزرج).

8) عبادة بن الصامت (من بني غنم، من الخزرج).

9) يزيد بن ثعلبة (من حلفاء بني غنم، من الخزرج).

10) العباس بن عبادة بن نضلة (من بني سالم، من الخزرج).

11) أبو الهيثم بن التيهان (من بني عبد الأشهل من الأوس).

17) انظر كتاب : حياة محمد، لأحمد حسين هيكل، ص : 201 ـ 203.

12) عويم بن ساعدة (من بني عمرو بن عوف،[18] من الأوس).

وكانت بيعة هؤلاء، وفق بيعة النساء التي نزل فيها القرآن عند فتح مكة...

وتتمثل بنود هذه المبايعة في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت : أن رسول الله ﷺ، قال : «تعالوا، بايعوني على أن لاتشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فعوقب في الدنيا، فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، فقال : فبايعته ـ وفي نسخة، فبايعناه على ذلك.[19]

وبعد أن تمت هذه البيعة، بعث رسول الله ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير له في يثرب، ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويفقههم في الدين، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك، واختار لهذه السفارة شابا من الإسلام من السابقين الأولين، ألا وهو مصعب بن عمير العبدري رضي الله عنه.[20]

بيعة العقبة الثانية

أو البيعة الكبرى :

ما إن حان موسم الحج في السنة 13 من النبوة (يونيو 622م) حتى حضر لأداء مناسك الحج : 75 نفرا من المسلمين، قدموا من يثرب، في ضمنهم : امرأتان، وهما :

1) نسيبة بنت كعب ـ أم عمارة ـ (من بني مازن بن النجار).

2) أسماء بنت عمر ـ أم منيع ـ (من بني سلمة).

وقد جاء هؤلاء ضمن حجاج قومهم من المشركين... وقد اتصلوا بالنبي ﷺ، سرا اتفق معهم على الاجتماع بهم في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة، حيث الجمرة الأُولى من منى، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل...

وهنا نستمع إلى قول أحد المبايعين، وهو كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، يصف لنا ماحدث في هذه البيعة، حيث قال :

«خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا أخذناه معنا ـ وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه، وقلنا له : يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا للعقبة، قال : فأسلم، وشهد معنا العقبة، وكان نقيباً».

قال كعب : «فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى أجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان من نسائنا... واجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا، ومعه (عمه) العباس بن عبد المطلب ـ وهو يومئذ على دين قومه ـ إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، وكان أول متكلم.[21]

قال العباس : «يامعشر الخزرج ـ وكان العرب يسمون الأنصار : خزرجا خزرجها وأوسها كليهما ـ إن محمدا منا

18) انظر كتاب : فقه السيرة، ج : 125/1، وكتاب : الرحيق المختوم، ص : 161 لصاحبه صفي الرحمن المباركفوري، الجامعة السلفية : الهند.

19) انظر صحيح البخاري بعد باب حلاوة الإيمان 7/1، وباب وفود الأنصار 550/1 ـ 551 واللفظ من هذا الباب، وباب قوله تعالى : ﴿إذا جاءك المومنات﴾ 727/2، وباب الحدود كفارة 1003/2.

20) الرحيق المختوم، ص : 161 ـ 162.

21) ابن هشام، 440/1 ـ 441.

حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك.

وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخزرج به إليكم، فمن الآن فدعوه. فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده».

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ماقلت، فتكلم يارسول الله، فخذ لنفسك، ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال :

«أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال : نعم، والذي بعثك بالحق (نبيا) لنمنعنك مما نمنع أزرنا منه، فبايعنا يارسول الله، فنحن، والله أبناء الحرب، وأهل الحلقة، ورثناه كابرا عن كابر.

قال : فاعترض القول ـ والبراء يكلم رسول الله ﷺ ـ أبو الهيثم ابن التيهان، فقال : يارسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك، وتدعنا، قال : فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال : **بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.**[22]

ولما هم القوم بالبيعة، اعترضهم العباس بن عبادة بن نضلة، قائلا : «هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتوه، فمن الآن، فهو، والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة.

وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا : أبسط يدك، فبسط يده، فبايعوه...[23]

وهكذا تمت هذه البيعة الكبرى، مشتملة على عدة بنود، وهي كما رواها الإمام أحمد بن جابر مفصلا، قال جابر : قلنا : يارسول الله، علام نبايعك ؟ قال : «على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى أن تقوموا في الله، لاتأخذكم في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».[24]

فأخذ الوفد في مبايعة رسول الله ﷺ، واحدا واحدا بالمصافحة إلا ما كان من المرأتين، فإنما بايعهما قولا، لأن رسول الله ﷺ ما صافح امرأة أجنبية قط.[25]

وبعد انتهاء البيعة، طلب منهم رسول الله ﷺ : انتخاب اثني عشر زعيما يكونون نقباء على قومهم، يكلفون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة فقال للقوم : أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيبا، ليكونوا على قومكم بما فيهم، فتم انتخابهم في الحال، وكانوا تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، وهاهي أسماؤهم :

أولا : نقباء الخزرج :

1) أسعد بن زرارة بن عدس.

2) سعد بن الربيع بن عمرو.

---

22) الرحيق المختوم، ص : 165 ـ 166، نقلا عن سيرة ابن هشام، 441/1 ـ 442.

23) الرحيق المختوم، ص : 165 ـ 166.

24) روى الأمام أحمد هذا الحديث بإسناد حسن، وصححه الحاكم وابن حبان، انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص : 155، وروى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت، وفيه بند زائد، وهو «أن لاننازع الأمر أهله»، انظر ابن هشام 454/1 هـ من الرحيق المختوم ص : 166.

25) انظر كيفية بيعة النساء في صحيح مسلم ج : 31/2.

3) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة.

4) رافع بن مالك بن العجلان.

5) البراء بن معرور بن صخر.

6) عبد الله بن عمرو بن حرام.

7) عبادة بن الصامت بن قيس.

8) سعد بن عبادة بن دليم.

9) المنذر بن عمرو بن خنيس.

ثانيا ـ نقباء الأوس :

1) أسيد بن خضير.

2) سعد بن خيثمة بن الحارث.

3) رفاعة بن عبد المنذر بن زبير.

وبعد انتخاب هؤلاء النقباء، أخذ النبي ﷺ ميثاقا آخر عليهم، بصفتهم رؤساء مسؤولين، فقال لهم :

«أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي ـ يعني المسلمين منهم ـ قالوا : نعم.

وبعد، فقد كانت هذه البيعة أعظم بيعة في الإسلام، ونتج عنها من الآثار الإيجابية في صالح الإسلام المسلمين منهم ـ قالوا : نعم.

وبعد، فقد كانت هذه البيعة أعظم بيعة في الإسلام، ونتج عنها من الآثار الإيجابية في صالح الإسلام والمسلمين ما نتج.

ومن اللافت للنظر : أن معاهدة بيعة العقبة هذه، قد اكتشفت من طرف بعض مشركي قريش في اللحظة الأخيرة من الاجتماع، فقام على مرتفع من الأرض، وصاح بأعلى صوته : يا أهل الأخاشب ـ المنازل هل لكم في محمد والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم ؟».

فقال رسول الله ﷺ : «هذا أزب العقبة، أما والله ياعدو الله، لأتفرغن. لك».

ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم...

وما إن سمع العباس بن عبادة بن نضلة صوت ذلك المكتشف، حتى قال لرسول الله ﷺ والذي بعثك بالحق : «إن شئت لنميلنّ على أهل منى غدا بأسيافنا».

فقال رسول الله ﷺ : «لم نؤمر بذلك، ولكن أرجعوا إلى رحالكم»، فرجعوا وناموا حتى أصبحوا.

وعندما علمت قريش بذلك أرسلت صباحا وفدا هاما من زعمائها وكبراء مجرميها إلى رؤساء يثرب، يحتجون على هذه المعاهدة، قائلين : «يامعشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وانه، والله، ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم».

وقد أجابهم الرؤساء اليثربيون، وهم يقسمون : إنه لم يكن شيء من ذلك وما علموه.

وعندئذ، مال زعماء قريش إلى تصديق المشركين، فرجعوا خائبين.(26)

ومما تجدر ملاحظته : أن بيعة العقبة هذه كانت قبل الهجرة بثلاثة أشهر فقط، بينما بيعة العقبة الأولى وقعت قبلها بعام وثلاثة أشهر تقريباً....

وبعد بيعة العقبة الثانية بقليل، هاجر النبي ﷺ، هو وأبو بكر الصديق إلى المدينة المنورة، حيث أسس فيها دولة جديدة قامت على أسس من العدالة وإحقاق الحقّ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وتميزت بالإعلان عن ميثاق عظيم ضمن مصالح السكان فيها على اختلاف مشاربهم ونزعاتهم وعقائدهم، إلى جانب ذلك : أسس الرسول ﷺ مسجدا للمسلمين يؤدون فيه صلواتهم، ويتعلمون فيه شؤون دينهم وعقيدتهم وأخلاقهم...

---

26) الرحيق المختوم، ص : 170 ـ 171، نقلا عن ابن هشام 443/1 ـ 444.

ولم يكن المسجد مقصورا على أداء الصلوات فحسب، بل كان **منتدى**، تلتقي فيه وتتآلف في رحابه المقدسة، مختلف العناصر التي كانت متفرقة في الجاهلية، كما كان **قاعدة لإدارة جميع الشؤون السياسية وغيرها... وبرلمانا لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية**، إلى **جانب كونه سكنى** يأوي إليها كثير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكونوا متوفرين على منزل، ولا مال، ولا أهل، ولا بنين...

وأما أشهر بيعة بعد الهجرة، فهي بيعة الرضوان التي نزلت فيها الآيات القرآنية، وهي كما يلي :

بيعة الرضوان :

من خلال ما سبق بيانه، يتبين لنا أن المبايعين لرسول الله ﷺ، يرتفع خطهم البياني بشكل مستمر، وأنهم كانوا في بيعة العقبة الأولى : **12 مبايعاً**، بايعوه على عدم الإشراك بالله شيئاً، وعلى عدم الزنا والسرقة، وعلى عدم قتل الأولاد، وعلى عدم الإتيان بالبهتان.. الخ.

كما كانوا في بيعة العقبة الثانية : **75 مبايعاً**، 73 من الرجال، وامرأتان كما سبق القول في ذلك.

وقد بايعوه على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والقيام بأمر الله، لاتأخذهم في الله لومة لائم، وعلى نصرة رسول الله ﷺ إذا قدم إليهم، ومنعه مما تمنع منه الأنفس والأزواج والأبناء...

وقد كان عدد المبايعين في بيعة الرضوان : 1400 مبايع على أشهر الروايات... وقد كانت بيعتهم على الموت، وقيل على عدم الفرار...

وليس من شك، في أن هذه البيعة كانت تكتنفها ظروف صعبة، لكونها وقعت في زمان وقع فيه التصميم من رسول الله ﷺ، ومن أصحابه على زيارة الكعبة، والقيام بأداء مناسك العمرة، وكان هذا في يوم الإثنين، فاتح شهر ذي القعدة **في السنة السادسة من الهجرة**، وذلك بعد بيعة العقبة الكبرى بستة أعوام وشهرين وحوالي : 15 يوماً...

أجل، لقد خرج النبي لأداء مناسك العمرة، صحبة زوجته أم سلمة وأصحابه ولم يكن معهم سلاح إلا سلاح المسافرين : السيوف في أغمادها، وتوجه نحو مكة، فلما وصل ذا الحليفة، قلّد الهَدْيَ، وأشعره، وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه وبعث بشر بن سفيان الخزاعي عيناً، يتلمس أخبار قريش، حتى إذا كان قريباً من عسفان، أتاه عينه، فقال له : «إن قريشا جمعت لك جموعا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت، ومانعوك، فقال :

أشيروا أيها الناس، فقال أبو بكر : يارسول الله، خرجت عامدا لهذا البيت لاتريد قتل أحد، ولاحرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه، قاتلناه... قال : امضوا على أسم الله.

ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فقال رجل من بني أسلم : أنا يارسول الله، فسلك بهم طريقا وعرا بين الشعاب، وسار النبي ﷺ وأصحابه حتى إذا كانوا في ثنية المرار (وهي طريق في الجبل تشرف على الحديبية) بركت راحلته، فقال الناس : حلْ، حل، فلم تتحرك، فقالوا : خلأت القصواء، فقال : ﷺ : ما خلأت، وماذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال : والذي نفسي بيده، لايسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها، فوثبت، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على حفيرة قليلة الماء، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهما من

كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه...[27]

وفي هذا الأوان، أرسلت قريش عدة سفراء إلى النبي ﷺ من أجل وقفه عن التقدم إلى البيت الحرام، فلم تفلح في كل ذلك...

وهؤلاء السفراء، هم :

1) بديل بن ورقاء، سيّد خزاعة في نفر معه.

2) مكرز بن حفص، في نفر معه أيضا.

3) عروة بن مسعود، سيد ثقيف.

4) الحليس بن علقمة الكناني.

أما الأول، فقد قال للنبي ﷺ :

«إني تركت كعب بن لؤى، وعامر بن لؤي نزلوا مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل[28] وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وان قريشاً، قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاءو، ماددتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس، فعلوا، وإلا فقد جمّوا - استراحوا - وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره.

فقال بديل : سأبلغهم ما تقول.[29]

وأما الثاني، فلما أقبل على رسول الله ﷺ، قال : هذا رجل غادر، فلما جاء وتكلم، قال النبي ﷺ له مثل ما قال لبديل، فرجع إلى قريش، وأخبرهم.[30]

وأما الثالث، فذهب إلى النبي ﷺ، فكلمه في الأمر، فقال له : مثلما قال لسابقيه، فقال عروة : أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ إن تكن الأُخرى، فإني والله، لا أرى وجوها، وإني لأرى أشوابا من الناس - أخلاطا منهم - خليقا أن يفروا، ويدعوك...

فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه، وندعه ؟ فالتفت قائلاً : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر، فقال : أما إنه لولا يد كانت لك عندي، لم أجزك بها لأجبتك، ثم جعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تلكم، أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال له : أخّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، فقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة، فقال : أي غدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس ؟ ثم إن عروة، جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه... قال : فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم، ابتدروا أمره، وإذا توضأ، كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا، خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر، تعظيماً.

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدا... وانه قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها.[31]

أما الرابع : فقد قال لقريش : دعوني آته، فقالوا : آته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ : هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها، فبعثوها له، واستقبله القوم يلبون فلما رأى ذلك، قال :

27) فقه السيرة، للدكتور سعيد رمضان البوطي، ج : 2، ص : 137 - 138.

28) العوذ جمع العائذ، وهي الناقة ذات اللبن، والمطافيل، الأمهات من النوق إذا كان معها أطفالها، يريد أنهم خرجوا بكل ما يحتاجون حتى لايرجعوا إلا بعد أن يمنعوا المسلمين من دخول مكة، فقه السيرة، ج : 138/2.

29) فقه السيرة، ج : 139/2.

30) فقه السيرة، ج : 139/2.

31) فقه السيرة، ج : 2، ص : 139 - 140.

سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فرجع إلى أصحابه، فقال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا، وجرى بينه وبين قريش كلام.[32]

ولما فشلت سفارات هؤلاء، بعث رسول الله ﷺ لقريش : **خراشة بن أمية**، إيثاراً للمسالمة والمودة، فعقروا ناقته وهموا بقتله، لولا أن تداركه بعضهم فأنقذوه، وردوه إلى قومه، فأراد النبي ﷺ أن يرسل عمر بن الخطاب إليهم[33] فاعتذر عمر قائلاً : يارسول الله، ليس لي بمكة أحد من بني كعب، يغضب لي إن أوذيت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وانه مبلغ ما أردت... فدعاه وأرسله إلى قريش، وقال :

«أخبرهم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عمارا، وادعهم إلى الإسلام، وأمره أن يأتي رجالا بمكة مومنين، ونساء مومنات، فيبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لايستخفي فيها أحد بالإيمان».

فانطلق عثمان حتى مر على قريش ببلدح، فقالوا له : أين تريد ؟ فقال : بعثني رسول الله ﷺ كذا وكذا، قالوا : قد سمعنا ماتقول، فانفذ لحاجتك، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، ثم أسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، وأجاره وأردفه حتى جاء مكة، وبلغ الرسالة إلى زعماء قريش، فلما فرغ، عرضوا عليه أن يطوف بالبيت، لكنه رفض العرض، وأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ.[34]

«فأمروا بحبسه ثلاثة أيام، وأشاع الناس : أن عثمان قد قتل مع العشرة الذين كانوا معه، فوقف النبي خطيبا بين قومه قائلا : «إن كان حقا ما سمعناه، فلن نبرح الأرض حتى نناجز القوم... والبيعة، البيعة... أيها الناس، فتوافد الناس يبايعون الرسول ﷺ، فنزل قوله تعالى : ﴿إن **الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله، فسنوتيه أجرا عظيماً﴾**.

فلما سمعت قريش بأمر البيعة، وبثبات النبي ﷺ خلعت ثوب خيلائها، وأطلقت سراح عثمان ومن معه، ثم أرسلت من قبلها : سهيل بن عمرو العامري، وحويطب بن عبد العزى، وكانا من عظماء قريش، وكبار وجهائها، لعقد معاهدة مع النبي ﷺ، فاستبشر بذلك النبي.

وكان من حديثه مع سهيل أن قال له : «لم لا تمكنوننا من البيت نطوف به ؟ فأجابه سهيل : والله، لايتحدث العرب أننا أخذنا ضغطة، ولكن لك ما تريده في العام القابل، ثم تمّ الأمر على الصلح على :

1) ترك القتال، ووضع الحرب بينهم عشر سنين، حيث يأمن بعضهم بعضاً.

2) ورجوع المصطفى عامه هذا، ومجيئه في العام القابل، حيث يخلون له مكة ثلاثة أيام، على أساس أن لايدخلها مع أصحابه إلا والسيوف في أغمادها.

3) وإذا جاءه رجل منهم، ولو كان مسلما، أن يرده إليهم، وإذا جاءهم رجل من عنده، أن لايردوه إليه.

4) ومن أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش، دخل فيه، ومن أراد الدخول في عهد قريش، دخل فيه.

ولما تم الأمر، ولم يبق إلا كتابة المعاهدة، وثب عمر بن الخطاب، فجاء إلى أبي بكر، وقال له : أليس هو برسول الله ﷺ ؟ قال : بلى ! قال : أو لسنا بمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟ فقال أبو بكر : ياعمر، إنه رسول الله، وليس يعصي ربه، وهو ناصره،

---

32) الرحيق المختوم، 380 ـ 381.

33) انظر كتاب : محمد ﷺ المثل الكامل، لمحمد أحمد جاد المولى بك ص : 189 ـ 190، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر، ط : 5، 1380 هـ موافق : 1961.

34) الرحيق المختوم، ص : 382 ـ 383.

فاستمسك بغرزه ـ ركابه ـ حتى تموت، فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ.[35]

تلكم كانت أشهر البيعات في عهد الرسول الله ﷺ، والآن نتكلم على أثرها في تقوية المجتمع الإسلامي وتماسكه.

أثر البيعة في تقوية المجتمع الإسلامي، وتماسكه :

بالنظر إلى ما راج من حوار بين النبي ﷺ، وبين الأنصار الوافدين عليه من يثرب في مضمون البيعة، تتبين أن البيعة عقد رضائي اختياري قد التزم طرفاه بالتزامات، من شأنها أن تربط فيما بينهما برباط محكم، يجعلهما في التحام دائم وتعاون وتناصر مستمرين مادام المتلزم به قائماً، كما نتبين ما كان لهذه البيعة من أثر في المجتمع الإسلامي آنذاك، من من حيث **تقويته، أو من حيث تماسكه...**

أما أثرها من حيث تقوية المجتمع الإسلامي،

فيمكن إجماله : في أن بيعة العقبة الأولى التي بايع فيها 12 يثربيا رسول الله ﷺ، كانت سببا في نشر الدعوة الإسلامية في مدينتهم، مما جعل الصدور تنشرح لها، والقلوب تهفو إليها، فوفد على رسول الله ﷺ بعد ذلك : 75 مبايعا، مثلما ازداد عدد المبايعين في بيعة الرضوان إلى حدود 1400 مبايع، كما أخذ هذا العدد يتكاثر مع الأيام حتى أنه عندما وقع الفتح الأعظم في السنة الثامنة للهجرة بمكة المكرمة، أقبل كثير من المبايعين على رسول الله ﷺ من الرجال والنساء، وكان عدد النساء اللاواتي بايعن رسول الله ساعتئذ، يربو على 500 امرأة...

وإذا تبينا ما للبيعة من أثر في ازدياد الداخلين في الإسلام، فإنه لايفوتنا أن نشير إلى أن النبي ﷺ لم يأل جهدا في تعليم وتربية وتهذيب هؤلاء الداخلين فيه...

وإن هذا التعليم كان قبل هجرته ﷺ إلى المدينة وبعد هجرته إليها...

على أنه لم يكد يستقر فيها بعد الهجرة حتى أسس مسجدا، وآخى بين المهاجرين والأنصار وأعلن بن وثيقة هامة،[36] تضمنت حقوق وواجبات الموجودين في المدينة من المومنين، واليهود والمشركين وغيرهم..

وإن المسجد الذي يعتبر المؤسسة الأولى في الإسلام لعبادة الله تعالى زيادة على كونه مقرا للعبادة، فإنه كان **المدرسة الأولى** التي كان يعلم فيها رسول الله ﷺ الداخلين في دعوته، فيقوم بتوجيههم، وتربيتهم، وتهذيبهم ليعيد صياغتهم من جديد، حسب مايتلاءم والتعاليم الربانية الهادية..

كما كان المسجد **ثكنة عسكرية** يتدرب فيها حماة الإسلام الذين باعوا أنفسهم لله، لينطلقوا في مواجهة الذين اعتدوا ـ وما يزالون ـ يعتدون عليهم لمحقهم من الوجود، وخنق رسالتهم في مهدها...

وهكذا أخذ حجمهم يتزايد كثرة، بعد أن كانوا قلة، فارتفع خطهم البياني في غزوة بدر الكبرى إلى **314 مقاتل**، بينما أعداؤهم كانوا مابين **900 و 1000 مقاتل...**

---

35) محمد ﷺ المثل الكامل ص : 190 ـ 191.

وانظر الحوار الذي دار بين النبي ﷺ، وسهيل بن عمرو عند كتابة هذه المعاهدة لما أمر عليا أن يكتب : بسم الله الرحمن الرحيم... الخ في كتاب : الرحيق المختوم، ص : 384.

وانظر أيضا ما ورد في كتاب : محمد ﷺ المثل الكامل، ص : 192.... من أسرار لهذه المعاهدة التي امتعض المسلمون من محتواها، من بينها :

1 ـ أنه عقد هذه المعاهدة على هذا الشكل، ليكون قدوة صالحة لأهل الزعامة في سعة الحيلة، وبعد النظر، وسداد الرأي، ونيل المطالب من أنبل سبلها وحتى قال أبو بكر : ما كان فتح الإسلام أعظم من فتح الحديبية...

2 ـ وأنه عقدها، مؤثرا السلم على الحرب، لكون الصلح أدى إلى اختلاط المسلمين بالمشركين، وإسماعهم القرآن، وتبليغهم حقيقة الدين، وإرسال الرسل لتبليغ ملوك جزيرة العرب، وما اتصل بها من الشام ومصر وفارس : الدعوة الإسلامية... الخ.

36) انظر بنود هذه الوثيقة في مجلة البينة العدد : 1 إعداد وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية لسنة 1382 هـ 1962م لتحليل الأستاذ علال الفاسي 2) الرسالة الخالدة ص : 106 لعبد الرحمن عزام، دار الفكر ودار الشروق، المطبعة العربية، بيروت، سنة : 1969.

وأخذ هذا الارتفاع في استمرار دائم في غزواته ﷺ.. فقد كان عدد المقاتلين من المسلمين في **غزوة أحد : 700... وفي غزوة الأحزاب 3000 مقاتل، وفي غزوة الفتح الكبرى : 10.000 مقاتل، وفي غزوة حنين : 12.000 مقاتل وفي غزوة تبوك : 30.000 ألف مقاتل**، وكلهم مدجج بأنواع السلاح المناسبة لما عند خصومهم الألداء.

وهكذا نلمس ما كان للبيعة من أثر في تقوية المجتمع الإسلامي في فجر الإسلام...

وأما أثرها في تماسكه، فيمكن تبينها من خلال معطيات بنود البيعة، هذه المعطيات التي تنص على : **عدم الإشراك بالله، وعلى عدم السرقة، وعلى عدم الزنا، وعلى عدم الإتيان بالبهتان، وعلى عدم العصيان في معروف... وعلى السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام في الله حيث لاخوف من لوم اللائمين، وعلى نصرة رسول ﷺ على من حاربه، ومنعه مما تمنع منه الأنفس والأزواج والأبناء...**

فهذه المعطيات من شأنها أن تجعل من المجتمع الإسلامي، مجتمعا متماسكا ! لأنها تطهره من رجس الوثنية، وتهديه بالتالي إلى عبادة إله واحد، كما تنمي فيه احترام ملكية الغير حتى لايتعدى على ماله، وتربي فيه الابتعاد عن الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، وتنمي فيه عنصر الطاعة والامتثال للقائد الأعلى في كل الظروف... إلى جانب أنها تجعل من أفراده مراقبين لما يسري في مجتمعهم من معروف، ولما يرتكب فيه من منكر، فيدعون إلى المعروف، ويشجبون المنكر أينما كان، ومن أي شخص صدر، كما تجعل من أفراده جنودا مجندين وراء رسول الله ﷺ...

فمن **طهارة الأبدان، إلى طهارة الأفئدة، إلى تطبيق ما أنزل الله من تعاليم، إلى التمسك بتوجيهات الرسول ﷺ**، ومن ضمنها ما قام به من عمليات التآخي بين المهاجرين والأنصار إثر الهجرة، حيث آخى بين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، وبين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وبين أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وبين عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع إلى غيرهم.

فكل هذه الأشياء جعلت من المجتمع الإسلامي، مجتمعا متماسكا، خاصة عندما نزلت الآية القرآنية التي تهدف إلى أخوة المومنين قاطبة، حيث قال الله تعالى : **﴿إنما المومنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾**،[37] كما قال رسول الله ﷺ : «المومن للمومن، كالبنيان، يشد بعضه بعضا»،[38] وقال : «لاتباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم، أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»،[39] وقال : «المسلم أخو المسلم، لايظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما، ستره الله يوم القيامة».[40] ونظراً لما سبق، فإن المجتمع الإسلامي قد استطاع بفضل الله أولا، وبفضل البيعة لرسول الله ﷺ وعلى آله وسلم مع العمل على تطبيق بنودها ثانيا، أن يتوحد ويتقوى ويتماسك، حيث أخذ في شق طريقه نحو مجتمع أفضل وأعد بمد حضاري عظيم لم تشهد الدنيا مثيلا له في الحياة الإنسانية، خطوة خطوة نحو تحقيق التقدم والاستقرار....

37) الآية 10، سورة الحجرات.
38) صحيح البخاري 890/2.
39) صحيح البخاري 896/2.
40) مشكاة المصابيح 442/2.

وبعد، فبمناسبة حلول الذكرى 28 لتربع مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني على عرش أسلافه الميامين، أغتنم هذه الفرصة السعيدة لأتقدم إلى مقامه العظيم، بأغلى آيات التهاني والتبريك، موصولة بأصدق مشاعر الحب والوفاء والولاء، راجيا من المولى العلي القدير أن يمد في عمره ويرزقه الصحة والسلامة والعافية، حتى يحقق لشعبه ولكافة الدول العربية، والإفريقية، والإسلامية، ما تصبو إليه نفسه من رقي، وتقدم، وازدهار.. ويحفظه في سمو ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد، وفي صنوه السعيد، سمو الأمير المولى رشيد وفي باقي أسرته الصغيرة والكبيرة على السواء، إنه سميع النداء، ومستجيب الدعوات.

الرباط : السعيد بوركبة

مصادر البحث ومراجعه

1 ـ القرآن الكريم.
2 ـ تفسير الشيخ مصطفى المراغي.
3 ـ صحيح البخاري.
4 ـ صحيح مسلم.
5 ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد.
6 ـ سيرة ابن هاشم.
7 ـ مقدمة ابن خلدون.
8 ـ تاريخ الطبري، لابن جرير.
9 ـ نصوص الفكر السياسي الإسلامي، عند السنة للأستاذ يوسف إيبش.
10 ـ الأحكام السلطانية، للماوردي.
11 ـ نظام الحكم في الإسلام، ومدى اعتماده على مبدأ الشورى، للأستاذ علي آيت علي.
12 ـ فقه السيرة، للدكتور سعيد رمضان البوطي.
13 ـ حياة محمد، لأحمد حسين هيكل.
14 ـ الرسالة الخالدة، للأستاذ عبد الرحمان عزام.
15 ـ الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري.
16 ـ محمد ﷺ المثل الكامل، للباحث محمد أحمد جاد المولى بك.
17 ـ مجلة البينة، ج : 1، إعداد وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية.

عودة القرويين

ضمان للوحدة المغربية الكبرى

للدكتور
عبد السلام الهراس

- ما سررت في حياتي سروري بعودة الروح لجامع القرويين لقد كان الاستقلال إنجازا عظيما، وكانت المسيرة عملا فذا، إذ كان انتصارا في دوامة الصراع بين المغرب وخصومه التاريخيين، الذين جعلوا وكدهم الانتقاص من أطرافه، وتفتيت وحدته، والحيلولة بينه وبين إفريقيا، أي : محاولة الحد من رسالته الحضارية التاريخية التي تحمل مسؤوليتها خلال التاريخ.

- لكن عودة القرويين إلى الوجود الحضاري الإسلامي كان بعثا للروح التي تحقق للاستقلال أعمق مغازيه ومقاصده ويعطي للمسيرة أجمل بعدها وثمرة تحدياتها.

- إن الوحدة التي ينشدها شعب المغرب العربي والتي كانت تتردد أصداؤها في الضمائر وعلى الألسنة عبر تاريخ النضال والجهاد على مدى أكثر من قرن، لا يمكن أن تتعمق بتقارب التراب، وتوافق المصالح، وتكامل الاقتصاد، ووحدة الجبال والتضاريس، إلا إذا كانت هناك وحدة ثقافية مبناها الدين ولحمتها وسداها القرآن والسنة، وغايتها إقلاع حضاري يعيد لهذه الأمة مجدها، ويمكن لها في الأرض كما مكن لها من قبل ويجعلها جديرة بأن تخاطب كأمة ذات حضارة وهيبة وكيان محترم.

- ولقد جربت قيادات المغرب العربي الإسلام في مكافحة الاستعمار ومواجهة تحدياته المختلفة الشرسة منها والناعمة، فكانت العاقبة كلها خيرا، كما رأينا، تحررا من ربقته وانعتاقا من قيوده وفرضا لإرادتنا رغم مؤامراته وعناده وإصراره !!

- ولو كانت بيان تلك الروح بقيت تهيمن على شعوب المنطقة بعد استقلالها لتحقق إقلاعنا الحضاري قبل أن نداهم بكثير من المعوقات التي لا تخفى على أحد !!

وقد لاحظنا أن التفكير في وجوب عودتنا إلى أصالتنا الثقافية ببعث الحياة في المؤسسات العلمية العظيمة في المغرب العربي كله كان متناسقا وشاملا في كل من المغرب والجزائر وتونس :

فلقد بدأ المغرب بانطلاقة الكراسي العلمية التي كان لها أكبر الأثر في بعث الأمل في نفوس كثير من طلاب العلم. ولا أذيع سرا إذا ما حكيت أن الوزير الأول التونسي السيد الهادي البكوش كان قد حل ضيفا بالمغرب إبان كونه وزيرا في العهد البائد فقام بزيارة خاصة للقرويين، ووقف أمام بعض علمائه وهو يلقي درسه على طلابه. فأعجب بذلك أيما إعجاب والتفت إلى بعض من يرافقه وقال له : هكذا يجب أن نفعل في تونس لتعود الزيتونة

كما كانت وسرعان ما تحققت الفكرة في العهد الجديد فاستردت تونس هويتها بعودة الروح إلى الزيتونة العظيمة.

- أما الجزائر التي كانت بجاية وتلمسان أهم مناراتها العلمية فقد أسست معاهد إسلامية كثيرة، وتوجت ذلك بتأسيس جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية بقسنطينة وهي جامعة تعد بالكثير لإدارتها الحازمة الصادقة وأساتذتها المتحفزين النشيطين وطلابها الطموحين الصالحين. وهكذا نرى تناسقا في التفكير وتوافقا في الإنجاز وتشابها في الاتجاه واتساقا مع التاريخ واستجابة لبعض مقتضيات الصحوة الإسلامية التي لا ترضى دون أن تكون هذه المنطقة الإسلامية دولة قوية ولن تكون كذلك إلا إذا اعتمدت على عوامل القوة والحياة والنمو والازدهار التي تكمن في البناء الثقافي الإسلامي الذي يؤاخي بين الأرواح ويوحد الارادات وينسق الجهود ويسدد الاتجاه ويضاعف المسيرة ويحرق المسافات ويختصر الأبعاد ويعوض ما فات ويسترد ما ضاع... **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم﴾.**

☆ ☆ ☆

- إن سر تقدم اليابان هو محافظتها على تقاليدها وتقديسها لمبادئها وإخلاصها لمؤسساتها الدينية وشعورها بالعراقة والأصالة وأنها مؤهلة للقيام بمهمة حضارية تنافس الحضارة الغربية في أقوى ما تملك من وسائل التقدم التكنولوجي حتى أصبحت أمة عملاقة تتجدد في كل لحظة وتتقدم في كل برهة مما أدهش العالم المتقدم وجعله يحسب لها ألف حساب... وكذلك حال ألمانيا الغربية التي تملكتها روح أصيلة جعلتها تتجاوز جيرانها وحلفاءها الذين يتحكمون فيها مما جعلها في مقدمة الدولة المصنعة.

- إن الشعب المغربي الكبير الذي يمتد من حدود السينغال إلى مشارف الاسكندرية ليس بأقل عبقرية من اليابان وألمانيا غير أنه يحتاج إلى استرداد ثقافته، واستعادة روحه التي تبعث الحيوية في عقله وقلبه وجوارحه وتمده بالقوة والحماس والحكمة والتنسيق والتوافق ليبدأ حركته الهادفة ومسيرته العظمى، إذ ليس له ما يربطه بأرضه وترابه ووقته وظرفه سوى ثقافته التي تنسج كيانه على البناء والتشييد والترشيد والإبداع والتجديد، ليكون قائدا رائدا وعزيزا سائدا، لأن الشخص الذي يشعر بمسؤوليته أمام الله والعباد والتاريخ والمعاد عن عمره فيما أفناه وشبابه فيما أبلاه ووقته فيما قضاه، وعما سخر الله له من ثروات طبيعية وما زوده به من عقل وفكر لهو الشخص الذي يستحق خلافة الله في الأرض.

☆ ☆ ☆

- إن جامع القرويين وأصناءه بالمغرب الكبير، أسسه أجدادنا لبناء الإنسان وتكوين شخصيته في مختلف الأزمنة والعصور لينهض بأمته ويمدها بالحيوية والنشاط ويضمن لها العزة والتفوق واجتياز العقبات والتغلب على الصعاب، وبتعاقب أجيالها وتوالي عصورها لا يزداد تراثها إلا غنى وازدهارا وتجددا وتطورا وانتشارا وذلك بفضل ما للجوامع العظيمة من قدرة على الجمع والتوحيد والتقوية والتسديد لذلك وصف القرآن الكريم بشدة الظلم وغايته كل من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعى في خرابها، «ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها». كذلك يوصف بأجمل صفات الفضل والعدل من أحياها وسعى في تعميرها بذكر الله وأحباب الله وطلاب العلم لخدمة الأهداف التي يرضاها الله... ومن أشرف أهدافنا وأجل مقاصدنا تحقيق الوحدة الشاملة بين أقطار مغربنا الكبير تحت لواء القرآن الذي لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه... **﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾.**

تطوان : عبد السلام الهراس

العرش في المغرب

دعم متواصل للفكر والإبداع

للأستاذ عبد الجواد السقاط

في خضم الاحتفال بمرور اثني عشر قرنا على قيام الدولة المغربية، منذ عهد إدريس الأول في أواخر القرن الثاني للهجرة إلى عهدنا الحسني الزاهر، يتجه القلم في هذه السطور الموجزة إلى استعراض بعض الأدوار التي لعبها العرش المغربي طوال هذه القرون، ولا يزال، في دعم الحركة الفكرية والإبداعية بهذه الربوع، والعمل على استمرارية هذا الفكر والإبداع في نماء متطور، وتجدد خلاق.

ولعلنا ونحن نحاول رصد هذه الأدوار، أو بعضها على الأصح علما بأن استعراضها جميعها لا يسمح به مثل هذا المقال المحدود، نكتفي بالوقوف عند زمرة منها على سبيل المثال لا الحصر.

1) أول ما يلفت النظر في هذا الدعم تلكم المساهمة السلطانية في العطاء الفكري والأدبي، وهي مساهمة تميزت بالتنوع والتعدد، خاصة وأن معظم الملوك المغاربة قد كانوا يتحلون بثقافة علمية أو أدبية أهلتهم لممارسة الكتابة شعرا أو نثرا، الشيء الذي يعتبر لونا من ألوان التشجيع والدعم، لاشك أنه كان عاملا من عوامل ازدهار الفكر والإبداع على مر العصور والأجيال.

فإذا نحن وقفنا عند الدولة الإدريسية، تأكد لنا من خلال كثير من المصادر التاريخية أن عددا من رجالات هذه الدولة ثبتت عنهم نصوص شعرية تدل - رغم قلتها - على تمرسهم بالشعر، وتخيرهم له للإعراب عن هواجسهم وعواطفهم من جهة، ومن جهة أخرى لتخليد بعض الأحداث السياسية التي عرفها المغرب آنذاك، سواء في ذلك المولى إدريس الأزهر أو ابنه القاسم أو أبناؤهما وأحفادهما ؛ من ذلك مثلا قول المولى إدريس الثاني متشوقا إلى أهل بيته :

لو مد صبري بصبر الناس كلهم
لكل في روعتي أو ضل في جزعي
وما أريع إلى يأس ليسلمني
إلا تحول بي يأس إلى طمع
وكيف يصبر مطوي هضائمه
على وساوس هم غير منقطع
إذا الهموم توافت بعد هجعته
كرت عليه بكأس مرة الجرع
بان الأحبة واستبدلت بعدهم
هما مقيما وشملا غير مجتمع

كــــأنني حين يجري الهم ذكرهم
على ضميري مخبـــول من الفـــزع
تـــأوي همـــومي إذا حركت ذكرهم
إلى جـــوانـــح جم دائم الهلـــع[1]

☆ ☆ ☆

وإذا لم تسعفنا المصادر بشيء من هذا عند ملوك الدولة المرابطية، فإنها على العكس من ذلك قد أسعفتنا بنصوص شعرية لكثير من ملوك الدولة الموحدية كعبد المومن، ويعقوب المنصور، والمامون، والمرتضى الذي وقف صاحب النفح على سفر مجلد من شعره[2]. وكنموذج للمرتضي هذا قوله في شهر المولد النبوي الشريف :

وافى ربيـــع قـــد تعطر نفحـــه
أذكى من المســك العتيق نسيمـــا
بـولادة المختـــار أحمـــد قـــد بـــدا
يـزهـو بـــه فخرا وحـــاز عظيمـــا
بشرى بشهر فيـــه مـــولـــده الـــذي
مـــلأ الـــزمــــان عـــلاؤه تعظيمــــا
ضـــاءت بـــه شرق البـلاد وغربهـــا
وتـــأنقت أرجـــاؤهـــا تنعيمـــا
فـــاعتـز أمر اللـــه يـوم طلـوعـــه
وغـــدا بـــه دين الإلـــه قـويمـــا
فـــاعرف لهـــذا الشهر حقـــا قـــدره
فلقـــد غـــدا بين الشهـور كريمـــا
شهر كريم جـــاء فيـــه محمـــد
صلـــوا عليـــه وسلمـــوا تسليمـــا[3]

هـذا علاوة على بعض الأمراء كـأبي الربيـع سليمـان الموحدي الذي ترك ديوانا شعريا حافلا.[4]

وعلى المنوال نفســه نسج الكثيرون من ملوك الـدولـة المرينيـة وأمرائهـا، وخـاصـة منهم أبـو عنـان الـذي وقفت المصادر التاريخية مطولا عند ثقافته الواسعة، وممارسته الأدبية المتنوعة. فقد قرض هؤلاء الملوك والأمراء الشعر، في أغراض متعددة، وبأساليب متباينة، سواء منهم من كان يعد شعره أو من كان يرتجله[5]. وكنموذج لهذا الشعر نكتفي بأبيات للأمير أبي علي الحسن بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق خاطب بها أخاه أبا الحسن أيام حصارها له بسجلماسة وقد أيقن بزوال أمره :

فــلا يغرنـــك الـــدهر الخـؤون فكم
أبـــاد من كـــان قلبي يـــا أبـــا الحسن
الـــدهر من كـــان لا يبقى على صفـــة
لابـــد من فرح فيـــه ومن حـــزن
أين الملـــوك التي كـــانت تهـــابهم
أســـد العرين ثـــووا في اللحـــد والكفن
بعـــد الأسرة والتيجـــان قـــد محيت
رســـومهـــا وعفت عن كـــل ذي حسن
فـــاعمـل لأخرى وكن بـــاللـــه مـؤتمرا
واستغن بـــاللـــه في سر وفي علن
واختر لنفســـــــك أمرا أنت آمره
كـــأنني لم أكن يـــومـــا ولم تكن[6]

وكذلك كان الأمر بالنسبة للأشراف السعديين، ملوكا وأمراء، ولاسيما أحمد المنصور الذهبي الذي ثبتت عنه نصوص شعرية كثيرة، إلى جانب ظاهرة التأليف التي أكدت المصادر على مساهمته فيها بأكثر من كتاب. فقد تحدث المقري عن هذه الظاهرة فقال : «وأما تآليفه نصره الله فمنها كتاب «المعارف في كل ما تحتاج إليه الخلائف»

1) الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى لابن تاويت، ج 1، ص 18.
2) نفح الطيب للمقري، ج 3، ص 542.
3) الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي للدكتور عباس الجراري، ص 97.
4) انظر كتاب «الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي» للدكتور عباس الجراري.
5) انظر في الموضوع «شعر السلاطين والأمراء المرينيين» لرضوان بنشقرون، مجلة المناهل، عدد 35، السنة 13، ربيع II 1407 هـ، دجنبر 1986.
6) الاستقصا للناصري، ج 3، ص 120.

مضنه علم السياسة، وهو غاية في بابه لم يؤلف مثله، ومنها تأليف في الجواب عن حديث علي والعباس رضي الله عنهما وفاطمة ابنة النبي ﷺ في حديث لا نورث، ما تركناه صدقة، أخبرني من رآه أنه تأليف غريب في بابه... ومنها كتاب الأدعية والأذكار، وسماه «العود أحمد»[7]، هذا علاوة على ديوان جمع فيه شعراء أهل البيت النبوي، وأتى فيه على أزيد من ألف ترجمة[8].

ولعلنا نقتصر هنا من شعر هذه الدولة على مساجلة شعرية دارت بين الأمير السعدي محمد بن عبد القادر وبين كاتبه الإمام عبد الواحد الشريف عندما كانا في بعض الأسفار، وكان اليوم ممطرا، إذ قال الأمير :

لله أشكو غداة السح إذ ركدت
يسرى المطايا وحادي الريح يحدونا

فقال الكاتب :

والغيم في الأفق قد أرخى ذوائبه
بأسهم الودق لا ينفك يرمينا

فقال الأمير :

حتى استوى الماء في الأكمام واستترت
معالم الرشد لا خِرِّيتَ يهدينا
فظلت الخيل في الأمواج سابحة
سبح الأساطيل ليت الدهر يرضينا

فقال الكاتب :

والنفس في قلق لبين مألفها
والشوق يجذبنا والحال يقصينا

فقال الأمير :

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
حتى غدا الطير فوق الصرح يشفينا[9]

وينتهي بنا المطاف إلى رحاب الدولة العلوية الشريفة التي يتميز ملوكها وأمراؤها بثقافتهم العالية واطلاعهم الواسع،في شتى أنواع العلوم والمعارف، حسبما تشهد بذلك سائر المصادر التاريخية، قديمها وحديثها. وإذا لم يكن في وسعنا أن نحيط بهؤلاء الأعلام جميعا في مقال موجز كهذا، فحسبنا أن نذكر على سبيل الاستشهاد المولى زيدان بن المولى إسماعيل الذي أثبت له صاحب الإتحاف بعض شعره[10]، والأمير عبد السلام بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل الذي أطلعه أحد أدباء عصره على «ديوان يجمع فيه الأمداح المنقولة في مدح مولانا سليمان، وربما ذكر فيه شعرا يتعلق بغيره ممن له بالسلطان علاقة، فكتب على ظهره تقريظا مطلعه :

كحل بإثمد هذا الروض أجفانا
واقطف سرورك من معناه ألوانا»[11]

ولا يسعنا في المجال الشعري دائما أن ننسى الأمير المولى محمد العالم بن المولى إسماعيل الذي «كان ماهرا في علوم كالنجوم والبيان والمنطق والكلام والأصول... وكان ينتحل الشعر وتهزه أريحية الأدب»[12] ؛ ومن شعره نختار أبياتا يتشوق فيها إلى مدينة فاس، وهو إذ ذاك خليفة لوالده بمنطقة سوس :

ألاليت شعري هل أنزه ناظري
وللنفس إقبال بوادي الجواهر
أمتع طرفي في رياض أنيقة
وأقطف أزهارا بها كالزواهر
بحيث نرى أسد العرين صريعة
وقد فتكت فيها ظباء المقاصر
وحيث نرى غلب الحدائق سلسلت
حديثا صحيحا عن نسيم الأزاهر

7) روضة الآس، ص 57.
8) دليل مؤرخ المغرب الأقصى لابن سودة، ص 432.
9) الإعلام لابن إبراهيم، ج 5، ص 152.
10) إتحاف أعلام الناس لعبد الرحمن بن زيدان، ج 3، ص 78.
11) الإعلام لابن إبراهيم ج 8، ص 482.
12) نشر المثاني لابن الطيب القادري، ج 3، ص 168 ـ 169.

وقـــــد نسجت كف النسيم عشيـــــــة
دروع ميـــــاه بين تلـــــك النــــواعر
وأصبحت الأطيـــــار فـوق غصـونهـــــا
فصـــاحـــا تقص فـوق خضر المنـــابر
سقى اللــه أدواحـــا بفـــاس عهــدتهـــا
تغـــــازل أنـــواء الغيـــوث المــــواطر
ولا برحت عين تراهـــــــــــــا قريرة
وإن قـــذفت بـــالقلب جمرة حـــائر[13]

أما في مجال الكتابة والتصنيف فحسبنا كذلك أن نشير إلى المولى محمد بن عبد الله الذي اهتم بعلم الحديث اهتماما بالغا، وصنف فيه :

- مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان
- الجامع الصحيح الأسانيد
- الفتوحات الصغرى
- الفتوحات الكبرى، أو الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية
- الجامع الصحيح الأسانيد، من ستة مسانيد، وهو غير الجامع الصحيح المتقدم[14].

وكذلك نشير إلى ابنه الأمير عبد السلام الذي وضع تآليف عديدة، وفي مواضيع شتى منها :

- درة السلوك، وريحانة العلماء والملوك.
- مناهل الصفا في مناقب سيدي مصطفى.
- اقتطاف الأزهار في حديقة الأفكار.[15]

ونشير أيضاً إلى السلطان المولى سليمان الذي وضع تآليف عديدة، وفي مجال الحديث والسنة خاصة، منها :

- عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي بن الجد.[16]
- حاشية على الموطإ.[17]
- حاشية على الخرشي.[18]
- حاشية على الزرقاني.[19]
- عدة رسائل في موضوعات شتى.[20]

ثم إلى السلطان المولى عبد الحفيظ الذي تنوعت تآليفه بين منظوم ومنثور من مثل :[21]

- العذب السلسبيل في حل ألفاظ خليل.
- نظم مصطلح الحديث.
- نيل النجاح والفلاح في علم مابه القرآن لاح.
- الجواهر اللوامع في نظم جمع الجوامع.
- ياقوتة الحكام في مسائل القضاء والأحكام.
- نظم الشمائل المحمدية.[22]

ولعلنا نختم هذه الزمرة من التآليف بكتاب التحدي[23] الذي صنفه جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله، والذي لايعتبر ـ كما يقول ناشروه ـ كتاباً ظرفياً، وإنما هو عمل يكتسي أهمية بالغة وخاصة.[24]

2) إقامة المدارس والمراكز العلمية بمختلف مناطق المغرب، بدءاً من تشييد جامع القرويين بفاس في العهد الإدريسي، هذا الجامع الذي ظل شامخا صامدا يساهم في نشر العلم وتعميمه أجيالاً تلو أجيال، ومرورا بالمدارس العلمية التي أقامها المرينيون بالكثير من مدن المغرب كفاس وسلا ومراكش وغيرها،[25] ثم مدرسة الصفارين التي

---

13) إتحاف أعلام الناس لابن زيدان، ج 4، ص 78.
14) انظر حول هذه الكتب التقديم الذي وضعه محمد الرشيد ملين لكتاب الفتوحات الإلهية، وانظر حول هذا الأخير مقالاً لعبد الجواد السقاط بمجلة «دعوة الحق»، العدد 265، شعبان، رمضان المعظم 1407 هـ، أبريل، ماي 1987، ص 86 ـ 93.
15) انظر الإعلام لابن إبراهيم، ج 8 ص 483 وص 484، وج 6 ص 117.
16) طبع بالمطبعة الجديدة بفاس عام 1347 هـ ـ 1928م.
17 ـ 18 ـ 19) ذكرها محمد العابد الفاسي في مقدمة عناية أولي المجد.
20) انظر تفصيل هذه الرسائل في الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص 363 ـ 364.
21) انظر الإعلام لابن إبراهيم، ج 8 ص 483 وص 484، وج 6 ص 117.
22) طبعت هذه الكتب بمطبعة القصر الملكي.
23) صدر باللغة الفرنسية عام 1976 عن مطابع أليان ميشال بفرنسا، ثم ترجم إلى اللغة العربية، وطبع بها مرتين، ثانيتهما عام 1403 هـ 1983م بالمطبعة الملكية بالرباط.
24) كتاب التحدي، المقدمة، ص 8 (الطبعة الفرنسية).
25) من ذلك مثلا مدرسة العطارين بفاس التي بناها عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، وكذلك المدارس التي بناها ابنه أبو الحسن علي ومنها المدرسة العظمى بمراكش، والمدرسة العظمى بطالعة سلا، والمدرسة المصباحية بفاس...

شيدها المولى رشيد بمدينة فاس، والمدارس المتعددة التي بناها أو جددها المولى اسماعيل في مراكز مغربية متعددة، ووصولا إلى العهد الحسني الزاهر الذي شهد اتساعا في انتشار المؤسسات العلمية ذات التخصصات المتنوعة، وتوسيع شبكة الكليات والمعاهد التي تعتبر قوام البحث العلمي، وينبوعا ثرا للتحصيل والمعرفة.

3) استقطاب رجال العلم والأدب، وتشجيعهم على العطاء الفكري والإبداع الأدبي، فقد تحدث المراكشي مثلا عن بلاط يوسف بن تاشفين المرابطي ثم ابنه علي الذي كان غاصا بالعلماء والأدباء الوافدين، وخاصة من الأندلس، كقوله : «واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار»[26] وقال عن علي بن يوسف : «ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك».[27] كما تحدث عن ملوك الدولة الموحدية كعبد المومن الذي يقول فيه : «وكان عبد المومن مؤثرا لأهل العلم، محبا لهم، محسنا إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم».[28] ومثل هذا نقرأه في الكثير من مصادر التاريخ عن ملوك الدولة المرينية، وكذلك ملوك الدولة السعدية، ولا سيما أحمد المنصور الذي كان «أبر الناس والأمراء بأهل العلم، استخلصهم لنفسه، وجمعهم من سائر أقطار مملكته لمخاطبته وأنسه، إذا سمع بمن له منزلة في العلم أقدمه على حضرته العلية وإمامته العلوية».[29]

وغير خاف ما دأب عليه ملوك الدولة العلوية المنيفة من تقريب للعلماء وحدب على رجال الفكر والأدب، بدءا

26) المعجب للمراكشي ص 164.
27) المصدر نفسه ص 173.
28) المصدر نفسه ص 200.
29) المنتقى المقصور لابن القاضي، تحقيق محمد رزوق، ج 1، ص 530.

من المولى محمد بن الشريف[30] إلى جلالة الحسن الثاني نصره الله، الذي يسجل له التاريخ أكثر من مبرة في هذا الميدان، ومنها على سبيل المثال استقطاب جلالته لنخبة من علماء العالم الإسلامي للمساهمة في إحياء الدروس الرمضانية الغراء.

4) إنشاء المكتبات وتعميمها في كافة ربوع المملكة، وهو جانب يبلور دعم ملوك المغرب للفكر والإبداع، وتحفيزهم لمواطنيهم على الاستزادة من التحصيل والبحث. ولعلنا بالعودة إلى مصادر التاريخ المغربي نقف على الكثير من الأخبار التي تؤكد هذا الجانب فهذا عبد الواحد المراكشي يتحدث عن يوسف بن عبد المومن الموحدي فيقول : «ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة، فجمع كثيرا من أجزائها... وأمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي»،[31] ومعروف أن هذا الأخير كانت له خزانة عظيمة.

وهذا عبد الرحمن بن خلدون يتحدث عن يعقوب بن عبد الحق المريني فيقول : «إن السلطان أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق لما انتصر على النصارى في جوازه الرابع إلى الأندلس عام 684 هـ، كان من بين الشروط التي فرضها على ملكهم أن يبعث إليه بما لديه من الكتب التي سلبها النصارى من المسلمين لما استولوا على بعض المدن الأندلسية، فبعث هذا الملك إلى يعقوب المنصور بما يعادل ثلاثة عشر حملا كانت فيها المصاحف والتفاسير وكتب الحديث والأصول والفروع واللغة والأدب وغيرها، فأمر السلطان بحملها إلى فاس وتحبيسها على مدرسة الصفارين التي كان بناها قبل ذلك بتسع سنوات».[32]

30) انظر مثلاً الحلل البهية للمشرفي الفاسي، ص 49.
31) المعجب للمراكشي، ص 238.
32) كتاب العبر لابن خلدون، ص 434.

وهذا أبو زيد عبد الرحمن الفاسي يتحدث عن أحمد المنصور السعدي فيقول : «كان مولعا باقتناء الكتب ونسخها ومطالعتها»،[33] كما يتحدث محمد المختار السوسي عن ابنه زيدان فيؤكد أن خزانته كانت تضم حوالي ثلاثة آلاف كتاب.[34]

وهذا الدكتور محمد الأخضر يتحدث عن المولى رشيد فيقول : «وبنى مولاي الرشيد أيضاً الخزانة العلمية بالجانب الجنوبي من الجامع الأعظم بفاس... وأوقف عليها جميع المؤلفات القيمة التي كانت تحتوي عليها لحفظها وتمكين القراء للاستفادة منها».[35]

وهذا العباس بن إبراهيم يتحدث عن السلطان العلوي المولى محمد بن عبد الله فيقول : «حبس خزانة كتب جده السلطان الأعظم إسماعيل التي كانت بدويرة الكتب الشهيرة بمكناس وفرقها على جميع مساجد المغرب، وكانت تزيد على الاثني عشر ألف مجلد، رجاء نفع عموم الناس، وسعيا وراء نشر العلم وتحصيله».[36] وفي السياق نفسه يتحدث عن الأمير علي بن عبد الرحمن بن هشام العلوي فيقول : «وكان كلفا بجمع الكتب الغريبة والبحث عنها، وكانت له خزانة كبيرة».[37]

وإذا كانت كل هذه الشهادات مستقاة من كتب التاريخ البعيد والقريب، فإن الواقع الذي نعيشه اليوم يشهد بما لجلالة الحسن الثاني نصره الله من فضل في هذا الباب، سواء بفتح خزانته العامرة[38] في وجه الأساتذة والباحثين، وهي الخزانة التي تعد «ثمرة جهود متواصلة بذلها ملوك الدولةالعلوية الشريفة، جيلا بعد جيل، منذ أقام دعائمها السلطان مولاي محمد بن الشريف عام 1050 هـ»،[39] أو تعميم الخزانات في مدن المغرب وقراه، أو تخصيص جلالته خزانة متنقلة لصالح أفراد القوات المسلحة الملكية.

5) اتخاذ الوزراء وذوي المناصب العليا من أهل العلم والأدب، والذين لهم قدم راسخة في هذا المجال إحاطة أو إبداعا. فإذا رجعنا مرة أخرى إلى معجب المراكشي، وقفنا على الكثير من الأعلام الذين كانت لهم مسؤوليات حساسة في بلاط المرابطين، نذكر منهم على الخصوص العالم الشاعر ابن أبي الخصال الذي كان من أنبه كتاب علي بن يوسف وأكبرهم مكانة لديه؛ وهي ظاهرة ظلت مستمرة متواصلة على توالي العصور وتعاقبها، نكتفي بالإشارة منها إلى الأديب الشاعر ابن عطية وزير عبد المومن الموحدي، والشاعر عبد العزيز الملزوزي الذي كان مؤرخا في بلاط بني مرين، والشاعر عبد العزيز الفشتالي مؤرخ المنصور الذهبي ورئيس ديوان إنشائه، والشاعر محمد يحيى أجانا وزير محمد الشيخ بن زيدان بن المنصور، والشاعرين أبي العباس اليحمدي وأبي حفص الحراق وزيري المولى إسماعيل، والشاعرين المؤرخين أبي القاسم الزياني ومحمد أكنسوس وزيري المولى سليمان، والشاعر محمد بن ادريس العمراوي وزير المولى عبد الرحمن، والشاعر المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان وزير المولى يوسف، وغيرهم كثير، ولا سيما في العصر الحديث، من أمثال الشاعر العالم علال الفاسي، والشاعر المؤرخ محمد المختار السوسي، والشاعر العالم عبد الرحمن الدكالي.

6) مجالسة رجال العلم والأدب، بل مناقشتهم في كثير من المسائل العلمية والأدبية، وانتقاد بعضهم أحياناً. فمعروف عن ملوك الدولتين المرابطية والموحدية أنهم كانوا يستقدمون العلماء والأدباء ـ كما تقدم ـ ويجالسونهم ويوسعون لهم في قصورهم، من ذلك مثلا تلكم العلاقة المتينة التي أقامها يوسف بن عبد المومن الموحدي مع كل من العالمين الفيلسوفين ابن طفيل وابن رشد، والتي توجها

33) لمحة في تاريخ دولة الشرفا للفاسي، مخطوط بالخزانة العامة، بالرباط رقم د 56، ص 112.

34) إيلغ قديما وحديثا لمحمد المختار السوسي، ص 162.

35) الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص 69.

36) الإعلام لابن إبراهيم، ج 6، ص 117.

37) المصدر نفسه، ج 9، ص 242.

38) وتوجد بالقصر الملكي بالرباط.

39) من مقال للأستاذ محمد العربي الخطابي بعنوان : «الخزانة الحسنية للكتب والوثائق»، مجلة دعوة الحق، عدد 257، شوال، ذو القعدة 1406 هـ، يونيو، يوليوز 1986، ص 10.

حمل يوسف ابن رشد على تلخيص كتب أرسطو إذ قال له يوما : «لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس، فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل، وإني لأرجو أن تفي به».[40]

والموقف نفسه معروف عن رجال البلاطين المريني والسعدي، فهذا أبو سعيد المريني «اختص بجملة من أعلام العلماء فاتخذهم أهل مجلسه ومؤانسته، وتخير منهم من يسامره»،[41] ومن هؤلاء الأعلام نشير إلى عبد المهيمن الحضرمي وابن رشيد السبتي وابن عزوز المكناسي.

وهذا أبو عنان «يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح ويحضر ذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم، فيقرأ بين يديه تفسير القرآن، وتروي أحاديث النبي ﷺ كما جاءت في موطإ الإمام مالك، وتقرأ كتب المتصوفة، وفي كل علم منها له القدح المعلى يجلو مشكلاته بنور فهمه، ويلقي نكته الرائقة من حفظه».[42]

وهذا أحمد المنصور السعدي «إذا قرئ بين يديه البخاري أو غيره صدرت عنه أبحاث رائعة واعتراضات فائقة»...[43]

ولعل ملوك الدولة العلوية الشريفة قد بلغوا شأوا بعيدا في هذا المجال خلدته المصادر القديمة والدراسات الحديثة، وكلها تركز على ما لعبه هؤلاء الملوك من أدوار جليلة في استمرار مشعل الثقافة متقدا وهاجا بهذه الديار.

وإذا كنا قد تحدثنا عن هذه الأدوار الجليلة بشيء من التفصيل في مقالين سابقين،[44] فحسبنا هنا أن نقتطف بعض الشهادات التي سجلها الدكتور محمد الأخضر عن المولى رشيد الذي كان «يحضر المجالس العلمية بالقرويين، ويحب مناقشة العلماء، ويغدق عليهم من عطاياه، كما كان يشجعهم على التبحر في المعرفة والاشتغال بتأليف الكتب»،[45] وعن المولى محمد بن عبد الله الذي بلغت الثقافة «غاية الازدهار في عهده مادام هو نفسه عالما كبيرا يشجع العلماء على تحصيل المعارف وتأليف الكتب»،[46] وعن المولى سليمان الذي «زار مرات عديدة جامعة القرويين، وحضر مجالس أعلامها وناقشهم في أعوص المسائل، محاولا إيجاد الحلول المناسبة لها»،[47] وعن المولى محمد بن عبد الرحمن الذي «شجع... الكتاب والعلماء ماديا ومعنويا وخصص لهم مرتبات ومكافآت لما يؤلفونه أو ينسخونه من كتب»،[48] وعن المولى الحسن الأول الذي «كلف... شيخه أبا العباس أحمد بن الحاج بكتابة تاريخ مفصل للدولة العلوية، فألف الدر المنتخب في خمسة عشر مجلداً»،[49] كما «أمر كاتبه أبا العباس أحمد بن عبد الواحد بن المواز بتأليف كتاب في شرعية علم الكيمياء».[50]

وإلى جانب هذه المصادر والدراسات ينتصب الشعر مخلداً أيادي الأشراف العلويين البيضاء في نشر العلم والحث على تحصيله والبحث فيه، نورد منها ـ على سبيل المثال دائماً ـ قول الشاعر أحمد سكيرج في السلطان المولى يوسف :

كم من مدارس قد فتحت لدرس ما
فيه يرى للجهل خير شفاء

40) المعجب للمراكشي، ص 243.
41) المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق، ص 25.
42) تحفة النظار لابن بطوطة، ج 2، ص 183.
43) سلوة الأنفاس للكتاني، ج 3، ص 226.
44) انظر «من تاريخ الحركة الثقافية في عهد المولى إسماعيل»، مجلة دعوة الحق، عدد 258، ذو الحجة 1406 هـ، غشت 1986م ص 42 ـ 49، وكذلك «من واقع التاريخ الأدبي في ظل الدولة العلوية»، مجلة المناهل، عدد 36، سنة 14، ذو الحجة 1407 هـ يوليوز 1987م ص 286 ـ 310.
45) الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ص 68.
46) المرجع نفسه، ص 271.
47) المرجع نفسه، ص 276.
48) المرجع نفسه، ص 392.
49) المرجع نفسه، ص 394.
50) نفس المرجع والصفحة.

وبـــذلت أنفس مـــا يكـــون لمن تنـــا
فمن منهم لنفـــــــائس الأشيــــــاء
نـــورت أفكـــــارا لـــديهم بـــالعلـــو
م فكنت محيي الـــدين للعلمــــاء[51]

وقول الشاعر محمد الفاسي في المغفور له جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه :

حــــامي كتــــاب اللــــه أعــ
ـظم منــــــزل متعبـــــــد
ملـــــك يحب تقـــــدمـــا
في كـــــل شيء مسعـــــد
ويبث في الشعب النهـــــــو
ض إلى السبيـــــل الأقصـــد
ملـــــــــك يحب العلم بيـ
ـن الشعب غير مقيــــــــد[52]

ونختمها بقول الأستاذ محمد حماد الصقلي في جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله :

مـــولاي من مجلس ســـــامي وطلعتكم
تـــدفـــق العلم بـــالقرآن والأثر
شعت بفضلكم أنـــوار سنـــة من
قـــد أرسل اللـــه يجلي الظلمـــة العسر
فمن مجـــالسكم مـــولاي قـــد طلعت
شمس الهـــدى تبعـــد الأعشى عن الخطر
جلى الروايـــة والتحـــديث مجلسكم
تـــؤمـــه نخبـــة من جلـــة النفر[53]

وهكذا لو وقفنا طويلا عند هذه الميادين التي تبرز دعم ملوك المغرب للفكر والإبداع بهذه الربوع، أو تتبعنا غير ما ذكر ـ وهو كثير ـ كألوان التشجيع المختلفة، وإقامة المناسبات التي تطرح للمساهمة العلمية والأدبية المتنوعة، من إقامة المجالس العلمية وحضورها، وختم المتون الذي يتوج بإنشاد الشعراء لقصائدهم في الموضوع..، لو فعلنا ذلك لما كان هذا المقال المحدود كافيا ولا وافيا، ولكن حسبنا أن قدمنا إشارات دالة ومقتضبة على العنـايـة المتواصلة التي حظي بها ـ ولا يزال ـ الفكر والإبداع في المغرب، على امتداد اثني عشر قرنا لقيام الدولة المغربية، وخلود عرشها العتيد الرفيع :

هكـــذا عرش رفيـــع مـــا ارتقـــا
ه ولا يحميــــــــه غير النجب
وإذا مـــدت إليـــه واعتـــدت
كف بـــاغ غـــاشم مغتصب
حـــزهـــا من منكب أبطـــالنـــا
رافعـــو العرش بـــأعلى منكب[54]

الرباط ـ عبد الجواد السقاط

51) اليمن الوافر الوفي لعبد الرحمن بن زيدان، ج 1، ص 32.
52) الشعر الوطني المغربي للدكتور إبراهيم السولامي، ص 113.
53) ديوان الحسنيات، جمع الأستاذ عبد الحق المريني، ج 3، ص 152.
54) الشاعر إدريس الجاي، ديوان وفاء وولاء، ج 1، ص 50.



عرفت الساحة الأدبية بالمغرب في الربع الأول من هذا القرن نشاطاً ساهمت في خلقه مجموعة من الأقلام التي كانت لها مشاركات في مجالات ثقافية متعددة. فبالى جانب الاهتمام بالثقافة الفقهية، حظيت الكتابة التاريخية باهتبال داخل هذا الوسط، ودار نقاش ساخن حول بعض القضايا التاريخية واستقطبت الأندية الأدبية ـ وخاصة بمدينة الرباط ـ مجموعة من الأسماء الفاعلة في الساحة الثقافية، وكانت مجالا لاطراح قضايا فكرية وأدبية، وشكل الشعر محورا أساساً في هذه المطارحات.

والدارس لأدب المغاربة في بداية هذا القرن، يمكنه أن يلحظ المكانة التي يحتلها الشعر كفن في اهتمامات مثقفي هذه المرحلة، وضمن هذا الاهتمام بالقريض تشغل المساجلات الشعرية حيزاً من إنتاج الشعراء يومئذ.

فلماذا المساجلة الشعرية ؟ وما هي وظيفتها كلون من فن القول ؟ وكيف يمكن تفسير هذا الحضور المكثف للمساجلة ؟

☆☆☆

إن قراءة ما دار من مساجلات شعرية بين بعض شعراء هذا العهد، تبين أن ركوب الشاعر لهذا النوع من النظم لم يكن أحيانا سوى ملء لفراغ زمني، وتارة لإثبات البراعة النظمية التي لا تترك بابا دون طرقه، غير أن الأمر قد يتعدى ذلك لتصبح المساجلة الشعرية ذات وظيفة اجتماعية، ومركبا للنقاش العلمي. ومن ثم عمد الكثير من الفقهاء / الشعراء، والمهتمين بالتأريخ إلى ممارسة هذا النمط من النظم، رغم أن علاقة بعضهم بمجال القريض علاقة رقيقة.

وإذا أردنا أن نتخذ من مساجلات شعراء العهد اليوسفي نموذجا للنظر في هذا اللون من القول المنظوم، فإننا سنجد مجموعة من الأسماء التي شاركت في هذا المجال، ومن أبرز هؤلاء، أحمد بن المامون البلغيثي، محمد بوجندار، عبد الله القباج، محمد البيضاوي الشنقيطي.

إن قسما غير قليل من الشعر المعروف لهؤلاء، يتشكل من المساجلات، تبادلها هؤلاء الشعراء فيما بينهم، ومن شعراء آخرين، مغاربة ومشارقة.

فما هي الاهتمامات التي دارت حولها المساجلات الشعرية خلال هذا العهد ؟ إنها اهتمامات عديدة، انحصر بعضها في مناسبات اجتماعية، ودارت أخرى حول الهزل والمجون، وعمد بعض الشعراء إلى نقل المساجلة إلى مجال المناقشة العلمية. ويكاد بعض شعراء هذه الفترة ـ الربع الأول من القرن العشرين ـ ألا يترك مناسبة دون مخاطبة

شاعر صديق، بأبيات تكون حافزا للثاني، يرد عليها، وقد تجر المساجلة أطرافا أخرى، ليصبح الكلام نظما متبادلا، يطول أو يقصر حسب ما يقتضيه المقام.

ومن المجالات التي تبادل فيها الشعراء عهدئذ، المساجلات، التهنئة. قد تكون تهنئة بوظيف جديد، أو بمناسبة اجتماعية كزفاف أحد الأبناء، أو ازدياد مولود، أو إحراز أحدهم على وسام. ومن النماذج التي نقف عليها في هذا الباب ما دار بين الشاعرين، محمد بوجندار ومحمد الجزولي، بعد تعيينهما في مناصب إدارية عين الأول كاتبا لدى المقيم العام الفرنسي، وتم تعيين الثاني كاتبا بدار المخزن، فسعى كل منهما إلى تهنئة الآخر من خلال المساجلة التالية :[1]

يقول محمد بوجندار :

أرى الكتابة قد ألقت أعنتها
إليك يا ابن الالى شادوا مبانيها
ولا عجيب إذا ارتقيت منصبها
فالقوس قد أعطيت والله باريها
حتى المعالي لقد أتتك قاصدة
برتبة لا يكاد البدر يأتيها
لذاك قد رقصت أرواحنا طربا
مذ أدركت نفسنا فيكم أمانيها
فدم ودامت لك الأيام خادمة
تمد نحوك أيدي أياديها
واهنأ فباليمن ما قد نلت من شرف
ولتهأن هذه الدنيا وما فيها

فقال الجزولي مجيباً :[2]

يا من تلألأ في أفق الرباط سنى
وأرشفته العلى لمى غوانيها
هنأتني وبودي أن أهنئكم
لو مكنتني القوافي من نواصيها
إذ صافحتك يد الأيام مقبلة
تهديك رغم العدا أسمى مراقيها
فاهنأ به شرفا ترنو العيون له
واهنأ بها رتبا تسمو مبانيها
شعوركم بالوداد نحو حبكم
أشهى إليه من الدنيا وما فيها

وهكذا كلما تعددت المناسبات الداعية إلى تهنئة سارع الشعراء إلى نظم رسائل موزونة، تحمل عبارات الوداد والإعجاب، وتأكيد الاستحقاق.

☆☆☆

وكان العتاب والشكوى كذلك، مجالا تبادل فيه هؤلاء الشعراء، منظومات تحمل لوم طرف لآخر، قد يكون مخلا بوعد، أو مرتكبا لشين في حق صاحبه. وفي مثل هذا المقام، قد تتعدد الأطراف المتساجلة لتضم أكثر من شاعرين، نجد مثالا لذلك في تلك المساجلة التي دارت بين الشعراء : عبد الله القباج، محمد بوجندار، محمد البيضاوي الشنقيطي، أحمد بن المواز، فقد وجه الشاعر المطبوع دعوة إلى محمد بوجندار والشنقيطي لزيارته، واعتذر كل منهما عن الحضور. ولما كان شاعر المدوتين مصابا بمرض يمنعه من الحضور، فقد وجد اعتذاره عند القباج آذانا صاغية، غير أن تخلف الشنقيطي أثار غضب الشاعر القباج، فكتب إلى بوجندار شاكيا تصرف الشنقيطي، فتدخل بوجندار لإصلاح ذات البين، فكتب مخاطبا الشاعر الشنقيطي :[3]

خليلي لاعدمت أخا سماح
يسامح أو يعاتب بالصلاح
رأيت الشاعر المطبوع يشكو
كأنه مغضب شاكي السلاح

1) جريدة «السعادة» ع، 1867، بتاريخ 20 يناير 1919.
2) جريدة «السعادة» ع، 20 يناير 1919.
3) جريدة «السعادة» ع، 5 أكتوبر 1921.

شكا وأنابني في العتب لكن

أرى طبعي يميل إلى السماح

يقول وعدته بالوصل يوما

تبادله به راحا براح

فظل سحاب ذاك اليوم يرجو

وصالك في غدو أو رواح

ولم ينفك يغري النفس حتى

أتاه الليل مسود الجناح

فلام ونام في غم وهم

ولما قام قال مع الصباح

أديب العدوتين إليك أشكو

أديبا قد تخلق بالصلاح

وبعد أن أجاب الشاعر الشنقيطي على التهمة الموجهة إليه، ودافع عن نفسه حيث اعتبر أن الدعوة التي وجهها القباج، كانت على سبيل المزاح لا الجد، اضطر الشاعر محمد بوجندار أن يرفع الأمر إلى الشاعر أحمد بن المواز، باعتباره القاضي الذي يمكن أن يفصل في الأمر :

ولما كنت في الأحكام أقضى

قضاة العصر في كل النواحي

رفعت إليك أمرهما لتقضي

لكل منهما وفق اقتراح[4]

وبتدخل الشاعر ابن المواز انتهت هذه الماجلة، التي هي أشبه بمحاكمة للشاعر الشنقيطي. وإذا كان هذا النموذج في الشكوى والعتاب، يتعلق بعدم تلبية دعوة لحضور مأدبة، فإن العتاب يطال أحيانا أشياء أخرى. ففي مساجلة بين الشاعرين البلغيثي وبوجندار، نجد الأول يوجه أبياتا لمحمد بوجندار في معاتبة الشاعر المطبوع، باعتبار أن هذا الأخير كان عائقا في طريق نشر بعض كتابات البلغيثي على صفحات جريدة «السعادة»، فكتب البلغيثي شاكيا معاتبا :[5]

يا فاضلا أعاد فضلا سالفا

وكان للسالف فيه خالفا

ما للسعادة ـ ودم محالفا

لها ـ أرتنا في العلم مخالفا

كأنها إذا عودت سفاسفا

استنكفت أن تنشر المعارفا

فأجاب محمد بوجندار بقوله :[6]

يا أريحيا بالقريض عارفا

وغارقا في بحره وغارفا

ولابسا من مجده مطارفا

ومحرزا تاليده والطارفا

وافى قريضك البديع واصفا

ما كان من أجله قلبي واجفا

وذاك ما قدمت عذري آنفا

في شأنه إذ كنت منه آنفا

حيث غدا مخالفي محالفا

وعاد لي محالفي مخالفا

☆ ☆ ☆

وطرقت المساجلة الشعرية مجال وصف المآثر التاريخية ومجالس النزهة. وقد حظي مجلس عبد الرحمان بن زيدان وقصره، بالعديد من المقطعات، الواصفة لجمال المكان ورونق المجلس. ويبدو أن منزل ابن زيدان كان يثير زواره برونقه وبهائه، فكان حافزا للشعراء للتفنن في وصفه، وتبادل المقطعات الشعرية التي تسجل هنا الإعجاب. بالإضافة إلى أن مجلس عبد الرحمان بن زيدان، كان مجلس أدب، يفسح المجال للتباري في ميدان

4) جريدة «السعادة» ع، 5 أكتوبر 1921.

5) ديوان أحمد بن المامون البلغيثي، ج 2، ص 46 ـ 47 / مخطوط بالخزانة العامة بالرباط. وقد قام الأستاذ محمد العلمي بتحقيق الجزء الأول من الديوان، مع دراسة لشعر البلغيثي. والبحث رسالة لنيل د.د.ع، أنجزه السيد العلمي تحت إشراف الدكتور عباس الجراري، ونوقشت الرسالة بكلية الآداب بفاس.

6) ديوان البلغيثي، ج 2، ص 46 ـ 47.

القريض، وما دار بين الشاعرين محمد بن اليمني الناصري، ومحمد بوجندار بروض قصر ابن زيدان بمكناس، نموذج لهذا النوع من المساجلات :[7]

بوجندار :

لـلـــه من مجلس رقت حــواشيــــه
وشــاه بــالحسن والإحـــان واشيــه

الناصري :

تغشى قلـوب الالى حلـوا بســاحتــه
من السرور على المـــدى غــواشيــه

بوجندار :

وكيف لا وأريـــج الروض أرجـــه
بمـــا بـــه تنتشي عقـول نـــاشيــه

الناصري :

أمـــا ترى الروح في أرجـــائـــه رقصت
زهـوا وعجبـا ببـادي الفضـل مـــاشيــه

☆☆☆

وكـانت هـذه المجالس تتعـدد، وبتعـددهـا تختلف الأماكن التي يتخذها الشعراء يومئذ منتدى لهم، فسجلوا في مساجلاتهم الشعريـة مـا كـان يـدور خلال هـذه اللقـاءات، فوصفوا الطبيعة حينما يكون جمعهم بين أحضـانهـا، ورسموا براعـة البنـاء ورونـق الـزخرف حين يضمهم قصر فخيم أو مـكن أبدعت فيه يد الصانع.[8] وممـا سجلتـه المسـاجلات بين شعراء العهـد اليوسفي، الإشـادة ببعض المراكز الثقـافيـة والتـاريخيـة. ومـا دار بين شعراء العـدوتين يعتبر نمـوذجـا لهذه العواطف النبيلة التي عبر عنها كل طرف تجاه مدينـة الآخر. وهكذا حينما ينظم محمد بوجندار مخاطبا صـديقـه الشـاعر السلوي عبـد الطيب عـواد، يفسـح المجـال ليراعتـه للإشادة برجال الفكر برباط الفتح، الذي كان يومئـذ مركزا ثقافيـا يـتقطب العـديـد من الأسماء الفـاعلـة في السـاحـة الثقافية المغربية عهدئذ، يقول محمد بوجندار :[9]

أهيـــل ســــلا الغراء شكرا على شكر
فقـــــــد أشرقت من فكركم غرة الشعر
بهرتم بـــآيـــات أضلت بهــديهـــا
ولا عجب فـــالإضـلال من آيـــة السحر
وطــوقتم جيـــد الــزمـــان ونحره
بـــدر نفيس جـــاء من أنفس الـــدر

فأجابه الشاعر السلوي عبد الطيب عواد :[10]

أتتني من ربـــع الجهـــابـــذة الغر
فتـــاة تجر الـــذيـل في رقـــة الخصر
فتـــاة من الحي الـــذي افتخرت بـــه
أكـــابر أهـل الـذوق في ســالف العصر
عقيلـــة فكر لـــلاريب الـــذي سما
بـــأوج سما الإيجـــاز في النظم والنثر
أهيـل الربـــاط الفتـــح فتحى بحيكم
فلا غـاب عني مـا حييت مـدى الـدهر

☆☆☆

ودخل شعراء هذه الفترة بـالمسـاجلة الشعريـة مجال الهزل والمجون، واتخذوها وسيلة للترويح عن النفس، ولمـا كـان بعض هـؤلاء الشعراء ممن حظي بمراكـز وظيفيـة تتطلب الوقار فإن المساجلة بين الأصدقاء، أتـاحت الفرصـة للخروج عن المـألوف، فخلع المتسـاجلون عـذارهم وأطلقـوا العنـان لخواطرهم، فكشفت المسـاجلات الشعريـة من هـذه الزاوية جانبا من ذاتية الشاعر الفقيه، والقاضي الناظم، فبـدأ المتجهم مرحا، والجاد هازلا، والوقور ماجنـا. إن المسـاجلة الشعريـة في هـذا السيـاق تغـدو تحرر من قيـود كثيرة. ويمكن أن نقدم كنموذج لهذا الشق من المساجلات، ما دار

7) عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام، ج 1، ص 127.

8) انظر نماذج لهذا اللون من المساجلات في النزهة في كتاب «أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين» ج 2 ص 158 للمرحوم الأستاذ عبد الله الجراري، وكذا سلسلة مقالاته عن النادي الجنداري بجريدة «الأنباء»، 1968 - 1969.

9) جريدة «السعادة» ع، 7 مارس 1914.

10) نفسه.

بين الشاعرين عبد الله القباج ومحمد بوجندار ونقتطف هنا المقطع من نظم شاعر العدوتين، يقول :[11]

شاعرنا المطبوع يامن قد روى
من القريض ما به قد ارتوى
ويا أديب المغرب الأقصى الذي
طوى الحجاز وطوى بير طوى
إني رأيت الصائم الظمآن قبل
الفطر يشعر بجوع وظما
وإن لم يشتر الخبز ولم يطلب
غذا فلا غذا ولا عشا
ومن يك طيره في قيد قفص
ثم غدا يفتحه لمن يشا
فربما ند له وطار في
جو السماء بين أسراب القطا

وبهذا النفس المازح والنغمة الهازلة يتابع الشاعر كلامه لصديقه القباج. ويبدو أن هذا النمط من القول كان الناظم يعمد إليه لملء الفراغ والترويح. وهذا ما يفصح عنه بوجندار حينما يشير في مساجلته أن نظمها كان في رمضان، فعمد إلى الكتابة لتلهية نفسه وممازحة الشاعر المطبوع، يقول :[12]

والعذر أن نظمها كان ماء
رمضان والنهار ما انقضى
لذا قصصت ذيله بنظمها
حتى نسيت الجوع فيه والظما
فما شعرت بالمسا إن انتهى
والحمد لله بغير منتهى

هذا اللون من المساجلة ذات الطابع الهازل، قد ينزلق منه المتساجلون إلى نوع من التهتك والمجون، فيسف اللفظ، وتتداعى المعاني المكشوفة، على غرار ما نقرأ في مساجلة والمجون، فيسف اللفظ، وتتداعى المعاني المكشوفة، على غرار ما نقرأ في مساجلة دارت بين الشاعرين أحمد بن المامون البلغيثي ومحمد بوجندار. يقول شاعر العدوتين[13] مخاطبا شيخه البلغيثي، وقد حاد هذا الأخير في مساجلة سابقة غن روي الحاء إلى روي العين :

وما لك واجتناب روي حاء
حلا في الذوق منا والسماع
أليس الحاء تحلو في القوافي
كما تحلو لنا عند ...!!

☆ ☆ ☆

وجالت المساجلات الشعرية عهدئذ في جوانب أخرى كانت ألصق بالاهتمامات الثقافية والأدبية، حيث غدت المساجلة وسيلة للنقاش الأدبي والتباري في الجدل الفقهي. ويكشف هذا النوع من المساجلات عن بعض الاهتمامات التي كانت تشغل أدباء هذه المرحلة. وتنوعت هذه الاهتمامات بين نقد الشعر والمفاضلة بين شعراء المغرب عهدئذ، إلى طرح بعض المسائل الفقهية، والمناقشات اللغوية، دون إغفال ميدان الألغاز. وبذلك شكلت المساجلات الشعرية من هذه الزاوية وسيلة لتحريك قرائح الأدباء، وإثارة جدل ثقافي في الساحة عهدئذ، وشكل البحث في الألغاز جزءا من اهتمام شعراء هذه الفترة، فتبادلوا مساجلات في هذا الصدد، نجد نماذج منها فيما دار بين الشعراء، بوبكر بناني، محمد بن عبد السلام السايح، محمد بوجندار، قد يكون الاهتمام باللغز من باب إثبات المقدرة على النظم في مختلف الفنون، كما يمكن أن يكون إظهاراً لمقدرة علمية تتعلق بمجال من المجالات المعرفية، كاللغة أو الفقه.

☆ ☆ ☆

---

11) جريدة «السعادة»، 14 مارس 1939.
12) نفسه.
13) ديوان البلغيثي، ج 2، ص 18 ـ 19.

ووسعت المساجلات نطاق اهتمامها لتشمل المناقشات اللغوية، والتي يسعى كل طرف من المتساجلين إلى الكشف عن عمق اطلاعه وكبير درايته. ولنا نموذج من هذا اللون في المساجلة التي دارت بين البلغيثي وبوجندار، حيث عمد الأول إلى توجيه بعض الانتقادات اللغوية إلى شعر الثاني، فدخل بوجندار في جدال مع شيخه مدافعا عن قريضه، وطالت المساجلة في هذا الباب، ومما ورد في دفاع شاعر العدوتين قوله :[14]

ليت شعري هل لانتصافي طريق
فطريق الجدال عنه تعوق
وحت عنه الجدال تحقيق حق
فإذا بالجدال ضاعت حقوق
يا القومي هل منصفي في أديب
ما كفاه التوقيف والتوفيق
ما كفاه ما قلته في البراعي
من قياس ولي دليل وثيق
ما كفاه التسهيل فيه دليلي
وهو سهل لديه مطروق
ما كفاه الأساس أسا لقولي
وهو عندي نعم الأساس العميق
ما كفاه تاج العروس المحلى
وهو تاج ومن حلاه العقيق

ويبدو أن البلغيثي يتضايق أحيانا من الجدل، فينتصب شيخا يلقن تلميذه بلهجة آمرة على غرار ما نجده في رده على بوجندار يقول :[15]

قال أزكى الورى الأمين الصدوق
وهو في كل ما يقول صدوق
من يدع لهجة الجدال محقا
له بيت لدى الجنان يفوق
لم أر الآن غير فصلين ممـا
قلته عنهما الجواب يليق
....
فاعتبر واتعظ وخذ نبل نقدي
لنظام يزينه التنميق

☆ ☆ ☆

واهتبل شعراء هذه المرحلة في مساجلاتهم بنقد الشعر، وتتبع عيوب قصائد الغير وأحيانا يذيل الشاعر مساجلته بتعليق نقدي على مساجلة سابقة لصديقه ومن هذا القبيل ما فعله البلغيثي بشعر محمد بوجندار. فقد عاب عليه أشياء في مساجلة سابقة بينهما، فرد بوجندار مدافعا يقول :[16]

نظرتَ كما أشرتَ إلى قريض
كأن به اعتلالا حين يتلى
فما ألفيت فيه من معيب
بلى من كل عيب قد تخلى
لأن حكاية الألفاظ ليست
تعد لديكم لحنا وجهلا
أعد نظرا، فأنت أمام عقلي
وكم من دركمْ جيدي تحلى

غير أن البلغيثي يظل متشبثا برأيه فيجيب الشاعر بوجندار بقوله :[17]

أعد نظرا لما أرسلت قبلا
تجد يا صاح فيما قلت نبلا
سأكشفه لكم عند التلاقي
وتسلك من هداه بعد سبلا
وما تحكي من الألفاظ حلو
ولست أمل حلوا ليس خبلا

---

14) انظر المساجلة بكاملها في ديوان البلغيثي.
15) نفسه.
16) ديوان البلغيثي، ج 2 ص 154 ـ 155.
17) نفسه.

وقـــــدرك في القريض يرى رفيعـــــا
وسنـــــدس ثـــوب فضلـــــك ليس يبلى

☆ ☆ ☆

وعاد البلغيثي ثانية إلى شعر محمد بوجندار آخذا عليه وقوعه في الإيطاء مما يعد عيبا في شعر الشاعر. فينبرى شاعر العدوتين لدفع ما ألصق بشعره مجيبا شيخه في مساجلة قائلا :[18]

ألا مهـــلا أبـــا العبـــــاس مهـــلا
لقـــد جـــاوزت حـــد المستطـــاع

ألست وسمت بــــالإيطـــــاء شعري
كـــأنـــك مـــا أطلعت على اطـلاعي

وعنـــك أخـــذت أحكـــام القـــوافي
ولي بـــك في العلـوم طـويـل بـــاع

ولما كانت الثقافة الفقهية خلال هذه المرحلة التاريخية تشكل أسا رئيسا في ثقافة الأديب، فقد حظي هذا المجال المعرفي باهتمام الشعراء، ودونت بعض مساجلاتهم النقاش الذي أثير حول قضايا ومسائل فقهية، تبادلوا حولها الآراء، من ذلك ما سجلته مساجلة بين الشاعرين أحمد سكيرج وأحمد بن العامون البلغيثي.

فقد نظم البلغيثي في مسألة فقهية، مستفهما الشاعر سكيرج، يقول :[19]

قـل للفقيـه الـذي بـالفقـه قـد عرفـا
وقبلـــه بخفـــايـــا علمـــه شغفـــا

مـــا زوجـــة طلقت قبـل البنـــاء بهـــا
وأحرزت مهرهـــا كـلا ومـــا انتصفـــا

فيدخل الشاعر سكيرج مع الفقيه البلغيثي في نقاش حول المسألة، ثم يدون إجابته الأخيرة ليبعث بها منظومة إلى أحمد بن العامون، ويقول :[20]

افـــدتنـــا بـــالتي بـــالـزور قـــام على
تطليـق زوج لهـــا عـــدلان قـــد عرفـــا

فـــــأبرم الحكم بــــالفراق بينهمـــــا
وبعـــد مـــا طلقت بـــالفريـــة اعترفـــا

وربما يكون هذا النمط من المساجلات ألصق بمجال الإلغاز، غير أنها في نفس الآن كاشفة على نوع من المناقشات التي تدور بين شعراء الفترة، ومبينة لنوعية الاهتمامات التي تجد اهتبالا من الوسط الثقافي المغربي عهدئذ.

☆ ☆ ☆

وملاك القول إن فن المساجلة الشعرية خلال العهد اليوسفي، حظي بنوع من الاتساع والاهتمام من طرف شعراء هذه الحقبة، وجالت المساجلة في ضروب شتى من فنون المعرفة، ووظفت في المناسبات الاجتماعية، واستخدمت في التعبير عن العواطف الذاتية، وركبها الشعراء في المناقشات الأدبية. أي أن المساجلة الشعرية مارست على يد هؤلاء الشعراء مجموعة من الوظائف، لم تكن دائما حصرا على المجال الأدبي. ولا يحتاج الدارس للمساجلة الشعرية خلال هذه الفترة ـ وربما للمساجلة بشكل عام ـ إلى كبير عناء، ليثبت أننا مع هذا اللون من فن القول، يبتعد عن الشعري، وتضعنا النماذج التي وقفنا عليها، أمام مجموعة من النظامين ليس إلا، وقد تكون طبيعة المساجلة متحكمة في أبعاد هذا اللون من النظم عن دائرة الشعر.

الرباط : محمد احميدة

---

18) نفسه، ج 2، ص 33، 24.
19) ديوان البلغيثي، ج 2، ص 45 ـ 46.
20) انظر المساجلة كاملة في ديوان البلغيثي، ج 2، ص 45 ـ 46.

الدولة العلوية المغربية

النشأة، والإستقرار، والإستمرار

للأستاذ محمد العربي الشاوش

تمهيد :

كان المغرب منذ الفتح الإسلامي سنة 62 هـ، 681 م. اقليما تابعا للخلافة الإسلامية على عهد الدولة (الأسرة) الأموية وأوائل الدولة العباسية، إلى أن تحرر من التبعية واستقل استقلالا تاما بقيام دولة مغربية عربية إسلامية في إطار نظام ملكي إسلامي سني أصيل، قائم على الكتاب والسنة، والعدل والمساواة، والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفقا للوثيقة التاريخية[1] التي كانت بمثابة أول دستور مغربي مكتوب، قامت على أساسه الدولة المغربية الناشئة بزعامة مؤسسها الإمام ادريس الأول بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المومنين علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا ونبينا محمد رسول الله ﷺ.

وقد بويع الإمام ادريس الأول رئيس الدولة الجديدة بيعة إسلامية شرعية اجماعية سلمية واختيارية يوم الجمعة رابع شهر رمضان عام 172 هـ. موافق سادس شهر فبراير سنة 789 م.

وهكذا يعتبر تاريخ (6 فبراير 789) مبدأ السيادة المغربية التي اختار الشعب أن يكون (العرش المغربي) رمزا لها، سيادة عملت جميع الدول (الأسر) التي حكمت المغرب على ترسيخها وحمايتها والدفاع عنها كأثمن ما يعتز به الشعب المغربي منذ عهد (الدولة الادريسية 789 - 921 م) إلى الوقت الحاضر، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، مرورا بالعصور التاريخية بعد الأدارسة قامت (الدولة المرابطية) ثم (الموحدية) ثم (الدولة المرينية) ثم (الدولة الوطاسية) ومن المؤرخين من يعتبر الدولة الوطاسية امتدادا لدولة بني مرين، ثم (الدولة السعدية الشريفة 1554 - 1659) وعلى اثر تقلص نفوذ السعديين قامت (الدولة العلوية الشريفة سنة 1640) لتواصل مسيرة استقرار النظام وسيادة الوطن. وهي الدولة التي أفردناها بهذا الموضوع المجمل حيث هي ياقوتة خضراء متلألئة في وسط عقد مغربي من الجواهر الكريمة اللامعة، وإن كان تاريخها المشرق يحتاج إلى موضوعات بل إلى مجلدات.

قد تلاحظ فترات انتقالية طالت أم قصرت بين انحلال دولة وقيام أخرى، فبماذا يمكن تفسير الفراغ الملحوظ من الزاوية السياسية ؟. وفي نظرنا، وكما هو

---

1) مديرية الوثائق الملكية : الوثائق ج 1 ـ ص 56.

حاصل في كثير من مراحل التطورات التاريخية أن فترة التحول من وضعية إلى أخرى تتسم في أغلب الظروف بالمحافظة على السيادة وعلى جوهر النظام، الا من شذ في محاولات تمردية يائسة سرعان ما يعود بعدها طوعا أو كرها إلى الجادة والاتجاه الشعبي المتلزم نحو النظام. والنظام الذي اختاره الشعب وأقره بالإجماع يوم 789/2/6 م. كان يسير بخطوات ثابتة وجريئة ورصينة نحو الاستقرار والازدهار، مصداقا للحديث النبوي الشريف الذي أخرجه المؤرخ العلامة عبد الواحد المراكشي بسنده الخاص إلى الإمام مسلم بسنده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»[2] ومنطوق الحديث ومفهومه يعتبر من المعجزات النبوية الخالدة.

☆☆☆

نسب الأسرة العلوية :

تنتسب الأسرة العلوية المغربية الحاكمة إلى جدها الأعلى أمير المومنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وجدتها العليا فاطمة الزهراء رضي الله عنها، في سلسلة ذهبية من النسب الشريف النبيل، من جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، إلى الإمام علي وسيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنهما.[3]

وعُرفت هذه الأسرة في القرن الثالث عشر وما بعده بأسرة الشرفاء السجلماسيين نسبة إلى مدينة (سجلماسة) التي أسست سنة 757م. وكانت قاعدة لإقليم تافيلالت الصحراوي قبل أن تتحول قاعدة الإقليم إلى مدينة الريصاني[4] وكان جدهم الحسن بن القاسم بن محمد وهو المعروف (بالحسن الداخل) قد نزل بها واستقر فيها عند قدومه الميمون إلى المغرب على عهد الدولة المرينية سنة 664 هـ، 1265م.[5] وبها توفي سنة 676 هـ. 1277م.

وقصة قدوم هذا الشريف إلى المغرب اعتمادا على المصادر التاريخية[6] أن وفد الحجاج السجلماسيين كان يرغب في وجود شخصية من ال البيت النبوي بينهم في سجلماسة للتبرك به حيث لم يكن بها أحد من آل البيت، فاتصل بشريف «ينبع النخل»[7] المولى قاسم بن محمد، وكان من أكبر شرفاء الحجاز في وقته ديانة ووجاهة، فطلبوا منه أن يرسل معهم أحد أولاده الثمانية إلى بلادهم تكريماً وتشريفاً لهم، فاستجاب الشيخ الشريف لطلب الوفد، واختار من أولاده من يليق بتمثيل الأخلاق النبوية والأريحية الهاشمية، في بلد إسلامي عرف بحب أهله وتمجيدهم لآل البيت رضي الله عنهم، وكان الابن المختار الذي رشحته أخلاقه الكريمة وإنسانيته المهذبة لهذه السفارة الشريفة هو مولانا الحسن الداخل الذي تبلورت طيبوبته في حوار مع أبيه للغاية المقصودة، إذ قال الأب لابنه وهو يختبر فكره وسلوكه : «من فعل معك الخير ما تفعل معه ؟» أجاب الحسن : «أفعل معه الخير» قال الأب : «ومن فعل معك الشر ؟» أجاب الابن الذكي : «أفعل معه الخير !» قال الشيخ : «فيرد ذلك بالشر !!» قال الحسن : «فأعود له بالخير إلى أن يغلب خيري على شره !!» فابتهج الشيخ قاسم واستنار وجهه، وأرسله مع الوفد المغربي مودعا بالدعاء له بالبركة فيه وفي عقبه. فاستجاب الله دعاء الشيخ

---

2) ع. الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب. ص 14 - ط 1368 هـ 1949 بتحقيق : محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي. - وقارن بابن عذاري في : البيان المغرب. ج 1 - ص 6.

3) انظر النسب العلوي في : (الأنوار الحسنية) لأبي العباس العلوي. ص 27 وما بعدها، نشر وزارة الأنباء بالمغرب. - وأيضا : (نزهة الحادي) لأبي عبد الله الأفراني - ط 2 - ص 288 وما بعدها. - وأيضا : (الاستقصا) ج 7 - ص 3 وما بعدها - ط 1956 بتحقيق ولدي المؤلف : جعفر ومحمد.

4) عبد العزيز ابن عبد الله : معلمة المدن والقبائل. ص 264 - ومعلمة الصحراء. ص 120 - 121.

5) أحمد بن عبد العزيز العلوي : الأنوار الحسنية - ص 27 - نشر وزارة الأنباء بالمغرب.

6) الأفراني : نزهة الحادي - ص 291 - ط 2 الناصري : الاستقصا - ج 7 ص 6 - ط 1956.

7) ينبع النخل : قرية من قرى الحجاز ساحلة للبحر الأحمر. وقاعدتها ميناء الينبع.

الشريف، وجعل البركة واليمن مقرونتين بابنه الحسن الداخل، وبعقبه من الشرفاء العلويين أينما حلوا وارتحلوا في بلاد المغرب التي فتحت ذراعيها لاحتضان هذه الأسرة الشريفة بكل إجلال وتكريم وتمجيد.

☆ ☆ ☆

كان الحسن الداخل رجلاً صالحاً ناسكاً زاده العلم جلالة ومهابة، أحبه الناس وأكبروه واجتمعوا حوله للتبرك به والاستفادة من علمه، وقد تزوج وهو في الستين من عمره بابنة أبي ابراهيم أحد وجهاء سجلماسة رئيس الوفد الذي كان له شرف القدوم به. وانجب الشريف معها ولداً واحداً هو محمد الذي ورث سر أبيه في الفضل والبركة والصلاح.

وأنجب محمد بن الحسن الداخل ولدا واحدا كذلك، هو الحسن الذي أنجب ولدين اثنين هما : عبد الرحمان المعروف بأبي البركات، وعلي المعروف بالشريف السجلماسي الذي برزت شخصيته في ميدان الجهاد وفي مجالات البر والإحسان، وهو عميد الأسرة العلوية المغربية الشريفة، وعلينا أن نقول بأن الأول الذي عرف بعلي الشريف، تمييزا له عن علي الشريف الابن، وهو الثاني، وعلي الشريف بن محمد ـ الحفيد ـ وهو الثالث. وعرف بعلي الشريف المراكشي، وهو الجد الأقرب للأسرة الملكية، وضريحه في مراكش، تلقاء ضريح القاضي عياض، بنى عليه أمير المومنين مولاي الرشيد قبة بديعة.

☆☆☆

ولئن كان نجم الأسرة العلوية المالكة قد تألق ولمع سياسياً واجتماعيا على عهد مولاي علي الشريف الأول المتوفى سنة 1443م. فإن صيتها قد ذاع وملأ الأسماع في أيام المناضل الرائد مولاي الشريف (إسماً) بن علي الشريف الثالث الذي تزعم انتفاضة سجلماسة ضد الإرهاب وجبروت الحكام الذي زعزع نفوذ الدولة السعدية وعمل على قيام إمارات انفصالية جائرة، وكانت انتفاضة مولاي الشريف مناسبة لظهور الأسرة العلوية كقوة سياسية لها وزنها ومكانتها في المجتمع المغربي.

ابتداء الدولة العلوية.

وقد مهدت انتفاضة المولى الشريف لقيام الدولة العلوية بصفة شرعية سنة 1050 هـ ـ 1640م. بمبايعة أهل الحل والعقد[8] لولده محمد بن الشريف بن علي الشريف الثالث دفين مراكش. وهو المعروف في تاريخ الدولة العلوية بمحمد الأول. وقد جُددت له البيعة إثر وفاة والده الشريف سنة 1658م.

وعلينا أن نقول بأن الفترة التي قضاها محمد الأول في الحكم إلى وفاته سنة 1664 كانت فترة انتقالية بين عهدين، عهد الحركات الطائفية المتصارعة على النفوذ والحكم، نتيجة ضعف الدولة السعدية وانحلالها، وعهد انبعاث النظام وانتصار المشروعية الممثلة في اختيار الأمة للأسرة العلوية التي أعادت للبلاد وحدتها وسيادتها.

☆☆☆

وهكذا اجتمعت الكلمة بعد وفاة محمد الأول على أخيه الرشيد (1664 ـ 1671) وكانت بيعة المولى الرشيد برهانا على وعي الأمة المغربية والتزامها بالعهد الذي أخذته على نفسها يوم بايعت الملك المؤسس محمداً الأول. وفي الالتزام بالبيعة المقدسة تتجلى الأصالة المغربية الإسلامية التي يتوارثها الخلف عن السلف.

وقد تم لمولاي الرشيد توحيد المغرب تحت سلطته الشرعية، وإليه يرجع الفضل في ترسيخ أسس الدولة الجديدة الناشئة، مع ما كان عليه من العمل على إحياء

---

8) أهل الحل والعقد :"هم الذين يمثلون الأمة وينوبون عنها، ويشترط فيهم أن يتصفوا بالعلم والرأي والعدالة. وانظر الماوردي في : الأحكام السلطانية، ـ وابن زيدان في : العز والصولة.

السنة ونصر الشريعة، وكان محبا للعلماء مولعا بمجالستهم، وكان في الجود والسخاء مضرب الأمثال، فظهرت في عهده بوادر نهضة حضارية من أبرز مظاهرها تأسيس مدرسة الشراطين بفاس، وإحداث النزهة الربيعية للطلبة من أجل الترفيه والتنشيط. وذكر الناصري في الاستقصا أنه كان يحضر مجالس الشيخ اليوسي[9] بالقرويين، وعلق على ذلك بقوله : وهذه لعمري منقبة فخيمة ومأثرة جسيمة، فرحم الله أهل تلك الهمم التي كانت تعرف للعلم حقه وتقدر قدره.[10]

عهد الاستقرار والاستمرار.

وقد بلغت دولتنا الشريفة أوج الازدهار والاستقرار في عهد أمير المومنين مولاي اسماعيل بن الشريف (1671 ـ 1727) وهو ثالث الإخوة الرواد الذين لمع ذكرهم وتألق نجمهم في تاريخ الدولة العلوية.

وقد تمكن العاهل الكبير من تحقيق وحدة التراب المغربي كاملة من شاطئ البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى شاطئ نهر السينغال جنوبا. بل إن المؤرخ أبا عبد الله الأفراني المراكشي معاصر مولاي اسماعيل ذكر بأن نفوذ مولاي اسماعيل امتد إلى السودان الغربي (السينغال ومالي) وأنه بلغ في ذلك ما لم يبلغه السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي ولا أحد قبله[11] وحينما احتلت فرنسا السودان الغربي في القرن التاسع عشر وصار يعرف بالسودان الفرنسي، كان ولاة السودان يدينون بالولاء للعرش المغربي كما هو مشهور.

وتجدر الإشارة إلى اهتمام اسماعيل بتأليف جيش وطني منظم اعتمد عليه في المحافظة على سيادة الدولة من جهة، وحراسة طرق المملكة ونشر الأمن فيها، وقد اهتم المؤرخون المغاربة والأجانب على السواء بتكوين هذا الجيش ونظامه وما استفادته البلاد من خدمته وإخلاصه، نذكر منهم كارل بروكلمان عند إشارته لهذا الجيش قال : وأقسم أفراده يمين الإخلاص على صحيح البخاري، ومن هنا عرفوا بعبيد البخاري، أو العسكر البخاري. وقد استطاع ـ الملك ـ بواسطة هذا الجيش أن يخضع قبائل البربر ويطهر البلاد من الأجانب الدخلاء.[12]

وهكذا تمكن العاهل من استعادة الثغور المغربية التي وقعت في قبضة الأجانب أواخر الدولة السعدية. فاسترجع المهدية من يد اسبانيا سنة 1681، واسترجع طنجة من يد أنجلترا سنة 1684. واسترجع من يد اسبانيا كذلك العرائش عام 1689 وأصيلا سنة 1691. كما حاصر سبتة ومليلية حصارا شديدا مدة سبع وعشرين سنة من 1693 إلى 1720 غير أن التحصينات العسكرية الإسبانية المتطورة حالت دون استرجاعهما. لكن الحصار الإسماعيلي للمدينتين الأسيرتين قد أكد على مغربيتهما تأكيدا قاطعا، وأعطى الإشارة التاريخية بوجوب تحريرهما، وما زالت الإشارة الإسماعيلية منقوشة في ذاكرة الشعب المغربي، يتوارثها الأبناء عن الأباء والأجداد. ومهما طال الوقت فلابد من عودة الحق إلى نصابه والمياه إلى مجاريها.[13]

أكثر من خمسين سنة قضاها اسماعيل متربعا على عرش المملكة المغربية، رفع فيها المغرب رأسه عاليا بين

---

9) أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي المتوفى سنة 1691 عالم مغربي مشهور، وأحد أقطاب «الزاوية الدلائية» التي كانت بمثابة جامعة إسلامية في القرن السادس عشر كان لها نفوذ روحي واسع في مجالات العلم والتصوف والسياسة. وانظر كتاب : الزاوية الدلائية للأستاذ محمد حجي ط : 1384 هـ 1964. وقد نقل مولاي الرشيد نخبة من علماء الزاوية المذكورة إلى جامعة القرويين وفي مقدمتهم الشيخ اليوسي صاحب مؤلفات قيمة منها : المحاضرات. وقد قيل في حقه :
«من فاته الحسن البصري يصحبه
فليصحب الحسن اليوسي يكفيه»
والحسن البصري المتوفى سنة 728 م. هو أحد كبار علماء التابعين رضي الله عنهم.

10) الاستقصا ـ ج 7 ص 44 ـ ط 1956.

11) نزهة الحادي ص 305 ـ ط 2.

12) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية (الترجمة العربية) ص 631 ـ ط 8 ـ بيروت 1979 ويؤكد المرجع المذكور ص 632 على أن مدة حصار سبتة كانت 27 سنة.

13) انظر بحثنا المنشور بدعوة الحق عدد شهر مارس 1979 بعنوان : حديث سبتة.

الدول الشرقية والغربية. وكانت فرنسا من الدول الغربية[14] الكبرى التي اعترفت بدولة مولاي اسماعيل الذي كانت علاقته حسنة جدا بملك فرنسا لويس الرابع عشر (1661 ـ 1715) الذي يعتبر من أعظم ملوك أوربا في القرن السابع عشر.

ويجمل بنا أن ننوه بسيدة البلاط الإسماعيلي خناثة بنت بكار بن علي بن عبد الله المغافري المتوفاة سنة 1746 وهي من أسرة صحراوية نبيلة من إقليم الساقية الحمراء[15] تزوجها مولاي اسماعيل وأنجب منها ولده مولاي عبد الله الذي سيخلف والده بعد وفاته، وكانت السيدة خناثة مثقفة أديبة أعطت بثقافتها وسمو فكرها مثالا صادقا لنبوغ المرأة المغربية بمشاركتها في الحياة الثقافية والاجتماعية إلى جانب زوجها الذي كان يعتمد رأيها ومشورتها ويخصها بمزيد من الاعتبار والتقدير. وكان زواج العاهل بها سنة 1678 بعد زيارته لإقليم شنكيط المعروف في الوقت الحاضر بموريطانيا. ونستنتج مما ذكرنا وأشار إليه الكتاب النابهون [16] إن خناثة أم الملك عبد الله وجدة ولده محمد الثالث بن عبد الله ومن أتى بعده من ملوك الدولة إنما كانت نموذجا لما كانت عليه المرأة المغربية في القرن السابع عشر وما بعده من ثقافة عربية أصيلة ونشاط اجتماعي ملحوظ.

وقد اتخذ أمير المومنين اسماعيل مدينة مكناس عاصمة لدولته لما امتازت به من نقاوة الهواء وعذوبة الماء وخصوبة التربة كما عبر عن ذلك شاعرها أبو عبد الله ابن عبدون[17] المكناسي فقال :

إن تفتخر فاس بما في طيّها ... وبأنها في زيّها حسناء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها ... والاطيبان : هواؤها، والماء

وقد أنشأ فيها عدة مآثر عمرانية تاريخية، وبنى مسجدها الأعظم، كما بنى أو جدد عدة مساجد أخرى كبناء وتوسيع ضريح الإمام ادريس الأول بمدينة زرهون، وتجديد ضريح الإمام ادريس الثاني بمدينة فاس، وجعل مسجده مسجد خطبة، وسن تلاوة «حديث الإنصات» عند خروج الإمام يوم الجمعة وجلوسه على المنبر، ومراده بذلك لفت نظر المصلين إلى استماع خطبة الجمعة والاستفادة منها، وما زال العمل بهذه السنة الإسماعيلية في مساجد المغرب إلى الوقت الحاضر. وكان العاهل يحب مجالسة العلماء وكبار رجال دولته، ويمهد السبيل لصحوة علمية وأدبية في عهده رغما عن مشاغله الكبرى بتوحيد تراب المملكة وإقرار الأمن بطريقة حازمة حتى كان المسافر يسافر من مدينة إلى أخرى في الشمال والجنوب دون أن يتعرض له أحد بأذى في طريقه.

وفي مجال تشجيعه للعلم والعلماء أنه أقام حفلا كبيرا بمناسبة ختم دروس تفسير القرآن الكريم في ربيع سنة 1688 دعا إليه علماء فاس، وجرى الحفل في قصره الخاص حيث نصب كرسي التدريس، ولما انتهى الدرس قام أمير المومنين بنفسه يخدم ضيوفه أثناء الوليمة الفاخرة ويوزع عليهم العطايا.[18] وهذه لعمري ظاهرة من ظاهرات الأريحية الهاشمية التي توسمها الشريف قاسم بن محمد في ولده الحسن الداخل وأبنائه وأحفاده.

14) الدول جمع دولة. والدولة لغة ما يتداول بين الناس من مال أو حكم، واصطلاحا كل تنظيم سياسي يحكم أمة مستقرة على اقليم محدد. والدولة في المغرب تمثل الخلافة الإسلامية الشرعية في حراسة للدين وسياسة الدنيا، كما عبر عنها الماوردي في «الأحكام السلطانية».

15) عبد العزيز ابن عبد الله : معلمة الصحراء ـ كلمات : بكار ص 57 ـ خناثة ص 98 ـ معاقلة ص 197 ـ مغافرة ص 200.

16) نذكر منهم : عبد الرحمن ابن زيدان في : إتحاف اعلام الناس ج 3. وعبد الله كنون في : النبوغ المغربي ج 1. وعبد الهادي التازي في : جولة في تاريخ المغرب الديبلوماسي. والناصري في : الاستقصا ج 7 وسماها خناثي.

17) أبو عبد الله محمد بن عبدون المكناسي من أدباء عصر الدولة الموحدية، توفي سنة 1261 م. ـ وهو غير ابن عبدون الأندلسي المتوفى سنة 1134 م.

18) د. محمد الأخضر : الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية. ص 73 ـ ط 1977. الدار البيضاء.

لسنا في مقام المدح وعرض المآثر والمفاخر، ولكننا نذكر أمجاداً وصلتنا متواترة موثقة من مصادر مغربية موضوعية ونزيهة ـ وأهل مكة أعلم بشعابها، كما في المثل ـ وإن كان بعض الكتاب الأجانب قد انتقدوه انتقادا مغرضا[19] مثل الكاتب الإنجليزي روم لاندو في كتابه «تاريخ المغرب في القرن العشرين» ومع ذلك يخفي وجهه المنافق وراء اعتراف صادق لم يجد بدا من التصريح به فقال : «كان مولاي اسماعيل أبرز سلاطين الأسرة العلوية، وكان معاصرا للويس الرابع عشر ملك فرنسة، إذ ظل على العرش الشريفي من سنة 1672 إلى 1727، ومع أن الكتاب الأوربيين قلما وفوه حقه، والكتاب المغاربة أمعنوا في التغني بمديحه، فقد كان ولا شك من كبار رجال التاريخ، فقد عمل على رفع مكانة المغرب كثيرا عن طريق توحيد البلاد وإقامة إدارة قوية فعالة وإنشاء جيش ثابت».[20] وكان على الكاتب الإنجليزي أن يقف عند هذا الحد بدلا من التهافت وراء أفكار مسبقة مشبوهة لايعتمد فيها على مصدر نزيه، لو أنه تذكر مقولة الفيلسوف الفرنسي ديكارت إذ قال : «تخل عن أفكارك ومعارفك وابحث عن الحقيقة لتبلغها».

ولكي لانتهم بالتحيز بالرجوع إلى المصادر المغربية النزيهة المتعلقة بهذه الجزئية، نذكر بكل إعجاب رأي الكاتب الفرنسي شارل أندري جوليان، في مولاي اسماعيل قال : «كان يبدي شجاعة جديرة بالإعجاب، ولم يقتصر على ذلك، بل تجاوزه إلى ماهو أعلى وأعظم، فكان حاد الذكاء حاضر الجواب دقيقه، متأجج العاطفة الدينية إلى حد التبشير، عزوفا عن الترف، زاهدا في الموائد الفاخرة، مرهف الشعور بمسؤوليته نحو استقلال بلاده وازدهارها الاقتصادي، تلك هي الملامح الكبرى لملك أين منه شخصية شارل الثاني ملك الإسبان[21] أو جاك الثاني ملك الإنجليز اللذين عاصراه».[22]

وللمقارنة ارتأينا أن نشفع مقولة شيء أندري جوليان بما كتبه في الموضوع أبو عبد الله محمد الضعيف الرباطي المتوفى سنة 1818 في تاريخه فقال في معرض كلامه عن مولاي اسماعيل مانصه : «كان رحمه الله مطيعا لأوامر الله، خاشعا خائفا من مولاه، رفيقا بالمساكين والأرامل والأيتام، مسلطا على الظلمة والطغات العظام... وكانت طاعته قد عمت جميع المغرب إلى تلمسان، وجميع بلاد الصحراء وتوات وفكيك وأطراف السودان، وعلى تيغاز وسوس الأقصى، وخضع له جميع من كان عصى... ولقد كان صواما قواما دائم الذكر شديد الغيرة في محارم الله، وكان مهابا شجاعا ظاهرا للفداء منصورا مظفرا مؤيدا، يهابه ملوك الأرض، ويرون مهادنته عليهم من آكد الفرض، ويهاديه ملوك الأقاليم، ويتحفه بالهدايا ملوك الأعاجم».[23]

كما لايفوتنا اقتطاف نص موضوعي في إطار سلوك عاهلنا المقدس للكاتب العربي المعاصر أحمد عسه قال : «يجمع المؤرخون الأجانب على أن مولاي اسماعيل كان يتمتع بحيوية ونشاط فائقين، وأنه كان شجاعا لايعرف الخوف منفذا إلى فؤاده، وفطنا ذكيا لاتنطلي عليه الحيلة ولا الخديعة، ومدركا لأهمية توطيد أركان العرش لصالح المغرب، ومحررا للتراب الوطني المغربي من الاحتلال

---

19) محمد العربي الشاوش : دفاع عن المولى اسماعيل ـ مجلة دعوة الحق ـ عدد شهر مارس 1972.

20) روم لاندو : تاريخ المغرب في القرن العشرين (الترجمة العربية) ص 21 ـ ط 2 ـ بيروت 1980. وقوله : بدأت خلافته سنة 1672 صوابه سنة 1671. لكن دخل مراكش في رابع يونيو 1972.

21) كان مولاي اسماعيل قد بعث إلى شارل الثاني ملك اسبانيا سفيره الكاتب محمد الوزير الغساني للتفاوض في افتكاك الأسرى المسلمين. ووصل السفير المغربي إلى مدريد في 8 يناير 1691 واستقبل الملك الاسباني مرات، ولما عاد إلى المغرب كتب رحلته المشهورة باسم «رحلة الوزير في افتكاك الأسير» طبعت في طنجة سنة 1940. وهي غير الرحلة المعروفة بعنوان «الأكسير في افتكاك الأسير» لمحمد بن عثمان المكناسي. طبعت بالرباط سنة 1965 بتحقيق الأستاذ محمد الفاسي، (وانظر : ليفي بروفنصال في كتابه : مؤرخو الشرفاء ـ الترجمة العربية ـ ص 202 ـ ط. 1977 بالرباط).

22) شارل أندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ـ الترجمة العربية ـ ج 2، ص 293 ـ ط. تونس 1978.

23) محمد بن عبد السلام الضعيف : تاريخ الدولة السعيدة، عرف بتاريخ الضعيف ـ ص 98 ـ ط سنة 1986 الرباط. بتحقيق الأستاذ أحمد العماري.

الأجنبي، ولولا بعض المتاعب الداخلية لكان قد وفق لتحرير سبتة ومليلية...» ثم زاد الكاتب العربي قائلا : «نقطة إضافية أنفرد بها مولاي اسماعيل في علاقاته مع الدولة الأوربية، نعني بها اهتمامه بالناحية العقائدية، إذ وجه رسالتين مهبتين إلى كل من لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وجيمس الثاني (جاك الثاني) ملك أنكلترا دعاهما فيهما إلى اعتناق الإسلام... لايظنن أحد أنه في دعوته هذه كان ينطلق من تعصب مقيت ضد النصرانية كدين، وإنما كان يعبر عن إيمانه العميق بأن الإسلام أفضل شريعة سماوية تؤمن سعادة الإنسانية...» وزاد الكاتب بقوله : «رحم الله مولاي اسماعيل... كان مسلما صادقا يلزم نفسه بتنفيذ كل متطلبات الشريعة، بما في ذلك السنن والمستحبات، وان آثر أن يعيش حياة عريضة، في حدود مالا يتعارض مع الشريعة».[24] وكان الكاتب المذكور - قبل عرض نصوصه التي أثبتناها - قد انتقد المؤرخين الأوروبيين فيما سجلوه عن العاهل المغربي من سلوك مغرق في القسوة والبطش معتمدين على روايات أسراهم، أو على أخبار ديبلوماسيين حاقدين وصلوا إلى بلاط مولاي اسماعيل، فأكلوا خيره وجحدوا فضله !

☆ ☆ ☆

لم يعهد مولاي اسماعيل بالخلافة لأحد من أبنائه، بل ترك الناس أحراراً بعد وفاته ليختاروا ماشاءوا من أنظمة ومن شاءوا من رجاله. فاختاروا بمحض إرادتهم نظام مولاي اسماعيل وأبناءه ثم أحفاده. وهكذا وجد الأمراء الميدان خاليا لترضية طموحهم في الحكم. ووقع النزاع بين الإخوة على العرش، وغذى الجيش الإسماعيلي هذا النزاع الخطير بتدخلهم في شؤون السياسة والحكم، كما أن الولاة الأتراك العثمانيين بالجزائر كانوا لايتورعون عن مساندة الانقلابات التي أدت إلى مواجهات عنيفة للسيطرة على زمام الدولة، ومع ذلك لم تظهر في الميدان حركة مناهضة للعرش العلوي. وإنما الخلاف قائم حول الشخصية الشريفة المستحقة للخلافة، فكانت أزمة حكم لا أزمة نظام.

وهكذا جلس على العرش العلوي سبعة من أبناء إسماعيل هم :

1) أحمد المعروف بالذهبي.
2) عبد الملك.
3) عبد الله.
4) علي الملقب بالأعرج.
5) محمد المعروف بابن عربية، لأن أمه كانت عربية من الشاوية، وعرف في تاريخ الدولة بمحمد الثاني.
6) المستضيء.
7) زين العابدين.

لكن المولى عبد الله بن اسماعيل (1728 - 1757) تمكن من الاحتفاظ بالعرش، إذ جددت بيعته مرارا في جميع الأقاليم، وكان الأقاليم الصحراوية من أشد الأقاليم المغربية ولاءا له وتمسكا به، وتقدم أن أمه كانت من إقليم الساقية الحمراء، وهي الأميرة خناثة بنت بكار السابقة الذكر.

للموضوع بقية.

تطوان : محمد العربي الشاوش

24) أحمد عسه : المعجزة المغربية - ص. 88 و94 و95 - ط. بيروت 1975.

النظام الملكي بالمغرب

من عهد إدريس الأول إلى عهد الحسن الثاني

مرور اثني عشر قرنا على إنشاء

بمناسبة الذكرى الثامنة والعشرين لجلوس عاهل المغرب مولانا الحسن الثاني

للأستاذ الحاج أحمد معنينو

من المعروف أن الحديث عن أمجاد الدولة المغربية والذكريات المتوالية لجلوس ملوك المغرب على العرش المفدّى قد تعدّدت وتتابعت في قالب واحد !؟

ويسعدني اليوم أن أهدف بهذه الذكرى إلى شبه دراسة أولية عن نشأة الدولة المغربية المسلمة في عهد إدريس الأول سلالة الرسول الأكرم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام. وتجدني مضطراً إلى إلقاء بعض الأسئلة الوجيهة عن أشياء لاتزال غامضة تحتاج إلى الدراسة والبحث والتنقيب ؟

وأتوجه إلى الكتاب والباحثين والمنقبين أن يستجيبوا لندائي بما يحل هذه المشاكل بأجوبة ملائمة وصادقة ؟!

الكل يعرف أن المولى الرشيد، هو الذي استطاع أن يحتضن المولى إدريس من الحجاز، ويراهن به، ويقطع به المسافات الطوال، والأراضي الشاسعة، في اختفاء وتستر ؟

يقال : إن المولى راشد ينتسب إلى قبيلة أوربة البربرية المسلمة ؟ فهل ياترى بُعث به للشرق الأدنى عندما كانت أصداء الحروب بين بني أمية وبني العباس ؟ وكيف استطاع الوصول إلى ذلك المكان البعيد القاصي ؟ وكيف استطاع التعرف إلى العائلة الملكية الشريفة، وكيف استطاع أن يحصل على ثقتها. وأن يحضر الأحداث الجسام عن قرب أو بعد، ولما شاهد انكسار الأشراف استطاع الفرار بابنهم البار إدريس الأكبر. فأخذ إدريس الشاب شريداً طريداً فارا به من ملاحقة أبناء عمه بني العباس، الذين كانوا يرتابون من أبناء جده علي ! ولا يطيقون العيش معهم في مكان ليس له ظهير إلا فتاه راشد بل نصه الأورابي ؟

ثم عندما حلّ بالمغرب ونجا من الموبقات والعوائق، وصادف في طريقه من يساعده ويسنده ويقويه ويزوده، مثل القائم بأعمال مصر وغيره، نعم، عندما حل بالمغرب، وبلغ «وليلي» مقر عائلة أوراية البربرية المسلمة، استقبلته أحسن استقبال، ووفرت له كل ما يحتاج إليه من زاد وعون، بل زوجته وصهرته بكريمة من كرائم أسرها السيدة كنزة ؟

الرشيد، هو الذي كان مسموع الكلمة في قبيلته؛ ولا أدل على ذلك من كون الحدث الجلل الذي حصل بتسميم المولى إدريس من طرف مبعوث الرشيد الخوّان استطاع أن يجمع كلمة الشعب البربري المسلم على الاحتفاظ باسم ملك المغرب حتى تضع زوجته مولودها، ومن الألطاف الربانية ولادة مولود ذكر، سمي إدريس تيمّناً باسم والده إدريس الأكبر، وأكثر من ذلك احتضان هذه القبيلة المسلمة لهذا المولود السعيد، والسهر على تربيته وتنميته مادياً وأدبياً حتى بلغ سن التاسعة أو السابعة على ما أذكر. فأجمعت كلمتها على مبايعته بالملك مكان والده المقدّس.

ومن هذا العرض أرجو ممن له دراية بالموضوع أن يذكرنا بطرق المواصلات، وهل الرشيد أرسل من المغرب لإنقاذ الأشراف ومساعدتهم على الوصول إلى المغرب كي ينشئوا دولة إسلامية شريفة من ذرية النبي من آل علي يقطعون بها دابر العباسيين المترامين على حقوق أبناء عمومتهم ظلماً وعدواناً ؟ والمرتكبين لكل أنواع الفظائع والنوائب التي ألحقوها بالشرفاء آل علي كرّم الله وجهه.

☆ ☆ ☆

لقد أنشأ إدريس ملكاً رحب الأطراف، متسع الأكناف، يمتد من المحيط الأطلسي إلى وادي شلف، بقلب المغرب الأوسط، ولو طال أمد حكمه ولم تمتد إليه يد الغدر لبلغت دعوته وشمل حكمه الشرق والغرب ولا انحصرت عظمة بغداد وازدهرت بالمغرب بغداد جديدة. من أجل ذلك، وبهذه المناسبة العظيمة التي يخلد فيها الشعب المغربي الذكرى الثامنة والعشرين لتربع صاحب الجلالة على عرش أسلافه الغر الميامين فإنني بهذه المناسبة الحميدة، والذكرى المجيدة، بدا لي أن أطرق موضوع هاته السنة بالرجوع إلى تاريخ أمجاد ملوك المغرب الحبيب منذ عهد إدريس الأكبر المنشئ «للعرش المغربي» على تقوى من الله ورضوانه، وأن أعرف القارئ الكريم أن الحفاظ على صبغة هذا البلد المسلم قوام ملوك أشاوس، تحملوا منذ العهد الأول حتى يوم الناس، وإن الكريم المفضال يهيء في كل عهد من عهود الدولة ملكاً كريماً، ومسلماً صادقاً، ومجاهداً بارّاً تسند إليه الأمة عن طواعية واختيار شؤون سيرها والحفاظ على عقيدتها وكيانها، وفعلاً وقع الاختيار على نقل ما كتبه التاريخ في هذه المجالة. وإلى القارئ الكريم ما توصلت إلى تحريره وتسطيره.

حسب الترتيب، دولة إدريس الأكبر حفيد بيت النبوة :

إذا ذكرت دولة المغرب العربية المسلمة، فالمولى إدريس الأول، هو البطل المؤسس لها، والمنشئ لكيانها وعظمتها وأمجادها، فبوصوله للمغرب، تهيأ الجو لتكوين الدولة المغربية برئاسة المولى إدريس الأكبر، وتهيأت فعلاً بكل ما تحمل كلمة الدولة من معنى، الأمر الذي أقض مضاجع العباسيين بالشرق وهم إذذاك سادات البلاد الإسلامية قاطبة !

وكان رحمه الله يحن إلى كل ما هو عربي، الشيء الذي سهل على سليمان بن جرير الشماخ الغادر طريق التقرب إلى الإمام الشريف النظيف، فخلا له الجو وفعل فعلته الإجرامية حيث سم المولى إدريس، فمات شهيد الغدر، وحسن النية، وفرّ المجرم طليقاً، وترك الدولة في أرغد عيش وأحسن حال.

إدريس الأزهر :

ما فارق الحياة المولى إدريس الأول حتى ترك الدولة المغربية عظيمة البنيان شامخة الأركان، في مصاف الدول الراقية في زمانه، فأجمعت كلمة الأمة المغربية المرتبطة بالعرش بالطاعة والولاء أجمعت على نصرة خلفه من بعده إدريس الأزهر : الذي تولى شؤون المملكة وسنه

طري، ولكن فتوته وعبقريته تفوقت وأثمرت وأينعت، وأصبح المغرب في عهده في الصفوف الأولى السامية.

☆ ☆ ☆

جيش منظم، ورجالات النظام والتنظيم، وبطولات في تسيير شؤون الدولة في أبهى حللها كلمة مسموعة ورأي مطاع، وقوة ونفوذ، وعدل ورفاهية، خطط المدن، وتقاطر عليه الجم الغفير من شتّى أقطار الدنيا أنصاراً وأشياعا، إلى طاعة المواطنين وتشبثهم بالمثل العليا، وتجاوب وتعاون بين شعب وعرش، بحث واستكشاف وبنيان وعمران، قضى ربع قرن في الملك، وطّن فيه شؤون الدولة على أحسن الوجوه، ونشر العدل والأمن والرفاهية، وقاتل الشرك والوثنية والخصوم عموماً، وغادر الحياة محمود النقيبة، مشكوراً من الله والناس، والمغرب دولة عزيزة وكريمة.

☆ ☆ ☆

وجاءت دولة اللمتونيين من الصحراء، بويع السلطان الأكرم **يوسف بن تاشفين سنة 453 هـ** فقامت الدولة بواجب نشر الأمن والعدل، في الرعية، والوقوف في وجه البرغواطية المشركة ! وإسقاط مخالب الفرنج، عموماً، وتطهير أنحاء البلاد من الظلمة والمتسلطين، ثم استنجد به مسلمو الأنزاس يستغيثون به من كيد الصليب ! فلبى النداء بجيشه البطل، وجرت وقعة **الزلاقة**، يوم الجمعة 11 رجب 479 هـ وسجل التاريخ العظمة والأمجاد لأمة المغرب ودولة المغرب، وعرش المغرب، وهكذا نجد ابن تاشفين لا يفتر عن العمل المستمر، والسعي المتواصل في سبيل إسعاد بلاده، وتحصينها مع جميع العوامل الهدامة، وقد قضى مدة نصف قرن يسعى ويجد حتى اخترمته المنية سنة 500 هـ رحمه الله.

☆ ☆ ☆

دور ولده علي بن يوسف :

تابع هذا الملك الموفق خطة أبيه في تطهير بلاد الأندلس من رجس الصليب ! وهكذا نرى في شخصية هذا الغيور البطل المدافع المكافح عن الملة الطاهرة، الرجل الذي قيضه الله للأندلس المسلمة يرفع من شأنها بعد أن كانت ستقع جريمة في أيدي الطغاة، عباد الصليب وأعداء التوحيد، وبذلك وحد بين العدوتين الأندلس والمغرب، فقضى في الملك سبعاً وثلاثين سنة كلها جهاد ونظام وأمن وسلوك حميد بالشعب، وارتباط بتعاليم الإسلام والعروبة. حتى وافته المنية سنة 537 هـ.

☆ ☆ ☆

دور الموحدين :

إن الكلام على دعوة الموحدين ومذهبهم يطول، والحاجة ماسة إلى التعرف على بعض رجالاتهم وشريف أعمالهم، وكبر جهادهم لا غير، فيتخلص المترصف في طابع السلفية التي تدعو إلى الرجوع للكتاب والسنة سواء، واستطاع الموحدون أن يلعبوا دوراً هاما في إقرار الأمن وإرجاع النظام، برجوع افريقية وأفضل تاج توجت به الدولة.

شخصية عبد المومن بن علي الكومي

تولى شؤون الدولة عقب وفاة مؤسسها المهدي ابن تومرت الذي فارق الحياة سنة 524 هـ.

توالت حروبه، وفتوحاته، ونشر الأمن والعدل، وهدم الأسوار قائلا : إن أفضل وسيلة لتحصين البلاد العدل والمساواة بين العباد، وخوف الله، وبعد جولات في المغرب الأقصى والأوسط، عبر البطل البحر إلى الأندلس يقاوم عباد الصليب المعتدين على أنصار التوحيد، اهتم بشراء الخيول الجيدة، وجلب الأسلحة وإنشاء الأساطيل، وسيما هو يفكر في غزو الأروام برا وبحراً، إذ وافاه الموت بمدينة سلا سنة 558 هـ وفقد المغرب بطلاً عظيماً وسياسياً محنكاً، وعبقرياً فريداً، وقائداً عسكرياً، مدد بأجمع شتات البلاد وبنى لها مجداً أثيلاً بين الأمم والشعوب، قضى ما يربو على ربع قرن مناضلاً ومكافحاً، ولم يملأ فراغه إلا ابنه.

☆ ☆ ☆

2) **يوسف بن عبد المومن الموحدي**

بويع بالملك عقب وفاة والده في مستهل 559 هـ.

شن حملات على بعض الجهات لنشر الأمن والعدل في ربوع المملكة، وبعد هذه الجولات التفقدية توافد عليه الرسل من الأندلس يترضونه ويلتمسون منه النصرة والعون، وقد صرفهم بعد أن قطع لهم الوعد الأكيد أنه سوف لا ينسى ولا يتكاسل عن نجدتهم، ورد العدو عنهم، وأمرهم بالاتحاد والتآزر والتعاضد وذلك سنة 565 هـ، بعث لهم بجيش لجب برئاسة البطل أبي حفص الموحدي، ثم رحل بنفسه على رأس مائة ألف جندي مغربي لإغاثة الأندلس، المسلمة، وهكذا نجد ملوك المغرب في كل الأوقات والظروف لا يتأخرون عن نصرة المستضعفين من إخوانهم المسلمين، وبفضل الله توالت الانتصارات لجيش المسلمين وحصلت غلطة مريعة ذهب هذا البطل ضحية لها لولا لطف الله لهلك الجيش والملك ولكن الله لطف بعباده **تدارك الكل بفضله ورعايته وأسلم الروح لباريها في نهاية 580 هـ.**

☆ ☆ ☆

بويع ولده يعقوب المنصور الموحدي :

ثالث ملوك الموحدين الأبرار، بويع بعد وفاة والده وأصبح يؤلف الجيوش وهي عمدة الدولة المغربية منذ نشأتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، طاف بإفريقيا زائراً ومتفقداً الأحوال، ومسهماً في رتق الفتق والضرب على يدي الظلمة والمتسلطين، ورؤساء الفتن ودعاة الهزيمة، في كل زمان ولقد أصيب الملك بمرض في عاصمة الشمال، وبعد ما أبل من مرضه وصلته ألوكةٌ من طاغية الإسبان يتحداه ويتوعده، وقد بلغت به الجرأة أن قال له (إن كنت مستعدا لمقابلتي في الأندلس، فأنا مستعد لعبور البحر ولقائك في عقر بلادك)، قرأ المنصور الرسالة وتأثر تأثراً عميقاً ثم ناولها لابنه الذي كان بمثابة مستشار له ليبدي رأيه، فما كان من الابن إلا ان كتب على هامش الرسالة ما يلي :

«إرجع إليهم فلنأتيهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون»، الشبل من ذاك الأسد، جمع الملك المجاهد الجيش، وواصل سيره إلى أن نزل على حصن الأرك في شهر شعبان 591 هـ واتصل بالقواد العظام، وزود الكل بنصائحه وبات ليلة في تهجد وصلاة ودعاء وتلاوة القرءان، وأخذ قسطاً من النوم ورأى في منامه رجلاً ينشده هذه الأبيات :

بشائر الله جاءتك سافرة

لتعلم أن الله ينصر ناصره

فابشر بنصر الله والفتح إنه

قريب وخيل الله لاشك ظافرة

تغنى جيوش الروم بالسيف والقنى

وتخلي بلادا لا ترى بعد عامره

اشتبك الفريقان في معركة حامية الوطيس، تعتبر من أعظم وأكبر المعارك التي وقعت في التاريخ تلك هي وقعة الأرك، التي أسفرت عن اندحار النصارى المغيرين وسقوط الحصن في أيدي الجيوش الإسلامية وهكذا نجد النصر قريباً من المؤمنين.

☆ ☆ ☆

دور بني مرين العظام :

وهذا أبو يوسف يعقوب المنصور المريني .

عندما بلغه خبر هجوم الروم على مدينة سلا، واحتلالها خلسة، وهو مقيم بتازة، تألم كثيراً ولم يسعه إذذاك إلا أن يخرج من الناحية الشرقية، ليطهّر هذا البلد العتيق من سرطان المحتلين الغاصبين نهض بجيوش كثيرة، ووصل الثغر السلوى عشية يوم السبت، ولم يجد كبير مشقة في هزم الغزاة وردهم على أعقابهم خاسرين، وعقب هذا النصر والفراغ من تحصين البلاد بالسور المواجه للبحر المحيط وهو سور عظيم كان يرحمه الله يشتغل في بنائه

مع أبناء شعبه تقرباً إلى الله، وزلفا، نعم أصبح يستعد لإغاثة بلاد الأندلس فجهز جيشاً نصب عليه ولده زيان سنة 668 هـ ثم توجه بنفسه غازياً وفاتحاً ومكافحاً على راية الإسلام والعروبة في تلك الديار أثخن في الروم سنة 674 هـ وأعاد الكرة عليهم، فقضى على جيشهم ويقال عنه إنه بلغ ثمانية عشر ألف جندي ورجع للمغرب منتصراً وفي 22 من شهر المحرم 685 هـ لقي الله ونقل جثمانه الطاهر، ودفن بشالة بعد أن قضى في الحكم 29 سنة جهادا وكفاحا وانتصاراً.

☆ ☆ ☆

دور دولة الأشراف السعديين :

إن موقف هذه الدولة كان دقيقا إلى حد كبير ومن حسن الحظ برز فيها ملوك عظام واستطاعوا أن ينهضوا بالعبء الثقيل، ويتحملوا المسؤولية الجسيمة كل ما وسعهم الأمر، على إنقاذ الوطن والمكافحة عنه والدفاع عن حقوقه، ومن بين هؤلاء الملوك، **محمد الشيخ السعدي**، الذي يعد من الأبطال في تاريخنا الوطني، فقد اهتم كثيرا باحتلال البرتغال لأراضي الوطن، فشنها حربا لا هوادة فيها إلى أن فل شوكتهم، وقصم ظهورهم، فاجلاهم عن **فونتي** سنة 947 هـ وعن **أسفي** 948 هـ وعن **أزمور** في السنة نفسها ثم اتجه نحو الأتراك الرابطين على الحدود الشرقية فردهم لحال سبيلهم، وحرر الأوطان، من رجس الاحتلال والطامعين من المغيرين، وكتب للملك **سليمان القانوني** بالجواب الآتي : إن الجواب لا يكون في المغرب بل في مصر التي عاد البطل العظيم يعتزم الوصول إليها فحالت دون مبتغاه الموت رحمه الله.

☆ ☆ ☆

موقف الملكين العظيمين عبد المالك وأحمد المنصور :

في وقعة وادي المخازن الفاصلة عام 986 هـ.

الوقعة التي هدت دولة البرتغال، وسمت بدولة المغرب في العالم، فأصبح يخطب ودها ويخشى بأسها والكلام على هذه الوقعة مسجل في كتب ضخمة، يشرف المواطن الحر أن يجد في تصفحها ودراستها وأخذ العبرة منها. فقد أهلكت جيش الصليب الحقود عن بكرة أبيها قتلا وغرقا وأسرا، واتسع العمران وانتشرت الحضارة، والأمر والرفاهية، إلى أن اختطفت المنون روح المنصور الذهبي الذي لو زاد الله في عمره لانقذ بلاد الأندلس، ولكن الأجل المحتوم حل بتاريخ 1012 هـ فترك العظمة والأمجاد لأمة المغرب.

☆ ☆ ☆

دور دولة الأشراف العلويين الخالدة :

وأذكر منهم أبا النصر **اسماعيل العظيم** الذي جلس على عرش المغرب نصف قرن وزيادة وحرر البلاد من المستعمرين والمغيرين ونشر الأمن والعدل والرفاهية، والاطمئنان في ربوع الدولة المغربية الكريمة، وخلد العظائم والأمجاد التي قل من توفر عليها، حتى لقي ربه وعمره يناهز الثمانين وذلك في سنة 1139 هـ.

☆ ☆ ☆

دور حفيده الملك الهمام محمد بن عبد الله العلوي تولى شؤون الملك 1171 هـ :

فقد بادر هذا الملك الهمام بتكوين الجيش وأشهرها حربا تحريرية ضد الطغاة والمتجبرين بالداخل والخارج فطهر الشواطئ المغربية، من الاحتلال الأجنبي ويعد بحق جوهرة ثمينة وذرة نفيسة كما عبر بذلك عنه المؤرخون، فلقد أنشأ مغربا قويا متحدا واجتاز مراحل وعقبات شديدة، وربط الصلات بالعالم الخارجي على حد المساوات بل، والتفوق في السلوك وشريف الخصال، حتى جاءه الموت بتاريخ 1204 هـ.

☆ ☆ ☆

دور الملك الشهم الحسن الأول :

الملك الذي تلقى شؤون المملكة يوم 28 رجب 1290 هـ. فبادر بتكوين الجيش، عُدةِ الشعوب، وضان

الأمن والعدة والشرف للدولة، وكان لزاما على جلالته أن يواجه الصعاب، نتيجة لاحتكاكه بالغرب، وتأثير المدنية الحديثة في الأوساط فشرع يبعث البعوث العلمية للدراسة بالخارج لتكوين الأطر، لدولة عظيمة المجد في التاريخ لأن هذه النخبة التي تتكون علميا وسياسيا وعسكريا عن الضامنة لبقاء الدولة ونهضتها وعزتها وشرفها، قضى زهرة حياته في الكفاح المسلح عرشه على أكتاف فرسه، يجوب البلاد طولا وعرضا، ويرسي معالم الدولة ويناهض الطامعين والمتربصين، حتى حضرته الوفاة فأسلم الروح لباريها بتاريخ أواخر سنة 1311 هـ رحمه الله وأثابه.

☆ ☆ ☆

دور محمد الخامس :

ولد هذا المجاهد البطل بقصر الملك بفاس سنة 1329 هـ موافق 1911م قبل الحماية البغيضة بسنة، ونودي به ملكا على المغرب عقب وفاة والده المنعم المولى يوسف رحمه الله بيوم واحد يوم الجمعة 23 جمادى الأولى 1346 هـ موافق 18 نونبر 1927م فكان لخطابه الأول للشعب فأل «حسن وأمل» عظيم، أن يوفقه الله لتحرير البلاد، من أزمة الاحتلال والحجر، ومن غريب الصدف أن الحماة يعملون لحسابهم بطرق أخرى يبذلون الجهد في زيادة تمزيق وحدة البلاد متكالبين تساندهم طوائف من المارقين العاقين للأمة والدولة والعروبة والإسلام، فلم تكد تمر سنوات على ولايتـــه، وهو لا يزال تحت الحجر المصطنع ! حتى واجهته مشكلة تمزيقية للبقية الباقية تحت نفوذه الشخصي مباشرة، وذلك بإصدار ظهير شريف في غيبة عينه في 16 مايو 1930م يؤذن بفصل البربر عن العرب، ويبعدهم عن التعامل بشريعة الإسلام ! التي يعد البربر المسلم الجند الدائم، للدفاع عن الشريعة الإسلامية التي اعتنقوها وهاموا بحبها طيلة الأحقاب، وإليهم يرجع الفضل في نصرة ملك المسلمين سليل الرسول الأكرم المولى ادريس الأول مؤسس الدولة المسلمة بالمغرب منذ اثني عشر قرنا.

غاب هذا عن أفكار الطامعين والمارقين، ففكروا في استغلال الظروف، والملابسات، واستصدروا هذه القنبلة المحرقة التي نزلت بهم لا بالمغرب ؟ فأحرقت لهم الأخضر واليابس، وكانت فاتحة خير وبركة على الأمة المغربية وملكها الفتى، ميمون الطالع، الذي أوجده الله لينقذ البلاد والعباد من خزي الاستعمار والاحتلال.

لقد دق ناقوس الخطر ؟

واستيقظ الغافلون، وعمت هذه اليقظة طول البلاد وعرضها، وظهر الملك الشاب منذ هذه الساعة رسول تحرير، وبشير خير وإمام المسلمين واتفقت كلمة الشعب على حب هذا المومن الصادق فأقامت الاحتفالات لذكرى جلوسه على العرش تكريما وتشريفا وبرهانا على الحب والطاعة والولاء وأصبحت الصلات تتوالى بين عرش وشعب والجهود تبذل هنا وهناك، لمقاومة الدخلاء وأذنابهم، وتفتحت ينابيع الخير بالحب العذري بين الجانبين، والهيام بتبادل الثقة والمشورة وتنظيم الصفوف، لمحاربة الدخلاء في كل الميادين، وظهرت العبقريات في خلق الهزات النفسية لنشر الوعي، بين سائر الطبقات، وأصبحنا نقطع الخطوات الواحدة تلو الأخرى، بتضامن وتعاون وحب وثقة، والعدو يكشر أنيابه، وينظم خلاياه من المجرمين المرتزقة.

والأمة المؤمنة بالله وبالملك المومن تعمل ليل نهار وتبذل الجهد في نشر الوعي وتحمل المسؤولية، وتتصل مباشرة أو بوسائط بالرجل الذي جاد الزمان به على الأمة المغربية في هذا العصر، ليأخذ بيدها ويطهر البلاد من وصة العار، ومذلة الاحتلال، دام العراك طيلة ربع قرن على جلوس جلالته في عرض المغرب وأقيم احتفال رائع تحت اسم الذكرى الفضية بمرور 25 سنة على تربعه عرش أمجاد الأمة المغربية، فازداد حقد الحاقدين، وتآمر المتآمرين، الحرب مستمرة فيوم لنا ويوم علينا، ويوم نساء، ويوم نسر، ولله عاقبة الأمور، وجاءت تدابر الماكرين ومؤامرة يوم 20 غشت 1953 يوم ذهبوا بسيد البلاد وعز المغاربة رمز الوحدة وقلبها النابض محمد الخامس وأسرته إلى مدغشقر

النائية حيث نصبوا على العرش المغربي دمية واهية **محمد بن عرفة** نصبته حسب أغراضها ومصلحتها لتبتلع أرض المغرب ويصبح قطعة فرنسية وراء البحار ! اعتقلت الأسد المقيد الذي ستته قوته من الله الجبار القهار ولكن هذا العدوان أوحى الشعب المغربي بمعاني التضحية والبذل في سبيل الحفاظ على السيادة المغربية فأعلنها حربا لاهوادة فيها تضحية بكل غال ورخيص في سبيل المغرب، وعرش المغرب وملك المغرب، سلاحهم الإيمان بالله وبالعرش وبالأمجاد، تسلحوا بالحديد والنار، وانطلقت أفواج المقاومين بالسهل والجبال يحطمون هياكل الاستعمار، وأنصاره من الخونة والمرتزقة، لقد رفع المغاربة رؤوسهم للسماء فوجدوا داخل القمر صورة جلالة الملك المفدى فازداد الإيمان قوة ووطنية وشجاعة وإقداما، شرع الجهاد في أعداء الله والملك والوطن، واستمر الكفاح وامتد يقضي على الهشيم فتذروه الرياح وضاقت السبل بالمستعمرين واشتد عليهم البلاء وانقلبت الأوضاع وأصبح لامفر من الرجوع. إلى الحق والإنصاف، ومضت سنتان من الجهاد المتواصل تخريب قلاع المستعمرين ويزهق أرواحهم فتراجعوا مكرهين وأصبحوا يحثون على الحل ورجوع المياه لمجراها الطبيعي، وما وسعهم إلا الخضوع لمطالب الأمة وعرشها والشعب والملك وحصلت الاتصالات وتبادل الرأي والنتيجة إبعاد الدمية عن حق الملك الشرعي والاعتراف للمغرب بالحرية والاستقلال تحت راية الملك الشهم المسلم الغيور حبيب الأمة وسيد البلاد محمد الخامس رضي الله عنه، حصلت انتفاضات دولية وختامها رجوع جلالة الملك لعرشه وبلاده وذلك في يوم مشهود واستقبال بالأرواح قبل الأجساد وذلك يوم 16 نونبر 1955 تكونت الحكومة الوطنية وانعقدت الاتفاقيات التي أبطلت معاهدة 30 مارس 1912 بالاعتراف لأمة المغرب باستقلالها، وحريتها حصل ذلك من طرف الفرنسيين والإسبان ونظام طنجة أيضا، وتكون جيش المغرب والدبلوماسية وشرع في البناء للدولة المستقلة واستعرض جلالته الجيش الظافر بقيادة ولده ووارث سره الأمير البطل الحسن بن محمد حفظه الله، واسترسل حفظه الله في بناء مستقبل البلاد، وتقوية هيكلها وكيانها، وبذل أعزه الله وقته وفكره، وجهده في سبيل تقدم الأمة وبقاء صرحها على هدي من الله ورضوانه في دائرة شريعة محمد صلوات الله عليه وتتابع البناء الشامخ، وسيدنا محمد الخامس في الجهاد اليومي لتحسين أحوال الأمة وجلب المصالح العليا للوطن ونشر ألوية العدل والأمن بين الطبقات، هذه هي النظرة الفاحصة على **ثورة الملك والشعب**، انها لم تترك أثرها ونتائجها بمغربنا فقط بل أثرت كذلك في شتى جهات العالم بالأخص المناطق التي يعاني منها سكانها الاضطهاد والظلم والجور انها الشعلة التي أضاءت جوانب الشعوب المغلوبة على أمرها تحت كابوس الاستعمار وبفضلها وكفاحها استعاد الشعب المغربي ومعه الكثير من الشعوب حلاوة الحرية وعزة الاستقلال وفوائده وكرامة الرجولة وتحقيق الوحدة التامة وهكذا عاش محمد الخامس لاتنقضي معركة حتى تخلق أخرى وتغلب عليها جميعا ولقي الله بمنه وهو مرتاح الضمير مثلوج الفؤاد وذلك بتاريخ 10 رمضان سنة 1380 ه رحمه الله ورضي عنه.

دور جلالة الملك الحسن الثاني :

وجاء دور الحسن الثاني موحد التراب وحارس الملكية الدستورية وهو صاحب الذكرى المظفرة...

فقد ولد هذا البطل 1929 بالقصر الملكي بالرباط ومحمد الخامس بروما فبشر بمولود وأمر بتسميته باسم جده الأكرم **الحسن** تيمنا وتبركا وتفاؤلا بالغا والكرامة وقد هيأ الله أسبابها فعاش هذا الولد الميمون، تحت أكناف بطل التحرير يساند والده ويشد عضده، ويقوي عزيمته، ويبذل من جهده وجهوده بالتكوين العلمي والخلقي والديني لأن محمد الخامس كان يرى في ولده هذا الخلف الصالح في السير قدما نحو الأمجاد وكان يرحمه الله يتخذه مستشارا ومؤنسا هاديا ومرشدا، والحكمة ضالة المؤمن ويهيئه لتحمل المسؤولية فيدربه على مكارم الأخلاق التي هي نقطة الارتكاز في الحياة ؟ عاش هذا الولد أوائل حياته بجانب والده يقاسمه الأفكار والنظر

الذي كان لا يستقر له قرار إلا بالشيء الذي يكفل لشعبه العزة والسؤدد ؟ نعم، عقب وفاة جلالته يوم عاشر رمضان الأبرك.

أسند العرش المغربي بأمجاده ومسؤوليته لسيدنا الحسن الثاني الذي وجده الحال قد ارتوى من فيض المعارف الإسلامية والأجنبية، بما يسهل على جلالته عبء المسؤولية ويصعب على تتبع مسيرته المظفرة في شتى الميادين العلمية والعسكرية والدبلوماسية والعمرانية لأن الحديث عن هذه الجوانب يحتاج لكتب ومجلدات.

ولكن المعجزة الخالدة في صفحاته التي لاتنسى ولن تنسى ! المسيرة الخضراء تلك الفكرة العبقرية التي اهتدى لتخطيطها وتنفيذها قصد تحرير أطراف المغرب وشد أزره المسندة بالروح الإسلامية والحفاظ على كنوز الأمة المغربية، الرجولة والكرامة، والنخوة والنجدة، فهذا شيء لا يحتاج إلى تبيان، كما أن التفكير في البحث عن طرق الاكتفاء الذاتي للشعب تعد من أهم خصاله الحميدة وقد مهد لها ببناء السدود والحفاظ على الماء قوام الحياة اما العناية بالجيش وتكوين الأطر في كل الميادين وبناء المدرسة والجامعة والبعثة ونشر ألوية الأمن والعدالة في أطراف البلاد فهذه الضمانة الكبرى لكيان الدولة.

ومن أجل هذه الذكرى المجيدة نرفع لجلالته التهاني والتبريك ولولي عهده سيدي محمد وصنوه الرشيد... وكل عام وجلالته بخير.

سلا : الحاج أحمد معنينو



بمناسبة الذكرى المائتين بعد الألف لتأسيس العرش المغربي الاسلامي
وذكرى عيد العرش المجيد:

هذا العرش العتيد

للأستاذ عبد القادر القادري
القاضي بوزارة العدل

لم يعرف التاريخ الإسلامي في مسيرته الطويلة نظاما ملكيا وراثيا دام أزيد من مائتين وألف عام مثل النظام الملكي المغربي الذي يقوم على البيعة، إذ جل العروش الإسلامية في المشرق والمغرب، لم تعمر طويلا، مثل العرش المغربي العتيد، وإن عمرت فإن أعمارها لا تتعدى في الأغلب الأعم قرنا أو قرنين أو ثلاثة قرون اللهم الا عرش آل عثمان الذي عمر نحو ستة قرون 1326 - 1922 م، ورغم عمره هذا الطويل، فإنه لم يبلغ عمر العرش المغربي العتيد، الذي أسسه المولى ادريس الأكبر، عام 172 هـ 788 م، والذي يبلغ اليوم المائتين تثنية وألف بالإفراد (كما يكتب العدول في الرسوم قدر الدراهم لئلا ينقص ناقص من المائتين فتصير مائة أو يزيد زائد في الألف فتصير ألفا درهم) على تأسيسه أول دولة مغربية إسلامية. في المغرب الأقصى، ولتوضيح ذلك ندرج هنا قوائم تاريخ العروش الإسلامية بالهجرى والميلادي في المشرق والمغرب.

□ **العرش الأموي :**

مؤسسه معاوية بن أبي سفيان عام 40 هـ - 660 م وكان آخر الجالس عليه 132 هـ 750 م مروان بن محمد حيث عاش هذا العرش 92 عاما...

□ **العرش العباسي :**

مؤسسه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عام 132 م 750 م وآخرهم المستكفي (334 هـ 945 م) فعاش هذا العرش قرنين اثنين، أما بقية الخلفاء العباسيين من بعد المستكفي فقد أصبحوا خلفاء دينيين ليس لهم من الأمر شيء، أو لهم المطيع، سنة 335 هـ 946 م، وآخرهم، المستعصم 640 هـ 1242 م ودامت هذه الخلافة العباسية الصورية ثلاثة قرون...

- العروش في الأندلس -

أولا : العرش الأموي

□ **أ - أمراء بني أمية**

مؤسسه عبد الرحمان الداخل سنة 138 هـ - 755 م وانتهى هذا العرش بعبد الله بن محمد سنة 275 هـ - 888 فكانت حياته 137 سنة.

□ ب ـ خلفاء بني أمية

أولهم عبد الرحمان الثالث سنة 300 هـ ـ 912 م وآخرهم هشام الثالث المعتمد سنة 418 هـ ـ 422 هـ / 1027 ـ 1031 م فكان عمر هذه الخلافة 122 سنة.

ثانيا : ملوك الطوائف بالأندلس

□ أ ـ عرش بني زيري في غرناطة grenade

مؤسسه زاوي بن زيري سنة 403 هـ ـ 1012 م وآخر الجالس على هذا العرش نسيم ابن بلكين سنة 483 هـ ـ 1090 م فكانت حياته هو نحو قرن من الزمان.

□ ب ـ عرش بني حمودة في مالقة malega

مؤسسه على الناصر سنة 407 هـ 1016 وآخر الجالس عليه محمد الثاني المستعلى سنة 446 ـ 449 هـ ـ 1054 ـ 1057 م فدام هذا العرش 42 عاما.

□ ج ـ عرش دانية

أول ملكيه مجاهد بن يوسف سنة 408 هـ 1017 م وآخر ملكيه على إقبال الدولة بن مجاهد سنة 436 ـ 468 هـ 1044 ـ 1075 م فعاش هذا العرش نحو ربع قرن.

□ د ـ العرش التجيبي في سرقسطة

مؤسسه منذر المنصور بن مطرف بن يحيى التجيبي سنة 410 هـ 1019 م وآخر ملوكه أحمد يوسف بن عبد الملك 513 ـ 536 هـ 1119 ـ 1141 م فدام هذا العرش قرنا وربع القرن من الزمان.

□ هـ ـ العرش العامري ببلنسية Valence

مؤسسه عبد العزيز المنصور سنة 412 هـ ـ 1021 م وآخر الجالس عليه عثمان بن أبي بكر 478 هـ ـ 1085 م ودام هذا العرش نحو نصف قرن.

□ و ـ عرش بني عباد في إشبيلية Sérille

مؤسسه أبو القاسم محمد الأول بن اسماعيل سنة 414 هـ 1023 م وآخر الجالس عليه أبو القاسم محمد الثاني المعتمد (المعتمد بن عباد) 461 ـ 484 هـ 1088 1091 م فدام هذا العرش 70 عاما.

□ ز ـ العرش الجهوري في قرطبة Cordou

مؤسسه أبو الحزم جهور سنة 422 هـ 1031 م وآخر الجالس عليه عبد الملك بن محمد سنة 450 ـ 461 هـ 1058 ـ 1068 م فدام 32 سنة.

□ ح ـ عرش بني ذى النون في طليطلة Tolède

أول ملوكه اسماعيل الظافر سنة 427 هـ 1035 م وآخر ملوكة يحيى القادر بن اسماعيل بن مأمون سنة 467 ـ 478 هـ ـ 1074 ـ 1085 م حيث عاش هذا العرش 19 عاما.

□ ط ـ عرش بني حمود في الجزيرة الخضراء

أول ملكيه محمد المهدي سنة 431 هـ ـ 1039 م وآخر ملكيه القاسم الواثق 440 ـ 450 هـ ـ 1048 ـ 1058 فعاشر هذا العرش 19 عاما.

□ ي ـ العرش النصري

مؤسسه محمد الأول الغالب سنة 620 هـ 1232 م وآخر الجالس عليه محمد الحادي عشر (مرة ثانية) 892 ـ 897 هـ ـ 1486 ـ 1494 م فدام هذا العرش قرنين اثنين وثلاثة أرباع القرن (620 هـ 897) وهو أطول عروش ملوك الطوائف وأكثره ملوكا حيث تغلب عليه ثلاثون ملكا.

☆ ☆ ☆

- العروش في المغرب العربي -

أ □ 1 - العرش المغربي

1 - العرش الادريسي

مؤسسه المولى ادريس الأكبر سنة 172 هـ 788 م وآخر الجالس عليه حسن ابن محمد بن القاسم بن ادريس سنة 375 هـ - 985 م فدام هذا العرش قرنين اثنين وجلس على كرسية عشرة ملوك مغاربة.

2 - العرش المرابطي

- أول ملوكه يحيى بن عمر سنة 448 هـ - 1056 م وجلس على كرسيه تسعة ملوك مغاربة.

3 - العرش الموحدي

أول ملوكه عبد المومن بن علي سنة 542 هـ - 558 هـ 1128 - 1163 م وآخر ملوكه أبو العلاء الواثق سنة 668 هـ - 1270 م ودام هذا العرش قرنا وربع القرن (542 - 668 هـ) وجلس على كرسيه ثلاثة عشر ملكا مغربيا.

4 - العرش المريني

- أول ملوكه عبد الحق بن محيو - 1218 م وآخر ملوكه عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس بن أبي سالم الذي دام ملكه 46 سنة وتوفي في رمضان عام 869 هـ 1474 م.

5 - العرش الوطاسي

أول ملوكه أبو عبد الله محمد بن الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي سنة 876 هـ 1480 م 910 هـ 1514 م وآخر ملوكه أبو حسون محمد بن الشيخ 961 هـ 1566 م وبهذا الملك انتهى العرش الوطاسي بعد أن دام 85 سنة وتعاقب عليه خمسة ملوك مغاربة.

6 - العرش السعدي

أول ملوكه أبو عبد الله القائم بأمر الله 915 هـ 1519 م وآخر ملوكه سيدي العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان سنة 1674 م ودام هذا العرش قرنا ونصف القرن (1519 - 1674 م).

7 - العرش العلوي

مؤسسه المولى محمد بن الشريف الذي بايعه المغاربة في سجلماسة عام 1050 هـ - 1655 م والجالس على عرشه اليوم جلالة الملك المعظم الحسن بن محمد بن يوسف كان الله وليه.

☆ ☆ ☆

□ ب - عرش بني زيان أو بني عبد الواد أو بني عبد الواحد أو بني حمو في تلمسان

أول ملوكه أبو يحيى يغمر سن بن زيان عام 648 هـ 1250 م وآخر ملوكه أبو تاشفين عبد الرحمان الذي انتهى حكمه بعد غزو المرينيين لتلمسان. وفي عام 761 هـ بدأت المرحلة الثانية من تاريخ بني زيان بحكم أبي حمو الثاني وكان آخر من تولى من هذه الأسرة الحسن بن عبد الله الثاني المتوفى بوهران عام 963 هـ بعد استيلاء «صالح رئيس» أمير البحر العثماني على تلمسان وكان عمر هذا العرش ثلاثة قرون ونيف.

☆ ☆ ☆

ج - عرش بني زيري أو الزيريين بتونس

مؤسسها أبو الفتوح يوسف بن بلكين سنة 362 هـ 972 م وآخر من تولى هذا العرش أبو يحيى الحسن بن علي 519 هـ 1125 م توفي عام 563 هـ 1167 م دام حكم هذه الأسرة قرنين اثنين من الزمان.

□ د - عرش الاغلبيين بتونس

أول ملوكهم ابراهيم بن الأغلب سنة 184 هـ 800 م ونسب هذا العرش إلى الأغلب بن سالم وآخر ملوكهم زيادة

الله الثالث 290 هـ - 296 هـ 903 - 909 م دام هذا العرش قرنا ونيف.

□ هـ - عرش الفاطميين بتونس

أول ملوكهم عبيد الله المهدي سنة 296 هـ 909 م وآخر ملوكهم المعز لدين الله أبي تميم 361 هـ 972 م ودام حكمهم بتونس 65 سنة فازيد.

□ و - عرش الرستميين

تولت على الجزائر إبان القرن الثاني الهجري ودام حكمها قرنا ونصف قرن حتى عام 296 هـ 908 م ينسبون إلى جد أعلى هو رستم بن بهرام بن سابور من أصل فارسي، والرستميون من الخوارج الأباضية الذين فروا من الشراق إلى شمال افريقيا وجاءت بعدهم الدولة الأغلبية.

□ ز - العرش الحفصي بتونس

أول ملوكه عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص 603 هـ 1207 م وآخر ملوكه محمد بن الحسن 978 - 982 هـ - 1570 - 1574 م ودام هذا العرش ثلاثة قرون وثلاثة أرباع القرن (603 - 982 هـ).

□ خ - العرش الحسيني بتونس

أول ملوكه حسين بن علي باشا سنة 1117 هـ 1705 م وآخر ملوكه محمد الأمين باي 1376 هـ - 1957 م انتهى هذا العرش بعد حكم دام قرنين ونصف.

☆ ☆ ☆

□ ط - عرش القرة ما نلي بطرابلس الغرب

أول ملوكه أحمد القرة مانلي سنة 1123 هـ - 1711 م وآخر ملوكه على ابن يوسف 1246 - 1251 هـ 1830 - 1835 م وانقرض هذا العرش بعد حكم دام قرنا وربع القرن (1123 - 1251).

العروش في الشرق العربي

1 - عرش الأيوبيين بمصر

مؤسسه صلاح الدين الأيوبي 567 هـ 1169 م بطل معركة حطين بفلسطين وهو أول ملوكهم أما آخر ملوكهم فهو موسى الأشرف 648 - 650 هـ - 1248 - 1250 م دام هذا العرش ثلاثة أرباع القرن فأزيد (567 - 650). (تسعة ملوك).

2 - عرش المماليك البحرية بمصر

أول ملكتهم شجرة الدر 650 هـ 1250 م بلغت مدة حكمها ثمانين يوما فقط حيث تزوجت أيبك ويعد هذا أول سلاطين المماليك البحرية 1250 هـ 1257 م. وآخر سلاطينهم حاجي الصالح زين الدين 783 هـ 1381 م، دام حكمهم قرنا وربع القرن (650 - 783) وتعاقب على هذا العرش ملكة واحدة وتسعة وتسعون ملكا.

3 - عرش الطولونيين بمصر

أول ملوكهم أحمد بن طولون سنة 254 هـ 868 م وآخر ملوكهم شيبان ابن أحمد 292 هـ - 904 م (خمسة ملوك).

4 - عرش الاخشيديين

أول ملوكهم محمد بن طفح الاخشيدي 323 هـ - 935 م وآخر ملوكهم أبو الفوارس أحمد بن علي إخشيد 357 - 358 هـ - 968 - 969 م دام هذا العرش 35 سنة (خمسة ملوك).

5 - عرش الفاطميين بمصر

أولهم أبو تميم المعز 361 هـ 952 م وآخرهم عبد الله بن يوسف العاضد 555 - 567 هـ - 1168 - 1171 م ودام هذا العرش قرنين ونصف القرن.

6 ـ عرش المماليك الشراكسة (الجراكسة) بمصر

أول ملكهم الظاهر سيف الدين بن برقوق 784 هـ 1382 م (توجد عندنا برباط الفتح عائلة قديمة تحمل لقب برقوق وتسكن بزنقة سيدي محمد الضاوي قرب الزاوية القادرية) وآخر ملوكهم الملك الأشرف طومان بأي 922 هـ ـ 1316 م دام حكمهم قرنا وربع القرن 784 ـ 922 هـ (24 ملكا).

7 ـ عرش المحمدية العلوية بمصر

أول ملوكه محمد علي 1220 هـ 1805 م وآخر ملوكه فاروق الأول 1355 ـ 1371 هـ ـ 1936 ـ 1952 م وانتهى هذا العرش بعد أن حكم نصف قرن (1220 ـ 1371). عشرة ملوك.

☆ ☆ ☆

8 ـ عرش الحمدانيين بحلب

أول ملوكهم سيف الدولة أبو الحسن علي 333 هـ 944 م وآخر ملوكهم أبو الحسن علي الثاني 392 ـ 394 هـ 1001 ـ 1003 م دام هذا العرش 61 سنة (4 ملوك).

9 ـ عرش المرداسيين بحلب ودمشق

أول ملوكهم صالح بن مرداس 414 هـ ـ 1023 م وآخر ملوكهم أبو الفضل سابق بن رشيد الدولة 468 ـ 482 ـ 1075 ـ 1089 م حكم هذا العرش 61 سنة واقتسم صالح المذكور حكمه مع حسان بن المفرج بن الجراح وسنان ابن عليان.

10 ـ عرش السلجوقيين بالشام

أول ملوكهم تنشر بن ألب أرسلان 478 هـ 1085 م (بدأ المغاربة يحملون بعد استقلال المغرب لقب أرسلان فتارة يحملونه كلقب وتارة يحملونه كاسم شخصي والحال أنه اسم عائلي : شكيب أرسلان ـ ألب أرسلان).

وآخر ملوكهم سلطا نشاه بن رضوان 508 ـ 511 هـ ـ 1114 ـ 1117 م وحكموا 32 سنة (خمسة ملوك).

11 ـ عرش الاتابكية بدمشق

أول ملوكهم سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين 494 هـ 1104 م وآخر ملوكهم مجبر الدين آبق 534 ـ 549 هـ ـ 1140 ـ 1154 م حكموا 45 سنة (ستة ملوك).

12 ـ عرش النوريين بالشام

أول ملكيه محمود نور الدين بن زنكي وآخر ملكيه الصالح اسماعيل بن محمود 541 ـ 577 هـ 1146 ـ 1181 م دام هذا العرش 37 سنة.

13 ـ الأيوبيون بحمص

أولهم محمد 574 هـ ـ 1178 م وآخرهم موسى الأشرفي مظفر الدين 601 ـ 644 هـ 1345 ـ 1362 م دام حكمهم 70 سنة (أربعة ملوك).

14 ـ الأيوبيون في حماة

أولهم عمر المظفر الأول تقي الدين 574 هـ 1178 م وآخرهم محمد الأفضل 733 ـ 742 هـ 1336 ـ 1341 م دام حكمهم نحو قرن ونصف القرن (ثمانية ملوك).

15 ـ الأيوبيون بدمشق

أولهم الملك الأفضل نور الدين علي 582 هـ 1186 م وآخرهم ناصر الدين يوسف 634 ـ 665 هـ ـ 1236 ـ 1320 م دام حكمهم 83 سنة (إثنا عشر ملكا).

☆ ☆ ☆

16 ـ عرش الكثيريين بحضر موت

أولهم علي بن عمر 816 هـ 1413 م وآخرهم جعفر بن منصور 1367 هـ 1948 م ودام حكمهم خمسة قرون ونصف القرن 816 ـ 1367 (46 سلطانا).

17 ـ عرش آل خليفة

أولهم أحمد بن محمد 1194 هـ 1783 م.

☆ ☆ ☆

18 ـ عرش أمراء الكويت

أولهم صباح الأول 1190 هـ 1776 والجالس على عرشه اليوم هو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح.

☆ ☆ ☆

19 ـ عرش اليعفريين بصنعاء

أولهم يعفر بن عبد الرحيم 247 هـ 861 م وآخرهم عبد الله بن قحطان 352 ـ 381 هـ ـ 963 ـ 997 م.

☆ ☆ ☆

20 ـ الأئمة في اليمن

أولهم الإمام يحيى 1905 وآخرهم الإمام بدر 1960 م.

21 ـ الأيوبيون بجزيرة العرب

أولهم الملك طوران شاه بن أيوب 569 هـ 1173 م وآخرهم يوسف المسعود 612 ـ 625 هـ ـ 1215 ـ 1228 م دام حكمهم 56 عاما (ستة ملوك).

22 ـ عرش السعوديين بالمملكة العربية السعودية

أول ملوكهم محمد بن سعود 1156 هـ ـ 1737 م والجالس على هذا العرش حاليا الملك فهد خادم الحرمين.

☆ ☆ ☆

23 ـ عرش الهاشميين بالعراق

أول ملوكهم الملك فيصل الأول 1921 ـ 1933 م وآخرهم الملك فيصل ابن غازي 1953 م.

24 ـ عرش الهاشميين بالمملكة الأردنية

أولهم الملك عبد الله 1946 ـ 1951 والجالس على هذا العرش حاليا الملك حسن الأول 1953.

☆ ☆ ☆

عرش آل عثمان بتركيا

أول ملوكه عثمان الأول 687 هـ 1288 م وآخر ملوكه عبد المجيد خان سنة 1924 ودام حكم هذه الأسرة ستة قرون وربع القرن وامتدت رقعة حكمها من فينتيا عاصمة النمسا وأروبا الشرقية والشرق العربي إلى جدود المغرب وظهر منها ملوك عظام يفخر بهم الإسلام أمثال محمد الفاتح خان الذي فتح القسطنطينية وبايزيد خان الذي غزا هنغاريا والنمسا حتى وصلت جيوشه إلى عاصمة النمسا فيينا vienne فدخلت تحت حكمه هنغاريا ورومانيا وبلغاريا واليونان والبوسنة والهرسك والجبل الأسود وجزيرة كريت وألبانيا من البلدان الأروبية وكانت أروبا وقتذاك ترتعد فرائصها من شدة قوة الترك حتى صار يضرب بهذه القوة المثل هناك فيقولون : قوي كتركي Fort comme un Turc.

☆ ☆ ☆

وخوفا من التطويل فإننا نكتفي بقائمة نبين فيها أسماء بقية العروش الإسلامية التي حكمت في المشرق ذاكرين عواصمها وعدد ملوكها منها وسني حكمهم.

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها	سنة انقضائها
المزيديه	الحلة	8	403 هـ	545 هـ
			1012 م	1150 م
الدلفية	كردستان	5	210 هـ	285 هـ
			825 م	898 م
الساجية	اذربيجان	4	266 هـ	318 هـ
			880 م	930 م
			320 هـ	560 هـ
خانات ايلاك	تركستان	24	932 م	1165 م
			348 هـ	406 هـ
الحسنويهية	كردستان	3	959 م	1015 م
			398 هـ	443 هـ
الكاكويهية	كردستان	2	1008 م	1051 م
			490 هـ	560 هـ
الدانشمندية	سيواس وغيرها	5	1097 م	1165 م
			619 هـ	703 هـ
الخانات القتغلية	كرمان	8	1222 م	1304 م
			603 هـ	1043 هـ
خانات المغول	زنقارية وغيرها	34	1207 م	1633 م
مغول الفرس	فارس	18	654 هـ	750 هـ
			1256 م	1349 م
			621 هـ	907 هـ
خانات العشائر الذهبية ...	فاراخيتاي	40	1224 م	1501 م
			823 هـ	1197 هـ
خانات القرم	القرم	46	1420 م	1783 م
			624 هـ	760 هـ
			624 هـ	760 هـ
خانات جاغتاي	تركستان	26	1227 م	1359 م
			736 هـ	814 هـ

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها	سنة انقضائها
الجيلاريون	العراق وغيره	6	1336 م	1411 م
			713 هـ	795 هـ
المظفريون	فارس وكردستان	6	1313 م	1393 م
			737 م	783 هـ
السربداريون	خراسان	12	1337 م	1381 م
			643 هـ	791 هـ
الكرتيون	هراة	8	1245 م	1389 م
			780 هـ	874 هـ
القراقيونليون	اذربيجان وغيرها	5	1378 م	1469 م
			780 هـ	908 هـ
اق قيونليون	اذربيجان	12	1378 م	1502 م
			907 هـ	1344 هـ
شاهات الفرس	إيران وغيرها	31	1501 م	1925 م
			771 هـ	906 هـ
التيموريون	تركستان والتتار	11	1370 م	1500 م
			906 هـ	1007 هـ
الشيبانيون	تركستان والتتار	19	1500 م	1501 م
			1200 هـ	1284 هـ
المنجيون	تركستان والتتار	6	1786 م	1867 م
			921 هـ	1289 هـ
خانات خيوا	تركستان والتتار	35	1515 م	1872 م
			1112 هـ	1293 هـ
خانات خوقند	تركستان والتتار	17	1700 م	1876 م
			1007 م	1200 هـ
الجانيون	استراخان	11	1599 م	1786 م
			602 هـ	962 هـ
سلاطين دهلي	الهند	38	1206 م	1555 م
			599 هـ	984 هـ

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها	سنة انقضائها
ملوك البنغال وحكامها . . .	البنغال (الهند)	55	1203 م	1576 م
			796 هـ	905 هـ
ملوك جانبور الشرقيون . . .	جانبور (الهند)	6	1394 م	1500 م
			804 هـ	937 هـ
ملوك مالوا	مالوا (الهند)	7	1402 م	1531 م
			1402 م	1531 م
			799 هـ	980 هـ
ملوك كجرات	كجرات (الهند)	14	1397 م	1572 م
			801 هـ	1008 هـ
ملوك خانديش	خانديش (الهند)	12	1399 م	1599 م
			748 هـ	933 هـ
البهمنية	الدكن (الهند)	18	1347 م	1527
الشاهات العمادية	برار (الهند)	5	890 هـ	980 هـ
			1485 م	1532 م
الشاهات النظامية	أحمد نجر (الهند)	10	896 هـ	1008 هـ
			1491 م	1596 م
			897 هـ	1018 هـ
الشاهات بريد	بيدر (الهند)	7	1492 م	1609 م
			895 هـ	1097 هـ
الشاهات العادلية	بيجابور (الهند)	8	1490 م	1686 م
			918 هـ	1098 هـ
الشاهات القطبية	كولكندا (الهند)	7	1512 م	1687 م
			932 هـ	1275 هـ
أمبارطورو المغول	الهند	29	1526 م	1859 م

الدولة الزيدية بطبرستان

الحسن بن زيد الداعي .... 250 هـ - 864 م
محمد بن زيد القائم بالحق .... 270 هـ - 883 م
الدولة السامانية .... 279 هـ - 892 م
الحسن الأطروش .... 301 هـ - 914 م
الحسن بن القاسم .... 304 - 355 هـ
916 - 966 م

☆ ☆ ☆

السامانيون

نصر بن أحمد بن سامان .... 261 هـ - 875 م
اسماعيل بن أحمد .... 279 هـ - 892 م
أحمد بن اسماعيل .... 295 هـ - 908 م
نصر بن أحمد .... 301 هـ - 914 م
نوح بن نصر .... 331 هـ - 943 م
عبد الملك بن نوح .... 343 هـ - 954 م
منصور بن نوح .... 350 هـ - 961 م
نوح بن منصور .... 366 هـ - 977 م
منصور بن نوح .... 387 هـ - 997 م
عبد الملك بن نوح .... 389 هـ - 999 م

☆ ☆ ☆

الحمدانيون بالموصل

ناصر الدولة أبو محمد الحسن .... 317 هـ - 929 م
عضد الدولة .... 358 - 369 هـ
938 - 979 م
أبو طاهر إبراهيم .... 371 - 380 هـ
981 - 991 م

☆ ☆ ☆

بنو بويه في العراق

معز الدولة .... 320 هـ - 932 م
عز الدولة .... 356 هـ - 967 م
عضد الدولة .... 367 هـ - 977 م
شرف الدولة .... 372 هـ - 982 م
بهاء الدولة .... 379 هـ - 989 م
سلطان الدولة .... 403 هـ - 1012 م
مشرف الدولة .... 416 هـ - 1025 م
عماد الدين .... 435 هـ - 1043 م
أبو نصر الرحيم .... 440 - 447 هـ
1048 - 1055 م

☆ ☆ ☆

عائلة عمران بن شاهين

عمران بن شاهين .... 329 هـ - 941 م
الحسن بن عمران .... 369 هـ - 979 م
أبو الفرج بن عمران .... 372 هـ - 982 م
المظفر بن علي وزير عمران وابنه
الحسن بالتغلب .... 373 هـ - 973 م
مهذب الدولة أبو الحسن علي بن نصر
بن أخت المظفر .... 376 هـ - 986 م
أبو الحسين بن مهذب الدولة ...... 408 هـ - 1017 م
عبد الله بن نسي بالتغلب .... 408 هـ - 1017 م

☆ ☆ ☆

الدولة السبكتكينية

سبكتكين .... 366 هـ - 977 م
اسماعيل بن سبكتكين .... 387 هـ - 997 م
يمين الدولة محمود بن سبكتكين .. 388 هـ - 998 م
جلال الدولة محمد بن محمود .... 421 هـ - 1030 م
شهاب الدين مودود بن مسعود .... 432 هـ - 1041 م

بهاء الدين أبو الحسن علي بن مسعود

بن محمود . . . . 440 هـ - 1048 م

عز الدولة عبد الرشيد بن محمود . . . 440 هـ - 1048 م

جمال الدولة فرخزاد بن مسعود بن

محمود . . . . 444 هـ - 1052 م

ظهير الدولة ابراهيم بن عبد الرشيد . 451 هـ - 1059 م

علاء الدولة مسعود بن ابراهيم . . . . 492 هـ - 1099 م

كمال الدولة شيرزاد بن مسعود . . . 508 هـ - 1114 م

سلطان الدولة أرسلان بن مسعود . . . 509 هـ - 1115 م

يمين الدولة بهرام شاه بن مسعود . . 512 هـ - 1118 م

معز الدولة خسرو شاه بن بهرام شاه . 547 - 1152 م

تاج الدولة خسرو ملك بن خسرو شاه 555 - 582 هـ

1160 - 1186 م

☆ ☆ ☆

الدولة المروانية

أبو علي الحسن بن مروان . . . . 380 هـ - 990 م

ممهد الدولة أبو منصور بن مروان . . 387 هـ - 997 م

أبو نصر نصر الدولة أحمد بن مروان . 402 هـ - 1011 م

نظام الدولة نصر . . . . 503 هـ - 1061 م

منصور بن نصر . . . . 472 - 489 هـ

1079 - 1096 م

☆ ☆ ☆

الدولة العقيلية بالموصل

حسام الدولة المقلد بن المسيب . . . 386 هـ - 996 م

معتمد الدولة قرواش بن المقلد . . . 391 هـ - 1001 م

زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد 442 هـ - 1050 م

علم الدولة أبو المعالي قرواش بن بدران

بن المقلد . . . . 443 هـ - 1051 م

شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن

قرواش . . . . 453 هـ - 1061 م

ابراهيم بن قرواش . . . . 478 هـ - 1085 م

علي بن مسلم بن قرواش . . . . 486 - 489 هـ

1093 - 1096 م

☆ ☆ ☆

دولة آل سلجوق الكبرى

ركن الدين أبو طالب طغرلبك . . . 429 هـ - 1038 م

عضد الدولة أبو شجاع الب أرسلان . . 455 هـ 1063 م

جلال الدين أبو الفتح ملكشاه . . . . 465 هـ 1073 م

ناصر الدين محمود . . . . 485 هـ - 1092 م

ركن الدين أبو المظفر بركيارق . . 487 هـ - 1094 م

ركن الدين ملكشاه الثاني . . . . 498 هـ - 1105 م

غياث الدين أبو شجاع محمد . . . . 498 هـ 1105 م

معز الدين أبو الحارث سنجر . . . . 511 - 552 هـ

1117 - 1157 م

☆ ☆ ☆

دولة سلاجقة كرمان

ن قرا أرسلان قاورت بك . 433 هـ - 1041 م

كرمانشاه . . . . 456 هـ - 1064 م

حسين . . . . 467 هـ - 1075 م

ركن الدين سلطانشاه . . . . 467 هـ - 1075 م

تورانشاه . . . . 477 هـ - 1085 م

ارانشاه . . . . 490 هـ - 1097 م

أرسلانشاه . . . . 494 هـ - 1101 م

مغيث الدين محمد الأول . . . . 536 هـ - 1142 م

محيي الدين طربل شاه بهرامشاه . . 551 هـ - 1156 م

أرسلانشاه الثاني . . . .

طرخانشاه . . . .

محمد الثاني . . . . 563 هـ 1168 م

☆ ☆ ☆

قليج أرسلان داود بن سليمان . . . . 485 هـ - 1092 م
ملكشاه بن قليج أرسلان . . . . 500 هـ - 1106 م
مسعود بن قليج أرسلان . . . . 510 هـ - 1116 م
عز الدين قليج أرسلان ملكشاه . . . 551 هـ - 1156 م
قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان 584 هـ 1188 م
غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان 588 هـ 1192 م
ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان . 598 هـ - 1202 م
قليج أرسلان بن سليمان . . . . 600 هـ 1204 م
غياث الدين كيخسرو (مرة ثانية) . . 601 هـ - 1205 م
عز الدين كيقاوس بن ملكشاه . . . . 607 هـ - 1210 م
علاء الدين كيقباذ بن ملكشاه . . . . 616 هـ - 1219 م
غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ . . 634 هـ 1237 م
عز الدين كيقاوس بن كيخسرو . . . 643 هـ - 1245 م
ركن الدين قليج أرسلان بن كيخسرو 655 هـ - 1257 م
غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان 666 هـ - 1268 م
غياث الدين مسعود بن كيقاوس . . . 682 هـ - 1283 م
علان الدين كيقباذ . . . . 691 - 700 هـ
1292 - 1301 م

☆ ☆ ☆

دول آل سلجوق في العراق

مغيث الدين محمود . . . . 511 هـ - 1117 م
غياث الدين داود . . . . 525 هـ - 1131 م
طغرلبك الأول . . . . 526 هـ - 1132 م
غياث الدين مسعود . . . . 527 هـ - 1133 م
معين الدين ملكشاه . . . . 547 هـ - 1152 م
محمد . . . . 548 هـ - 1153 م
سليمانشاه . . . . 554 هـ - 1159 م
أرسلانشاه . . . . 556 هـ - 1161 م
طغرلبك الثاني . . . . 573 - 590 هـ
1177 - 1193 م

1077 - 1097 م
قطب الدين محمد بن انوشتكين . . . 521 هـ - 1127 م
اتسز بن محمد . . . . 551 هـ - 1156 م
أرسلان بن اتسز . . . . 568 هـ 1173 م
سلطانشاه محمد بن أرسلان . . . . . 568 هـ - 1173 م
تكش بن أرسلان . . . . 596 هـ - 1200 م
علاء الدين محمد بن تكش . . . . . . 617 هـ - 1220 م
جلال الدين منكبرتي بن محمد . . . 628 هـ - 1231 م

☆ ☆ ☆

الدولة الارتقية (ملوك الحصن)

معين الدين سقمان بن أرتق . . . . . . 495 - 498 هـ
1102 - 1105 م
ابراهيم بن سقمان . . . . 502 هـ - 1109 م
ركن الدين داود بن سقمان . . . . . . 543 هـ 1148 م
قمر الدين قره أرسلان بن داود . . . 570 هـ - 1174 م
نور الدين محمد بن أرسلان . . . . . . 581 هـ - 1185 م
قطب الدين سقمان بن محمد . . . . 597 هـ - 1201 م
ناصر الدين محمد بن محمد . . . . . . 619 هـ - 1222 م
ركن الدين مودود بن محمود . . . . 620 هـ - 1223 م

☆ ☆ ☆

الدولة الأرتقية (ملوك ماردين)

نجم الدين غازي بن أرتق . . . . 502 - 516 هـ
1109 - 1122 م
حسام الدين تيمور تاش بن غازي . . 547 هـ - 1152 م
نجم الدين البي بن تيمور تاش . . . 572 هـ 1176 م
قطب الدين غازي بن البي 580 هـ - 1184 م
حسام الدين يولق بن أرسلان بن غازي 597 هـ - 1201 م
ناصر الدين أرتق أرسلان بن غازي . . 637 هـ - 1239 م
نجم الدين غازي بن أرتق أرسلان . . 658 هـ - 1260 م

قره أرسلان بن غازي . . . . 661 هـ ـ 1363 م
شمس الدين داود بن قره أرسلان . . . 693 هـ 1293 م
نجم الدين غازي بن قره أرسلان . . . 712 هـ ـ 1312 م
شمس الدين صالح بن غازي . . . . . 765 هـ ـ 1364 م
المنصور أحمد بن صالح . . . . 769 هـ 1368 م
الصالح محمود بن أحمد . . . . 769 هـ ـ 1368 م
المظفر داود بن صالح . . . . 778 هـ ـ 1379 م
الظاهر مجد الدين عيسى بن داود . . 809 هـ 1406 م
صالح بن داود . . . . 811 هـ ـ 1408 م

☆ ☆ ☆

شاهات أرمينية

سقمان القطبي . . . . 493 هـ ـ 1100 م
ظهير الدين ابراهيم شاه ارمن . . . . 506 هـ 1112 م
أحمد . . . . 521 هـ ـ 1127 م
ناصر الدين سقمان . . . . 522 هـ 1128 م
سيف الدين بكتيمور . . . . 579 هـ ـ 1183 م
بدر الدين آق سنقر . . . . 589 هـ ـ 1193 م
المنصور محمد بكتيمور . . . . 594 هـ ـ 1198 م
عز الدين بلبان . . . . 603 ـ 604 هـ
1207 ـ 1208 م

☆ ☆ ☆

الأتابكية في الموصل

أتابك عماد الدين زنكي . . . . 521 هـ ـ 1127 م
سيف الدين غازي بن زنكي . . . . . . 541 هـ ـ 1146 م
قطب الدين مودود بن زنكي . . . . . 544 هـ ـ 1149 م
سيف الدين غازي بن مودود . . . . . . 565 هـ ـ 1170 م
عز الدين مسعود بن مودود . . . . . . 576 هـ ـ 1180 م
نور الدين أرسلانشاه بن مسعود . . . 589 هـ ـ 1193 م
عز الدين مسعود بن أرسلانشاه . . . . 607 هـ ـ 1210 م
نور الدين أرسلانشاه بن مسعود . . . 615 هـ ـ 1218 م
نصير الدين محمود بن مسعود . . . . 616 هـ ـ 1219 م
بدر الدين لؤلؤ . . . . 631 هـ ـ 1234 م
إسماعيل لؤلؤ . . . . 657 هـ ـ 1259 م

☆ ☆ ☆

أتابكية لورستان (الهزارسبية)

أبو طاهر بن محمد . . . . 543 ـ 600 هـ
1148 ـ 1204 م
نصرة الدين هزارسب بن أبي طاهر . 650 هـ ـ 1252 م
دكلا بن هزارسب . . . . 657 هـ ـ 1259 م
شمس الدين الب ارغو بن هزارسب . 673 هـ ـ 1274 م
يوسف شاه الأول بن الب ارغو . . . 687 هـ ـ 1288 م
افراسياب الأول بن يوسف . . . . . . 696 هـ ـ 1297 م
نصرة الدين أحمد بن ألب أرغو . . . 733 هـ ـ 1333 م
ركن الدين يوسف شاه الثاني بن أحمد 740 هـ ـ 1339 م
مظفر الدين افراسياب الثاني يوسف
شاه . . . . 756 هـ ـ 1355 م
شمس الدين هوشانج بن افراسياب الثاني 780 هـ 1378 م
أحمد . . . . 815 هـ ـ 1412 م
أبو سعيد . . . . 820 هـ ـ 1417 م
حسين . . . . 827 هـ ـ 1424 م
غياث الدين . . . .

☆ ☆ ☆

الأتابكية في سنجار

عماد الدين زنكي بن مودود . . . . . . 566 هـ ـ 1171 م
قطب الدين محمد بن زنكي . . . . . 594 هـ ـ 1198 م
عماد الدين شاهنشاه . . . . 616 هـ ـ 1219 م
عمر . . . . 616 ـ 617 هـ
1219 ـ 1220 م

☆ ☆ ☆

الأتابكية في اذربيجان

شمس الدين ايلدكز .... 531 هـ ـ 1137 م

محمد البهلوان جهان بن ايلدكز ... 568 هـ ـ 1173 م

قزيل أرسلان عثمان بن ايلدكز ... 581 هـ 1185 م

أبو بكر بن محمد .... 587 هـ ـ 1191 م

مظفر الدين أزبك بن محمد ...... 607 ـ 622 هـ

1210 ـ 1225 م

☆ ☆ ☆

الأتابكية في فارس (الدولة السلغرية)

سنقر بن مودود بن سلغر .... 543 هـ ـ 1148 م

زنكي بن سنقر .... 557 هـ ـ 1162 م

دكلا بن زنكي .... 581 هـ ـ 1185 م

سعد بن زنكي .... 591 هـ ـ 1195 م

أبو بكر بن سعد .... 623 هـ ـ 1226 م

محمد بن سعد .... 660 هـ ـ 1262 م

محمد شاه بن محمد .... 660 هـ ـ 1262 م

سلجوقشاه بن سلغر بن سعد ...... 660 هـ ـ 1262 م

ابيش بن سعد بن أبي بكر .... 686 هـ ـ 1287 م

☆ ☆ ☆

الأيوبيون بالعراق

الملك نجم الدين الأيوبي .... 597 هـ ـ 1200 م

الملك الأشرف مظفر الدين ...... 607 هـ ـ 1210 م

الملك المظفر الغازي .... 628 ـ 643 هـ

1230 ـ 1244 م

☆ ☆ ☆

الدولة الغورية

ايبك قطب الدين .... 602 ـ 608 هـ

1206 ـ 1211 م

أرم شاه ....

التمش شمس الدين .... 633 هـ ـ 1236 م

فيروز شاه الأول ركن الدين ..... 634 هـ ـ 1237 م

رضيا .... 638 هـ ـ 1241 م

بهرام شاه معز الدين .... 639 هـ 1242 م

مسعود شاه علاء الدين .... 644 هـ ـ 1247 م

محمود شاه الأول نصر الدين ...... 664 هـ ـ 1266 م

بلبن غياث الدين .... 686 هـ ـ 1287 م

كيقباذ معز الدين .... 686 هـ ـ 1287 م

☆ ☆ ☆

الدولة القاجارية بإيران

محمد بن أمير 1212هـ ـ1797م

فتح علي .... 1212 هـ 1797 م

محمد ناصر الدين .... 1264 هـ 1848 م

مظفر الدين .... 1313 هـ ـ 1896 م

محمد علي .... 1324 هـ ـ 1909 م

سلطان محمد .... 1327 هـ ـ 1909 م

أحمد ....

☆ ☆ ☆

أسرة بهلوي

رضا بهلوي .... 1344 هـ ـ 1926 م

شاهبور محمد رضا الأمبراطور .... 1979 م

انتهى حكمها عام 1979 بقدوم الخميني إلى إيران.

☆ ☆ ☆

الدولة الدورانية بأفغانستان أول ملوكها أحمد شاه 1160 هـ ـ 1747م.

وآخر ملوكها محمد ظاهر خان 1973م.

☆ ☆ ☆

وقد قامت في غرب وشرق افريقيا ممالك إسلامية هي : مملكة غانا ومملكة صوصو في كانياجا ومملكة مالي ومملكة السونغاي ومملكة برونو ومملكة الكانم ومملكة البمبارا ومملكة النوبة ومملكة الفونج ومملكة دارفور ومملكة هرر ومملكة جزيرة سقطرة وجزيرة القمر وجزيرة مدغشقر والصومال وزنجبار.

وقامت عروش إسلامية أخرى في الشرق الأقصى مثل مملكة فطاني بالطايلاند ومملكة بروني ومملكة ماليزيا ومملكة جاوة.

كما أقام الصوفيون ممالك تيجانية وقادرية لا يتسع مجال هذه المجلة الزاهرة إلى ذكر بدئها وانتهائها.

☆ ☆ ☆

هذا وأن النظام الملكي الوراثي المغربي الذي أسسه الإمام ادريس ابن عبد الله الكامل المحض بن الحسين بن الحسن المثنى بن علي بن أبي طالب عام 172 هـ ـ 808 م قد استهل حياته في المغرب، وعقب البيعة التي أدتها قبائل أَوْرَبَة له بترجيه خطاب العرش الأول بقوله :

دعوة الإمام ادريس المرسلة إلى المغاربة

بسم الله الرحمان الرحيم، الحمد لله الذي جعل النصر لمن أطاعه، وعاقبة السوء لمن عانده، ولا إلاه إلا الله المتفرد بالوحدانية، الدال على ذلك بما أظهر، من عجيب حكمته، ولطف تدبيره، الذي لا يدرك إلا إعلامه، وصلى الله على محمد عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، أحبه واصطفاه، واختاره وارتضاه، صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين.

أما بعد فإني :

- أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

- وإلى العدل في الرعية والقسم بالسوية، ورفع المظالم والأخذ بيد المظلوم.

- وإحياء السنة وإماتة البدعة، وإنفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد.

- واذكروا الله في ملوك غيروا، وللأمان خفروا، وعهد الله وميثاقه نقضوا، ولبني بيته قتلوا.

- واذكركم الله في أرامل احتقرت، وحدود عطلت، وفي دماء بغير حق سفكت.

- فقد نبذوا الكتاب والإسلام، فلم يبق من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه.

- واعلموا عباد الله أن مما أوجب الله على أهل طاعته، المجاهدة لأهل عداوته ومعصيته باليد وباللسان :

فباللسان الدعاء إلى الله بالموعظة الحسنة، والنصيحة والحض على طاعة الله، والتوبة عن الذنوب بعد الإنابة والاقلاع والنزوع عما يكرهه الله، والتواصي بالحق والصدق، والصبر والرحمة والرفق، والتناهي عن معاصي الله كلها، والتعليم والتقديم لمن استجاب الله ورسوله حتى تنفذ بصائرهم وتكمل، وتجتمع كلمتهم وتنتظم.

فإذا اجتمع منهم من يكون للفساد دافعا، وللظالمين مقاوما وعلى البغي والعدوان قاهرا. اظهروا دعوتهم، وندبوا العباد إلى طاعة ربهم، ودافعوا أهل الجور عن ارتكاب ما حرم الله عليهم، وحالوا بين أهل المعاصي وبين العمل بها، فإن في معصية الله تلفا لمن ركبها، وإهلاكا لمن عمل بها.

ولا يؤيسنكم من علو الحق واضطهاده قلة أنصاره، فإن في ما بدا من وحدة النبي ﷺ والأنبياء الداعين إلى الله قبله، وتكثيره إياهم بعد القلة، وإعزازهم بعد الذلة، دليلا بينا، وبرهانا واضحا، قال الله عز وجل : **﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾** وقال تعالى : **﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾** فنصر الله نبيه وكثر جنده، وأظهر حزبه، وأنجز وعده، جزاء من الله سبحانه وثوابا لفضله وصبره، وإيثاره طاعة ربه ورأفته بعباده، ورحمته وحسن قيامه بالعدل والقسط في تربيتهم ومجاهدة أعدائهم وزهده فيهم، ورغبته فيما يريده الله، ومواساته أصحابه، وسعة أخلاقه، كما أدبه الله، وأمر العباد باتباعه. وسلوك سبيله والاقتداء لهدايته، واقتفاء

أثره، فإذا فعلوا ذلك أنجز لهم ما وعدهم. كما قال عز وجل : **﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾.**

قال تعالى : **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾.**

وقال : **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾.**

وكما مدحهم وأثنى عليهم، كما يقول : **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله﴾.**

وقال عز وجل : **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾.**

وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأضافه إلى الإيمان والاقرار لمعرفته، وأمر بالجهاد عليه، والدعاء إليه، قال تعالى : **﴿قاتلوا الذين لا يومنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق﴾.**

وفرض قتال المعاندين على الحق، والمعتدين عليه وعلى من آمن به وصدق بكتابه حتى يعود إليه ويفيء، كما فرض قتال من كفر به وصد عنه حتى يؤمن ويعترف بشرائعه، قال تعالى : **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر لله، فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾.**

فهذا عهد لله إليكم وميثاقه عليكم، بالتعاون على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، فرضا من الله واجبا، وحكما لازما، فأين عن الله تذهبون ؟ وأنى توفكون ؟

وقد خانت جبابرة في الآفاق شرقا وغربا، وأظهروا الفساد وامتلأت الأرض ظلما وجورا، فليس للناس ملجأ ولا لهم عند أعدائهم حسن رجاء، فعسى أن تكونوا معاشر إخواننا من البربر اليد الحاصدة للظلم والجور، وانصار الكتاب والسنة، القائمين بحق المظلومين من ذرية النبيئين، فكونوا عند الله بمنزلة من جاهد مع المرسلين، ونصر الله مع النبيئين.

واعلموا معاشر البربر أني أتيتكم، وأنا المظلوم الملهوف، الطريد الشريد، الخائف الموتور الذي كثر واتره، وقل ناصره، وقتل إخوته، وأبوه وجده، واهلوه، فأجيبوا داعي الله، فقد دعاكم إلى الله، فإن الله عز وجل يقول : **﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء﴾.** أعاذنا الله وإياكم من الضلال، وهدانا وإياكم إلى سبيل الرشاد.

وأنا إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، عم رسول الله ﷺ، ورسول الله وعلي بن أبي طالب جداي، وحمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار في الجنة عماي، وخديجة الصديقة وفاطمة بنت أسد الشفيقة جدتاي، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وفاطمة بنت الحسين سيد ذراري النبيئين أماي، والحسن والحسين ابنا رسول الله ﷺ أبواي، ومحمد وإبراهيم ابنا عبد الله المهدي والزاكي اخواي.

- هذه دعوتي العادلة غير الجائرة، فمن أجابني فله مالي، وعليه ما علي، ومن أبي فحظه اخطأ، وسيرى ذلك عالم الغيب والشهادة أني لم أسفك له دما، ولا استحللت محرما ولا مالا، واستشهدك يا أكبر الشاهدين واستشهد جبريل وميكائيل أني أول من أجاب وأناب، فلبيك اللهم لبيك مزجي السحاب، وهازم الأحزاب، مصير الجبال سرابا، بعد أن كانت صما صلابا، أسألك النصر لولد نبيك، إنك على كل شيء قدير، والسلام.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

وما زال المغاربة منذ هذه البيعة الإدريسية إلى اليوم وهم متشبثون بهذا النظام ولا يبغون عنه بديلا حيث تعاقب عليه ملوك عظام في السياسة والحرب التحموا في السراء والضّراء مع الشعب فدافعوا عنه وظهر هذا الالتحام

جليا في كل الأحداث المصيرية وذلك في الدفاع عن حوزة الوطن ضد البرتغاليين والاسبان والانجليز والفرنسيس قديما وحديثا نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الملك المرابطي يوسف بن تاشفين بطل معركة الزلاقة بالأندلس عام 1086 م والملك الموحدي يعقوب المنصور بطل معركة الأرك بالأندلس عام 590 هـ والملك المريني يوسف المريني الذي انتصر على جيش قشتالة بالأندلس سنة 1275 م والملك السعدي عبد الملك بطل معركة وادي المخازن عام 557 هـ - 1578 م والملك العلوي المولى اسماعيل محرر طنجة من قبضة الانجليز عام 1684 م والمولى محمد بن عبد الله محرر الجديدة من قبضة البرتغال عام 1769 م ومحمد الخامس بطل التحرير والاستقلال وابنه جلالة الملك الحسن الثاني قائد المسيرة الخضراء ومحرر الصحراء.

وحيث عرف شعبهم بطول تجاربه وثاقب بصره وشدة ذكائه أن هذا العرش هو الضامن لعقيدتهم ومذهبهم وتوحيد بلادهم وعناصرهم المتكونة من عرب وبربر (برابرة وسوسيين وريفيين) وأندلسيين وصحراويين وزنوج لحسم كل عوامل التفرقة والتصدع بينهم...

وللعرش المغربي فوق هذا وذاك فضل كبير في نشر الإسلام في ربوع افريقيا الغربية وفي نجدة المسلمين بالأندلس لإعلاء كلمة الله ولولا انتصار العرش المغربي على ملك البرتغال دون سيبستيان وعلى جيوشه الجرارة في معركة وادي المخازن عام 575 هـ - 1578 م لصارت افريقيا الغربية كلها مسيحية وبقي البرتغال دولة عظمى تصول وتجول في المغرب والمشرق. وهذا العرش المغربي العتيد الذي ساد وشاد، منذ تأسيس المولى إدريس الذي وطد أركان الحضارة المغربية الإسلامية ووقف على مر العصور وتوالى الدهور كجلمود صخر انكسرت عليه قرون المتآمرين من إسبان وبرتغال وأنجليز وفرنسيس ما زال قائم الأركان وطيد البنيان يسبح الله تعالى في الغدو والاصال فكانوا أمام شموخه وصموده، وجهاده وجلاده، واستقراره واستمراره

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

الرباط : عبد القادر القادري

المراجع العربية :

□ حاضر العالم الإسلامي :
تعليقات شكيب أرسلان
□ تاريخ افريقيا الشمالية :
شارل أندري جوليان
□ تاريخ الدولة العلية العثمانية :
محمد فريدبك
□ الإسلام والثقافة العربية في افريقيا :
الدكتور حسن أحمد محمد
□ الدولة الإسلامية :
ابراهيم أحمد العدوي ومن معه
□ تاريخ الدول الإسلامية بآسيا :
الدكتور محمود الساداتي
□ العالم :
عمر رضا
□ الموسوعة الإسلامية :
حسن الإمام
□ انتشار الإسلام في افريقية :
الدكتور علي ابراهيم حسن
□ الإسلام في ممالك افريقيا السوداء :
جون جوزيف
□ القاموس الإسلامي :
أحمد عطية
□ مجلة الهلال العربي والإسلام عام 1939 :
فليب حتي
□ موجز تاريخ العرب :
□ الإسلام السياسي :
□ الحادي بأخبار ملوك الغرب الحادي :
□ تاريخ الشعوب الإسلامية :
بروكلمان
□ الإسلام في آسيا الوسطى :
الدكتور أحمد محمود

المراجع الفرنسية :

* L'Islam en asie
Jean paul Raux
* Liodeman. Histoire de l'empire ottoman
* Djalal Essâd, constantilipe, de Bysance à Stamboul.
* Boulane Lacoste, Au pays sacré des anciens Turcs et des mongols.
* Schlumberger (guslane) Le Siège, la prise et le sac de constantilope par les Turcs en 1453.
* Histoire de la Turquie colonel Lemouche
* Histoire du maroc N. Bagssière
* L'empire des Steppes René gronssit
* Précis d'histoire des dynasties marocaines
Jules grigner
* La lutte contre les Turcs Paul coles
* Les Tourougs de Hoggor Lhat



في غمرة الاحتفالات بعيد العرش المجيد الذي تخلّده مدن وقرى المملكة المغربية، توحي هذه المناسبة بأشياء وأشياء كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، **المبادرة الجريئة التي قام بها سكان مدينة مراكش الحمراء ـ مدينة المبادرات ـ شيبهم وشبابهم استجابة للفكرة الطيبة التي نادى بها محمد صالح ميسة صاحب مجلة (المغرب)، والتي يدعو المغاربة إلى الاحتفال بذكرى تولية المغفور له جلالة الملك محمد الخامس، واعتبار يوم جلوسه على عرش أسلافه عيدا وطنياً، يبرهن المغاربة بجميع مستوياتهم عن ولائهم للعرش المغربي. وقد لاقت هذه الفكرة** استحسان الناس، وتجاوباً تلقائياً منبعثاً عن حب مكين، وإخلاص صادق للعرش والجالس عليه. فبادر أبناء مراكش الأحرار ـ يتحدّون الحكومة الفرنسية التي لم تستطع إيقاف رغبات الشعب المراكشي الذي وقف وقفة الصمود والتحدي في وجه قوتين كبيرتين، القوة الفرنسية، وسلطة الباشا الكلاوي ـ إلى تكوين لجنة من الأدباء والأعيان يعهد إليها بث هذه الفكرة في أذهان العديد من سكان مراكش، وإبراز المغزى الوطني والاجتماعي لهذا العيد الذي يعتبر عيد التلاحم بين العرش والشعب، فاستحسن الجمهور المراكشي هذه البادرة الطيبة التي سيعبرون من خلالها عن شعورهم الصادق، وحبهم الكبير للدولة العلوية. فاختارت اللجنة من يشرف على تحقيق هذه الأمنية الغالية، نذكر منهم السادة : عبد الكريم الديوري، محمد الملاخ، الحاج محمد بن داوود، الحاج عمر السنتيسي، عبد الرحمان بنشقرون، العربي بنيس.

وأجمع رأيهم أن يكون الاحتفال بقسارية السمارين لكبرها وسعتها، فزينوها أحسن زينة، وعلقوا الرايات وصور صاحب الذكرى في الواجهات، وأفرشت أرضيتها بالزرابي.

لكن الشيء الذي يلفت الأنظار في هذا الاحتفال، والذي أضفى عليه حلة ميزته عن باقي الاحتفالات الأخرى التي أقيمت في كل من سلا والرباط وفاس هو تهييء مجموعة من الملابس وتوزيعها على ما يربو على ألف مسكين ويتيم وعاجز، كما صنعوا لهم طعام الكسكس، وقد رَوَى لي السيد العربي بنيس أحد أعضاء اللجنة الوطنية أنهم هيئوا أربعة أطنان من الكسكس، وخمسين قصعة (كَصرية)

لإطعامهم وإشباع جوعتهم، وإدخال السرور عليهم في هذا اليوم السعيد. وكان يطبخ كل هذا بمنزل بسوق الجلد بالطالعة.

وبعد ذلك شرعوا في قراءة القرآن الكريم، ووزعت كؤوس من الشاي والحلويات على الحاضرين، ثم انطلق الجوق الأندلسي يتحف الحاضرين بأعذب الأغاني والمعزوفات، تتخلل كل هذا أناشيد وطنية.

وفي ختام الحفل قامت جماعة من الشباب المراكشي بقراءة النشيد الملوكي، بعد ذلك ذهب وفد إلى القصر الملكي لتقديم التهاني لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم محمد الخامس الذي كان مقيما بمراكش الزاهية.

والحقيقة أن هذا اليوم كان يوماً مشهوداً في تاريخ مراكش قضَّ مضجع المستعمر، وأفقده صوابه.

وقد نوهت الصحف المغربية آنذاك بمبادرة مراكش الوطنية والاجتماعية، ودعت باقي المدن المغربية إلى الاقتداء بأبناء الحمراء.

جاء في جريدة السلام العدد 5.السنة 1 صفحة 3 ـ 4 : «... **حري بأبناء المغرب أجمع أن يقتدوا بعمل مراكش الإنساني في هذا اليوم الخالد».**

أما جريدة المغرب السنة 2 العدد 15 ديسمبر 1933، فقد نوهت هي الأخرى بما قامت به مراكش من أعمال البر والإحسان : «... ولأجل هذا فإنا نتمنى من بين المشاريع التي نحتاج إليها أن يؤسس بمناسبة عيد جلوس صاحب الجلالة الشريفة أيده الله وخلد ذكره على عرش المغرب (صندوق) برسم هذا العيد السعيد تعمل له الأمة جمعاء، كل على حسب مقدوره، ويكون دخله لمشاريع البر والإحسان، الأمر الذي عمل به المراكشيون في حفلتهم التي أقاموها بالقصارية...».

وقد استطاع شاعر الحمراء الأستاذ محمد بن ابراهيم أن يخلد هذه المناسبة السعيدة في قصيدة له تحت عنوان :

عرش القلوب

ملك تربع فوق عرش قلوبنا
قبل العروج لعرشه المنصوب
ذكر الأنام أصوله وخصاله
فأضاف مورثنا إلى مكسوب
إن واعدته بالوفاء قلوبنا
ما كان وعد الحر بالمكذوب
انبض بعيد العرش مسرة
للشعب من شبانه والشيب
اليوم عيد التاج تاج محمد
ظل الأنام وسؤله المرغوب
أكرم به عيدا تجلى طلعة
للقاك بالتأهيل والترحيب
ولتفخر الحمرا ويفخر أهلها
من كل ناء منهم وقريب
بمزية السبق التي نالت به
سنا اليوم يوم فخارها المنسوب

وبهذه الأبيات يسجل شاعر الحمراء مبادرة مدينة مراكش في الاحتفال بهذا اليوم المنشود، وتخليد هذا العيد السعيد الذي يعتبر رمز هذه الأمة.

ويقول في قصيدة أخرى تحت عنوان :

«هكذا تسمو الملوك»

تأخرت عن صوغ القريض له قصدا
لكي يمدحوا جمعا وأمدحه فردا
فحبي له وحدي يعادل حبهم
جميعا وشعري فاق شعرهم عدا
بلى كل فرد لايرى غير ما أرى
فليس يرى في حب مالكه ندا
فما نظموا فيه القوافي لآلئا
بلى نظموا حبات قلبهم عقدا

ومـا هتفـوا بـاسم المليـك، وإنمـا
بصيحـاتهم ذابت عـواطفهم ودا
مليـك حبـاه اللـه حب بـلاده
فهـامت بـه حبـا ونـالت بـه رشـدا
ولـولاه لم تبصر من النـور طلعـة
وبـالعلم والعرفـان لم تبلـغ القصـدا
خبـا نـورهـا دهرا طـويـلا وإنمـا
بطلعتـه الغراء قـد أشرقت مجـدا
فـدم سيـدي للشعب قرة عينـه
وذكرك بـالتقـديس متخـذ وردا
سيبقيـك رب العرش للعرش مفخرا
ويبقيـك يـامـولاي مـوئلنـا الفردا

☆ ☆ ☆

ومنـذ هـذا اليوم بـدأ الشعراء يخلـدون هـذه الـذكرى المجيـدة في شعرهم، ويترجمـون صـدق عـواطفهم، ونبـل مشـاعرهم، نحـو العرش العلـوي. نـذكر منهم الأديب الفنـان مـولاي أحمـد النـور الـذي ترجم عـواطف الشعب المراكشي بقصيدتـه التي نـالت الجـائزة الأولى، والتي أذيعت على أمواج الإذاعة، بعد أن وضع لها لحنا مناسبا ردده في شكل حوار ثلاث تلميذات هن : حليمة، سعاد، وديعة.

مجـد على قمم العروش وطيـد
تعنـو لبـاذخـه الملـوك الصيـد
أعلى جـدودك مبتنـاه كمـا بنت
قبـل آبـاء لهم وجـدود
يرث الهمـام عن الهمـام ويقتفي
إثر المجيـد إلى العـلاء مجيـد
لم يبرح التـاريـخ يعلي شـأنهم
صعـدا ويرفـع ذكرهم ويشيـد
يـاحبـذا المجـد الـذي أورثتـه
ولخير من ورث الجـدود حفيـد

☆ ☆ ☆

مـا كـان أعـذبـه حـوارا أفعمت
بـالسحر أقـوال بـه وردود
قـد دار بين ثـلاث طفـلات رعى
تعليمهن أب لهن رشيـد
فطفقن يـذكرن المليـك وإن حـ
ـب جميعهن شـديـد
رددن ذكره في الحـوار فلم يقف
بي السير إلا ذلـك الترديـد
ووقفت مستمعـا لهن وإنمـا
كلمـاتهن اللـؤلـؤ المنضـود

بعد أن عبرت كلا من حليمة وسعاد عن رأيهما في مأسـاة البنـات والبنين، ومـا يتخبطوا فيـه من جهل، يـأتي دور وديعة لتعيد الإطمئنان إلى النفوس القلقة المضطربة، والأمل بعد اليأس :

قـالت وديعـة : بـالقـول رائـع
لـو لم يشبـه تشـاؤم منقـود
أقـوال حـق قلتمـا لاكنهـا
فيهـا علـو داحض مردود
إن تبلـا فلشعبنـا مستقبـل
بـالعلم مـزدهر الرحـاب سعيـد
بـذر المليـك نـواتـه فليرضـه
من شعبـه الإكبـار والتمجيـد
افـديـه من ملـك يحف بعرشـه
كـالجنـد نصر اللـه والتـأييـد

ثم يختم هـذه الرائعة بتهنئة جلالة الملك المرحوم محمد الخامس :

فليهنئ الملـك الفتى بنهـوضـه
بـالعلم فتـح في القلـوب جـديـد
وليهنئنـه يـوم عيـد صعـوده
يـوم أغرّ مشهر مشهـود
يجلي ولاء الشعب فيـه لـه كمـا
تجلى بلبـات النحـور عقـود

ويعش ولي العهــــد مكلــوءا لـــــه
في أوج آفـــاق العلـــوم صعـــود
وليحي اخــــوتــــه الكرام يضمهم
عيش ظليـل بـــالهنـــاء رغيـــد

☆ ☆ ☆

وتستمر منافسة الشعراء في تجويد قصائدهم وسبكها في قالب يتناسب وعظمة العيد الوطني، وتتوالى القصائد تترى لتترجم للملك عن عظيم حبها للأسرة العلوية.

فالأديب الشاعر أبا أحمد بوستة المراكشي يصور بصدق الابتهاج الذي يطبع الكون وما حوى :

بشـــائر السعـــد والإقبــــال تقترب
ومنيــــــة النفس حين القرب ترتقب
تـــــــــأرج الروض وافترت أزاهره
وانطـــق الطير في أدواحـــــه الطرب
وأعين النـــاس قرت بـــالـــذي نظرت
وشنف السمع مـــا زالت بـــه الكرب
مـــــا ذاك إلا اغتبـــاط الكـــون
إقبــــال يــوم لـــه الأشـــواق تلتهب
وعيـــد مغربنـــا الغـــالي وبغيتـــه
لعرش مـــالكنـــا المحبـوب ينتسب
محمـــد بهجـــة الـــدنيـــا وروتقهـــا
ومن لـــه المجـــد أصل، والعلا حسب
يـــاصـــاحب العرش دم للعرش تسعـــده
وعش سعيـــدا بـــه تسمو لـــك الرتب
مشـــواك في القلب أني سرت اضلعنـــا
تحنـو عليـــك وتحبـو نحـوك الركب

☆ ☆ ☆

العرش عرشـــك لم ترحـل لبغيتـــه
بـل كـان يرنـو إليـــك وهـو منتصب
العرش وافـــاك ســـاعيـــا يمـد يـدا
ومنـــذ أنشئت وهـو منـــك يقترب
العرش ألبســـــك الحسنى تبـــوؤه
ونيـــل حين الجلـــوس الســـؤل والطلب
العرش زادك رفعـــة سمـــوت بهـــا
وخـول الرأس تـــاجـــا ليس يكتسب
العرش عروتنـــا الـــوثقى وقبلتنـــا
وللرجـــا والأمــــاني الحبـل والسبب

☆ ☆ ☆

ونلتقي مع الأديب الشاعر مولاي الصديق العلوي وهو يصور جلال العيد وما تحقق في ظل الجالس على العرش من عز وكرامة :

ردد فـــــداك البلبـــل الغريـــــد
لحن الـــولاء أتـــــاك العيـــــد
عيـــد يطـوف بـــه الجـلال ومن عـزا
ثمنـــا يطـوف بربـــه التـــأييـــد
عيـــد إذا التـــاريـــخ هـز صحـــائف الـ
ـعظمـــاء كـــان نصيبـــه التمجيـــد
يطـوي الـزمـان وينشر التجـديـد في
شعب بـــأشراك الخمـــول مصيـــد
يكسـو الأريكـة بـالجـلال مطـارفـا
يختـــال فيهـــا الشعب كيف يريـــد
شـاد الملـوك الصيـــد فيـــه مفـــاخرا
أكرم بمـــا شـــاد الملـوك الصيـــد
تبني العروش على الـــدعـــاة وتنقضي
وعلى صروح المجـــد هـــذا مشيـــد

ويقول في قصيدة حسنية :

حييت عيـــدك بـــالقريض الشـــاعر
ونظمت فيـــه عـــواطفي ومشـــاعري
في كـل عـــام ترتـدي الـدنيـــا بـــه
نفحـــات مجـــد من لقـــائـــك زاهر
خطـواتـــــه شتى على نهـج التقـــد
م مـــالهـــا من جـاحـــد أو ســـاتر

فـانظر فـدنيـا الشعب يـوم قـدومـه الـ
ـميمـون كـالروض الجميـل العـاطر
أبـدا يقـود خطى البـلاد إلى العـلا
ويرد عنهـا الشر رد السـاهر

☆ ☆ ☆

مـولاي هـذا العرش رهن وجـودنـا
وملاذنـا من حـاسـد ومغـامر
عشنـا وعـاش جـدودنـا في ظلـه
وتعيشـه الأحفـاد بعـد كـسـائر
أبقـاك ربـك للبـلاد وأهلهـا
وأراك في الأمراء خير مفـاخر

☆ ☆ ☆

كما نلتقي مع أديب آخر كانت له مساهمات في جل المناسبات الوطنية وعبر عما يختلج نفسه من مشاعر الحب والإخلاص ذلك هو : الأديب الشاعر أبو بكر الجرموني (الجرني) :

جـلال في جـلال وارتقـاء
وشعب لايضـام ولا يسـاء
وآلاء من الرحمـان تترى
يـدوم بهـا لملككم الـولاء
وآيـات جلـون سنـا نبـوغ
سما بـه في الـورى لكم ذكـاء
وأسرار معطرة تجلت
يـزين جـلالكم منهـا رواء
وهـالـة قـد سيـات حق منهـا
عـلاك سنـا فحق لـك الهنـاء
وأخـلاق من المـولى خصصتم
بهن وذاك منـه لكم عطـاء
حبـاك اللـه منـه مـلاك خير المـ
ـزايـا فـامنـه مـلاك خير المـ
ـزايـا فـازدهى الشعب الحبـاء

فراح مثبتـا أركان عرش
فراقـده بهـا الـدنيـا تضـاء

☆ ☆ ☆

أبـوكم قـد جـلا ظلم الليـالي
ومنكم سـوف ينبلـج الضيـاء
أبـوكم كان فينـا وهـو بـدر
وأنتم بعـده فينـا ذكاء
أبوكم قـد محـا سـدم الـديـاجي
ومنكم سـوف ينبثـق الرجـاء
أبـوكم قـد أشـاد وبنى فـأعلى
وسـوف يـزيـد بعـد بـك البنـاء

☆ ☆ ☆

أجـل يـا أيهـا الحسن المرجى
سـلامـا يـزدهى بـه الارتقـاء
رقيت العرش إذا أوتيت ملكا
وفـوق أريكـه راق استـواء
وبـو يعتم فهبَّ الكـون طرا
يبـارك مـا استبـان بـه الـولاء
ويرفـع مخلصـا أعلى التهـاني
لـدتكم فيمليهـا الفنـاء

☆ ☆ ☆

ونختم هذه الخاطرة بأبيات من قصيدة عرشية للأديب الشاعر دنيا مولاي الطيب المريني :

دعتنى المعـالي أن أزف لـك الشعرا
وأنشدت حبـا وقـد جـدت الـذكرى
ومـا كانت الـذكرى اليـوم تربعت
جـلالتكم فيـه سـوى النعمـة الكبرى

فهـل يـــاترى يستصعب الشعر شـــاعر
وقــد نطقت أعمــالكم بــالــذي يــدرى
وهبني أفضت القــول جهــد بــلاغــــة
فهـــل أستطيـــع الــوصف أو أدرك الحمرا

وبهذا العرض الموجز مع رحلة الكلمة الشاعرة التي ترجمت لنا مشاعر الصدق والوفاء للعرش العلوي، وخدمت القضية المغربية، وبث الوعي الوطني في الأوســاط المراكشية التي كانت تواكب مثل هذه المناسبة، وتسهر على تخليدها لتضاف إلى سجلها الحافل بالمفاخر والأمجاد. كما سجلت لهذا الجيل والأجيال التالية مبادرة مدينة مراكش، وبرهنت عن وعي أبنائها، بجسامة المسؤولية الوطنية التي حاول المستعمر أن يحيل بين العرش والشعب.

وبهذا أكون قد أعطيت صورة مصغرة عن حفاوة أبناء مراكش بعيد العرش المجيد منذ سنة 1933 إلى يومنا هذا.

مراكش : أحمد متفكر

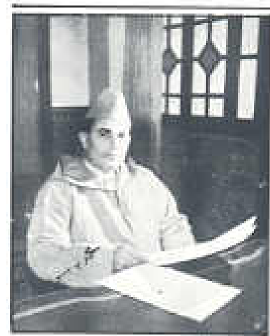


فهرس



...ية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

...رها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط . المملكة المغربية



أسسها :
...لة المغفور لـه
...محمد الخامس
...قدس الله روحه
سنة
...1 هـ — 1957 م

التحرير :
الهاتف : 623.60

الإدارة و التوزيع :
636.93
627.03
627.04
608.10

*

الاشتراكات : في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العالم : 80 درهماً

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 – 55
à Rabat

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3



ياصانعَ "الوحْدة الصُّغرى" بمغربنا
وبانيَ "الوحْدة الكبرى" لها شَمَمُ
المغربُ العربيُّ اليومَ مُحتفِلٌ
بوحدة، أنت فيها الركن والدِّعمُ
والفضلُ فضلُكَ في لَمِّ الشَّتاتِ ففي
رؤاكَ ما هو حقٌّ ليسَ ينقسمُ
فسِرْ بنا نحو غالي المجد يرفعُنا
يَحُفُّكَ النّصْرُ والتوفيقُ والعِظَمُ

للشاعر عبد الواحد أخريف